ج.ك. رولينغ





ج.ك. رولينغ



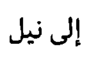
نقلته من الإنكليزية دانيال صالح

نوفل

منصب شاغر

صدر عام 2013 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان.
© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2013
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/HachetteAntoine

تصميم الغلاف: **Mario J. Pulice**
رسم الغلاف: **Joel Holland**
صورة المؤلفة: **Andrew Montgomery/ Wall to Wall Media Ltd.**
تصميم الخطّ العربي واقتباس الغلاف: **بسكال زغبي**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
طباعة: **53 dots**
ر.د.م.ك.: 978-9953-26-792-0



إلى نيل

الجزء الأوّل

6.11 يُعتبر منصبٌ ما شاغرًا بشكل ظرفيّ:

(أ) حين يتغاضى أحد أعضاء المجلس البلدي عن إعلان قبوله المنصب ضمن المهل المحدّدة، أو

(ب) عند تلقّي رسالة استقالته، أو

(ج) يوم وفاته...

تشارلز آرنولد-بيكر
إدارة المجالس المحليّة
الطبعة السابعة

الأحد

لم يكن باري فيربراذر يرغب في الخروج لتناول العشاء. فهو عانى صداعًا فظيعًا طوال عطلة نهاية الأسبوع، وكان يكابد ويسابق الوقت لتسليم مقالته قبل إقفال عدد الصحيفة المحليّة.

غير أنّ زوجته بدت متشنّجة بعض الشيء أثناء الغداء، تتجنّب التحدّث إليه، واستنتج باري أنّ بطاقة المعايدة التي قدّمها لها بمناسبة ذكرى زواجهما لم تخفّف خطورة الجرم الذي ارتكبه، إذ عزل نفسه طوال الصباح في مكتبه. وما زاد الطين بلّة أنّه كان يكتب عن كريستال، كريستال التي لم تكن ماري تستلطفها، ولو أنّها تؤكّد العكس.

«ماري، أودّ اصطحابك لتناول العشاء»، بادرها باندفاعٍ مفتعلٍ، في محاولة لكسر الجليد بينهما. «تسعة عشر عامًا، أيّها الأولاد! تسعة عشر عامًا، وأمّكم أكثر تألّقًا من أيّ وقت مضى!»

انشرحت ملامح ماري قليلًا وابتسمت لباري، فسارع إلى الاتّصال بنادي الغولف، لأنّه كان على مقربة من المنزل، وكان واثقًا بأنّه سيجد فيه طاولة شاغرة يمكنه حجزها. كان يسعى جاهدًا لإرضاء زوجته بوسائل بسيطة كهذه، لأنّه بات يدرك بعد عقدين تقريبا قضياهما معًا، كم كان يخيّب أملها في المسائل الكبرى الهامّة. لم يكن هذا ما يقصده إطلاقًا، لكن كان لديهما تصوّر مختلف تمامًا لما يهمّ في الحياة.

أطفال باري وماري الأربعة تخطّوا السنّ التي يحتاجون فيها إلى حاضنة تلازمهم. كانوا يشاهدون التلفزيون حين ودّعهم للمرّة الأخيرة. وحده ديكلان، الأصغر سنًّا، التفت إليه ورفع يده ملوّحًا له.

كان الصداع لا يزال يطوّق رأسه ويضغط خلف أذنيه، وهو يعود بالسيّارة إلى الخلف عابرًا الممرّ، قبل أن ينطلق وماري في شوارع باغفورد، البلدة الصغيرة الجميلة التي يقيمان فيها منذ زواجهما. انحدر نزولًا في شارع تشيرتش روو الذي تصطفّ إلى جانبَيْه أفخم بيوت البلدة، بيوت من العصر الفكتوريّ تنتصب بأناقتها ومتانتها. انعطف عند الكنيسة المشيّدة بأسلوب يحاكي الهندسة القوطيّة، والتي شاهد ابنتيه التوأمين تلعبان فيها مرّة في مسرحيّة «يوسف ومعطف الأحلام المزركش الرائع»، ثمّ عبر الساحة التي يلوح فيها الدير المهدوم عند أعلى تلّة مطلّة على البلدة، هيكلًا قاتمًا يختلط بالسماء البنفسجيّة.

كلّ ما كان يشغل بال باري وهو يمسك بالمقود بعصبيّة، سالكًا بشكل لاشعوريّ المنعطفات التي اعتادها، هو الأخطاء التي كان واثقًا بأنّه ارتكبها وهو على عجلة من أمره لإتمام المقالة التي أرسلها للتوّ عبر البريد الإلكترونيّ إلى جريدة يارفيل والجوار. كان بطبعه شخصًا منفتحًا ثرثارًا، غير أنّه كان يجد صعوبة في ترجمة أطباعه العفويّة هذه على الورق.

كان نادي الغولف يبعد أربع دقائق فقط عن الساحة، عند النقطة التي تتشتّت فيها البلدة إلى منازل قديمة مبعثرة. رَكَن باري الفان الصغيرة خارج مطعم بيردي التابع للنادي، ترجّل ووقف برهة ينتظر ماري، فيما كانت تضع طبقة جديدة من أحمر الشفاه. شعر بالريح المسائيّة المنعشة تداعب وجهه. راح يتساءل، وهو يتأمّل ملعب الغولف وأطرافه المتبدّدة في عتمة الغسق، عمّا جعله يحتفظ باشتراكه في النادي. فهو لاعب غولف فاشل: ضرْبته للكرة خارجة عن أيّ قواعد مَرعيَّة، وتصنيف أدائه رديء. كانت لديه مشاغل كثيرة. اشتدّ الصداع عليه.

أطفأت ماري ضوء المرآة، خرجت من السيّارة وأغلقت الباب. ضغط باري على زرّ إغلاق الأبواب عن بُعد في حمّالة مفاتيحه. راح حذاءا زوجته

يطقطقان بكعبيهما العاليين على الإسفلت، وبعث نظام إقفال السيّارة صفيرًا. تساءل باري إن كان ذلك الغثيان الذي يتملّكه سيزول حين يتناول الطعام.

في تلك اللحظة، صعقه ألمٌ لم يسبق أن شعر به، ألم فجّر رأسه مثل مهدّة. بالكاد شعر بركبتيه ترتطمان على الإسفلت البارد وهو ينهار أرضًا. غرق دماغه في الدماء والنار. أطبق عليه ألم مضنٍ لا يُحتمَل، لكنّه اضطرّ إلى تحمّله لدقيقة بدت وكأنّها لن تنتهي، قبل أن يفقد الوعي.

راحت ماري تصيح وتولول. هرع عدة رجال من الحانة، ثم عاد أحدهم مهرولًا إلى داخل المبنى ليرى إن كان أحد الأطبّاء المتقاعدين من أعضاء النادي موجودًا. سمع زوجان على معرفة بباري وماري الجلبة من المطعم، فتركا أطباق المقبّلات أمامهما على الطاولة وخرجا مسرعَين ليريا إن كان هناك ما بوسعهما القيام به. اتّصل الزوج برقم الطوارئ 999 على هاتفه الجوّال.

لم يكن هناك سيّارات إسعاف سوى في مدينة يارفيل المجاورة، واستغرق الأمر خمسًا وعشرين دقيقة للوصول إليهما. حين أضاء وميض الكشّافات الزرقاء المشهد، كان باري ممدًّدا على الأرض، هامدًا وفاقد الوعي، وسط قيئه، فيما ماري مقرفصة إلى جانبه، جارباها ممزّقان عند الركبتين، تمسك بيده وهي تتمتم اسمه وتنشج.

الاثنين

1

«استعدّي»، قال مايلز موليسون، وهو جالس في مطبخ أحد المنازل الفسيحة في شارع تشيرتش روو.

انتظر حتّى السادسة والنصف صباحًا ليجري اتّصاله. قضى ليلةً سيّئة لم يعرف فيها السكينة، تخلّلَتها مراحل طويلة من الأرق، تقاطعت مع لحظات خاطفة غرق خلالها في نوم مضطرب. في الرابعة صباحًا، أدرك أنّ زوجته أيضًا مستيقظة، فبقيا لبعض الوقت ممدّدَين في الظلمة يتحدّثان بهدوء. وفيما كانا يناقشان ما شهداه، ساعيَين لتنفيس ذاك الإحساس المُبهم بالفزع والصدمة الذي كان لا يزال ينتابهما. كان مايلز يشعر بارتعاشات طفيفة لذيذة من الإثارة تدغدغه وهو يفكّر كيف سينقل الخبر إلى والده. كان ينوي الانتظار حتّى السابعة صباحًا، غير أنّه خاف أن يسبقه أحدٌ ويزفّ النبأ، فاندفع نحو الهاتف قبل أن تحين الساعة.

«ما الذي يجري؟» زعق هاورد بصوته الحادّ. كان مايلز حوّل المكالمة على مكبّر الصوت حتّى تتمكّن سامانثا من سماع الحديث. كانت زوجته ترتدي مبذلًا زهريًّا فاتحًا متباين اللون مع بشرتها النحاسيّة الداكنة، وقد اغتنمت فرصة نهوضها باكرًا لتطلي وجهها مجدّدًا بطبقة سخيّة من مستحضر التسمير الذاتيّ حتّى تزيد حدّة سمرتها التي بدأت تتلاشى. كان المطبخ يعبق برائحة القهوة، تختلط برائحة جوز الهند الصناعيّ.

«فيربراذر مات. سقط ميتًا أمام نادي الغولف الليلة الماضية. كنت أتناول العشاء مع سام في مطعم بيردي.»

«فيربراذر مات؟» صاح هاورد.

أوحت نبرة صوته بأنّه كان يتوقّع تطوّرًا جذريًا ما في أوضاع باري فيربراذر، غير أنّ احتمال موته لم يخطر له.

«انهار أرضا في موقف السيارات»، ردّد مايلز.

«يا إلهي، قال هاورد. كم يبلغ هذا الشابّ من العمر؟ أربعون عامًا بالكاد، أليس كذلك؟ يا إلهي!»

سمع مايلز وسامانثا هاورد يلهث مثل جواد منهك بعد سباق. إنّه يستيقظ على الدوام فاقدًا أنفاسه.

«ما الذي أصابه؟ نوبة قلبيّة؟»

«عارضٌ ما في الدماغ، هذا ما يعتقدون. رافقنا ماري إلى المستشفى و...»

غير أنّ هاورد لم يعد ينصت. سمعه مايلز وسامانثا يتكلّم بعيدًا عن السمّاعة.

«باري فيربراذر! توفّي! هذا مايلز على الهاتف!»

راح مايلز وسامانثا يرشفان قهوتهما في انتظار أن يعود هاورد الى الهاتف. انفتح مبذل سامانثا إذ جلست إلى طاولة المطبخ، كاشفا عن نهديها السخيّين المستكينين فوق ذراعيها. بدَوا، وهما مضغوطان هكذا إلى الأعلى، أكثر امتلاءً وطراوة ممّا كانا عليه وهما يتدلّيان بدون حمّالة. كانت تشقّقات رقيقة تتوزّع على بشرتها الملوّحة عند أعلى صدرها، تشقّقات لم تعد تزول حتّى حين لا تكون بشرتها مضغوطة. لطالما أسرفت في شبابها في استخدام السولاريوم.

«ماذا؟ سأل هاورد وقد عاد إلى الهاتف، ماذا قلتَ عن المستشفى؟»

«صعدنا أنا وسام في سيّارة الإسعاف، قال مايلز وهو يتعمّد النطق بوضوح، مع ماري والجثّة.»

لاحظت سامانثا أنّ مايلز كان يشدّد في روايته الثانية هذه للوقائع، على ما يمكن وصفه بالنسخة الثرثرية للقصة. لم تكن سامانثا لتلومه على

ذلك. فهما عاشا تجربة مروّعة، ومن العدل أن يفوزا بعد ذلك بالحقّ في سردها على الآخرين. سيبقى المشهد مطبوعًا في ذاكرتها إلى الأبد: ماري تنتحب، عينا مايلز لا تزالان مفتوحتين فوق قناع الأوكسيجين الأشبه بكمّامة، هي ومايلز يحاولان استقراء التعابير على وجه المسعف، الارتجاجات داخل حجرة سيّارة الاسعاف الضيّقة، الزجاج الداكن، الذعر.

«يا إلهي»، ردّد هاورد للمرّة الثالثة وهو يركّز اهتمامه بالكامل مع مايلز، متجاهلًا شيرلي التي سُمِع صوت أسئلتها الخافتة على مقربة منه.

«سقط ميتًا على أرض الموقف؟ هكذا، فجأة؟»

«أجل»، قال مايلز. «ما أن رأيته حتّى أدركت أنّه لم يعد هناك ما يمكن القيام به لإنقاذه.»

كانت هذه أول كذبة يتفوّه بها، وأشاح بنظره عن زوجته ليقولها. عاودتها صورته وهو يضع ذراعه الضخمة حول كتفي ماري مطمئنًا، ويقول لها «سوف يكون بخير... سوف يكون بخير...».

لكن عليها أن تنصفه. فكيف كان له أن يعرف إن كان سينجو أم لا، وهم يضعون له أقنعة ويحقنونه إبرًا؟ بدا لهما أنّ المسعفين يحاولون إنقاذ باري، ولم يدرك أيّ منهما أنّ الأمر ميؤوس منه إلّا عندما اقتربت الطبيبة الشابّة من ماري في المستشفى. تذكر سامانثا المشهد بوضوح رهيب: الذهول على وجه ماري العاري الأعزل، الهدوء والترقّب في تعبير المرأة الشابّة بنظّارتيها وشعرها الأملس وردائها الأبيض... مشهد يعرضونه باستمرار في المسلسلات التلفزيونيّة، لكن حين يحصل في الحقيقة...

«لا، إطلاقًا»، كان مايلز يقول حين عادت تصغي إلى الحديث. «لعب غافين معه السكواش نهار الخميس.»

«وبدا بحالة جيّدة يومها؟»

«تمامًا، لا بل سحق غافين.»

«يا إلهي، يا لها من حياة، أليس كذلك؟ يا لها من حياة! مهلًا، والدتك تريد أن تكلّمك.»

سمع طرقة تلَتْها طقطقة، ثمّ ارتفع صوت والدته العذب في السمّاعة.

«مايلز، إنّها صدمة رهيبة»، قالت. «هل أنت بخير؟»

كادت سامانثا تختنق وهي تبتلع جرعة من القهوة. انساب بعضها من زاوية فمها وسال على ذقنها، فراحت تمسح وجهها وصدرها بكمّ مبذلها. اتّخذ مايلز صوته المعهود حين يكلّم والدته: صوت أعمق نبرة من العادة، حازم وقاطع، صوت مَن يسيطر على الوضع ولا يمكن شيئًا أن يربكه. يحصل لسامانثا أحيانًا، وخصوصًا حين تكون ثملة، أن تقلّد الأحاديث بين مايلز وشيرلي. «لا تقلقي أمّي، مايلز هنا. جنديّك الصغير.»، «حبيبي، إنّك رائع. كم أنت كبير وقويّ وذكيّ.» وصل الأمر بسامانثا مؤخّرًا أن قدّمت عرضها الهزليّ الصغير هذا مرّة أو مرّتين في العلن، ما أغضب مايلز ووضَعه في موقع دفاعيّ، ولو انّه شاطر الحاضرين الضحك ظاهريًا. وفي المرّة الأخيرة، اندلع شجار بينهما في السيّارة، في طريق العودة.

«ذهبتما معها طوال الطريق حتّى المستشفى؟» سألت شيرلي عبر مكبّر الصوت.

«لا»، قالت سامانثا في سرّها، «بل سئمنا في منتصف الطريق وطلبنا من السائق أن يوقف سيّارة الإسعاف حتى نخرج!»

«هذا أقلّ ما يمكن. وددتُ لو كان بوسعنا القيام بالمزيد.»

نهضت سامانثا وتوجّهت إلى مِحمَصَة الخبز.

«إنّني واثقة بأنّ ماري كانت ممتنّة للغاية»، قالت شيرلي. فتحت سامانثا بخشونة غطاء وعاء الخبز، وحشرت أربع شرائح من الخبز في فتحتَي المِحمَصة. استعاد مايلز بعضًا من نبرة صوته الطبيعيّة.

«أجل»، تابع. «إذًا، بعدما أعلن الأطبّاء... أو بالأحرى أكّدوا وفاته، أرادت ماري أن يحضر كولين وتيسا وول. اتّصلَت سام بهما وانتظرنا إلى أن وصلا، ثمّ غادرنا.»

«حسنًا، من حسن حظّ ماري أنّكما كنتما هناك، ختمت شيرلي. والدك يريد أن يقول لك أمرًا آخر، مايلز. سوف أعطيه السمّاعة. نتكلّم لاحقا.»

«نتكلّم لاحقًا»، تمتمت سامانثا لغلّاية الماء مقلّدةً شيرلي، وهي تهزّ رأسها يمينًا ويسارًا. عكست لها الغلّاية المعدنيّة صورتها مشوّهةً. بدا وجهها

منتفخًا بعد ليلةٍ أرِقَةٍ، وعيناها البنيّتان الداكنتان حمراوان من شدّة التعب. في عجلتها للحضور، خشية أن تفوّت مشهد مايلز وهو يعلن الخبر لهاورد، مرغت سامانثا بدون انتباه بعض مسحوق التسمير على طرفَي جفنَيها.

ارتفع صوت هاورد. «ما رأيك لو تأتي مع سام هذا المساء؟ آه! لا، مهلًا، والدتك تذكّرني بأنّ لدينا لعبة بريدج مع الزوجين بالجن. يمكنكما أن تأتيا غدًا. نتناول العشاء معًا. حوالى الساعة السابعة.»

«ممكن»، ردّ مايلز وهو يرمق سامانثا. «عليّ أن أرى مع سام إن لم يكن لديها برنامجٌ ما.»

لم تعطه أيّ إشارة توضح له ما إذا كانت ترغب في الذهاب أم لا. خيّم إحساس غريب بالخيبة في المطبخ، فيما أقفل مايلز الخطّ.

«أصيبا بذهول تامّ»، علّق وكأنّها لم تسمع الحديث.

تناولا الفطور والقهوة بصمت مطبق. تبدَّد بعضٌ من عصبيّة سامانثا وهي تلتهم شطائرها. تذكّرت كيف استيقظَت جافلةً في وقت باكر والظلام لا يزال يلفّ غرفة النوم، وكيف انتابها ذلك الإحساس العبثيّ بالطمأنينة والامتنان إذ أحسّت بمايلز إلى جانبها، بجسده البدين المتكرّش يبعث رائحة عطر رجاليّ بالأعشاب ممزوجٍ برائحة عرق جفّ من الأمس. ثمّ تصوّرت نفسها في المحلّ، تروي للزبائن كيف رأت رجلًا يسقط أرضًا أمام عينيها، ثمّ كيف هرعوا به إلى المستشفى. خطرت لها أساليب عديدة لسرد مختلف وقائع ذلك اليوم، وصولًا إلى اللحظة المفصليّة مع الطبيبة. شباب تلك المرأة الفتيّة الواثقة بنفسها زاد فظاعة الموقف برمّته. يجدر بهم أن يكلّفوا شخصًا أكبر سنّا بمثل هذه المهمّة. ومع استعادة معنويّاتها تدريجيًا، تذكّرت أنّ لديها موعدًا في الغد مع مندوب المبيعات من منتجات شامبيتر. بدا وكأنّه يتودّد إليها على الهاتف، وقد استساغت ذلك.

«عليّ أن أُسرع»، قال مايلز وهو يبتلع ما تبقّى من قهوته، محدّقًا إلى السماء التي بدأت تشرق خلف النافذة. أطلق تنهيدة عميقة وربّت كتفَ زوجته وهو يتوجّه نحو غسّالة الصحون حاملًا طبقه وكوبه الفارغين.

«ربّاه! هذه المسألة تبعث على إعادة تقييم الأمور، أليس كذلك؟»

هزّ رأسه بشعره الشائب المقصوص قصيرًا، وخرج من المطبخ.

كانت سامانثا تجد زوجها مثيرًا للسخرية أحيانًا، ومملًا بشكل متزايد. غير أنّها، بين الحين والآخر، تستطْيب سلوكه الطنّان، تمامًا مثلما تهوى في بعض المناسبات الهامّة اعتمار قبّعة. وفي مطلق الأحوال، كان من الملائم، في صباح كهذا، لزومُ الرزانة وقدرٌ من الوقار والرسميّة. أنهت شطيرتها وأزالت أطباق الفطور عن الطاولة، وهي تضع في ذهنها اللمسات الأخيرة على القصّة التي تعتزم سردها على مساعِدتها.

2

«باري فيربراذر مات»، أعلنت روث بيرس لاهثة.

قطعت الممرّ الصغير وسط الحديقة، وهي تكاد تعدو مسرعة في الجوّ البارد حتّى تكسب بضع دقائق إضافيّة مع زوجها قبل أن يذهب إلى عمله. لم تتوقّف في الرواق عند الباب لتخلع معطفها وقفّازَيها، بل هرعت مدّثرة واقتحمت المطبخ حيث كان سايمون وابناهما الشابّان يتناولون الفطور.

تسمَّر زوجها تحت وطأة المفاجأة، ثمّ خفض يده ببطء متكلّف، ووضَع قطعة الشطيرة التي كان يستعدّ لتناولها على الطاولة. جالسَين في زيّهما المدرسيّ، قلّب الفتيان النظر بين والديهما، مستغربَين الموقف بعض الشيء.

«أُصيب على ما يبدو بتمدّد في الأوعية الدمويّة»، شرحت روث جاهدة لاستعادة أنفاسها، وهي تنزع قفّازيها إصبعًا إصبعًا، وتحلّ وشاحها، وتفكّ أزرار معطفها. كانت امرأة نحيفة سمراء، بعينين متثاقلتين حزينتين. بدت جميلة في بدلة الممرّضات الزرقاء الغامقة.

«انهار أرضًا في ملعب الغولف... سام ومايلز موليسون نقلاه إلى المستشفى... ثمّ حضر كولين وتيسا وول...»

انطلقت كالسهم إلى المدخل لتعلّق أغراضها وعادت مسرعة لتردّ على السؤال الذي طرحه سايمون عليها من المطبخ.

«ما هو الامتداد في الأوعية الدمويّة؟»

«تمدُّد، اسمه تمدّد. يعني انفجار شريان في الدماغ.»

انحنت بحركة مفاجئة نحو غلّاية الماء، أشعلتها وراحت تمسح فتات الخبز من حول المِحمصَة، وهي تواصل الكلام.

«لا شكّ في أنّه عانى نزيفًا كثيفًا في الدماغ. يا لزوجته المسكينة! امرأة مسكينة حقًّا... إنّها منهارةٌ تمامًا...»

أطرقت روث لبرهة، محدّقة إلى نافذة المطبخ. شردت عيناها في بياض الجليد الناصع الذي يكسو عشب الحديقة، وشرعت في تأمّل الدير في المقلب الآخر من الوادي، هيكلًا صارمًا مخيفًا تحت السماء الزهريّة والرماديّة. من مفاتن منزل هيلتوب هاوس أنّه يطلّ على منظر بانوراميّ رائع. في الأسفل، بدأت باغفورد تظهر جليّة تحت أشعّة الشمس الطالعة وسط برودة الصباح. في الليل تظهر المدينة مجرّد كتلة من الأضواء المتلألئة في فراغ داكن في الأسفل. لكنّ روث لم تكن ترى أيًّا من كلّ ذلك. فكرها لا يزال في المستشفى، عيناها مسمّرتان على ماري وهي تخرج من الغرفة حيث يتمدّد باري، وقد فُصِلت عنه جميع الأجهزة الطبّية التي لم تعد ذات نفع الآن. كانت روث تفيض بالحنان الصادق والعفويّ حيال الذين تتماثل معهم. راحت ماري تئنّ «لا، لا، لا، لا». ذلك الإنكار للواقع الأليم لقيَ أصداءً في نفس روث، لأنّها لمحت فيه ردّ فعلها هي نفسها في وضع مماثل...

التفتت ونظرت إلى سايمون، عاجزة عن احتمال تلك الفكرة. شعره الكستنائيّ الفاتح لا يزال كثًّا، قامته نحيلة كما حين كان في العشرين من عمره، والتجاعيد الصغيرة عند زاويتَي عينيه تجعله يبدو فاتنًا. لكن مع استئنافها العمل في التمريض بعد طول انقطاع، وجدت روث نفسها من جديد في مواجهة ألف طريقة وطريقة لاختلال الجسم البشري. لم تكن تبالي كثيرًا في شبابها، غير أنّها باتت الآن تدرك قيمة الفرصة المتاحة لهم جميعًا بأن يكونوا على قيد الحياة.

«ألم يكن بوسعهم القيام بأي شيء حياله؟» سأل سايمون. «ألم يكن بمقدورهم إعادة سدّ شريانه؟»

كشف صوته عن مشاعر خيبة وإحباط، وكأنّ الأطبّاء أفسدوا الأمر مرّة جديدةً برفضهم اعتماد الوسيلة الأبسط والأكثر جلاءً.

كان آندرو جذلًا، يتابع المسألة بمتعة جامحة وضارية. فقد لاحظ في الآونة الأخيرة أنّ والده بات يردّ على أمّه، حين تستخدم تعابير طبّية، بتلميحات فظّة تنمّ عن جهل وحماقة متعمّدَين. امتداد الأوعية، إعادة سدّ الشريان. لم تتنبّه والدته للّعبة. لم تفعل يومًا. واصل آندرو تناول حبوب الويتابيكس، والكراهية تلهب صدره.

«حين أحضروه لنا في المستشفى، كان الوقت قد فات للقيام بأيّ شيء»، أجابت روث وهي تلقي بضعة أكياس من الشاي في الغلّاية. «توفّي في سيّارة الإسعاف، قبل قليل من وصوله.»

«غير معقول»، قال سايمون، «كم كان عمره؟ أربعون عامًا؟»

لكنّ روث شتّت عن الحديث ولم تسمع سؤاله الأخير.

«بول، شعرك مشعّث تمامًا من الخلف. ألا تسرّحه أبدًا؟»

أخرجت فرشاة من حقيبتها ووضعتها في يد ابنها الأصغر، مرغمة إيّاه على أخذها.

«ألم تكن هناك علامات إنذار مسبق؟» سأل سايمون فيما راح بول يمرّر الفرشاة متكاسلًا في شعره الكثّ.

«يبدو أنّه شعر بصداع قويّ لمدّة يومين.»

«آه!» علّق سايمون وهو يمضغ شطيرته. «وتجاهل الأمر؟»

«أجل، تمامًا، لم يكترث إطلاقًا.»

ابتلع سايمون لقمته وتابع بنبرة وقورة كَمَن يعلن حقيقة مطلقة: «هذا خير دليل، أليس كذلك؟ على المرء أن ينتبه لنفسه.»

يا للحكمة، فكّر آندرو بازدراء شرس، يا لعمق التفكير! إذًا، لا يمكن لفيربراذر سوى أن يلوم نفسه إن كان دماغه انفجر. أيّها الأبله المتعجرف، صاح بوالده داخل رأسه.

أشار سايمون بالسكين إلى ابنه البكر قائلًا: «على فكرة، ثمّة هنا من سيضطرّ إلى البحث عن وظيفة. وجه البيتزا هذا!»

نظرت روث بذهول إلى زوجها، ثمّ التفتت إلى ابنها. كانت بثرات حَبّ الشباب تملأ وجنتيه الحمراوين، شاحبة ولمّاعة. ظلّ آندرو يحدّق إلى قصعته المليئة بالعصيدة الكامدة اللون.

«أجل»، أكمل سايمون. «ذلك النذل الصغير الخمول سيبدأ بجني بعض المال. وإن أراد التدخين، فسيكون بوسعه شراء السجائر من أجره. لن يحصل على أي مصروف بعد اليوم.»

«آندرو!» صاحت روث، «لا تقل لي إنّك...»

«بلى»، قاطعها سايمون. «ضبطته بالجرم المشهود في مخزن الحطب.» كان وجهه يقطّر ضغينة.

«آندرو!»

«لن تحصل على قرش واحد منّا بعد الآن»، قال سايمون. «تريد سجائر؟ حسنًا، إشترها بنفسك.»

«لكنّنا اتّفقنا»، شكت روث، «اتّفقنا مع اقتراب موعد امتحاناته...»

«بعد فشله الذريع في امتحاناته التمهيديّة، سيكون من ضروب الحظّ أن يحصل على أيّ شهادة على الإطلاق. يمكنه أن يبدأ باكرًا بالعمل في مطعم ماكدونالدز، سوف يكتسب خبرة»، قال سايمون وهو ينهض ويدفع كرسيه، مستمتعًا بمشهد آندرو مدلّيًا رأسه، حانيًا وجهه الداكن المبقّع بالبثرات. «اسمعني جيّدًا، غير وارد أن ترسب وتعاود عامك الدراسيّ على حسابنا. إمّا أن تنجح الآن، أو انتهى الأمر.»

«لكن سايمون»، قالت روث بنبرة لوم.

«ماذا؟» أجاب بحنق.

تقدّم سايمون خطوتين نحو زوجته ضاربًا رجليه بالأرض، فتراجعت روث والتصقت بالمجلى. سقطت الفرشاة الزهريّة البلاستيكيّة من يد بول.

«لن أدفع لذلك السافل تكاليف عادته البذيئة! سحقًا! لا يمكنني تصوّر وقاحته! يدخّن تحت سقفي، في مخزن حطبي!»

ضرب سايمون صدره بقبضته بقوّة ليؤكّد على ملكيّته للبيت، فجفلت روث لصوت الصدمة المكمودة.

«حين كنت في عمر ذلك الحقير الصغير المنقّش الوجه، كنت أنا من يجني مصروف البيت. إذا أراد سجائر، عليه أن يدفع ثمنها بنفسه. مفهوم؟ مفهوم؟» كرّر زاعقًا بأعلى صوته.

اقترب من روث حتّى كاد وجهه يلتصق بوجهها.

«نعم، سايمون»، أجابته بصوت خفيض يكاد لا يُسمع.

أحسّ أندرو بأحشائه تسيل. لقد قطع على نفسه وعدًا قبل أقلّ من عشرة أيّام، هل حان الوقت بهذه السرعة؟ لكنّ والده ابتعد عن روث، وخرج غاضبًا من المطبخ إلى الرواق أمام المنزل. بقي الثلاثة في المطبخ صامتين، بدون حراك، وكأنّهم تعاهدوا على الجمود في غيابه.

«هل ملأتِ خزّان السيّارة؟» سأل سايمون صائحًا كما يفعل دائمًا كلّما عادت من دوامٍ ليليّ في المستشفى.

«نعم»، ردّت روث رافعة صوتها، جاهدةً لاتّخاذ نبرة ودودة، طبيعيّة.

طقطق باب المدخل، ثمّ صفق.

انهمكت روث بإبريق الشاي، في انتظار أن تهدأ العاصفة وتعود الأمور إلى طبيعتها. لم تتفوّه بكلمة، إلى أن همّ آندرو بالخروج من المطبخ لغسل أسنانه.

«إنّه قلق في شأنك، آندرو. هو يخشى على صحّتك.»

أجل، أراهن على أنّه قلق، ذلك الحقير، قال لنفسه.

كان آندرو في ذهنه يردّ على شتائم سايمون، فيكيل له الصاع صاعَين. يمكنه في ذهنه أن يسحق سايمون في منازلة عادلة.

لكنّ هذا كان في رأسه، بينما اكتفى بالردّ على والدته: «أجل، صحيح.»

3

إيفرتري كريسنت كان مجمّعًا سكنيًّا من البيوت الصغيرة، شُيّد في الثلاثينيّات من القرن الماضي، على شكل هلال، ويبعد دقيقتين عن ساحة

باغفورد المركزيّة. في الرقم السادس والثلاثين، أقدم بيت مأهول في الشارع بكامله، جلست شيرلي موليسون في سريرها، متّكئة إلى الوسادات التي قوّمتها خلف ظهرها، ترتشف كوب الشاي الذي أحضره لها زوجها. بدت لها صورتها المعكوسة في المرآة المثبّتة على أبواب خزائن الملابس ضبابيّة لأنّها لم تكن تضع نظّارتيها، وبفعل الوهج الرقيق المبهم الذي كان يرشح من الستائر المعرَّقة الزهريّة وينتشر في أرجاء الغرفة. في غبش النور الغائم المداهن، بدا وجهها الورديّ المغمّز ملائكيًا، مكلّلًا بشعرها القصير الفضّي.

كانت الغرفة بالكاد تتّسع للسريرين التوأمين غير المتشابهين المتلاصقين جنبًا إلى جنب، سرير شيرلي المفرد وسرير هاورد المزدوج. كان سرير هاورد فارغًا، غير أن الفراش لا يزال يحمل تجويفة جسده الثقيل. كان بوسع شيرلي سماع الهسيس والخرخرة المنبعثَين من الدوش، وهي جالسة أمام صورتها الملائكيّة في المرآة، تتذوّق الخبر الذي لا يزال يتفاعل في الجوّ، مثل فقّاعات شمبانيا.

باري فيربراذر مات. ولّى. قضى. لما كان أيّ حدث آخر أثار لدى شيرلي مثل هذه الرهبة، هذيْن الاهتمام النهم والترقّب المحموم. لا حرب، لا انهيار في البورصة، لا اعتداءَ إرهابيًا.

كانت تكره باري فيربراذر. بالرغم من أنّ شيرلي وزوجها كانا متّحدين عادة في صداقاتهما كما في عداواتهما، إلّا أنّهما كانا يختلفان بعض الشيء بشأن باري. فهاورد كان يعترف في بعض الأحيان بأنّه يجد طرافة في ذلك الرجل الملتحي الصغير القامة الذي كان يشاكسه بشراسة عبر الطاولات الطويلة المكسوّة بالخدوش في قاعة المجلس البلدي التابعة لكنيسة باغفورد. أمّا شيرلي، فلم تكن تميّز بين السياسة والعلاقات الشخصيّة. باري عارض هاورد في المسعى المحوريّ في حياته، وهذا ما جعله عدوّها اللدود.

كان وفاء شيرلي المُطلَق لزوجها هو السبب الرئيس لبغضها الشرس لباري، لكنّه لم يكن السبب الوحيد. فحدسها تجاه الآخرين كان يرصد أمرًا واحدًا وحيدًا، مثل الكلاب البوليسيّة المدرّبة لاشتمام المخدّرات فقط. كانت تترقّب باستمرار أيّ أثر للغطرسة. وقد اشتمّت رائحتها الكريهة تفوح من سلوك

باري فيربراذر ورفاقه في المجلس البلدي. فيربراذر وأمثاله في العالم يعتبرون أنّ شهاداتهم الجامعيّة تجعلهم أفضل من أمثالهما، هي وهاورد، وأنّ آراءهم وأفكارهم أعلى شأنًا. حسنًا، تلقّت هذه الغطرسة اليوم ضربة في الصميم. وفاته المفاجئة عزّزت لدى شيرلي قناعتها الراسخة بأنّه مهما كان يظنّ هو وزمرته، فهو في الحقيقة أدنى مرتبة وأقلّ بأسًا من زوجها الذي كان له، فضلًا عن كلّ صفاته الأخرى، ما يكفي من الصلابة للتغلّب على نوبة قلبيّة قبل سبع سنوات.

(لم يخطر لحظة لشيرلي أن زوجها هاورد سوف يموت، حتّى حين كان في غرفة العمليّات. وجود هاورد في هذا العالم أمرٌ بديهيّ في نظر شيرلي، مثل نور الشمس والهواء الذي تتنفّسه. وهذا ما ردّدَته لاحقا، حين أخذ الأصدقاء والجيران يتحدّثون عن نجاته بأعجوبة، معتبرين أنّ من حظّه أن تكون وحدة العناية بأمراض القلب على مقربة منهما في يارفيل، ومتحسّرين عليها لما ألمّ بها من قلق رهيب.

«كنت على يقين على الدوام بأنّه سيخرج من هذه المحنة، ردّدت شيرلي للجميع، لم أشكّ في ذلك لحظة.»

وها هو الآن، أفضل حالًا من أي يوم مضى، فيما فيربراذر في المشرحة. هذا ما يثبت أنّها على حقّ.)

في غمرة فرحتها في ذلك الصباح الباكر، استحضرت شيرلي ذكرى اليوم الذي تلا ولادة ابنها مايلز. في ذلك اليوم، قبل سنوات، جلست في السرير مثلما هي اليوم تمامًا، في نور الشمس المنسكب من نافذة الغرفة في قسم الولادة من المستشفى، وبين يديها كوب من الشاي أَحضروه لها، بانتظار أن يحملوا إليها مولودها الرائع لتُطعمه. الولادة والوفاة. وجهان لإحساس واحد، ذلك الإدراك لوجود مضاعف، مكثّف، ولأهميّتها المتزايدة هي نفسها. وها هو اليوم خبر وفاة باري فيربراذر المباغتة جاثم بين ذراعيها مثل مولود سمين، سيثير بالتأكيد بهجة صديقاتها وشماتتهنّ. وهي ستكون مصدر هذه البهجة ومنبع هذه الشماتة، لأنّها من أوائل من تلقّوا النبأ، إن لم تكن الأولى.

لم تدَعْ شيرلي أيّ مظهر من مظاهر تلك الفرحة التي كانت تخفق وتغلي في داخلها يطفو إلى السطح طالما كان هاورد في الغرفة. اكتفيا بتبادل

التعليقات المعهودة عند حصول وفاة مفاجئة، قبل أن يدخل الحمّام. بالطبع، كانت شيرلي على يقين، فيما كانا يتناوبان على ترداد الكلام التقليديّ كمن يكرّ سبحة، بأنّ الجذل ذاته يغمره هو أيضًا. لكنّ إظهار هذا الإحساس بالفرح العارم، بينما دماء باري لم تجفّ بعد، كان ليبدو بمثابة رقصهما وكَيلهما الشتائم والكلام البذيء. فهاورد وشيرلي حريصان على الحفاظ على طلاء رقيق من اللياقة وحسن السلوك لا يفارقهما في مطلق الظروف.

خطرت لشيرلي فكرة سديدة جديدة. وضعت الفنجان والطبق على الطاولة الصغيرة بجانب سريرها وانسلّت خارج السرير. التحفَت بمبذلها المطرّز ووضعت نظّارتيها، ثمّ عبرت الممشى وصولًا إلى الحمّام ودقّت على الباب.

«هاورد!»

علَت حشرجة مستفهِمة ومبهمة غطّت على صوت المياه المندفعة.

«هل تعتقد أنّه يجدر بي نشر إعلانٍ ما على الموقع الإلكتروني؟ إعلان عن فيربراذر؟»

«فكرة جيّدة، صاح من خلف الباب بعدما أطرق لحظة. فكرة ممتازة.»

توجّهت مسرعة إلى المكتب. كانت تلك أصغر غرفة في المنزل، كانت في السابق غرفة نوم ابنتهما باتريسيا التي انتقلت منذ فترة طويلة إلى لندن وقلّما يرد ذكرها في المنزل.

كانت شيرلي فخورة للغاية بمهارتها في المعلوماتيّة. تابعت دروسًا ليليّة في يارفيل قبل عشر سنوات، وكانت الأكبر سنًّا بين الطلّاب، وأبطأهم. غير أنّها أصرّت على المواظبة، تصميمًا منها على تولّي إدارة الموقع الإلكتروني الرائع الذي أقامه مجلس بلدة باغفورد حديثًا. فتحت الإنترنت ودخلت إلى صفحة المجلس البلديّ.

خطر لها البيان المقتضب بشكل عفويّ، وكأنّ أصابعها كانت تطبعه من تلقاء نفسها.

«عضو المجلس البلديّ باري فيربراذر

بشديد الحزن وبالغ الأسف ننعى لكم عضوَ المجلس البلديّ

باري فيربراذر. نتقدّم بخالص العزاء والمواساة إلى عائلته، ونؤكّد لها تعاطفنا الكامل معها في هذا الظرف العصيب.»

أعادت قراءة البرقيّة بتمعّنٍ، ثمّ نقرت على أمر الإرسال، وشاهدتها تظهر في صندوق الرسائل.

ملكة بريطانيا نكّست العلم فوق قصر باكنغهام عند وفاة الأميرة ديانا. الملكة إليزابيث الثانية كانت تحتلّ مكانة خاصّة في حياة شيرلي الداخليّة. عندما رأت البرقيّة منشورة على الموقع، أحسّت بالرضى والارتياح لقيامها بعين الصواب. فهي تعلّمت التصرّف من أفضل مصدر ممكن، مصدر ملكيّ...

خرجت من صندوق رسائل المجلس البلديّ ودخلت إلى موقعها الطبيّ المفضّل، حيث نقرت بعناء في خانة البحث كلمتَي «دماغ» و«وفاة».

أعطاها محرّك البحث قائمة لا تنتهي من الأجوبة. راحت تستعرض المواقع المحتملة، مقلّبة نظرها بخفّة صعودًا ونـزولًا على طول اللائحة، متسائلة إلى أيّ من تلك الحالات القاتلة، وبعضها تعجز حتّى عن لفظ اسمه، تدين بسعادتها الحاليّة. كانت شيرلي متطوّعة في المستشفى، وقد بدأت تُعنى، إلى حدٍّ ما، بالشأن الطبيّ منذ أن باشرت العمل في مستشفى ساوث وست العام، إلى حدّ باتت تتبرّع بين الحين والآخر لصديقاتها بتشخيصها الشخصيّ لحالاتهم المرَضيّة.

لكنّها، في ذلك الصباح، لم تكن قـادرة على التركيز على الكلمات الطويلة وتعداد الأعـراض، بل اتّجهت أفكارها نحو كيفيّة نشر الخبر بشكل أوسع، فباشرت، في ذهنها، جمعَ قائمة من أرقام الهاتف وإعادة ترتيبها. تساءلت إذا كـان أوبـري وجوليا قد علما بالخبر، وعما عساها كانت ردّة فعلهما، وإن كان هاورد سيدعها تنقل النبأ إلى مورين أم انّه سيحتفظ بهذه المتعة لنفسه.

المسألة، برمّتها، مشوّقة إلى أقصى حدّ.

4

أغلق آندرو برايس الباب الأماميّ للمنزل الأبيض الصغير، وانحدر خلف شقيقه الأصغر في الممرّ المكسوّ بطبقة من الجليد راحت تتفتّت وتتكسّر تحت أقدامهما. عبرا الحديقة المتدرّجة نزولًا حتّى البوّابة الحديد المتجلّدة وسط سياج الشجَيرات، وخرجا إلى الطريق المحاذية. لم يعِرْ أيّ من الفتيان نظرة إلى المشهد الأليف الممتدّ أمامهما. تراءت في البعيد بلدة باغفورد، مستكينة في قعر تجويفة محاطة بثلاث تلالٍ، ينتصب عند أعلى إحداها الدير المهدوم الذي يعود إلى القرن الثاني عشر. كان نهر صغير ينساب مترقرقًا عند حافّة التلّة عابرًا المدينة، يقطعه جسر حجريّ أشبه بجسور الألعاب. ذلك المشهد كان بنظر الشقيقين مضجرًا، وكأنّه مجرّد خلفيّة مسطّحة. كان آندرو يشعر بالاشمئزاز حين يتصرّف والده في المرّات النادرة التي تستقبل فيها العائلة زائرين، وكأنّ الفضل في ذلك المشهد يعود له، وكأنّه هو مَن صمّم المدينة برمّتها وبناها بنفسه. قرّر آندرو مؤخّرًا أنّه لكان فضّل أن يحيط به مشهد من الإسفلت والنوافذ المحطّمة والجدران المكسوّة بالكتابات. كان يحلم بلندن وبحياة ذات مغزى.

مضى الشقيقان حتّى نهاية الطريق وتوقّفا حيث تتقاطع مع الطريق العام. دسّ آندرو يده في سياج الشجيرات، راح يفتّش متلمّسًا يمينًا ويسارًا، ثمّ أخرج علبة سجائر بينسون آند هيدجز نصف فارغة مع علبة كبريت مبلّلة بعض الشيء. بعد عدّة محاولات فاشلة وتفتُّت رؤوس عدة عيدان ثقاب عند حكّها، نجح في إشعال سيجارة. بالكاد أخذ نفسَين أو ثلاثة أنفاس، حتّى وصل باص المدرسة، خارقًا الصمت المخيّم بهدير محرّكه. أطفأ آندرو رأس سيجارته بعناية وأعاد ما تبقّى منها إلى العلبة.

قبل وصوله إلى منعطف هيلتوب هاوس، يكون الباص المدرسيّ عرّج على المزارع والمنازل المبعثرة في المنطقة، فيكون ثلثا مقاعده مشغولَين. انفصل الشقيقان وجلسا كالعادة متباعدَين، كلٌّ منهما يشغل مقعدًا مزدوجًا، ويستدير متأمّلًا المشهد من النافذة، فيما الباص يواصل تجواله، مزمجرًا ومتمايلًا.

عند أسفل التلّة، يرتفع منزل على شكل إسفين مثلّث تحيط به حديقة. عند بوّابته الأماميّة، يقف عادة الأشقّاء فيربراذر الأربعة في انتظار الباص. لكن، في ذلك النهار لم يكن هناك أحد. كانت الستائر مُغلقة كلّها خلف النوافذ. تساءل آندرو إن كان من الشائع أن يقبع الناس في العتمة إذا توفّي لهم قريبٌ.

قبل بضعة أسابيع، خرج آندرو مع نيام فيربراذر، إحدى ابنتَي باري التوأمين، خلال حفلة راقصة أُقيمت في مسرح المدرسة. بعد ذلك، ظهرت لديها ميول مزعجة بملاحقته إينما ذهب. كان والدا آندرو بالكاد يعرفان عائلة فيربراذر. أساسًا، لم يكن لدى سايمون وروث الكثير من الأصدقاء، غير أنّهما كانا يبديان تقديرًا غامضًا لباري الذي سبق أن تولّى إدارة الفرع الصغير للمصرف الوحيد الذي كان لا يزال يعمل في باغفورد. غالبًا ما كان يرد ذكر فيربراذر كلّما تناول الحديث مسائل مثل مجلس البلدة، والحفلات في قصر البلديّة، والسباق الترفيهيّ الذي تنظّمه الكنيسة... كلّها أمور لا تهمّ آندرو على الاطلاق ولم يكن والداه يشاركان فيها، في ما عدا بعض المناسبات النادرة، حين كانا يقدمان مساهمة زهيدة في رعاية الحدث أو يشتريان بطاقات سحب.

فيما انعطف الباص يسارًا وتهادى منحدرًا في شارع تشيرتش روو بمحاذاة المنازل الفكتوريّة الفسيحة، سرح آندرو في خياله وراح يحلم بأنّ والده قضى فجأة، قُتل برصاصة قنّاص. رأى آندرو نفسه يربّت ظهر والدته المنتحبة فيما يتّصل بالحانوتيّ. كانت سيجارة تتدلّى من بين شفتيه وهو يوصي على النعش الأبخس ثمنًا.

عند أسفل تشيرتش روو، صعد أولاد عائلة جاواندا الثلاثة، جاسوانت وسوكفيندر وراجبال، على متن الباص. كان آندرو اختار مقعده بعناية، متعمّدًا الجلوس أمام مقعد فارغ، وكان يتمنّى أن تأتي سوكفيندر وتجلس أمامه، ليس من أجلها هي (كان صديقه الحميم فاتس يلقّبها «نون شين» في اختصار لـ»نهدين وشاربين»)، بل لأنّ فتاته غالبا ما تختار الجلوس إلى جانب سوكفيندر. قد يكون الأمر مصادفةً، أو إنّ قدراته الذهنية كانت ربّما على قدر

خاصّ من القوّة في ذلك الصباح. المهمّ أنّ سوكفيندر اختارت فعلًا الجلوس قبالته. هلّل آندرو، لكنّه كبت مشاعره وراح يتأمّل المشهد عبر زجاج النافذة القذر، متظاهرًا بعدم التنبّه لوجودها. وفي الوقت نفسه، تشبّث بحقيبته المدرسيّة وضمّها إليه لإخفاء انتصاب عضوه مع ارتجاجات الباص القويّة.

أخذ يزداد ترقّبًا ولهفة مع كلّ خضّة ورجّة، فيما الباص الضخم يشقّ طريقه عبر الشوارع الضيّقة، ويلتفّ في المنعطف الخطير قبل دخول ساحة البلدة ومنها إلى مفرق الشارع حيث تقطن فتاته.

لم يسبق لآندرو أن شعر بمثل هذا الاهتمام بأيّ فتاة من قبل. كانت وصلت حديثًا إلى البلدة، في توقيت غريب لتبديل مدرسة، أي في منتصف الفصل الثالث من آخر سنوات الدورة الثانويّة. اسمها غايا، وهو اسم يليق بها. فهو لم يسمع بهذا الاسم من قبل، كما أنّها لا تشبه أيّ فتاة قابلها حتّى الآن. صعدت في الباص ذات صباح بكلّ بساطة، وكأنّها التجلّي البديهيّ لأسمى ما يمكن الطبيعة أن تبلغه، وجلست على مسافة مقعدين أمامه. تسمّر يومها، يتأمّل مفتونًا جمال كتفيها ورأسها المتكوّر من الخلف.

شعرها البنيّ النحاسيّ كان ينسدل في خصل متماوجة متثاقلة تداعب كتفيها.

أنفها النحيف المستقيم المستدقّ عند طرفه يبرز اكتناز شفتيها الشاحبتين الساحرتين. عيناها الشاسعتان المتباعدتان عسليّتان مرقّشتان بشرارات خضراء مثل تفّاحتين خمريّتين مخمليّتين، تظلّلهما رموش طويلة كثيفة. لم تتبرّج يومًا، غير أنّ آندرو لم يرَ مرّة حبّة أو بقعة تعيب بشرتها. وجهها كان مزيجًا من التناسق الخالص والانسجام غير المألوف. كان بوسعه أن يتأمّله ساعات، بدون أن يعرف مصدر ذلك السحر الذي يفتنه. في الأسبوع السابق، قدّرت له مشيئة إلهيّة، خلال حصّة مزدوجة من علم الأحياء، أن تُوزَّع الطاولات والتلاميذ بحيث تمكّن من تأمّلها قدر ما يشاء على مدى ساعتين. وحين عاد إلى المنزل بعدها، لجأ إلى غرفته وكتب (بعدما سرح نصف ساعة ونظره تائه في الجدار، إثر جلسة استمناء) «الجمال أشكال هندسيّة». مزّق الورقة في الحال، لكنّه في ما بعد، ظلّ يشعر بالحماقة كلما تذكّرها، ولو أنّ

فيها شيئًا من الصدق والصحّة. جمالها كان نابعًا من تفاصيل صغرى خارجة عن النمط المألوف، تنسج مع بعضها تناغمًا مذهلًا.

سوف تصعد في الباص بين لحظة وأخرى، وإن جلست إلى جانب سوكفيندر المضجرة والكئيبة، سوف تكون قريبة منه بما يكفي لتشتمّ رائحة النيكوتين التي تفوح منه. يحبّ أن يراقب كيف تتجاوب الأشياء الخالية من الروح حين تلامسها. مقعد الباص يتقوّس بعض الشيء حين تستريح بثقلها عليه، وانعكاس خصلات شعرها الكثّ النحاسيّ على العارضة المعدنيّة الممتدّة على طول النافذة.

تمهّل سائق الباص. وحين صعدت، تحوّل آندرو بنظره عن الباب، متظاهرًا بأنّه مطرقٌ في أفكاره. سوف يجول بنظره من حوله حين تصعد في الباص، وكأنّه يتنبّه للتوّ إلى أنّه توقّف، ثم تلتقي عيونهما، وربّما يهزّ لها رأسه. ترقّب صوت الباب وهو ينفتح، لكنّ هدير المحرّك استمرّ خافتًا، بدون أن يقطعه الصرير المعهود، تليه الصفقة.

نظر آندرو من حوله، فلم يرَ سوى شارع هوب، ذلك الشارع الصغير البائس الممتدّ بين خطّين من البيوت الضيّقة المتراصّة. انحنى سائق الباص محدّقًا ليتثبّت من أنّها لن تأتي. ودّ آندرو أن يطلب منه التريّث. ففي الأسبوع السابق، اندفعت من أحد هذه المنازل الصغيرة المتشابهة، وراحت تعدو مسرعة على الرصيف (سمح لنفسه يومها بأن يتأمّلها لأنّ الجميع كان ينظر إليها). مشهدها، وهي تركض، شغَل أفكاره لساعات طويلة. غير أنّ السائق أطبق على المقود العريض وانطلق الباص من جديد. عاد آندرو إلى تأمّل الزجاج القذر، كابتًا الألم في قلبه وعضوه.

5

كانت البيوت الصغيرة الممتدّة على طول شارع هوب، في ما مضى، ملحَقة بمزارع. في الرقم عشرة، كان غافين هيوز في الحمّام، يحلق ذقنه بعناية وتأنٍّ غير ضروريّين. فلحيته الشقراء الرقيقة لا تتطلّب الحلاقة أكثر من مرّتين في الأسبوع. غير أنّ الحمّام، على الرغم من برودته ووضعه المترهّل بعض الشيء، كان ملاذه الوحيد. وإن تمكّن من إهدار الوقت فيه حتّى الساعة الثامنة، عندها سيكون بوسعه القول إنّ عليه الذهاب إلى العمل في الحال، بدون أن يبدو الأمر مستغرَبًا. كان يخشى أن يضطرّ إلى الجلوس والدخول في حديث مع كاي.

نجح في اليوم السابق في تفادي مثل هذا الحديث، ولكنّه اضطرّ من أجل ذلك إلى خوض أطول مضاجعةٍ وأوسعها خيالًا وابتكارًا منذ بدايات علاقتهما. استجابت كاي لمبادرته على الفور، مبدية اندفاعًا أحبطه تمامًا، فراحت تتّخذ وضعيّة تلو الأخرى، رافعة ساقيها الممتلئتين القويّتين عاليًا، متلوّية في كلّ الاتّجاهات، مثل تلك البهلوانة السلافيّة التي كانت تشبهها، ببشرتها الزيتونيّة وشعرها الداكن القصير. أدرك بعدما فات الأوان أنّها ترى في بادرته الجريئة غير المعهودة هذه، إقرارًا ضمنيًّا بكلّ ما كان مصمّمًا على عدم قوله. قبّلته بنهم. عند نشأة علاقتهما، كان يجد قبلاتها الملحاحة مثيرة إلى أقصى حدّ. أمّا الآن، فلم تعد توحي له سوى باشمئزاز مُبهَم. تأخّر ليبلغ النشوة. كان إحساسه بفظاعة ما يقترفه يكبحه ويهدّد انتصابه باستمرار. لكن حتّى تعثّره فسّرَته بشكل معاكس، فرأت فيه توقّدًا لم تعتده لديه واستعراضًا لبراعاته الجنسيّة.

حين انتهى الأمر أخيرًا، لاذت به في الظلام وراحت تداعب شعره لبعض الوقت. بقي ممدّدا، يحملق بائسًا في الفراغ، وهو مدرك أنّه، إن كان لديه نيّةٌ ما في فكّ ارتباطه بها، فهو قد حقّق للتوّ العكس تمامًا ووطّد صلته بها من غير أن يدري. غفت كاي، فظلّت ذراعه عالقة تحت جسدها، والملاءة الرطبة ملتصقة بفخذه، باعثة فيه إحساسًا مزعجًا. راقدًا على الفراش المتكتّل

بنوابضه المتعبة القديمة، ودّ لو كانت له جرأة الأنذال، لكان فرّ خلسة من غير عودة.

كانت رائحة عفنٍ وإسفنجٍ مبلولٍ تملأ حمّام كاي. على جانب المغطس الضيّق، تلتصق بعض الشعرات، وطلاء الجدران متقشّر.

قالت كاي مرّة: «يجدر القيام ببعض الأشغال هنا.»

حذِر غافين من التطوّع لتقديم أدنى مساعدة. ثمّة أمور لطالما امتنع عن قولها لها. كانت هذه تعويذةً، ساترًا يحتمي به. ربطها كلّها في ذهنه مثل سبحة كان يكرّرها باستمرار للتثبّت من عدم الإفصاح عنها. لم يقل لها يومًا، مثلًا، «أحبّك». لم يأتِ على ذكر الزواج. لم يطلب منها مرّة الانتقال للعيش في باغفورد. ورغم ذلك، ها هي في حياته، تبعث فيه بطريقة ما إحساسًا بالمسؤوليّة حيالها.

كان انعكاس وجهه في المرآة الباهتة الملطّخة يحدّق إليه. تحت عينيه، امتدّت ظلال بنفسجيّة داكنة، وشعره الأشقر المتساقط بدا خفيفًا جافًا. المصباح العاري المتدلّي من السقف أضاء وجهه الهزيل الشاحب بقسوة لا ترحم.

أربعة وثلاثون عاما، قال لنفسه، وها إنّي أبدو في الأربعين على أقلّ تقدير.

رفَع شفرة الحلاقة، وقطَع برفق الشعرتين الشقراوين الغليظتين اللتين نمَتا على عنقه من جانبَي تفّاحة آدم.

راحت قبضتان تطرقان بإلحاحٍ على باب الحمّام. انزلقت يد غافين، فانسابت قطرات دم من عنقه الهزيل ولطّخت قميصه الأبيض الناصع.

سمع صوتا نسائيًا يزعق غاضبًا: «صديقكِ لا يزال في الحمّام، سوف أتأخّر!»

«انتهيت!» صاح.

كان الجرح يؤلمه، لكن ما همَّ؟ فهو يمسك بذريعة جاهزة: «انظري ما حلّ بي بسبب ابنتك. عليّ الآن أن أذهب إلى منزلي وأبدّل قميصي قبل التوجّه إلى عملي.» غمره شعور أقرب إلى الفرح، وهو ينتشل ربطة عنقه وسترته المعلّقتين على قبضة الباب ويفتحه.

دفعته غايا وهي تدخل الحمّام، صفقت الباب خلفها وأغلقت المزلاج بعنف. في الممرّ الضيّق عند أعلى الدرج حيث فاحت رائحة خانقة، رائحة مطّاط محترق، استعاد غافين ذكرى الليلة السابقة، رأس السرير وهو يطرق على الجدار، صرير ألواح خشب الصنوبر الرديء النوعيّة، أنين كاي وصيحاتها. إنّهما ينسيان بسهولةٍ أحيانًا أن ابنتها أيضًا تقيم في المنزل.

اندفع نازلًا الأدراج العارية إلى الطبقة السفليّة. لم يكن هناك بساط يكسوها. قالت له كاي مرّة إنّها تنوي صقلها وتشميعها، لكنّه كان يشكّ في أن تنفّذ مشروعها. حتّى شقّتها في لندن كانت مترهّلة وبحاجة إلى إصلاحات. مهما يكن، كان واثقًا بأنّها تتوقّع أن تنتقل قريبًا للعيش معه. غير أنّه لن يسمح بذلك. منزله هو حصنه الأخير، وإن اقتحمه أيٌّ كان، فسوف يتصدّى لذلك بكلّ ما لديه من وسائل.

«ماذا حصل لك؟» صاحت كاي حين رأت قطرات الدم على قميصه. كانت ترتدي الكيمونو القرمزيّ السوقيّ الذي لم يكن يعجبه، غير أنّه يلائمها تمامًا.

«طرقت غايا بعنف على الباب، فجفلت. سأضطرّ للذهاب إلى المنزل لتبديل ملابسي.»

«لكنّني حضّرت لك الفطور!» قالت بإلحاحٍ.

أدرك أن رائحة المطّاط المحروق كانت في الواقع رائحة البيض المقليّ. بدت له العجّة غير شهيّة على الإطلاق ومتفحّمة الأطراف.

«كاي، لا يمكنني البقاء. يجب أن أبدّل قميصي. عليّ الوصول باكرًا، لديّ...»

لكنّها باشرت سكبَ الكتلة الهلاميّة في الصحن.

ارتفع طنين هاتفه الجوّال في جيب سترته، فسارع إلى إخراجه، وهو يتساءل إن كان سيجد الجرأة للادّعاء بأنّ حالة طارئة تستدعيه.

«يا إلهي!» قال مطلقًا صيحة هَولٍ صادقة.

«ماذا جرى؟»

«باري، باري فيربراذر! لقد... اللعنة، لقد... لقد مات! هذا مايلز على الهاتف. يا إلهي! يا له من خبر!»

وضعت الملعقة الخشبيّة في الطبق.

«من هو باري فيربراذر؟»

«ألعب معه السكواش. عمره أربعةٌ وأربعون عامًا فقط! يا إلهي!»

عاود قراءة الرسالة النصيّة. كانت كاي تراقبه، في حيرة من أمرها. كانت تعرف أنّ مايلز شريك غافين في مكتب المحاماة، لكنّها لم تلتقِه مرّة. أمّا باري فيربراذر، فلم يكن بالنسبة إليها أكثر من اسم.

دوّى طرق صاخب فجأة على الدّرج: كانت غايا تنزل مسرعةً، خابطةً رجليْها أرضًا.

«بيض! قالت من باب المطبخ. تمامًا كالفطور الذي تعدّينه لي كلّ صباحٍ. أليس كذلك؟ وبفضله هو»، تابعت رامقة قفا رأس غافين بنظرة سامّة، «على الأرجح أنّ الباص اللعين فاتني.»

«لو أنّك لم تقضي كلّ هذا الوقت وأنت تسرّحين شعرك!» صرخت كاي، لكنّ ابنتها كانت قد توارت من دون أن تجيب، انطلقت كالعاصفة في الرواق، وحقيبتها تخبط على الجدران. خرجت وصفقت الباب خلفها بشدّة.

«كاي، عليّ أن أذهب»، قال غافين بدوره.

«لكن انظر، أعددت كلّ شيء، يمكنك تناول الفطور قبل أن...»

«عليّ أن أبدّل قميصي. سحقًا! أعددت بنفسي وصيّة باري، عليّ أن أتحقّق منها. لا، آسف، عليّ أن أذهب. لا يسعني أن أصدّق، قال وهو يعيد قراءة رسالة مايلز. غير معقول! لعبنا مباراة سكواش معًا قبل أيّام قليلة، يوم الخميس. لا يمكنني... يا إلهي!»

ثمّة رجل توفّي. لم يكن هناك ما يمكنها قوله. أقلّه، بدون أن تضع نفسها في موقف حَرِج. قبّلها قبلة سريعة لم تبادله إيّاها، وغاب في الرواق الضيّق المظلم.

«هل سأراك هذا...؟»

«سوف أتّصل بك لاحقًا»، صرخ لها متظاهرًا بأنّه لم يسمعها.

عبَر غافين الطريق مسرعًا إلى سيّارته، مستنشقًا الهواء البارد الحادّ، وهو يقلّب في رأسه خبر وفاة باري كمَن يمسك بقارورة تحوي سائلًا متفجّرًا

يخشى أن يخصّه. تخيّل، وهو يدير المحرّك، ابنتَي باري التوأمين تنشجان، طامرتَين وجهَيهما في سريريهما بطبقتَين. رآهما ممدّدتين على هذا النحو، الواحدة فوق الأخرى، تلعبان بجهاز نينتندو، حين مرّ من أمام باب غرفتهما آخر مرّة دعاه فيها باري لتناول العشاء.

باري وماري كانا أكثر زوجين عرفَهما إخلاصًا أحدهما للآخر. لن يقصد منزلهما بعد الآن لتناول العشاء معهما. كان يردّد لباري باستمرار أنّه رجل محظوظٌ. لكنّ حظّه نفد في نهاية المطاف.

لمح ظلًّا يتقدّم على الرصيف في اتّجاهه. فظنّ أنّها ربّما غايا تعود أدراجها لتعاود الشجار معه أو لتطلب منه أن يقلّها. أصيب بالذعر لهذه الفكرة، فاندفع بالسيّارة إلى الخلف على عجلة من أمره وصدم السيّارة المركونة خلفه. كانت سيّارة كاي، الفوكسهول كورسا القديمة. وصل الظلّ أمام نافذته، فتبيّن أنّها امرأة مسنّة نحيلة، تتقدّم بخطًى متعثّرة منتعلةً خفّين. كان غافين يتصبّب عرقًا. لفّ المقود بعنف لإخراج السيّارة من مكانها، ثمّ أقلع ضاغطًا بشدّة على دوّاسة الوقود. ألقى نظرة في المرآة الخلفيّة ولمح غايا عائدة إلى المنزل.

أحسّ برئتَيه تجهدان لاستنشاق بعض الهواء، وكأنّ قبضة حديد تضغط على صدره. الآن فقط أدرك أنّ باري فيربراذر كان أعزّ صديق لديه.

6

وصلت الحافلة المدرسيّة إلى فيلدز، الحيّ الشاسع الممتدّ على مشارف بلدة يارفيل. بيوت رماديّة قذرة، رُشّت على جدران البعض منها كتابات ورسوم بذيئة. هنا وهناك، نوافذ أُغلقَت على عرضها بألواح خشبيّة. غابة من الصحون اللاقطة وأعشاب بريّة تنمو على هواها. لا شيء في هذا المشهد يستحقّ اهتمام آندرو، باستثناء دير باغفورد المهدوم، المتلألئ تحت طبقة من الجليد. كان حيّ فيلدز في ما مضى يرهبه، لكنّه الآن يألفه وقد أصبح منذ وقت طويل مكانًا اعتياديًا بالنسبة إليه.

كانت الأرصفة تكتظّ بالأطفال والأحداث، جميعهم يتوجّهون إلى المدرسة، وبعضهم يرتدي قميص تي- شيرت رغم البرد. لمح آندرو كريستال ويدون، النموذج الحيّ للمنطقة ومحطّ الكثير من النكات السوقيّة. كانت تسير متوثّبةً، مطلقةً قهقهات عالية، وسط مجموعة مختلَطة من الفتيان والفتيات. كانت حلقات وأقراط تتدلّى من أذنيها، وخيط سروالها الداخلي يظهر بشكل صارخ من بنطالها الرياضيّ الذي خفضت خصره إلى منتصف وركَيها. يعرفها آندرو منذ المدرسة الابتدائيّة، وهي حاضرة في العديد من ذكريات طفولته الأكثر إثارة وفرادة. كانوا يهزأون من اسمها فيطلقون عليها ألقابًا، لكن بدل أن تبكي، كما كانت لتفعل معظم الفتيات في الخامسة من العمر، أخذت كريستال تردّد النغمة فتصيح معهم «ويد-أون[1]! كريستال ويد-أون!» ومرّة أنزلت سروالها الداخليّ في وسط الصفّ، وراحت تتّخذ وضعيّات إباحيّة وكأنّها خلال مضاجعة. مشهد فرجها الزهريّ العاري ما زال ماثلًا في ذهنه، وكأنّ الأمر حصل بالأمس. بدا له يومها وكأنّ بابا نويل ظهر بينهم. يذكر أيضًا الآنسة أوتس وهي تطردها وتواكبها بصرامة خارج الصفّ، وقد اتّخذ وجهها لونًا قرمزيًّا مخيفًا.

ومع بلوغها الثانية عشرة من العمر وانتقالها إلى المدرسة التكميليّة، كانت كريستال الفتاة الأكثر نموًّا بين بنات صفّها. في أحد الأيّام، تخلّفت في مؤخّر الصفّ الذي اصطفّوا فيه لتسليم أوراق تمارين الرياضيّات التي أتمّوها، ولأخذ ورقة التمارين الجديدة. لا يدري آندرو (كان كالعادة بين آخر مَن أنهوا التمارين) كيف بدأت المسألة برمّتها. لكنّه حين وصل إلى الصناديق البلاستيكيّة المصفوفة بانتظام فوق الخزائن في الخلف، وفيها رزم أوراق التمارين، وجَد روب كالدر ومارك ريتشاردز يتناوبان على مداعبة نهدَي كريستال وتدليكهما. كان معظم فتيان الصفّ يحدّقون مسحورين، وقد رفعوا دفاتر التمارين ونصبوها أمامهم حتّى لا يرى الأستاذ وجوههم، فيما البنات يتظاهرن بأنّهنّ لم يلحظن الأمر، بينما وجوههنّ الحمراء تفضحهنّ.

[1] «ويد» بالانكليزيّة تعني الأعشاب البريّة أو الحشيشة.

فهم آندرو أنّ نصف الفتيان تعاقبوا على ذلك، وأنّ دوره آتٍ حتمًا. كان يتوق إلى تلك اللحظة ويخشاها في آن. لم تكن رؤية نهدَي كريستال ما يرهبه، وإنّما التحدّي والجسارة في نظرتها. كان يخاف ألّا يحسن القيام بذلك. بقي مشغول البال إلى أن استيقظ السيّد سيموندز القليل الجدارة أخيرًا من غفلته، فرفع نظره من أمامه ونادى: «كريستال، مضى وقت طويل جدًّا وأنت في الخلف، أحضري ورقة التمارين واجلسي في مكانك». عندها شعر آندرو بالفرج.

انقسم التلاميذ بعد ذلك في مجموعات، وظلّ آندرو لوقت طويل مفصولًا عن كريستال في مجموعتَين مختلفتَين، إلّا أنّهما بقيا مسجّلين في الصفّ ذاته. وبالتالي، تمكّن آندرو من ملاحظة أنّ كريستال تحضر حينًا، وتتغيّب أحيانًا، وأنّها في ورطةٍ ما بشكل شبه متواصل. لم تكن تخشى شيئًا، على غرار أولئك الفتيان الذين يأتون إلى المدرسة وعلى أجسادهم وُشومٌ خطّوها بأنفسهم، شفاههم مشقوقة وفي أفواههم سجائر، محاطين بروايات عن صدامات مع الشرطة، وقصص مخدّرات وجنس.

كانت مدرسة وينترداون الشاملة تقع عند مدخل يارفيل، في مبنى ضخم قبيح من ثلاث طبقات، تشكّل واجهته سلسلة من النوافذ المتعاقبة، تفصل بينها ألواح مطليّة باللون الفيروزيّ. فُتحت أبواب الباص، فانضمّ آندرو إلى الحشود الغفيرة من التلاميذ بالكنزات والسترات السوداء، الذين كانوا يعبرون موقف السيّارات في اتّجاه مدخلَي المدرسة الأماميَّين. كان على وشك الانسلال داخل الزحمة المتراصّة عند الباب المزدوج، حين لمح سيّارة نيسان ميكرا تُفرمِل، فخرج من التدافع، ووقف جانبًا ينتظر صديقه المفضّل.

كان ستوارت وول يحمل أكبر عدد من الألقاب بين تلاميذ المدرسة برمّتها: تابي، تابز، تابستر، فلابر، والي، والّا، فاتبوي، فاتس... ألقابه تكاد لا تعدّ ولا تحصى. سمات كثيرة كانت تميّزه عن سواه: مشيته المترنّحة، قامته الطويلة الهزيلة، وجهه الشاحب النحيل، أذناه العريضتان، وتلك المعاناة التي تعكسها ملامحه على الدوام. غير أنّ علامته الفارقة الحقيقيّة كانت تهكّمه اللاذع، هدوءه وتلك المسافة التي يضعها بينه وبين الآخرين. وجد وسيلة للنأي بنفسه عن أمور كثيرة كانت لتحبط فتى أقلّ صمودًا ومتانة منه، فلم

يكن يشعر بأيّ إحراج لكونه ابن نائب مديرة المدرسة المكروه ومثار السخرية بالإجماع ومستشارة التوجيه السمينة التي تهمل مظهرها. لم يكترث البتّة. كان وفيًا لنفسه، فريدًا من نوعه: فاتس، الوجه الشهير والمحوريّ في المدرسة. حتّى سكّان فيلدز كانوا يضحكون لنكاته بينما يحذرون قدر المستطاع من التهكّم على عائلته غير الموفّقة، خوفًا من لسانه السليط الذي لم يكن يدع كلمة جارحة إلّا ويردّ عليها بشراسة.

كان فاتس في ذلك الصباح مسيطرًا على أعصابه بالكامل، حين اضطرّ، أمام أنظار التلاميذ الوافدين جماعات جماعات، متحرّرين من قيودهم العائليّة، إلى الخروج بصعوبة من سيّارة النيسان، برفقة كلا والديه اللذين لم يكونا يأتيان معًا في العادة. عبرت في ذهن آندرو صورة كريستال ويدون وسروالها الداخلي الظاهر من بنطالها، فيما كان فاتس يسير متمايلًا صوبه.

«كيف الحال، آرف؟» قال فاتس.

«مرحبا فاتس.»

شقّا طريقهما وسط الحشد جنبًا إلى جنب، وحقيبتاهما تتأرجحان خلفهما. كانا يوزّعان الصفعات على الصغار وهما يعبران، تاركَين فراغًا في إثرهما.

«رأيت أبو خزانة يبكي»، روى فاتس وهما يصعدان الأدراج التي تعجّ بالتلاميذ.

«ماذا تقول؟»

«باري فيربراذر قضى الليلة الماضية.»

«آه! أجل، سمعت بذلك»، أجاب آندرو.

رمقه فاتس بالنظرة الساخرة المستغرِبة التي يخصّ بها كلّ من يخاتل ويراوغ، مدّعيًا بأنّه يعرف كلّ شيء ومتظاهرًا بما ليس عليه.

«كانت أمّي في المستشفى حين نقلوه، أوضح آندرو باستياء. إنّها تعمل هناك، ألا تذكر؟»

«آه، صحيح»، قال فاتس، وقد تبدّدت السخرية من نبرته. «حسنا، كما تعلم، هو وأبو خزانة كانا صديقَين، سوف يعلن أبو خزانة الخبر للجميع. ليس هذا أمرًا جيّدًا، صدّقني آرف.»

انفصلا عند أعلى الدرج وتوجّه كلّ منهما إلى صفّه. معظم رفاق آندرو دخلوا الصفّ، بعضهم جلس على الطاولات مدلّيًا رجليه، والبعض الآخر اتّكأ إلى الخزائن عند جانب القاعة. كانت الحقائب موضوعة أرضًا تحت المقاعد. التلاميذ دائمًا أكثر صخبًا واسترسالًا في ثرثراتهم صباح الاثنين. فهو اليوم الذي يجري فيه التجمّع، ما يعني الخروج في الهواء الطلق والتوجّه إلى قاعة الرياضة. كانت المعلّمة المكلّفة تسجيل الحضور جالسة خلف مكتبها، تملأ جدولها كلّما دخل تلميذ. لم تكترث مرّة لتدوين الحضور بشكل رسميّ، باستدعائهم بأسمائهم. كانت هذه واحدة من الحيل التي كانت تنتهجها، سعيًا لكسب مودّتهم، غير أن كلّ ما حصلت عليه في المقابل كان ازدراء الصف بالإجماع.

وصلت كريستال فيما كان الجرس يرنّ للتجمّع. صاحت «أنا هنا، آنسة!»، قبل أن تستدير وتتوارى مجدّدًا. تبعها التلاميذ جميعًا، وهم يواصلون أحاديثهم. التقى آندرو وفاتس من جديد عند أعلى الأدراج، وتبعا حركة الحشد الذي دفعهما معه خارج البوّابة الخلفيّة إلى الملعب الفسيح المكسوّ بالإسمنت الرماديّ.

كانت رائحة العرق والأحذية الرياضيّة تملأ قاعة الرياضة. تردّد ضجيج ألف ومئتي فتى وفتاة يتكلّمون بصخب بين جدرانها الكئيبة المطليّة بالأبيض. أرض الملعب مفروشة بطبقة صلبة ذات لون رماديّ صناعيّ، ملطّخة ببقع قذرة، ومزيّحة بخطوط ملوّنة ترسم حدود ملعبَي البادمينتون وكرة المضرب ومرمى الهوكي وكرة القدم. مادة طلاء الأرض يمكن أن تحدث خدوشًا مؤذية إذا سقط عليها المرء بدون حماية على ركبتيه، لكنّها مريحة أكثر من الأرضيّة الخشبيّة لأرداف التلاميذ المضطرّين إلى الجلوس عليها طوال تجمّع صباح الاثنين. كان آندرو وفاتس بلغا مصاف الذين يجلسون على الكراسي البلاستيكيّة المرتكزة على قوائم حديد شبيهة بأنابيب رقيقة، والمصفوفة في قعر القاعة، وهو تكريم مخصّص لتلاميذ السنتين الأخيرتين قبل التخرّج.

في صدر القاعة في مواجهة التلاميذ، نُصبَت منضدة خشبيّة قديمة جلست إلى جانبها المديرة، السيّدة شوكروس. دخل والد فاتس، كولين وول

الملقّب «أبو خزانة»، عبَر الصالة وجلس إلى جانبها. كان رجلًا طويل القامة، جبينه عال وأصلع، يسير بمشية فريدة يمكن تمييزها من بين الجميع، يداه متصلّبتان من جانبي جذعه، ينطنط صعودًا وهبوطًا في حركة غير مبرّرة للتقدّم إلى الأمام. الكلّ يعرفه بلقب أبو خزانة بسبب هوسه بالحفاظ على ترتيب الخزائن المربّعة الصغيرة المصفوفة خارج مكتبه في المدرسة، وبالسهر على حسن استخدامها. كانت تودع في بعضها سجلّات الحضور بعد ملئها، بينما خُصِّصَ بعضها الآخر لأقسام محدّدة من المدرسة. «انتبهي أن تضعي الورقة في الخزانة الصحيحة، آيلا!»، «كيفن، لا تترك الأوراق بهذا الشكل، سوف تقع من الخزانة!»، «ألا ترين يا آنسة أنّك ستدوسينها؟ هيّا، التقطيها عن الأرض وناوليني إيّاها، مكانها هنا في الخزانة!».

الأساتذة الآخرون كانوا جميعًا يشيرون إلى الخزائن بـ«المربّعات»، ومن المفهوم بصورة عامّة أنهم اختاروا هذه التسمية لتمييز أنفسهم عن أبو خزانة.

«تنحّوا! تنحّوا!» قال السيّد ميتشر، أستاذ النجارة، مشيرًا إلى آندرو وفاتس اللذين تركا مقعدًا شاغرًا يفصلهما عن كيفن كوبر.

وقف أبو خزانة خلف المنضدة. لم يهدأ التلاميذ بالسرعة ذاتها كما كانوا ليفعلوا مع المديرة. وفي اللحظة التي صمت فيها آخر صوت، فُتِح أحد لوحَي الباب المزدوج في وسط الجدار إلى يمين الصالة على مصراعيه، ودخلت غايا.

جالت بنظرها في أرجاء الصالة (سمح آندرو لنفسه بالنظر إليها، بما أنّ نصف التلاميذ في الصالة كان يفعل ذلك. كانت متأخّرة، خارقة ورائعة، ولا همّ إن كان أبو خزانة يتكلّم)، سارت بخطى سريعة ولكن بدون عجلة (على غرار فاتس، كانت تملك رباطة جأش وثقة بنفسها لا تتزحزحان) والتفتْ من خلف التلاميذ.. لم يكن بوسع آندرو أن يدير رأسه لمتابعة مراقبتها، غير أنّه تنبّه فجأة وبعنف صعقه وجعل أذنيه تطنّان، إلى أنّه حين تنحّى مع فاتس، ترك مقعدًا شاغرًا إلى جانبه.

سمع خطًى خفيفة سريعة تقترب، وإذ بها هنا، جالسة بمحاذاته. صدمت كرسيه وهي تسوّي قعدتها، جسدها القريب هزّه. تسرّبت إليه رائحة

عطر طفيفة. أحسّ بالجانب الأيسر من جسده ملتهبًا، متحسّسًا قربها منه. حمد الله لكون وجنته اليسرى المواجهة لها أكثر صفاء من وجنته اليمنى المنخورة بالبثور. لم يسبق أن وجد نفسه يومًا قريبًا منها إلى هذا الحدّ. تساءل إن كان سيتجرأ وينظر إليها ويومئ لها مرحّبًا، غير أنّه حسم أمره على الفور: ظلّ مشلولًا لوقت طويل، وفات الأوان ليبادرها الآن بشكل عفويّ.

تظاهر بحكّ صدغه الأيسر ليخفي وجهه وأدار عينيه في محجريهما ليسترق النظر إلى يديها المتراخيتين في حضنها. أظافرها مقصوصة ونظيفة وغير مطليّة. لمح خاتمًا فضيًّا بسيطًا في إحدى إصبعيها الصغيرين.

نبّهه فاتس بنكزة طفيفة من مرفقه.

«أخيرًا...» قال أبو خزانة. أدرك آندرو أنّه سمعه يردّد هذه الكلمة مرّتين من قبل. عمّ الهدوء القاعة، تحوّل إلى صمت مطبق ملأ الجوّ مثل حضور كثيف صلب. تسمّر الجميع، وانتشرت رعشة فضول وبهجة وتخوّف.

«أخيرًا»، كرّر أبو خزانة وصوته يتهدّج بدون أن يتمكّن من ضبط مشاعره، «لديّ نبأ مؤسف... مؤسف جدًا. السيّد باري فيربراذر الذي درّب منذ عامين فريق التجذيف النسائي الناجح... الناجح للغاية... السيّد باري...»

غصّ صوته ووضع يده أمام عينيه.

«... توفّي...»

انهار بالبكاء أمام الجميع، مدلّيًا رأسه الأصلع المتغضّن فوق صدره. سرت همهمة هول وموجة ضحك في آن بين التلاميذ، والتفت كثيرون إلى فاتس الذي ظلّ جالسًا، مبهرًا في لامبالاته. بدا مستغربًا بعض الشيء، ولكن بصورة عامّة غير متأثّر بما يجري.

«... توفّي...» ردّد أبو خزانة ناشجًا، فيما نهضت المديرة والغضب بادٍ عليها.

«...توفّي... الليلة الماضية.»

ارتفع زعيق من مكان ما في وسط صفوف المقاعد في قعر الصالة.

«مَن الذي ضحك؟» صاح أبو خزانة. عمّت القاعة ارتعاشة توتّر لذيذة.

«كيف تجرؤون! صاح بأعلى صوته. مَن هي الفتاة التي ضحكت؟ من هي؟»

وثب السيّد ميتشر من مكانه، وأخذ يلوّح بيديه حانقًا في اتّجاه أحدٍ ما في وسط صفّ المقاعد، خلف آندرو وفاتس تمامًا. استدارت غايا في كرسيها لتنظر مثل الجميع إلى الخلف، صادمةً مرّة جديدة كرسي آندرو. بدا له أنّ جسده في أدنى خلاياه يستشعر بحدس خارق ما يجري حوله. كان بوسعه أن يحسّ بجسد غايا يمتدّ وينحني صوبه. إن استدار من الجهة المعاكسة، سوف يتواجهان وجهًا لوجه.

«من الذي ضحك؟» سأل أبو خزانة مرّة جديدة، ماطًّا جسده ليقف في حركة سخيفة على أطراف قدميه، وكأنّه سيتمكّن هكذا من تمييز المذنب من خلف منضدته. كان ميتشر يتكلّم بصوت غير مسموعٍ ويشوّر بيديه في حركة محمومة في اتّجاه التلميذ الذي عيّنه ليكون المذنب.

«مَن هو، سيّد ميتشر؟» زعق أبو خزانة.

بدا ميتشر متردّدًا في الردّ. كان لا يزال يواجه صعوبة في إقناع المذنب بالنهوض من مقعده. لكن ما إن بدأ أبو خزانة يظهر بوادر مقلقة توحي بأنّه سيخرج من خلف منضدته ليحقّق شخصيًّا في المسألة، قفزت كريستال ويدون من مكانها، وراحت تدفع بعنف مَن هم حولها لتشقّ طريقها خارج صفّ الكراسي.

«سوف أراكِ في مكتبي فورًا بعد انتهاء التجمّع! صرخ أبو خزانة في اتّجاهها. أمرٌ معيب تمامًا! قلّة احترام كاملة! اغربي عن وجهي!»

لكنّ كريستال توقّفت عندما وصلت إلى طرف صفّ الكراسي، أشارت إلى أبو خزانة بإصبعها الوسطى وصاحت به: «لم أفعل شيئًا، أيّها الأبله!»

هاجت الصالة بثرثراتٍ محمومة وقهقهات صاخبة حاول الأساتذة، بدون جدوى، لجمَها، حتّى أن أستاذًا أو أستاذين غادرا مكانَيهما، في مسعى بائس لترهيب صفّيهما وضبطهما.

انغلق الباب المزدوج خلف كريستال والسيّد ميتشر.

«اهـدأوا!» صاحت المديرة، فخيّم صمت هشّ تخلّلته وشوشات وقلقلات. كان فاتس مسمّرًا يحدّق أمامه. لأوّل مرّة، بدت لامبالاته مفتعلة، وقد اكفهرّ وجهه.

أحسّ آندرو بغايا تعاود الجلوس. شحذ شجاعته، التفت إلى يساره ونجح في القيام بتكشيرة في اتّجاهها، فردّت على الفور بابتسامة عريضة.

7

وصل هاورد موليسون باكرًا إلى محلّ الأطعمة الفاخرة، مع أنّه لا يفتح أبوابه قبل الساعة التاسعة والنصف. هاورد رجل في الرابعة والستّين من العمر، بدين إلى حدّ يفوق التصوّر. كرشه الضخم يتدلّى مثل مئزر هائل فوق فخذيه، حتّى إنّ أوّل ما يتبادر إلى ذهن معظم الذين يلمحونه هو عضوه، فلا يسعهم إلّا أن يتساءلوا متى كانت آخر مرّة رآه فيها، وكيف يتدبّر أمره لغسله، وكيف ينجح في إتمام أيّ من الوظائف التي يفترض بالعضو القيام بها. كان هاورد يُحرج الآخرين بقدر ما يُسقِط لديهم أيّ تحفّظ أو مسافة، بسبب تلك الاعتبارات المريبة التي توحي بها ضخامة قامته من جهة، ومن جهة أخرى طيبته وتعاطيه الودود مع الجميع، بحيث كان زبائنه يغادرون، في غالب الأحيان، حاملين أكثر ممّا كانوا ينوون شراءه عند دخولهم. كان يبقي الحديث جاريًا وهو يواصل عمله، دافعًا بإحدى يديه القصيرتين السمينتين آلة التقطيع ذهابًا وإيابًا، ومتلقّفا بيده الأخرى شرحات الجمبون الرقيقة المتساقطة كالحرير على ورقة السيلوفان،عيناه الزرقاوان الصغيرتان على استعداد دومًا لتوزيع الغمزات، وذقنه المتراخي طبقاتٍ يرتجّ كلّما ضحك، وهو ما كان يفعله باستمرار.

ابتكر هاورد لنفسه بدلة عمل خاصّة به: قميصًا أبيض بكمّين طويلين، مئزرًا أخضر داكن من القطن الغليظ المتصلّب، بنطالًا من المخمل المضلّع، ولتتويج كلّ ذلك، قبّعة صيد تغطّي أذنيه، غرز فيها عددًا من ذباب صيد السمك. إن كانت فكرة اعتمار قبّعة صيد السمك انطلقت أساسًا من باب الفكاهة، فإنّ هاورد بات يعتبرها منذ زمن طويل عنصرًا أساسيًا في بدلته، فيقوم كلّ صباح وبمنتهى الجديّة والدقّة بنصبها بالشكل الصحيح على خصلاته الرماديّة الكثّة، مستعينًا بمرآة صغيرة في الحمّام الخلفيّ.

كان هاورد يجد في فتح المحلّ صباحًا سعادة لم تتبدّد على مرّ السنين. يحبّ أن يتجوّل في أرجائه وسط صمت لا يقطعه سوى هدير البرّادات الخافت. يغمره السرور ذاته يومًا بعد يوم حين يبعث الحياة فيه مجدّدًا، فيشعل الأضواء، يرفع الستائر، وينزع الأغطية، كاشفًا عن الكنوز التي تحويها الأوعية المصفوفة على الرفّ المبرَّد: الخرشوف الشاحب الحائر بين الرماديّ والأخضر، الزيتون الأسود كالعقيق اليمانيّ، الطماطم المجفّفة المتغضّنة والملفوفة الأطراف مثل أحصنة بحر قرمزيّة، مغمورة بطبقة من الزّيت الممزوج بالأعشاب.

غير أنّ فرحته الصباحيّة في ذلك اليوم كانت تشوبها بعض العصبيّة. فقد تأخّرت مورين، شريكته في المحلّ، عن دوامها، وكان هاورد يخشى، على غرار مايلز قبله، أن يسبقه أحدٌ ما ويخبرها النبأ المذهل، خصوصًا أنّها لم تكن تقتني هاتفًا جوّالًا ليتّصل بها.

توقّف برهة قرب القنطرة التي شُقّت مؤخّرًا في الجدار بين متجر الأحذية القديم ومحلّ الأطعمة الفاخرة، والتي ستؤوي قريبا المقهى الأكثر رواجًا في باغفورد. تفحّص الشادر البلاستيكيّ الصناعيّ الشفّاف الذي مُدَّ في موقع الأشغال لمنع الغبار من التسلّل إلى محلّه. كان من المقرّر أن يفتح المقهى قبل عيد الفصح، في الوقت المناسب لاجتذاب السيّاح الذين يقصدون في مثل هذا الموسم غرب البلاد، والذين يملأ هاورد من أجلهم كلّ سنة واجهة محلّه بالمنتجات المحليّة من خمر التفّاح والأجبان ودمى القشّ اليدويّة الصنع.

رنّ الجرس من خلفه، فاستدار، وقلبه المتعب والمرمَّم يخفق بجنون من شدّة الإثارة.

مورين امرأة نحيلة محدّبة الكتفين في الثانية والستّين من العمر. كانت أرملة شريك هاورد الأساسيّ. قامتها المحنيّة تجعلها تبدو عشر سنوات أكبر من سنّها الحقيقيّة، رغم جهودها الحثيثة للتشبّث بمظاهر الشباب. إذ كانت تصبغ شعرها ليبدو أسود كالليل، وترتدي ملابس زاهية الألوان، وتتأرجح على كعبين عاليين إلى حدّ المجازفة، تسارع فور دخولها المحلّ إلى تبديلهما بصندلين طبيّين.

«صباح الخير، مو» بادرها هاورد.

كان مصمّمًا على عدم إفساد وقع النبأ من فرط العجلة في نقله، لكنّ الزبائن لن يتأخّروا في التوافد وكان لديه الكثير من الأخبار.

«هل علمتِ بما حصل؟»

عقدت حاجبَيها ونظرت إليه مستفهمة.

«توفّي باري فيربراذر.»

وقفت مشدوهةً لهذا الخبر.

«لا! كيف حصل ذلك؟»

نقر هاورد على جانب رأسه.

«خللٌ ما. هنا. كان مايلز في المكان، رأى كلّ شيء. في موقف ملعب الغولف.»

«لا!» ردّدت مذهولة.

«قُضِيَ أمره»، تابع هاورد وكأنّ هناك درجات متباينة في طُرُق الموت، وأنّ الطريقة التي أصيب بها هاورد على قدر خاصّ من الفظاعة.

رسمت مورين إشارة الصليب، فاغرة فمها المطليّ بحمرة الشفاه القانية. إيمانها الكاثوليكيّ كان يضفي دائمًا رونقًا خاصًّا على مثل هذه المواقف.

«مايلز كان هناك؟» سألت بصوت أجشّ. لمس في صوتها العميق المبحوح، صوت مدخّنة سابقة، توقًا لمعرفة أدقّ التفاصيل.

«هل يمكنك إشعال الغلّاية، مو؟»

لا ضير إن تركها تتحرّق في لهفتها بضع لحظات بعد. دلقت قليلًا من الشاي الغالي على يدها وهي تتعجّل للعودة إليه. جلسا معًا خلف المنضدة، على المقعدين الخشبيّين العاليين بلا ظهر، واللذين وضعهما هاورد هناك ليستريحا عليهما حين ينحسر النشاط في المحلّ. التقطت مورين حفنة ثلج من حول حوض الزيتون لتبرّد الحرق على يدها. استعرضا بشكل سريع الأوجه التقليديّة للمأساة: الأرملة («سوف تنهار، كانت تعيش من أجل باري»)، الأطفال («أربعة أحداث، إنّه عبء حقيقيّ على عاتق امرأة وحيدة»)، سنّ المتوفّى الشابّ نسبيًّا («لم يكن أكبر سنًّا بكثير من مايلز، أليس كذلك؟»).

وبعدما فرغا من هذه الشكليّات، وصلا إلى المسألة الجوهريّة التي تجعل كلّ ما عداها يبدو مجرّد ثرثرة فارغة.

«ما الذي سيحصل؟» سألت بصوت متلهّف.

«آه»، قال هاورد. «حسنًا، هذا هو السؤال المطروح، أليس كذلك مو؟ أنّنا في وضع شغور ظرفيّ، وهذا يمكن أن يُحدِث فرقًا حاسمًا.»

«في وضع ماذا؟» سألت مورين، وقد خافت أن يفوتها تفصيل محوريّ.

«شغور ظرفيّ»، ردّد هاورد. «هذا ما يحصل حين يصبح منصب في المجلس شاغرًا بداعي الوفاة. إنّه التعبير القانونيّ»، شرح بنبرة تعليميّة.

كان هاورد رئيس مجلس البلدة و«المواطن الأوّل» في باغفورد. وقُدّمَت له بصفته تلك قلادة رسميّة مطليّة بالذهب والخزف، أودعها في الوقت الحاضر في الخزنة الصغيرة التي ثبّتها مع شيرلي في أسفل خزانتهما. لو أنّ باغفورد صنّفت بمستوى بلديّة، لكان بوسعه أن يعرّف عن نفسه بلقب العمدة. في مطلق الأحوال، وبمعزل عن التسميات الرسميّة، فهو عمليًا عمدة. وهذا ما أوضحته شيرلي بشكل جليّ على الصفحة الرئيسيّة لموقع المجلس الإلكترونيّ، حيث نشرت صورة لهاورد مشرقًا متورّد الوجه، وعلى صدره تلمع قلادة «المواطن الأوّل»، وكتبت تحتها أنّه يرحّب بكل الطلبات المدنيّة والرسميّة للاضطلاع بمهام وظيفته. وهو ما فعله قبل بضعة أسابيع حين قام بتوزيع شهادات قيادة الدرّاجات في المدرسة الابتدائيّة المحليّة.

ارتشف جرعة من الشاي وقال وهو يبتسم للتخفيف من حدّة كلامه: «أتعلمين مو؟ كان فيربراذر نذلًا. كان بوسعه أن يتصرّف كنذل حقيقيّ».

«آه، أعرف ذلك، أجابت. أعرف.»

«لو بقي على قيد الحياة، لكان سيأتي يوم اضطرّ فيه إلى الدخول في صراع مفتوح معه. بوسعك أن تسألي شيرلي، كان يثبت أحيانًا أنّه نذلٌ خبيث.»

«أجل، أعرف.»

«حسنًا، سوف نرى. سوف نرى. من المفترض أن تكون المسألة انتهت الآن. لكن أؤكّد لك أنّني لم أكن أتمنّى الفوز بهذه الطريقة، أضاف مطلقًا تنهّدة

عميقة، لكن من أجل مصلحة باغفورد... ومصلحة سكّانها... لا يمكن القول أنّ الخبر سيّئ بالكامل.»

تفقّد ساعته.

«إنّها التاسعة والنصف تقريبا، مو.»

كانا يديران المحلّ بشكل منتظم ودقيق أشبه بطقوس معبد، فلا يتأخّران يوما في فتحه ولا يغلقانه يومًا قبل الدوام.

سارعت مورين مترنّحة لفتح الباب ورفع الستائر المعدنيّة، كاشفة شيئًا فشيئًا عن الساحة. كانت ساحة فاتنة ونظيفة، وذلك بفضل تضافر جهود ملّاكي المحلّات والمنازل المطلّة عليها. حولَها، تصطفّ الأُصص والسلال المعلّقة والأحـواض التي تفيض كلّ سنة بالزهور في مهرجان من الألـوان المنسّقة يتمّ الاتّفاق عليها في ما بينهم. قبالة محلّ «موليسون ولوي»، في الجهة الأخـرى من الساحة، ظهرت حانة الراهب الأسود، إحـدى أقدم حانات إنكلترا.

انهمك هاورد في تجوّله ذهابًا وإيّابًا بين المحلّ والقاعة الخلفيّة، التي راح يحضر منها أطباقًا مربّعة طويلة تحوي قوالب لحوم مفرومة طازجة، يصفّها بتأنّ خلف زجاج الرفّ حيث تتلألأ في تغليفتها الزاهية من شرائح الحامض والتوت البرّي. أنهى هاورد عرض آخر أطباق اللحوم ووقف لبرهة مطرقًا، يتأمّل نصب الحرب في وسط الساحة، وهو يلهث قليلًا من الإجهاد بعد كلّ هذا المجهود الذي أعقب الحديث الصباحيّ المطوّل.

كانت باغفورد ساحرة في ذلك الصباح. غمرت هاورد للحظة غبطة عظيمة، استسلم لإحساسٍ جذلٍ بنعمة الوجود، وجوده هو بالطبع، إنّما كذلك وجود البلدة التي يرى نفسه في كنفها مثل قلب نابض، كما يحلو له أن يفكّر. كان يتشبّع من كلّ ما يحيط به، المقاعد الخشبيّة اللمّاعة، الأزهار الحمراء والبنفسجيّة، أشعّة الشمس المنسكبة على أعلى الصليب الحجريّ... وباري فيربراذر الذي رحل. لم يسع هاورد إلّا أن يشعر بمشيئة إلهيّة خلف إعادة الترتيب المباغتة هذه لساحة المعركة التي تواجه فيها مع باري لوقت طويل.

«هاورد، نادت مورين فجأة، هاورد!»

رأى امـرأة تعبر الساحة. كانت امـرأة نحيلة سمراء ذات بشرة داكنة وشعر أسود، ترتدي معطفًا واقيًا من المطر وتمشي متجهّمة محدّقة إلى قدميها.

«هل تعتقد أنها...؟ هل علمت بالخبر؟» همست مورين.

«لا أدري»، أجاب هاورد.

كادت مورين تفتل كاحلها في حذاءيها اللذين لم يتسنّ لها بعد تبديلهما بصندليْها الطبيَّين، حين استدارت وابتعدت عن الواجهة مسرعة للعودة إلى خلف الرفّ. من جهته، عاد هاورد بمشية متباطئة مهيبة ليشغل المساحة الخالية خلف الصندوق، مثل مدفعيّ يحتلّ موقعه.

رنّ الجرس، ودفعت الدكتورة بارميندر جاواندا باب المحلّ، وهي لا تزال مقطّبة الوجه. لم تُعِر أيّ اهتمام لهاورد ومورين، بل توجّهت مباشرة إلى رفّ الزيوت. لاحقتها مورين بعينين ثاقبتين لا ترفّان مثل صقر يراقب فأرًا.

«صباح الخير»، قال هاورد حين اقتربت بارميندر من الرفّ حاملة بيدها قنّينة.

«صباح الخير.»

نادرًا ما كانت الدكتورة جاواندا تنظر في عينيه، سواء خلال اجتماعات المجلس البلدي، أو حين يلتقيان خارج قاعة الكنيسة. يجد هاورد عجزها عن إخفاء عدائها طريفًا للغاية. كان يزيده مراعاةً ولباقةً ومرحًا إلى حدّ الجذل حيالها.

«ألا تعملين اليوم؟»

«لا»، أجابت وهي تنقّب في حقيبتها.

لم تقوَ مورين على تمالك نفسها.

«خبرٍ فظيع أليس كذلك؟ ما حصل لباري فيربراذر»، قالت بصوتها الأجشّ الخشن.

«هممم» ردّت بارميندر قبل أن تتدارك: «ماذا؟»

«ما حصل لباري فيربراذر»، ردّدت مورين.

«ما الذي حصل له؟»

ستّة عشر عامًا مرّت على انتقالها إلى باغفورد، ولا تزال بارميندر تتكلّم بلهجة بيرمنغهام. تبدو على الدوام متوتّرة بسبب ثلم عموديّ عميق بين حاجبَيها تخطّه شدّة الاستياء أحيانًا، وأحيانًا أخرى شدّة التركيز.

«مات»، أعلنت مورين وهي تحدّق بنهم إلى الوجه العابس. «الليلة الماضية. أخبرني هاورد للتوّ.»

بقيت بارميندر مسمّرة، ويدها في حقيبتها، ثمّ بعد برهة حوّلت عينيها صوب هاورد.

«انهار وسقط ميتًا في موقف نادي الغولف»، قال هاورد. «مايلز كان هناك ورأى الأمر بأمّ عينيه.»

مضت بضع ثوانٍ.

«هل هذه نكتة؟» سألت بارميندر بصوت حادٍّ وعالٍ.

«لا، بالطبع»، أجابت مورين، مستمتعةً بالطريقة التي تبدي بها بارميندر استنكارها على هذا الشكل. «من يمكن أن يخرج بنكتة كهذه؟»

وضعت بارميندر قنينة الزيت بعنف على الرفّ المكسوّ بلوح من الزجاج، وغادرت المحلّ.

«أيُعقَل هذا؟» صاحت مورين، مطلقة العنان بنشوة تامّة لاستهجانها. «سمعتها؟ أهذه نكتة؟ أمرٌ جميل حقّا.»

«إنّها الصدمة»، شخّص هاورد بنبرة حكيمة، متابعًا بنظره بارميندر تعبر الساحة من جديد مسرعة، ومعطفها يتطاير خلفها. «هذه المرأة لن تكون أقلّ حزنًا من الأرملة»، أضاف وهو يحكّ بشرود ثنايا كرشه الكبير الذي كان يستحكّه في معظم الأحيان: «أؤكّد لك أنّ الأمر سيكون مثيرًا للاهتمام، أن نرى كيف سوف...»

لم يكمل جملته، لكن لا فرق. مورين كانت تعرف بالضبط ما يعنيه. فيما كانا يراقبان عضو المجلس البلدي جاواندا تتوارى عند أحد المفارق، كان الشغور الظرفيّ لذلك المقعد كلّ ما يجول في بالهما. لم يكن في نظرهما مجرّد مقعدٍ فارغٍ، بل قبّعة ساحر تزخر بالاحتمالات والإمكانات.

8

كان منزل أولد فايكريج آخر المنازل المشيّدة على الطراز الفكتوريّ في تشيرتش روو وأكثرها فخامة. يرتفع بكامل أبّهته في نهاية الشارع، وسط حديقة فسيحة عند زاوية مفرق، مقابل كنيسة سانت مايكل وجميع القدّيسين.

بعدما قطعت بارميندر الأمتار الأخيرة من الشارع عدوًا، تعاركت مع القفل الغليظ لتفتح الباب الأماميّ، ودخلت أخيرًا. لم يكن بوسعها أن تصدّق الخبر قبل أن يؤكّده لها مصدر آخر، أيّ مصدر آخر. سمعت رنين الهاتف في المطبخ، كمن ينذرها بالشؤم.

«نعم؟»

«فيكرام على الخطّ.»

زوج بارميندر جرّاح قلب يعمل في مستشفى ساوث وست جنرال في يارفيل، ولم يكن يتّصل بزوجته عادة من عمله. ضغطت بارميندر بيدها على السمّاعة إلى حدّ أن أصابعها أخذت تؤلمها.

«سمعت بالخبر من باب المصادفة. يبدو أنّه أصيب بتمدّد في الأوعية الدمويّة. طلبت من هيو جيفريز إعطاء الأولويّة لعمليّة التشريح. من الأفضل لماري أن تعرف ما الذي جرى. قد يكونوا يشرّحون الجثّة الآن.»

«طبعًا»، همست بارميندر.

«تيسا وول كانت هناك، اتّصلي بتيسا.»

«سأفعل، حسنًا.»

لكن ما إن أغلقت الخطّ حتّى انهارت في أحد كراسي المطبخ، وسرحت بنظرها من النافذة إلى الحديقة الخلفية بدون أن تراها، ضاغطة بأصابعها على شفتيها.

العالم بأسره انهار. ما زال كلّ شيء في مكانه، الجدران والكراسي وصور الأولاد على الحائط، لكنّ العالم من حولها فقدَ معناه. كلّ ذرّة من ذرّاته انفجرت وتشكّلت من جديد في لحظة، ومظهر الديمومة والمتانة المحيط بها بات سخيفًا، قد يتبدّد بمجرّد لمسة. فجأةً، بات الكَون برمّته هشًّا وهزيلًا.

فقدت السيطرة على أفكارها التي أخذت تتهاوى، فيما أجزاء ذكريات مشتّتة مفكّكة تطفو إلى ذهنها، تدور في حلقة ممسوسة وتتبدّد من جديد. عاودتها ذكرى باري يراقصها في حفل رأس السنة الذي أقامه كولين وتيسا وول، والحديث السخيف بينهما وهما يسيران عائدَين من آخر اجتماع للمجلس البلدي.

«بيتك يشبه وجه بقرة» قالت له.

«وجه بقرة؟ ماذا تعنين؟»

«أي إنّ واجهته أضيق من مؤخّره. هذا فأل خير. لكنّه يطلّ على مفرق، وهذا نذير شؤم.»

«يمكن القول إذًا أنّنا على الحياد، لا خير ولا شؤم»، قال باري.

لا بدّ أن الشريان المسدود في رأسه كان في هذه الأثناء ينتفخ بشكل خطير من غير أن يشكّ أيّ منهما في الأمر.

خرجَت بارميندر من المطبخ وقادتها خطاها بشكل لاواعٍ إلى الصالون الكئيب، تظلّله شجرة صنوبر بريّ وارفة ترتفع عاليًا في الحديقة الأماميّة وتحجب عنه النور في كلّ الأوقات. كانت تكره هذه الشجرة، لكنهما لم يحاولا التخلّص منها لأنّهما كانا على ثقة بأنّ الجيران سوف يقيمون الأرض ولا يُقعِدونها إذا ما تجرّأ على قطعها.

لم يكن بوسعها البقاء في مكانها. عبرت الرواق مجدّدا عائدة إلى المطبخ حيث رفعت سمّاعة الهاتف واتّصلت بتيسا وول. لم يجب أحدٌ. لا بدّ أنّها في العمل. كانت بارميندر ترتجف. عادت وجلست في كرسي المطبخ.

كان حزن جامح وهائل يعصر صدرها، مثل وحش مخيف انبعث فجأةً من تحت الأرض. باري، باري الصغير القامة الملتحي، صديقها، حليفها.

والدها قضى بالطريقة ذاتها. كانت في الخامسة عشرة، ولدى عودتهم إلى المنزل، وجدوه ممدّدًا على العشب، وجهه مطمور في الأرض وقفا رأسه في الشمس، وإلى جانبه جزّازة العشب. بارميندر تبغض الوفاة المباغتة. تطمئنّ إلى فكرة الاحتضار الطويل الذي يخشاه العديدون. الاحتضار يمهل المرء وقتًا لترتيب أموره وتنظيمها، وقتًا للوداع...

كانت يداها لا تزالان تضغطان على شفتيها. نظرَت إلى صورة المرشد ناناك المعلّقة على لوح الفلّين، تأمّلت وجهه العذب الجليل.

(لم يكن فيكرام يحبّ هذه الصورة.

«ماذا تفعل هذه الصورة هنا؟»

«إنّها تعجبني»، أجابت بنظرة تحدّ.)

باري مات.

تملّكَتها رغبة جامحة في البكاء، لكنّها كبتَت نفسها بقسوة شرسة لطالما تحسّرت عليها والدتها، وخصوصًا بعد وفاة والدها، حين كانت شقيقاتها وعمّاتها وبنات عمّاتها جميعًا يلطمن صدورهنّ في نواح ونحيب. «حين أفكّر أنّك كنت ابنته المفضّلة!» لكنّها حبست دموعها وأبقتها في أعماقها، حيث تحوّلت، كأنّما بالسحر، إلى غضب جارف ينفجر إلى الخارج بين الحين والآخر، سيلًا من الحمم الملتهبة فينصبّ على أولادها وموظّفي الاستقبال في عملها.

لا يزال مشهد هاورد وموربن خلف الرفّ مطبوعًا في ذهنها، الوحش والفزّاعة الضامرة، وفي ذهنها تراهما ينظران إليها متعاليين وهما يخبرانها بوفاة صديقها. فكّرت في فورة حنق وكراهية بدت لها أقرب الى البلسم على جرحها:»إنّهما سعيدان، يعتقدان أنّهما سينتصران الآن.»

انتفضت ونهضت من جديد، عادت مسرعة إلى غرفة الجلوس وتناولت عن أعلى رفّ في المكتبة أحد أجزاء مجموعة «ساينشي»، كتابها المقدّس الجديد. فتحته بشكل عشوائيّ وقرأت:

«يا أيّها الذهن، العالم هوّة مظلمة سحيقة. من كلّ جانب يبسط الموت شباكه.»

لم تفاجأ بما وقعت عليه عيناها بالمصادفة، بل شعرت وكأنّها تتأمّل وجهها المحطّم في مرآة.

9

خُصِّصَت لمكتب التوجيه في مدرسة وينترداون الشاملة قاعة ضيّقة يمكن الدخول إليها من المكتبة. كانت قاعة بلا نوافذ مضاءة بمصباح يتيم من النيون.

كانت الساعة العاشرة والنصف حين دخلت تيسا وول، رئيسة قسم التوجيه وزوجة نائب المديرة، القاعة. كانت خدرة من شدّة التعب، وقد جلبَت كوبًا من القهوة المركّزة من قاعة الأساتذة. كانت امرأة صغيرة القامة جسيمة، وجهها عريض باهتٌ، محاط بشعر رمـاديّ تتولّى بنفسها قصّه، فتنسدل خصله العكشة فوق جبينها منحرفة بعض الشيء. كانت تختار ملابس من النوع الحرفيّ الصنع المحبوك يدويًا، تزيّنها بحلي من الخرز والخشب. في ذلك اليوم، كانت ترتدي تنّورة طويلة تبدو مصنوعة من قماش القنّب، لبّقت لها معطفًا غليظًا من الصوف الأخضر الحشيشي المتكتّل. نادرا ما كانت تيسا تنظر إلى نفسها في مرآة طويلة لترى كامل قامتها، بل كانت حتّى تقاطع المتاجر المجهّزة بمثل هذه المرايا بحيث لا يمكن تفادي النظر إليها.

حاولت قدر المستطاع تلطيف مظهر قاعة التوجيه الشبيهة بزنزانة سجن، فعلّقت نسيجًا جداريًا نيباليًا تقتنيه منذ أيّام الدراسة، بساطًا مزركشًا بألوان قوس قزح في وسطه شمس وقمر صفراوان مشرقان يبثّان خطوط أشعّة متماوجة. أمّا ما تبقّى من الجدران العارية المطليّة، فغطّتها بملصقات متنوّعة، تدرج قائمة نصائح مفيدة كفيلة بتعزيز الثقة بالنفس، أو أرقام هاتف يمكن الاتّصال بها لطلب المساعدة في عدد من المسائل الصحيّة والنفسيّة. أدلت المديرة بملاحظات ساخرة بعض الشيء عن هذه الملصقات في آخر مرّة زارت فيها مكتب التوجيه.

«إذًا حين تفشل جميع الحلول، يبقى في وسعهم الاتّصال بخطّ إنقاذ الطفولة، أهذا ما يمكن استنتاجه؟» سألت، مشيرة إلى أكبر الملصقات.

غرقت تيسا في مقعدها مطلقة همهمة، نزعت ساعتها التي كانت تزعج معصمها ووضعتها على المكتب إلى جانب رزم المطبوعات والأوراق

والملحوظات. كانت تشكّ في أن تسير الأمور في ذلك النهار وفق البرنامج المقرّر. تشكّ حتّى في أن تحضر كريستال ويدون إلى المكتب. غالبًا ما كانت الفتاة تغادر المدرسة حين تغضب أو تستاء من أمر ما، أو حتّى تسأم. أحيانا يتمّ اعتراضها قبل أن تصل إلى بوّابة المدرسة، فترغَم على العودة بمواكبة مشدّدة وسط سيل من الشتائم والزعيق، وفي أحيان أخرى تنجح في الفرار فتتوارى لأيّام. دقّ جرس المدرسة. إنّها الساعة العاشرة وأربعين دقيقة. ظلّت تيسا تنتظر.

في الساعة العاشرة وإحدى وخمسين دقيقة، فُتح الباب بعنف ودخلت كريستال. صفقت الباب خلفها وتهاوت متكاسلة في الكرسي أمام تيسا، مكتّفة ذراعيها على صدرها العارم، وأقراطها الرخيصة تتأرجح وتهتز مطقطقةً.

«يمكنك أن تقولي لزوجك إنّني لم أضحك إطلاقًا، اللعنة! مفهوم؟» قالت بصوت يرتجف.

«لا تطلقي الشتائم، أرجوك كريستال»، ردّت تيسا.

«لم أضحك بتاتًا، مفهوم؟» صرخت كريستال.

دخلت مجموعة صغيرة من تلاميذ البكالوريا إلى المكتبة، حاملين ملفّات. ألقوا نظرة من اللوح الزجاجيّ في أعلى الباب، وابتسم أحدهم حين لمح رأس كريستال من الخلف. نهضت تيسا وأسدلت الستارة المعدنيّة، ثمّ عادت إلى كرسيها وجلست قبالة الشمس والقمر.

«حسنًا، كريستال»، قالت، «أخبريني بما جرى.»

«زوجك قال شيئا ما عن السيّد فيربراذر، حسنًا؟ ولم يكن بوسعي أن أسمع ما يقول، مفهوم؟ عندها ردّد لي نيكي كلامه، ولم يسعني بحقّ الجحيم...»

«كريستال! ...»

«لم يسعني أن أصدّق، وصرخْت، لكنّني لم أضحك بتاتًا! اللعنة...»

«... كريستال...»

«لم أضحك إطلاقًا، مفهوم؟» زعقت كريستال، ضاغطة ذراعيها المكتوفتين على صدرها، وساقاها ملفوفتان إحداهما على الأخرى بعصبيّة.

«حسنًا، كريستال.»

كانت تيسا معتادةً نوباتِ الغضب من جانب التلاميذ الذين يحضرون بانتظام إلى مكتب التوجيه. معظمهم كانوا يفتقرون إلى أبسط المبادئ الأخلاقيّة، فيكذبون ويسيئون التصرّف ويخادعون ويراوغون بشكل اعتياديّ. لكنّ سخطهم حين يُتَّهمون جزافًا يكون على الدوام صادقًا بقدر ما هو عنيف. أحسّت تيسا بنبرة صدق في استهجان كريستال، خلافًا لمظاهر الغضب التي درجت الفتاة على افتعالها. وفي مطلق الأحوال، فإنّ الصيحة التي سمعتها تيسا خلال التجمّع بدت لها تعبير صدمة واستنكار أكثر منها ضحكة سخرية. ذهلت تيسا حين وصف كولين علنًا الصيحة بالضحك.

«رأيت أبو خزانة...»

«كريستال!...»

«قلت لزوجك اللعين...»

«كريستال، أقولها للمرّة الأخيرة، أرجو أن تتوقّفي عن إطلاق الشتائم حين تكلّمينني...»

«قلت له إنّني لم أضحك أبدًا، قلت له هذا! ورغم ذلك فقد حجزني، بحقّ الجحيم!»

أومضت دموع سخط في عينَي الفتاة المكحّلتين بخطّ أسود كثيف. حدّقت مليًّا إلى تيسا ووجهها محتقن بالدماء، وهي تتحفّز للفرار أو لرميها بالشتائم، أو حتّى للقيام بإشارة بذيئة لها. مضت سنتان تقريبًا وهما تعملان بمشقّة كبيرة على إحلال ثقة لا تزال هشّة بينهما، وها هي الآن تلك الخيوط التي نُسجَت بجهد جهيد، مهدَّدة بالانقطاع.

«إنّني أصدّقك، كريستال. أصدّق أنّك لم تضحكي، لكن أرجوك، أوقفي الشتائم.»

انهمرت الدموع فجأة، وراحت كريستال تفرك عينيها الملطّختين بالكحل بأصابعها القصيرة السمينة. أخرجت تيسا كومة محارم من درج مكتبها، وناولتها إلى كريستال التي انتشلتها من يدها بدون أن تشكرها. مسحت عينيها وتمخّطت. كانت يدا كريستال أكثر ما يثير العطف فيها،

بأظافرهما القصيرة العريضة المكسوّة بطبقة طلاء غير سويّة، وإشاراتهما التي تنمّ عن سذاجة وقلّة تكلّف أقرب إلى الطفولة.

انتظرت تيسا حتى هدأت زفرات كريستال واستعادت أنفاسها، ثمّ قالت:»يتهيّأ لي أنّك مضطربة جدّا لوفاة السيّد فيربراذر...»

«أنا فعلًا كذلك»، قالت كريستال بعدائيّة، «وإن يكن؟»

تراءى لتيسا، فجأةً، مشهد باري يستمع إلى هذا الحديث. تصوّرت ابتسامته المليئة بالأسف. خالت نفسها تسمع صوته يقول بوضوح: «يا للطفلة المسكينة!». أحسّت بعينيها تحرقانها. أغلقتهما، عاجزة عن التفوّه بكلمة. سمعت كريستال تتململ في كرسيها، عدّت إلى العشرة ببطء، ثمّ فتحت عينيها من جديد. كانت كريستال لا تزال تحملق بها بنظرة تحدّ، مكتِّفة ذراعيها، ووجهها قرمزيّ.

«أنا أيضًا حزينة للغاية على السيّد فيربراذر، قالت تيسا. الواقع إنّه كان صديقًا قديمًا لنا. هذا ما يجعل السيّد وول...»

«قلت له إنّني لم...»

«أرجوك كريستال، دعيني أكمل ما أريد قوله. السيّد وول متكدّر للغاية اليوم، ولا شكّ في أنّ هذا هو ما جعله... ما جعله يسيء فهم ردّ فعلك. سوف أكلّمه.»

«اللعنة! إن كنت تظنّين أنّه سيبدّل...»

«كريستال!»

«حسنًا، لن يغيّر رأيه.»

أخذت كريستال تركل قائمة مكتب تيسا مرارًا وتكرارًا بوتيرة سريعة. رفعت تيسا مرفقَيها عن سطح الطاولة حتّى لا تشعر بالارتجاجات، واكتفت بالقول: «سوف أكلّم السيّد وول».

بقيت على موقف محايد، أقلّه برأيها، منتظرة بصبر أن تهدأ كريستال. غير أنّ الفتاة ظلّت جالسة بصمت عدائيّ، وواصلت رفس قائمة المكتب بشراسة، وهي تبلع ريقها بين الحين والآخر.

«ما الذي حصل للسيّد فيربراذر؟» سألت أخيرًا.

«يعتقدون أنّ شريانًا انفجر في دماغه.»

«ما هو السبب؟»

«كان مصابًا بعطب خلقيّ ولم يكن يعلم به.»

كانت تيسا تعلم جيّدًا أن لدى كريستال تجربة أكبر منها بكثير مع الموت المفاجئ. فالوفاة الصاعقة كثيرًا ما ضربت في سنّ مبكرة في أوساط والدتها، بوَتيرة مدهشة تجعل الأمر يبدو وكأنّهم، في أسرتها، يخوضون حربًا سريّة لا يعرف بها باقي العالم. أخبرت كريستال مرّة تيسا كيف عثرت وهي طفلة في السادسة على جثّة شاب لا تعرفه في حمّام والدتها. ذلك الحادث كان السبب خلف وضعها لأوّل مرّة في عهدة المربّية كاثي، وهذا ما تكرّر مرارًا في ما بعد. النانا كاثي كانت تحتلّ حيّزًا مهمًّا في العديد من قصص كريستال عن طفولتها. كانت شخصيّة عجيبة، مزيجًا ما بين المخلّصة المنقذة من الورطات والمستبدّة البغيضة.

« الآن سينتهي أمر فريقنا الرياضي، اللعنة!» قالت كريستال.

«لا، لن ينتهي، ولا تشتمي، كريستال، أرجوك.»

«بل سينتهي»، ردّت كريستال.

ودّت تيسا أن تنفي ذلك، لكنّها كانت مرهقة ولم تعد تقوى على المقاومة. ثمّ إنّ صوتًا منطقيًّا منفصلًا عنها كان يقول لعقلها إنّ كريستال على حقّ في مطلق الأحوال. فريق التجذيف النسائيّ سوف ينتهي حتمًا. لا أحد سوى باري استطاع يومًا أن يقنع كريستال ويدون بالانضمام إلى أيّ مجموعة والبقاء فيها. الآن سوف تخرج من المجموعة. تيسا على يقين بذلك، وكذلك كريستال نفسها. بقيَتا جالستَين لبعض الوقت بدون أن تتفوّه أيّ منهما بكلمة. كانت تيسا عاجزة من شدّة تعبها عن إيجاد الكلمات المناسبة لترطيب الأجواء بينهما. أحسّت بجسدها يرتعش، شعرت بأنّها عارية حتّى العظام، مكشوفة وضعيفة. مضت عليها أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة بدون أن تنام.

(اتّصلت سامانثا موليسون من المستشفى في الساعة العاشرة. كانت تيسا خرجت للتوّ من حمّام ساخن طويل لتشاهد الأخبار على البي بي سي.

ارتدت ملابسها من جديد على عجل، فيما راح كولين يهمهم كلامًا غير مفهوم، وهو يهرع في كل الاتّجاهات ويصطدم بقطع الأثاث. نادَيا ابنهما في الطبقة العلويّة لإبلاغه بأنّهما ذاهبان إلى المستشفى، ثمّ خرجا مسرعين إلى السيّارة. انطلق كولين بسرعة جنونيّة إلى يارفيل، وكأنّه قد يتمكّن من إعادة باري إلى الحياة إذا ما استطاع الوصول إلى هناك بسرعة قياسيّة. وكأنّه يسابق الواقع ليرغمه على تغيير مساره).

«إن لم يكن لديك ما تقولينه لي، سوف أذهب»، قالت كريستال.

«كريستال أرجوك، لا تكوني فظّة. إنّني منهكة هذا الصباح. قضينا الليل بكامله أنا والسيّد وول في المستشفى مع زوجة السيّد فيربراذر. إنّهما صديقان حميمان لنا.»

(انهارت ماري تمامًا حين رأت تيسا. غمرتها بقوّة وطمرت وجهها في عنقها، مطلقة صرخة ألمٍ مروّعة. ورغم تأثّر تيسا التي انهمرت دموعها فوق ظهر ماري النحيل، خطر لها بوضوح أنّ نواح ماري أشبه بالندب. ذلك الجسد الرقيق الرهيف الذي غالبًا ما حسدتها تيسا عليه كان يرتجف كالورقة بين ذراعيها، عاجزًا عن احتمال عبء الأسى الذي ألقي على كتفيه.

لا تذكر تيسا أنّها رأت مايلز وسامانثا يغادران. لم تكن تعرفهما جيّدًا. تفترض أنّهما شعرا بالارتياح حين تسنّى لهما الرحيل).

«رأيت زوجته»، قالت كريستال. «امرأة شقراء. كانت تأتي لترانا نسابق.»

«نعم»، أجابت تيسا.

كانت كريستال تقضم أظافرها.

«كان سيجعلني أتحدّث إلى الصحيفة»، قالت فجأة.

«ماذا؟» سألت تيسا مرتبكة.

«السيّد فيربراذر كان... كان سيرتّب لي مقابلة. أنا وحدي.»

نشرت الصحيفة المحليّة مرّة مقالة عن فوز فريق وينترداون النسائيّ للتجذيف في نهائيّات المباريات التي تجري في المنطقة. في ذلك اليوم، جلبت كريستال التي لا تجيد القراءة نسخة عن الصحيفة لتيسا، فقرأتها

مسؤولة التوجيه بصوت عالٍ، مُطلِقةً بين الحين والآخر صيحات فرح وإعجاب. كانت تلك أسعد جلسة توجيه عرفتها خلال مسارها المهنيّ.

«هل كانوا سيجرون معك مقابلة حول موضوع التجذيف؟ سألت تيسا. الفريق مرّة جديدة؟»

«لا»، ردّت كريستال. «أمور أخرى»، ثم بعد لحظة: «متى سيجري الدفن؟»

«لا ندري بعد»، أجابت تيسا.

عاودت كريستال قضم أظافرها. لم تجد تيسا ما يكفي من الطاقة لقطع الصمت الذي لفّهما.

10

صدر إعلان وفاة باري على موقعِ المجلس البلديّ الإلكترونيّ بدون أن يثير أيّ ضجيج. مجرّد حصاة صغيرة أُلقيَت في المحيط الشاسع. كلّ ما في الأمر أنّ خطوط الهاتف في باغفورد كانت، في يوم الاثنين ذاك، أكثر انشغالًا من العادة، وتجمّع المارّة في حلقات صغيرة على الأرصفة الضيّقة، ساعين، بنبرات مصدومة، للتثبّت من صحّة معلوماتهم.

ومع انتشار النبأ، وقع تحوّلٌ غريب أضفى بُعدًا رمزيًا مؤثّرًا على توقيع باري الذي يذيّل الصفحات المكدّسة على مكتبه والرسائل التي يكتظّ بها البريد الألكترونيّ لمعارفه الكثر، حتى غدا أشبه بكسرات خبز تركها صبيّ ضائع في الغابة خلفه. تلك الخربشات السريعة والكلمات الرقميّة التي خطّتها أصابع همدت إلى الأبد بدت الآن كئيبة مثل قشور فارقتها الحياة. شعر غافين بالاشمئزاز أمام رسائل صديقه الميت على هاتفه الجوّال، فيما أصيبت إحدى فتيات فريق التجذيف النسائيّ بنوبة هستيريّة حين عثرت على استمارة تحمل توقيع باري في حقيبتها المدرسيّة، وهي لا تزال باكية خلال مغادرتها قاعة الرياضة حيث عُقدَ التجمّع.

الصحافيّة الشابّة في الثالثة والعشرين من العمر العاملة في جريدة يارفيل والجوار لم تكن على علم بأنّ دماغ باري المتّقد نشاطًا قبل وقت قصير، لم يعد الآن سوى حفنة من الأنسجة الإسفنجيّة على طبق معدنيّ في مستشفى ساوث وست جنرال. قرأت ما أرسله لها بالبريد الإلكتروني قبل ساعة فقط من وفاته، ثمّ اتّصلت برقم هاتفه الجوّال، لكنّها لم تتلقّ أيّ إجابة. كان هاتف باري الذي أطفأه، استجابةً لطلب ماري قبل أن يتوجّها إلى نادي الغولف، راقدًا بصمت قرب فرن المايكروويف في المطبخ، إلى جانب أغراضه الشخصيّة المتبقّية التي سلّمها إيّاها المستشفى. لم يمسّها أحد. حمّالة مفاتيحه، هاتفه الجوّال، محفظته القديمة المتشقّقة. تلك الأغراض الأليفة باتت وكأنّها أعضاء بُترت من جثّته. لو سلّموا ماري أصابعه أو رئتيه، لكان الأمر سيّان.

راح نبأ وفاة باري ينتشر في كلّ الاتّجاهات مثل هالة مشعّة يبثّها الذين كانوا في المستشفى. واصل انتشاره حتّى بلغ يارفيل، حيث وصل إلى مسامع أشخاص لم يكونوا على معرفة شخصيّة بباري، بل لمحوه أو سمعوا به أو باسمه. فقدت الوقائع تدريجيًّا دقّتها ووضوحها، بل تبدّلت بشكل تام أحيانًا. ففي بعض الروايات، كان باري نفسه يفقد أهميّته لتطغى عليه فظاعة موته. لا يعود سوى مجرّد سيل من القيء والبول، كومة بائسة تنتفض وتختلج، حتّى ليبدو من غير اللائق، بل من المضحك من شدّة غرابته، أن يموت أيّ شخص كان بهذه الطريقة المخزية في نادي الغولف الصغير الذي يدّعي الرقيّ.

هكذا، وبعدما كان سايمون برايس من الأوائل الذين علموا بخبر وفاة باري، في منزله عند أعلى التلّة المطلّة على باغفورد، وردته إحدى هذه الروايات العجيبة السارية فيما كان في مطبعة هاركورت- والش في يارفيل، حيث يعمل منذ أن ترك المدرسة. نقلها إليه سائق رافعة شابّ يمضغ علكة، صادفه عند خروجه من الحمّام عند العصر، ووجده ينسلّ خلسة قرب باب مكتبه.

في الأساس، لم يكن الفتى قد قصده للتكلّم على باري.

«ذلك الغرض الذي قلت إنّك قد تكون مهتمًّا به؟» تمتم بعدما دخل المكتب في أثر سايمون الذي أغلق الباب. «يمكنني أن أؤمّنه لك إن كنت لا تزال ترغب في ذلك.»

«حقًّا؟ قال سايمون وهو يجلس خلف مكتبه. ظننتك قلت لي إنّه جاهز.»

«إنّه جاهز، لكن لا يمكنني جلبه قبل الأربعاء.»

«كم ثمنه قلت لي؟»

«ثمانون ورقة، عدًّا ونقدًا.»

كان الفتى يمضغ علكته بقوّة. كان بوسع سايمون أن يسمع أصوات ريقه اللزجة وهو يتشدّق. العلكة هي واحدة من الأمور الكثيرة التي يبغضها.

«إنّه من النوعيّة الجيّدة، أليس كذلك؟ سأل سايمون. ليس قطعة خردة مستعملة وبالية، صح؟»

«إنّه قادم مباشرة من المخزن، أكد الفتى رافعًا كتفيه ومتأرجحا من قدم إلى أخرى. البضاعة الحقيقيّة، خارجة من المصنع في علبتها.»

«حسنًا، اتّفقنا إذًا»، قال سايمون. «أحضر الغرض الأربعاء.»

«ماذا؟ إلى هنا؟ حملق الفتى بذهول. لا، غير وارد أن يكون إلى هنا يا رجل... أين تسكن؟»

«في باغفورد.»

«أين في باغفورد؟»

كان سايمون يبغض الكشف عن عنوان منزله، إلى حدّ يلامس التطيّر. لم يكن بغضه هذا يقتصر على تمنّعه عن استقبال زوّار - فهو لا يعتبر فقط أنّهم ينتهكون خصوصيّته، بل أكثر من ذلك، أنّهم قد يخرّبون أملاكه- ولكنّه كان يرى في منزل هيلتوب هاوس ملاذًا طاهرًا عليه أن يصونه، عالمًا خاصًّا بعيدًا عن يارفيل وضجيج المطبعة.

«سوف أحضر وأستلمه بعد انتهاء عملي»، قال سايمون، متجاهلًا السؤال. «أين تحتفظ به؟»

لم يبدُ الفتى مرتاحًا للأمر. رمقه سايمون بنظرة صارمة قاطعة.

«في هذه الحالة، أريد النقود مسبقا»، احتجّ سائق الرافعة محاولًا المساومة.

«تحصل على النقود حين أحصل على البضاعة.»

«الأمور لا تجري على هذا النحو يا صاحبي.»

أحسّ سايمون ببوادر صداع. لم يكن بوسعه التخلّص من الفكرة الفظيعة التي زرعتها زوجته من دون أن تأبه في ذهنه في الصباح، بأنّ قنبلة موقوتة صغيرة قد تبقى مغروزة لدهر في دماغ رجل بدون أن يتمّ كشفها. الجلجلة والهدير المنبعثان بشكل متواصل من آلة الطباعة الضخمة خلف باب مكتبه لم يكونا بالتأكيد مفيدين لصحّته. قد تكون أغشية شرايينه ترقّقت سنة بعد سنة على وقع هذا الصخب المستمرّ بلا هوادة.

«حسنًا،» تمتم وهو يدور في كرسيه لانتشال محفظته من جيبه الخلفيّ. اقترب الفتى من مكتبه، مادًّا يده.

«هل تقيم بالقرب من ملعب الغولف في باغفورد؟» سأل فيما كان سايمون يعدّ أوراقًا ماليّة من فئة العشرة باوندات ويضعها على راحة يده الممدودة. «كان أحد أصدقائي هناك الليلة الماضية، ورأى رجلًا يسقط على الأرض ميتًا. تقيّأ كلّ ما في أمعائه، هوى ومات هكذا، ببساطة، في موقف السيّارات اللعين.»

«أجل، سمعت بهذه القصّة»، أجاب سايمون، وهو يتحسّس الورقة الماليّة الأخيرة المتبقّية خشية أن تكون ورقة أخرى ملتصقة بها.

«عضو فاسد في مجلس البلدة، هذا ما كان عليه الرجل الذي مات. كان يتقاضى رشاوى وما شابه. كانت شركة غرايز ترضيه باستمرار حتّى يواصل التعاقد معهم.»

«حقًّا؟» قال سايمون بنبرة غير مبالية، رغم أنّ هذه المعلومات أيقظت اهتمامه.

أيُعقَل؟ باري فيربراذر؟ مَن كان ليخطر له مثل هذا الأمر؟

«إذًا، سأمرّ بك لاحقًا، قال الفتى وهو يخبّئ الثمانين باوندًا في جيبه الخلفيّ. نذهب معًا لإحضاره الأربعاء.»

أغلق سايمون باب المكتب بعد خروج الفتى. جلس مصعوقًا لما اكتشفه للتوّ عن باري فيربراذر، إلى حدّ أنّه لم يعد يشعر بالصداع الذي لم يكن في الواقع سوى وخز بسيط. إذًا، باري فيربراذر كان في الحقيقة محتالًا.

باري الاجتماعيّ والفائض نشاطًا، باري الكثير الشعبيّة والمفعم بالحيويّة والمرح... وطوال هذا الوقت، كان يتقاضى رشاوى من غرايز.

كان خبرٌ كهذا ليصدم جميع مَن عرفوا باري، غير أنّه لم يصدم سايمون، كما أنّه لم يحطّ من قيمة الرجل الميت بنظره، بل على العكس، شعر باحترام متزايد تجاهه. الرجل الميت. أيّ شخص يتمتّع بقليل من الذكاء يسعى خلسة وبدون كلل لانتشال كلّ ما أمكنه. كان سايمون على يقين بذلك. كانت عيناه مسمّرتين على شاشة الكمبيوتر أمامه، لكنّه لم يكن يرى جدول الأرقام المنشور عليها، كما لم يعد يسمع ضجيج آلة الطباعة خلف نافذته المكسوّة بالغبار.

ليس أمام المرء أيّ خيار سوى العمل من الصباح حتّى المساء إن كان لديه عائلة، لكنّ سايمون لطالما علم بأنّ هناك وسائل أخرى أجدى، أنّ حياة من الوفرة والرخاء تلوح أمامه، معلّقة فوق رأسه مثل سلّة بينياتا ضخمة تزخر بالكنوز. يمكنه أن يطالها بشرط أن تكون لديه عصا طويلة وأن يعلم متى ينبغي ضربها بها. كان سايمون على قناعة راسخة مثل الأطفال بأنّ العالم بأسره خُلِق ليكون مسرحًا لحياته الشخصيّة. إنّ القدر يحوم فوقه، زارعًا الأدلّة والإشارات على طريقه. هكذا، شعر بثقة كبيرة بأنّ السماء أنعمت عليه مجدّدًا بإشارة، بطرفة عين.

تلك التوجيهات الماورائيّة الخارقة كانت خلف العديد من القرارات التي اتّخذها سايمون في الماضي وبدت متهوّرة، وغير واقعيّة. قبل سنوات، حين كان لا يزال متدرّبًا متواضعًا في المطبعة، بالكاد يستطيع تسديد أقساط قرض عقاريّ وتأمين احتياجات زوجته في بدايات حملها، راهن بمئة باوند في سباق الخيل الوطني الكبير على حصان يُدعى «طفل روثي» حلّ في نهاية الأمر في المرتبة ما قبل الأخيرة من نتائج السباق. وبعد فترة وجيزة من شرائهما منزل «هيلتوب هاوس»، بدّد سايمون مبلغ ألف ومئتي باود كانت روث تعتزم استخدامها لشراء ستائر وسجّاد، في مشروع ملكيّة بالتشارك اتضح في النهاية أنّه ضرب احتيال دبّره صديق قديم له من يارفيل، رجل نصّاب يخدع ببراعته وتألّقه. فكانت النتيجة تبخّر استثمار سايمون مع مدير الشركة. جنّ

جنونه. وفي ثورة غضبه راح يلعن ويزعق، وحين اعترض ابنه الأصغر طريقه، ركله وأرسله متدحرجًا على درج المنزل. بالرغم من ذلك، لم يلجأ إلى الشرطة، لانّه كان على علم ببعض المخالفات التي تمارسها الشركة قبل أن يستثمر فيها، فخاف أن يضطرّ إلى الإجابة عن أسئلة محرجة.

لكن في مقابل هذه المصائب والنكسات، كانت هناك ضروب حظّ، حِيَل تكلّلت بالنجاح، وحدس أتى بنتيجة. كان سايمون يقيم الكثير من الوزن لكلّ ذلك وهو يقيّم حصيلة عمليّاته. فتلك الحصيلة هي ما كانت تجعله يؤمن رغم كلّ شيء بحظّه، وما يعزّز اعتقاده بأنّ الكون قد أعدّ له خططًا عظيمة، وأنّ قدره لا يقتصر على ثبوته في وظيفة متواضعة بأجر زهيد حتّى تقاعده أو وفاته. النصب والنِّفاق، الرشاوى والامتيازات، الكلّ يلجأ إلى الوسائل الملتوية. حتّى باري فيربراذر على ما يبدو.

مطرقًا في مكتبه الضيّق، راح سايمون بيرس يفكّر بجشع في المقعد الشاغر على مائدة المحظيّين، حيث تمطر الثروات بدون أن تجد مَن يتلقّفها.

(الأيّام الخوالي)

المعتدون على الأملاك الخاصّة

12.43 بخلاف المعتدين على الأملاك الخاصّة (وهم، بالمبدأ، مَن يستولون على أملاك الغير ومَن يشغلونها، بالحالة التي يجدونها فيها)...

تشارلز آرنولد- بيكر
إدارة المجالس المحليّة
الطبعة السابعة

1

كان مجلس باغفورد البلدي يمثّل قوّة مدهشة بالنسبة إلى حجمه. يجتمع مرّة في الشهر في قاعة كنيسة فكتوريّة أنيقة، وجميع المحاولات الجارية منذ عقود للحدّ من ميزانيّته، أو وضع اليد على أيّ من سلطاته، أو استيعابه ضمن أي هيئة مركزيّة مستحدَثة، اصطدمت بمقاومة شرسة تغلّبت عليها وأسقطتها. من بين جميع المجالس المحليّة التي يشرف عليها مجلس إدارة يارفيل، كان مجلس باغفورد يعتدّ بكونه الأكثر مشاكسة، الأعلى صوتًا والأكثر استقلاليّة.

كان المجلس يضمّ حتّى مساء الأحد ستّة عشر عضوًا، رجالًا ونساءً، من سكّان باغفورد. وبما أنّ ناخبي البلدة يفترضون أنّ مجرّد الترشّح لمنصب في المجلس البلدي يفترض توافر الكفاءة الضروريّة لذلك، فإنّ جميع أعضاء المجلس الستّة عشر فازوا بمقاعدهم بدون منازع.

غير أنّ هذه الهيئة المعيّنة بكلّ هذه الطريقة الوديّة، تشهد الآن حربًا داخليّة ضارية. فقد وصلت المسألة التي تثير الأحقاد والضغائن في باغفورد منذ حوالى ستّين عامًا إلى مرحلتها الأخيرة، واصطفّ الأعضاء في معسكرَين متواجهَين خلف زعيمَين يتحلّيان بكاريزما عالية.

ولكن، من أجل فهم أبعاد الخلاف، لا بدّ من تبيان حجم الكره والريبة اللذين تكنّهما باغفورد لمدينة يارفيل، جارتها الشماليّة.

كانت يارفيل، بما فيها من متاجر ومؤسّسات ومصانع، فضلًا عن مستشفى ساوث وست جنرال، توظّف القسم الأكبر من سكّان باغفورد. شباب البلدة الصغيرة كانوا يقضون ليالي السبت بصورة عامّة في يارفيل حيث يرتادون دور السينما والملاهي الليليّة. كانت المدينة تملك كاتدرائيّة وعدّة متنزّهات ومركزَين تجاريَّين ضخمَين، وكلّها وجهات مثيرة تجتذب كلّ مَن يستنفد مفاتن باغفورد التي لا تضاهى. ورغم ذلك، لم تكن يارفيل في نظر سكّان باغفورد الأصيلين أكثر من شرّ لا بدّ منه. موقفهم تجاه المدينة كانت تختزله التلّة العالية وعلى رأسها دير بارغيتر، التي كانت تحجب مشهد يارفيل عن أنظار سكّان باغفورد، وتبعث لديهم ذلك الوهم السعيد بأنّ المدينة أبعد ممّا هي عليه في الحقيقة.

2

من سخرية المصادفات أنّ تلّة بارغيتر كانت تحجب أيضًا عن البلدة مكانًا آخر لطالما اعتبرته باغفورد ملكًا خاصًّا لها، هو قصر «سويتلوف هاوس». كان قصرًا ساحرًا عسليّ اللون شُيِّدَ على طراز الأسلوب المعماريّ الذي كان شائعًا في عهد الملكة آن، يتوسّط هكتارات من الحدائق والأراضي الزراعيّة، في منتصف المسافة ما بين البلدة ويارفيل.

توارثت عائلة سويتلوف الأرستقراطيّة القصر من جيل إلى جيل على مدى حوالى مئتي عام بدون أيّ عقبة، إلى أن انقرضت في أوائل القرن العشرين. أمّا كلّ ما تبقّى اليوم من تلك الحقبة الطويلة التي ارتبط فيها تاريخ عائلة سويتلوف بباغفورد، فمدفنٌ مهيب، الأكثر فخامة في مقبرة كنيسة سانت مايكل وجميع القدّيسين، فضلًا عن بعض الشعارات وأختامٍ على سجلّات محليّة ومبانٍ، مثل آثار خطى وروث متحجّر خلّفته كائنات نفقت.

بعد وفاة آخر أحفاد أسرة سويتلوف، انتقلت ملكيّة القصر بسرعة مخيفة. كان سكّان باغفورد يخشون باستمرار أن يستحوذ متعهّدٌ عقاريٌّ ما،

على هذا الموقع التاريخيّ العزيز على قلوبهم ويشوّهه. مضى الوقت، ومع حلول الخمسينيّات، اشترى رجل يدعى أوبري فاولي المكان. تبيّن، بعد فترة قصيرة، أنّ فاولي يملك ثروة شخصيّة طائلة، يموّلها من أنشطة وعمليّات غامضة في لندن. كان له أربعة أولاد، ورغبة في الاستقرار هناك بشكل دائم. كانت باغفورد راضية عنه، غير أنّ هذا الرضى تحوّل إلى افتتان حقيقيّ حين سرت معلومات سرعان ما عمّت البلدة، بأنّ فاولي يتحدّر في الواقع من سلالة متفرّعة عن أسرة سويتلوف. كان ذلك كافيًا لاعتباره عمليًا من سكّان باغفورد الأصيلين، رجلًا يدين فطريًّا بالولاء لباغفورد وليس ليارفيل. كانت البلدة القديمة على ثقة بأنّ قدوم أوبري فاولي يعني عودة عهدٍ ذهبيّ ما. سوف يكون الساحر الطيّب عرّاب البلدة، على غرار أسلافه قبله، يغدق تألّقًا وأبّهة على شوارعها المكسوّة بالحصى.

ما زال هاورد موليسون يذكر كيف دخلت والدته ذات صباح مطبخهم الصغير في منزلهم بشارع هوب، لتعلن لهم أنّ أوبري دُعِي ليترأس لجنة التحكيم في معرض الزهور المحلّي. كانت لوبياء السيّدة موليسون فازت على مدى ثلاث سنوات على التوالي بالجائزة عن فئة الخُضَر، وهي تتطلّع لاستلام إناء الورود المطليّ بالفضّة من يدَي الرجل الذي بات يجسّد في ذهنها رومانسيّةً فاتنة من زمن ولّى.

3

غير أنّ الظلمة أرخت بظلالها فجأة على البلدة، بحسب ما تقول الرواية المحليّة، تلك الظلمة التي تحلّ عند ظهور الساحر الشرّير.

فيما كانت باغفورد تحتفي بوقوع قصر سويتلوف هاوس في أيدٍ أمينة، كانت يارفيل منهمكة في بناء مجمّع ضخم من المساكن المخصَّصة للحالات الاجتماعيّة في جنوب البلدة. عمّ الاضطراب باغفورد حين علمت بأنّ الشوارع الجديدة تقضم مساحات من الأراضي الواقعة بين البلدة والمدينة.

الكلّ كان يعي أنّ الطلب على المساكن المتدنّية الكلفة ازداد بشكل مطّرد منذ الحرب. لكن بعدما انشغلت البلدة لفترة بوصول أوبري فاولي، راحت تضجّ بالشائعات المريبة بشأن نوايا يارفيل الحقيقيّة. أخذت المنازل الصغيرة من حجر القرميد الأحمر ترتفع بسرعة وتنتشر، فبدا للسكّان أن الحدود الطبيعيّة التي يرسمها النهر والتلّة بدأت تتداعى أمام هذا التوسّع، بعدما كانت تقف ضمانة لسيادة باغفورد. شغلت يارفيل كلّ شبر من أراضيها، ملأت كلّ الثغرات، وتوقّفت عند الحدود الشماليّة لبلدة باغفورد.

تنفّست البلدة الصعداء. لكنّ هذا الارتياح لم يدم طويلًا، إذ سرعان ما تبيّن أنّ مجمّع كانترميل غير كافٍ لتلبية حاجات السكّان، فباشرت المدينة البحث عن أراضٍ جديدة يمكنها الاستفادة منها.

عندها اتّخذ أوبري فاولي الذي كان لا يزال بنظر العديد من أهالي باغفورد شخصيّة أسطورية أكثر منه رجلًا من لحمٍ ودمٍ، القرار الذي أثار ضغائن وأحقادًا ظلّت تتفاعل على مدى ستّة عقود.

كان لديه بضعة فدادين من الحقول المكسوّة بالأعشاب البريّة خلف المشروع السكنيّ لم يكن بحاجة إليها، فباعها إلى مجلس إدارة يارفيل بسعر مناسب، واستخدم المبلغ لترميم التلبيسة الخشبيّة المتداعية في قاعة الاحتفالات في قصر سويتلوف.

ثارغضب باغفورد. لطالما كانت حقول سويتلوف عنصرًا أساسيًّا في السور الذي يحميها من مطامع المدينة التوسّعيّة. وها إنّ حدود البلدة الأزليّة في خطر الآن، إذ ستجتاحها حتمًا موجة من المعوزين والجياع المتهافتين من يارفيل. اجتماعات عامّة صاخبة، رسائل شكاوى شديدة اللهجة إلى الصحيفة المحليّة ومجلس يارفيل، رفع احتجاجات شخصيّة لدى الجهات المسؤولة... حاول سكّان البلدة كلّ الوسائل الممكنة، غير أنّهم لم يفلحوا في منع المشروع.

استؤنف بناء المساكن الشعبيّة، ولكن بفارق جليّ، وهو أنّ مجلس إدارة المدينة أدرك خلال الفترة التي فصلت بين المشروعين، أنّ بوسعه بناء مساكن أدنى تكلفة. وبالتالي، فإنّ البيوت الجديدة لم تشيّد بحجر القرميد الأحمر، بل بالإسمنت المصبوب في أطر وهياكل فولاذيّة. عُرف هذا المجمّع

الثاني محليًّا باسم الحقول، مثل الأملاك التي شيّد عليها، وتميّز عن مجمّع كانترميل بنوعيّة موادّه المتدنّية وتصميمه المعماريّ الرديء.

ولد باري فيربراذر في أواخر الستّينيّات، في أحد منازل الحقول هذه، المصنوعة من الإسمنت والفولاذ، والتي كانت قد بدأت في تلك الفترة تتشقّق وتلتوي.

4

بالرغم من التطمينات الفاترة التي انتُزِعت من مجلس إدارة يارفيل حول أنّه يتحمّل كامل المسؤوليّة عن صيانة المجمّع الجديد، بدأت باغفورد بعد فترة قصيرة تتلقّى فواتير جديدة، وهو ما توقّعه سكّانها الغاضبون منذ بداية القضيّة. إذ كانت معظم الخدمات الخاصّة بمجمّع الحقول وإصلاح بيوته وصيانتها تقع على عاتق مجلس إدارة يارفيل، إلّا أنّ المدينة، لشدة «كرمها»، تنازلت لرعية باغفورد عن بعض مهامّها، مثل صيانة مسالك المشاة، الإضاءة والمقاعد العامّة، ملاجئ الحافلات والأملاك المشتركة.

انتشرت الكتابات على الجدران، فغطّت الجسور التي تربط باغفورد بيارفيل. تمّ تحطيم عدد من محطّات توقّف الحافلات في مجمّع الحقول. فتيان المجمّع حوّلوا ملعب الأطفال مكبًّا لزجاجات البيرة، ورموا مصابيح الشوارع بالحصى. تحوّل مسلكٌ للمشاة يرتاده المتنزّهون والسيّاح، ملتقًى لشباب الحقول يتجمّعون فيه، بل لما هو «أسوأ من ذلك» كما تقول والدة هاورد موليسون، مفسحة المجال لأكثر التأويلات شؤمًا. كان إذًا مجلس بلدة باغفورد مسؤولًا عن عمليّات التنظيف والإصلاح والاستبدال، وبدا جليًّا منذ البداية أنّ الأموال التي وافقت يارفيل على تقديمها غير متكافئة مع حجم النفقات والوقت المطلوب لإصلاح الأضرار.

لكن، من بين كلّ الأعباء التي اضطرّ سكّان باغفورد، مرغمين، إلى تحمّلها، وأكثر ما أثار غضبهم ونقمتهم، هو أنّ أطفال مجمّع الحقول كانوا

مُلحَقين، بحسب التقطيع الجغرافيّ، بمدرسة سانت توماس الابتدائيّة. بات من حقّ أطفال الحقول أن يرتدوا البدلة المدرسيّة الزرقاء والبيضاء المرموقة، أن يركضوا في الملعب، إلى جانب حجر أساس الذي كانت اللايدي شارلوت سويتلوف هي مَن وضعَته، وأن يتشدّقوا في قاعات الصفوف الصغيرة بتلك النبرة الحادّة الخاصّة بلهجة أهالي يارفيل.

سرعان ما بدا جليًّا للجميع في باغفورد أنّ مساكن المجمّع الشعبيّ باتت الهدف الأسمى الذي تطمح إليه أيّ عائلة من يارفيل تعيش على حساب برامج المساعدات الاجتماعيّة، ولديها أطفال في سنّ الدراسة وأنّ ثمّة حركة تهافت كثيفة لعبور الخطّ الفاصل بين مجمّع كانترميل ومجمّع الحقول، تُذكّر بتدفّق المكسيكيّين إلى تكساس. مدرستهم الصغيرة التي كانت تجتذب الموظّفين العاملين في يارفيل بصفوفها الصغيرة ومكاتبها المغلقة بغطاء جرّار، ومبانيها الحجريّة القديمة وملعبها الرياضيّ المكسوّ بالعشب الأخضر الكثّ، مدرستهم الرائعة، سوف تجتاحها موجة عارمة من المتسوّلين والمدمنين والأمّهات اللواتي أنجبن أطفالهنّ كلّا من والد مختلف.

يبقى أنّ هذا السيناريو الكارثيّ لم يتحقّق تمامًا، لأنّ حسنات مدرسة سانت توماس الجليّة كانت تقابلها مساوئ كفيلة بإثباط عزيمة العديد من الطامحين للانتساب إليها. إذ كان يتحتّم شراء البدلة المدرسيّة، أو، في حال تعذّر ذلك، ملء الكثير من الاستمارات بهدف الحصول على مساعدة مالية من أجل شرائها، وتسديد رسوم الاشتراك في خدمة الحافلة المدرسيّة والنهوض باكرًا لضمان وصول الأطفال الى المدرسة في الوقت المناسب. شكّلت هذه القيود عقبات لم تتمكن بعض أسر الحقول من تخطّيها، ففضّلت إرسال أطفالها إلى المدرسة الابتدائيّة الكبيرة التي شيّدت مع المجمّع الشعبيّ والتي لا تفرض على تلاميذها ارتداء بدلة. يبقى أنّ معظم تلاميذ الحقول الذين انتسبوا إلى مدرسة سانت توماس اندمجوا تمامًا مع رفاقهم في باغفورد. بل ينبغي الإقرار بأنّ بعضهم كان في غاية التهذيب. ومن بين هؤلاء الأطفال باري فيربراذر الذي تقدّم بنجاح من صفّ إلى صفّ، فكان تلميذًا شعبيًّا محبوبًا، مفعمًا بالفطنة والمرح والذكاء، بالكاد كان يلاحظ، في بعض

الأحيان، أن ابتسامة أهالي رفاقه المتحدّرين من باغفورد كانت تتشنّج ما إن يذكر مكان إقامته.

يبقى أنّ مدرسة سانت توماس كانت تضطرّ، في بعض الأحيان، إلى قبول تلميذ من مجمّع الحقول تطرح طبيعته المشاكسة مشكلة انضباط واضحة. كريستال ويدون كانت تقيم مع جدّة والدتها في شارع هوب عندما بلغت سنّ الذهاب إلى المدرسة، فلم يكن هناك من وسيلة لمنعها من الانتساب إلى مدرسة سانت توماس، ولو أنّ سكّان البلدة راحوا يأملون، حين انتقلت مجدّدا في سنّ الثامنة للإقامة مع والدتها في المجمّع، أن تترك مدرسة سانت توماس من غير رجعة.

كان مسار كريستال الدراسيّ البطيء عبر صفوف سانت توماس أقرب إلى عبور عنزة في جسد حيّة بوا، مسار لا يمكن التغاضي عنه وشاقّ على الطرفين المعنيّين. هذا لا يعني أنّ كريستال كانت حاضرة على الدوام على مقاعد الصفّ، بل إنّها قضت القسم الأكبر من دراستها معزولة عن باقي التلاميذ، في جلسات تعليم فرديّة مع أساتذة متخصّصين.

شاءت سخرية القدر أن تكون كريستال في الصفّ نفسه مع ليكسي، حفيدة هاورد وشيرلي الأكبر سنّا. لطمت كريستال مرّة ليكسي موليسون على وجهها بعنف، فكسرت لها سنّين. كانت السنّان تهتزّان أساسًا وعلى وشك السقوط، غير أنّ والدَي ليكسي وجدَّيها لم يروا في ذلك ظروفًا تخفيفيّة.

كان مايلز وسامانثا موليسون على قناعة راسخة بأنّ صفوفًا كاملة من أمثال كريستال سوف تكون في انتظار ابنتَيهما في مدرسة وينترداون الشاملة، وهو ما حملهما في نهاية الأمر على تسجيلهما في مدرسة سانت آن الخاصّة للبنات في يارفيل، حيث أصبحتا تلميذتين داخليّتين طوال أيّام الأسبوع. اعتبر هاورد أنّ حفيدتَيه طُردتا من الموقع الذي يعود لهما شرعًا بسبب كريستال ويدون، فأصبح ذلك بمثابة لازمة تتكرّر باستمرار في أحاديثه، يثبت بها الضرر الذي يلحق بحياة أهالي باغفورد بسبب مجمّع الحقول.

5

همدت عاصفة الغضب التي استولت على باغفورد في بادئ الأمر، لتتحوّل إلى نقمة أكثر هدوءًا، غير أنّها لا تقلّ حدّة. فالمجمّع السكنيّ ذاك لوّث واحة من الهناء والجمال وأفسدها، زارعًا الضغينة في صدور أهالي البلدة المصمّمين على التخلّص منه. غير أنّ دراسات المسح الجغرافيّ تعاقبت، وإصلاحات الإدارات المحليّة توالت، بدون أن يحدث أي تغيير: بقي مجمّع الحقول جزءًا من باغفورد. وكان الوافدون الجدد يدركون منذ البداية أنّ لا بدّ لهم أن يبغضوا مجمّع الحقول حتّى يفوزوا برضى النواة الصلبة من أهالي باغفورد التي كانت تدير كلّ شؤون البلدة.

والآن، أخيرًا، بعد أكثر من ستين عامًا على تلك الخطوة الطائشة التي أقدم عليها أوبري فاولي العجوز حين سلّم يارفيل قطعة الأرض المشؤومة تلك، وبعد عقود من العمل الدؤوب الصبور لوضع الخطط الاستراتيجيّة وإطلاق العرائض، وجمع المعلومات وملاحقة اللجان الفرعيّة، وجد سكّان باغفورد المُعادون لسكّان الحقول أنفسهم واقفين عند أبواب النصر بقلوب مرتعشة.

فمع اشتداد الأزمة الاقتصاديّة، اضطرّت السلطات المحليّة إلى الحدّ من نفقاتها والاقتطاع من مصاريفها وإعادة تنظيم أمورها. هكذا، بات مجمّع الحقول مهدّدًا بفعل إجراءات التقشّف المعتمدة. رأى بعض كبار المسؤولين في مجلس إدارة يارفيل أنّ حظوظهم الانتخابيّة سوف تتعزّز إذا ما أُلحِق حيّ المجمّع الصغير المتداعي بدائرتهم وانضمّ سكّانه المستاؤون إلى مجموعة ناخبيهم.

كان لباغفورد مَن يمثّلها في يارفيل، وهو عضو مجلس إدارة المدينة أوبري فاولي. لم يكن هو أوبري نفسه الذي أتاح بناء المجمّع، بل ابنه، أوبري الشاب، الذي ورث قصر سويتلوف، وكان يعمل خلال الاسبوع في مصرف أعمال واستثمار في لندن. كان يشارك بشكل ناشط في شؤون البلدة، والتزامه هذا كان يوحي بالتوبة، كمَن يسعى للتكفيرعن الذنوب التي ارتكبها والده في لامبالاته، فأضرّ بالبلدة الصغيرة. كان أوبري الابن وزوجته جوليا يقدّمان

مساهمات ماليّة، ويوزّعان جوائز في المعرض الزراعيّ، ويشاركان في العديد من اللجان المحليّة. وفي عيد الميلاد، كانا يقيمان حفلة سنويّة يترقّب الجميع الدعوات إليها بكثير من اللهفة.

كان تحالف وثيق يربط بين هاورد وأوبري في سعيهما الحثيث لإلحاق الحقول بيارفيل، وهو ما شكّل مصدر سرور واعتزاز عظيمين بالنسبة إلى هاورد. فأوبري ارتقى في فلك العمل التجاريّ إلى مستوى لا يمكن إلّا أن يوحي لهاورد بأقصى الاحترام والإعجاب. في كلّ مساء، بعد إغلاق متجره، كان هاورد يسحب درج النقود في صندوقه القديم ويبدأ بعدّ قطع النقود والأوراق الماليّة الملطّخة قبل أن يودعها في خزنة. أوبري، من جهته، لم يكن يلمس المال إطلاقا أثناء عمله، غير أنّ ذلك لم يمنعه من تحريك مبالغ طائلة تفوق التصوّر عبر القارّات. كان يدير المال، يجعله يثمر ويتضاعف، وحين لا تكون المؤشّرات مؤاتية، يراقبه ببراعة ووقار وهو يتبخّر. كان صاحب الأطعمة الفاخرة يرى أوبري مجلّلًا بهالة لا يمكن حتّى لانهيار ماليّ عالميّ أن يمسّها. كان يغتاظ من الذين ينتقدون أمثال أوبري ويلومونهم على الورطة التي وقعت فيها البلاد، فيردّد على مسامع الجميع أنّ أحدًا لم يشتكِ حين كانت البلاد على ما يرام. كان يكنّ لأوبري الاحترام المتوجّب لجنرال أصيب في حرب لا تحظى بتأييد شعبيّ.

في مطلق الأحوال، كان أوبري مطّلعًا، بصفته عضوًا في مجلس إدارة يارفيل، على مجموعة لا تحصى من الأرقام المثيرة للاهتمام، وكان في موقع يسمح له بتقاسم الكثير من المعلومات مع هاورد بشأن هذه المنطقة الدخيلة على باغفورد والتي تتسبّب لها بكثير من المتاعب. كلاهما كان يعلم بالضبط حجم الموارد التي تنفقها البلدة على شوارع الحيّ الشعبيّ المترهّل، فتذهب إهدارًا بدون مقابل ولا تحسّن شيئًا. كانا على يقين بأنّ أيّا من سكّان الحقول لم يكن يملك منزله، في حين باتت بيوت حجر القرميد الأحمر في حيّ كانترميل جميعها تقريبًا، ملكًا لسكّانها الذين زيّنوها وجمّلوها إلى حدّ لا يصدّق، فعلّقوا على نوافذها أحواض الأزهار، وأقاموا مصطبات مسقوفة أمام مداخلها، وزرعوا العشب أمامها. كما كانوا يعلمون أنّ حوالى ثلثَي سكّان

الحقول يعتمدون بالكامل على مساعدات الدولة، وأنّ عددًا كبيرًا منهم يمرّ عبر عيادة بيلتشابيل لمعالجة الإدمان.

6

كانت صورة حيّ الحقول تلازم هاورد، مثل ذكرى كابوس. نوافذ مدعّمة بألواح خشبيّة دوّنت عليها كتابات بذيئة، فتيان متسكّعون يدخّنون في محطات تَوقّف الحافلات المحطّمة، صحون لاقطة في كلّ مكان موجّهة إلى السماء مثل بويضات أزهار معدنيّة كئيبة. كان يتساءل على الدوام عمّا يمنع السكّان من تنظيم صفوفهم للنهوض بحيّهم، عمّا يمنعهم من ضمّ مواردهم الزهيدة وشراء جزّازة عشب مشتركة على سبيل المثال. لكنّه كان يطرح هذه التساؤلات لمجرّد تسجيل موقف، وليس لانتظار جواب. الواقع أن هذا لم يحصل أبدًا، بل بقيَ حيّ الحقول ينتظر من مجلسَي البلدية والمدينة أن يقوما بأعمال التنظيف والإصلاح والصيانة، أن يمدّاهم بالتمويل مرارًا وتكرارًا.

ثمّ يسترجع هاورد ذكرى شارع هوب كما عرفه في طفولته، الحدائق الصغيرة خلف بيوته، مربّعات بحجم بالكاد يفوق غطاء طاولة، غير أنّها تفيض بمعظمها مثل حديقة والدته بشتول اللوبياء والبطاطس. لم يكن هناك، على علم هاورد، ما يمنع سكّان حيّ الحقول من زرع الخُضَر والشتول. لا شيء يمنعهم من تأديب أطفالهم الأشقياء الذين يقضون وقتهم يرشّون الكتابات والرسوم على الجدران، مخبّئين رؤوسهم تحت قلنسوات ملابسهم الفضفاضة. لا شيء يمنعهم من لمّ شملهم لتشكيل مجموعة حقيقيّة تعالج مشكلة كل تلك القذارة وذلك الخراب. لا شيء يمنعهم من ترتيب أمورهم وتوضيب أنفسهم والبحث عن وظيفة. لا مانع على الإطلاق. لم يكن هناك بالتالي سوى استنتاج منطقيّ واحد يفرض نفسه على هاورد، وهو أنهم يختارون بملء إرادتهم أن يعيشوا على هذا النحو، وأنّ حال الخراب والانحطاط المقلقة التي وصل إليها حيّ الحقول ليست سوى المظهر الخارجيّ لجهلهم وخمولهم.

في مقابل هذه الصورة القاتمة، كانت باغفورد تشعّ في نظر هاورد، محاطة بهالة من الاستقامة الأخلاقيّة، وكأنّ الروح المشتركة لمجموعة أهاليها تتجلّى في شوارعها المكسوّة بالحصى، وفي تلالها ومنازلها الرائعة. لم يكن هاورد يرى بلدته مجرّد مجموعة من المباني القديمة، نهر تترقرق مياهه وتنساب بين الأشجار، ظلّ الدير المهيب المطلّ من أعلى الهضبة، وأحواض الأزهار في الساحة المركزيّة. بل كانت البلدة التي أبصر فيها النور تجسّد في تصوّره مثالًا أعلى، نمط حياة، حضارةً صغرى تقف معاندة في وجه الانحطاط الوطنيّ.

كان يعلن للسيّاح الذين يقصدون البلدة في فصل الصيف «إنّني من أهالي باغفورد الأصليّين، ولدت هنا ونشأت هنا!» يردّدها كمن يسرد أمرًا عاديًّا، غير أنّه كان في الواقع يعتدّ بأصوله. ولد في باغفورد وسيموت فيها. لم يراوده يومًا حلم الرحيل، ولم تساوره أيّ رغبة في تغيير إطار حياته. الغربة الوحيدة التي كان يرضى بها كانت مراقبته لتعاقب الفصول على الغابات والنهر، وتأمّله للساحة وهي تزهر في الربيع وتتلألأ أضواءً عند حلول عيد الميلاد.

باري فيربراذر كان على يقين بذلك، وقد اعترف بذلك بنفسه في أحد الأيّام. نظر إلى هاورد من الجانب الآخر من الطاولة في قاعة الكنيسة، وقهقه ضاحكًا. «أتعلم، هاورد؟»، بادره قائلًا، «باغفورد بنظري هي أنت تحديدًا». لم يرتبك هاورد على الإطلاق، فهو لطالما تصدّى لباري وردّ على سخريّته بالمثل. «باري، أعتبر ما قلته مديحًا عظيمًا، أيًا كان ما تعنيه في الحقيقة.»

في وسعه أن يضحك اليوم. فالهدف الوحيد الذي لا يزال هاورد يطمح إلى تحقيقه بات في متناول يده، إذ بدت عودة حيّ الحقول إلى فلك يارفيل أمرًا وشيكًا مؤكّدًا.

قبل يومين من وفاة باري فيربراذر المفاجئة في موقف السيّارات، علم هاورد من مصدر موثوق به أنّ خصمه خرق كلّ قواعد الاشتباك المعترَف بها، وتوجّه إلى الصحيفة المحليّة ليروي لهم قصّة كريستال ويدون، شارحًا كم أنعمت عليها الحياة بانتسابها إلى مدرسة سانت توماس، والفرصة الرائعة التي سنحت لها بالتعلّم فيها.

إنّ فكرة عرض كريستال ويدون على قرّاء الصحيفة كنموذج تربويّ يصوّر نجاح اندماج حيّ الحقول في بلدة باغفورد لكانت بدت مضحكة (على حدّ قول هاورد) لو لم يكن القصد منها على هذا القدر من الجديّة، بل من الخطورة. لا شكّ في أنّ فيربراذر درّب الفتاة على سرد قصّتها، وعندها لكانت الحقيقة عن لسانها البذيء، والصفوف التي نادرًا ما تنقضي من دون بلبلة، والأطفال الآخرين المنتحبين، والدورة المتواصلة بين إقصائها من الصفّ وعودتها إليه، كلّ ذلك لكان توارى خلف سيل من الأكاذيب.

كان هاورد يثق بسلامة حكم أبناء بلدته، لكنّه كان يخشى أن يحرّف الصحافيّون الوقائع وأن يتدخّل البعض من ذوي النوايا الخيّرة الذين يجهلون حقيقة الأمور. واعتراضه على المسألة برمّتها كان مبدئيًا بقدر ما كان شخصيًا. فهو لم ينسَ كيف لاذت به حفيدته الصغيرة وهي تشهق باكية، لم ينسَ الثغرتين الداميتين مكان السنّين اللتين اقتلعتهما قبضة كريستال ويدون، وهو يحاول تهدئة خواطرها فيعدها بأنّ جنيّة الأسنان ستأتيها بثلاث مكافآت.

الثلاثاء

1

بعد يومين على وفاة زوجها، استيقظت ماري فيربراذر في الساعة الخامسة صباحًا. نامت في الليلة الماضية في سريرها الزوجيّ إلى جانب ابنها ديكلان البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة، بعدما جاء إليها باكيًا بُعَيد منتصف الليل وانسلّ قربها. كان مستغرقًا الآن في نوم عميق. خرجت ماري من الغرفة بدون أن تحدث صوتًا، ونزلت إلى المطبخ لتبكي وحدها ملء عينيها. كان حزنها يزداد ساعة بعد ساعة. فكلّ دقيقة تمرّ تبعدها أكثر عن صورة زوجها حيًّا، وكلّ ثانية جديدة إنّما تبعث فيها طعم الأبديّة التي تنتظرها بدونه. مرّة بعد مرّة، كانت تنسى لبرهة عابرة، لدقّة قلب ضئيلة، أنّه رحل إلى الأبد، وأنه لم يعد بوسعها أن تلجأ إليه طلبًا للعزاء.

حين حضرت شقيقتها وسلفها لإعداد الفطور، تناولت ماري هاتف باري واختلت في المكتب، حيث بدأت تبحث عن بعض الأرقام في دليل زوجها الضخم. لم تمض عليها بضع دقائق حتّى رنّ الهاتف الجوّال بين يديها.

«نعم؟» أجابت بصوت خفيض.

«مرحبًا! أودّ التكلّم إلى باري فيربراذر. معك آليسون جنكينز من جريدة يارفيل والجوار.»

دوّى صوت المرأة الشابّة البشوش المفعم بالحيويّة في أذن ماري، فكان له وقع جوقة موسيقيّة حماسيّة يحجب صخبها المروع معنى الكلمات.

«عفوًا؟»

«أليسون جنكينز من جريدة يارفيل والجوار. أودّ التحدّث إلى باري فيربراذر لو أمكن. المسألة تتعلّق بمقالته حول حيّ الحقول.»

«آه؟»

«نعم، نسي أن يرفق به أرقام الفتاة التي يتكلّم عليها. من المفترض أن نقابلها. اسمها كريستال ويدون.»

كلّ كلمة كانت تقع في أذن ماري كانت بمثابة صفعة لها. جلست صامتة من دون حراك في مقعد باري القديم الدوّار، مذعنة بشيء من التواطؤ للّطمات المنهالة عليها كالمطر.

«عذرًا، هل تسمعينني؟»

«أجل، أجابت ماري وصوتها يتهدّج. إنّني أسمعك.»

«إنّني على يقين بأن السيّد فيربراذر كان حريصًا على أن يكون حاضرًا حين نقابل كريستال، لكنّ الوقت ينفد...»

«لن يكون بوسعه الحضور، قالت ماري وهي تزعق فجأة، لن يكون بوسعه بعد الآن التحدّث عن الحيّ اللعين أو عن أيّ شيء آخر، لن يحصل هذا بعد اليوم.»

«ماذا؟» سألت الفتاة مندهشة.

«زوجي توفّي، فهمت؟ توفّي. وبالتالي، أعتقد أنّ حيّ الحقول سيضطرّ إلى تدبّر أمره بدونه، واضح؟»

كانت يدا ماري ترتجفان بقوّة، وانزلق الهاتف من بين أصابعها. أيقنت أنّ الصحافيّة سمعتها تبكي وتشهق لثوانٍ قبل أن تنجح في إقفال الخطّ. ثمّ تذكّرت أنّ باري كرّس القسم الأكبر من اليوم الأخير في حياته والذي صادف ذكرى زواجهما، لهوسه بذاك الحيّ الشعبيّ وكريستال ويدون. تملّكها غضب جامح وقذفت الهاتف بعنف عبر الغرفة، فاصطدم بصورة لأولادهما الأربعة معروضة في إطار، فسقطت أرضًا. راحت تصرخ وتبكي في آن، فهرعت شقيقتها وسلفها متسلّقين الأدراج ودخلا المكتب.

كلّ ما تمكّنا من فهمه وسط صيحاتها ودموعها كان «الحقول، اللعنة على الحقول، اللعنة...»

«إنّه المكان الذي نشأنا فيه، أنا وباري»، تمتم سلفها. غير أنّه توقّف عند هذا الحدّ، خشية أن يثير لديها نوبة هستيريا.

2

كانت المساعِدة الاجتماعيّة كاي بودن انتقلت مع ابنتها غايا من لندن قبل أربعة أسابيع فقط، وكانتا آخر الوافدين إلى باغفورد. لم تكن كاي على علم بتاريخ الخلاف حول حيّ الحقول. لم يكن المجمّع بالنسبة إليها سوى المكان الذي تقيم فيه معظم العائلات التي تهتمّ بملفّاتها. كلّ ما كانت تعرفه عن باري فيربراذر هو أنّ وفاته أثارت شجارًا بائسًا في مطبخها، فرّ على إثره عشيقها غافين منها ومن طبق البيض الذي أعدّته له، قاضيًا على كلّ الآمال التي ساورتها بعد ليلتهما المتّقدة تلك.

أمضت كاي فترة الفطور يوم الثلاثاء في استراحة على جانب الطريق بين باغفورد ويارفيل، فبقيت في سيّارتها تأكل شطيرتها وتراجع رزمة ضخمة من الملاحظات التي دوّنتها. تغيّبت إحدى زميلاتها بداعي الإرهاق، فوجدت كاي نفسها مكلّفة بثلث الملفّات التي كانت موكَلة إليها. كانت الساعة تشارف الواحدة حين انطلقت في اتّجاه حيّ الحقول.

سبق أن زارت الحيّ عدّة مرّات من قبل، لكنّها لم تألَف بعد متاهة شوارعه. عثرت بعد عناء على شارع فولي، ورصدت من بعيد منزلًا لا يمكن إلّا أن يكون منزل عائلة ويدون. كانت تعرف ما ينبغي عليها أن تتوقّعه بعدما قرأت الملفّ، وبدا لها جليًا من النظرة الأولى أن ذلك المنزل يستوفي كلّ المواصفات التي تبحث عنها.

كانت كومة من القمامة مكدّسة عند الجدار أمام واجهة المنزل. أكياس بلاستيكيّة تطفح بالنفايات، تختلط معها ملابس قديمة وحفاضات

قذرة. بعض النفايات تدحرجت من التلّة وتبعثرت على بقعة العشب التي اجتاحتها الأعشاب البريّة، غير أنّ القسم الأكبر كان مكوّمًا تحت إحدى نافذتي الطبقة الأرضيّة. كان دولاب سيّارة قديم رثّ مرميًا في وسط العشب، وعلى مقربة منه حلقة من العشب الأصفر اليابس المسوّى أرضًا، يشير إلى أنّ أحدهم نقله مؤخّرًا. بعدما رنّت جرس الباب، لاحظت كاي واقيًا ذكريًّا يلمع في العشب قرب قدميها، مثل شرنقة رقيقة ليسروع هائل.

عاودها ذلك التخوّف الطفيف الذي لم تتمكّن يومًا من التغلّب عليه كليًا، ولو أنّ هذا الإحساس لا يقارَن بالحالة العصبيّة التي كانت تتملّكها في بدايات عملها عند أبواب بيوت مجهولة. حتّى إنّها، في بعض الأحيان، شعرت بفزع حقيقيّ، بالرغم من كلّ تدريبها ومن وجود زميلة ترافقها عادة. كلاب خطيرة، رجال يحملون سكاكين، أطفال يعانون جروحًا شنيعة... واجهت كلّ المواقف الممكنة، بل أسوأ ممّا يمكن أن يخطر في البال، منذ سنوات وهي تجول على منازل غرباء.

لم يفتح أحد الباب عندما رنّت الجرس، لكنّها كانت تسمع طفلًا صغيرًا يبكي من خلال نافذة الطبقة الأرضيّة المشقوقة إلى يسارها. دقّت على الباب هذه المرّة، فتساقطت قطعة صغيرة من الطلاء السكّريّ اللون المتقشّر وهوت على طرف حذائها. ذكّرها ذلك بوضع المنزل الذي انتقلت إليه حديثًا. كانت تودّ لو عرض غافين أن يساعد قليلًا على إصلاحه، لكنّه لم يتفوّه بكلمة. كانت كاي تقوم أحيانًا بجردة على كلّ ما لم يقل أو لم يفعل، مثل بخيل يعدّ سندات الديون المستحقّة له، فتشعر بالغضب والمرارة، وتقسم لنفسها بأنّها ستجعله يدفع الثمن.

دقّت على الباب مجدّدًا بدون أن تنتظر كما كانت لتفعل في الظروف الطبيعيّة، سعيًا منها لقطع حبل أفكارها. هذه المرّة، سمعت صوتًا قادمًا من بعيد يصيح «انتظروا، إنّني قادمة، اللعنة!»

فُتِح الباب في حركة مفاجئة، وظهرت امرأة ملامحها حائرة ما بين الطفولة والكهولة في آن، ترتدي قميصًا قطنيًا أزرق فاتحًا قذرًا، وبنطال بيجاما رجاليًّا. كانت بطول كاي، غير أنّها هزيلة إلى حدّ أنّ عظام وجهها وصدرها تظهر ناتئة من تحت بشرتها البيضاء الرقيقة. شعرها الذي بدا واضحًا أنّها

صبغَته بنفسها كان خشنًا وأحمر قانيًا وكأنّه شعر مستعار يغطّي جمجمة. حدقتا عينيها كانتا ضيّقتين بحجم رأس الدبّوس وصدرها شبه مسطّح.

«مرحبًا. حضرتك تيري؟ اسمي كاي بودين، من دائرة الخدمات الاجتماعيّة. حللت مكان ماتي نوكس.»

كانت ذراعا المرأة الشاحبتان الرقيقتان مرصّعتين بآثار بقع متقرّحة، وثنية أحد ساعديها تحمل جرحًا أحمر غير مندمل متقيّحًا. كان نسيج ندبيّ يغطي مساحة كبيرة من ذراعها اليمنى وأسفل عنقها، حيث اتّخذ الجلد مظهرًا بلاستيكيًا لمّاعًا. عرفت كاي في لندن مدمن مخدّرات أحرق منزله عرَضًا ولم يدرك ما يجري إلّا بعد فوات الأوان.

«أصبتِ»، ردّت تيري بعد صمت طويل. بدت أكبر سنًّا بكثير حين تكلّمت. كانت عدّة أسنان تنقصها. أدارت ظهرها لكاي، وابتعدت بضع خطوات مترنّحة في الممشى المظلم. تبعتها كاي. كانت رائحة طعام فاسد وعرق وقمامة تملأ المنزل. عبرت كاي خلف تيري أول باب إلى اليسار ودخلت غرفة جلوس ضيّقة.

لم يكن هناك أيّ كتب أو لوحات أو صور، ولا حتّى جهاز تلفزيون. لا شيء، سوى أريكتين منهكتين قذرتين ومجموعة رفوف محطّمة. الأرضيّة مليئة بالمرميّات. في إحدى الزوايا، علب جديدة من الكرتون مكدّسة لصق الجدار، تضفي إلى القاعة شيئا من الغرابة وكأنّها دخيلة عليها.

كان صبيّ صغير واقفًا عاري الساقين وسط الصالون، يرتدي قميصًا تي شيرت ويضع حفّاضة على وشك أن تنفجر لشدّة ما هي مبلولة. عمره بحسب ملفّ كاي ثلاث سنوات ونصف سنة. كان يئنّ في شكوى لاشعوريّة مثل صوت محرّك، وكأنّما عن غير قصد وبدون مبرّر، لمجرّد أن يثبت وجوده. يمسك بيده علبةً صغيرةً من الحبوب المقرمشة.

«وهذا روبي الصغير، أليس كذلك؟» قالت كاي.

نظر إليها الطفل حين سمع اسمه، لكنّه واصل نشيجه.

أزاحت تيري جانبًا علبة بسكويت معدنيّة قديمة مخدّشة عن إحدى الأريكتين المتّسختين المنسَلّتين، جلست وثنَت ساقيها من تحتها. راحت

تحدّق إلى كاي من تحت جفنَيها المتراخيَين. جلست كاي في الأريكة الثانية. على أحد مسندَيها وُضِعت منفضة تطفح بأعقاب السجائر، بعضها سقط على المقعد. كان بوسع كاي أن تتحسّسها تحت فخذيها.

«مرحبًا روبي،» قالت كاي وهي تفتح ملفّ تيري.

ظلّ الولد يئن، وهو يهزّ العلبة الصغيرة التي كانت تبعث جلجلة.

«ماذا لديك في العلبة؟» سألت كاي.

لم يجب، لكنّه راح يلوّح بها بمزيد من القوة. انبثقت منها لعبة بلاستيكيّة صغيرة، طارت عبر الغرفة وسقطت خلف علب الكرتون المكدّسة. أخذ الولد يبكي. نظرت كاي إلى تيري، رأتها تحدّق إلى ابنها بوجه خالٍ من أيّ تعبير. تمتمت في نهاية الأمر: «ما بك، روبي؟»

«دعنا نرى إن كان بوسعنا إخراجه من هناك»، قالت كاي، مغتنمة الفرصة للنهوض ونفض أعقاب السجائر العالقة خلف ساقيها. «لنلقِ نظرة.»

ألصقت رأسها بالجدار وتفقّدت المساحة الضيّقة خلف العلب، فرأت الشخص الصغير عالقًا في أعلى الشقّ. كانت العلب ثقيلة يصعب تحريكها، لكنّها تمكّنت من حشر يدها داخل الشقّ الصغير. التقطت اللعبة البلاستيكيّة وسحبتها. تبيّن لها عن كثب أنّه شخص بدين أرجوانيّ جالس مشبوك الساقين على شكل بوذا.

«ها هي لعبتك»، قالت للطفل.

توقّف أنين روبي. تناول الشخص الصغير، أعاده إلى العلبة، وأخذ يلوّح بها مجدّدًا ويهزّها.

نظرت كاي من حولها. لمحت سيّارتين صغيرتين مرميّتين أرضًا على ظهرَيهما تحت الرفوف.

«أنت تحبّ السيّارات؟» سألت روبي، مشيرة بإصبعها إليهما.

لم ينظر في الاتّجاه الذي كانت تشير إليه، بل حملق بها بمزيج من الترقّب والفضول. ثمّ ابتعد مهرولًا، لمّ إحدى السيّارتين عن الأرض، وعاد مادًّا يده لها حتّى تراها.

«فرووووم»، قال. «توت توت.»

«صحيح»، قالت كاي. «ممتاز. سيّارة. فرووم فرووم.»

جلست مجدّدًا وأخرجت مفكّرتها من حقيبتها.

«إذًا تيري، أخبريني. كيف تسير الأمور معك؟»

خيّم صمت لبرهة، ثمّ أجابت تيري: «جيّدًا».

«دعيني أشرح لك قليلًا: ماتي تغيَّبَت بداعي المرض، وبالتالي فإنني أحلّ محلّها. إنّني بحاجة إلى مراجعة بعض المعلومات التي تركَتْها لي، لأتثبّت من أنّ شيئا لم يتغيّر منذ أن قابلَتْك الأسبوع الماضي. اتّفقنا؟ إذًا دعينا نرى. روبي في دار الحضانة الآن، أليس كذلك؟ أربعة أيّام في الأسبوع صباحًا، ويومين بعد الظهر؟»

بدا وكأنّ صوت كاي يصل إلى تيري من مسافة بعيدة، وكأنّها تكلّم شخصًا يقف في أعماق بئر.

«أجل»، قالت أخيرًا بعد صمت.

«كيف تسير الأمور؟ هل هو سعيد هناك؟»

حشر روبي السيّارة الصغيرة داخل علبة الحبوب، ثمّ لمّ أحد أعقاب السجائر التي تساقطت عن بنطال كاي وضغط عليه لإدخاله في العلبة مع السيّارة وتمثال بوذا الصغير الأرجوانيّ.

«أجل»، أجابت تيري وكأنّها على وشك أن تغفو.

غير أنّ كاي كانت تدقّق في آخر الملاحظات التي خربشتها ماتي بشكل عشوائيّ قبل أن ترحل في إجازتها المرضيّة.

«أليس من المفترض أن يكون هناك اليوم، تيري؟ أليس يوم الثلاثاء من الأيّام التي يذهب فيها إلى دار الحضانة؟»

بدا وكأنّ تيري تقاوم النعاس، حتّى أنّ رأسها تدحرج قليلًا مرّة أو مرّتين فوق كتفيها. قالت أخيرا:»كان من المفترض أن ترافقه كريستال إلى هناك، لكنّها لم تفعل.»

«كريستال ابنتك، أليس كذلك؟ كم عمرها؟»

«أربعة عشر عامًا ونصف عام»، أجابت تيري بشرود.

كانت كريستال في السادسة عشرة من العمر، بحسب الملاحظات في ملفّ كاي. جلست بصمت لدقائق طويلة.

عند أسفل مقعد تيري، كان كوبان متصدّعان موضوعين أرضًا، في قعر أحدهما سائل قذر يشبه الدم. كانت تيري تكتف يديها فوق صدرها الهزيل المسطّح.

«ألْبَسْته ثيابه»، قالت تيري، منتزعة الكلمات بعناء شديد من أعماق ذهنها الضبابيّ.

«عذرًا تيري، لكن عليّ أن أسألك: هل تناولْتِ مخدّرات هذا الصباح؟»

رفعت تيري يدًا أشبه بمخلب عصفور إلى فمها.

«لا.»

«كاكا»، قال روبي وهو يتهادى مسرعًا نحو الباب.

«ألا يحتاج إلى مساعدة؟» سألت كاي فيما خرج روبي من الغرفة وسمعته يهرول في الطبقة العلويّة.

«لا، هو يذهب إلى الحمّام بمفرده»، تمتمت تيري بصعوبة. أرخت رأسها المترنّح على قبضتها، وأسندت مرفقها على الأريكة.

أخذ روبي يصيح في أعلى الدرج: «باب! باب!»

سمعته يطرق على الخشب. لم تحرّك تيري ساكنًا.

«هل أساعده؟» عرضت كاي.

«أجل»، قالت تيري.

تسلّقت كاي الدرج وأدارت القبضة المتصلّبة، فاتحة الباب لروبي. كانت رائحة كريهة تملأ الحمّام. المغطس رماديّ، عليه بقع داكنة متراكمة على طبقات وكأنّها آثار مياه آسنة، والمرحاض وسخ مضى وقت بدون أن يُفرغ أحدٌ مياه خزّانه.. قامت كاي بإطلاق المياه قبل أن تدع روبي يعتلي الكرسي ويجلس. كشّر وجهه وأخذ يشدّ ويضغط محدثًا تنهّدات وأصواتًا، بدون أن يعير أيّ اهتمام لوجودها. سُمع صوت طرطشة مياه في كرسي الحمّام وانبعثت رائحة جديدة أضيفت إلى الجو الخانق في المرحاض. نزل ورفع حفّاضته المنتفخة بدون أن يكترث لمسح قفاه. أرغمته كاي على

العودة وحاولت إقناعه بالقيام بذلك، لكنّ هذه الحركة بدت غريبة تماما عن أيّ سلوك مألوف لديه. وفي نهاية الأمر، قامت هي نفسها بمسحه. كانت قفاه مسمّطة، جلدها أحمر متقرّح وكأنّه ملتهب. كانت الحفّاضة تبعث رائحة نشادر. حاولت أن تنزعها عنه، لكنّه أخذ يزعق وهو يقاوم ويتخبّط، ثمّ أفلت منها وعاد مهرولًا إلى الصالون، والحفّاضة متدلّية فوق ساقيه. أرادت كاي أن تغسل يديها، لكنّها لم تجد أثرًا للصابون. خرجت حابسة أنفاسها وأغلقت باب الحمّام خلفها.

استرقت النظر إلى غرف النوم قبل أن تعود إلى الصالون. كانت هناك ثلاث غرف نوم، جميعها يطفح محتواها من الباب ليزرع الفوضى في الممرّ. جميعهم ينامون على فرش موضوعة أرضًا. كان روبي ينام على ما يبدو في غرفة والدته. رأت بعض اللعب بين الملابس الوسخة المبعثرة على الأرض، لعب بلاستيكيّة رديئة النوعيّة للأطفال الأصغر سنّا منه. وسط هذه الفوضى العارمة، فوجئت كاي برؤية أغطية على الوسادات واللحاف.

حين عادت إلى الصالون، كان روبي عاود الأنين، وهو يضرب بقبضتيه على كومة علب الكرتون، فيما تيري تراقبه بعينين نصف مغمضتين. مسحت كاي مقعد الأريكة قبل أن تجلس مجدّدًا.

«تيري، أنت تتابعين برنامج معالجة الإدمان بواسطة الميثادون في عيادة بيلتشابيل، أليس كذلك؟»

«ممم..» ردّت تيري بصوت غير مفهوم.

«وكيف تسير الأمور مع هذا البرنامج، تيري؟»

انتظرت كاي الجواب ممسكة بقلمها، وكأنّ النتيجة لم تكن جليّة أمام عينيها.

«تيري، هل ما زلت تذهبين إلى العيادة؟»

«الأسبوع الماضي... يوم الجمعة... ذهبْتُ.»

واصل روبي الضرب على علب الكرتون المكدّسة.

«هل يمكن أن تحدّدي لي مقدار جرعة الميثادون التي تتناولينها؟»

«مئة وخمسة عشر ملغ»، قالت تيري.

كان بوسع تيري أن تتذكّر هذا الرقم في حين أنّها لا تذكر عمر ابنتها، غير أنّ ذلك لم يفاجئ كاي.

«كتبَتْ ماتي هنا أن والدتك كانت تساعدك على الاهتمام بروبي وكريستال. هل لا تزال تساعد؟»

ارتمى روبي ملقيًا بثقل جسده الصغير المتراصّ على كومة علب الكرتون التي راحت تترنّح.

«انتبه روبي!» قالت كاي. «اترك هذا!»، أعقبت تيري بنبرة تكشف عن قدر من اليقظة لم تكن كاي قد لمسته حتّى الآن في صوتها الميت.

عاود روبي الضرب على العلب بقبضتيه، مستمتعًا على ما يبدو بالصوت الأجوف الذي يحدثه.

«تيري، هل تساعدكِ والدتك على الاهتمام بروبي؟»

«ليست والدتي... الجدّة.»

«جدّة روبي؟»

«جدّتي أنا. إنّها لا... ليست على ما يرام.»

ألقت كاي نظرة على روبي من جديد، متأهّبة لتدوين ملاحظة. لم يكن طفلًا هزيلًا. هذا ما ظهر لها بوضوح حين راقبته وحملته شبه عارٍ في الحمّام لتمسح قفاه. كان قميصه القطنيّ وسخًا، لكن عندما انحنت فوقه، فوجئت برائحة شامبو طيّبة تنبعث من شعره. كانت بشرته بيضاء ناصعة، ولم يكن هناك آثار كدمات على ذراعيه وساقيه. يبقى أنّه كان يضع تلك الحفّاضة المبلّلة المنتفخة، في حين أنّه في الثالثة والنصف من العمر.

«جائع»، صاح مسدّدًا لكمة أخيرة وعقيمة تمامًا إلى العلبة. «جائع!»

«تناول قطعة بسكويت»، تمتمت تيري بدون أن تتحرّك من مقعدها. تحوّلت صيحات روبي إلى نشيج وزعيق، غير أنّ تيري لم تبدِ أيّ نيّة في النهوض. من المستحيل التفاهم معها وسط هذا الضجيج.

«هل أجلب له قطعة بسكويت؟» صرخت كاي.

«أجل.»

اندفع روبي سابقًا كاي إلى المطبخ. وجدت المطبخ قذرًا بقدر الحمّام تقريبًا. الأدوات الكهربائية الوحيدة فيه كانت البرّاد والفرن والغسّالة. رفّ المجلى يطفح بأطباق غير مغسولة، منفضة ثانية تطفح بالسجائر، أكياس تبضّع بلاستيكيّة، وبقايا خبز متعفّن. كساء الأرض المشمّع كان دَبقًا يلتصق بحذاءَي كاي. القمامة كانت تطفح من السلّة، تعلوها علبة بيتزا تهدّد بالسقوط في أيّ لحظة.

«هنا»، قال روبي بدون أن ينظر إلى كاي، وإصبعه ممدودة صوب الخزانة المعلّقة على الحائط. «هنا!»

فوجئت كاي بالعثور في الخزانة على مجموعة من الأطعمة تفوق ما يمكن أن تتوقّعه، من معلّبات وعلبة بسكويت ومجمع من القهوة. أخرجت قطعتي بسكويت من العلبة وقدّمتهما له، فانتزعهما من يدها، وهرع مسرعًا إلى والدته.

«إذًا روبي، هل تحبّ الذهاب إلى دار الحضانة؟»

لم يردّ الولد، وبقي جالسًا على الأرض يلتهم البسكويت.

«أجل، يحبّ ذلك»، قالت تيري، وهي تبدو أكثر يقظة من قبل بقليل. «أليس كذلك، روبي؟ بلى، يحبّ الحضانة.»

«متى كانت آخر مرّة ذهب فيها إلى هناك، تيري؟»

«آخر مرّة... أمس.»

«أمس كان الاثنين. لا يمكن أن يكون ذهب بالأمس، ردّت كاي وهي تكتب في مفكّرتها. ليس هذا من الأيام التي يذهب فيها إلى دار الحضانة.»

«ماذا؟»

«أسألكِ عن دار الحضانة. من المفترض أن يكون روبي هناك اليوم. أريد أن أعرف متى كانت آخر مرّة ذهب فيها.»

«قلت لك هذا، ألم أفعل؟ آخر مرّة...»

كانت عيناها الآن مفتوحتين أكثر من قبل. نبرة صوتها لا تزال خالية من أيّ تعبير، غير أنّ العدائيّة بدأت تطفو إلى السطح.

«هل أنت سحاقية؟» سألت.

«لا»،

أجابت كاي وهي تواصل الكتابة.

«لأنّك تبدين كأنّك سحاقية.»

أكملت كاي الكتابة.

«عصير!» صاح روبي، وذقنه ملطّخ ببقع الشوكولاتة.

لم تقم كاي بأيّ مبادرة هذه المرّة. وبعد فترة صمت مطوّلة جديدة، نهضت تيري بعناء من أريكتها وسلكت الممرّ مترنّحة. انحنت كاي إلى الأمام ورفعت الغطاء عن العلبة الحديد التي أزاحتها تيري قبل أن تجلس. لم تكن مغلقة بإحكام. رأت في داخلها إبرة، قطعة قطن وسخة، ملعقة شبه صدئة وكيسًا بلاستيكيًّا صغيرًا مغبّرًا. أغلقت كاي العلبة بإحكام، ضاغطة على الغطاء أمام أنظار روبي. عادت تيري بعدما سمعتها كاي تثير طرطقة وجلبة في مكان خلفيّ من المنزل. كانت تحمل كوبًا من العصير مدّته للطفل.

«خذ هذا!» قالت، موجّهة كلامها إلى كاي أكثر منها إلى ابنها. جلست مجدّدًا، لكنّها أخطأت المقعد واصطدمت بمسند الأريكة في محاولتها الأولى للجلوس. سمعت كاي صوت العظم يصطدم بالخشب، لكن لم يبدُ على تيري أنّها شعرت بالألم. نجحت في الجلوس في محاولتها الثانية، استلقت مسندة ظهرها على الوسائد المنخسفة، وعادت تراقب المرشدة الاجتماعيّة بعينين زائغتين غير مكترثتين.

كانت كاي قرأت الملفَّ بحذافيره. تعرف أنّ كلّ ما كان له قيمة ذات يوم في حياة تيري ويدون ابتلعه إدمانها. أنّ هذا الثقب الأسود كلّفها ولدين، وأنّها بالكاد تتشبّث بالولدين الآخرين. أنّها تمارس الدعارة لدفع ثمن جرعتها من الهيرويين. أنّها جرّبت جميع أنواع الجنح الصغرى. وأنّها تحاول حاليًّا للمرّة الألف الخضوع لعلاج للتخلّص من الإدمان.

إنّها لا تشعر، ولا تكترث... في هذه اللحظة بالذات، فكّرت كاي، إنّها أسعد منّي.

3

عند بدء الحصّة الثانية من فترة ما بعد الظهر، خرج ستوارت «فاتس» وول من المدرسة. لم تكن مغامرته الصغيرة هذه مرتجلة، بل قرّر في الليلة السابقة التغيّب عن حصّتَي الكمبيوتر اللتين تختمان اليوم الدراسيّ. كان يمكن أن يتغيّب عن أيّ حصّة أخرى، لكن شاءت المصادفة أنّ أقرب أصدقائه آندرو برايس (يناديه آرف) كان في صفّ كمبيوتر مختلف، ولم ينجح فاتس رغم الجهود القصوى التي بذلها في إقناع المدرسة بتخفيضه صفًا حتّى يكون معه.

لا شكّ في أنّ كلا فاتس وآندرو على السواء كان مدركًا أنّ الإعجاب الذي تقوم عليه صداقتهما يسري بشكل أساسيّ في اتّجاه واحد، من آندرو إلى فاتس. لكنّ فاتس كان الوحيد من بينهما الذي تساوره شكوك في أنّه في الواقع بحاجة إلى آندرو أكثر من حاجة آندرو إليه. بدأ فاتس، في الآونة الأخيرة، يرى أنّ هذه الحاجة إنّما هي مؤشّر ضعف، لكنّه ظلّ يثمّن رفقة آندرو. وهو ما أقنعه أنّ بوسعه الاستغناء عن ساعتَي صفّ لن يكون فيهما في مطلق الأحوال برفقة صديقه.

علم فاتس من مخبر موثوق به أنّ الطريقة الوحيدة الآمنة لمغادرة مدرسة وينترداون بدون أن يتمّ رصده من إحدى النوافذ، كانت أن يتسلّق الجدار الجانبيّ عند موقف الدرّاجات. وهو ما فعله، متمسّكًا بطرف السور برؤوس أصابعه، قبل أن يقفز إلى الطرف الآخر. هبط في المسلك الضيّق بدون أن يفقد توازنه، تقدّم قليلا في الممرّ، ثمّ انعطف يسارًا في الطريق الرئيسيّة القذرة التي تشهد زحمة سير.

عابرًا أمام الدكاكين الصغيرة المتداعية، أشعل سيجارة بعدما بات في مأمنٍ. اجتاز خمسة مفارق ثمّ انعطف يسارًا مرّة جديدة، سالكًا أوّل شوارع حيّ الحقول. أرخى ربطة عنق بدلته المدرسيّة بإحدى يديه وهو يواصل السير، بدون أن ينزعها. لم يكن يرى أيّ إحراج في الظهور بمظهر التلميذ. لم يحاول فاتس يومًا تعديل أيّ شيء في بدلته المدرسيّة، كأنْ يعلّق دبابيس

مزخرفة على طيّة سترته، أو أن يثني ربطة عنقه بطريقة رائجة. كان يرتدي ملابسه المدرسيّة بالازدراء ذاته الذي يرتدي به معتقلٌ ملابس السجن.

الخطأ الأكبر الذي يرتكبه تسعة وتسعون بالمئة من البشر، برأي فاتس، هو أنّهم يخجلون بما هم عليه، يكذبون بشأن أنفسهم ويحاولون أن يوهموا الآخرين بأنّهم شخص مختلف. الصدق والنزاهة كانا نهج فاتس في الحياة، كانا سلاحه ودفاعه. النزاهة تفزع الآخرين، تصدمهم. تبيّن لفاتس أنّ الآخرين عالقون في شباك الحرج والمظاهر الفارغة. يخشون أن تخرج حقيقتهم إلى وضح النهار. أمّا فاتس، فيجد نفسه منجذبًا إلى الواقع الخام، إلى كلّ ما هو بشع إنّما صادق، إلى الحقائق الشنيعة التي تبعث لدى أمثال والده إحساسًا بالخزي والاشمئزاز. كان فاتس مسكونًا بالأنبياء والمنبوذين، بالرجال الذين يوصّفهم المجتمع بالمجانين أو المجرمين، بالهامشيّين النبلاء المرفوضين من الجموع الساهية.

الأصعب والأكثر عظمة هو أن تكون مَن أنت حقيقة، حتّى لو كان هذا الشخص الحقيقيّ قاسيًا أو خطيرًا، بل خصوصًا إذا كان قاسيًا أو خطيرًا. لا شجاعة في أن تضع قناعًا وتخفي الوحش الذي يسكنك. في المقابل، عليك أن تتفادى التظاهر بالوحشيّة أكثر ممّا أنت عليه. إن سلكْتَ هذا الطريق وبدأت تبالغ أو تتصنّع، فسوف تصبح في نهاية المطاف شبيهًا بأبو خزانة، منافقًا وزائفًا. أصيل وغير أصيل، تلك كانت كلمتين تتكرّران باستمرار على لسان فاتس، يقولهما لنفسه. كانتا تحملان بنظره معنى واضحًا بالغ الدقّة حين يستخدمهما ليصف نفسه كما الآخرين.

قرّر فاتس أنّه يملك صفات أصيلة، تستحقّ بالتالي التشجيع والتطوير، ولكن كذلك أنّ بعضًا من الأفكار التي تراوده إنّما هي النتيجة المصطنعة لتنشئته التعسة، وهي بالتالي غير أصيلة ويترتّب عليه تطهير ذهنه منها. كان يحاول خلال الفترة الأخيرة أن يتصرّف طبقًا لنزواته الأصيلة، أو ما يعتقد أنها نزوات أصيلة لديه، متجاهلًا أو كابتًا أيّ شعور بالذنب أو خوف (غير أصيل) يمكن أن يتأتّى عن مثل هذه الأفعال. ولا شكّ في أنّ هذا السلوك بدأ يسهل عليه مع الممارسة. كان هدفه أن يزداد شدّة وصلابةً، أن يكتسب

مناعة ويتحرّر من الإحساس بالخوف من العواقب، أن يتخلّص من مفاهيم الخير والشرّ الزائفة.

أحد الأمور التي بدأت تغيظه بشأن علاقته بآندرو، بل إدمانه هذه العلاقة، كان أنّ وجود صديقه يكبحه أحيانًا ويقيّده في التعبير بشكل تامّ عن ذاته الحقيقيّة الأصيلة. آندرو رسم بنفسه خريطة لما يعتبره سلوكًا نزيهًا وعادلًا، وقد لمح فاتس في الآونة الأخيرة على وجهه تعابير انزعاج، حيرة وخيبة لم ينجح في إخفائها. كان آندرو ينقبض فجأة وكأنّما في صدمة أمام أيّ مغالاةٍ في الاستفزاز أو السخرية. لم يكن فاتس يأخذ ذلك على آندرو، فهو لن يكون صادقًا إن جاراه في مغالاته بدون أن تكون لديه رغبة حقيقيّة وصادقة في ذلك. المشكلة أن آندرو كان يبدي تمسّكًا بالموقف الأخلاقي عينه الذي يشنّ عليه فاتس حربًا تزداد ضراوةً وتصميمًا. كان فاتس على يقين بأنّ الخطوة الصائبة التي يترتّب عليه ربّما الإقدام عليها حتّى يكون منسجمًا مع سعيه إلى الأصالة المطلقة، بمعزل عمّا يمكن أن يشعر به، كانت أن يقطع الجسور مع آندرو. غير أنّه، رغم ذلك، كان يفضّل رفقة آندرو على رفقة أيّ شخص آخر.

كان فاتس واثقًا بأنّه يعرف نفسه حقّ المعرفة. كان يتقصّى كلّ خبايا وزوايا نفسيّته، مكرّسًا لذلك اهتمامًا لم يعد مؤخّرًا يعيره لأيّ شيء آخر. يقضي ساعات مديدة يتقصّى نزواته، رغباته ومخاوفه، محاولًا التمييز ما بين الصادقة منها النابعة من جوهر طبيعته، وتلك المكتبسة التي تعلّم أن يشعر بها. يستكشف مشاعره حيال الآخرين (كان واثقًا بأنّ أيًّا من الذين يعرفهم لم يكن على هذا القدر من الصدق مع نفسه، بل إنّهم يهيمون في الحياة، مستسلمين ببلادة وخمول للتيّار). وكان استنتاجه أنّ آندرو الذي عرفه منذ أن كان في الخامسة من العمر، هو مَن يشعر حياله بالعاطفة الأكثر صدقًا. أنّه لا يزال يكنّ لوالدته حنانًا خارجًا عن إرادته، ولو أنّه الآن في سنّ لم يعد فيها بوسعها خداعه. وأنّه أخيرًا يشعر باحتقار كليّ لأبو خزانة الذي يرى فيه نموذجًا للرياء وذروة في قلّة الصدق والأصالة.

نشر فاتس في صفحته على موقع فيسبوك التي يديرها بعناية قلّما يبديها لأيّ شيء آخر في حياته، مقطعًا من كتاب عثر عليه في مكتبة والديه:

«لا أريد أتباعًا، أعتقد أنّني أكثر زندقة من أن أؤمن بنفسي ... ينتابني خوف فظيع من أن يأتي يومٌ أطوَّب فيه قدّيسًا... لا أريد أن أصبح قدّيسًا، بل أفضّل حتّى أن أكون مهرّجًا... في الحقيقة، قد أكون فعلًا مهرّجًا...»

ذلك المقطع كان له وقع كبير في نفس آنـدرو، واغتبط فاتس لأنه استطاع إثارة إعجابه.

وهو يمرّ أمام مكتب المراهنات، تذكّر فاتس بشكل عابر، لبضع ثوانٍ فقط، صديق والده الذي توفّي، باري فيربراذر. لبرهة، لثلاث خطوات تطلّبها مروره أمام ملصقات سباق الخيل المعلّقة خلف الزجاج الوسخ، استرجع فاتس ذكرى باري بوجهه الملتحي وهو يمازح ويضحك، وسمع أبو خزانة يطلق قهقهات مدوّية، قهقهات متكلّفة غالبًا ما كانت تنفجر قبل حتّى أن ينهي باري إحدى نكاته السخيفة، لمجرّد التنفيس عن ذلك الانفعال الذي يتملّكه في حضوره. لم يكن فاتس يودّ الإمعان أكثر في هذه الذكريات. لم يتساءل بشأن الأسباب الكامنة خلف جفله اللاشعوريّ من صديق والده. لم يرغب في أن يسأل نفسه ما إذا كان الرجل المتوفّى أصيلًا أم لا. طرد من ذهنه فكرة باري فيربراذر، وحزن والده المثير للسخرية، ومضى في طريقه.

كان فاتس يشعر في تلك الفترة بكآبة غريبة عن أطباعه، ولو أنّه لا يزال يُضحِك كلّ الذين يحيطون به. سعيه للتخلّص من قيود المبادئ الأخلاقيّة، إنّما كان محاولة لاستعادة شيء كان واثقًا بأنّه طُمِر في داخله، شيء فقده عند خروجه من نضارة الطفولة. ما أراد فاتس استنهاضه كان نوعًا من البراءة، والطريق الذي اختاره من أجل ذلك كان محفوفًا بكلّ ما يفترض أنّه سيّئ له، غير أنّه، رغم ذلك، بدا له أنّه الوسيلة الحقيقيّة الوحيدة للوصول إلى الأصالة، إلى نوع من النقاوة. غريب كم أنّ الأمور تكون في غالب الأحيان عكس ما تبدو، عكس ما قيل لك تمامًا. بدأ يتهيّأ لفاتس أنّه لو قَلَب، رأسًا على عقب، كلّ حكمة تلقّنها، كلّ فكرة اكتسبها، فسوف يتوصّل إلى الحقيقة. كان يريد أن يبحر في متاهات مظلمة، أن يصارع الغرابة القابعة فيها مترصّدة. يريد أن يُسقِط الإيمان والورع ويفضح الخبث والنفاق. أن يحطّم المحرّمات ويستخرج الحكمة من

قلبها المدمى. يريد أن يدرك حالة من النعمة الخارجة عن أيّ مفهوم أخلاقي، ويعود أدراجه عكس التيّار ليولد من جديد في الجهل والبساطة.

قرّر إذًا أن يخالف إحدى القواعد المدرسية القليلة التي كان لا يزال يلتزم بها، وفرّ من المدرسة قاصدًا حيّ الحقول. لم يكن الأمر لمجرّد أنّ نبض الواقع الخام يبدو هناك أقوى وأقرب إليه من أيّ مكان آخر يعرفه، بل كان يساوره أمل غامض بأن يلتقي بعض الأشخاص الذين تثير سمعتهم فضوله. لم يكن يقرّ بالأمر لنفسه تمامًا، لأنّ تلك كانت من الرغبات النادرة التي لا يستطيع أن يصفها بكلمات، لكنّه كان يبحث عن باب مشرّع، عن اعتراف يكون بمثابة فجر جديد، عن بيت يفتح له ذراعيه مرحّبًا بدون أن يكون على علم بأنّه ينتمي إليه.

عابرًا الحيّ مشيًا وليس في سيّارة والدته، لاحظ أنّ العديد من المنازل الرماديّة اللون لم تكن تحمل كتابات على جدرانها ولم تكن محاطة بالقمامة، بل إنّ بعضها كان يتأنّق مقلّدًا مظهر منازل باغفورد الراقية، بستائرها المخرّمة وحافّة نوافذه المزيّنة. هذه التفاصيل لا تظهر بشكل واضح من داخل سيّارة تتقدّم مسرعة، بل في تلك الحالة، كلّ ما يلفت النظر هو النوافذ المدعّمة بالألواح الخشبيّة والقمامة المنثورة على العشب أمام المنازل. المنازل الأكثر أناقة لم تكن ذات أهميّة بنظر فاتس. ما كان يفتنه هو الأماكن التي تخيّم عليها الفوضى ويغيب عنها النظام، ولو كان ذلك لا يتجلّى سوى في مظاهر صبيانيّة كالخربشات على الجدران.

كان محلّ إقامة داين تالي على مقربة من هناك (لا يعرف فاتس أين تحديدًا). وعائلة تالي سيّئة السمعة. شقيقاه الأكبران ووالده قضوا الكثير من الوقت في السجن. وسرت شائعات أنّه، في آخر مرّة دخل داين في عراك (مع فتى في التاسعة.عشرة من العمر من حيّ كانترميل، بحسب الرواية)، واكبه والده إلى موقع المواجهة وتعارك هو أيضًا مع أشقاء خصمه الأكبر سنّا منه. في اليوم التالي، ظهر داين في المدرسة مستعرضًا الجرح على وجهه وشفته المتورّمة والكدمة الزرقاء حول عينه. كان واضحًا للجميع أنّه إذا كان في ذلك اليوم قد كرّم المدرسة بحضوره النادر، فذلك للتباهي بآثار الشجار ليس أكثر.

كان فاتس واثقًا بأنّه سيتصرّف بشكل مختلف لو كان في وضع مماثل. فالاكتراث لرأي الآخرين بوجهك المحطّم أمر لا يمكن وصفه بالصدق والأصالة. لكان فاتس اختار العراك، ثمّ العودة إلى مجرى حياته الطبيعيّ بدون أن يعلم أحد بالأمر، إلّا في حال لمحه أحد مصادفةً أثناء الشجار.

لم يسبق لفاتس أن تعرّض للضرب، رغم أنّه كان يسعى إلى ذلك نوعًا ما من خلال استفزازاته المتزايدة. وكان يتساءل في الأيام الأخيرة عمّا قد يكون عليه الدخول في عراك. كان يخطر له أنّ الأصالة التي يسعى إليها لن تخلو من العنف، أو على الأقلّ لن تستبعد العنف. أن يكون مستعدًّا للضرب ولتلقّي ضربات، ذلك يبدو له نوعًا من الشجاعة يجدر به التطلّع لبلوغها. لم يكن يومًا بحاجة إلى قبضتيه، كان لسانه كافيًا. غير أنّ شخصيّته الجديدة تبدي ميلًا متزايدًا إلى الاستخفاف بفصاحته وتبجيل الوحشيّة الخالصة. مسألة حمل سكّين كانت تتبادر إلى ذهن فاتس بكثير من الحذر. أن يشتري سكّينًا اليوم ويدع الجميع يعلم بأنّه يحمل سكّينًا، ذلك سيكون سلوكًا صارخًا بقلّة أصالته، مجرّد تشبّه أبله بأمثال داين تالي. كان فاتس يشمئزّ إلى حدّ الغثيان لمجرّد هذه الفكرة. لكن إن أتى يومٌ واجه فيه موقفًا يتطلّب منه أن يحمل سكّينًا، فسوف يكون الأمر مختلفًا تمامًا. لم يكن فاتس يستبعد احتمال أن يأتي مثل هذا اليوم، ولو أنّه يقرّ لنفسه بأن هذه الفكرة مخيفة. كان فاتس يخاف من كلّ ما يخترق الجلد، من الإبر والشفرات. كان الوحيد الذي فقَد الوعي عند تلقيحهم ضدّ التهاب السحايا حين كانوا في مدرسة سانت توماس. إحدى الوسائل النادرة التي اكتشفها آندرو لإرباك فاتس كانت أن يُخرج حقنة «إيبي- بن» التي لم تكن تفارقه، تلك الحقنة المليئة بمادة الأدرينالين التي كان يتحتّم عليه الاحتفاظ بها طوال الوقت تحسّبا لإحدى النوبات الخطيرة التي تصيبه بسبب الحساسيّة من المكسّرات. كان فاتس يشعر بالدوار حين يلوّح صديقه بالحقنة أمامه أو يصوّبها نحوه مدّعيًا وخزه بها.

هائمًا من دون وجهة، لمح فاتس اللافتة التي تشير إلى شارع فولي. هناك كانت تقيم كريستال ويدون. لم يكن واثقًا ممّا إذا كانت في المدرسة في ذلك اليوم، ولم يشأ إعطاءها انطباعًا بإنّه جاء يبحث عنها.

كان من المقرّر أن يلتقيا مساء الجمعة. أعلن فاتس لوالديه أنّه سوف يزور آنـدرو في ذلك اليوم ليعملا معًا على فرض في مادة الأدب. بدا على كريستال أنّها تدرك ما سيقومان به، وبدت موافقة على ذلك. سمحت له حتّى الحين بدسّ إصبعين داخل مهبلها. كان دافئا وصلبًا وزلقًا. فكّ حمّالة صدرها وسمحت له بأن يضع يديه على نهديها الدافئين المتثاقلين. هو الذي قام بالمبادرة خلال الحفل الراقص في عيد الميلاد، وطلب منها مرافقته إلى الخارج. تقدّمها عبر القاعة أمام أنظار آنـدرو وباقي التلاميذ الذين وقفوا مشدوهين، وقادها إلى خلف المسرح. بدت مذهولة هي أيضًا، لكنّها لم تقاوم، خلافًا لما كان يتوقّعه ويأمل به. كان التحرّش بكريستال خطوة متعمّدة خطّط لها مسبقًا، وقد أعدّ ردًّا جريئًا كاسحًا يواجه به سخرية رفاقه واستفزازاتهم: «من أراد أكل اللحم، لا يذهب إلى مطعم نباتيّ لعين.»

لم يفهم رفاقه القصد من هذه الجملة، رغم أنّ فاتس فكّر مليًا للخروج بهذه الصيغة.

«يمكنكم الاستمرار في الاستمناء إن أردتم. أمّا أنا، فأرغب في المضاجعة.»

هذه الجملة كانت كفيلة بخطف الابتسامة عن وجوههم. كان يرى بوضوح أنّه أرغمهم جميعًا، بمن فيهم آندرو، على كبح سخريتهم والانحناء بإعجاب أمام الجسارة التي أثبتها، بعيدًا عن أي حياء، في سعيه لإحراز الهدف الحقيقيّ الوحيد الذي يستحقّ العناء. من المؤكّد أنّ فاتس اختار الطريق الأقرب لتحقيق هذا الهدف. لم يكن بوسع أيّ منهم المجادلة في حسّه العمليّ المنطقيّ. كان فاتس واثقًا بأنّ كلًّا منهم كان يتساءل لماذا لم يجد الجرأة ويفكّر في مثل هذه الوسيلة من أجل الوصول إلى مبتغاه.

«هل تسدين لي خدمة؟ لا تكلّمي والدتي عن هذا، اتّفقنا؟» تمتم لكريستال وهو يستعيد أنفاسه بين قبلتين مطوّلتين، مستكشفًا جوف فمها الرطب فيما يداعب بإبهاميه حلمتيها.

أطلقت ضحكة ساخرة طفيفة، ثمّ عاودت تقبيله بمزيد من الحرارة والعنف. لم تسأله عمّا دفعه إلى اختيارها هي بالتحديد، الواقع أنّها لم تسأله

شيئًا. بدت مسرورة مثله بردود فعل عشيرتها التي لا تمتّ بصلة إلى عشيرته، وكأنّها تعتزّ بالحيرة والبلبلة اللتين سيطرتا على الجميع، وحتّى بتكشيرات الاشمئزاز على وجه أصدقائها.

بالكاد تبادل فاتس وكريستال بضع كلمات خلال لقاءاتهما الثلاثة الأخرى، وهم مستغرقون في تقصّي أحاسيسهما واختبارها. كان فاتس مَن بادر إلى ترتيب اللقاءات جميعها، غير أنّ كريستال حرصت على أن تكون على الدوام في الموقع المناسب، فراحت تتردّد إلى الأماكن التي يمكن أن يجدها فيها بسهولة. لقاء ليلة الجمعة سيكون أوّل موعد يتمّ ترتيبه مسبقًا بينهما. وقد اشترى واقيات ذكريّة لهذا الغرض.

كانت فكرة المضيّ أخيرًا حتّى النهاية ماثلة في ذهنه حين اتّخذ قراره بالفرار من المدرسة في ذلك اليوم والتوجّه إلى حيّ الحقول، حتّى لو أنّه لم يفكّر بكريستال نفسها (ما لا يمكن قوله عن نهديها الرائعين وذلك المهبل المتاح له كأنّما بأعجوبة) إلى أن قرأ اسم الشارع الذي تقطن فيه.

استدار فاتس وعاد أدراجه، مشعلًا سيجارة جديدة، وقد انتابه حدس غريب عند رؤية اسم شارع فولي، بأنّ التوقيت خاطئ. الحيّ اليوم مملّ وغامض لا يمكن سبره، وما كان يبحث عنه، مبتغاه الذي كان يأمل أن يتعرّف إليه ما أن يراه، كان مختبئا في مكان ما، محتجبًا عن أنظاره. مضى في طريقه إذًا عائدًا إلى المدرسة.

4

لم يكن أحدٌ يردّ على الهاتف. أمضت كاي ساعتين منذ أن عادت إلى مكتب جهاز حماية الطفولة تطلب الرقم تلو الآخر على الهاتف، تترك رسائل طالبة من الجميع أن يعاودوا الاتّصال بها: الزائرة الصحيّة لعائلة ويدون، الطبيب العائلي، حضانة كانترميل وعيادة بيلتشابيل لمعالجة الإدمان. كان ملفّ تيري ويدون مفتوحًا على المكتب أمامها، ضخمًا وفي حالة رثّة.

«عادت إلى استهلاك المخدّرات، أليس كذلك؟» قالت أليكس، إحدى الموظّفات اللواتي كانت كاي تتقاسم المكتب معهنّ. «بيتشابيل سوف تطردها نهائيًا هذه المرّة. تدّعي أنّها تخشى أن ينتزعوا منها روبي، لكنّها عاجزة عن الإقلاع عن المخدّرات.»

«هذه ثالث مرّة تدخل إلى بيلتشابيل»، قالت أونا.

كانت كاي تعتبر، استنادًا إلى ما رأته بعد الظهر، أنّ الوقت حان لمراجعة الملفّ وجمع الاختصاصيّين الذين يشرفون على أجزاء مختلفة من حياة تيري ويدون. واصلت الضغط على زرّ معاودة الاتّصال وهي تصرّف أعمالًا أخرى، فيما هاتف الفريق يرنّ باستمرار في قعر القاعة، فيحوَّل الاتّصال تلقائيًا على المجيب الآليّ. كان مكتب جهاز حماية الطفولة ضيّقًا تعمّه الفوضى، وتفوح فيه رائحة حليب فاسد بسبب تفل القهوة الذي كانت آليكس وأونا تفرغانه باستمرار في تربة نبتة اليوكا الكئيبة المزروعة في زاوية القاعة.

آخر ملاحظات دوّنتها ماتي كانت فوضويّة وغير واضحة، مليئة بالكلمات المشطوبة والتواريخ غير الدقيقة والثغرات. كانت عدّة وثائق أساسيّة مفقودة من الملفّ، بما فيها رسالة بعثتها العيادة قبل أسبوعين. كان من الأسهل على كاي أن تسأل آليكس وأونا عن المعلومات التي هي بحاجة إليها.

«آخر مراجعة للملفّ جرت... دعيني أفكّر قليلًا...» قالت آليكس عاقدة حاجبيها وهي تنظر صوب نبتة اليوكا، «أعتقد أنّ ذلك كان قبل أكثر من عام».

«على ما يبدو، اعتبروا آنذاك أنّ بوسع روبي البقاء معها»، قالت كاي ضاغطة سمّاعة الهاتف بين أذنها وكتفها وهي تحاول من غير جدوى العثور على تقرير آخر مراجعة بين أوراق الملفّ الضخم.

«لم يكن السؤال المطروح عندها ما إذا كان بوسعه البقاء معها، بل ما إذا كان سيعود إليها أم لا. كان وُضِعَ في تلك الفترة في عهدة عائلة استقبال لأنّ تيري نقلت إلى المستشفى بعدما أبرحها أحد زبائنها ضربًا. أقلعت عن إدمانها، خرجت وبذلت كلّ ما بوسعها لاسترجاع روبي. عادت إلى متابعة برنامج عيادة بيلتشابيل، توقّفت عن تعاطي المخدّرات وقامت بمجهود

حقيقيّ. كانت والدتها تؤكّد أنها سوف تساعدها. كانت النتيجة أنّها أعادته إلى المنزل، ولكن، بعد يومين عادت إلى المخدّرات.»

«ليست والدة تيري مَن يساعدها، أليس كذلك؟» سألت كاي وقد بدأ رأسها يؤلمها وهي تحاول قراءة خربشات ماتي بأحرفها العريضة غير المفهومة. «إنّها جدّتها، يعني والدة جدّة الأطفال. لا بدّ أنّها طاعنة في السنّ وبدأت تخرّف. ذكرت تيري شيئا هذا الصباح، قالت إنّها مريضة. إن كانت تيري تعنى وحدها بولديها الآن...»

«ابنتها في السادسة عشرة من العمر»، اعترضت أونا، «هي التي تهتمّ بروبي بشكل أساسيّ.»

«لا يمكن القول أنّها تنجز عملها على أتمّ وجه، قالت كاي. كان في حالة يرثى لها حين وصلتُ إلى هناك هذا الصباح.»

لكن الحقيقة أنّها صادفت حالات أسوأ بكثير. أطفال يحملون ندبات وآثار ضرب، جروحًا وحروقًا، كدمات سوداء قاتمة. أطفال مصابون بالجرب والقمل. ممدّدون على بسط مليئة ببراز كلاب. يزحفون أرضًا وعظامهم محطّمة. حتّى إنّها رأت مرّة طفلًا حبسه زوج والدته المصاب بالذهان خمسة أيام داخل خزانة في المطبخ. تلك الحالة الأخيرة تصدّرت نشرات الأخبار الوطنيّة. الخطر الآنيّ الأكبر على سلامة روبي ويدون كان علب الكرتون المكدّسة في صالون والدته والتي حاول أن يتسلّقها عندما لاحظ أنّ ذلك يلفت انتباه كاي. حرصت كاي قبل أن تغادر المنزل على إعادة توزيعها في كدستين أقلّ ارتفاعًا. توتّرت تيري حين لمست كاي العلب. كما توتّرت حين قالت لها إنّ عليها أن تبدّل حفّاضة روبي المبلّلة. حتّى أنّها دخلت في نوبة غضب شديدة وانهالت عليها بالشتائم، ولو بصوت لا يزال بليدًا ضبابيّا، فقالت لها أن تغرب من هناك وتبقى بعيدًا عنها.

رنّ هاتف كاي النقّال فسارعت إلى الإجابة. كانت تلك مسؤولة ملفّ تيري في عيادة بيلتشابيل.

«أحاول الاتّصال بك منذ عدّة أيام»، بادرتها المرأة متذمّرة. تطلّب الأمر عدّة دقائق حتّى يتسنّى لكاي أن تشرح للمرأة أنّها ليست ماتي، لكنّ ذلك لم يخفّف غضبها.

«حسنًا، ما زلنا نتابعها، لكنّ الفحوص كشفت الأسبوع الماضي عن آثار مخدّرات. إن عاودت تعاطي المخدّرات، يكون أمرها انتهى عندنا. لدينا حاليًا عشرون شخصًا يمكنهم الحلول محلّها في البرنامج والاستفادة منه. هذه ثالث مرّة نهتمّ بها.»

لم تقل كاي أنّها رأت تيري في الصباح تحت تأثير المخدّرات.

«هل لدى أيّ منكما أقراص بانادول؟» سألت كاي آليكس وأونا عندما أقفلت المسؤولة في بيلتشابيل الخطّ، بعدما عرضت عليها تقريرًا مفصّلًا عن مشاركة تيري في البرنامج وعدم إحرازها تقدّمًا يذكر.

ابتلعت كاي الأقراص المسكّنة مع الشاي الفاتر المتبقّي في كوبها. لم تكن تقوى على النهوض والذهاب إلى برّاد المياه في الممرّ. الجوّ خانق داخل المكتب حيث تعمل المدفأة الكهربائيّة بأقصى قوّتها. ومع خفوت نور النهار في الخارج، كان ضوء مصباح النيون المعلّق فوق مكتبها يزداد حدّة، ساكبًا نوره الأبيض الشاحب فوق الأوراق المفروشة، وعليها الكلمات مثل خطوط لامتناهية من الحشرات الطنّانة.

«سوف يغلقون عيادة بيلتشابيل في نهاية المطاف، انتظري قليلًا وسوف ترين»، قالت أونا وهي جالسة أمام جهاز الكمبيوتر، مديرة ظهرها لكاي. «لا بدّ من الاقتطاع في النفقات. المجلس يموّل جزءًا من البرنامج. رعيّة باغفورد تملك المبنى. وردني أنّهم يخطّطون لترميمه وسيحاولون إيجاد مستأجر يدفع بدل إيجار أعلى. إنّهم يسعون منذ سنوات للتخلّص من هذه العيادة.»

كانت كاي تشعر بالألم يخفق في صدغيها. مجرّد اسم بلدتها الجديدة كان يبعث في نفسها الحزن. بدون أن تفكّر في الأمر، قامت بما كانت أقسمت على الامتناع عنه بعدما لم يتّصل بها في الليلة السابقة: تناولت هاتفها الجوّال وطلبت رقم مكتب غافين.

«إدوارد كولينز وشركاه، نعم؟» قال صوت امرأة بعد الرنّة الثالثة. يجيبون على الاتّصالات بدون تأخير في القطاع الخاص، حيث قد يكون أيّ اتصال مصدر ربح.

«أودّ التكلّم إلى غافين هيوغز من فضلك»، قالت كاي وهي تحدّق إلى ملفّ تيري.

«من يتكلّم أرجوك؟»

«كاي بودين.»

لم ترفع نظرها عن الملفّ. لم تشأ أن تلتقي عيناها بعيني أيّ من آليكس أو أونا. انتظرت لوقت بدا لها دهرًا.

(التقيا في لندن، خلال حفل عيد ميلاد شقيق غافين. لم تكن كاي تعرف أحدًا هناك، باستثناء صديقتها التي أصرّت على أن ترافقها حتّى تكون إلى جانبها. كان غافين انفصل للتوّ عن ليسا. كان ثملًا بعض الشيء، لكنّه بدا لها لائقًا، جديرًا بالثقة وتقليديًا. باختصار، لم يكن إطلاقًا من صنف الرجال الذين يجذبون كاي عادة. أخبرها قصّة علاقته ونهايتها التعسة، ثمّ رافقها إلى الشقّة في هاكني. كان في شوق دائم إليها طالما أنّهما يسكنان بعيدًا أحدهما عن الآخر، يأتي إليها في عطلة نهاية الأسبوع ويتّصل بها على الدوام. لكن حين حصلت بأعجوبة على الوظيفة في يارفيل، ولو بأجر أقلّ، وعرضت شقّتها في هاكني للبيع، بردت مشاعره حيالها، وكأنّه جفل فجأة...)

«ما زال خطّه مشغولًا، هل تودّين الانتظار؟»

«نعم، أرجوك»، أجابت كاي بائسة.

(إن لم تنجح علاقتها مع غافين... لكن يجب أن تنجح بأيّ ثمن. فهي انتقلت إلى هنا من أجله، بدّلت وظيفتها من أجله، أرغمت ابنتها على ترك محيطها وبيئتها من أجله. لما كان سمح بالتأكيد بحصول كلّ هذا لو لم تكن نواياه جديّة حيالها. لا بدّ أنّه فكّر في العواقب في حال انفصالهما، كم سيكون الأمر محرجًا ورهيبًا، أن يلتقيا باستمرار في بلدة صغيرة مثل باغفورد.)

«لحظة، سوف أصلك به»، قالت السكرتيرة، باعثة الأمل في نفس كاي.

«مرحبًا»، قال غافين. «كيف حالك؟»

«جيّدة»، كذبت كاي في حضور آليكس وأونا اللتين كانتا تنصتان.

«كيف يجري نهارك؟»

«مشغول»، أجاب. «وأنت؟»

«تمام.»

انتظرت، ضاغطة السمّاعة لصق أذنها، مدّعية بأنّه يكلّمها، منصتة إلى الصمت.

«كنت أتساءل إن كنت تودّ أن نلتقي هذا المساء»، سألته أخيرًا، مشمئزّة من نفسها.

«آه... لا أعتقد أنّ بوسعي ذلك»، أجاب.

كيف يعقل ألّا تَعرف؟ ما الذي يمكن أن يشغلكَ؟ تساءلت.

«قد أنشغل بشيء ما... إنّها ماري. زوجة باري. طلبت منّي أن أحمل النعش. قد أضطرّ إذًا... ينبغي أن أرى ماذا سيتوجّب عليّ أن أفعل، ما يتطلّبه الأمر.»

أحيانًا إذا ما بقيت صامتة وتركت أصداء أعذاره الواهية تتناهى وترتدّ إليه، يخجل من نفسه ويتراجع.

«حسنًا، لا أعتقد أنّ المسألة ستستغرق الليلة بكاملها»، قال. «بإمكاننا أن نلتقي لاحقًا إذا أردتِ.»

«ممتاز. هل تريد أن تأتي أنتَ، بما أن غدًا يوم مدرسة؟»

«آه... أجل، موافق.»

«في أيّ ساعة؟» سألت. أرادت أن تدفعه لاتّخاذ قرار، أيّ قرار.

«لا أدري. لنقل في حوالى التاسعة؟»

بعدما أغلق الخطّ، أبقت كاي الهاتف بضع لحظات لصق أذنها، ثمّ قالت متقصّدة آليكس وأونا: «أنا أيضًا. أراك لاحقًا حبيبي».

5

لم تكن ساعات عمل تيسا وول في مكتب التوجيه منتظمة مثل دوام زوجها. كانت تنتظر عادة حتّى نهاية اليوم المدرسيّ لتعيد ابنها في سيارتها النيسان إلى البيت، قبل أن يلحق بهما كولين (الذي لم تتوجّه إليه تيسا يومًا بلقب أبو

خزانة ولو أنّها كانت تعلم بأنّ الجميع يدعوه هكذا، بمن في ذلك جميع الأهالي الذين انتقلت إليهم العدوى من أولادهم) بعد ساعة أو ساعتين في سيّارته التويوتا. غير أنّ كولين قصد تيسا يوم الثلاثاء ذاك في موقف السيّارات في الساعة الرابعة والثلث، فيما التلاميذ يتدفّقون خارج البوّابة ويصعدون في سيّارات أهلهم أو في الحافلات المدرسيّة.

كانت السماء فوق رأسها رصاصيّة باردة تشبه جوف درع. ريح قويّة تعصف فترفع أطراف التنانير وتهزّ الأوراق المتبقّية على الأشجار التي عرّاها الشتاء. ريح باردة شرسة تترصّد نقاط ضعفك، رقبتك، ركبتيك، فتحرمك عزاءَ اللجوء إلى أحلامك، الاحتماء قليلًا من قسوة الواقع. ظلّت تيسا حتّى بعدما أغلقت باب السيّارة تشعر بالخشونة والقسوة، وكأنّ أحدًا دفعها في الشارع بدون أن يكلّف نفسه عناء الاعتذار حتّى.

إلى جانبها في مقعد الراكب جلس كولين، ثانيًا جسده ورافعًا ركبتيه عاليًا في وضعيّة مضحكة داخل السيّارة الضيّقة. نقل إليها ما قاله له أستاذ الكمبيوتر حين قصده في مكتبه قبل عشرين دقيقة: «... غائب. لم يظهر طوال ساعتي الحصّة الدراسيّة. قال إنّه كان عليه أن يبلّغني بغيابه. ستكون هذه المسألة بالتأكيد محور الحديث في قاعة الأساتذة غدًا. هذا ما يريده تمامًا» قال كولين حانقًا. كانت تيسا تدرك أنّ المسألة لم تعد تقتصر على أستاذ الكمبيوتر. «إنّه يستخفّ بي، كالعادة.»

كان زوجها شاحب الوجه، منهكًا. تحت عينيه الحمراوين امتدّت ظلال داكنة، ويداه المرتجفتان قليلًا تطبقان على قبضة حقيبته. يدان جميلتان ذات مفاصل عريضة وأصابع طويلة نحيفة. لا تختلفان كثيرا عن يدي ابنهما. لفتت تيسا انتباه زوجها وابنها مؤخرًا إلى هذا الشبه، فلم يُبدِ أيّ منهما أدنى سرور لفكرة وجود مطلق شبه جسديّ بينهما.

«لا أعتقد أنّه...» باشرت تيسا، قبل أن يقاطعها كولين.

«إذًا سوف يتمّ حجزه كالجميع، ولن أتردّد في فرض قصاص عليه في المنزل أيضًا. سوف نرى ماذا سيفعل عندها. سنرى إن كان سيجد ذلك طريفًا. يمكننا أن نبدأ بحجزه أسبوعًا كاملًا في المنزل. هل سيكون ذلك أيضًا مضحكًا؟»

تمالكت تيسا نفسها عن الردّ، وهي شاردة تتأمّل حشود التلاميذ مثل أمواج قاتمة ببدلاتهم السوداء، يسيرون ورؤوسهم محنيّة أرضًا، يرتعشون من البرد في معاطفهم الرقيقة، وخصلات شعرهم تتطاير في الريح وتلتصق بأفواههم. وقف تلميذ في الصفّ الأوّل تكميليّ ممتلئ الخدّين ومرتبكًا بعض الشيء، يقلّب نظره في كلّ الاتّجاهات بحثًا عن سيّارة لم تصل بعد. تبدّد الحشد وظهر فاتس، متقدّمًا بخطى سريعة برفقة صديقه آرف برايس كالعادة، وخصلاته تتطاير في الريح حول وجهه الهزيل. أحيانًا، حين تنظر إلى وجهه من زاوية معيّنة وفي نور معيّن، يسهل عليها أن تتبيّن كيف سيكون حين يشيخ. تهيّأ لتيسا لوهلة، وهي تتأمّله متعبة، أنّها تنظر إلى شخص غريب لا تعرفه على الإطلاق. دهشت لبرهة حين رأته يبتعد عن التلاميذ ويسير نحو سيّارتها، حين فكّرت أنّه سيترتّب عليها الخروج مجدّدًا من السيّارة في ذلك البرد الفظيع الذي يعيدها بقسوته إلى صلب الواقع، من أجل أن يتمكّن هو من الدخول. لكن حين وصل إلى السيّارة ونظر إليها بابتسامته الطفيفة تلك الأشبه بتكشيرة، عادت ورأت فيه في لمحة بصر ذلك الصبيّ الصغير الذي تحبّه رغم كلّ شيء. خرجت من السيّارة، وقفت مقاومة الرياح القارسة كالسكّين، بينما انحنى ودخل السيّارة جالسًا مع والده الذي لم يقم بمطلق حركة.

خرجوا من الموقف قبل أن تقلع الحافلات المدرسيّة، وانطلقوا عبر يارفيل، متخطّين منازل حيّ الحقول الشنيعة المتهدّمة، صوب المنعطف الذي يعيدهم إلى باغفورد. كانت تيسا تراقب فاتس في المرآة الخلفيّة. كان متراخيًا على المقعد يتأمّل المشهد من النافذة، وكأنّ والديه مجرّد مجهولين استوقفهما وهما يعبران بسيّارتهما، لا تربطه بهما سوى المصادفة.

انتظر كولين إلى أن وصلا إلى المفرق، ثمّ سأل «أين كنت خلال حصّة الكمبيوتر بعد الظهر، حين كان يفترض بك أن تكون في الصفّ؟»

لم تستطع تيسا أن تمتنع عن استراق النظر مجدّدًا في المرآة الخلفيّة. رأت ابنها يتثاءب. كانت تتساءل أحيانًا، رغم أنّها تنفي الأمر نفيًا قاطعًا لكولين، إن لم يكن فاتس يشنّ في الحقيقة حربًا شخصيّة خبيثة على والده، متّخذًا المدرسة برمّتها جمهورًا. كانت تعرف أمورًا عن ابنها لما كان تسنّى لها

معرفتها لو لم تكن تعمل في مكتب التوجيه. التلاميذ كانوا يروون لها الكثير من الأمور، أحيانًا ببراءة، وأحيانًا أخرى بدهاء.

سيّدة، هل لديك مانع من أن يدخّن فاتس؟ هل تدعينه يدخّن في المنزل؟

أغلقت هذا الكنز الصغير من المعلومات السريّة التي حصدتها بطرق غير مشروعة بدون أن تسعى لذلك، وطمرته في أعماقها بدون أن تخبر به زوجها ولا ابنها، مع أنّه كان عبئًا كبيرًا عليها يرهقها.

«ذهبت في نزهة»، أجاب فاتس بهدوء. «أردت أن أمرّن ساقيّ المتعبَتين قليلًا.»

استدار كولين في مقعده لينظر إلى فاتس، وراح يصرخ. كان حزام الأمان المشدود يضغط على صدره، والمعطف والحقيبة يقيّدان حركته. حين يفقد كولين السيطرة على أعصابه، يرتفع صوته إلى طبقات عالية، ويتحوّل إلى زعيق حادّ. بقي فاتس جالسًا بصمت من غير أن يرفّ له جفن، وشفتاه الرقيقتان ملتويتان في نصف ابتسامة وقحة، إلى أن بدأ والده يوسعه بالشتائم، شتائم يخفّف من حدّتها نفور كولين الفطريّ من أيّ كلام بذيء وارتباكه عند التفوّه به.

انفجر صارخًا: «أيّها المغرور الأنانيّ... يا لك من قذر وضيع!»

ملأت الدموع عينَي تيسا، حتّى إنّها بالكاد باتت تميّز الطريق. كانت واثقة بأنّ فاتس سيعيد تمثيل المشهد برمّته في صباح اليوم التالي وسيقلّد كولين وهو يزعق ويشتم بخجل كأنّما رغمًا عنه، مقدّمًا استعراضًا حقيقيًا لآندرو برايس.

سيّدة، فاتس يقلّد بشكل بارع مشية أبو خزانة، هل رأيته؟

«كيف تتجرّأ وتكلّمني هكذا؟ كيف تجرؤ، كيف تجرؤ على التغيّب عن الصف؟»

كان كولين يصرخ ويحتدّ وقد جنّ جنونه. راحت تيسا ترفّ بعينيها لتطرد الدموع منهما فيما سلكت مفرق باغفورد ومرّت أمام الساحة بمحاذاة محلّ «موليسون ولوي»، النصب التذكاري و«الراهب الأسود»، قبل أن تنعطف

يسارًا عند كنيسة سانت مايكل وجميع القدّيسين، وتلِج شارع تشيرتش روو. حين وصلت أخيرًا إلى مسلك منزلهم، كان كولن استنفد كلّ طاقاته الصوتيّة ولم يعد يصدر سوى صرير أجشّ. أمّا تيسا، فكان خدّاها مبلّلين تمتزج عليهما الدموع بالملح. خرج الثلاثة من السيّارة، فتقدّمهما فاتس الذي لم يحرّك ساكنًا طوال خطاب والده، دخل مستخدمًا مفتاحه وصعد الأدراج إلى الطبقة العلويّة بخطًى هادئة بطيئة، بدون أن يلقي نظرة واحدة خلفه.

رمى كولين حقيبته داخل الممشى المظلم واستدار ليواجه تيسا. النور الوحيد المنبعث كان يرشح عبر لوح الزجاج المعشّق فوق باب المدخل فيلقي ظلالًا غريبة يختلط فيها الأحمر القاني كالدم بالأزرق الشبحيّ على أعلى رأسه القليل الشعر الذي كان يهتزّ في كلّ الاتّجاهات.

«هل رأيت؟» صرخ ملوّحًا بذراعيه الطويلتين، «هل رأيت كيف يعاملني؟»

«أجل»، قالت وهي تنتشل حفنة من محارم الورق من العلبة على طاولة الممشى فتمسح وجهها وتتمخّط. «أجل، رأيت.»

«لا يبدي أيّ مراعاة للمحنة التي نحن فيها!»

أجهش كولين بالبكاء مطلقًا نشيجًا وعبرات بدون دموع، مثل طفل مصاب بالتهاب في الحنجرة. هرعت تيسا إليه وشبكت ذراعيها حول صدره، فوق خصره بقليل، بما أنّه كان أعلى مستوى يمكنها الوصول إليه بقامتها القصيرة المربوعة. انحنى مستندًا إليها. كان يرتجف، وأحسّت بصدره يختلج على وقع أنفاسه المتهدّجة.

بعد لحظات، انفصلت عنه برفق، قادته إلى المطبخ وأعدّت له كوبًا من الشاي.

«سوف أحمل بعض الطعام إلى ماري»، قالت بعدما جلست إلى جانبه لبعض الوقت، تداعب يده وتربّتها. «لديها نصف العائلة في المنزل. حين أعود، سوف نخلد إلى النوم باكرًا.»

هزّ رأسه موافقًا، وقبّلته على صدغه قبل أن تتوجّه إلى الثلّاجة. حين عادت حاملة الطبق الثقيل المجلّد، وجدته جالسًا إلى الطاولة، ممسكًا الكوب بين يديه وعيناه مغمضتان.

وضعت تيسا الطبق المغلّف بكيس من البلاستيك على البلاطات القرميديّة قرب باب المدخل. ارتدت معطفها الأخضر المعتاد من الصوف المتكتّل، لكنّها لم تنتعل حذاءها، بل صعدت الأدراج على رؤوس أصابعها. حين وصلت إلى الممرّ، أكملت تسلّق الدرج بدون أن تجتهد لعدم إحداث ضجيج حتّى وصلت إلى العليّة التي حوّلوها إلى غرفة.

حين اقتربت من الباب، سمعت حفيفًا خاطفًا يشبه صوت فأر يفرّ مسرعًا. دقّت على الباب، وأمهلت فاتس بعض الوقت حتّى يتسنّى له أن يخفي أيّ شيء كان يقوم به على الإنترنت أو السجائر التي لم يكن يدري أنّها على علم بها.

«نعم؟»

دفعت الباب. وجدت ابنها مقرفصًا أمام حقيبته المدرسيّة في وضعيّة مدروسة.

«هل كان ينبغي عليك فعلًا أن تتهرّب من المدرسة، وفي هذا اليوم تحديدًا؟»

نهض فاتس. بدا وكأنّه يحلّق فوقها بقامته الطويلة الهزيلة.

«كنت حاضرًا. كلّ ما في الأمر أنّني وصلت متأخّرًا. لم يلاحظ بينيت. إنّه أبله.»

«أرجوك، ستوارت. أرجوك.»

تودّ أحيانًا لو تنتهر الأطفال في المدرسة أيضًا. أن تصيح: عليكم أن تتقبّلوا واقع أنّ الآخرين موجودون. تعتقدون أنّ الواقع قابل للتفاوض، أنّنا نقتنع بأنّه كما تصفونه، كيفما تصفونه. عليكم أن تتقبلوا بأنّنا موجودون حقيقة مثلكم تمامًا. عليكم أن تتقبّلوا فكرة أنّكم لست آلهة.

«ستو، والدك مكتئب للغاية. بسبب باري. ألا يمكنك أن تتفهّم ذلك؟»

«بلى»، أجاب.

«كيف أشرح لك... لنقل إنّ المسألة أشبه بما يمكن أن تشعر به إن توفّي آرف.»

لم يجب ولم يَظهر أيّ تعبير على وجهه، لكنّها أحسّت بازدرائه، بسخريته.

«أعلم أنّك على قناعة تامّة بأنّك وآرف في مصاف أسمى بكثير من أمثال والدك وباري...»

«لا، إطلاقًا»، قال فاتس، لكنّها كانت تعلم أنّ اعتراضه شكليّ، يأمل منه إنهاء الحديث.

«سأخرج لحمل بعض الطعام لماري. أتوسّل إليك ستوارت، لا تقدم على أيّ شيء يمكن أن يُغضب والدك في غيابي. أرجوك، ستو.»

«حسنًا»، أجاب ما بين الضحك واللامبالاة. شعرت به يصرف انتباهه بلمحة بصر ويعود إلى انشغالاته الخاصّة قبل حتّى أن تغلق الباب خلفها.

6

طردت الريح الضارية الغيوم الخفيضة التي خيّمت على ما بعد الظهيرة، وهمدت مع هبوط المساء. على مسافة ثلاثة منازل من بيت تيسا وكولين وول، جلست سامانثا موليسون في غرفتها أمام انعكاس صورتها في مرآة طاولة الزينة المضاءة بالمصابيح. كان الجوّ مثقلًا بصمت وجمود يبعثان على الاكتئاب.

كان اليومان الماضيان مخيّبين للأمل. لم تتمكّن من بيع شيء عمليًا في المحلّ. مندوب المبيعات من شامبيتر كان في الواقع رجلا ذا خدّين ممتلئين متراخيين، سلوكه جلف، ويحمل حقيبة ضخمة مليئة بالصدريّات القبيحة. يبدو أنّ كلّ ذلك السحر الذي لمسته كان يستنفده في المقدّمات، لأنّه حين حضر شخصيًا، اقتصر تعاطيه معها على الأعمال، فأخذ يتعالى عليها وينتقد المجموعة المعروضة في محلّها، ضاغطًا عليها للقيام بطلبيّة. تخيّلت بعد مكالمتهما الهاتفيّة شخصًا شابًا، أطول قامة وأكثر إغواء. أما الآن، فكلّ ما كانت تريده هو أن يغرب عن وجهها، أن يخرج هو وتلك الصدريّات الرخيصة المبهرجة من محلّها بأسرع ما يكون.

اشترت خلال استراحة الغداء، في ذلك اليوم، بطاقة لماري فيربراذر تحمل عبارة «مع أصدق التعازي»، لكنّها لم تجد ما تكتبه لها، لم يبدُ لها مجرّد إرسال بطاقة موقّعة كافيًا بعد تلك الليلة الكابوسيّة التي هرعوا فيها معًا إلى المستشفى. لم تكن علاقتهما وثيقة. لا بدّ للناس من أن يلتقوا مصادفة طوال الوقت في مكان صغير مثل باغفورد، لكنّهما، هي ومايلز، لم يعرفا باري وماري عن كثب. بل يمكن القول إنهم كانوا ينتمون إلى معسكرين متخاصمين، على ضوء الخلافات المتواصلة بين هاورد وباري حول حيّ الحقول... في مطلق الأحوال، لم تكن سامانثا تكترث للموضوع إطلاقا، فلا تناصر أيًّا من المعسكرين. الواقع إنّها كانت مترفّعة عن صغائر السياسات المحليّة وزواريبها الضيّقة.

كانت متعبة، متعكّرة المزاج وبطنها منتفخ بعد يوم أقبلت فيه على اللقمشة بشكل عشوائيّ. ودّت لو لم تكن مدعوّة مع مايلز إلى العشاء في منزل والديه. بسطت يديها من جانبَي وجهها متأمّلة نفسها في المرآة، وشدّت بشرتها برفق نحو أذنيها. ظهر أمامها وجهٌ أكثر شبابًا ببضعة مليمترات. أدارت وجهها ببطء يمينًا ثمّ يسارًا، تفحّصت هذا القناع المشدود. تبدو أفضل، أفضل بكثير. تساءلت كم يمكن أن تكلّفها العمليّة، إن كانت مؤلمة، وإن كانت تجرؤ على القيام بها. حاولت أن تتخيّل ردّ فعل حماتها إذا ما أطلّت عليها بوجه جديد نضر. كان هاورد وشيرلي يساهمان في دفع تكاليف تعليم حفيدتيهما، وهو ما تذكّرها به شيرلي باستمرار.

دخل مايلز غرفة النوم. أفلتت شيرلي وجهها، تناولت المسحوق مزيل الظلال تحت العينين وردّت رأسها إلى الخلف. كانت تأخذ هذه الوضعيّة دائمًا عندما تتبرّج لأنّها تشدّ بشرتها المتراخية قليلًا حول حنكها وتخفّف الجيوب تحت عينيها. كانت هناك خطوط قصيرة رقيقة حول طرفَي شفتَيها. قرأت في مكان ما أنّه من الممكن ترميمها عن طريق حقنها بمسحوق مركّب. تساءلت إن كان ذلك يحدث فرقًا كبيرًا. لا شكّ في أنّ هذه الطريقة أقلّ ثمنًا من عمليّة شدّ للوجه، وربّما لن تلاحظ شيرلي حتّى. رأت، خلف كتفها في المرآة، مايلز ينزع ربطة عنقه وقميصه، فيندلق كرشه الكبير من فوق بنطاله.

«ألم يكن من المفترض أن تلتقي أحدًا ما اليوم؟ مندوب مبيعات أو ما شابه؟» سأل وهو يحكّ سرّته المشعرة، شاردًا في الملابس المعلّقة في الخزانة.

«بلى، لكنّ اللقاء لم يكن مجديًا، أجابت سامانثا. مجرّد بضاعة رديئة.»

كان مايلز فخورًا بعمل زوجته. نشأ في عائلة تعتبر العمل في البيع بالتجزئة القطاع المهني الوحيد ذا قيمة، واحتفظ بذلك الإجلال للتجارة الذي لقّنه إيّاه هاورد. ثمّ كانت هناك بالطبع فرص كثيرة يتيحها له مجال عملها للمزاح ولأشكال أخرى أقلّ لباقة للتعبير عن الاعتداد بالذات. لم يسأم مايلز يومًا من تكرار الدعابات المستنفدة والتلميحات المبطّنة ذاتها.

«مقاس رديء؟» سأل بنبرة مَن يعرف الموضوع تمامًا.

«تصميم سيّئ. ألوان رهيبة.»

مشّطت سامانثا شعرها البنّي الجاف والكثّ، شدّته وربطته إلى الخلف. بدّلت ملابسها وهي تراقب مايلز في المرآة، فارتدت قميصًا رياضيًّا وسروالًا قطنيًّا فضفاضًا. كانت متوتّرة، تشعر وكأنّها قد تثور غاضبةً أو تنهار باكيةً عند أدنى استفزاز.

لم يكن مجمّع إيفرتري كريسنت يبعد سوى بضع دقائق، غير أنّهما فضّلا الذهاب في السيّارة حتّى لا يضطرّا إلى تسلّق شارع تشيرتش روو الشديد الانحدار. كان الليل هبط والظلمة تلفّ البلدة. صادفا عند أعلى الطريق ظلّ رجل يشبه باري فيربراذر بقامته ومشيته. صُدمت سامانثا لرؤيته. وبعدما تخطّياه، التفتت لتنظر إليه، متسائلة عمّن يمكن أن يكون. انعطف مايلز يسارًا عند أعلى الطريق، وبعد دقيقة بالكاد انحرف بالسيّارة إلى اليمين والجًا المجمّع السكنيّ القديم ببيوته المصطفّة على شكل هلالٍ.

هاورد وشيرلي كانا يسكنان منزلًا خفيضًا من حجر القرميد الأحمر، ينتصب متأنّقًا بنوافذه العريضة والعشب الأخضر الغضّ الممتدّ بسخاء أمامه وخلفه والذي يجزّه مايلز في الصيف على شكل أشرطة. أضاف هاورد وشيرلي على مرّ السنوات الطويلة التي قضوها في المنزل مصابيح لإضاءة الحديقة، بوّابة من الحديد المزخرف الأبيض، وحوضين من الفخّار يفيضان بأزهار الجيرانيوم من جانبَي الباب. كما علّقا لوحة مستديرة إلى جانب الجرس،

لوحة من الخشب الملمّع طبع عليها بكتابة قوطيّة قديمة سوداء اسم منزلهما محاطًا بمزدوجين «آمبلسايد».

كانت سامانثا تتحدّث أحيانًا عن منزل حموَيها باستهزاء جارح. كان مايلز يتقبّل سخريّتها، مدركًا ما تلمّح إليه ضمنًا بأنّ منزلهما هو وسامانثا أرقى ذوقًا، بأرضيّته وأبوابه الخشبيّة غير المصقولة، بُسطِه المفروشة على الأرض العارية، نُسَخ اللوحات المؤطّرة المعلّقة على جدرانه، والكنبة الأنيقة وغير المريحة. غير أنّه في سرّ قلبه، كان يفضّل ذلك المنزل الصغير الذي نشأ فيه. لا تجد على امتداد مساحته بقعة إلّا وهي مكسوّة بمادّة وثيرة مخمليّة الملمس. لا تعبره تيّارات هواء باردة، ويتلذّذ بالتأرجح في كراسيه الهزّازة المريحة. حين ينتهي في الصيف من جزّ العشب، تجلب له شيرلي بيرة باردة، فيسترخي في إحدى هذه الكراسي ويشاهد مباراة كريكت على شاشة التلفزيون العريضة. أحيانًا ترافقه إحدى بناته فتجلس إلى جانبه ومعها كوب من البوظة المكسوّة بصلصة الشوكولاتة التي تكون شيرلي قد أعدّتها خصّيصًا لحفيدتيها.

«مرحبًا حبيبي»، قالت شيرلي حين فتحت الباب. كانت توحي بقامتها القصيرة المكتنزة، وقد ربطت على وسطها وزرة تزيّنها نقشات أوراق أشجار، بإناء صغير مرتّب فيه نبتة فلفل. وقفت على أطراف قدميها، وهي تمدّ خدّها لابنها الطويل القامة ليقبّلها، ثمّ بادرت كنّتها «مرحبًا سام» قبل أن تستدير على الفور. «لحظات، ويصبح العشاء جاهزًا. هاورد! مايلز وسام وصلا!»

كان المنزل يعبق برائحة الخشب المشمّع والطعام اللذيذ. خرج هاورد من المطبخ، حاملًا زجاجة نبيذ بيد، وفتّاحة قنانٍ باليد الأخرى. تراجعت شيرلي قليلًا داخل غرفة الطعام في خطوة ألِفتها، مفسحة لهاورد الذي يملأ الممرّ على عرضه، ثمّ بعدما عبر، أكملت مسرعة إلى المطبخ.

«ها هما، السامريّان الصالحان! صاح هاورد بصوت مدوّ. وكيف حال تجارة حمّالات الصدر، سامي؟ تتحمّل الأزمة الحاليّة؟»

«الواقع هاورد إنّ الأعمال تتأرجح لكنّها تبقى صلبة»، أجابت سامانثا.

قهقه هاورد ضاحكًا. كانت سامانثا واثقة بأنّه لكان ربّت قفاها لو لم يكن يحمل القنينة والفتّاحة. كانت تحتمل من حميها كلّ تلك القرصات

والصفعات الطفيفة، تعتبرها سلوكًا استعراضيًّا غير مؤذٍ من رجل لم تعُد سنّه ولا جسامته تسمحان له بالقيام بأيّ شيء آخر. وفي مطلق الأحوال، كانت هذه الحركات تغيظ شيرلي، وكلّ ما كان يغيظ شيرلي كان يسعد سامانثا. لم تجاهر شيرلي يومًا باستيائها، لم تَدَع ابتسامتها تشحب ولا صوتها الرقيق المتعقّل يرتجف. لكنّها، كلّما تودّد هاورد إلى كنّتها بإحدى هذه التنويهات التي لا تخلو من الشبق، كانت ترميها في غضون لحظات بسهم يقطر سمًّا، تغلّفه بكثير من الرفق والعطف. فتأتي على ذكر أقساط الفتاتين الدراسيّة المتزايدة، تستعلم بكثير من الحنوّ عن آخر حميّة تتبعها سامانثا، تسأل مايلز إن لم يكن يرى أنّ ماري فيربراذر ممشوقة الخصر إلى حدّ مدهش. كانت سامانثا تتصبّر على كلّ هذه الملاحظات والابتسامة على وجهها، وتنتقم لاحقًا من مايلز.

«مرحبًا مو!» قال مايلز، متقدّمًا سامانثا إلى قاعة الجلوس، كما كان يحلو لهاورد وشيرلي أن يدعوا الصالون. «لم أكن على علم بأنّك قادمة!»

«مرحبًا، أيّها الشاب الوسيم»، قالت مورين بصوتها العميق الخشن، «تعال أقبّلك».

كانت شريكة هاورد جالسة عند طرف الأريكة، وفي يدها كأس صغيرة من الشيري. كانت ترتدي فستانًا زهريًا بلون الفوشية مع جوارب قاتمة وحذاء أسود بكعب عالٍ من الجلد اللمّاع. تحت شعرها الأسود كالليل، المنفّش والمثبّت بكميّات سخيّة من السبراي، بدا وجهها الشاحب أشبه بوجه قرد، وقد زمّت شفتيها المطليّتين بطبقة كثيفة من الحمرة القانية المخيفة لتقبّل هاورد الذي انحنى نحوها.

«كنّا نناقش الأعمال. الخطط لفتح المقهى الجديد. مرحبًا سام عزيزتي»، قالت مورين وهي تربّت على الأريكة داعية سامانثا للجلوس. «آه! كم أنّك جميلة ومسمرّة! هل هذه السمرة متبقّية من رحلتك إلى إيبيزا؟ تعالي اجلسي بجانبي. يا لها من صدمة لك في نادي الغولف. كان الأمر مروعًا حتمًا.»

«أجل، كان مروّعًا فعلًا»، أجابت سامانثا.

وجدت نفسها لأوّل مرّة تروي لأحدٍ قصّة وفاة باري، فيما مايلز يترصّد بتلهّف فرصة لمقاطعتها. وزّع هاورد على الجميع كؤوسًا من نبيذ بينو الإيطالي، وهو يتلقّف بانتباه شديد كلام سامانثا. أحسّت سامانثا بالتوتّر الذي لازمها في اليومين الأخيرين يتبدّد تدريجيًا في ظلّ اهتمام هاورد وموربن، وتلك النار المطمئنة التي أشعلتها الكحول في داخلها، ليحلّ محلّه إحساس هشّ بالعزاء والارتياح.

كان الصالون دافئًا، موضّبًا ونظيفًا لا مأخذ عليه. على الرفوف الممتدّة من جانبي مدفأة الغاز، تصطفّ تحف صغيرة من الخزف، معظمها تذكارات من مناسبات ملكيّة أو أحداث هامّة من عهد الملكة اليزابيث الثانية. في أحدى الزوايا مكتبة صغيرة تختلط فيها سِيَر ملكيّة وكتب طبخ فاخرة ضاق بها المطبخ. الجدران والرفوف مزيّنة بصور عائليّة: مايلز وشقيقته الصغرى باتريسيا في بدلات مدرسيّة متناسقة يبتسمان ابتسامة عريضة في إطار مزدوج. ليكسي وليبي ابنتا مايلز وسامانثا، في مختلف محطّات حياتهما، من الطفولة إلى الحداثة. سامانثا لا تظهر سوى في صورة واحدة من هذه المجموعة العائليّة، ولو أنّها من الصور الأكبر ومعروضة في صدر الصالون: صورة لها ولمايلز يوم زفافهما قبل ست عشرة سنة. مايلز في الصورة شابّ فاتن، ينظر إلى المصوّر مغضّنًا عينيه الزرقاوين الثاقبتين، فيما سامانثا عيناها نصف مغلقتين في رفّة جاءت في غير وقتها، وهي تشيح بوجهها جانبًا وتبتسم لعدسة أخرى، فيبدو ذقنها مضاعفًا بثنية في الجلد من تحته. تبدو ضخمة في فستانها الساتان الأبيض المشدود على نهديها المنتفخين بفعل بداية حملها.

كانت موربن تعبث بإحدى يديها الهزيلتين الشبيهتين بمخالب عصفور بالسلسلة التي لا تفارق عنقها، وقد علّقت فيها صليبًا ومحبس زوجها المتوفّى. حين بلغت سامانثا في قصّتها اللحظة التي يعلن فيها الطبيب لماري أنّه لم يعد هناك ما يمكن القيام به، وضعت موربن يدها الأخرى على ركبة سامانثا ضاغطة عليها.

«إلى العشاء!» نادت شيرلي. لم تكن سامانثا ترغب في القدوم في بادئ الأمر، غير أنّها تشعر الآن بحالٍ أفضل مما كانت عليه منذ يومين. كانت

مورين وهاورد يعاملانها وكأنها بطلة وعاجزة في آن، فطبطبا على ظهرها برفقٍ حين عبرت أمامهما متوجّهة إلى غرفة الطعام.

كانت شيرلي خفّفت الأضواء وأشعلت شموعًا طويلة زهريّة تتماشى مع ورق الجدران ومع أجمل محارم طاولة أخرجتها للمناسبة. في ظلمة الغرفة، أعطى البخار المتصاعد من صحون الحساء مظهرًا شبحيًّا لوجوههم جميعًا، حتّى وجه هاورد العريض الضارب إلى الحمرة. خطر لسامانثا بعدما أوشكت أن تفرغ كأس النبيذ الكبير، أنّه سيكون طريفًا لو يعلن هاورد أنهم سيقومون بجلسة استحضار أرواح ويسألون باري عن روايته الشخصيّة لما جرى في نادي الغولف.

«حسنًا»، قال هاورد بصوت وقور خفيض، «أعتقد أنّ علينا أن نشرب نخب باري فيربراذر.»

سارعت سامانثا إلى رفع كأسها إلى شفتيها حتّى لا تلاحظ شيرلي أنّها باتت فارغة تقريبًا.

«من شبه المؤكّد أنّه أصيب بتمدّد في الأوعية الدمويّة»، أعلن مايلز في اللحظة التي حطّت فيها الكؤوس على الطاولة. احتفظ بهذه المعلومة لنفسه وأخفاها حتّى عن سامانثا، وحسنًا فعل، لأنّها لكانت ربّما أهدرت المفاجأة وكشفتها في سياق كلامها مع مورين وهاورد. «اتّصل غافين بماري ليقدّم تعازي الشركة ويطالعها بموضوع الوصيّة، فأكّدت له ماري الأمر. هذا يعني عمليًا أن شريانًا في دماغه تورّم وانفجر. (كان تثبّت من كيفيّة كتابة الكلمة وبحث عن معناها على الإنترنت ما أن عاد إلى مكتبه بعد حديثه مع غافين). كان من الممكن أن يحصل هذا العارض في أي لحظة. هو نوعٌ من الخلل الخلقيّ.»

«أمر رهيب»، قال هاورد. لكنّه لاحظ أنّ كأس سامانثا فارغة، فنهض بجهد عن كرسيّه ليملأها مجدّدًا. واصلت شيرلي لوهلة تناول حسائها، رافعة حاجبيها حتّى كاذا يلامسان منبت شعرها. ابتلعت سامانثا رشفة نبيذ بنظرة تحدّ.

«أتعلمون؟» قالت بصوت بدأ يتثاقل، «أظنّ أنّني لمحته ونحن في طريقنا إلى هنا. باري. في عتمة الليل.»

«أتصوّر أنّه أحد أشقّائه»، علّقت شيرلي بازدراء. «جميعهم يتشابهون.»

لكنّ صوت مورين الخشن طغى على كلام شيرلي.

«أنا أيضا لمحت كين على ما أظنّ غداة وفاته. ظهر لي بوضوح تام. كان ذلك في المساء. كان واقفًا في الحديقة يحدّق بي من نافذة المطبخ. وسط وروده.»

لم يعلّق أحد. سمعوا هذه القصّة من قبل. مرّت دقيقة لم تُسمع فيها سوى أصوات لعق وبلع خافتة، ثمّ ارتفع صوت مورين الأجشّ مجدّدا.

«غافين صديق قريب لعائلة فيربراذر، أليس كذلك مايلز؟ ألا يلعب السكواش مع باري؟ أعني كان يلعب السكواش معه.»

«أجل، كان باري يهزمه كلّ أسبوع. لا شكّ في أنّ غافين لاعب سكواش فاشل. باري كان يكبره بعشر سنوات، ما كان يجعله متفوّقًا عليه.»

حول الطاولة، ارتسمت على وجوه النساء الثلاث، على ضوء الشموع، الابتسامة ذاتها، كمن يستمع إلى قصّة طريفة تبهجه وتؤكّد تفوّقه. كنّ يختلفن في كلّ شيء، لكنّهنّ يتقاسمن الفضول نفسه الذي لا يخلو من الانحراف حيال ذاك الشابّ النحيل، شريك مايلز في العمل. بالنسبة إلى مورين، كان ذلك الاهتمام مجرّد مظهر من مظاهر إقبالها النهم على القيل والقال، وأخبار شابّ أعزب تأتي في الطليعة على مقياس أهميّة الثرثرات. أمّا شيرلي، فكانت تجد متعة خاصّة في الاستماع إلى كلّ ما يفضح نقاط ضعف غافين وإخفاقاته، لأن مثل هذه الأخبار تبرز في تناقض لذيذ إنجازات الإلهين التوأمين اللذين يحكمان حياتها، هاورد ومايلز. سامانثا كانت أمرًا مختلفًا. فقد كان تراخي غافين وتكاسله يوقظان فيها قسوة ماكرة، فتتملّكها رغبة جامحة في أن ترى امرأة توقظه بصفعة عنيفة، تعيده إلى صوابه، أو بصورة عامّة تنقضّ عليه وتوسعه ضربًا. كانت هي نفسها تعامله ببعض الخشونة حين تلتقيه، ويحلو لها أن تتصوّر أنّه يعتبرها مهيبة وصعبة المراس.

«كيف تسير أموره هذه الأيام مع صديقته من لندن؟» سألت مورين.

«تركت لندن، مو. انتقلت إلى شارع هوب»، أجاب مايلز. «وإن أردْتِ رأيي في الموضوع، أعتقد أنه نادم على لقائه بها من الأساس. تعرفون غافين، جبان إلى أقصى حدّ.»

درس مايلز في المدرسة ذاتها مثل غافين، غير أنّه كان يسبقه ببضع سنوات، وقد احتفظ في معرض كلامه عن شريكه في المكتب بنبرة التلميذ الأكبر سنًا المكلّف ضبط الأصغر منه.

«فتاة سمراء؟ شعر قصير جدًّا؟»

«صحّ»، قال مايلز. «مساعِدة إجتماعيّة. حذاء بدون كعب.»

«إذًا، استقبلناها في المحلّ، أليس كذلك هاو؟» قالت مورين في ذروة الانفعال والإثارة. «ولو أنّني لا أتخيّلها من الصنف الذي يجيد الطهو، إذا ما حكمت على مظهرها.»

ألحقت شيرلي الحساء بالروستو. بالتواطؤ مع هاورد، كانت سامانثا تنزلق ببطء إلى حالة من الثمالة المرضية، غير أنّ شيئًا ما في أعماقها كان يقاوم ويلوّح يائسًا مثل غريق يبتلعه الموج. حاولت أن تغرق ذلك الشيء بمزيد من النبيذ.

خيّمت لحظات صمت حول المائدة، مثل غطاء ناصع نظيف فُرش على الطاولة في انتظار وليمة جديدة، وبدا الجميع هذه المرّة على يقين بأنّه يعود لهاورد أن يطرح موضوع النقاش التالي. واصل التهام عشائه لبعض الوقت بدون التفوّه بكلمة، مبتلعًا بشراهة لقمًا ضخمة يُلحِقها بجرعات وافرة من النبيذ، متجاهلًا الأنظار الموجّهة إليه. ثمّ بعدما أفرغ نصف طبقه، مسح طرف شفتيه بمحرمته، وتكلّم أخيرًا.

«أجل، سيكون من المثير للاهتمام أن نرى ما سيحصل الآن داخل المجلس.» اضطرّ إلى التوقّف عن الكلام لكبت جشأة قويّة. بدا لوهلة وكأنّه قد يتقيّأ، لكنّه ضرب على صدره وتابع. «عذرًا. أجل، سيكون ذلك مثيرًا للاهتمام إلى أقصى حدّ. مع رحيل فيربراذر (عاد هاورد الآن وقد دخلوا في صلب الموضوع الجديّ إلى الاسم الذي كان يستخدمه عادة) لا أرى كيف يمكن أن تصدر مقالته في الصحيفة. إلّا بالطبع إذا ما تكفّلت السيّدة براز الزيز بالمهمّة.»

أبتكر هاورد لقب «السيّدة براز الزيز بوتو» لبارميندر جاواندا بعد مشاركتها الأولى في اجتماع لمجلس البلدة، وانتشر اللقب ليصبح طرفة واسعة الشعبيّة داخل معسكر المعارضين لحيّ الحقول.

«لو رأيتِ التعبير على وجهها»، قالت مورين لشيرلي، «كيف شحب وجهها حين أخبرتها. حسنًا... لطالما اعتقدت أنّ... تفهمين قصدي...»

استفاقت سامانثا من ضباب سكرها وأنصتت، لكنّ تلميحات مورين بدت لها سخيفة. بارميندر متزوّجة بأجمل رجل في باغفورد: فيكرام. رجل طويل القامة ممشوق، دقيق الأنف، تظلّل عينيه رموش سوداء كثيفة وعلى وجهه ابتسامة واثقة خمولة. على مدى سنوات، نفضت شيرلي شعرها إلى الخلف، وقهقهت بالضحك أكثر من العادة كلّما توقّفت في الشارع برهة لتبادل الحديث مع فيكرام. قامته تذكّرها بمايلز قبل أن يتوقّف عن لعب الركبي، فيترهّل جسده وينتفخ كرشه.

قيل لسامانثا بعدما أصبحوا جيرانًا إنّ فيكرام وبارميندر ارتبطا بزواج مدبّر. وجدت هذه الفكرة إيروتيكيّة إلى حدّ لا يوصف. أن تتلقّى «الأمر» بتزوّج فيكرام، أن تكون «مُرغَمة» على مضاجعته. نسجت لنفسها حلمًا مثيرًا صغيرًا حيث يقتادونها محجّبة إلى غرفة، عذراء متروكة لقدرها... ترفع نظرها، لتكتشف أنّ قدرها هو... هذا! كما أنّ مهنته تزيد الإثارة. فهذا القدر من المسؤوليّات لكان جعل رجلًا أبشع بكثير يبدو فاتنًا.

(فيكرام هو الذي أجرى لهاورد عملية تحويل مجرى أربعة شرايين في قلبه قبل سبع سنوات. وبالتالي، لم يكن بوسعه أن يعبر مدخل محلّ موليسون ولوي بدون أن يستقبله سيل من اللباقات البشوشة والتكريمات المتحذلقة.

«أرجوك سيّد جاواندا! تقدّم إلى أوّل الصفّ! تنحّوا رجاءً. سيّداتي... لا سيّد جاواندا، بل إنّني مصرّ... هذا الرجل أنقذ حياتي، أصلح قلبي المسكين المرهق... تفضّل سيّدي. ما هو طلبك اليوم سيّد جاواندا؟»

كان هاورد يصرّ دومًا على تقديم عيّنات مجّانيّة من الأطعمة لفيكرام ويتبرّع له في كلّ مرّة بكميّات إضافية ممّا طلبه. (تشتبه سامانثا بأنّ فيكرام لم يعد يطأ المحلّ إلّا فيما ندر نتيجة كلّ هذا التهريج).

كانت فقدت خيط الحديث، لكنّ الأمر لا يهمّ. كانوا لا يزالون يثرثرون حول شيءٍ ما كتبه باري فيربراذر للصحيفة المحليّة.

«... وكنت سأضطرّ إلى مفاتحته في هذه المسألة»، قال هاورد بصوت طنّان. «كان ذلك سلوكًا في غاية الغدر. حسنًا الآن، من كان ليتوقّع! كلّ ذلك أصبح من الماضي. ما يجدر بنا أن نفكّر فيه الآن هو من سيحلّ محلّ فيربراذر. علينا ألّا نسيء تقدير عزيمة السيّدة براز الزيز، مهما كانت متكدّرة حاليًّا. سيكون ذلك خطأً جسيمًا نرتكبه. الأرجح أنّها تحاول منذ الآن العثور على مرشّح تدفعه إلى الواجهة، وعلينا بالتالي أن نفكّر من جهتنا أيضًا بشخص مناسب للمنصب. وعلى وجه السرعة. إنّها ببساطة مسألة حسن إدارة.»

«ماذا يعني ذلك بالتحديد؟» سأل مايلز. «إنتخابات؟»

«ممكن»، أجاب هاورد بنبرة الخبير العارف، «لكنّني أشكّ في ذلك. إنّه مجرّد شغور ظرفيّ. إن لم يكن هناك حماسة كافية لفكرة إجراء انتخابات – وأصرّ مرّة جديدة على أنّه ينبغي ألّا نسيء تقدير السيّدة براز الزيز – لكن إن لم تتمكّن من جمع تسعة أشخاص لطلب تنظيم اقتراع عام، عندها سيقتصر الأمر على اختيار عضو جديد في المجلس. النصاب هو تسعة أعضاء. والفترة المتبقّية من ولاية فيربراذرهي ثلاث سنوات. المسألة تستحقّ العناء. إن نجحنا في وضع شخص من طرفنا محلّ فيربراذر، فقد يقلب ذلك كلّ الموازين.»

كان هاورد ينقر بأصابعه السمينة على كأسه، محدّقًا إلى ابنه الجالس قبالته عبر المائدة. شيرلي ومورين أيضًا كانتا تراقبان مايلز، فيما مايلز ينظر إلى والده بعينين ذكّرتا سامانثا بنظرة كلب صيد ضخم وبدين يترقّب، مرتعشًا، بسكويتة.

أدركت سامانثا متأخرةً قليلًا بسبب الكحول، ما الذي يجري حولها، وفهمت لماذا تخيّم هذه الأجواء الاحتفاليّة الغريبة حول المائدة. بعدما حرّرها الشرب، تحوّل فجأة إلى قيد يكبّلها. لم تكن واثقة بأنّ لسانها سيكون مطواعًا كليًّا وسيستجيب لما تريد، بعدما أفرغت أكثر من قنّينة من النبيذ ولزمت الصمت لفترة. وبدل أن تتفوّه بما تودّ قوله، ردّدت الكلمات في ذهنها.

اللعنة مايلز! من الأفضل لك أن تقول لهم إنّ عليك مناقشة المسألة معي أوّلًا.

7

لم تكن تيسا وول تنوي البقاء طويلًا في منزل ماري. لم تكن تطمئنّ إطلاقًا إلى ترك زوجها وفاتس وحدهما في المنزل معًا، غير أنّ زيارتها طالت من غير أن تدري وبقيت هناك ساعتين. كان منزل عائلة فيربراذر يغصّ بالأسرّة القابلة للطيّ وأكياس النوم. فقد التأمت العائلة بكاملها حول الفراغ الذي تركه الموت، غير أنّ كلّ هذين الهرج والمرج لم يكونا ليملأ الهوّة التي ابتلعت باري.

منحدرة في شارع تشيرتش روو في الظلمة، كانت هذه أوّل مرّة تختلي فيها تيسا بنفسها منذ أن توفّي صديقهما. شعرت بقدميها تؤلمانها، وبالبرد يخترق معطفها. كان الصمت مخيّمًا، لا تقطعه سوى طقطقة الخرزات الخشبية حول عنقها والأصوات الخافتة المنبعثة من أجهزة التلفزيون في المنازل التي كانت تعبر أمامها.

تساءلت تيسا فجأة إن كان باري على علم.

لم يخطر لها من قبل أنّ زوجها قد يكون أَخبر باري عن السرّ الكبير في حياتها، ذلك السرّ الفظيع الذي تخفيه، المطمور في قلب زواجها. لم تناقش الموضوع مرّة مع كولين (ولو أنّ أحاديثهما لم تكن تخلو من تلميحات مبهمة إليه، وخصوصًا في الآونة الأخيرة...)

لكن في ذلك المساء، تهيّأ لتيسا أنّها لمحت في عينَي ماري رمشة عابرة عند ذكر فاتس...

أنتِ منهكة، ولا بدّ أنّك تتخيّلين أمورًا، قالت لنفسها بحزم. فكولين شديد التحفّظ بأطباعه، والتكتّم متجذّر في سلوكه إلى حدّ أنّه لم يكن من الممكن أن يكون أسرّ بالأمر إلى أحد، ولا حتّى إلى باري، رغم أنّه كان يحبّه إلى حدّ العبادة. كانت تيسا تخشى أن يكون باري على علم، هذه الفكرة كانت تلاحقها... أن تكون مراعاته لكولين بدافع الشفقة لما اقترفته هي نفسها...

حين دخلت غرفة الجلوس، وجدت زوجها جالسًا أمام التلفزيون، يضع نظّارتيه، وصوت النشرة الإخباريّة ينبعث منخفضًا من التلفزيون. كانت

رزمة من الأوراق المطبوعة مفروشة في حضنه، وفي يده قلم. تنفّست تيسا الصعداء حين لم ترَ أثرًا لفاتس.

«كيف وجدْتِها؟» سأل كولين.

«لكَ أن تتخيَّل... ليست في أفضل حالاتها» أجابت تيسا. استلقت في إحدى الكنبات القديمة مطلقة تنهّدة ارتياحٍ، وخلعت حذاءها الرثّ. «لكنّ شقيق باري يتصرّف معها بطريقة رائعة.»

«كيف؟»

«هكذا... يساعدها... بصورة عامّة.»

أغمضت عينيها وأخذت تمسّد بأصابعها عَظْمة أنفها وجفنيها.

سمعت كولين يقول: «لطالما وجدت أنّه لا يمكن الوثوق به كليًّا».

«حقًّا؟» تعجّبت مبقية عينيها مغمضتين في ظلمة مريحة.

«أجل. أتذكرين حين وعد بأن يأتي ويقف حكمًا في تلك المباراة ضدّ مدرسة باكستون هاي؟ ثمّ اعتذر عن التحكيم قبل نصف ساعة من الموعد، واضطرّ بايتمان إلى الحلول محلّه في اللحظة الأخيرة؟»

قاومت تيسا فورة غضب تملّكتها. عادةً ما يطلق كولين أحكامًا متسرّعة مبنيّة على انطباع أوّل، على وقائع معزولة. لم يظهر يومًا قدرة على تفهّم الطبيعة البشريّة الدائمة التحوّل، ولم يدرك أنّ كلّ وجه، مهما كانت ملامحه عاديّة، يخفي عالمًا جامحًا وفريدًا.

«في مطلق الأحوال، إنّه حنون جدًّا مع الأولاد، قالت تيسا بحذر. عليّ أن أخلد إلى النوم.»

غير أنّها لم تتحرّك من مكانها، بل ظلّت جالسةً، مركّزة انتباهها على مختلف النقاط في جسدها التي كانت تؤلمها: قدماها، أسفل ظهرها وكتفاها.

«تيس، خطر لي شيء...»

«ماذا؟»

بدت عينا كولين صغيرتَين خلف النظّارتَين مثل عينَي خلد، ما زاد من عرض جبينه الأصلع المليء بالعقد.

«كلّ ما كان باري يحاول إنجازه في مجلس البلدة، كلّ ما قاتل من أجله، كان حيّ الحقول وعيادة معالجة المدمنين. قضيت النهار بكامله أفكّر في ذلك.» أطلق تنهّدة عميقة وأكمل «إنّني مصمّم تمامًا على إكمال مسيرته.»

سيطر الذهول على تيسا فبقيت مسمّرة في كرسيها لوهلة، عاجزة عن الكلام. كانت تجهد في مهنتها حتّى تخفي مشاعرها وتبقي وجهها عديم التعبير.

«إنّني واثق من أنّ باري لكان أراد ذلك» قال كولين. كان في حالة غريبة من الانفعال، وفي الوقت نفسه في موقع دفاعيّ.

ما كان باري أرادك يومًا، ولا حتّى لحظة، أن تقوم بذلك، قالت تيسا لنفسها بانقشاع تامّ. لكان أدرك أنّك آخر مَن يجدر به القيام بذلك.

«لست أدري»، أجابت. «أعلم أنّ باري كان في غاية.... لكن ذلك سيكون التزامًا هائلًا، كولين. وكما ترى، بارميندر لم تختفِ. ما زالت هنا، وستستمرّ في سعيها للقيام بكلّ ما أراده باري.»

كان يجدر بي أن أتّصل ببارميندر، فكّرت تيسا وهي تكلّم زوجها، والإحساس بالذنب يطبق على صدرها. يا إلهي! لماذا لم يخطر لي أن أتّصل ببارميندر؟

«لكنّها بحاجة إلى دعم. لن تستطيع أن تتصدّى لهم جميعًا وحدها، قال كولين. وأراهن على أنّ هاورد موليسون يبحث منذ الآن عن دمية يمكن أن تحلّ محلّ باري. لا شكّ في أنّه حاليًا...»

«آه كولين...»

«أؤكّد لك ذلك! تعرفينه جيّدًا!»

سقطت الأوراق عن حضن كولين من غير أن يعيرها أيّ اهتمام، وتبعثرت على الأرض مثل شلّال أبيض رقيق.

«أريد القيام بذلك من أجل باري. سوف أكمل المسيرة حيث تركها. أريد التحقّق من أنّ كلّ ما عمِل وكابد من أجله لن يتبدّد ويذهب سدًى. أعرف الحجج عن ظهر قلب. لطالما قال إنّه حظي بفرص لما كان حصل عليها في ظروف أخرى. وتأمّلي كم أعطى مجتمعنا في المقابل. حسمْتُ أمري، إنّني مصمّم على موقفي. سوف أتحقّق غدًا من الإجراءات التي يترتّب عليّ اتّباعها.»

«حسنًا»، قالت تيسا. علّمتها سنوات من التجربة أنّه ينبغي عدم معارضة كولين حين تتملّكه حماسة جارفة لفكرة جديدة، فذلك يزيده تصميمًا على تنفيذها. تلك السنوات نفسها علّمت كولين أنّ تيسا غالبًا ما تدّعي الموافقة على ما يقوله، قبل أن تعود وتُبدي اعتراضات. هذا النوع من المساومات بينهما كان يمدّ جذوره عميقًا في ذلك السرّ الدفين الذي يتقاسمانه منذ وقت طويل جدًّا، ولا يزال حيًّا فيهما بدون أن يأتي أيّهما على ذكره يومًا. كانت تيسا تشعر أنّها مدينة له، وهو يشعر بأنّ له دينًا عليها.

«هذا أمرٌ أريد حقًّا القيام به، تيسا.»

«إنّني أتفهّم ذلك، كولين.»

نهضت بعناء من مقعدها وهي تتساءل إن كانت ستجد القوّة الكافية لصعود الدرج.

«هل ستأتي إلى النوم؟»

«بعد لحظة، أريد مراجعة هذه الأوراق أوّلًا.»

راح يلملم الأوراق المطبوعة التي سقطت أرضًا. بدا وكأنّ مشروعه المتهوّر الجديد نفح فيه طاقةً محمومة.

خلعت تيسا ملابسها ببطء في غرفة النوم. كانت قوّة الجاذبيّة تثقل حركتها، وكأنّها ازدادت شدّة. بذلت مجهودًا هائلًا لرفع أطرافها، لإرغام السحّاب المعاند على الامتثال لما تريده. ارتدت روبها الداخليّ وذهبت إلى الحمّام. سمعت فاتس يتحرّك في الطبقة العلويّة فوق رأسها. كانت تشعر بنفسها في الآونة الأخيرة وحيدة ومنهكة في غالب الأحيان. تقضي وقتها تتنقّل بين زوجها وابنها اللذين يعيشان كلّ في فقّاعته، غريبين تمامًا الواحد عن الآخر وكأنّهما مجرّد مالك ومستأجر.

أرادت تيسا أن تنتزع ساعة يدها، لكنّها تنبّهت إلى أنّها نسيت أين وضعتها في اليوم السابق. كانت في غاية التعب، وتفقد أغراضها باستمرار. لكن كيف نسيت أن تتّصل ببارميندر؟ جرّت نفسها إلى السرير والدموع ملء عينيها، واندسّت تحت الأغطية، قلقةً ومتوتّرة.

الأربعاء

1

قضت كريستال ويدون ليلتَي الاثنين والثلاثاء في منزل صديقتها نيكي، مفترشة أرض غرفتها، بعد شجار أعنف من العادة مع والدتها. بدأت المسألة حين عادت كريستال إلى المنزل بعدما أمضت بعض الوقت مع أصدقائها في الحيّ، فوجدت تيري تتكلّم مع أوبو عند الباب. الكلّ في حيّ الحقول يعرف أوبو، بوجهه الباهت المتورّم، وتكشيرته التي تكشف عن سنّه الناقصة، ونظّارتيه السميكتين، وسترته الجلديّة القديمة القذرة.

«كلّ ما أريده هو أن تحتفظي بها من أجلي عندك تير، ليومين. هلا فعلت؟ وسوف تجنين بعض المال. موافقة؟»

«ما الذي ستحتفظ به؟» سألت كريستال. انسلّ روبي من بين رجلي تيري وهرع ليتشبّث بركبتي كريستال. لم يكن روبي يحبّ أن يأتي رجالٌ إلى المنزل، وكانت له أسبابه.

«لا شيء. مجرّد أجهزة كمبيوتر.»

«لا تفعلي هذا»، قالت كريستال لتيري.

لم تكن ترغب في أن تتوافر نقود بين يدي والدتها. لا تستبعد حتّى أن يحرق أوبو مرحلة، وينتقل مباشرة إلى إعطائها كيسًا من الهيروين لقاء هذه الخدمة.

«لا تأخذيها.»

لكنّ تيري كانت وافقت. طوال حياتها، رأت كريستال والدتها تقول نعم لأيّ شيء ولأيّ كان: توافق، تقبل، تذعن. نعم، حسنًا، طيّب، هيّا، لا مشكل.

خرجت كريستال لاحقًا للتسكّع مع أصدقائها قرب المراجيح. كان الوقت مساءً، والظلمة بدأت تلفّ السماء. أحسّت بنفسها متوتّرة، عصبيّة. لم يكن يسعها تقبّل خبر وفاة السيّد فيربراذر، بل كانت لا تزال تشعر بوخزات في معدتها تبعث فيها رغبة جامحة في إفراغ غضبها على أحدٍ ما. كانت تشعر أيضًا بالقلق والذنب بعدما سلبت ساعة تيسا وول. لكن لماذا وضعتها تلك العاهرة الحمقاء أمامها وأغمضت عينيها؟ ما الذي كانت تتوقّعه؟

لم يكن وجود الآخرين يسعف كثيرًا. كانت جيما تضايقها باستمرار وتمازحها بشأن فاتس وول. في نهاية المطاف، انفجرت كريستال وانقضّت عليها، فاضطرّت نيكي وليان إلى كبحها واحتوائها، ثم عادت كالمجنونة إلى المنزل، لتجد أن بضائع أوبو وصلت. كان روبي يحاول تسلّق العلب المكدّسة في غرفة الجلوس فيما تيري مرتمية في مقعد. بدت لها مخبولة، كأنّما في غيبوبة، ومن حولها عدّتها مبعثرة على الأرض. حصل ما كانت كريستال تخشاه: دفع أوبو لتيري ثمن خدمتها بكيس من الهيرويين.

«أيّتها المدمنة العاهرة الحمقاء! اللعنة عليك! سوف يطردونك من تلك العيادة اللعينة من جديد!»

لكنّ الهيرويين خطف والدة كريستال وأخذها بعيدًا، إلى مساحة لا يمكن بلوغها. صحيح أنّها كانت تتجاوب مع كريستال فتنعتها بالقذرة الوضيعة والعاهرة، لكنّ وجهها كان فارغًا من أيّ تعبير، وكأنّها غير مبالية بما يحيط بها. صفعتها كريستال، فقالت لها تيري أن تغرب عن وجهها، أن ترحل وتموت.

«اللعنة! سيكون عليكِ إذًا أن تعتني به لمرّة، أيّتها البقرة المدمنة المعتوهة!» صرخت كريستال. ركض روبي خلفها في الممشى وهو يزعق وينتحب، لكنّها صفقت باب المدخل بوجهه.

كان منزل نيكي هو الأحبّ إلى قلب كريستال. لم يكن موضّبًا مثل منزل المربّية كاث، لكنّه كان دافئًا، أليفًا، يضجّ بالأصوات والحياة، فتشعر فيه بالأمان.

كان لنيكي شقيقان وشقيقة، وكانت كريستال تنام على لحاف مطويّ تفرشه على الأرض بين سريرَي الشقيقتَين. كانت الغرفة مزيّنة بالصور المقصوصة من المجلّات، والمعلّقة على الجدران في مزيج من الفتيان الوسيمين والفتيات الحسناوات. لم يخطر لكريستال يومًا أن تزيّن جدران غرفتها.

غير أنّها لم تكن تستكين من شدّة إحساسها بالذنب، فلا يفارقها وجه روبي المذعور وهي تصفق الباب. هكذا، في صباح الأربعاء، عادت إلى المنزل. في مطلق الأحوال، لم تكن عائلة نيكي ترغب في أن تبقى عندهم أكثر من ليلتين على التوالي. قالت لها نيكي مرّة بصراحتها المعهودة إنّ والدتها لا مانع لديها من أن تنام عندهم، بشرط ألّا يتكرّر الأمر كثيرًا، وإنّ على كريستال ألّا تعتبرهم بمثابة فندق، وأن تتوقّف خصوصًا عن دقّ بابهم بعد منتصف الليل.

بدت تيري سعيدة كالعادة بعودة كريستال. أخبرتها عن زيارة المساعدة الاجتماعيّة الجديدة، وتساءلت كريستال بقلق ما كان رأي المرأة الغريبة بمنزلهم الذي انحدر في الآونة الأخيرة إلى ما دون مستواه الاعتياديّ من القذارة. أكثر ما كان يثير مخاوف كريستال هو أن تكون كاي وجدت روبي في المنزل في حين كان ينبغي أن يكون في دار الحضانة. إذ كان تعهّد تيري إبقاء روبي في الحضانة بعدما سجّلته فيها والدته في عائلة الاستقبال، شرطًا أساسيًّا في الاتّفاق الذي عاد بموجبه في العام السابق إلى المنزل. كذلك، غضبت كريستال لكون المساعدة الاجتماعية ضبطت روبي يضع حفّاضة، بعد كلّ العناء الذي تكبّدته هي نفسها لإقناعه باستخدام المرحاض.

«ماذا قالت؟» سألت كريستال.

«قالت إنّها ستعود»، أجابت والدتها.

لم تكن كريستال مرتاحة إلى الأمر. مساعِدتهم الاجتماعيّة الاعتياديّة لم تكن تجد مانعًا في ترك عائلة ويدون تتدبّر أمورها، بدون أن تتدخّل كثيرًا. لم تكن دقيقة في عملها ولا منتظمة في زياراتها، وغالبًا ما كانت تخطئ بأسمائهم وتختلط عليها الأمور ما بين وِضعهم ووضع عائلة أخرى. كانت تكتفي بالقدوم مرّة كلّ أسبوعين بدون هدف محدّد، وكأنّما لمجرّد التثبّت من أنّ روبي لا يزال على قيد الحياة.

هذه المخاوف الجديدة لم تساهم في تحسين مزاج كريستال العكر. فحين لا تكون تيري تحت تأثير المخدّرات، كانت تخشى أطباع ابنتها النزقة، فتنصاع لها وتدعها تقودها من أنفها. اغتنمت كريستال هيبتها العابرة هذه، فأمرت تيري بارتداء ملابس لائقة، وأرغمت روبي على وضع بنطال نظيف مجدّدا، مع تذكيره بأنّه غير مسموح له بالتبوّل في مثل هذا السروال، واقتادته إلى دار الحضانة. أخذ يبكي ويصرخ حين همّت بالرحيل. غضبت في بادئ الأمر، غير أنّها في النهاية انحنت نحوه ووعدتها بأنّها ستعود في الساعة الواحدة وتصطحبه إلى المنزل، فتركها تغادر.

بعد ذلك، لم تذهب كريستال إلى صفّها، رغم أنّ الأربعاء كان يومها المفضّل في المدرسة، لأنّه كان يوم الرياضة والإرشاد. غير أنّها، عوضًا عن ذلك، باشرت العمل على تنظيف المنزل بعض الشيء. غسلت المطبخ مستعينة بكميّات من السائل المطهّر برائحة الصنوبر، وكشطت كلّ بقايا الطعام القديمة وأعقاب السجائر ورمتها في سلّة الزبالة. أخفت علبة الحديد التي تحفظ فيها تيري عدّتها وأخفت علب الكمبيوتر المتبقّية (بيعت منها ثلاث) في خزانة الممشى.

فيما كانت كريستال تقشط بقايا الطعام المتحجّرة الملتصقة بالصحون، لم يكن يسعها إلّا أن تفكّر في فريق التجذيف النسائيّ. لو كان السيّد فيربراذر لا يزال على قيد الحياة، لكان لديها جلسة تدريب في الليلة التالية. كان يقلّها عادة في سيّارته الفان الصغيرة ذهابًا وإيّابًا إلى التدريب، لأنّه لم يكن لديها أيّ وسيلة أخرى للوصول إلى القناة في يارفيل. كان يصطحب معه ابنتيه التوأمين نيام وسيوبان، كما كانت ترافقهم سوكفيندر جاواندا أيضا. لم تكن كريستال تختلط بالفتيات الثلاث خلال دوام المدرسة، لكنهنّ منذ أن أصبحن فريقًا رياضيًا واحدًا، صرن يتبادلن التحيّة عندما يلتقين في ممرّات المدرسة: «كيف الحال؟». كانت كريستال تتوقّع أن ينظرن إليها بازدراء، لكن الواقع أنهنّ كنّ لطيفات بعد أن يتعرّف المرء عليهنّ. كنّ يضحكن حين تروي نكتة. حتّى إنّهنّ تبنّين بعض تعابيرها المفضّلة. أصبحت بمعنى ما زعيمة الفريق.

لم يقتنِ أحد في عائلة كريستال يومًا سيّارة. كان بوسعها إذا ما ركّزت انتباهها بشكل كافٍ، أن تشتمّ الرائحة التي كانت تملأ سيّارة الفان الصغيرة،

حتّى في وسط مطبخ تيري النتن. كانت تحبّ تلك الرائحة الدافئة، رائحة البلاستيك. لن تصعد بعد الآن في هذه السيّارة. قاموا أحيانًا أيضًا برحلات طويلة في حافلة صغيرة كان السيّد فيربراذر يستأجرها ويقودها بنفسه، وعلى متنها الفريق النسائيّ بكامله. وحين كان الفريق يلعب ضدّ مدرسة بعيدة، كانوا ينامون في الموقع. كانت الفتيات في مؤخّر الحافلة الصغيرة يغنّين أغنية «المظلّة». اغنية ريهانا تلك أصبحت نشيدهن، طقسًا يؤدّينه ليجلب لهنّ الحظّ. وكانت كريستال تردّد وحدها في بادئ الأمر وصلة الراب التي يؤدّيها جاي-زي في الأغنية. كاد السيّد فيربراذر يتبوّل في ثيابه من شدّة الضحك أوّل مرّة سمعها تقلّد مغنّي الراب:

Uh huh uh huh, Rihanna . . .
Good girl gone bad –
Take three –
Action.
No clouds in my storms . . .
Let it rain, I hydroplane into fame
Comin' down with the Dow Jones . . .

لم تفهم كريستال يومًا كلمات الأغنية.

بعث أبو خزانة رسالة إليهنّ جميعًا، يعلن فيها تعليق اجتماعات الفريق إلى أن يجدن مدرّبًا جديدًا. لكن أين يمكن العثور على مدرّب جديد؟ كلّ ذلك كان مجرّد هراءٍ، جميعهنّ على يقين بالأمر.

كان ذلك فريق السيّد فيربراذر، مشروعه الشخصيّ الذي عمل عليه بكثير من الشغف. تحمّلت كريستال الكثير من التنمير والسخرية من نيكي والآخرين حين انضمّت إليه. استهزاؤهم كان يخفي في الحقيقة ذهولًا، ومن ثمّ إعجابًا حين فاز الفريق بميداليّات. (كانت كريستال تحتفظ بميداليّاتها في علبة سرقتها من منزل نيكي. من عادة كريستال أن تسلب من الذين تحبّهم

أغراضًا تدسّها خلسة في جيوبها. كانت علبة بلاستيكيّة مزيّنة بالورود، علبة مجوهرات للأطفال في الواقع. ساعة تيسا ترقد فيها الآن).

حقّق الفريق أكبر أمجاده حين هزم تلك العاهرات المتعجرفات الحقيرات من مدرسة سانت آن. كان ذلك أعظم يوم في حياة كريستال. وخلال التجمّع العامّ الذي تلى هذا الانتصار، نادت المديرة لاعبات الفريق للصعود إلى المنصّة أمام المدرسة برمّتها (كانت كريستال مرتبكة وخجلة، ما أضحك كثيرًا نيكي وليان)، لكنّهنّ في نهاية الأمر حصدن التصفيق بالإجماع... أن تكون وينترداون هزمت سانت آن، هذا أمر في غاية الأهميّة.

لكنّ كلّ ذلك انتهى الآن. الرحلات في الحافلة والتجذيف والتحدّث إلى الصحيفة المحليّة... كلّ ذلك بات من الماضي.

كانت على يقين بأنهنّ لن يتمكنّ من العثور على مدرّب. أعجبتها فكرة أن يرد ذكرها في الجريدة مرّة جديدة. قال السيّد فيربراذر أنّه سيكون إلى جانبها أثناء المقابلة. هما الاثنان فقط، ولا أحد سواهما.

«طيّب، ما الذي يريدون أن يكلّموني بشأنه؟ مثل أيّ موضوع؟»

«حياتك. ما يهمّهم هو حياتك.»

مثل المشاهير. لم تكن كريستال تملك المال لشراء مجلّات، لكنّها كانت ترى الكثير منها في منزل نيكي وفي عيادة الطبيب حين تأخذ روبي إليه. سيكون ذلك أفضل من المرّة التي ذكرتها الصحيفة حين كتبت عن الفريق. كانت تغلي من شدّة الإثارة والترقّب، لكنّها تمكّنت من تمالك نفسها وحفظ السرّ، ولم تتبجّح بالأمر حتّى أمام نيكي أو ليان. أرادت أن تفاجئهما. والآن ترى أنّها كبتت نفسها من غير فائدة، فهي لن تظهر في الصحيفة بعد اليوم.

كانت كريستال تشعر بفراغ في معدتها، وكأنّها جوفاء. حاولت أن تطرد ذكرى السيّد فيربراذر من ذهنها، وهي تشغل نفسها في المنزل، فتنظّف وتمسح وتوضّب بقلّة خبرة، تعوّض عنها بكثير من الإصرار والاندفاع، فيما والدتها جالسة في المطبخ تدخّن، سارحةً بنظرها من النافذة الخلفيّة.

قبل قليل من حلول الظهر، توقّفت امرأة تقود سيّارة فوكسهول زرقاء قديمة أمام المنزل. لمحتها كريستال من نافذة غرفة روبي. الزائرة شعرها

داكن قصير، ترتدي بنطالًا أسود وتضع حول عنقها عقدًا من الخرز من النوع الإثنيّ. من كتفها تتدلّى حقيبة ضخمة بدت مليئة بالملفّات.

هرعت كريستال وهبطت الدرج.

«أعتقد أنّها هي»، صاحت لتيري في المطبخ. «المساعِدة.»

دقّت المرأة على الباب وفتحت لها كريستال.

«مرحبًا، إسمي كاي. أقوم بزيارتكم نيابة عن ماتي. أنت كريستال، أليس كذلك؟»

«نعم»، أجابت كريستال بدون أن تكترث لمبادلة كاي الابتسامة. تقدّمتها إلى غرفة الجلوس، فرأتها تتلفّت إلى ارجاء الغرفة، متأمّلة الترتيب التقريبيّ المستجدّ عليها. فالمنفضة أُفرِغت من أعقاب السجائر، وكلّ ما كان مبعثرًا على الأرض بات محشورًا فوق الرفوف العرجاء. السجادة لا تزال قذرة لأنّ المكنسة الكهربائيّة معطّلة. والمنشفة وأنبوب مرهم الزنك لا يزالان على الأرض، وفوق الأنبوب إحدى سيّارات روبي الماتشبوكس حاولت كريستال أن تلهيه بها حتّى تتمكّن من تنظيف ردفَيه والاعتناء به.

«روبي في دار الحضانة»، بادرت كريستال. «اعتنيت به، ألبسته بنطالًا مجدّدًا. إنّها تعيد وضع الحفّاضات له باستمرار. قلت لها أن تتوقّف عن ذلك. دهنت قفاه بالمرهم. سوف يكون على ما يرام، إنّها مجرّد طفرة بسبب الحفاض.»

ابتسمت لها كاي مجدّدا. «أمّي!» نادت كريستال وهي تلتفت من خلف باب المدخل.

خرجت تيري من المطبخ وانضمّت إليهما. كانت ترتدي قميصًا قطنيًّا قديمًا متّسخًا وبنطال جينز. بدت أفضل حالًا لمجرّد أنّها ترتدي ملابسها.

«مرحبًا تيري» قالت كاي.

«كيف الحال؟» ردّت تيري وهي تمجّ نفسًا عميقا من سيجارتها.

«اجلسي»، أمرت كريستال والدتها التي امتثلت، فتقوقعت ثانية ساقيها من تحتها في الكنبة ذاتها، كما في اليوم السابق. عرضت كريستال على كاي: «هل تريدين كوبًا من الشاي أو أي شيء آخر؟»

«شاي، بكلّ سرور، شكرًا» قالت كاي وهي تجلس وتفتح ملفّها.

خرجت كريستال مسرعة، لكنّها أرهفت السمع، منصتةً إلى ما تقوله كاي لوالدتها.

«لا بدّ أنّك لم تتوقّعي أن أعود بهذه السرعة، سمعت كاي تقول (كانت تتكلّم بلهجة غريبة، وكأنّها لهجة سكّان لندن، مثل تلك العاهرة المتكلّفة الجديدة في المدرسة التي تثير نصف الفتيان.) لكنّني كنت قلقة كثيرًا بشأن روبي بالأمس. تقول لي كريستال إنّه عاد إلى دار الحضانة، أليس كذلك؟»

«نعم»، قالت تيري. «أخذَته إلى هناك. عادت هذا الصباح.»

«عادت؟ أين كانت؟»

«كنت فقط... ذهبت فقط إلى منزل صديقة، نمت عندها» قالت كريستال وهي تهرع عائدة إلى الصالون قبل أن تجيب عنها والدتها.

«أجل، وها هي عادت هذا الصباح» تابعت تيري.

عادت كريستال إلى المطبخ. أصدرت الغلّاية صخبًا حين بدأ الماء بالغليان، فلم يعد بوسع كريستال تمييز كلمة واحدة من الحديث الجاري بين والدتها والمساعِدة الاجتماعيّة. ألقت ثلاثة أكياس من الشاي في الأكواب الثلاثة، سكبت فوقها بعض الحليب على عجلٍ وعادت بأسرع ما يمكن إلى غرفة الجلوس، فسمعت كاي تقول: «تكلّمت مع السيّدة هاربر في دار الحضانة بالأمس...»

«تلك العاهرة» ردّت تيري.

«الشاي، تفضّلي» قالت كريستال لكاي. وضعت الأكواب الثلاث على الأرض وأدارت أحدها بحيث أصبحت المسكة مواجهةً لكاي.

«شكرًا جزيلًا»، قالت كاي. «تيري، أخبرتني السيّدة هاربر أنّ روبي تغيّب كثيرًا خلال الأشهر الثلاثة الماضية. مضى بعض الوقت ولم يذهب بانتظام لأسبوع كامل. هل هذا صحيح؟»

«ماذا؟ احتجّت تيري. لا، غير صحيح. بلى، فعَل. تغيّب بالأمس فقط. وعندما أصيب بالتهاب في الحنجرة.»

«ومتى كان ذلك؟»

«ماذا؟ قبل شهر... شهر ونصف شهر... تقريبًا.»

جلست كريستال على مسند كنبة والدتها وراحت تحدّق إلى كاي من أعلى موقعها، وهي تمضغ علكتها بعنف، كاتفةً يديها على صدرها مثل والدتها. كان هناك ملفّ ضخم مفتوح في حضن كاي. كريستال تكره الملفّات. كلّ تلك الأمور التي يدوّنونها عنك ويحتفظون بها لاستخدامها ضدّك لاحقًا.

«أنا مَن يصطحب روبي إلى الحضانة»، قالت، «في طريقي إلى المدرسة.»

«حسنًا، بحسب السيّدة هاربر، فإنّ حضور روبي تراجع كثيرًا»، قالت كاي وهي تراجع الملاحظات التي دوّنتها عن حديثها مع مديرة الحضانة. «المشكلة تيري، أنّك تعهّدتِ بأن يذهب روبي إلى الحضانة بانتظام عندما أُعيدَ إليكِ العام الماضي.»

«اللعنة، في حياتي لم...» بادرت تيري.

«لا، طبعًا لا، والآن إخرسي...»، قاطعتها كريستال رافعة صوتها قبل أن تلتفت إلى كاي. «كان مريضًا، هذا ما في الأمر. كانت لوزتا حلقه منتفختين. جلبت له أدوية من عند الطبيب.»

«متى حصل هذا؟»

«قبل حوالى ثلاثة أسابيع. على كلّ حال، هذه هي المسألة...»

«حين كنتُ هنا بالأمس»، تابعت كاي متوجّهة إلى والدة روبي من جديد، (كانت كريستال الآن تشدّق بالعلكة بشراسة، ضاغطة ذراعيها على صدرها مثل حاجز مزدوج تتمترس خلفه)، «تهيّأ لي تيري أنّك تجدين صعوبة كبيرة في تلبية حاجات روبي.»

رمقت كريستال والدتها من أعلى المسند. كان فخذها الذي تتّكئ عليه أعرض بمرّتين من فخذ والدتها.

«أنا لم... غير صحيح إنّني...» بادرت تيري، قبل أن تبدّل رأيها. «حسنًا، لا ضير.»

بدأت الشكوك تلوح في ذهن كريستال، مثل ظلّ نسر يحوم فوق فريسته.

«تيري، كنتِ تحت تأثير المخدّرات حين جئتُ بالأمس، أليس كذلك؟»

«سحقًا لا، غير صحيح! اللعنة، إنّها مجرّد... إنك... تبًا! لم أكن تحت تأثير المخدّرات، فهمتِ؟»

أحسّت كريستال بثقل يضغط على صدرها وطنين في أذنيها. لا شكّ في أنّ أوبو لم يكتفِ بإعطاء والدتها جرعة، بل أعطاها حزمة كاملة. والمساعِدة الاجتماعيّة لاحظت حين قابلتها كم كانت مخبولةً. في المرّة المقبلة التي تذهب فيها تيري إلى عيادة بيلتشابيل، ستظهر نتائج فحوصها إيجابيّة وسوف يطردونها مرّة جديدة...

(... وبدون الميتادون، سوف يعيشون الكابوس نفسه من جديد، حيث تصبح تيري شرسة وخارجة تمامًا عن السيطرة، تفتح فمها الفاقد الأسنان لأيّ غريب متطوّعةً للعق قضيبه إذا ما تكفّل بما يملأ شرايينها. أمّا روبي، فسوف يُنتزَع منهما من جديد، وهذه المرّة قد لا يعود أبدًا. كانت كريستال تحتفظ في جيبها بصورة لروبي وهو في عمر سنة مخبّأة في قلب بلاستيكيّ أحمر صغير معلّق في حمّالة مفاتيحها. راح قلب كريستال يطرق بجنون في صدرها، مثلما كان يطرق وهي تجذّف بأقصى طاقتها، تخبط مجذافَيها في المياه وتشدّ بكلّ قوّة عضلاتها المشتعلة، وهي تراقب مركب الفريق المنافس ينزلق خلفهنّ...)

«أيّتها الحثالة»، صاحت، لكنّ أحدًا لم يسمعها، لأنّ تيري كانت لا تزال تزعق شاتمة كاي التي ظلّت جالسة وكوب الشاي بين يديها، بدون أن يظهر أيّ تعبير على وجهها.

«لم أستهلك أيّ مخدّر لعين، ليس لديك أيّ دليل.»

«أيّتها الغبيّة اللعينة»، صاحت كريستال بصوت أعلى.

«لم أتناول أيّ مادة لعينة، هذا كذب، سحقًا!» صاحت تيري مثل حيوان عالق في فخّ، يتخبّط فتطبق الشباك عليه أكثر. «لم أفعل أبدًا، مفهوم؟ لم...»

«سوف يرمونك خارج العيادة اللعينة مرّة جديدة، أيّتها العاهرة الحمقاء! اللعنة عليك!»

«إياكِ أن تتجرأي وتكلّميني هكذا!»

«مهلًا، مهلًا» قالت كاي، محاولة رفع صوتها وسط الصراخ والصخب. وضعت كوبها على الأرض ونهضت مذعورة إزاء الشجار العنيف الذي تسبّبت

به. ثمّ صاحت «تيري!» وقد تملّكها هلع حقيقيّ حين رأت الوالدة تنهض عن المقعد وتعتلي المسند الآخر لتواجه ابنتها. كانتا مثل تمثالين حجريّين شنيعين وجهًا لوجه، يكاد أنفاهما يتلامسان، يزعقان ويشتمان.

«كريستال!» صاحت كاي بالفتاة التي رفعت قبضتها.

نهضت كريستال عن الكنبة في وثبة عنيفة مبتعدة عن والدتها. فوجئت بسائل حارّ ينهمر على وجنتيها. ظنّت لوهلة أنّه دم يسيل على وجهها، لكنّها كانت دموع، مجرّد دموع التمعت صافيةً على رؤوس أصابعها خين مسحتها.

«حسنًا»، قالت كاي مضطربة. «دعونا نهدأ قليلًا، رجاء.»

«انت اهدئي! اللعنة»، قالت كريستال. مسحت وجهها بذراعها وهي ترتجف، ثمّ اقتربت بحدّة من كنبة والدتها. جفلت تيري، لكنّ كريستال اكتفت بانتزاع علبة السجائر منها، أخرجت السيجارة الأخيرة المتبقّية وولّاعة، وأشعلتها. ثمّ ابتعدت عن والدتها متوجّهة إلى النافذة وهي تنفث الدخان بعصبيّة. أدارت ظهرها، ضاغطة على عينيها لسحق دموعها قبل أن تتساقط.

«حسنًا»، قالت كاي وهي لا تزال واقفة. «ألا يمكننا مناقشة الموضوع بهدوء؟»

«اللعنة! دعيني وشأني» ردّت تيري محبطة.

«الأمر يتعلّق بروبي» شرحت كاي من غير أن تجلس، خشية أن يحصل ما لم يكن في الحسبان في حال استرخت واستراحت. «هذا هو سبب وجودي هنا، للتثبّت من أن روبي بخير.»

«وإن كان تغيّب عن الحضانة اللعينة؟» قالت كريستال من دون أن تبتعد عن النافذة، «هذه ليست جريمة بحقّ الجحيم.»

«... ليست جريمة بحقّ الجحيم»، ردّدت تيري بصوت منخفض، تأكيدًا على كلام كريستال.

«الأمر لا يقتصر على الحضانة»، قالت كاي. «روبي ليس في حال جيّدة ولا مريحة. إنّه أكبر سنًّا من أن يضع حفاضًا.»

«خلعت عنه الحفاض اللعين، إنّه يرتدي بنطالاً الآن، قلت لك ذلك!» ردّت كريستال بضراوة.

«اعذريني تيري»، تابعت كاي، «لكنّك لم تكوني بوضع يسمح لك بالاعتناء وحدك بطفل صغير.»

«أنا لم...»

«يمكنك الاستمرار في التأكيد أنك لم تتناولي المخدّرات»، قالت كاي، ولأوّل مرّة ميّزت كريستال نبرة صادقة، بشريّة في صوتها، شيئًا يشبه الغضب، القنوط، «لكن الواقع أنّك ستخضعين لفحص في العيادة. كلانا على يقين بأنّ النتيجة ستكون إيجابيّة. يقولون إنّها فرصتك الأخيرة، وإنّهم سيطردونك مجدّدًا.»

مسحت تيري فمها بظهر يدها.

«اسمعا، لا تريد أيّ منكما أن تخسر روبي، يمكنني أن أرى ذلك...»

«إذًا لا تأخذيه منّا!» صرخت كريستال.

«المسألة ليست بهذه البساطة.» جلست كاي مجدّدًا، التقطت الملفّ الضخم عن الأرض حيث سقط ووضعته ثانيةً في حضنها. «عندما أُعيدَ روبي إليك العام الماضي، تيري، كنتِ أقلعتِ عن الهيروويين. قدّمت التزامًا قاطعًا بأن تبقي نظيفة وأن تتابعي البرنامج، ووافقت على بعض الشروط الأخرى، مثل إبقاء روبي في الحضانة...»

«أجل، وفعلت...»

«... لفترة فقط. فعلت لفترة، لكنّ القيام بمجهود رمزيّ، صوريّ، لن يكون كافيًا. بعد ما رأيته في زيارتي أمس، وبعد حديثي مع المسؤول عنك في العيادة ومع السيّدة هاربر، أخشى أن يكون يترتّب علينا أن نعيد النظر في الوضع.»

«ماذا يعني ذلك؟» قالت كريستال. «مراجعة لعينة جديدة للملفّ؟ هذا ما تقولينه؟ لكن ما الحاجة إلى ذلك؟ لماذا تجرين مراجعة؟ إنّه بخير، إنّني أعتني...» ثم «أغلقي فمك اللعين!» صاحت بتيري التي ترتمي في كنبتها، محاولةً رفع صوتها لضمّ احتجاجاتها إلى احتجاجات ابنتها. «ليست هي... أنا

مَن يعتني به، مفهوم؟» زعقت بكاي وهي تؤكّد على كلامها غارزة إصبعها في صدرها، وقد احمرّ وجهها وفاضت عيناها المكحّلتان بدموع الحنق.

كانت كريستال تزور روبي بانتظام في عائلة الاستقبال خلال الشهر الذي بقي فيه مفصولًا عنهما. كان يتشبّث بها، يطلب منها البقاء لتناول الشاي، ويبكي بعدما تغادر. كانت تشعر وكأنّ نصف أحشائها اقتُلع منها وأُبقِي بعيدًا عنها. كانت كريستال تودّ لو يعهدون بروبي إلى المربّية كاث، مثلما فعلوا معها مرّات عديدة في طفولتها، كلّما انهارت تيري. لكنّ المربّية كاث أصبحت الآن مسنّة وصحّتها ضعيفة، ولم يعد بوسعها الاهتمام بروبي.

«أفهم أنّك تحبّين شقيقك، كريستال، وأنّك تبذلين كلّ ما بوسعك من أجله، قالت كاي، لكنّك لست وصيّة قانونيًا عن...»

«ولم لا؟ أنا شقيقته، اللعنة! ألست شقيقته؟»

«حسنًا، قالت كاي بحزم. تيري، أظنّ أنّ علينا أن نواجه الحقائق الآن. بيلتشابيل سوف تطردك بالتأكيد من البرنامج إذا حضرت إلى هناك مدّعية بأنّك لم تتعاطي مخدّرات، وكشفت الفحوص بعد ذلك أنّك فعلت. المسؤول عنك في العيادة كان في غاية الوضوح حول هذه النقطة حين كلّمني على الهاتف.»

قابعة في الكنبة، متقوقعة على نفسها، بدت تيري بأسنانها الناقصة مثل مخلوق هجين ما بين العجوز والطفلة، وهي تحدّق تائهة من حولها بنظرة فارغة تعسة.

«أعتقد أنّ الوسيلة الوحيدة التي قد تجنّبك الطرد هي أن تعترفي لهم بصراحة ووضوح بأنّك تعاطيت المخدّرات، أن تتحمّلي مسؤوليّة زلّتك، وتبدي التزامًا بفتح صفحة جديدة.»

ظلّت تيري جالسة تحملق في الفراغ. الكذب، تلك كانت الوسيلة الوحيدة التي تعرفها لمواجهة الاتّهامات التي تنهال عليها. أجل، حسنًا، موافقة، أكملي، وبعد ذلك، وماذا أيضًا... ومن ثمّ لا، لم أفعل، غير صحيح إطلاقًا، تبًّا لا...

«هل ثمّة سبب معيّن يمكن أن يبرّر استهلاكك الهيروين هذا الأسبوع، في حين أنّك أساسًا تتابعين علاجًا مكثّفًا بالميتادون؟» سألت كاي.

«أجل، أجابت كريستال عن والدتها. السبب أنّ أوبو ظهر مجدّدًا، وهي لم تتمكّن يومًا من رفض طلب لعين له!»

«أغلقي فمك»، قالت تيري ولكن بدون حدّة. بدت وكأنّها تحاول أن تستوعب ما قالته لها كاي، تلك النصيحة العجيبة، الخطيرة، بأن تقول الحقيقة.

«أوبو؟» سألت كاي، «من هو أوبو؟»

«شخصٌ سافل»، أجابت كريستال.

«اصمتي»، ردّدت تيري لكريستال.

«لماذا لم تقولي له ببساطة لا؟» صاحت كريستال بوالدتها.

«حسنا»، تدخّلت كاي مجدّدًا. «تيري، سوف أتّصل بالمسؤول عنك في العيادة. سأحاول أن أقنعه بأنّك إن بقيتِ في البرنامج، فإنّ ذلك سيعود بالفائدة برأيي على الأسرة بكاملها.»

«تفعلين هذا حقّا؟» سألت كريستال مذهولة. كانت تعتقد أنّ كاي حقيرة، أكثر حقارةً حتّى من تلك الوالدة في عائلة الاستقبال، بمطبخها الناصع الموضّب، وذلك العطف الذي كانت تبديه لكريستال حين تكلّمها، فتجعلها تشعر بأنّها مجرّد حثالة.

«نعم، سوف أفعل هذا. لكن يجب أن تعرفي تيري أنّه، بالنسبة إلينا، في فريق حماية الطفولة، الأمر في غاية الجديّة. سيترتّب علينا أن نتابع عن كثب وضع روبي العائلي. يجب أن نلمس تغييرًا، تيري.»

«موافقة، أجل» قالت تيري. كانت كالعادة موافقة على أيّ شيء، مع أيٍّ كان.

لكنّ كريستال أكّدت: «سوف تفعلين، أجل، بالتأكيد. سوف تفعل. أنا سأساعدها. هذا ما ستقوم به.»

2

كانت شيرلي موليسون تقضي أيّام الأربعاء في مستشفى ساوث وست العامّ في يارفيل، حيث تقوم مع حوالى عشرة متطوّعين آخرين بمهامّ غير طبيّة، مثل التنقّل بعربة الكتب بين الأسرّة، الاعتناء بأزهار المرضى، والقيام ببعض المشتريات من المتجر في ردهة المستشفى للمرضى العاجزين عن مغادرة أسرّتهم والذين لا يتلقّون زيارات. لكنّ المهمّة التي كانت شيرلي تفضّلها على سواها كانت أن تجول على المرضى وتجمع طلباتهم لوجبات الطعام. ظنّها أحد الأطبّاء مرّة من أعضاء فريق إدارة المستشفى حين التقاها وهي تحمل مفكّرتها، والشارة البلاستيكيّة معلّقة حول عنقها.

خطرت لشيرلي فكرة العمل التطوّعي خلال أطول حديث دار بينها وبين جوليا فاولي، خلال إحدى الحفلات الرائعة التي تقام في قصر سويتلوف هاوس بمناسبة عيد الميلاد. علمت عندها أنّ جوليا تشارك في حملة لجمع التبرّعات من أجل قسم طبّ الأطفال في المستشفى المحلّي.

«ما نحن بحاجة إليه فعلًا هو زيارة ملكيّة، قالت جوليا وعيناها شاردتان من فوق كتف شيرلي نحو الباب. سوف أطلب من أوبري أن تفاتح نورمان بايلي بالأمر. اعذريني، يجب أن ألقي التحيّة على لورانس...»، قبل أن تترك شيرلي واقفة وحيدة قرب الغراند بيانو، وهي تتمتم في الفراغ «طبعًا، طبعًا.» لم تكن لديها مطلق فكرة عمّن يكون نورمان بايلي ذاك، لكنّها كانت كأنّما على غيمة. منذ اليوم التالي، وبدون أن تخبر هاورد بمشاريعها، اتّصلت بمستشفى ساوث وست العامّ واستعلمت عن برنامج التطوّع. وبعدما تثبّتت من أنّ ذلك لا يتطلّب مواصفات خاصة، بل مجرّد أخلاقيّات عالية، ذهن سليم وبنية قويّة، طلبت أن يرسلوا لها استمارة انتساب.

العمل التطوّعي شرّع لشيرلي أبواب عالم جديد مشرق. ذلك كان الحلم الذي زرعته جوليا فاولي من غير أن تدري في نفسها، في تلك الليلة قرب البيانو. ترى نفسها في الحلم واقفة، شابكة يديها أمامها بخشوع ورزانة، والشارة البلاستيكيّة تتدلّى حول عنقها، فيما جلالة الملكة تستعرض ببطء

صفًا من المساعدين المفتونين. ترى نفسها تنحني أمام الملكة بخفّة وإجلال، فتلفت انتباهها. تتوقّف الملكة لتتحدّث قليلًا إلى شيرلي. تهنّئها على الوقت الذي تخصّصه بسخاء لمساعدة المرضى... ووميض فلاش، صورة، ثمّ في اليوم التالي الصحف تعنوِن «الملكة في حديث مع المتطوّعة السيّدة شيرلي موليسون...» أحيانًا، حين تركّز شيرلي ذهنها بقوّة على هذا المشهد من نسج خيالها، تنخطف وكأنّها تعيش تجربة روحيّة.

العمل التطوّعي في المستشفى وضع بين يدي شيرلي سلاحًا جديدًا فتّاكًا تحجّم به مورين وادّعاءاتها. حين تحوّلت أرملة كين بين ليلة وضحاها، كما في قصّة سندريلّا، من مجرّد بائعة إلى شريكة في محلّ تجاري، أخذت تظهر اعتدادًا أغاظ شيرلي إلى أقصى حدّ (ولو أنّها كبتت غيظها خلف ابتسامة رقيقة). وها إنّ شيرلي تتفوّق عليها. فهي أيضًا تعمل، ليس من أجل الكسب، بل بدافع طيبتها ودماثة أخلاقها. في التطوّع قدر كبير من الرقيّ. هذا ما تفعله النساء اللواتي لسن بحاجة إلى المال، نساء مثلها ومثل جوليا فاولي. ثمّ إنّ المستشفى كان منجمًا حقيقيًّا للقلاقل، تغرف منه شيرلي الأخبار لتعوّم بها ثرثرة مورين المضنية عن ذاك المقهى الجديد.

في ذلك الصباح، أعلنت شيرلي بصوت حازم للمسؤول عن فريق المتطوّعين أنّها تفضّل العمل في القسم 28، فاستجاب لها وأرسلها إلى قسم الأورام السرطانيّة. لم تكسب شيرلي سوى صديقة واحدة بين ممرّضات المستشفى، وهي تعمل في هذا القسم. بعض الممرّضات الشابّات يتعاطين أحيانًا مع المتطوّعات بجفاف وعجرفة، لكنّ روث برايس التي عادت إلى التمريض بعدما توقّفت عن العمل ستّ عشرة سنة، كانت في غاية اللطف منذ البداية. وكما كانت شيرلي تقول، كلتاهما من نساء باغفورد، وهذا ما يخلق رابطًا وثيقًا بينهما.

(الواقع أنّ شيرلي لم تكن من مواليد باغفورد، بل نشأت مع شقيقتها الصغرى ووالدتهما في شقّة ضيّقة تعمّها الفوضى في يارفيل. والدة شيرلي كانت تتعاطى الكحول. لم تطلّق والد الفتاتين، غير أنّهما لم ترياه يومًا. يبدو أنّ رجال الحيّ كانوا يعرفون جميعهم والدة شيرلي بالاسم، وترتسم على

وجوههم ابتسامة ساخرة حين يذكرونه... لكنّ ذلك كان منذ وقت طويل، والماضي، برأي شيرلي، يتبخّر حين لا تأتي على ذكره. كانت بكلّ بساطة ترفض أن تتذكّر.)

تبادلت شيرلي وروث السلام بحفاوة، لكنّهما كانتا منهمكتين في العمل في تلك الصبيحة، ولم يكن لديهما وقت للاستغراق في الكلام، فاكتفتا ببعض العموميّات حول وفاة باري فيربراذر المفاجئة، لكنّهما اتّفقتا على الالتقاء في الساعة الثانية عشرة والنصف لتناول الغداء معًا، قبل أن تسرع شيرلي لإحضار عربة الكتب للقيام بجولتها.

كانت شيرلي في ذلك الصباح في مزاج مشرق ومعنويّاتها تحلّق عاليًا. بوسعها أن تبصر المستقبل منقشعًا زاهيًا وكأنّه بدأ يتحقّق أمام ناظريها. سوف يتّحد هاورد ومايلز وأوبري فاولي، ويضمّون جهودهم لفصل حيّ الحقول عن باغفورد بشكل نهائيّ لا رجعة فيه، وسيقام بهذه المناسبة عشاء احتفاليّ في قصر سويتلوف هاوس...

كانت شيرلي مبهورة بجمال القصر. الحديقة الشاسعة بساعتها الشمسيّة، شجيراتها المشذّبة على شكل منحوتات وبركها الخلّابة. الرواق الفسيح بتلبيسته الخشبيّة. الصورة المعروضة في إطار فضيّ على الغراند بيانو، التي يظهر فيها صاحب القصر وهو يمازح أميرة العائلة المالكة. لم تلمس يومًا في سلوك آل فاولي أثرًا لأيّ غطرسة أو ازدراء حيالها أو حيال زوجها. لكن ينبغي الإقرار بأنّه كان هناك على الدوام كمّ من الانطباعات والأحاسيس التي تتبارى للاستئثار بانتباهها كلّما دخلت إلى فلك هذه العائلة. كان ثمّة حلمٍ يراودها، تتخيّل خمستهم جالسين حول مائدة عشاء خاصّ في إحدى تلك القاعات الجانبيّة الصغيرة الساحرة، هاورد جالسًا إلى جانب جوليا، وهي إلى يمين أوبري، ومايلز بينهما. (في حلم شيرلي، كانت سامانثا على الدوام مرتبطة بموعدٍ ما في مكان آخر وعاجزة عن الحضور.)

التقت شيرلي وروث في تمام الثانية عشرة والنصف قرب برّاد الزبادي. لم يكن مطعم المستشفى الصاخب اكتظّ بعد كما سيحصل عند الساعة الواحدة، فتمكنت الممرّضة والمتطوّعة من العثور بدون الكثير

من الصعوبة على طاولة لشخصين. كانت طاولة دبقة مكسوّة بفتات خبز، وملتصقة بالحائط.

«كيف حال سايمون؟ والفتيان؟» سألت شيرلي بعدما مسحت روث الطاولة وفرشتا عليها محتوى صينيّتيهما وجلستا الواحدة قبالة الأخرى، جاهزتين لبدء حديثهما.

«سام بخير، شكرًا. سيُحضِر اليوم جهاز كمبيوتر جديدًا إلى المنزل. الفتيان ينتظرانه بفارغ الصبر، يمكنك تصوّر الأمر.»

كان هذا غير صحيح على الإطلاق. آندرو وبول يملكان كمبيوترين محمولين رديئين، وجهاز الكمبيوتر الشخصي قابع في زاوية غرفة الجلوس الضيّقة بدون أن يمسّه أيّ منهما، إذ يفضّلان عدم القيام بأيّ شيء يضعهما في جوار والدهما. غالبًا ما كانت روث تحدّث شيرلي عن ابنيها وكأنّهما أصغر سنًّا بكثير مما هما عليه في الحقيقة، فتعطي انطباعًا عنهما بأنّهما وديعان، سهلا المراس وهانئان. ربّما كانت تسعى بذلك إلى خلق انطباع بأنّها أكثر شبابًا، وبالتالي، إلى تسليط الضوء على فارق العمر بينها وبين شيرلي، الذي يقارب في الحقيقة عقدين، لتبدوا أقرب إلى أمّ وابنتها. فوالدة روث توفّيت قبل عشر سنوات، وهي تفتقد ذلك الإحساس بأن يكون لديها امرأة أكبر سنًّا منها في حياتها. ومن جهتها، لم تكن علاقة شيرلي مع ابنتها في أفضل أحوالها، مثلما ألمحت به إلى روث.

«لطالما كنت مقرّبة من مايلز. أمّا باتريسيا، فكانت أطباعها صعبة. إنّها تقيم في لندن الآن.»

كانت روث متشوّقة إلى تقصّي المزيد، لكنّ التكتّم اللبق كان ميزة تتقاسمها مع شيرلي وتثمّنها كلٌّ منهما لدى الأخرى. كان حسّهما بالكرامة يملي عليهما مواجهة العالم بوجه بشوش وسويّ أبدًا. طرحت روث فضولها جانبًا، ولو إنّها احتفظت في سرّها بالأمل في أن تكتشف في الوقت المؤاتي ما الذي يجعل باتريسيا صعبة الأطباع إلى هذا الحدّ.

شعرت شيرلي وروث، منذ لقائهما في المستشفى، بانسجام فوريّ وعفويّ بينهما. ذلك التقارب مردّه إلى أنّ كلًّا منهما ترى في الأخرى امرأة شبيهة بها،

امرأة أكثر ما تعتزّ به أنّها نجحت في الفوز بعطف زوجها والاحتفاظ به. وعلى غرار أتباع الماسونيّة، كانتا تتقاسمان قواعد السلوك الأساسيّة ذاتها، ما يجعلهما تشعران بالأمان برفقة إحداهما الأخرى أكثر منهما مع أيّ امرأة أخرى. وكان لهذا التواطؤ نكهة خاصة تزيده متعةً، إذ يختلط بحسّ بالفوقيّة. فكلّ منهما تنظر بأسف وشفقة إلى الرجل الذي اختارته الأخرى شريكًا لحياتها. كانت روث ترى هاورد منفّرا جسديّا بشكله العجيب، وتستغرب كيف أنّ صديقتها، التي لا تزال تحتفظ بجمال رقيق رغم اكتنازها، وافقت على الاقتران بزوج على شاكلته. في المقابل، فإنّ شيرلي تعتبر سايمون، زوج روث، فاشلًا منطويًا على نفسه، فهي لا تذكر أنّها التقته يومًا، أو سمعت اسمه يذكر مرّةً في أوساط باغفورد العليا، كما بلغها أنّه وزوجته يفتقران إلى أبسط مقوّمات الحياة الاجتماعيّة.

«إذًا، كنتُ هنا حين أحضر مايلز وسامانثا باري إلى المستشفى»، بادرت روث، داخلة في صلب الموضوع الجوهريّ بدون أن تهدر الوقت في المقدّمات. لم تكن تمتلك فنّ اللباقة في الحديث مثل شيرلي، بل كانت تجد صعوبة في كبت نهمها على ثرثرات باغفورد التي كانت محرومة منها، وهي معزولة في أعلى تلّتها المطلّة على البلدة، بعيدة قسرًا عن المجتمع بسبب انعزال زوجها.

«هل شاهدا فعلًا ما حدث؟»

«آه أجل»، ردّت شيرلي. «كانا يتناولان العشاء في نادي الغولف. تعلمين، كانت تلك ليلة السبت، الفتاتان عادتا من المدرسة، وسام تفضّل تناول العشاء في الخارج، فهي ليست تلك الطبّاخة الماهرة...»

تلك الاستراحات معًا حول فنجان قهوة كشفت شيئًا فشيئًا لروث بعضًا من أسرار زواج مايلز وسامانثا. أخبرتها شيرلي مرّة أنّ ابنها أُرغِم على الزواج من سامانثا لأنّها كانت حاملًا بليكسي.

«فعَلا أفضل ما يمكن فعله في مثل هذه الحالات»، قالت شيرلي مطلقة تنهّدة تعبّر عن شجاعة حكيمة. «قام مايلز بالأمر الصواب. لما كنت نصحته بغير ذلك. الفتاتان تفرحان القلب. للأسف، لم يرزق مايلز بصبيّ. لكان والدًا رائعا لصبيّ. لكنّ سام لم تشأ إنجاب طفل ثالث.»

كانت روث تستمتع بكلّ سهم تسدّده شيرلي ضمنا لكنّتها. كرهت ساماثنا بشكل عفويّ منذ أن التقتها قبل سنوات في مدرسة سانت توماس. كانت روث تصطحب ابنها آندرو البالغ من العمر آنذاك أربع سنوات، فيما ساماثنا ترافق ابنتها ليكسي. أعطتها انطباعًا بأنّها صائدة رجال خطيرة، بقهقهاتها العالية، وتقويرة فساتينها السخيّة التي تكشف أكثر ممّا تستر، ومجموعة النكات الجريئة التي تسردها على والدات التلاميذ. على مدى سنوات، راقبَت روث باحتقار ساماثنا تنفخ صدرها العارم وهي تكلّم فيكرام جاواندا خلال اجتماعات الأهالي، وجرّت سايمون خلفها في طرقٍ التفافية حول قاعات الصفوف حتّى لا تجد نفسها مضطرّة للتحدّث إليها.

كانت شيرلي لا تزال مسترسلة في سرد القصّة التي سمعتها عن اليوم الأخير من حياة باري، مسلّطة الضوء من كلّ الزوايا الممكنة على الدور الحاسم الذي لعبه مايلز، سرعة بديهته في الاتّصال بالإسعاف، مساندته لماري فيربراذر، وإصراره على البقاء إلى جانبها في المستشفى حتّى وصول كولين وتيسا وول. استمعت روث إليها بانتباه، ولو أنّها أحسّت بصبرها بدأ ينفد. جلسة شيرلي كانت أكثر متعة بكثير عندما تعدّد مساوئ ساماثنا منها حين تمتدح مزايا مايلز. وكان الأمر على قدر خاصّ من الإزعاج في ذلك اليوم تحديدًا، لأنّ روث كان لديها أنباء في غاية الإثارة تتوق إلى إخبار شيرلي بها.

«إذًا هناك الآن منصب شاغر في مجلس البلدة»، قالت روث ما أن سنحت لها الفرصة. كانت شيرلي وصلت في قصّتها إلى النقطة التي أخلى فيها مايلز وساماثنا الساحة لكولين وتيسا وول.

«هذه الحالة تعرف بالشغور الظرفيّ»، قالت شيرلي برفق.

أخذت روث نفسًا عميقًا.

«سايمون»، قالت في غاية الانفعال لمجرّد أنّها تنقل خبرًا مثيرًا مثل هذا، «سايمون يفكّر في الترشّح!»

ارتسمت ابتسامة آليّة على شفتَي شيرلي. رفعت حاجبيها تعبيرًا عن دهشة لَبِقة، وارتشفت جرعة من الشاي بهدف إخفاء وجهها خلف الكوب. لم تنتبه روث إلى أنّها تفوّهت بشيء قد يزرع الاضطراب في نفس صديقتها.

كانت تفترض بأنّ شيرلي ستكون في غاية السرور لفكرة أن يجلس زوجاهما معًا في المجلس البلدي، وكان لديها إحساس مبهم بأنّ شيرلي يمكن أن تساعد في تحقيق ذلك.

«فاتحني بالأمر الليلة الماضية»، تابعت روث بنبرة من يتفوّه بكلام هامّ. «تراوده الفكرة منذ بعض الوقت.»

الواقع أن سايمون فاتحها بأمور أخرى أيضًا، مثل فرصة تقاضي الرشاوى من شركة غرايز، مقابل الإبقاء على عقودها مع المجلس، لكنّ روث طردت هذه الفكرة من ذهنها، مثلما تجاهلت على الدوام كلّ حِيَله الحقيرة وجِنَحه الصغرى.

«لم يخطر لي يومًا أنّ سايمون مهتمّ بالمشاركة في الإدارة المحليّة»، قالت شيرلي بنبرة ودودة، مرحة.

«آه بلى»، أجابت روث، التي لم يكن لديها، هي نفسها، أدنى علم بالأمر. «إنّه متحمّس جدًا للفكرة.»

«هل تحدّث إلى الدكتورة جاواندا؟» سألت شيرلي وهي ترتشف الشاي. «هل ألمحَتْ له بأنّها قد تدعمه؟»

فوجئت روث بهذا السؤال وجلست في ذهول.

«لا، أنا... سايمون لم يذهب إلى الدكتورة منذ زمن طويل. أعني أنّ صحّته ممتازة.»

ابتسمت شيرلي. إن كان سايمون يتحرّك بمفرده، بدون دعم فريق جاواندا، فهذا يعني بالتأكيد أنّه لا يطرح خطرًا يذكر. شعرت حتّى بالشفقة حيال روث، إذ لم تكن لديها مطلق فكرة عن المفاجأة غير السارّة التي تنتظرها. إن كانت شيرلي نفسها التي تعرف كلّ من له وزن في باغفورد، ستجد صعوبة في التعرّف إلى زوج روث إذا ما دخل محلّ الأطعمة الفاخرة، فمن ذا سيصوّت له بنظر روث المسكينة؟ من جهة أخرى، كانت شيرلي على ثقة بأن هناك سؤال كان هاورد وأوبري ليرغبان في أن تطرحه، ولو من باب الشكليّات.

«سايمون عاش طوال حياته في باغفورد، أليس كذلك؟»

«لا، ولد في الحقول»، أجابت روث.

«آه!»

نزعت شيرلي غطاء الألمنيوم عن وعاء الزبادي، تناولت ملعقتها وابتلعت جرعة، مُطرقة في أفكارها. من المرجَّح إذًا أن يكون سايمون منحازًا إلى حيّ الحقول، وهو أمر من المجدي معرفته، بمعزل عن حظوظه الانتخابيّة الفعليّة.

«هل سيُطرح المنصب على موقع المجلس على الإنترنت؟ كيف يتمّ تقديم الترشيحات؟» سألت روث، وهي لا تزال تأمل أن تبدي صديقتها في اللحظة الأخيرة اندفاعًا وحماسة لمساعدتها.

«آه بالطبع»، قالت شيرلي بشكل مُبهَم، «أظنّ ذلك.»

3

حضر آندرو وفاتس وثلاثة وسبعون تلميذًا معهما الحصّة الدراسيّة الأخيرة من بعد ظهر الأربعاء، صفّ «الجنونيّات»، كما يدعوه فاتس. كان هذا صفّ الرياضيّات للمجموعة ذات المستوى ما قبل الأخير من التلاميذ، وتتولّاه الأستاذة الأقّل كفاءة في القسم. كانت امرأة شابّة وجهها مبقّع بالأحمر، متخرّجة حديثًا من معهد تدريب المعلّمين. كانت عاجزة تمامًا عن فرض النظام والانضباط في الصفّ، وتبدو في غالب الأحيان على شفير الانهيار بالبكاء. فاتس، الذي عاهد نفسه بتصميم شديد بأن يُخفِق في عامه الدراسيّ، نجح في التقهقر من مجموعة الأوائل إلى مجموعة «الجنونيّات». وآندرو، الذي واجه طوال حياته صعوبات مع الأرقام، كان يعيش في خوف دائم من أن يتمّ نقله إلى المستوى الأخير، حيث سينضمّ إلى كريستال ويدون وقريبها داين تالّي.

كان آندرو وفاتس جالسَين في قعر الصفّ، جنبًا إلى جنب. كان فاتس، حين يسأم بين الحين والآخر من إضحاك رفاقه او إثارة المزيد من البلبلة في الصفّ، يشرح لآندرو كيفيّة القيام بعمليّة جمع. كان الصفّ في هرج ومرج،

والصخب يصمّ الآذان. الآنسة هارفي تصرخ بصوت يعلو على أصوات الجميع، متوسّلة إيّاهم بالتزام الصمت. كانت أوراق التمارين مكسوّة برسوم بذيئة. التلاميذ ينهضون من أماكنهم باستمرار وسط صرير قوائم المقاعد، ويتبادلون الزيارات. وكلّما أدارت الآنسة هارفي ظهرها، تطايرت في الصفّ صواريخ صغيرة. أحيانًا يتحجّج فاتس بأيّ ذريعة ليعبر القاعة ذهابًا وإيّابًا، مقلّدًا مشية أبو خزانة المتوثّبة والمتشنّجة. هنا، في هذا الصفّ، كان فاتس يطلق العنان لحسّه الفكاهي، فيظهر بأبهى تجلّياته. أمّا في حصّة الأدب الإنكليزيّ حيث كان وآندرو يحضران صفّ الأوائل، فلم يكن ينحدر إلى حدّ استخدام أبو خزانة مادّةً للضحك.

كانت سوكفيندر جاواندا جالسة مباشرة أمام آندرو. قبل سنوات، في المدرسة الابتدائيّة، كان آندرو، فاتس والصبيان الآخرون يشدّون شعر سوكفيندر المسرّح في ضفيرة طويلة سوداء ضاربة إلى الزرقة. كانت تلك الضفيرة أسهل ما يمكن التشبّث به حين يلعبون اللقّيطة. لم يكن بوسعهم آنذاك مقاومة الرغبة في شدّها حين يرونها تتدلّى، كما الآن، إلى أسفل ظهرها وكأنّها تستفزّهم، بعيدًا عن أنظار الأستاذ. لكنّ آندرو لم يعد لديه اليوم أي رغبة في شدّها، أو حتّى في لمس أي جزء من جسد سوكفيندر. كانت من الفتيات القليلات اللواتي ينزلق نظره عليهنّ بدون أن يُثرن لديه مطلق اهتمام. منذ أن لفت فاتس انتباهه إلى الأمر، بات آندرو يلاحظ الزغب الداكن الطفيف فوق شفتها العليا. بينما كانت جاسوانت، شقيقة سوكفيندر الكبرى، رشيقة القدّ، رهيفة الخصر. وجهها، ببشرته النحاسيّة الملساء ووجنتيها العاليتين وعينيها البنيّتين الرطبتين المستطيلتين على شكل لوزتين، بدا رائعًا لآندرو قبل قدوم غايا. بالطبع، لطالما كانت جاسوانت بعيدة المنال تمامًا بالنسبة إليه. فهي تكبره بسنتين، وكانت الأكثر ذكاءً بين تلامذة الصفّ الثاني الثانويّ، ومُحاطة بهالة من الجاذبيّة والمناعة لأنّها تفضح أدنى دغدغات الشبق التي تظهر لدى الفتيان عند رؤية مفاتنها.

من بين كلّ تلاميذ الصفّ، كانت سوكفيندر الوحيدة التي لا تصدر مطلق صوت. تحني ظهرها وتطرق رأسها فوق أوراقها، متقوقعة في تركيزها

كأنّما في دفء شرنقة. شدّت كمّ كنزتها الأيسر ليغطّي يدها بالكامل، ولفّته حولها على شكل قبضة صوفيّة. كان هناك شيء من التباهي في جمودها التامّ، كمن يضع نفسه فوق الجمع.

«الخنثى الأعظم يجلس هامدًا جامدًا»، همس فاتس، محدّقًا إلى مؤخّر رأس سوكفيندر. «يجد العلماء أنفسهم في حيرة من أمرهم أمام تناقضات ذلك المخلوق المشعر، النصف رجل ونصف امرأة، بشاربين يتعايشان مع نهدين عارمين.»

قهقه آندرو ضاحكًا، ولو أنّه كان منقبضًا بعض الشيء. لكان استمتع أكثر بالنكتة لو لم يكن بوسع سوكفيندر أن تسمع ما يقوله فاتس. في آخر مرّة ذهب فيها إلى منزل فاتس، كشف له صديقه عن الرسائل التي كان ينشرها بانتظام على صفحة سوكفيندر على موقع فيسبوك. كان ينقّب بين صفحات الإنترنت بحثًا عن معلومات وصور حول ظاهرة الشعرانيّة لدى الفتيات، فيرسل لها استشهادًا أو صورة كلّ يوم.

كان الأمر طريفًا إلى حدّ ما، لكنّ آندرو شعر بالإحراج. الحقيقة أنّ سوكفيندر لم تكن تستحقّ كلّ ذلك، بدا له أنّها هدف سهل للغاية. كان آندرو يستمتع أكثر حين يوجّه فاتس لسانه السليط ضدّ أصحاب السلطة، المدّعين أو المزهوّين بأنفسهم.

«معزولًا عن قطيعه من الملتحين ذوي حمّالات الصدر، يجلس تائهًا في أفكاره، حائرًا في ما إذا كانت السكسوكة ستلائمه.»

أطلق آندرو ضحكة، تلاها إحساس بالذنب. ثمّ سئم فاتس الموضوع، فانصرف إلى تحويل كلّ صفر على ورقة تمارينه إلى شَرَج متغضّن. استغرق آندرو في تأمّلاته، محاولًا أن يحزر أين يجدر وضع الفاصل العشريّ، بينما يفكّر في رحلة الحافلة على طريق العودة إلى المنزل،

وتشغل غايا فكره. كان من الصعب للغاية أن يعثر دائمًا على مقعد تظلّ منه في مرمى نظره خلال رحلة العودة، إذ غالبًا ما كان يجدها محشورة بين ركاب آخرين حين يصعد على متن الحافلة، أو جالسة بعيدًا جدًّا. أما لحظة التواطؤ تلك التي تقاسماها أمام طرافة الموقف خلال تجمّع صباح

الإثنين، فلم تفضِ بهما إلى شيء. فهي منذ ذلك الحين لم تنظر في عينيه في الحافلة، لا في صباح ذلك اليوم ولا في صباح اليوم السابق، كما لم تعطِ مطلق مؤشّر يكشف أنّها تلاحظ وجوده حتّى. مضت أربعة أسابيع وهو متيّم، من غير أن يكلّم غايا مرّة واحدة. جالسًا وسط صخب أرقام «الجنونيّات» التي تهطل وتتساقط من حوله، حاول الخروج بجملة يفاتح بها محبوبته. «كان ذلك طريفًا، يوم الاثنين خلال التجمّع...»

«سوكفيندر، هل أنت بخير؟»

كانت الآنسة هارفي منحنية فوق سوكفيندر لتصحيح تمارينها، لكنّها راحت تحملق مذعورة في وجه الفتاة. رأى آندرو سوكفيندر تهزّ رأسها ثمّ تخبّئ وجهها بين يديها، وهي تنحني فوق أوراقها.

«والّي!» همس كيفن كوبر، جالسًا أمامهما بصفّين. «والّي! فستق!»

كان يحاول لفت نظرهما لتنبيههما إلى ما أدركه الجميع أساسًا، أنّ سوكفيندر كانت تبكي. كانت كتفاها تهتزّان برفق، فيما الآنسة هارفي تقوم بمحاولات يائسة وملحّة لكشف المشكلة. ازداد الصفّ صخبًا، وقد شعر التلاميذ بأنّ تيقّظ المعلّمة تلاشى أكثر.

«فستق! والّي!»

لم يعرف آندرو يوما إن كان كيفن كوبر يتقصّد إزعاج الآخرين أم إنّه يزعجهم من غير أن يدري، لكن الواقع أنّه لم يكن له مثيل في إثارة أعصاب الجميع. كان اسم «فستق» كنية قديمة جدًا لاحقت آندرو في المدرسة الابتدائيّة ولطالما كرهها. فاتس هو الذي أسقطها عنه بمجرّد عدم استخدامها. كان فاتس منذ الصغر الحكَم الأخير في مثل هذه المسائل. لكنّ كوبر كان مخطئًا حتّى في اسم فاتس. فلقب «والّي» يعود إلى العام الماضي ولم يعرف الرواج سوى لفترة عابرة.

«فستق! والّي!»

«أغلق فمك كوبر، أيّها الأبله المعتوه»، تمتم فاتس لنفسه. كان كوبر منحنيًا من فوق ظهر مقعده، يحدّق بسوكفيندر التي تقوقعت حتّى كاد وجهها يلامس سطح الطاولة، فيما الآنسة هارفي مقرفصة بجانبها، تشوّر

بيديها بشكل مضحك في الجوّ بدون أن تجرؤ على لمسها أو أن تنجح في انتزاع أيّ تفسير منها لما يعذّبها. لفت هذا المشهد غير الاعتياديّ انتباه المزيد من التلاميذ الذين استداروا محدّقين، بينما واصل بعض الفتيان في مقدّم القاعة إثارة الغوغاء والجلبة، غير آبهين لشيء سوى لمرحهم. التقط أحدهم ممحاة اللّوح الخشبيّة عن مكتب الآنسة هارفي الخالي ورماها بقوّة عبر القاعة.

طارت الممحاة عاليًا وأصابت ساعة الحائط المعلّقة على الجدار الخلفيّ، فسقطت أرضًا وتحطّمت وسط تطاير قطع البلاستيك والشظايا المعدنيّة. جفلت الآنسة هارفي والعديد من الفتيات وأطلقن صيحة فزع.

فتح باب الصفّ بشكل مفاجئ واصطدم بالجدار، مرتدًا بعنف. خيّم الصمت على الصفّ. وقف أبو خزانة، بوجه قرمزيّ من شدّة الغضب.

«ما الذي يجري هنا؟ ما هذا الضجيج كلّه؟»

انتصبت الآنسة هارفي دفعة واحدة مثل زنبرك إلى جانب طاولة سوكفيندر، مرتبكة وفزعة. التفت كيفن كوبر من فوق ظهر مقعده، منقّلًا نظره بين الآنسة هارفي وأبو خزانة، ثمّ فاتس.

ارتفع صوت فاتس.

«حسنًا، سأكون في غاية الصدق معك أبي، الواقع أنّنا كنّا نهزأ من هذه المرأة المسكينة.»

انفجر الصفّ ضاحكًا. ظهرت فجأة على عنق الآنسة هارفي طفرة من البقع الداكنة. تأرجح فاتس بلامبالاة على قائمتي كرسيه الخلفيّتين، وجهه خالٍ من أيّ تعبير، محدّقًا إلى أبو خزانة بتحدٍّ وبرودة.

«كفى»، قال أبو خزانة. إذا سمعتُ صوتًا واحدًا يصدر عن هذا الصفّ، سوف أحتجزكم جميعًا. مفهوم؟ جميعًا.»

ثم أغلق الباب، فقهقهوا ضاحكين.

«سمعتم ما قاله نائب المديرة! صاحت الآنسة هارفي، مندفعة للعودة إلى مقدّمة القاعة. الزموا الصمت! قلت اصمتوا! أنت آندرو، وأنت فاتس، نظّفا الصفّ من كلّ هذه الفوضى! أزيلا حطام الساعة!»

أطلقا صيحاتهما المعهودة احتجاجًا على هذا الظلم، بمساندة فتاتين راحتا تزعقان بصوت حادّ. بقي المذنبون الحقيقيّون الذين لم يكن يخفى على أحد أنّ الآنسة هارفي تخشاهم، جالسين بهدوء خلف طاولاتهم، وعلى وجوههم ابتسامة ماكرة. لم يكن قد تبقّى سوى خمس دقائق على الجرس الذي يعلن انتهاء اليوم الدراسيّ، فراح آندرو وفاتس يتعمّدان المماطلة وهما يلملمان الشظايا، إلى أن يصبح بوسعهما التخلّي عن مهمّتهما من دون إتمامها. وفيما راح فاتس يقلّد مشية أبو خزانة، فيتخلّع ويتأرجح في كلّ الاتّجاهات وذراعاه متدلّيتان متثاقلتان، مثيرًا المزيد من الضحك في الصفّ، مسحت سوكفيندر عينيها خلسة بقبضتها الصوفيّة وانزلقت مجدّدا إلى الظلّ، حيث لا يلحظها أحد.

حين دقّ الجرس، لم تقم الآنسة هارفي بأدنى محاولة لضبط الصيحات المدوّية التي ارتفعت أو احتواء التهافت إلى الباب. سارع فاتس وآندرو إلى التخلّص ممّا تبقّى من الحطام وركله إلى تحت الخزائن في قعر القاعة، ثمّ حملا حقيبتيهما المدرسيّتين.

«والّي! والّي!» صاح كيفن كوبر، وهو يسرع للّحاق بفاتس وآندرو في الرواق. «هل تنادي أبو خزانة أبي»في البيت؟ بجدّ؟ هكذا تناديه؟»

كان على ثقة بأنّ ذلك سيحرج فاتس، ظنّ أنّه نال منه.

«كوبر، أنت حمار كبير»، أجاب فاتس بسأم. أطلق آندرو ضحكة.

IV

«الدكتورة جاواندا ستتأخّر حوالى ربع ساعة»، قالت موظّفة الاستقبال لتيسا.

«آه، لا يهمّ»، أجابت. «لست في عجلة من أمري.»

كان الوقت عصرًا، ونوافذ قاعة الانتظار تسرّب بقعًا من النور الأزرق الفاتح الملكيّ على الجدران. لم يكن هناك سوى شخصين آخرين ينتظران: امرأة مسنّة تنتعل خفّين وبالكاد تستطيع أن تمشي، يئزّ صدرها ويهسّ مع كلّ

نفَس، ووالدة شابّة تقرأ مجلّة فيما طفلتها الصغيرة تنقّب في صندوق الألعاب في إحدى الزوايا. تناولت تيسا نسخة قديمة منهكة من مجلّة «هيت» عن الطاولة في وسط القاعة وجلست تقلّب الصفحات، مستعرضة الصور. هذا التأخير أمهلها المزيد من الوقت لتحضّر ما ستقوله لبارميندر.

تكلّمتا بشكل عابر على الهاتف في الصباح. أعربت تيسا عن أسفها وندمها لعدم اتّصالها ببارميندر على الفور لإبلاغها بوفاة باري. طمأنتها بارميندر مؤكّدة أنها غير غاضبة إطلاقًا. لكنّ تيسا كانت واثقة، بفعل خبرتها الطويلة مع ذوي الإحساس المرهف والشديدي الحساسيّة، بأنّ بارميندر تخفي جرحًا حيّا تحت قوقعتها الغليظة الشائكة. حاولت أن تشرح لها أنّها كانت منهكة تمامًا في اليومين الأخيرين، وأنّها اضطرّت إلى التعامل مع ماري، كولين، فاتس وكريستال ويدون، وبأنّها شعرت بنفسها محبطة وتائهة وعاجزة عن التفكير سوى بالمشكلات الآنية التي تحاصرها. لكنّ بارميندر قاطعتها وسط تبريراتها المتلعثمة لتقول لها بهدوء إنّها سوف تقابلها لاحقًا في المستشفى.

خرج الدكتور كروفورد من عيادته، أومأ إلى تيسا مرحّبًا ونادى «مايسي لوفورد؟» كان شائب الشعر، ضخم القامة مثل دبّ. وجدت الأمّ الشابّة صعوبة في إقناع ابنتها بترك الهاتف الدمية القديم ذي العجلات الذي عثرت عليه في صندوق الألعاب. أمسكَتها بيدها وجرّتها برفق صوب الدكتور كروفورد، بينما كانت الطفلة تدير رأسها لتنظر بتَوق إلى الهاتف الذي يختزن أسرارًا لن تتمكّن من كشفها.

حين أغلق الباب، تنبّهت تيسا إلى أنّها كانت تبتسم ببلاهة، فسارعت إلى محو هذا التعبير عن وجهها. سوف ينتهي بها الأمر على هذه الحال، مثل تلك العجائز القميئات اللواتي يقضين وقتهنّ يثرثرن ويغرّدن عند رؤية أطفال، فيبعثن فيهم الخوف. لكانت ودّت لو رُزقت بنتًا صغيرة شقراء ممتلئة الخدّين إلى جانب ابنها الأسمر الهزيل. خطر لها، وهي تتذكّر فاتس طفلًا، أنّه لَمِن المروّع كيف أنّ أشباحًا صغيرة لأولادنا تسكن قلوبنا. أبدًا لن يعلموا، وإذا ما حدث وعلموا، لن يعجبهم ذلك، كم كان تأمّلهم وهم يكبرون بمثابة حدادٍ مستمرّ.

فُتح باب عيادة بارميندر، فالتفتت تيسا.

«السيّدة ويدون!» نادت بارميندر. التقت عيناها بعينَي تيسا، فشدّت شفتيها في ما يشبه ابتسامة. نهضت المرأة المسنّة ذات الخفّين بصعوبة وابتعدت وهي تعرج، إلى أن تـوارت مع بارميندر خلف الجدار الفاصل. سمعت تيسا باب عيادة بارميندر ينغلق.

قـرأت التعليقات تحت سلسلة من الصـور تظهر فيها زوجـة أحد لاعبي كرة قدم في مختلف الملابس التي ارتدتها في خمسة أيام متتالية. تأمّلت ساقَي المرأة الممشوقتين، وهي تتساءل كم كانت حياتها اختلفت لو كان لديها مثل هاتين الساقين. لم يكن يسعها سوى أن تقول لنفسها إنّ حياتها لكانت انقلبت رأسًا على عقب. ساقا تيسا كانتا سمينتين، قصيرتين، وخاليتين من أيّ شكل. كانت تودّ لو تخبئهما طوال الوقت في حذاءين عاليَي الأطراف، لكنّه لم يكن من السهل العثور على حذاءين يمكن إغلاق سحّابيهما فوق ربلتيها الغليظتين. قالت مرّة لفتاة صغيرة بدينة في مكتب التوجيه في المدرسة إنّ المظهر لا يهمّ، وإنّ الشخصيّة تأتي أوّلًا. كميّة الحماقات التي نقولها للأولاد، فكّرت وهي تقلِب صفحة المجلّة.

سمعت بابًا يُفتح بعنف. لم يكن على مرأى منها، لكنّها سمعت أحدهم يزعق بصوت أجشّ.

«اللعنة! إنّ حالتي تدهورت بسببكِ. هذا لا يجوز. جئت إليك حتّى تساعديني على الشفاء، هذه وظيفتك، هذا ما يجب عليك أن...»

تبادلت تيسا وموظّفة الاستقبال نظرة، ثمّ التفتتا إلى مصدر هذه الجلبة. سمعت تيسا صوت بارميندر، لكنة بيرمنغهام تلك التي لا تزال تطغى على كلامها رغم السنوات المديدة التي قضتها في باغفورد.

«لكن سيّدة ويدون، إنّك لم تقلعي عن التدخين، وهذا يؤثّر في الجرعة التي يترتّب عليّ أن أصفها لك. لو تتوقّفين عن التدخين... جسد المدخّنين يحلّل التيوفيلين ويمتصّها بسرعة أكبر من سواه، وبالتالي فإنّ التدخين لا يزيد من حدّة انتفاخ رئتيك فحسب، بل يؤثّر، في الحقيقة، في قدرة الدواء على...»

«لا تصرخي بوجهي! كفاني منك! سوف أشتكي عليك! أعطيتني الدواء اللعين غير المناسب! أريد استشارة طبيب آخر! أريد أن يفحصني الدكتور كروفورد!»

أطلّت السيّدة المسنّة من خلف الجدار، تعرِج وتترنّح، تئزّ وتلهث، ووجهها مخضّب من شدّة المجهود والغضب.

«سوف تقتلني، تلك البقرة الباكستانيّة! إياكم أن تقتربوا منها! صاحت بتيسا وهي عابرة. سوف تقتلك تلك اللعينة بأدويتها، تلك الباكيّة[1] العاهرة!»

واصلت طريقها بمشقّة، متمايلة بخطى قصيرة على ساقيها الهزيلتين نحو الباب، مترنّحة في خفّيها، تشتم وتلعن بقدر ما تسمح لها رئتاها المحاصرتان، وسط صفير وخرير أنفاسها. انغلق الباب خلفها. تبادلت موظّفة الاستقبال نظرة ثانية مع تيسا. ثمّ سمعتا باب عيادة بارميندر يُغلق مجدّدًا.

مضت خمس دقائق قبل أن تظهر بارميندر من خلف الجدار الفاصل. أبقت الموظّفة عينيها مسمّرتين في الشاشة أمامها، متعمّدة عدم الالتفات.

«سيّدة وول»، قالت بارميندر، موجّهة إليها تكشيرة جديدة متشنّجة تقصد منها ابتسامة.

«ما الذي حصل؟» سألت تيسا بعدما جلست عند طرف مكتب بارميندر.

«الأقراص الجديدة التي وصفْتُها للسيّدة ويدون تتسبّب لها بآلام في المعدة»، شرحت بارميندر بهدوء. «إذًا، لدينا اليوم تحاليل دم، أليس كذلك؟»

«أجل»، ردّت تيسا، وهي تشعر بالرهبة والأسى في آن حيال سلوك بارميندر المهنيّ البارد. «كيف حالك ميندا؟»

«أنا؟ إنّني بخير. لماذا؟»

«تعرفين... باري... أعلم أنّه كان يعني لك الكثير، وأنّك أنت أيضًا كنت تعنين له الكثير.»

[1] من «باكي» وهو تصغير لكلمة باكستاني أو باكستانيّة بالانكليزية، هدفه التحقير.

اغرورقت عينا بارميندر بالدموع. رفّت جفونها محاوِلةً طردها، لكنّ تيسا كانت رأتها.

«ميندا!» وضعت تيسا يدها السمينة فوق يد بارميندر النحيفة لمواساتها، لكنّ بارميندر سحبت يدها بحدّة، وكأنّ تيسا لسعتها. ثمّ انهارت باكية وقد فضحتها حركتها التلقائيّة، بينما عجزت عن الاختباء في القاعة الضيّقة، ولو أنّها استدارت قدر الإمكان في كرسيها الدوّار.

«شعرت بأنّني ارتكبت غلطة لا تغتفر حين أدركت أنّني أغفلت الاتّصال بك، قالت تيسا فيما كانت بارميندر تحاول بضراوة كبت نشيجها. تمنّيت لو أتقوقع على نفسي وأموت، ببساطة. كنت أنوي فعلًا الاتّصال»، تابَعَت كاذبة، «لكنّنا قضينا الليل بكامله في المستشفى ولم يغمض لنا جفن، ثمّ اضطررنا إلى الذهاب مباشرة إلى العمل. كولن انهار في التجمّع العامّ عندما أعلن النبأ، ثم افتعل شجارًا رهيبًا مع كريستال ويدون أمام الجميع. وبعد ذلك، قرّر ستوارت الفرار من المدرسة والتغيّب عن صفّه. وماري كانت منهارة كليّا... لكنّني آسفة ميندا، آسفة حقًا، كان يجدر بي أن أتّصل.»

«يا للسخافة!»، قالت بارميندر بصوت مختنق، طامرة وجهها خلف محرمة أخرجتها من كمّها.».. ماري... الأهمّ...»

«لكنت من الأشخاص الأوائل الذين يتّصل بهم باري»، ردّت تيسا بحزن. سيطر عليها ارتباك شديد حين شعرت بدموعها تنهمر بدورها.

«ميندا، إنّني آسفة، آسفة للغاية»، قالت وهي تشهق باكية، «لكن كان عليّ أن أهتمّ بكولين، وبكلّ الآخرين.»

«توقّفي عن قول السخافات»، قالت بارميندر. أخذت نفسًا عميقًا ومسحت وجهها النحيل. «إنّنا نتصرّف بحماقة.»

لا، لسنا نتصرّف بحماقة. بحق الله، لمرّة بارميندر، لمرّة واحدة أطلقي العنان لمشاعرك...

لكنّ الطبيبة قوّمت كتفيها، تمخّطت وسوّت قعدتها مجدّدًا.

«فكيرام هو الذي أخبرك؟» سألت تيسا بخجل، منتزعة حفنة من المحارم من العلبة الموضوعة على مكتب بارميندر.

«لا»، أجابت بارميندر. «هاورد موليسون، من محلّ الأطعمة، هو من فعل..»

«يا إلهي! ميندا، لا يمكن أن أعبّر لك عن مدى أسفي.»

«كفاكِ حماقات. كلّ شيء على ما يرام.»

شعرت بارميندر بأنّها أفضل حالًا بقليل بعدما بكت. في مطلق الأحوال، كانت أكثر ودًا حيال تيسا التي كانت تمسح بدورها وجهها الطيّب الخالي من أيّ تألّق. كانت هذه الصداقة بلسمًا لقلب بارميندر، الآن وقد رحل باري. تيسا كانت صديقتها الحقيقيّة الوحيدة في باغفورد. (تقول لنفسها على الدوام «في باغفورد»، وكأنّ لديها خارج حدود هذه البلدة الصغيرة مئات الأصدقاء الأوفياء. لم تعترف لنفسها يومًا بأنّ صداقاتها الوحيدة تقتصر على ذكريات زمرتها من رفاق المدرسة في بيرمنغهام، الذين فرّقت بينهم الحياة منذ زمن طويل، وزملائها في كليّة الطبّ الذين درست وتدرّبت إلى جانبهم والذين ما زالوا يرسلون لها بطاقات معايدة في عيد الميلاد غير أنّهم لم يقصدوها مرّة في زيارة، كما أنّها لم تزرهم يومًا هي أيضًا.)

«كيف حال كولين؟»

أطلقت تيسا أنين حسرة.

«آه ميندا... يا إلهي! يقول إنّه سيترشّح لمنصب باري في مجلس البلدة.»

ازداد الخطّ العمودي ما بين حاجبَي بارميندر الأسودين الكثيفين عمقًا حتّى بات مثل الثلم.

«هل تتصوّرين كولين يخوض انتخابات؟» سألت تيسا، مطبقة قبضتها بشدّة على المحارم المبلّلة. «أتتصوّرينه في مواجهة أمثال أوبري فاولي وهاورد موليسون؟ هو يجهد ليكون بمستوى باري، معلّلًا نفسه بأنّ عليه أن يخرج من المعركة منتصرًا من أجل باري.. كلّ هذه المسؤوليّة عبء...»

«كولين يتحمّل الكثير من المسؤوليّات في العمل»، قالت بارميندر.

«وبالكاد يتوصّل لذلك»، ردّت تيسا. لسانها سبق تفكيرها، وأحسّت على الفور بأنّها تطعن زوجها في ظهره، فعاودت البكاء. كان الموقف في غاية الغرابة.

فهي جاءت إلى العيادة اعتقادًا منها بأنّها ستقدّم العزاء لبارميندر، وها هي الآن تفاتحها بمخاوفها هي نفسها بدل أن تواسيها. «تعرفين كيف هو كولين، يتأثّر في العمق بكلّ ما يحصل من حوله، ويأخذ كلّ شيء على المحمل الشخصيّ...»

«أتعلمين؟ إنّه يتدبّر أمره بشكل ممتاز»، قاطعتها بارميندر، «خصوصًا في الظروف الراهنة.»

«آه، بالتأكيد»، قالت تيسا ملقية سلاحها، وقد فارقتها الرغبة في الجدال. «أعلم ذلك.»

كان كولين الشخص الوحيد تقريبًا الذي لا تتردّد ببارميندر إطلاقًا في التعاطف معه، متخطّية صرامتها المعهودة وتحفّظها الشديد. وفي المقابل، لا يسمح كولين بأن تقال كلمة واحدة بحقّها في حضوره. كان أشدّ مدافع عنها في باغفورد. «طبيبة ممتازة»، يقول بجفاف لكلّ من تسوّله نفسه أن ينتقدها أمامه. «أفضل طبيب صادفته في حياتي.» لم يكن هناك الكثير من المدافعين عن بارميندر. لم تكن تتمتّع بأيّ شعبيّة بين الحرس القديم في البلدة، الذي يأخذ عليها تلكّؤها في وصف المضادّات الحيويّة وتجديد الوصفات.

«إذا تمكّن هاورد موليسون من فرض ما يريده، لن تكون هناك انتخابات إطلاقًا»، قالت بارميندر.

«ماذا تعنين؟»

«لقد بعث برسالة إلكترونيّة إلى جميع الأعضاء. وصلت إليّ قبل نصف ساعة.»

استدارت بارميندر إلى شاشة الكمبيوتر، نقرت كلمة السرّ وفتحت بريدها الإلكترونيّ. أدارت الشاشة بحيث تتمكّن تيسا من قراءة رسالة هاورد. الفقرة الأولى كانت تعبّر عن الأسف لوفاة باري. ثمّ الثانية تلمّح إلى أنّه قد يكون من المستحسن، بما أنّ عامًا كاملًا من توكيل باري انقضى، أن يتمّ تعيين خلف له بالتوافق بدل تنظيم عمليّة انتخابيّة مكلفة.

«لقد حَسَم أمره واختار شخصًا محدّدًا للمنصب»، قالت بارميندر. «فهو يحاول التحرّك وفرض أحد المقرّبين منه قبل أن يتمكّن أيّ كان من منعه. لا أستبعد أن يكون اختار مايلز.»

«آه! لا، مستحيل!» قالت تيسا على الفور. «كان مايلز في المستشفى مع باري... لا، كان مصدومًا تمامًا.»

«كم إنّك ساذجة، تيسا» قالت بارميندر بنبرة لاذعة فاجأت تيسا. «لا تفهمين طبيعة هاورد موليسون. إنّه رجل قميء، رجل حقير. لم تسمعي ما قاله حين اكتشف أنّ باري كتب رسالة إلى الصحيفة عن حيّ الحقول. لا تعرفي ما يحاول القيام به بالنسبة لعيادة معالجة الإدمان. انتظري قليلًا، وسوف ترين.»

لم تنجح في إغلاق رسالة موليسون من المحاولة الأولى لشدّة ما كانت يداها ترتجفان.

«سوف ترين»، ردّدت. «حسنًا، علينا أن نباشر المعاينة، يجب أن تغادر لورا بعد قليل. سوف أفحص ضغط الدم أوّلًا.»

كانت بارميندر تسدي تيسا خدمة باستقبالها في مثل هذه الساعة المتأخّرة، بعد المدرسة. سوف تتكفّل الممرّضة العاملة في العيادة والمقيمة في يارفيل بأخذ عينة دم تيسا معها، وتسليمها إلى مختبر المستشفى في طريقها إلى منزلها. شعرت تيسا بنفسها متوتّرة وعلى قدر مدهش من الضعف، وهي ترفع كمّ معطفها الأخضر القديم. شدّت بارميندر الربطة عند ساعدها. يظهر شبه بارميندر القويّ بابنتها الصغرى جليًّا عن قرب، إذ لا يعود من الممكن تمييز الفرق في البنية بين بارميندر النحيلة مثل الخيط وسوكفيندر المكتنزة، بل يبرز التقارب في قسمات وجهيهما. الأنف العصفوريّ الشكل، الشفة السفلى الممتلئة والعينان العريضتان المستديرتان السوداوان. كانت الربطة المشدودة تؤلم ذراع تيسا المترهّلة، فيما بارميندر تراقب العدّاد.

«مئة وخمسة وستّون على ثمانية وثمانين، قالت بارميندر عاقدة حاجبيها. ضغط الدم مرتفع تيسا، مرتفع جدًا.»

أخرجت حقنة معقّمة من غلافها بحركة سريعة ودقيقة، شدّت ذراع تيسا الشاحبة المرصّعة بالشامات، ودسّت الإبرة في ثنية ساعدها.

«سوف أصطحب ستوارت إلى يارفيل غدًا مساءً لشراء بدلة للجنازة»، قالت تيسا، ناظرة إلى السقف. «لا يمكنني أن أحتمل الشجار الذي سيندلع إذا ما حاول الذهاب بسروال جينز. سوف يجنّ كولين.»

كانت تحاول ألّا تفكّر في السائل الداكن الغامض الذي ينساب في الأنبوب البلاستيكيّ الصغير. تخشى أن يفضحها دمها، أن يكشف أنّها لم تحترس كما ينبغي. تخاف أن تظهر كلّ ألواح الشوكولاتة وقطع الحلوى التي ابتلعتها على شكل سكّر ماكر في الدم.

ثمّ خطر لها أنّه لكان من الأسهل عليها بكثير أن تقاوم الشوكولاتة لو كانت في حياتها ضغوط أقلّ. كان هذا الخاطر مريرًا. فهي تقضي كل وقتها تقريبًا وهي تحاول مساعدة الآخرين، بعد ذلك، لا تعود الحلوى تبدو مؤذية جدًا. تمنّت، وهي تراقب بارميندر تلصق البطاقات على أنابيب ملأتها بدمها، أن ينتصر هاورد موليسون ويحول دون إجراء انتخابات، ولو أنّ مثل هذه الفكرة قد تبدو من باب الهرطقة في نظر زوجها وصديقتها.

5

يغادر سايمون برايس المطبعة في تمام الخامسة من كلّ يوم. حدّد دوامه بنفسه، ولا رجعة في ذلك. فالمنزل في انتظاره، نظيفًا ومرتّبًا، عند أعلى التلّة، كأنّ عالمًا يفصله عن طرطقة المصنع وهديره في يارفيل. إن تأخّر في المصنع بعد ساعة انتهاء عمله (مع أنّ سايمون بات الآن مديرًا، فهو لم يتخلّص يومًا من هواجسه الموروثة من الأيام التي كان فيها عاملًا متدرّبًا)، فسوف يكون ذلك بمثابة إقرار مشؤوم بأنّ لا حياة عائليّة له، بل أسوأ من ذلك، بأنّه يحاول مداهنة الإدارة العليا.

غير أن سايمون كان لديه في ذلك اليوم عمل يقضيه قبل العودة إلى المنزل. التقى سائق الرافعة الشابّ الذي يمضغ علكة باستمرار في موقف السيّارات، وانطلقا معًا عبر الشوارع المظلمة فيما الفتى يعطيه توجيهات حول الطريق الواجب سلوكها، وصولًا إلى حيّ الحقول. عبرا في طريقهما أمام المنزل الذي نشأ فيه سايمون. لم يكن رأى ذلك البيت منذ سنوات. والدته توفّيت ولم يلتقِ والده منذ كان في الرابعة عشرة من العمر، وهو لا يعلم أساسًا

في أيّ بقعة من الأرض يعيش. انقبض سايمون وشعر بالإحباط لرؤية منزله القديم وقد أُغلِقَت إحدى نوافذه بلوح خشبيّ واجتاحت الأعشاب البريّة فناءه. كانت والدته في الماضي تفتخر بمنزلها.

طلب الشابّ من سايمون أن يركن السيّارة في نهاية شارع فولي. ترجّل تاركًا سايمون خلف المقود، وتقدّم نحو مبنى بدا أكثر ترهّلًا وإهمالًا من سواه. لمح سايمون، على ضوء أقرب مصباح في الشارع، كومة من القمامة المكدّسة تحت إحدى نوافذ الطبقة الأرضيّة منه. تساءل لأوّل مرّة إن كان المجيء بسيّارته لتسلّم كمبيوتر مسروق فكرة سديدة. لا بدّ أنّ هناك الآن كاميرات مراقبة منصوبة في كل أرجاء الحيّ لمراقبة كلّ الأرذال الحقيرين وصغار الجانحين ذوي القلنسوات الذين ينتشرون في هذه الناحية. التفت من حوله، فلم يرَ أيّ كاميرات. لم يتهيّأ له أنّ أحدًا يراقبه، باستثناء امرأة بدينة كانت تحدّق إليه بوقاحة من إحدى النوافذ المربّعة الصغيرة الأشبه بكوّات سجن. عبس سايمون بوجهها، لكنّها لم تأبه، بل واصلت مراقبته وهي تنفث دخان سيجارتها، فأشاح بوجهه عنها، اخفى رأسه خلف يديه وراح ينظر من الزجاج الأماميّ.

ما هي إلّا دقائق حتى خرج الشابّ من المنزل، وعاد إلى السيّارة بمشية مرتبكة بعض الشيء، حاملًا علبة الكمبيوتر. لمح سايمون في مدخل المنزل الذي خرج منه فتاةً معها طفلٌ يتشبّث بقدميها. توارت فيما كان يراقبها، جارّةً الطفل معها.

أدار سايمون المفتاح وشغّل محرّك السيّارة بينما كان فتى العلكة يقترب منه.

«مهلًا»، قال سايمون وهو ينحني ليفتح باب الراكب إلى جانبه. «ضعه هنا، هكذا.»

ركّز الفتى العلبة على مقعد الراكب الذي كان لا يزال دافئًا. كان سايمون ينوي فتح العلبة والتحقّق من أن محتواها مطابق للبضاعة التي دفع ثمنها، لكنّ شعوره بأنّه ارتكب حماقة بقدومه إلى هنا كان يتفاقم، فطغى تخوّفه على فضوله. اكتفى بهزّ العلبة بضربة طفيفة. كانت ثقيلة، ما ينذر بصعوبة في حملها. لم يشأ التأخّر.

«هل يمكنك تدبّر أمرك إذا تركتك هنا؟» صاح للفتى بصوت عالٍ وكأنّه بات على مسافة منه.

«هل يمكنك أن تقلّني إلى فندق كرانوك؟»

«عذرًا صديقي، إنّني ذاهب في الاتّجاه المعاكس»، قال سايمون. «إلى اللقاء.»

انطلق مسرعًا. نظر في مرآته الخلفيّة، فرأى الشابّ مسمّرًا في مكانه. بدا غاضبًا، ورأى شفتيه تلفظان عبارة «اذهب إلى الجحيم!» لكنّ سايمون لم يكترث. كلّ ما كان يريده هو أن يبتعد بأسرع ما يمكن، قبل أن تصبح لوحة تسجيل سيّارته مطبوعة على أحد أشرطة المراقبة تلك المشوّشة بالأسود والأبيض التي يعرضونها أحيانًا على نشرات الأخبار.

بلغ مخرَج المدينة بعد عشر دقائق. لكنّ ذلك الإحساس بالتوتّر والانقباض لازمه حتّى بعدما غادر يارفيل وخرج من الطريق العام ذي المسلكين، متسلّقا التلّة نحو الدير المهجور. لا أثر في نفسه للشعور بالرضى والارتياح الذي يغمره عادة حين يبلغ قمّة الهضبة في المساء، فيتراءى له منزله في المقلب الآخر من الوادي الذي ترقد فيه باغفورد، مثل محرمة بيضاء صغيرة مفروشة على التلّة المقابلة.

لم تمض عشر دقائق على عودة روث إلى المنزل حتّى بدأت بإعداد العشاء. كانت تمدّ الطاولة حين دخل سايمون حاملًا الكمبيوتر. يتناولون الطعام باكرًا في هيلتوب هاوس، عملًا برغبات سايمون. أطلقت روث صيحات حماسة عند رؤية العلبة، ما نكّد زوجها. لم تكن تعي المشقّة التي لقيها لجلب الكمبيوتر . لم تدرك يومًا ما يواجهه من مخاطر لجلب أغراض بأسعار بخسة إلى المنزل. من جانبها، أحسّت روث بأنّ سايمون في مزاج عكر نكد غالبا ما ينذر بانفجار، فتعاملت مع هذا الوضع بالطريقة الوحيدة التي تحسنها، من خلال الثرثرة والدردشة بخفّة وإخباره عن نهارها، على أمل أن تزول العاصفة بعدما يتناول الطعام، بشرط ألّا يحصل في هذه الأثناء ما يزيده استياءً.

في تمام السادسة مساء، بعدما كان سايمون قد أخرج الكمبيوتر من علبته، ليكتشف أنّه لم يكن هناك كتيّب إرشاديّ، جلست العائلة حول مائدة العشاء.

بدا جليًا لآندرو أنّ والدته مشدودة الأعصاب، إذ كانت تسترسل في الكلام بكثير من الحميميّة ولكن من غير تسلسل منطقيّ، بصوت يفيض مرحًا مفتعَلًا. كانت تعتقد، على ما يبدو، ورغم التجارب المتكرّرة على مرّ السنين، بأنّها إذا ما أحلّت أجواء ودودة، فلن يجرؤ والده على إفسادها. سكب آندرو لنفسه حصّة من فطيرة الراعي التي تعدّها روث مسبقًا، ثمّ تُخرجها من الثلّاجة في المساء حين تعود من العمل، متجنّبا النظر إلى سايمون. كانت أمورٌ أهمّ من والديه تُشغل باله. فقد قالت له غايا بودين «مرحبًا» اليوم حين التقيا وجهًا لوجه أمام مختبر علم الأحياء. قالتها بشكل تلقائيّ عرضيّ، لكنّها لم تنظر إليه مرّة بعد ذلك طوال الحصّة الدراسيّة.

تمنّى آندرو لو كان يعرف المزيد عن الفتيات. لم يكن يومًا على علاقة حميمة بإحداهنّ، إلى حدّ أن يفهم كيف يعمل ذهنهنّ. تلك الثغرة الكبيرة في معرفته بالعالم من حوله لم تشغل باله كثيرًا، حتّى ذلك اليوم الذي صعدت فيه غايا على متن الحافلة المدرسيّة لأوّل مرّة، وأثارت في نفسه اهتمامًا حادًا. كان إحساسًا مختلفًا تمامًا عن الافتتان الذي يشعر به بصفة عامة حيال الجنس الناعم والذي يشتدّ سنة بعد سنة، يغذّيه ولَهٌ بالصدور الناشئة وبرباط حمّالات الصدر الذي يتراءى من تحت القمصان المدرسيّة البيضاء، وذهولٌ ممزوج ببعض الاشمئزاز حيال كلّ ما يمتّ إلى الحيض بصِلة.

كان لفاتس بنات خالات يأتين أحيانًا في زيارة. دخل آندرو مرّة الحمّام مباشرة بعد أجملهنّ، فوجد الغلاف الشفّاف لفوطة صحيّة مرميًا قرب سلّة أوراق الحمّام. ذلك الإثبات الماديّ الفعليّ على أنّ فتاة في جواره المباشر حائضة في هذا الزمان والمكان، كان له وقع صدمة عظيمة في ذهن إبن الثالثة عشرة، وكأنّه رأى مذنّبًا نادرًا. تمالك نفسه ولم يهرع إلى فاتس ليخبره بما رآه أو عثر عليه، وكم كان هذا الاكتشاف مثيرًا! بدل ذلك، التقط الغلاف البلاستيكيّ بين رؤوس أظافره ورماه على وجه السرعة في السلّة، ثم غسل يديه باندفاع وقوّة كما لم يغسلهما من قبل.

كان آندرو يقضي وقتا طويلًا ينقّب في صفحة غايا على موقع فيسبوك على الكمبيوتر المحمول. كان الأمر أكثر رهبة ممّا لو كانت أمامه فعلًا. يمضي

ساعات وهو يتفحّص صور الذين تركتهم خلفها في العاصمة. كانت قادمة من عالم آخر، لديها أصدقاء سود، أصدقاء آسيويون، أصدقاء يعجز عن لفظ أسمائهم. كانت هناك صورة لها في بدلة سباحة بقيت مطبوعة في ذهنه كاللهب، وصورة أخرى لها وهي تنحني صوب فتى داكن البشرة رائع الجمال. وجهه صافٍ لا تظهر عليه بثرات وتكسو ذقنه لحية خفيفة. استنتج آندرو، بعد التمعّن في كلّ الرسائل المنشورة على صفحتها، أنّه فتى في الثامنة عشرة من العمر يدعى ماركو دي لوكا. دقّق في الرسائل المتبادلة بين ماركو وغايا بتركيز مَن يسعى لفكّ رموز مشفّرة، بدون أن يتمكّن من أن يحسم ما إذا كانت العلاقة بينهما لا تزال مستمرّة أم إنّها انتهت.

غالبا ما كان تصفّح موقع فيسبوك يمتزج بالقلق، لأنّ سايمون كان يقتحم أحيانًا غرفة آندرو وشقيقه من دون سابق إنذار للتحقّق من المواقع التي يتصفّحانها. كان فهم سايمون لكيفيّة عمل الإنترنت محدودًا، وكان يشعر بريبة غريزيّة حيال الشبكة، باعتبارها الفضاء الوحيد الذي يتحرّك فيه ابناه بحرية وارتياح أكثر منه. كان سايمون يدّعي أنّ الهدف من دخوله عليهما بهذا الشكل كان التثبّت من أنّهما لا يسرفان في استهلاك رصيد الإنترنت، لكنّ آندرو كان على يقين بأنه مؤشّر إضافيّ على نزعة والده إلى السيطرة، وكان يبقي المُشيرة باستمرار في جوار علامة X، متأهّبًا دومًا لإغلاق الصفحة حين يكون ينقّب عن تفاصيل حول غايا على الإنترنت.

كانت روث مسترسلة في ثرثراتها، تتنقّل من موضوع إلى آخر، في محاولة غير مجدية لانتزاع جملة مفيدة من سايمون، وليس مجرّد قرقرات وهمهمات متبرّمة.

«آه!» صاحت فجأة، «نسيت أن أخبرك سايمون: تكلّمت مع شيرلي اليوم، أخبرْتُها أنّك قد تترشّح لعضويّة مجلس البلدة.»

صُعق آندرو لسماع ذلك، وكأنّه تلقّى لكمة في الصدر.

«سوف تترشّح لعضويّة المجلس؟» سأله آندرو من غير أن يفكّر.

رفع سايمون حاجبيه ببطء وأخذت إحدى عضلات حنكه تختلج في حركة عصبيّة.

«هل ترى مشكلة في ذلك؟» قال بصوت يقطر عدائيّة.

«لا، أبدًا»، كذب آندرو.

لا بدّ أن تكون هذه مزحة لعينة. أنت؟ تترشّح للانتخابات؟ سحقًا لا.

«بل يبدو لي أنّ ذلك يطرح لك مشكلة»، ردّد سايمون، محدّقًا إلى عينَي آندرو مباشرة.

«لا»، نفى آندرو خافضًا عينيه إلى طبق الفطيرة.

«ما المشكلة إن ترشّحت؟» تابع سايمون. لم يكن ليفوّت هذه المناسبة التي ستتيح له التنفيس عن توتّره في انفجار غضب.

«ليس هناك مشكلة. تفاجأتُ، هذا كلّ ما في الأمر.»

«كان يجدر بي ربّما أن أستشيرك قبل ذلك؟»

«لا.»

«آه! أشكرك جزيل الشكر.» كان فكّ سايمون الأسفل ناتئًا إلى الخارج، ما ينذر في غالب الأحيان بنوبة وشيكة. «هل عثرتَ على عمل بعد، أيّها الحقير الطفيليّ العديم الفائدة؟»

«لا.»

كانت عينا سايمون تتّقدان غضبا وهو يحدّق إلى آندرو، ممسكًا بشوكته معلّقة في الفضاء، وعليها قطعة باردة من الفطيرة. عاد آندرو إلى النظر في الطبق أمامه، حرصًا منه على عدم استفزاز والده. بدا أن ضغط الجوّ ارتفع في المطبخ. كان سكّين بول يقرقع على صحنه.

«سايمون»، قاطعته روث مجدّدا بصوت حادّ، مصمّمة على التظاهر بأنّ كلّ شيء على أفضل حالٍ إلى أن يصبح ذلك مستحيلًا تمامًا، «تقول شيرلي إنّ بوسعك العثور على المعلومات كاملةً على موقع المجلس على الإنترنت. فهم يشرحون هناك كيفية الترشح.»

لم يردّ سامون.

لزمت روث بدورها الصمت بعدما فشلت محاولتها الأخيرة. تخشى أن تكون تعرف السبب خلف مزاج سايمون النكد هذا. كان القلق يضنيها. روث امرأة قلقة بطبعها، لطالما كانت على هذا النحو، ولم يكن بوسعها السيطرة

على ذلك. وكانت على يقين بأنّ سايمون يجنّ جنونه حين يشعر بأنّها تنتظر منه أن يطمئنها. عليها ألّا تقول شيئا يفضح شعورها.

«سيم؟»

«ماذا؟»

«كلّ شيء على ما يرام، أليس كذلك؟ أعني بالنسبة للكمبيوتر؟»

كانت ممثّلة فاشلة تمامًا. حاولت التكلّم بنبرة هادئة، وكأنّها تتحدّث عن مسألة اعتياديّة، لكنّ صوتها كان حادًا مرتجفًا.

لم تكن هذه أوّل مرّة تدخل فيها أغراضٌ مسروقة بيتَهم. حتى إنّ سايمون وجد وسيلة للتلاعب بعدّاد الكهرباء، كما إنّه كان يقوم بصفقات جانبيّة صغيرة في المطبعة لكسب بعض النقود. كان كلّ ذلك يتسبّب لها بآلام في المعدة ويمنعها من النوم. لكنّ سايمون كان ينظر بازدراء إلى مَن لا يجرؤ على المجازفة والخروج عن المألوف. (وممّا جعلها تولع به منذ البداية هو أنّ ذلك الفتى الجامح والخشن الذي كان يعامل الجميع تقريبًا بفظاظة وعدائيّة واحتقار، بذل جهودًا لاجتذابها. أنّ ذلك الشاب الذي يصعب إرضاؤه اختارها هي دون سواها، لاعتبارها الوحيدة التي تليق به.)

«ما الذي تتكلّمين عليه بحقّ الله؟» قال سايمون بهدوء. انصرف اهتمامه عن آندرو ليتركّز الآن على روث، فرمقها بالنظره إيّاها، التي تقطر عدائيّة سامّة، بدون أن يرفّ له جفن.

«ما أعنيه أنّنا لن نواجه أيّ... أيّ متاعب بشأنه، أليس كذلك؟»

تملّكت سايمون رغبة جارفة في معاقبتها لحدسها بمخاوفه وتأجيجها، وإضافة قلقها إليها.

«حسنًا، لم أكن أعتزم البوح بالأمر»، قال ببطء، ممهلًا نفسه بعض الوقت لابتكار قصّة، «لكنّ الواقع أنّ بعض المشكلات اعترضت عمليّة السطو.» تسمّر آندرو وبول ناسيَين عشاءهما، وشخصا إلى والدهما. «تعرّض أحد الحرّاس الأمنيّين لضرب مبرح. لم أعلم بالأمر إلّا بعد أن فات الأوان. أملي الوحيد هو أن تنقضي المسألة بدون عواقب.»

شعرت روث بثقل على صدرها يمنعها من التنفُّس. كانت مصدومة بنبرته السويّة، الهادئة، وهو يتكلّم على عملية سرقة عنيفة. هذا ما يبرّر إذًا مزاجه السيّئ عند عودته إلى المنزل. هذا ما يفسّر كلّ شيء.

«لذلك، من الضروري ألّا يأتي أحد على ذكر الكمبيوتر إطلاقًا لأيّ كان»، ختم سايمون.

رمقهم الواحد تلو الآخر بنظرة شرسة متّقدة، كأنّما ليزرع في نفوسهم، بمجرّد قوّة شخصيّته، الإحساس بالمخاطر المحدقة بهم.

«لن نتفوّه بكلمة»، قالت روث همسًا.

تلك القصّة ألهبت مخيّلتها، فتراءت لها الشرطة تدقّ على الباب. تصوّرت سايمون موقوفًا، متهّمًا زورا بالتعدّي بواسطة سلاح، ومودَعًا السجن.

«سمعتما ما قاله والدكما؟» بادرت ابنيها همسًا. «لا تخبرا أحدًا بأنّ لدينا كمبيوترًا جديدًا.»

«من المفترض أن يكون كلّ شيء على ما يرام»، قال سايمون. «لا بدّ أن تجري الأمور بشكل جيّد. بشرط أن تصونوا لسانكم.»

ثمّ حوّل نظره عنهم، مركّزًا اهتمامه من جديد على الفطيرة. راحت روث تنقّل نظرها بين سايمون وابنيها. كان بول يدفع الطعام في صحنه بصمت. بدا خائفًا.

لكنّ آندرو لم يصدّق كلمة واحدة ممّا قاله والده.

يا لك من حقير لعين منافق. كل ما تريده هو أن تخيفها.

عند انتهاء العشاء، نهض سايمون وقال: «حسنا، لنرَ ما إذا كانت الآلة البغيضة تعمل على الأقلّ. أنت - نادى مشيرًا بإصبعه إلى بول - إذهب واجلبها من العلبة وضعْها بعناية، أكرّر: بعناية، على الطاولة الصغيرة. وأنت - قال مشيرًا إلى آندرو- أنت تحسن استخدام الكمبيوتر، صح؟ سوف تقول لي ما عليّ فعله.»

تقدّمهما سايمون إلى غرفة الجلوس. كان آندرو على يقين بأنّه يحاول الإيقاع بهما، بأنّه يريدهما أن يخفقا. بول الذي كان صغيرًا وعصبيًّا، قد يدع الكمبيوتر يسقط أرضًا. أمّا هو، آندرو، فسوف يرتكب هفوة بالتأكيد. في

المطبخ خلفهم، كانت روث تكدّس الصحون وسط قرقعة وجلجلة، بينما تزيل بقايا العشاء عن الطاولة. هي، على الأقل، باتت خارج خطّ النار المباشر.

ذهب آندرو لمساعدة بول على حمل القرص الصّلب.

«بوسعه القيام بذلك، ليس مخنّثًا إلى هذا الحدّ!» صاح سايمون غاضبًا.

تمكّن بول بأعجوبة من وضع الكمبيوتر على منضدته الصغيرة بدون أن يسقط من بين يديه المرتجفتين. ثمّ وقف مدلّيًا ذراعيه، قاطعًا الطريق على سايمون.

«تنحّ جانبا أيها الأبله الوضيع!» صاح به سايمون. ابتعد بول على وجه السرعة ووقف خلف الكنبة يراقب. اختار سايمون سلكًا كهربائيّا بشكل عشوائيّ وسأل آندرو: «أين أضع هذا؟»

في مؤخّرتك يا ابن السافلة.

«اعطني إيّاها وسوف...»

«سألتك أين أضع السلك اللعين!» زعق سايمون. «إنّك تدرس الكمبيوتر، ألا تفعل؟ إذا قل لي فقط أين أوصل السلك!»

انحنى آندرو من خلف الكمبيوتر. أعطى تعليمات خاطئة في بادئ الأمر لسايمون، لكنّه بعد ذلك وجد بالصدفة الوصلة المناسبة.

كانا على وشك الانتهاء عندما انضمّت إليهم روث في غرفة الجلوس. كان بوسع آندرو أن يدرك من نظرة خاطفة إليها أنّها لم تكن ترغب في أن يعمل الكمبيوتر، وأنّ كلّ ما تريده هو أن يرميه سايمون في مكان ما، لا يهمّ إن كان دفع ثمانين جنيهًا لقاءه!

جلس سايمون أمام الشاشة. وبعد عدّة محاولات عقيمة، تنبّه إلى أنّ الفأرة اللاسلكيّة فارغة من البطّاريّات الكهربائيّة. أَرسل بول على وجه السرعة من غرفة الجلوس إلى المطبخ لجلب بطّاريّات. حين عاد وناولها إلى والده، انتزعها سايمون من يده وكأنّه يخشى أن يحاول الهروب بها.

جلس سايمون مادّا لسانه بين صفّ أسنانه السفليّ وشفته، وذقنه ناتئ كالأبله، وأدخل البطّاريّات في المكان المخصّص لها، متظاهرًا ببذل مجهود

يفوق الطاقة البشريّة. كان يتّخذ دومًا ذلك التعبير الوحشيّ الفاقد صوابه، ليحذّر بأنّه وصل إلى حدود طاقته، تلك الحالة حيث لا يعود من الممكن أن يحاسَب عن أفعاله. تصوّر آندرو نفسه وهو يخرج تاركًا والده يتدبّر أمره وحيدًا، حارمًا إيّاه من الجمهور الذي يحتاج إليه لمواكبة نوبات غضبه. كان بوسعه حتّى أن يشعر بالفأرة تصدمه خلف أذنه فيما يستدير في مخيّلته ويخرج.

« ادخلي... في... مكانك... اللعين!»

بدأ سايمون يصدر ذلك الصوت البهيميّ المخنوق الذي يتفرّد به، والذي يترافق دوما مع وجه يقطر سمًّا وعدائيّة.

«ااااهههمم... هاااامم.. سلك لعين سافل! هيّا، أَدخِل أنت هذا الشيء اللعين! أنتَ! لديك أصابع فتاة صغيرة بلهاء!»

صفق سايمون الفأرة والبطاريّات في وسط صدر بول. كانت يدا الفتى ترتجفان وهو يُدخل البطاريّات الصغيرة في المكان المخصّص لها. أغلق الغطاء البلاستيكيّ فوقها ومدّ الفأرة لوالده.

«شكرًا بوليتا!» قال والده ساخرًا.

كان ذقن سايمون لا يزال ناتئًا وكأنّه من رجال الكهوف. عادة ما كان يتصرّف وكأنّ الأغراض الهامدة لديها روح تتآمر عليه لتغيظه. عاد ووضع الفأرة على بساطها الصغير.

فلتعمل بحقّ السماء.

ظهر سهم أبيض صغير على الشاشة، راح يتراقص بخفّة استجابة لأوامر سايمون.

تبدّد طوق الخوف الذي كان يحاصر جمهور سايمون من المشاهدين الثلاثة، وغمرهم إحساس بالانفراج. غابت سمات رجل الكهوف عن وجه سايمون. تراءى لآندرو صفّ من اليابانيّين واليابانيّات في معاطف بيضاء - الرجال والنساء الذين قاموا بتجميع تلك الآلة المتقنة - بأصابعهم الرقيقة والرشيقة الشبيهة بأصابع بول. كانوا ينحنون أمامه بوقار وتمدّن، فيعطيهم وعائلاتهم بركته الصامتة. لن يعرفوا يومًا كم من الأمور كانت متوقّفة على نجاح تشغيل هذه الآلة تحديدًا دون سواها.

انتظرت روث مع آندرو وبول بانتباه وتركيز حتّى ينتهي سايمون من اختبار الكمبيوتر. فتح قائمة الأوامر، ثمّ وجد صعوبة في التخلّص منها، نقر على أيقونات لم يكن يعرف وظيفتها، وأطرق حائرًا إزاء النتيجة، لكنّ الأمر المؤكّد كان أنّه هبط من قمم الغضب الخطيرة. تدبّر أمره للعودة بكثير من المشقّة إلى قائمة التطبيقات، فنظر إلى روث قائلًا: «يبدو أنّه يعمل جيّدًا، أليس كذلك؟»

«إنّه ممتاز!» أجابت على الفور، مفتعلة ابتسامة، وكأنّ نصف الساعة الأخيرة لم تكن، وكأنّه اشترى الكمبيوتر من متاجر ديكسونز وأوصله بعيدًا عن التهديد والوعيد. «إنّه أسرع، سايمون! أسرع بكثير من الكمبيوتر السابق.»

لم يدخل إلى الإنترنت بعد، أيّتها الحمقاء.

«أجل، هذا ما تهيّأ لي أيضًا.»

نظر شزرًا إلى ابنيه.

«إنّه جديد، وثمنه باهظ، عليكما أن تستخدماه بكثير من المراعاة والرهافة، مفهوم؟ ولا تخبرا أيًا كان بأمره»، أضاف في انتفاضة مكر أخيرة أثارت ارتعاشة خوف مجدّدا في القاعة. «اتّفقنا؟ فهمتما ما أقوله؟»

هزّا رأسيهما مرّة جديدة. كان وجه بول متوتّرًا مقطّبًا. رسم على ساقه، خلسة عن والده، وبطرف سبابته الرقيق، رقم ثمانية.

«وليغلق أحدكم هذه الستائر اللعينة. لماذا لا تزال مشقوقة؟»

لأنّنا كنّا واقفين هنا جميعًا منهمكين في مشاهدتك وأنت تتصرّف ببلاهة.

أغلق آندرو الستائر وخرج من الصالون.

لم يتمكّن آندرو من الاستغراق مجدّدًا في تأمّلاته العذبة حول غايا بودين، حتّى بعدما عاد إلى غرفته وتمدّد في سريره. فقد كان احتمال ترشّح والده لعضويّة المجلس يلوح أمامه مثل جبل جليديّ هائل منبثق من لا مكان، يلقي بظلّه القاتم على كلّ شيء، حتّى على غايا.

لا يذكر آندرو والده سوى أسير ازدرائه للآخرين. فهو جعل بيته حصنًا منيعًا على العالم، يفرض فيه قانونه الخاصّ وتعيش فيه عائلته كلّ يومٍ على وقع مزاجه المتقلّب. أدرك أندرو، سنة بعد سنة، أنّ تلك العزلة شبه التامّة

لم تكن شائعة بين العائلات بشكل عام، وباتت مصدر إحراجٍ طفيف له. كان أهالي رفاقه يسألونه أين يقيم، عاجزين عن تحديد موقع عائلته على خارطة باغفورد. كانوا يطرحون أسئلة عرضيّة، عمّا إذا كان أيّ من والديه يعتزم الحضور إلى حدث اجتماعيّ ما أو المشاركة في حفل لجمع التبرّعات. بعضهم كان يذكر روث من سنوات الصفوف الابتدائيّة، حين كانت الأمّهات يتبادلن الحديث في الملعب. كانت اجتماعيّة أكثر من سايمون بكثير. لو لم تتزوّج مثل هذا الرجل المعادي للمجتمع، لكانت الآن شبيهة بوالدة فاتس، تلتقي أصدقاء لتناول الغداء أو العشاء، تخالط سكّان البلدة، ولديها دومًا ما تفعله.

في المناسبات النادرة التي كان سايمون يقابل فيها أشخاص، يشعر بأنّه قد يجني منهم فائدة إذا ما تودّد إليهم، كان يتقمّص شخصيّة زائفة، شخصيّة رجل صادق ودود، تثير اشمئزاز آندرو. فكان يقاطعهم ليتكلّم، يروي نكات خرقاء ويرتكب عن غير قصد هفوات قد تجرح أحاسيسهم، سواء عن جهل بكلّ ما يتعلّق بهم، أو عن قلّة اكتراث لهم. حتّى إنّ آندرو تساءل مؤخّرًا إن كان سايمون يعتبر أصلًا أنّ البشر الآخرين موجودون فعلًا.

ما الذي بعث في والده ذلك التطلّع إلى لعب دورٍ أكبر والخروج إلى الواجهة؟ ذلك يبقى سرًّا لا يمكن لآندرو سبره، لكن الأمر الأكيد هو أنّ كارثة محتومة في انتظارهم.

كان آندرو يعرف أهالي تلاميذ آخرين، أشخاصًا من النوع الذي ينظّم جولات على الدرّاجات لجمع الأموال وشراء أضواء عيد الميلاد الجديدة في ساحة البلدة، أو يهتمّ بأنشطة الكشّافة، أو يقيم نوادي المطالعة. لم يكن سايمون يقوم بأيّ نشاط يتطلّب تعاونًا مع الآخرين، ولم يبد يومًا أدنى اهتمام في أيّ شيء لا يعود عليه بالفائدة بشكل مباشر.

تراءت في ذهن آندرو الهلع مشاهد مروّعة. رأى سايمون يلقي خطابًا مرصّعًا بتلك الأكاذيب الفاضحة التي يخدع بها زوجته يوميًا. سايمون يُخرِج وجه رجل الكهوف الذي يبرع فيه، في محاولة لترهيب الخصم. سايمون يفقد السيطرة على أعصابه، ويمطر جمهورًا كاملًا بوابل من شتائمه المعتادة عبر مكبّر الصوت: أبناء السفلة، مخنّثون، اللعنة عليكم، أنذال...

جذب آندرو الكمبيوتر المحمول إليه، لكنّه عاد وأبعده عنه على الفور. لم يقم بأي حركة لتناول هاتفه الجوّال عن مكتبه. لم يكن بوسعه التعبير عن مدى قلقه وخزيه في رسالة نصيّة أو إلكترونيّة. شعر بنفسه وحيدًا في مواجهة مشاعره. حتّى فاتس لم يكن بوسعه فهم ذلك. لم يكن يدري ماذا عساه يفعل.

الجمعة

نُقل جثمان باري فيربراذر إلى الحانوتيّ. الجروح العميقة السوداء في جلد رأسه الأبيض كانت أشبه بالأخاديد التي تتركها الزلّاجات على سطح الجليد، يخفيها شعره الكثّ. كان جثمانه مسجّى في صالون التعازي، باردًا وفارغًا مثل قناع من الشمع، وقد كُسيَ بالملابس التي كان يرتديها في عشاء عيد زواجه. كانت أضواء خافتة تبعث نورها المبهم في الصالة، فيما تنبثق موسيقى هادئة. بعض اللمسات الخَفِرة من مستحضرات التجميل أعادت إلى وجه الميت بريقًا يشبه الحياة. بدا وكأنّه نائم، لكن ذلك هو مجرّد انطباع.

حضر شقيقا باري وأرملته وأولاده الأربعة إلى الصالون لإلقاء نظرة الوداع على الجثمان عشيّة دفنه. ظلّت ماري حتّى اللحظة الأخيرة متردّدة، لا تدري إن كان يجدر بها السماح للأولاد الأربعة برؤية الجثّة. ديكلان كان فتى حسّاسًا، تراوده الكوابيس في نومه. كانت في خضمّ هذه التأمّلات الأليمة بعد ظهر يوم الجمعة حين وقع حادث مؤسف.

قرّر كولين «أبو خزانة» وول أنّه يودّ هو أيضًا إلقاء التحيّة الأخيرة على جثّة باري. غالبًا ما كانت ماري تبدي دماثة وتجاوبًا، لكنّها وجدت هذه المرّة أنّ في مثل هذا الطلب مبالغة. احتدّت وارتفع صوتها وهي تكلّم تيسا على الهاتف، ثم عاودت البكاء مجدّدًا، موضحةً أنّها لم تكن تخطّط لموكب كبير يشيّع باري إلى مثواه الأخير، وأنّ الدفن شأن عائليّ حصرًا... قدّمت تيسا

اعتذاراتها وأبدت أسفها الشديد، مؤكّدة أنّها تتفهّم تمامًا، وتُرِك لها بعد ذلك أن تشرح الأمر لكولين الذي تقوقع في صمتٍ مجروح قاتل.

كلّ ما كان كولين يريده هو الوقوف وحيدًا لدقائق إلى جانب جثمان باري وتأدية تكريم صامت لرجل احتلّ موقعًا فريدًا في حياته. كان كولين قد أسرّ لباري بحقائق وأسرار لم يعترف بها لأي صديق من قبل، ولم يتوقّف باري يومًا عن النظر إليه بحرارة ومودّة بعينيه البنيّتين المتّقدتين مثل عيني طائر شرشور صغير. كان باري أقرب صديق عرفه كولين في حياته، ذلك الإحِساس بالرِّفقة والتضامن بين الرجال منحه إحساسًا لم يعرفه قبل انتقاله إلى باغفورد، ولن يجده في ما بعد - إنّه واثق من ذلك. أن يكون هو كولين، الدخيل أبدًا، الغريب الأطوار الذي يعيش حياته وكأنّها معركة يوميّة، نجح في إقامة صداقة مع باري المتفائل الأبديّ، المرح والواسع الشعبيّة، فتلك بمثابة معجزة صغيرة. تسلّح بكرامته المجروحة، أقسم ألّا يحتفظ بأي ضغينة حيال ماري، وقضى ما تبقّى من النهار يتأمّل في ما كان بالتأكيد سيشعر به باري من ذهول وألم حيال تصرّف أرملته.

على مسافة ثلاثة أميال من باغفورد، في منزل ريفيّ صغير جميل يُعرف باسم سميثي، كان غافين هيوز يسعى جاهدًا لطرد إحساس متزايد بالغمّ يحاصره. اتّصلت به ماري في وقت سابق وأخبرته بصوت متهدّج كيف إنّ الأطفال الأربعة طرحوا أفكارًا للجنازة في اليوم التالي. سيوبان، التي كانت زرعت زهرة دوّار شمس، ستقصّها وتضعها فوق النعش. الأربعة كتبوا رسائل سوف يودعونها داخل النعش مع جثمان والدهم. ماري نفسها كتبت أيضًا رسالة ستخبئها في جيب قميص باري، فوق قلبه.

أغلق غافين الخطّ، وهو على وشك أن يُصاب بالإغماء. لم يكن يودّ أن يعلم برسائل الأولاد، ولا بزهرة دوّار الشمس التي اعتنت بها الفتاة لتنبت. غير أنّ هذه التفاصيل لم تكن تفارق فكره وهو جالس وحيدًا إلى طاولة المطبخ يتناول طبقًا من اللازانيا. لكان فعل أيّ شيء لتفادي قراءة تلك الرسالة، غير أنّه كان يفكّر فيها باستمرار، محاولًا تصوّر ما كتبته ماري فيها.

في غرفة نومه، تتدلّى بدلة سوداء معلّقة في كيس مصبغة مثل ضيف غير مرغوب فيه فرض نفسه. ثمّن، في بادئ الأمر، لماري الشرف الذي خصّته به، إذ اعتبرته علنًا من أقرب المقرّبين إلى باري، صديقه المحبوب من الجميع، إلّا أنّ هذا التقدير سرعان ما طغى عليه الهلع. راح هذا الذعر يتفاقم في نفسه إلى حدّ أنّه شعر، وهو واقف أمام المجلى يغسل صحنه، بأنّه لكان تخلّف بكلّ سرور عن المأتم أساسًا. أمّا فكرة إلقاء نظرة أخيرة على جثّة صديقه، فهي فكرة لم تخطر له ولما كانت خطرت له في أيّ من الأيّام.

في الليلة السابقة، دخل في شجار عنيف مع كاي، ولم يكلّمها منذ ذلك الحين. اندلع الشجار حين سألته إن كان يريدها أن ترافقه إلى الجنازة.

لم يتمالك غافين نفسه وصاح: «بربّك، لا أبدًا!»

رأى التعبير الذي ارتسم على وجهها، وأدرك على الفور أنّها فهمت من كلامه ما يلي: بربّك لا، سوف يعتقد الجميع أنّنا في علاقة. قطعًا لا! ما الذي يجعلك تعتقدين أنّني أريدك شريكة لي؟ وبالرغم من أنّ هذا كان تحديدًا ما يشعر به في قرارة نفسه، إلّا أنّه حاول تفادي المشكل بالكذب والمراوغة.

«أعني أنّكِ لم تكوني تعرفينه، أليس كذلك؟ سوف يبدو الأمر غريبًا، صحّ؟»

لكنّ كاي كانت قد فقدت صوابها. حاولت أن تحشره في الزاوية، أن ترغمه على أن يقول لها ما يشعر به حقيقة، ما يريده، وكيف يرى مستقبلهما. قاوم هجماتها، مستخدمًا كلّ الأسلحة التي في حوزته، فعمد إلى البلادة والمناورة، ثمّ الالتباس والتملّص، وأخيرًا الإطناب والتحذلق. أمر عجيب كيف أنّ بوسع المرء أن يتجنّب الخوض في المسائل العاطفية عبر التظاهر بالبحث عن الدقّة في التعبير. في نهاية المطاف، طردته من منزلها. امتثل لها، لكنّه كان يعلم أنّ المسألة لن تتوقّف عند هذا الحدّ، وأنّ مثل هذا التفاؤل في غير محلّه. نظر غافين إلى وجهه في زجاج نافذة المطبخ، كان بائسًا مُتعبًا. بدا له وكأنّ المستقبل الذي سُلب من باري يلقي بظلّه على حياته هو، مثل جرف صخريّ شاهق. راوده إحساس بالذنب. شعر بأنّه عديم الفائدة، لكنّه رغم ذلك، تمنّى لو تحزم كاي أمتعتها وتعود إلى لندن.

هبط الليل على باغفورد، وفي منزل أولد فايكريج، كانت بارميندر جاواندا تستعرض ما لديها من ثياب وتتساءل أيّ ملابس يمكن أن ترتديها في وداع باري. كان لديها العديد من الفساتين والبدلات الداكنة، جميعها مناسِبة لمثل هذا الظرف، لكنّها، رغم ذلك، واصلت تفحّص الملابس المعلّقة في خزانتها ذهابًا وإيّابًا، حائرة في أمرها.

ارتدي الساري، سوف تغيظين شيرلي موليسون. هيّا، البسي الساري.

كانت تلك فكرة في غاية الحماقة، فكرة مجنونة وغير لائقة. بدت لها أسوأ حينِ تخيّلتها بصوت باري. باري مات. مضت خمسة أيّام تقريبًا، وهي في أسى ومرارة لخسارته، وغدًا يوارى الثرى. كان قلب بارميندر يعتصر ألمًا لهذه النهاية المقيتة. لطالما وجدتها مقيتة، فكرة الأسر، الحجز، فكرة جسد مطمور بكليّته تحت الأرض، يتحلّل ببطء، تتآكله الديدان والذباب. ديانة السيخ توصي بحرق الجثمان وتبديد رماده في مجرى مائيّ.

جالت بعينيها بين الملابس المعلّقة في الخزانة، لكنّها كانت مشدودة إلى مشالح الساري التي كانت تلبسها في بيرمينغهام لحضور حفلات الزفاف العائليّة ولقاءات الأصدقاء. من أين جاءتها تلك الحاجة الغريبة لارتداء واحد منها؟ بدا الأمر من قبيل الاستعراض والاستثارة، ولم يكن ذلك من أطباعها. مدّت يدها وتلمّست طيّات الساري المفضّل لديها، ساري أزرق داكن وذهبيّ. آخر مرّة ارتدته كان في حفل رأس السنة عند باري وماري، حين حاول باري أن يدرّبها على رقصة السوينغ. باءت تلك التجربة بفشل ذريع، لا سيّما وأنّه لم يكن هو نفسه يعلم ما يفعل، لكنّها تذكر أنّها ضحكت كما لم تفعل في حياتها، ضحكت بجنون مطلق خارج عن السيطرة، كما شاهدت سكارى يضحكون أحيانًا.

الساري لباس أنيق وفاتن، يراعي النساء في متوسّط العمر، فيخفي السمنة التي تضيفها السنوات إلى قاماتهنّ. والدة بارميندر ترتدي الساري يوميًا، وهي في الثانية والثمانين. لم تكن بارميندر شخصيًا بحاجة إلى مزايا الساري هذه تحديدًا، فهي احتفظت بقدّ فتاة في العشرين. لكنّها، رغم ذلك، أخرجت المشلح الطويل الداكن المصنوع من القماش الرقيق، وألصقته

بجسدها من فوق مبذلها. تهدّل على طوله حتّى لامس قدميها العاريتين، فارشًا أمام عينيها تطريزه الرقيق. إذا ارتدته، سوف يكون ذلك بمثابة غمزة ممازحة لباري، تكريمًا لكل النكات الخاصة بهما، مثل المنزل ذي وجه البقرة، وكلّ الأمور الطريفة التي لطالما قالها باري عن هاورد، وهما يخرجان من اجتماعات المجلس الطويلة المملّة الخالية من أيّ فكاهة.

أحسّت بارميندر بعبء فظيع يضغط على صدرها. لكن، ألمْ يوصِ كتاب «غورو غرانت صاحب» المقدّس أصدقاء الموتى وأقرباءهم بعدم البكاء على أحبّائهم، بل بالاحتفاء باتّحادهم بالله؟ أنشدت بارميندر في صمت قلبها ترنيمة «كيرتان سوهيلا»، صلاة المساء، جاهدة لكبت الدموع التي كانت على وشك أن تفضح ضعفها:

أناشدك صديقي، أناشدك بأن هذه هي الفرصة الملائمة لخدمة الأولياء.
اجنِ الرضى الإلهيّ في هذا العالم وانعم بالسلام والهناء في الآخرة.
الحياة نهار وليل يقصران أبدًا.
أيّتها الروح، اذهبي لملاقاة المرشد ورتّبي أمورك...

ممدّدة في سريرها في الغرفة المعتمة، كان بوسع سوكفيندر أن تسمع ما يفعله كلٌّ من أفراد عائلتها. من تحت غرفتها مباشرة، تردها همهمة التلفزيون البعيدة، تتخلّلها ضحكات مكبوتة يطلقها شقيقها ووالدها فيما يشاهدان أحد البرامج الهزليّة التي تبثّ ليلة الجمعة. كانت تميّز، في الطرف الآخر من الممشى، صوت شقيقتها الكبرى تتكلم عبر هاتفها الجوّال مع أحد أصدقائها الكثيرين. وبالقرب منها، كانت والدتها في الجهة الأخرى من الجدار منهمكة في الخزانة، مصدرة أصوات طرطقة وجرجة.

كانت سوكفيندر أغلقت الستائر فوق نافذتها وسندت أسفل الباب بوسادة طويلة خاصّة على شكل كلب طويل كالنقانق لمنع الهواء من الدخول. لم يكن بابها مجهّزًا بقفل، فكان الكلب الطويل يعيق حركته ويعطيها إنذارًا بأنّ أحدهم قادم. هذا لا يعني أنّها كانت تتوقّع أن يتفقّدها أحد. فهي في

المكان الذي ينبغي أن تكون فيه، تفعل ما ينبغي أن تفعله. أو على الأقلّ، هذا ما كانوا يظنّون.

قامت للتوّ بواحد من طقوسها اليوميّة المضنية: فتحت صفحتها على موقع فيسبوك، ومحت رسالة جديدة من مرسِل لم تكن تعرفه. كلّما كانت تحظّر الشخص الذي كان يمطرها بمثل هذه الرسائل، كان يبدّل هويّته ويرسل المزيد منها. لم تكن تدري متى ستظهر رسالة جديدة. اليوم تلقّت صورة بالأسود والأبيض، نسخة عن ملصق من القرن التاسع عشر كتب عليه بالفرنسيّة: «المرأة الملتحية الحقيقيّة، الآنسة آن جونز إليوت.» كانت صورة امرأة ترتدي فستانًا مخرّمًا، شعرها أسود طويل وتجتاح وجهها لحية طويلة وشاربان كثّان.

كانت واثقة بأنّ فاتس وول هو مَن يرسل كلّ ذلك، لكن من المحتمل أيضًا أن يكون شخص آخر. داين تالي ورفاقه مثلًا، الذين يصدرون نخيرًا خافتا يشبه أصوات القرود كلّما تكلّمت في صفّ الأدب الانكليزيّ. لكانوا فعلوا ذلك بأيّ تلميذ بلون بشرتها، فلم يكن هناك الكثير من ذوي البشرة الداكنة في وينترداون. كان ذلك يشعرها بالغباء والذّل، خصوصًا وأنّ السيّد غاري لم يأمرهم مرّة بالتوقّف، بل كان يتظاهر بعدم سماعهم، أو بأنّ ما يسمعه مجرّد ثرثرة لا يميّز منها شيئًا. ربّما كان هو أيضًا يعتقد أن سوكفيندر جاواندا قرد، قرد مُشعِر.

تمدّدت سوكفيندر على ظهرها فوق أغطية سريرها، وتمنّت من كلّ قلبها لو كانت ميتة. لو كان بوسعها الإقدام على الانتحار، بمجرّد أن ترغب في ذلك، لكانت فعلت بدون أيّ تردّد. الموت حصد السيّد فيربراذر، فلِم لا يحصدها هي؟ بل أفضل من ذلك، لِم لا يمكنهما تبادل موقعيْهما؟ عندها تستعيد نيام وسيوبان والدهما، بينما تنساب هي في اللاوجود، الزوال، الامّحاء بدون ترك أثر.

اشمئزازها من نفسها كان مثل رداء من العلّيق، يخز كلّ خليّة من خلايا جسدها فيحرقها بوخزه. كان يتحتّم عليها أن تكابد وترغم نفسها، دقيقة بعد الأخرى، على الجمود والتحمّل، حتّى لا تهرع إلى القيام بالشيء الوحيد الذي يريحها. كان يتحتّم عليها الانتظار حتّى تصبح العائلة بأكملها في الأسرّة، وعندها يصبح بوسعها التصرّف. لكنّ بقاءها على هذا النحو، ممدّدة

على السرير، منصتة لأنفاسها، متيقّنة للثقل العديم الفائدة لجسدها الشنيع المقزّز، كلّ ذلك كان مضنيًا كالاحتضار. يحلو لها أن تتصوّر نفسها تغرق، تغوص في مياه خضراء باردة، تشعر بنفسها مدفوعة شيئًا فشيئًا نحو العدم...

الخنثى الأعظم يجلس هامدًا جامدًا...

ممدّدة في الظلمة، أحسّت بالعار يسري على كامل جسدها مثل طفرة ملتهبة. لم تكن سمعت يومًا بتلك الكلمة قبل أن يتلفّظ بها فاتس وول الأربعاء في صفّ الرياضيّات. لما كانت تمكّنت من البحث عن معناها في القاموس، فهي تعاني عسر القراءة. غير أنّها لم تكن بحاجة إلى ذلك، لأنّه أكمل معروفه وأعطاها المعنى بنفسه.

مخلوق مشعر، نصف رجل ونصف امرأة...

كان أسوأ بكثير من داين تالي الذي كان معجم نعوته الساخرة محدودًا. فاتس وول كان له لسان أفعى، يبتكر، كلّما رآها، وسائل غير مسبوقة للتعذيب مصمَّمة على مقاسها، ولم يكن بوسعها صمّ أذنيها. كلّ شتائمه ونعوته كانت محفورة في ذاكرتها، مطبوعة في ذهنها أكثر من أيّ حقيقة مفيدة. لو كان من الممكن أن تخضع لامتحان حول كلّ النعوت التي أطلقها عليها، لكانت حصلت على أوّل نتيجة ممتازة في حياتها. شاربان ونهدان، خنثى، المعتوهة الملتحية.

مشعرة، سمينة وحمقاء. قبيحة وخرقاء. كسولة، بحسب والدتها التي كانت تمطرها يوميًا بالانتقادات والملاحظات الغاضبة. بطيئة بعض الشيء، بحسب والدها الذي كان يقولها بعطف لا ينجح في إخفاء قلّة الاهتمام. لم يكن يجد صعوبة في تقبّل نتائجها المدرسيّة السيّئة برحابة صدر، فهو يجد عزاءه في جاسوانت وراجبال، اللذين لطالما كان كلّ منهما الأوّل في أيّ صفّ تابَعه..

«أيتها الفتاة الصغيرة المسكينة!»، كان فيكرام يردّد بإهمال كلّما ألقى نظرة على نتائجها المدرسيّة.

غير أنّ قلّة اكتراث والدها كانت أسهل عليها من غضب والدتها. فقد كانت بارميندر تبدو عاجزة عن تفهّم أو تقبّل فكرة أنّها أنجبت طفلة غير

متفوّقة. كانت تتلقّف أدنى تلميح يبدر عن أيّ من أساتذتها بأنّه يجدر بها بذل مجهود أكبر، لتسجّل نقطة ضدّ الفتاة، كمن حقّق انتصارًا.

«سوكفيندر تستسلم بسهولة، عليها أن تؤمن أكثر بقدراتها.»

«أرأيتِ؟ هذا هو بيت القصيد. أستاذك يقول إنّك لا تبذلين جهدًا كافيًا، سوكفيندر.»

حتى المادّة الوحيدة التي نجحت سوكفيندر بالانتقال فيها إلى مستوى المجموعة الثانية، وهي مادّة الكمبيوتر - لم يكن فاتس وول مشاركًا في هذا الصفّ، وبالتالي كانت تجرؤ أحيانًا على رفع يدها للردّ على بعض الأسئلة - لم تستدعِ من بارميندر أكثر من ملاحظة مقتضبة تنكر فيها أيّ إنجاز لابنتها: «بعد كلّ الوقت الذي تقضونه أنتم الأولاد على الإنترنت، أرى من المدهش ألّا تكوني في المجموعة الأولى.»

لما كان خطر يومًا لسوكفيندر أن تخبر أيًا من والديها عن نخير القرود، ولا عن مضايقات ستوارت وول المتواصلة. فذلك سيعني إقرارًا منها بأنّ الآخرين من خارج عائلتها يرونها أيضًا عديمة الفائدة وفاشلة. وفي مطلق الأحوال، كانت والدة ستوارت وول صديقة لبارميندر. كانت سوكفيندر تتساءل أحيانًا كيف أنّ ستوارت وول لم يكن يكترث لتلك الصداقة بين والديهما، لكنّها استخلصت أنه كان واثقًا بأنّها لن تشي به. كان يقرأ في نفسها كما في كتاب مفتوح. يرى أنّها جبانة، كما يكشف أسوأ الأفكار التي تراودها عن نفسها، ويعبّر عن كلّ ذلك بنكات ساخرة تثير ضحك آندرو برايس. كان آندرو برايس يعجبها في فترة ما، لكنّ ذلك كان قبل أن تدرك أنّها غير مؤهّلة لأن تُعجَب بأيّ كان، قبل أن تدرك أنّها مخلوق شاذّ مثير للضحك.

سمعت سوكفيندر صوت والدها وراجبال يقترب فيما يصعدان الدرج. ارتفعت قهقهات راجبال حين وصل أمام باب غرفتها مباشرة.

سمعت والدتها تنادي من غرفتها «الوقت متأخّر. فيكرام، يجدر بابنك أن يكون في سريره في مثل هذا الساعة».

ثمّ سمعت صوت والدها عاليًا ودافئًا من خلف الباب، قريبًا منها:»سنونو! هل أنتِ نائمة؟»

كان ذلك هو اللقب الذي أُطلق عليها في طفولتها بشيء من السخرية. جاسوانت كانت تدعى جازي، وسوكفيندر التي كانت طفلة متذمّرة قلّما تبتسم وكثيرًا ما تبكي، أصبحت سنونو.

«لا، أجابت سوكفيندر. أويت إلى الفراش للتوّ.»

«حسنًا، قد يهمّك أن تعرفي أنّ شقيقك...»

لكنّه لم يتسنّ لها أن تعرف ما فعل شقيقها، إذ طغت احتجاجاته وضحكاته على صوت والدها. سمعت فيكرام يبتعد، وهو لا يزال يغيظ راجبال ويمازحه.

انتظرت سوكفيندر حتّى عمّ الصمت المنزل. كانت تتمسّك بفكرة هذا العزاء الأخير، كمن يتشبّث بدولاب نجاة. تنتظر، تنتظر حتّى يخلد الجميع إلى النوم...

(فيما كانت تنتظر، تذكرت إحدى الليالي، منذ وقت غير بعيد، عند انتهاء إحدى جلسات تدريب فريق التجذيف النسائي. كنّ يمشين نحو موقف السيّارات، بمحاذاة القناة في ظلمة المساء. تشعر بتعب عظيم بعد التدريب. الذراعان، المعدة، كلّ العضلات تؤلم، لكنّ ذلك كان ألمًا صحّيًا، لذيذًا. كانت تنام دائمًا نومًا عميقًا بعد التجذيف. ثم فجأة نعتتها كريستال، التي كانت تمشي بمحاذاتها في مؤخّرة الموكب بـ«العاهرة الباكيّة الحمقاء». خرجت تلك العبارة من لا مكان، بشكل مفاجئ تمامًا. كان الجميع يمازح السيّد فيربراذر، وظنّت كريستال أنّها ظريفة. كانت تحشر في كلّ ما تقوله كلمة «لعين» بدل «كثيرًا»، ولم تكن على ما يبدو تميّز بينهما إطلاقًا. «باكيّة» أيضا خرجت من فمها كما لو أنّها تقول «بلهاء» أو «معتوهة». أحسّت سوكفيندر بوجهها ينهار، وانتابها ذلك الشعور الأليف بانّها تنزلق في الفراغ، وذلك اللهيب في أحشائها.

«ما الذي قلته؟»

استدار السيّد فيربراذر في حركة مفاجئة ووقف بوجه كريستال. لم يسبق لأيّ منهنّ أن رأته غاضبًا فعلًا من قبل.

«لم أقصد شيئًا!» قالت كريستال، ما بين الذهول والتحدّي. كنت أمزح، هذا كلّ ما في الأمر. هي تعرف أنّني كنت أمزح. أليس كذلك؟» سألت سوكفيندر التي تمتمت بجبن أنها كانت تعرف أنّها تمازحها.

«لا أريد أن أسمعك تستخدمين هذه الكلمة بعد الآن.»

كنّ يعرفن جميعهنّ كم كان يحبّ كريستال. يعلمن أنّه دفع من نقوده الخاصّة حتّى تتمكّن من المشاركة في اثنتين من رحلاتهنّ. لم يكن أحد يسترسل مثله في الضحك كلّما أطلقت كريستال مزحة، والواقع أنها تكون طريفة للغاية أحيانًا.

واصلوا طريقهم، وكان الارتباك مسيطرًا. كانت سوكفيندر تخاف أن تنظر إلى كريستال. كانت تشعر بالذنب، كعادتها.

كانوا يقتربون من الحافلة الصغيرة حين قالت كريستال بصوت منخفض إلى حدّ أنّ السيّد فيربراذر نفسه لم يسمعها: «كنت أمزح».

ردّت سوكفيندر بسرعة «أعرف.»

«حسنًا، إذًا... آسفة.»

خرجت الكلمة من بين شفتيها مثل حرف واحد مضغته قبل أن تتلفّظ به. لم تردّ سوكفيندر، من باب اللّباقة، لكنّها شعرت بالعزاء. ذلك الاعتذار الأخرق أعاد لها كرامتها. وفي طريق العودة إلى باغفورد، بادرت لأوّل مرّة إلى إنشاد أغنية الفريق، طالبة من كريستال أن تباشر بمقطع الراب.)

بدا لها أخيرًا أنّ جميع أفراد عائلتها يأوون ببطء شديد إلى الفراش. أمضت جاسوانت وقتًا طويلًا في الحمّام، مصدرة طرطقة وقرقعة. انتظرت سوكفيندر حتّى انتهت جاز من الاعتناء بنفسها، حتّى توقّف والداها عن التكلّم في غرفتهما، حتّى خيّم الصمت على المنزل.

عندها أخيرًا، باتت تشعر بالأمان. جلست في سريرها وأخرجت من ثقب في أذن دميتها الأرنب القديم شفرة سلبتها من خزانة فيكرام في الحمّام. نهضت من سريرها وتلمّست الرفّ بحثًا عن المصباح الكهربائيّ وحفنة من المحارم، ثمّ انتقلت إلى أبعد زاوية في الغرفة، جلست في التجويفة الصغيرة المستديرة. كانت واثقة بأنّ ضوء المصباح لن يتسرّب من هناك ولن يظهر من تحت باب الغرفة. جلست ساندة ظهرها إلى الحائط، رفعت كمّ قميص النوم وتفحّصت على ضوء المصباح الآثار التي تركتها جلستها الأخيرة. كانت الندبات على وشك أن تطيب، لكنّها لا تزال ظاهرة، متداخلة وقاتمة على جلد

ذراعها. انتابتها ارتعاشة خوف طفيفة، بدت بمثابة فَرَجٍ مرتجى بمعناه الضيق والآنيّ، فيما وضعت الشفرة في منتصف ساعدها وشقّت جلدها.

شعرَت بألم حادّ، لاذع، وسال الدم على الفور. حين وصلت الشفرة إلى ثنية كوعها، ضغطت بكومة المحارم على الجرح الطويل، حرصًا على عدم تلطيخ قميص النوم أو البساط. انتظرت دقيقة أو دقيقتين، ثمّ شطبت نفسها من جديد أفقيًا هذه المرّة، عبر الجرح الأوّل، راسمة ما يشبه السلّم على ذراعها. كانت تشقّ جلدها، تتوقّف قليلًا لتضغط على الجرح وتمسح الدم، ثمّ تكمل. كانت الشفرة تفرغ الألم من ألافكار الموجعة التي تصرخ في داخلها، فتحوّله إلى مجرّد لهيب حيوانيّ يكوي الأعصاب والجلد. كانت تجد عزاء وخلاصًا في كلّ جرح.

مسحت الشفرة أخيرًا وعاينت ما أحدثته على ذراعها. جروح تتقاطع، تنزف، تؤلم إلى حدّ أنّ الدموع كانت تنهال على وجهها. يمكنها أن تغفو الآن، إن لم يمنعها الألم من ذلك، لكن عليها أن تنتظر عشر دقائق أو عشرين دقيقة حتّى يتخثّر الدم على جروحها الحديثة. جلست وتقوقعت، ثانية ساقيها على صدرها، أغمضت عينيها الدامعتين وسندت رأسها على الحائط تحت النافذة.

انساب قسم من كرهها لنفسها مع دمها. اتّجهت بأفكارها إلى غايا بودين، الفتاة الجديدة التي تكنّ لها صداقة تعجز عن تفسيرها. كان بوسع غايا مخالَطة مَن تشاء، بجمالها ولهجتها اللندنيّة تلك، غير أنّها كانت، رغم ذلك، تبحث عن سوكفيندر في فرصة الظهر أو في الباص. لم تكن سوكفيندر تفهم ذلك. كان بودّها أحيانًا أن تسأل غايا أيّ لعبة تلعبها بتصرّفها هذا. كانت تتوقّع يومًا بعد يوم أن تدرك الفتاة الجديدة أنّها مجرّد قرد مشعر، فتاة حمقاء وبليدة الذهن، شخص لا يستحقّ سوى الازدراء والسخرية والشتيمة. بالتأكيد، سوف تتنبّه لخطئها قريبًا، وعندها، ستعود سوكفيندر إلى شفقة صديقتَيها القديمتين، التوأمين فيربراذر: شفقة ممزوجة ببعض السأم.

السبت

1

بحلول الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم، لم يعد هناك موقع واحد فارغ لركن سيّارة في شارع تشيرتش روو. عبَر المعزّون الشارع أزواجًا ومجموعات، صعودًا ونزولًا، متّجهين إلى كنيسة سانت مايكل وجميع القدّيسين، مثلما تنجذب برادة الحديد إلى قطب مغناطيسيّ. اكتظّ بهم الممرّ المؤدّي إلى أبواب الكنيسة، ثمّ فاض بهم. انتشر الذين دُفعوا خارج الممرّ بين المدافن، بحثًا عن مكان آمن بين الشواهد يقفون فيه، من دون أن يدوسوا الأموات، ولكن أيضًا، من دون أن يجرفهم الحشد بعيدًا عن باب الكنيسة.

بدا واضحًا أنّ مقاعد الكنيسة لن تتّسع لجميع الذين حضروا لإلقاء التحيّة الأخيرة على باري فيربراذر.

زملاؤه من المصرف، الذين تجمّعوا حول المدفن الأكثر فخفخة بين مدافن سويتلوف، كانوا يتمنّون لو يتركهم ممثّل المكتب المركزي الموقّر وشأنهم، وقد سئموا ثرثرته الفارغة ونكاته المبتذلة. لورين، هولي وجنيفر من فريق التجذيف ابتعدن عن أهاليهنّ والتقين في ظلّ شجرة سدر وارفة تكسوها الطحالب. أعضاء المجلس البلدي تحلّقوا في حلقة متنافرة وسط الممرّ، يتبادلون الحديث برصانة ووقار، زمرة من الرؤوس الصلعاء والنظّارات الغليظة، وجمهرة من قبّعات القشّ واللؤلؤ الزراعيّ. أعضاء من ناديَي السكواش والغولف تبادلوا إشارات التحيّة بخفر. رفاق قدامى من الجامعة تعرّفوا

بعضهم بعض من بعيد وتجمّعوا. غصّ المكان بأهالي باغفورد الذين تجمهروا بغالبيّتهم الكبرى، مستعرضين أبهى ملابسهم القاتمة. أحاديث خافتة تتردّد أصداؤها في الجوّ، وجوه تتلفّت، تراقب، تترقّب.

كانت تيسا وول ترتدي أجمل معطف لديها. كان معطفًا رماديًّا من الصوف، ضيّقًا عند إبطيها بحيث لا يمكنها أن ترفع ذراعيها فوق صدرها. واقفة إلى جانب ابنها عند حافّة الممرّ، كانت تتبادل ابتسامات حزينة وإشارات مع معارف في الحشد، فيما تواصل نقاشًا مع فاتس برؤوس شفتيها حتّى لا يفهم أحد ما يجري.

«أرجوك ستو، كان صديق والدك الحميم. لمرّة واحدة، أَظهر قدرًا من المراعاة.»

«لم يقل لي أحد إنّ المسألة ستطول كلّ هذا الوقت اللعين. قلتِ لي إنّ الأمر سينتهي في حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف.»

«لا تلعن. قلتُ إنّنا سنغادر الكنيسة بحوالى الساعة الحادية عشرة والنصف...»

«... واعتقدتُ بالتالي أنّ الأمر سيكون انتهى بحلول هذه الساعة. اتّفقت مع آرف على أن نلتقي.»

«لكن لا بدّ أن تحضر الدفن. والدك هو أحد حمَلة النعش! اتّصل بآرف وقل له إنّك ستلتقيه غدًا.»

«لا يمكنه غدًا. على كلّ حال، لست أحمل هاتفي. قال لي أبو خزانة ألّا أُحضره معي إلى الكنيسة.»

«لا تسمِّ والدك أبو خزانة! خذ هاتفي أنا واتّصل بآرف»، ردّت تيسا وهي تدسّ يدها في جيبها.

«لا أعرف رقمه عن ظهر قلب»، كذب فاتس ببرودة تامّة.

بالأمس تناولت تيسا العشاء مع كولين بدون فاتس. ذهب ابنها على درّاجته الهوائيّة إلى منزل آندرو متذرّعا بفرض في الأدب الإنكليزي يفترض بهما إتمامه معًا. في مطلق الأحوال، تلك كانت الحجّة التي أعطاها فاتس

لوالدته، وتظاهرت هي بتصديقها، لسعادتها بتواريه عن البيت قليلًا حتّى لا يثير المتاعب مع كولين.

ما كان يعزّيها، رغم تذمّره، هو أنّه ارتدى البدلة التي اشترتها له خصّيصًا من يارفيل. أثناء جولتهما على المتاجر هناك، فقدت صوابها وغضبت عليه في المتجر الثالث الذي قصداه، لأنّه كان يبدو أخرق وعديم الأناقة ومثل فزّاعة في كلّ الملابس التي جرّبها، غضبت لأنّها اعتبرته يتقصّد الظهور بهذا الشكل، إذ أنّ بوسعه، إن استقام في وقفته، أن يبدو أنيقًا بالبدلة.

«هسس!» قالت تيسا مشيرة إلى فاتس أن يصمت. لم يكن يتكلّم في الواقع، لكنّ كولين كان يقترب منهما برفقة الزوجين جاواندا. كان في غاية الانفعال والقلق، وبدا لها أنّه يخطئ ما بين دور حامل النعش ومهامّ مسؤول التشريفات، فيحوم في جوار البوّابة، مرحّبًا بالوافدين. بدت بارميندر كئيبة وهزيلة، مدّثرة بالساري، يتبعها أولادها الثلاثة، فيما بدا فيكرام، في بدلته الداكنة، مثل نجم سينمائيّ.

على بعد بضعة أمتار من أبواب الكنيسة، وقفت سامانثا موليسون تنتظر إلى جانب زوجها، متأمّلة السماء الشاحبة المتلبّدة، ومتأسّفة على أشعّة الشمس المهدورة فوق القبّة الغائمة. كانت ترفض التخلّي عن موقعها على الأرض الصلبة في وسط الممرّ، خشية أن ينغرز كعباها العاليان من الجلد اللمّاع في التربة الموحلة ويتّسخان.

حين كان بعض المعارف يلوّحون إليهما، كان مايلز وسامانثا يجيبان بحفاوة، لكنّهما لم يتبادلا الكلام في ما بينهما. فقد تشاجرا في الليلة السابقة. سأل البعض عن ليكسي وليبي اللتين كانتا تقضيان عادة عطلة نهاية الأسبوع في المنزل، غير أنّ الفتاتين قضتا الليلة كلّ لدى صديقة لها. كانت سامانثا واثقة بأنّ مايلز يأسف لغيابهما. فهو يتباهى بلعب دور ربّ العائلة الصالح أمام الجميع. خطر لها أنّه قد يطلب منها أن تحيط به مع الفتاتين في الصورة التي ستظهر على منشورات الحملة الانتخابيّة. اعترتها ارتعاشة انفعال محموم لهذه الفكرة. سوف تعبّر له بسرور عن رأيها بها.

بدا لها متفاجئًا إزاء هذا الكمّ من الحضور. لا شكّ في أنّه كان يأسف لعدم تولّيه دورًا بارزًا في مراسم الجنازة، لكان ذلك منحه فرصة فريدة لإطلاق حملة مقنّعة من أجل انتزاع مقعد باري في المجلس، أمام مثل هذا الحشد الغفير من الناخبين المنصتين بانتباه. وعدَت سامانثا نفسها بأن تشير بسخرية إلى هذه المناسبة التي أهدرها حين تسنح لها فرصة مناسبة.

«غافين!» نادى مايلز عند رؤية الوجه الأليف الهزيل والشعر الأشقر.

«آه، مرحبًا مايلز. تحيّاتي سام.»

كانت ربطة العنق السوداء الجديدة التي وضعها غافين تشعّ فوق قميصه الأبيض. كانت دائرتان بنفسجيّتان تحيطان بعينيه الفاتحتَي اللون. انحنت سامانثا ووقفت على رؤوس أصابعها بحيث لا يستطيع بلياقة أن يتفادى تقبيلها على خدّها واستنشاق رائحة عطرها الذي يفوح مسكًا.

«حشد كبير، أليس كذلك؟» قال غافين وهو يقلّب النظر.

«غافين من حمَلة النعش»، قال مايلز لزوجته بالنبرة ذاتها التي كان ليعلن بها فوز طفلٍ صغيرٍ عديم الموهبة بكتابٍ كجائزة على جهود جبّارة بذلها. الواقع أنّه تفاجأ حين أعلن له غافين أنه مُنح هذا الشرف. كان مايلز يتصوّر بشكل مبهم أنّه سيكون مع سامانثا ضيفين مميّزين محاطين بهالة من الغموض والأهميّة، بعدما كانا شاهدين على وفاة باري. لكان من اللائق لو طلبت منه ماري أو أحد المقرّبين منها أن يتلو مقطعًا من الكتاب المقدّس أو أن يلقي كلمة مقتضبة، إقرارًا منها بالدور البارز الذي لعبه في لحظات باري الأخيرة.

تعمّدت سامانثا عدم إبداء أيّ دهشة للامتياز الذي حصل عليه غافين من بين جميع أصدقاء باري.

«كنتما صديقين حميمين، أنت وباري، أليس كذلك غاف؟»

هزّ غافين رأسه موافقًا. كان شديد التوتّر وشعر بغثيان طفيف. قضى ليلة مضطربة، فاستيقظ عند الفجر بعدما راودته كوابيس مروعة. رأى نفسه في الحلم الأوّل يوقع النعش أرضًا، فتخرج منه جثّة باري وتبقى ممدّدة على أرض الكنيسة. ثمّ حلم بأنّه استغرق في النوم وفاته الدفن، وحين وصل إلى كنيسة سانت مايكل وجميع القدّيسين، وجد ماري وحيدة في المقبرة،

شاحبة الوجه وتنتفض غضبًا، وراحت تزعق بوجهه متّهمة إيّاه بأنّه أفسد الجنازة برمّتها.

«لست واثقًا بالمكان الذي يجدر بي أن أقف فيه، قال وهو يتلفّت من حوله. لم يسبق لي أن قمت بدور كهذا.»

«المسألة ليست معقّدة يا صديقي، ردّ مايلز. الأمر الوحيد الذي يترتّب عليك توخّيه، هو ألّا توقع شيئًا أرضًا.»

قهقه مايلز. كانت ضحكته حادّة مثل ضحكة فتاة، في تباين صارخ مع صوته الرزين العميق. لم يبادره أيّ من غافين أو سامانثا بأيّ ابتسامة.

ظهر كولين وول، شاقًا طريقه بين الحشد. إنّه يوحي دائمًا لسامانثا بمخلوق فرانكنشتاين، بجسده الضخم العجيب وجبينه العريض المتضرّس.

«غافين، وجدتك!» قال. «أعتقد أنّ علينا على الأرجح أن نستعدّ، سوف يصلون بعد لحظات.»

«حاضر»، ردّ غافين، وقد أسعده أن يتلقّى أوامر تملي عليه أخيرًا ما عليه أن يفعل.

«كولين»، قال مايلز هازًّا رأسه في اتّجاه نائب مديرة المدرسة.

«مرحبًا»، ردّ كولين محمومًا قبل أن يستدير ويولّي، شاقًا طريقه بين جموع المعزّين.

ثمّ حصلت بلبلة طفيفة رافقتها حركة بين الحشد، وسمعت سامانثا هاورد يقول بأعلى صوته: «عذرًا... لو سمحتم... عفوًا... نحاول الانضمام إلى العائلة...» كان الجميع يتنحّى عن طريقه، مفسحًا المجال لكرشه السمين. ظهر هاورد، قامة ضخمة في معطف مخمليّ، تتبعه شيرلي وماورين، الأولى ترتدي بدلة كحليّة رزينة متزمّتة، والثانية ضامرة مثل عصفور منتوف الريش، تعتمر قبّعة ذات شبكة سوداء صغيرة.

«مرحبًا مرحبًا»، بادر هاورد وهو يطبع قبلتين رنّانتين على خدّي سامانثا. «كيف حالك سامي؟»

تبدّد ردّها وسط تدافع كبير، إذ أخذ الحاضرون ينسحبون من الممرّ. راح الجميع يناور ويصارع بشكل خافت، سعيًا للفوز بموقع مميّز قرب مدخل

الكنيسة. مع انشقاق الحشد إلى جانبي الممرّ، ظهرت وجوه أليفة مثل بذور تطفو عند تقطيع فاكهة. لمحت سامانثا عائلة جاواندا، وجوه سمراء مثل حبوب من القهوة وسط بياض الحليب. فيكرام، متألّقًا بأناقة عبثيّة في بدلته الداكنة، بارميندر مدّثرة بالساري (لماذا فعلت ذلك؟ ألم تكن تعي أنّه بمظهرها هذا، إنّما تخدم مصالح أمثال هاورد وشيرلي؟)، وإلى جانبها تيسا وول، قامة مربوعة في معطف رماديّ على وشك أن تنفجر أزراره من شدّة ضيقه على جسدها البدين.

تقدّمت ماري بخطى بطيئة في الممرّ المؤدّي إلى الكنيسة، محاطة بأولادها الأربعة. كانت شاحبة إلى حدّ مخيف، وبدت وكأنّها هزلت كثيرًا. هل يعقل أن تكون خسرت كلّ هذا الوزن في ستّة أيّام؟ كانت تمسك بيد إحدى التوأمتين، وتحيط بذراعها الأخرى كتفي ابنها الأصغر، فيما يسير ابنها البكر فيرغوس خلفها. كانت تمشي محدّقة إلى الفراغ أمامها، عاصرةً شفتيها الرقيقتين. سار أفراد أخرون من العائلة خلف ماري والأولاد. عبر الموكب العائليّ المدخل واختفى داخل الكنيسة الكئيبة.

في الحال، اندفع الجميع إلى الأبواب، في زحمة لا تليق بالمناسبة الحزينة. وجد آل موليسون أنفسهم تحت ضغط الحشد يتدافعون مع آل جاواندا.

«تفضّل، سيّد جاواندا، من بعدك...»، قال هاورد بصوت عالٍ مادًّا ذراعه، داعيًا الطبيب الجرّاح إلى العبور قبله. لكن الواقع هو أنّ هاورد نفخ كرشه لقطع الطريق على كلّ من يفكّر في التقدّم عليه. وما أن دخل فيكرام حتّى تبعه هاورد مباشرة، تاركًا العائلتين تتدبّران أمرهما للّحاق بهما.

كان بساط أزرق ملكيّ ممدودًا على طول الممرّ في وسط كنيسة سانت مايكل وجميع القدّيسين. على قبّة السقف تتلألأ نجوم ذهبيّة، بينما تتّقد الألواح النحاسيّة، عاكسة أضواء الثريّات المتدلّية. النوافذ من الزجاج المعشّق مزخرفة ببراعة وتتوهّج روعة وألوانًا. في منتصف صدر الكنيسة، إلى جانب منضدة تلاوة أعمال الرسل، كان القدّيس ميخائيل بنفسه في درعه الفضيّة يحدّق إلى الجمع من أعلى النوافذ وأكبرها. من كتفيه ينبثق جناحان

بلون أزرق سماويّ، وهو يمسك سيفًا بيد، وميزانًا ذهبيًا باليد الأخرى. ينتعل صندلًا ويدوس بإحدى رجلَيه ظهرَ شيطان رماديّ داكن ذي جناحَي وطواط، يتلوّى محاولًا الإفلات. كان وجه القدّيس يشعّ صفاءً.

توقّف هاورد عند مستوى القدّيس ميخائيل وأشار إلى عائلته بالجلوس على المقعد إلى اليسار، فاستدار فيكرام إلى اليمين وجلس على المقعد المقابل. فيما كان باقي عائلة موليسون وموررين بالطبع يعبرون أمامه لاتخاذ مواقعهم على المقعد، وقف هاورد على البساط الأزرق الملكيّ يشرف عليهم، وحين عبرت بارميندر أمامه، بادرها قائلًا:

«أمر مروّع، ما حصل. باري. صدمة فظيعة.»

«أجل»، أجابت وهي تنتفض بغضًا له.

«لطالما اعتقدت أنّ هذه الملابس مريحة، أليست كذلك؟» أضاف مشيرًا إلى الساري.

جلست إلى جانب جاسوانت بدون أن تجيب. جلس هاورد بدوره، مثل حاجز عظيم عند طرف المقعد، يسدّ الممرّ على كلّ مَن يحاول الجلوس مع عائلته.

كانت شيرلي تخفض عينيها بخشوع، محدّقة إلى ركبتيها، ويداها مشبوكتان للصلاة، لكنّها في الواقع كانت تفكّر في الحديث المقتضب الذي دار بين هاورد وبارميندر حول الساري. كانت شيرلي من ضمن فئة من سكّان باغفورد تأسف بصمت لكون منزل أولد فايكريج الذي شيّد قبل زمن طويل لإيواء قسٍّ من الكنيسة الأنغليكانيّة ذي شاربين عريضين كثّين وخدّامه في بدلاتهم ومآزرهم المنشّاة، قد بات اليوم منزل عائلة من الهندوس (لم تفهم شيرلي يومًا بحقّ ما هي ديانة آل جاواندا). لو ذهبت هي وهاورد إلى المعبد أو المسجد، أو أيًا كان المكان الذي يصلّي فيه آل جاواندا، لكان فُرض عليهما بالتأكيد أن يغطّيا رأسيهما وينزعا حذاءيهما ومن يدري أيّ شروط أخرى أيضًا، وإلّا لكانا أثارا استنكارًا عظيمًا. ورغم ذلك، ها هي بارميندر تختال بالساري وسط الكنيسة، بدون أن تثير أي اعتراض. ولم يكن ذلك لعدم توافر ملابس أخرى لديها، فهي تحضر كلّ يوم إلى عملها في ثياب عاديّة. تلك الازدواجيّة

في المعايير كانت ما يثير نقمة شيرلي. فتلك المرأة لم يخطر في بالها إطلاقًا أنّها، بذلك، تبدي قلّة احترام لديانتهم، وبالتالي لباري فيربراذر نفسه، رغم العاطفة الكبيرة التي يقال إنّها كانت تكنّها له.

بسطت شيرلي يديها، رفعت رأسها، وأخذت تستعرض ملابس العابرين أمامها، وتعاين عدد أكاليل الزهور وحجمها. بعض الأكاليل أُسنِدَت إلى الحاجز الخشبيّ المحيط بالمذبح. رصدت شيرلي إكليل المجلس الذي أشرفت وهاورد على تشكيلته من الورود. كان إكليلًا عريضًا مستديرًا من الطراز التقليديّ، زهوره بيضاء وزرقاء، بلونَي شعار باغفورد. كان هناك مجذاف من زهور الأقحوان الذهبيّة بحجم مجذاف حقيقيّ، قدّمته فتيات فريق التجذيف، يطغى على إكليل المجلس وجميع الأكاليل الأخرى.

التفتت سوكفيندر من مقعدها باحثة عن لورين التي تولّت والدتها، بائعة الأزهار، صنع المجذاف، لتشير إليها إلى أنّها رأته وأُعجِبت به، لكنّ الحشد كان متراصًا ولم يكن بوسعها أن تلمح لورين في أي مكان. هذا التكريم بعث في نفس سوكفيندر شعورًا بالاعتزاز والأسى في آن، ولا سيّما حين رأت آخرين يشيرون نحوه، مهمهمين بعضهم إلى بعض من مقاعدهم. قامت خمس من فتيات الفريق الثماني بجمع المال لدفع ثمن المجذاف. أخبرت لورين سوكفيندر أنّها قصدت كريستال ويدون خلال فرصة الظهر، فقامت صديقاتها بالتنمّر عليها. كنّ يدخنّ، جالسات على حافّة جدار خفيض قرب محلّ بائع الصحف. سألت لورين كريستال إن كانت تريد المساهمة في ثمن الإكليل، فقالت «أجل، بالطبع، لا مشكل»، غير أنّها لم تفعل، ولم يرد اسمها على البطاقة. كما أنّها لم تأت إلى الدفن، إذ لم تلمحها سوكفيندر في أيّ مكان.

أحسّت سوكفيندر بأحشائها ثقيلة ومتصلّبة كالرّصاص، لكنّ الألم في ذراعها اليسرى والوخز اللاذع الذي كان يخترقها عند كلّ حركة تقوم بها كانا مثل الترياق لها. ثمّ إنّ فاتس وول المتألّق في بدلته السوداء لم يكن في جوارها. لم ينظر إليها عندما التقت عائلتاهما بشكل عابر في باحة الكنيسة. الواقع أنه كان يكبح نفسه في حضور والديها، وأحيانًا في حضور آندرو برايس.

في الليلة الماضية، أرسل إليها الشخص المجهول الذي كان يضايقها على الإنترنت صورة بالأسود والأبيض من الحقبة الفكتوريّة لطفل عارٍ، جسده مكسوّ بالزغب الداكن الناعم. رأَتها ومحَتها فورًا، وهي ترتدي ملابسها للذهاب إلى الدفن.

متى كانت آخر مرّة شعرت فيها بالسعادة؟ تعلم أنّها في حياة أخرى، منذ وقت طويل، قبل أن يبدأ أيّ كان بالهمهمة والغمغمة عند رؤيتها، تردّدت لسنوات بسرور وهناء على هذه الكنيسة، حيث استمتعت بإنشاد ترانيم في عيد الميلاد وعيد الفصح ومهرجان الحصاد. لطالما أحبّت القدّيس ميخائيل، وجهه الجميل الأنثويّ بتقاسيمه الرقيقة المرسومة بالأسلوب ما قبل الرافائيليّ، خصل شعره الذهبيّة... لكنّها في هذا الصباح، تراه لأوّل مرّة من منظار مختلف، تتأمّل قدمه التي تدوس، من دون أدنى مبالاة، ذلك الشيطان الداكن المتألّم، فتجد صفاء وجهه كئيبًا ومتعجرفًا.

غصّت المقاعد بالحضور، وامتلأت الأجواء المغبرة بطرطقات مكمودة، وأصداء خطى وحفيف أقمشة رقيق، فيما واصل الأقلّ حظًا التوافد، فراحوا يحتشدون في مؤخّر الكنيسة ويصطفّون واقفين على طول الجدار الأيسر. بعض المحتشدين من الأكثر تفاؤلًا قطعوا الممرّ على رؤوس أصابعهم، وهم يجولون بأنظارهم بحثًا عن مكان فارغ لم يتنبّه له أحد بين المقاعد المكتظّة. بقي هاورد ثابتًا في مكانه لا يتزحزح، إلى أن طبطبت شيرلي على كتفه وهمست له «أوبري وجوليا!»

عندها، أدارهاورد جسده الضخم ولوّح ببرنامج المراسم للفت انتباههما. اقتربا مسرعَين فوق بساط الممرّ، أوبري بقامته الطويلة النحيلة وجبينه الأصلع في بدلة سوداء، وجوليا بشعرها الأصهب الفاتح المشدود في كعكة خلف رأسها. ابتسما متشكّرين فيما تنحّى هاورد جانبًا، دافعًا جميع الجالسين إلى جانبه لإرغامهم على التنحّي مثله وإفساح مساحة كافية لهما.

كانت سامانثا محشورة بين مايلز ومورين، في مساحة ضيّقة للغاية، حتّى إنّه كان بوسعها الإحساس بعظام ورك مورين تخترق جنبها، والمفاتيح في جيب مايلز تخزها من الطرف الآخر. حاولت بحنق أن تنتزع سنتيمترًا

أو سنتيمترين من حولها، لكن لم يكن بوسع أيّ من مايلز او مورين التنحّي. اضطرّت بالتالي إلى كبح غضبها والبقاء في مكانها، محدّقة، بنقمة، إلى الفراغ أمامها، وأفكارها تصبّ في اتّجاه فيكرام، الذي لم يفقد شيئًا من وسامته منذ أن رأته آخر مرّة قبل حوالى شهر. كان فاتنًا إلى حدّ باهر، جماله يفرض نفسه بشكل محتوم لا يمكن تجاهله، كان ذلك يتجاوز المعقول، إلى درجة مثيرة للضحك. بساقيه الممشوقتين، كتفيه العريضتين، معدته المسطّحة تمامًا حيث ينحشر طرف القميص تحت خصر البنطال، وتينك العينين الداكنتين تظلّلهما أهداب كثيفة سوداء، كان يبدو مثل إله بين رجال باغفورد الشاحبي الوجوه والمترهّلي الأجساد ببطونهم المندلقة. انحنى مايلز إلى الأمام ليتبادل بعض النكات بصوت مكتوم مع جوليا فاولي، فانغرزت مفاتيحه بشكل مؤلم في أعلى فخذ سامانثا. تصوّرت فيكرام يمزّق الفستان الكحليّ الملفوف حول جسمها. وفي مخيّلتها، نسيت أن ترتدي القميص الداخليّ الملائم للفستان والذي يخفي الهوّة السحيقة بين نهديها..

توقّف صرير آخر آلات الأورغن وحلّ الصمت، فاستدارت الرؤوس: كان النعش يتقدّم في الممرّ بين صفّي المقاعد.

بدا حملة النعش متباينين في المظهر والقامة إلى حدّ مضحك. شقيقا باري طولهما لا يتعدّى مئة وسبعين سنتيمترًا، وفي مؤخّر الموكب كولين وول يرفع النعش من أعلى قامته التي تقارب المئة والتسعين سنتيمترًا، بحيث ينحني بشكل خطير إلى الأمام. النعش نفسه لم يكن من خشب الماهوغوني الملمّع، بل من الخيزران المجدول.

اللعنة! هذه سلّة نزهة! فكّر هاورد مستهجنًا.

علت الدهشة العديد من الوجود عند عبور النعش المصنوع من الخيزران، لكنّ البعض كان يعلم بأمره من قبل. كانت ماري أخبرت تيسا (التي أخبرت بدورها بارميندر) كيف إنّ ابن باري البكر فيرغوس اختار النعش بنفسه، وأراد أن يكون من الخيزران لأنّها نبتة تنمو بسرعة، ومادة متجدّدة مراعية للبيئة. كان فيرغوس مولعًا بكلّ ما يراعي الطبيعة والبيئة.

فضّلت بارميندر النعش الخيزران على الصناديق الخشبيّة المتينة التي يضع فيها معظم الإنكليز موتاهم. لطالما كانت جدّتها تتطيّر منها، وتخشى أن تبقى الروح عالقة بين الألواح الغليظة الثقيلة، مستهجنةً بصورة خاصة كيف أنّ الحانوتيّين البريطانيّين يثبّتون أغطية النعوش بالمسامير. وضع الحمَلة النعش على المنصّة المكسوّة بقماشة مقصّبة وتراجعوا. توجّه ابن باري وشقيقاه وصهره بخطى بطيئة إلى المقاعد الاماميّة، وتراجع كولين مسرعًا للجلوس مع عائلته.

وقف غافين ثانيتين متردّدًا هلِعًا. لاحظت بارميندر أنّه لم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل. الخيار الوحيد أمامه كان أن يعود ويعبر الممرّ بين المقاعد في الاتّجاه المعاكس، تحت أنظار ثلاثمئة شخص. لا بدّ أنّ ماري أومأت إليه، إذ انحنى بسرعة وقد احمرّ وجهه ارتباكًا، وجلس على المقعد الأماميّ، بجانب والدة باري. لم تتكلّم بارميندر مع غافين إلّا مرّة واحدة، حين عاينته وعالجته لإصابته بالكلاميديا، ولم تلتقه منذ ذلك الحين.

«قال يسوع أنا القيامة والحياة. من آمن بي وإن مات فسيحيا، وكلّ من كان حيّا وآمن بي، لن يموت إلى الأبد...»

لم يبدُ القسّ مباليًا بمغزى الكلام الذي يصدر عنه، بل كان مهتمًّا فقط بإيقاع صوته وترنيمه. اعتادت بارميندر أسلوبه، وقد حضرت قداديس عيد الميلاد على مدى سنوات عديدة مع ذوي التلاميذ الآخرين في مدرسة سانت توماس. غير أنّ هاتين الإلفة والعشرة القديمة لم تصالحاها مع القدّيس المقاتل الناصع الوجه الذي كان يرمقها من عليائه، ولا مع الخشب القاتم والمقاعد القاسية والمذبح الغريب الذي يعلوه الصليب الذهبيّ المرصّع بالمجوهرات، ولا مع الترانيم الجنائزيّة التي كانت تشوّشها وتصيبها بالقشعريرة.

صرفت انتباهها إذًا عن القسّ المسترسل في عظته الرتيبة، لتعود بأفكارها إلى والدها. لمحته من نافذة المطبخ، ممدّدًا أرضًا على بطنه، فيما كان المذياع يواصل زعيقه من على سقف قفص الأرانب. مضت ساعتان وهو ممدّد هناك، بينما كانت تجوب المتاجر مع والدتها وشقيقاتها. لا يزال بوسعها أن تشعر بكتف والدها تحت قميصه الذي دفّأه نور الشمس، حين هزّته وهي تصيح «أبي... أبيييييي...»

نثروا رماد دارشان في نهر ريا الصغير الحزين الذي يعبر بيرمينغهام. ما زالت بارميندر تذكر صفحة المياه الكئيبة الموحلة، في ذلك اليوم المتلبّد بالغيوم من شهر يونيو، والنَدَف الصغيرة البيضاء والرماديّة التي طفت على سطح المياه وانجرفت مبتعدةً مع التيّار.

عاد عزف الأرغن وسط طرطقة وأزيز، فنهضت مع الحضور. لمحت رأس نيام وسيوبان من الخلف، شعرهما المتماوج ما بين الأصهب والذهبيّ. كانت الفتاتان بعمرها تمامًا حين غاب عنهم دارشان. أحسّت بارميندر بحنان جارف وحزن أليم. ودّت من غير أن تفهم شعورها، لو تضمّهما وتقول لهما إنّها تعرف، إنّها تعرف بحقّ وتفهم...

طلع الصباح، وكأنّه الصباح الأوّل...

تمكّن غافين من التقاط ترنيمٍ متهدّجٍ يرتفع ضعيفًا وحادًّا من طرف المقعد. كان ذلك ابن باري الأصغر الذي لم يثخن صوته بعد. كان غافين على علم بأنّ ديكلان هو الذين اختار الترتيلة. كان ذلك من التفاصيل المروعة التي ارتأت ماري أن تطلعه عليها بشأن مراسم الجنازة.

وجد الدفن أليمًا أكثر ممّا كان يتصوّر. خطر له أنّه لكان من الأفضل لو تمّ اختيار نعش خشبيّ. كان يشعر بجثّة باري في ذلك الصندوق الخيزران الرقيق بشكل طاغ رهيب. ذلك الثقل الجسديّ كان مروّعًا. كلّ هؤلاء الأشخاص الذين رمقوا النعش بطمأنينة وتعاطف وهو يعبر الممرّ أمامهم، ألم يدركوا ما الذي كان يحمله في الحقيقة؟

ثمّ عرف لحظة الذعر تلك، حين أدرك أنّ أحدًا لم يحفظ له مكانًا للجلوس، وأنّه سيترتّب عليه العودة أدراجه أمام كلّ الحاضرين، والانسلال بين حشد الواقفين في الخلف... لكنّه اضطرّ عوضًا عن ذلك إلى الجلوس في الصفّ الأوّل، عرضة لأنظار الجميع. كان ذلك موقفًا رهيبًا، وكأنّه جالسٌ في المقعد الأماميّ من قطار مجنون في مدينة ملاهٍ، يتحمّل وطأة كلّ انعطافة وخضّة مرعبة.

جالسًا في مقعده، على مسافة أمتار قليلة من زهرة دوّار الشمس التي أهداها سيوبان لوالده، برأسها العريض مثل غطاء قدر، وسط شلال من أزهار الفريزيا الصفراء والسوسن، تمنّى لو أنّ كاي رافقته. لم يصدّق نفسه، لكن تلك كانت الحقيقة. كان ليشعر بالعزاء لو أنّ بجانبه مَن يسانده، من يحفظ له مقعدًا بكلّ بساطة. لم يخطر في باله أنّه سيبدو أشبه بنذل حزين، وهو وحيد هكذا في الدفن.

انتهت الترنيمة. تقدّم شقيق باري البكر إلى صدر الكنيسة ليتلو كلمة. لم يفهم غافين كيف كان بوسعه القيام بذلك، وجثمان غافين ممدّد أمامه تحت زهرة دوّار الشمس (التي نبتت من بذرة ونمَت على مدى أشهر)، ولا كيف بوسع ماري الجلوس بهدوء، حانيةً رأسها، وكأنّها تتأمّل يديها المشبوكتين فوق ساقيها. حاول غافين بكلّ ما لديه من قوّة أن يلجأ إلى الأفكار التي كانت تجول في ذهنه وأن ينصت إلى صوته الداخليّ، حتّى يخفّف وطأة الكلمة التأبينيّة.

سوف يروي قصّة لقاء باري بماري، بعدما ينتهي من ذكريات الطفولة... طفولة سعيدة، أوقات مرحة، إلى ما هنالك، هذا مفهوم... هيّا، أكمل، دعنا ننتهي...

بعد ذلك، ستتمّ إعادة باري إلى السيّارة والتوجّه إلى يارفيل لدفنه في المقبرة هناك، لأنّ مدفن كنيسة سانت مايكل وجميع القدّيسين الصغير لم يعد منذ عشرين عامًا يتّسع لأيّ روحٍ جديدة تبحث عن مثواها الأخير. تخيّل غافين نفسه يُنزل النعش الخيزران في الحفرة أمام أنظار الحشد. بدا له حمل النعش داخل الكنيسة ثمّ خارجها بمثابة نزهة مقارنةً بذلك..

كانت إحدى التوأمتين تبكي. لمح غافين بطرف عينه ماري تمدّ يدها وتمسك بيد ابنتها.

اللعنة، هيّا أسرع، دعونا نكمل، بحقّ الله، رجاء.

«عليّ أن أقول الحقّ: لطالما كان باري واثقًا بما يريده»، تابع شقيق باري بصوت أجشّ. أثار بعض الضحكات الخجولة بين الحاضرين حين سرد بعضًا من نزوات شقيقه في أيّام الطيش، غير أنّه كان من الممكن لمس التوتّر

في نبرته. «كان في الرابعة والعشرين حين قمنا برحلة تخييم بمناسبة توديع عزوبيّتي، فقصدنا في عطلة نهاية الأسبوع ليفربول. في ليلتنا الأولى، تركنا خيمنا وقصدنا حانة. هناك خلف البار، كانت تقف فتاة شقراء رائعة. كانت ابنة صاحب الحانة، تساعد والدها ليلة السبت. قضى باري الليلة بكاملها متّكئًا إلى البار، يتحدّث إليها، متسبّبًا لها بمتاعب مع والدها، ومدّعيًا بأنّه لا يعرف تلك الشلّة الصاخبة التي كانت تثير جلبة في قعر الحانة.»

علت ضحكة خفيفة. كانت ماري تدلّي رأسها، ممسكة بيد اثنين من أولادها يحيطان بها.

«أَعلن لي في تلك الليلة بعدما عدنا إلى الخيمة أنّه يعتزم الزواج منها. فكّرت في نفسي: مهلًا، أنا الذي يفترض بي أن أكون ثملًا الليلة - ضحكة مكتومة من جديد - في الليلة التالية، أرغمنا باز على الذهاب مجدّدًا إلى الحانة ذاتها. وحين عدنا إلى البيت، أول ما قام به كان شراء بطاقة بريديّة وإرسالها إليها، معلنًا لها أنّه سيعود في عطلة نهاية الأسبوع التالي. تزوّجا بعد سنة تمامًا من لقائهما الأوّل، وأعتقد أنّ كلّ الذين عرفوهما يوافقونني الرأي بأنّ باري كان يحسن التقدير ويصيب في خياراته. أنجبا أربعة أطفال رائعين: فيرغوس، نيام، سيوبان وديكلان...»

كان غافين يتنفّس ببطء، مركّزًا ذهنه على تعاقب الشهيق والزفير حتّى لا يستمع إلى شقيق باري. تساءل عمّا يمكن أن يقوله شقيقه عنه في ظروف مماثلة. الحظّ لم يبتسم له مثلما ابتسم لباري. حياته العاطفيّة خالية من القصص الرومنسيّة الجميلة. لم يدخل يومًا حانة ليعثر فيها على الزوجة المثاليّة، واقفة هناك بشعرها الأشقر ووجهها الباسم، تنتظره لتقدّم له كوبًا من البيرة. عوضًا عن ذلك، حظي بليسا التي لم تعتبره يومًا بالمستوى المطلوب. سبع سنوات من الصراعات الضارية، تكلّلت في نهاية المطاف بالكلاميديا. بالكاد تنفّس قليلًا بعدها، حتّى دخلت كاي حياته، وها هي تتشبّث به مثل صدفة بطلينوس عدوانيّة تطلق التهديد والوعيد...

لكنّه، رغم كلّ شيء، سوف يتّصل بها لاحقًا، لأنّه لا يعتقد أنّه سيكون قادرًا بعد كلّ هذه المراسم على العودة إلى بيته الفارغ. سوف يكون صريحًا

معها، سيقول لها كم كان المأتم رهيبًا ومضنيًا، وكم يتمنّى لو رافقته. هذا سيبدّد بالتأكيد أيّ توتّر لا يزال قائمًا بينهما بعد الشجار. لم يكن يودّ البقاء وحيدًا في تلك الليلة.

على مسافة مقعدين إلى الخلف، كان كولين وول يشهق بالبكاء، مطلقًا نشيجًا خافتًا يكتمه بمحرمة عريضة مبلّلة، غير أنّه لا يزال يُسمع بوضوح. وضعت تيسا يدها على ساقه، ضاغطة عليها برفق. كانت تفكّر بباري، كم كانت تعتمد عليه ليساعدها على التعامل مع كولين، وكم كانت تجد العزاء في ضحكاتهم ومرحهم معًا. كم كان كريم النفس، يعطي بدون حساب. بوسعها أن تتخيّله بوضوح، بقصر قامته وتورّد وجهه، وهو يقود بارميندر في رقصة جنونيّة في آخر حفلة أقامها مع ماري. لا تزال تسمعه يقلّد هاورد موليسون في تحامله على حيّ الحقول، وينصح كولين بلباقة، تلك اللباقة الخاصّة به دون سواه، بأن يتفهّم سلوك فاتس ويتقبّله لأنّ فاتس مجرّد فتى مراهق، وليس مضطرب العقل سيكوباتيًا.

كانت تيسا تتخوّف من عواقب وفاة باري فيربراذر على الرجل الجالس إلى جانبها. تخشى ألّا يتمكّنا، هو وهي، من التأقلم مع ذلك الفراغ الهائل القاسي. تخشى أن يكون كولين قطع للميت وعدًا يعجز عن الوفاء به، وألا يكون مدركًا كم أنّ ماري، التي يحاول دومًا التودّد إليها، لا تستلطفه. خلف كلّ هذا القلق وهذا الحزن، يظلّ هناك خوف تيسا الأبدي، متربّصًا مثل دودة صغيرة تنخر ذهنها: فاتس، والمتاعب المتواصلة التي يثيرها: كيف تتفادى وقوع انفجار، وكيف ترغمه على مرافقتهم إلى المأتم، أو كيف تخفي عن كولين غيابه عنه - ما قد يكون أسهل عليها في نهاية الأمر.

«سوف نختتم المراسم اليوم بأغنية من اختيار ابنتَي باري، نيام وسيوبان، كانت تعني الكثير لهما ولوالدهما»، قال القسّ كمن يتنصّل من أيّ مسؤوليّة عمّا سيلي.

دوّى نبض إيقاع منبعث من مكبّرات للصوت خفيّة، فباغت الحاضرين الذين انتفضوا في مقاعدهم تحت وطأة المفاجأة. ارتفع صوت قويّ ذو لهجة أميركيّة شديدة يردّد «آه آه آهاه آه» وبدأ جاي-زي وصلة الراب:

Good girl gone bad –

Take three –

Action.

No clouds in my storms . . .

Let it rain, I hydroplane into fame

Comin' down with the Dow Jones . . .

ظنّ البعض أنّ في ذلك خطأ. تبادل هاورد وشيرلي نظرات استنكار، لكنّ أحدًا لم يوقف الموسيقى، أو يهرع في ممرّ الكنيسة معتذرًا. ثمّ ارتفع صوت امرأة قويًا مثيرًا:

You had my heart

And we'll never be worlds apart

Maybe in magazines

But you'll still be my star . . .

رفع حملة النعش التابوت الخيزران وساروا به في الممرّ متّجهين نحو مدخل الكنيسة، تتبعهم ماري والأولاد.

. . . Now that it's raining more than ever

Know that we'll still have each other

You can stand under my umbuh-rella

You can stand under my umbuh-rella

غادر المشيّعون الكنيسة ببطء، محاولين عدم السير على إيقاع الأغنية.

2

أمسك آندرو برايس درّاجة والده بالمقود وجرّها بعناية إلى خارج المرأب، محاذرًا أن يخدش طلاء السيّارة. حملها لنزول الأدراج الحجريّة وعبر بها البوّابة الحديد. وعندما وصل إلى الزقاق، وضع قدمه على إحدى الدوّاستين، دفع درّاجة السباق بضعة أمتار. وحين انطلقت أخيرًا، امتطى السرج. انعطف يسارًا في الطريق المنحدر على سفح التلّة وانزلق بأقصى سرعة بدون أن يلمس المكابح، متوجّهًا إلى باغفورد.

اختلطت عليه صفوف الشجيرات من جانبي الطريق وبدت له السماء أشبه بغشاء ضبابيّ من شدّة السرعة. أحسّ بخصلات شعره النظيف تتطاير مع الريح وبوجهه ينخزه بعدما فركه للتوّ ونظّفه، فتخيّل نفسه في حلبة سباق. عندما وصل إلى مستوى حديقة منزل فيربراذر المتطاولة على شكل إسفين، شدّ على الفرامل وخفّف سرعته. قبل بضعة أشهر، انزلق وسقط عند ولوجه هذا المنعطف الحادّ بسرعة، فاضطرّ إلى العودة للمنزل على الفور بجينز ممزّق وخدوش على جانب وجهه...

أفلت العنان للدرّاجة حين سلك شارع تشيرتش روو، فأمسك المقود بيد واحدة، واستسلم من جديد لمتعة الانزلاق بحريّة في المنحدر، ولو بأقلّ سرعة من قبل. غير أنّه تمالك نفسه قليلًا حين لمح نعشًا يُحَمَّل في سيّارة لدفن الموتى أمام الكنيسة، وحشدًا بملابس قاتمة يتدفّق، خارجًا من الأبواب الخشبيّة الضخمة. ضغط بحنق على الدوّاستين، انعطف بشكل خاطف وغاب عن الأنظار. لم يشأ أن يرى فاتس يخرج من الكنيسة إلى جانب أبو خزانة المحبط، مرتديًا تلك البدلة الرخيصة وربطة العنق التي وصفها له باشمئزاز مضحك في اليوم السابق، خلال حصّة الأدب الإنكليزيّ. لكان الأمر أشبه بالدخول على صديقه وهو يتغوّط.

ردّ آندرو بيدٍ خصلات شعره عن وجهه، وهو يلتفّ متباطئًا حول الساحة، متسائلًا عمّا حلّ ببثراته الحمراء في الهواء البارد، وما إذا كان المسحوق المطهّر الذي استخدمه لتنظيف وجهه ساعد على التخفيف من

وهجها الشنيع. ردّد لنفسه مرّة جديدة القصّة التي أعدّها للإستعمال عند الضرورة: فهو قادم من منزل فاتس (وهو أمر ممكن تمامًا، ليس هناك ما يحول دون ذلك)، ما يعني أنّ شارع هوب هو المنفذ المنطقيّ للوصول إلى النهر، كما حين يسلك المرء أوّل شارع جانبيّ يُتاح له لاختصار الطريق. هكذا، لن يخطر لغايا بودين (إن شاءت المصادفات أن تكون تنظر من نافذة منزلها لحظة مروره، فتلمحه وتتعرّف إليه) أنّه قطع كلّ هذه المسافة من أجلها. لم يكن آندرو يتوقّع أن يضطرّ إلى تبرير عبوره في الشارع الذي يقع فيه منزلها، غير أنّه أبقى القصّة التي أخرجها لهذا الغرض في ذهنه، اعتقادًا منه بأنّها تجعله يبدو خالي البال، غير آبهٍ.

كلّ ما كان يريده هو أن يرى أين منزلها تحديدًا. سبق له أن قدم على الدرّاجة في عطلة نهاية الأسبوع وعبر الشارع القصير المحاط بصفّين من المنازل المتلاصقة، وهو يشعر بكلّ من أعصابه متحفزًا مشدودًا. فعلها مرّتين، لكنّه لم يتمكّن حتّى الآن من اكتشاف المنزل الذي تختبئ فيه محبوبته. كلّ ما كان يعرفه من خلال النظرات التي يلقيها خلسة من نوافذ الحافلة المدرسيّة القذرة، هو أنّها تقيم من الجانب الأيمن من الشارع، في صفّ الأرقام الزوجيّة.

عند سلوكه المنعطف، جهد لوضع قناع مدروس على وجهه، وكأنّه مجرّد فتى يعبر بهدوء على درّاجته، سالكًا أقصر طريق إلى النهر، تائهًا في أفكارٍ بمنتهى الجديّة، غير أنّه على استعداد للتوقّف إن شاءت المصادفة أن يلتقي أحد رفاق صفّه...

كانت هناك. على الرصيف. واصلت ساقا آندرو دفع الدرّاجة في حركة تلقائيّة، غير أنّه لم يعد بوسعه تحسّس الدوّاستين. أدرك فجأة كم كان الإطاران اللذان يحملان توازنه رقيقين. كانت تنقّب في حقيبتها الجلديّة، وخصل شعرها البنيّ ذي الالتماعات النحاسيّة تتدلّى حول وجهها. على الباب المشقوق خلفها كان معلّقا الرقم عشرة. تي شيرت أسود قصير، يكشف عن خصرها العاري، وبنطال جينز ضيّق شدّت على وسطه حزامًا غليظًا... كان على وشك تجاوزها حين أغلقت الباب والتفتت. نفضت رأسها لطرد الخصلات عن وجهها الفاتن، وسمعها بوضوح تقول له بلكنتها اللندنيّة «آه مرحبًا.»

«مرحبًا»، أجاب بدون التوقّف عن التدويس. قطع مترين، أربعة أمتار... لماذا لم يتوقّف؟ واصل طريقه تحت وطأة الصدمة، بدون أن يجرؤ على إلقاء نظرة واحدة إلى الخلف. ها هو الآن في نهاية الطريق. لا تسقط أرضًا، بحقّ الجحيم! انعطف عند زاوية الشارع، وغاب عن نظرها. لم يعرف تحت وقع الذهول والصدمة، إن كان مرتاحًا أو خائبًا لتخطّيها بدون التوقّف.

اللعنة!

واصل طريقه نحو الغابة الصغيرة عند أسفل تلّة بارغيتير، حيث النهر ينساب متلألئًا من خلال أغصان الأشجار، لكنّه لم يكن يرى شيئًا. وحدها صورة غايا كانت مطبوعة على شبكيّة عينيه، باهرة مثل ضوء نيون. ضاق الطريق أكثر ليتحوّل إلى مسلك ترابيّ. أحسّ بالريح الخفيفة المتصاعدة من صفحة المياه تداعب وجهه. لم يكن يعتقد أنّه تسنّى لسحنته أن تحمرّ عند رؤيتها، لأنّ كلّ ذلك حدث بسرعة خاطفة.

«بحقّ الجحيم!» صرخ ملء رئتيه، موجّهًا نقمته ضدّ الهواء النديّ والمسلك الترابيّ المقفر.

استرجع بلهفة وشوق أدنى تفاصيل ذلك الكنز الرائع الذي لم يكن يتوقّع العثور عليه: تقاطيع جسدها، يبرز كمالها الجينز الضيّق والقميص القطنيّ الملتصق بصدرها، الرقم عشرة المعلّق خلفها على باب متشقّق مكسو بطلاء أزرق متقشّر، صوتها يقول له «آه مرحبا» بنبرة عفويّة طبيعيّة. إذًا، كانت سمات وجهه مسجّلة بشكل نهائيّ في أحد ثنايا ذهنها، خلف ذلك الوجه المذهل.

راحت الدرّاجة ترتجّ وتترنّح على الأرض المتعرّجة المكسوة حديثًا بالحصي. كان آندرو في حالة من النشوة الكاملة، ولم يترجّل إلا عندما كاد يفقد توازنه. دفع الدرّاجة من مقودها بين الأشجار، حتّى وصل إلى الشريط الضيّق عند ضفّة النهر. هناك، أفلت الدرّاجة، فسقطت أرضًا بين شقائق النعمان البريّة التي تفتّحت مثل نجوم بيضاء صغيرة منذ زيارته الأخيرة إلى هذا المكان.

كان والده حذّره عندما بدأ يستعير الدرّاجة: «عليك أن تربطها بالسلسلة الحديد حين تدخل متجرًا. وإيّاك أن أرى أدنى خدش عليها، وإلّا...»

لكنّ السلسلة لم تكن طويلة بما يكفي لتلتفّ حول جذع شجرة. وفي مطلق الأحوال، كان خوف آندرو من والده ينحسر كلّما ازدادت المسافة بينهما. واصل آندرو نزهته، وهو يهجس بذلك الشريط الرقيق من العري حول خصر غايا، وبوجهها الفاتن. وصل إلى حيث تلتقي ضفّة النهر مع سفح التلّة المتفتّت.

كانت التلّة تنبثق مثل جرف صخريّ يرتفع وعرًا فوق المياه الخضراء المتدفّقة. عند أسفلها، تضيق الضفّة لتصبح مجرّد مسلك زلق ينساب تحت القدمين. الطريقة الوحيدة لعبور هذا الجزء من الضفّة، بعدما تنمو الساقان لتبلغا ضعف ما كانتا عليه في أوّل زيارة للموقع، هي أن تتقدّم جانبيًا بحذر، خطوة بعد خطوة، ملتصقًا بالصفحة الصخريّة الشاهقة، ومتشبّثًا بالجذور والنتوءات الحجريّة المتباعدة.

ألِف آندرو الرائحة المنبعثة من النهر والتربة الرطبة، رائحة خُضرة وترسّبات وحليّة. كما ألف ذلك الإحساس، حين يدوس الشريط الضيّق من التراب والأعشاب تحت قدميه. كان يعرف عن ظهر قلب كلّ الشقوق والصخور، فيتحسّسها وهو يتلمّس طريقه بيديه. كانا في الحادية عشرة من العمر، هو وفاتس، حين اكتشفا مخبأهما السريّ. كانا يعرفان أنّ ما يقومان به محظور وخطير، فقد تمّ تحذيرهما من النهر. كان الهلع يسيطر عليهما، غير أنّ أيًا منهما لم يكن على استعداد للاعتراف بذلك للآخر، عوضًا عن ذلك، تقدّما ملاصقين للحافّة الصخريّة الخطيرة، متمسّكين بكلّ ما تيسّر لهما. وعندما وصلا إلى أضيق نقطة من الممرّ، تشبّثا أحدهما بالآخر، كلّ ممسك بقميص الآخر بقبضة متصلّبة.

الآن، بعد سنوات من التمرين والخبرة، بات بوسع آندرو أن يتقدّم بخفّة سلطعون على طول السفح، ملتصقًا بالصخور والتراب، والمياه تتدفق وتتدافع تحت قدميه على عمق مترٍ بالكاد. وجد طريقه تلقائيًا، ولو أنّه كان شارد الذهن، تائهًا في أفكاره. ثمّ انحنى برشاقة واستدار في حركة مفاجئة، فانسلّ إلى جوف صدع عثرا عليه قبل وقت طويل داخل الصخر. بدا لهما حين ولجاه لأوّل مرّة بمثابة مكافأة إلهيّة على جرأتهما. لم يعد بوسعه الآن الوقوف داخل الفجوة، لكنّها كانت أعرض بقليل من خيمة لشخصين، وتكفي

ليتمدّد فيها فتَيان جنبًا إلى جنب، فيسمعا هدير النهر عابرًا تحتهما، وتتراءى لهما من فتحة المغارة قطعة سماء مثلّثة، تخرّمها أوراق الأشجار.

في زيارتهما الأولى، تسلّحا بعصوَيْن وراحا يطرقان على الصخر ويحفران قعر المغارة، لكنّهما لم يعثرا على ممرّ سريّ يقود إلى الدير فوق التلّة. غير أنّ ذلك لم يقلّل فرحتهما وإحساسهما بالنشوة لاكتشاف المخبأ، وتعاهدا على أن يبقى ذلك سرًا بينهما، لا يبوحان به لأحد. في ذهن آندرو ذكرى مبهمة لقسم رسميّ، ممهورٍ ببصقتين وبضع شتائم. أطلقا على مخبئهما اسم «الكهف» عند اكتشافه، لكنّهما باتا يشيران إليه في الآونة الأخيرة بـ»الجحر».

كانت التجويفة الصخريّة تعبق برائحة التراب، ولو أنّ سقفها المنحدِر صخريّ. على عرضها يسري خطّ أفقيّ أخضر كالعفن، يشير إلى أن المياه غمرتها في الماضي، بدون أن تغرقها تمامًا. أرض الكهف مكسوّة بأعقاب السجائر وبقايا لفافاتهما. جلس آندرو، مدلّيًا ساقيه فوق المياه الخضراء الموحلة، وأخرج من جيب سترته سجائر وولّاعة اشتراها بما تبقّى له من نقود عيد ميلاده، بعدما قطع عنه والده المصروف. أشعل سيجارة، استنشق الدخان إلى أعماق رئتيه، وسرح، مستعيدًا لقاءه المشرق مع غايا بودين بأدقّ ما أمكنه من تفاصيل: خصرها الرقيق، استدارة الوركين، البشرة النضرة الطريّة بين القميص القطنيّ والحزام الجلديّ، الشفتان العريضتان المكتنزتان، كلمتا «آه، مرحبًا». كانت هذه أوّل مرّة يراها وهي ترتدي شيئًا آخر غير البدلة المدرسيّة. أين كانت ذاهبة وحدها هكذا، حاملة حقيبتها الجلديّة؟ ما الذي يمكن أن يشغلها في باغفورد، في صباح يوم سبت؟ ربّما كانت ستستقلّ الحافلة إلى يارفيل؟ كيف تقضي وقتها حين لا تكون أمام ناظريه؟ أيّ أسرار نسائيّة كانت تستأثر باهتمامها؟

تساءل للمرّة المئة إن كان يُعقل لجسد كهذا أن يكون غلافًا لشخصيّة عاديّة مبتذلة. كانت غايا الفتاة الوحيدة التي أثارت في نفسه مثل هذه التساؤلات. فكرة الجسد والروح ككَيانَين منفصلين لم تلامس ذهنه إلى أن وقعت عيناه عليها. ورغم أنّه كان يحاول جاهدًا أن يتصوّر شكل نهديها وإحساسه إن لامسهما، على ضوء ما جمعه من دلائل أبصرها من خلال القميص المدرسيّ شبه الشفّاف والصدّارة البيضاء التي تراءت له تحته، إلّا أنّه لم يكن

يسعه أن يصدّق أنّ افتتانه بها كان جسديًّا صرفًا. حتّى الآن، كانت الموسيقى هي أكثر ما يجيّش مشاعره، غير أنّ تلك الفتاة كانت تتحرّك بشكل يؤثّر في نفسه بالقدر ذاته. لا شكّ في أنّ الروح التي تسكن ذلك الجسد الفريد من نوعه خارجة أيضًا عن المعهود. لماذا تبتكر الطبيعة قالبًا كهذا، إن لم يكن لتودع فيه روحًا تفوقه جمالًا؟

كان آندرو يعرف ما يبدو عليه جسد امرأة عارية. فالكمبيوتر في غرفة فاتس في العليّة لم يكن مجهّزًا بنظام رقابة يمكن الأهل التحكّم به. قاما معًا بتقصّي كلّ ما أمكنهم من مواقع إباحيّة مجّانيّة: فروج حليقة، شفاه ورديّة منفرجة تكشف أعماق مهابل داكنة، أرداف مفرشخة على شِراج متغضّنة، أفواه مطلية بطبقة كثيفة من الحمرة تقطّر منيًا. كان شبق آندرو يمتزج دائمًا بالفزع، لإدراكه أنّهما لن يسمعا السيّدة وول تقترب من الغرفة إلّا عند بلوغها منتصف السلالم، حيث الدرجات تطلق صريرًا عندما تطأها. كانا يعثران أحيانًا على مشاهد غريبة تجعلهما يقهقهان ضحكًا، ولو انّ آندرو لم يكن واثقًا ممّا إذا كان يشعر في الحقيقة بالإثارة أو الاشمئزاز (أسواط وسروج، ألْجِمة، حبال ومواسير كافّة، ومرّة أيضًا - وحتّى فاتس لم يتمكّن من الضحك - صور عن قرب لأدوات ذات بَراغٍ معدنيّة، إبر تخترق جلدًا طريًا، ووجوه نساء مسمّرات يصرخن).

مع الوقت، أصبح آندرو وفاتس خبيرين حقيقيّين في الصدور المنفوخة بالسيليكون، صدور عارمة، متكوّرة وصلبة.

«بلاستيك!» يطلق أحدهما حكمًا مبرمًا بنبرة علميّة مجرّدة، فيما يجلسان أمام شاشة الكمبيوتر، وباب الغرفة موصد بعناية حتّى لا يباغتهما أهل فاتس. المرأة المعنيّة بهذا الحكم كانت شقراء تمتطي رجلًا مشعرًا، رافعة ذراعيها عاليًا، ونهداها الضخمان بحلمتيهما القاتمتين يتدلّيان فوق قفصها الصدريّ النحيل، وتحتهما خطّان رقيقان بنفسجيّان يشيران إلى خضوعها لعمليّة زرع السيليكون. يمكن تقدير ملمسهما بمجرّد النظر إليهما: صلبان وكأنّهما كرتان تحت الجلد. لم يكن بوسع آندرو تصوّر ما يمكن أن يثيره أكثر من نهدين طبيعيّين. نهدان طريّان كالإسفنج، ليّنان ربّما، والحلمتان على عكسهما، قاسيتان (أقلّه في أحلامه).

كانت هذه الصور تختلط عليه في وقت متأخّر من الليل، وتتداخل مع الاحتمالات التي تتيحها الفتيات الحقيقيّات، فتيات من لحم ودم، والأحاسيس الضئيلة التي يشحذها من خلال قماش ملابسهنّ، إن تمكّن من الاقتراب منهنّ إلى حدّ كافٍ. كانت نيام الأقلّ جمالًا بين التوأمين فيربراذر، لكنّها الأكثر استعدادًا للمغامرة، وهو ما أثبتته خلال الحفل الراقص الذي أقيم بمناسبة عيد الميلاد، في الأجواء الخانقة المخيّمة في مسرح المدرسة المكتظّ. في تلك الليلة، لجآ إلى زاوية معتمة، خلف الستارة الرثّة، ولاذا أجدهما بالآخر. أدخل آندرو لسانه في فمها ودسّ يديه حتّى رباط صدريّتها، لكنّه لم يتمكّن من المضيّ أبعد، لأنّها كانت تحاول باستمرار التفلّت منه. دافعه الرئيس في تلك الليلة، كان يقينه بأنّه في مكان ما في ظلمة الخارج، كان صديقه فاتس يقوم بما هو أكثر من ذلك بعد. وها هو ذهنه اليوم يختلج ويضطرب، تشغله غايا كليّا. كانت الفتاة الأكثر إثارة التي عرفها حتّى الآن، والفتاة التي ألهبت فيه شوقًا من صنف آخر، عصيّ تمامًا عن التفسير. كانت نغمات موسيقيّة معيّنة، إيقاعات محدّدة تحرّك مشاعره، فتجعله يرتعد في أعماقه. ثمّة شيء في غايا بودين يثير لديه الانفعال ذاته.

أشعل سيجارة ثانية من عقب الأولى، قبل أن يرميه في النهر. ثمّ سمع حفيفًا أليفًا. انحنى إلى الأمام فرأى فاتس مرتديًا بدلة الدفن. كان يتقدّم بحذر لصق الصخور على طول الحافّة الضيّقة فوق النهر، متشبّثًا بيديه بالأحجار، إلى أن بلغ الكهف حيث كان آندرو جالسًا.

«فاتس.»

«آرف.»

ثنى آندرو ساقيه وأدخلهما حتّى يتمكّن صديقه من التسلّق والدخول.

«تبًا!» قال فاتس بعدما ولج المغارة. بدا أشبه بعنكبوت، بمشيته المرتبكة، أطرافه الطويلة وقامته الهزيلة، تزيدها نحولًا ملابسه السوداء.

ناوله آندرو سيجارة. كان فاتس يشعل السجائر وكأنّه في مهبّ ريح قويّة، فيكوّر يديه أمام الشعلة ليحميها، مقطّبًا حاجبيه قليلًا. تنشّق الدخان ونفثه على شكل دائرة تصاعدت من الكهف وتبدّدت في الجوّ. حلّ ربطة

عنقه الرماديّة الداكنة. بدا أكبر سنًا، لكنّه، في نهاية الأمر، لم يظهر أخرق تمامًا في البدلة الرسميّة التي باتت ملطّخة بالوحل عند الركبتَين والكمَّين، نتيجة رحلته إلى الكهف.

«تخالهما كانا فعلًا أعزّ الأصدقاء»، قال فاتس بعدما أخذ مجّة طويلة من سيجارته.

«أبو خزانة مكتئب، أليس كذلك؟»

«مكتئب؟ اللعنة، كان في حالة من الهستيريا التامة. أصيب بالحازوقة من شدّة ما انتُحب. كان أسوأ من تلك الأرملة اللعينة.»

ضحك آندرو. نفث فاتس دائرة ثانية من الدخان وشدّ على إحدى أذنيه العريضتين.

«انسحبت باكرًا. لم يدفنوه بعد.»

بقيا دقيقة جالسين بصمت، يدخّنان. تأمّل آندرو في عبارة صديقه «انسحبت باكرًا»، وفي الاستقلاليّة التي يتهيّأ له أنّ فاتس ينعم بها، بالمقارنة معه. كان سايمون وغضبه يقفان حاجزًا بين آندرو والحريّة. يحصل أحيانًا في هيلتوب هاوس أن تحصد عقابًا لمجرّد وجودك هناك. ما زال آندرو يذكر درسًا صغيرًا عجيبًا في حصّة الفلسفة والديانة، ألهب مخيّلته. كلّمهم الأستاذ حينها عن الآلهة البدائيّة المكلّلة بهالة من الغضب والعنف الاعتباطيّين، ومحاولات الحضارات الأولى لمهادنتها. فكّر عندها في طبيعة العدالة كما يعرفها: والده في دور الإله الوثنيّ، ووالدته الكاهن الأكبر الساهر على العقيدة، إذ تحاول دائمًا أن تشرح وتتواسط. غالبًا ما كانت تفشل في مساعيها، لكنّ ذلك لم يكن ليثنيها عن قناعتها الراسخة بأنّه خلف حمم غضبه، يخفي ذلك الإله كنزًا من الطيبة والرأفة.

أتكأ فاتس رأسه إلى جانب الكهف الصخريّ، وراح ينفث دوائر من الدخان نحو السقف. كان يقلّب في رأسه ما يودّ قوله لآندرو. تمرّن في ذهنه على كيفيّة مفاتحته بالمسألة طوال وجوده في الكنيسة، فيما والده يتنهّد ويشهق في محرمته. كان فاتس متشوّقًا لمفاجأة صديقه بما جاء يقوله له، إلى حدّ كان يجد صعوبة في تمالك نفسه. غير أنّه كان حريصًا على عدم إفساد

المناسبة. إبلاغ آندرو بالأمر لم يكن بنظره أقلّ أهميّة من القيام به. لم يشأ أن يظنّ آندرو أنّه سارع إلى اللحاق به لمجرّد أن يزفّه النبأ.

«تعرف أن فيربراذر كان في مجلس البلدة؟» قال آندرو.

«أجل،» أجاب فاتس، ممتنًا لكون آندرو بدأ حديثًا يكسر الصمت ويؤخّر اللحظة التي كان يترقّبها.

«سيمو-حبيبو سيترشّح لمقعده.»

«سيمو-حبيبو؟ حقًا؟»

نظر فاتس إلى آندرو مكشّرًا، مذهولًا لهذا النبأ.

«ما الذي دهاه بحقّ الجحيم؟»

«هو يعتقد على ما يبدو أنّ فيربراذر كان يتقاضى رشاوى من شركة مقاولات أو ما شابه.» سمع آندرو والده يتكلّم في الأمر مع روث عند الصباح في المطبخ، وهذا ما يفسّر كلّ شيء. «يريد حصّته من الكعكة.»

«لم يكن ذلك باري فيربراذر!» قال فاتس ضاحكًا وهو ينفض رماد سيجارته على أرض الكهف. «ولم يكن هذا مجلس البلدة. ذلك كان... ما اسمه؟ فرايرلي، في يارفيل. كان في مجلس إدارة مدرسة وينترداون. كاد أبو خزانة يصاب بنوبة قلبيّة يومها، الأحمق. اتّصل به صحافيون محليّون للحصول على تعليق منه، أو شيء من هذا القبيل. قُضِي على فرايرلي في هذه المسألة. ألا يقرأ سيمو-حبيبو جريدة يارفيل والجوار؟»

حملق آندرو في فاتس.

«هذا سلوك نموذجيّ من جانبه. الأبله!»

أطفأ سيجارته على أرض الكهف الترابيّة، محرَجًا من حماقة والده. مرّة جديدة، فهم سايمون المسألة بشكل خاطئ تمامًا. يقضي وقته يسخر من سكّان المنطقة، يهزأ بمشاغلهم، ويفتخر بعزلته في منزله الصغير التافه على التلّة. ثمّ ترده بعض الشائعات المضلّلة، فيصدّقها ويقرّر، بناءً عليها، أن يلحق العار بعائلته.

«يا له من مختلّ لعين، سيمو-حبيبو، أليس كذلك؟»

كانا يشيران إليه بلقب سيمو- حبيبو، وهو ما تطلقه عليه روث. كان فاتس يزور آندرو مرّة وسمعها تناديه هكذا وهما يتناولان الشاي، ومنذ ذلك الحين، لم يعد يشير إليه بايّ اسم آخر.

«إنّه مختلّ بالتأكيد»، ردّد آندرو وهو يتساءل إن كان سينجح في إقناع والده بالعدول عن الترشّح، إذا ما شرح له أنه أخطأ بالشخص وبالمجلس.

«بالمناسبة»، أضاف فاتس، «إنّها صدفة مدهشة: أبو خزانة أيضًا ينوي الترشّح.»

نفث فاتس الدخان من منخاريه، محدّقًا في الصخور المتضرّسة فوق رأس آندرو.

«إذًا»، تساءل، «من سيختار الناخبون؟ المغفّل أو الأبله؟»

قهقه آندرو ضاحكًا، كما في كلّ مرّة ينعت فاتس والده بالغباء، فهو يرى ذلك بغاية الطرافة.

«مهلًا الآن، انظر إلى ما أحضرته»، قال فاتس، ضاغطًا بشفتيه على السيجارة. راح يربّت متحسّسًا الجيوب على وسطه، ولو أنّه على يقين بأنّه أخفى الظرف في جيب سترته الداخليّة. «ها هو!» قال أخيرًا. أخرج الظرف، فتحه وعرض محتواه على آندرو: كان في داخله كرات سمراء صغيرة تشبه حبوب الفلفل، وسط مزيج من الأعناق والأوراق اليابسة.

«هذه سنسيميلا»، أعلن باعتزاز.

«ما هذا؟»

«براعم ونبتات من شتول ماريجوانا غير مخصّبة من الصنف الذي اعتدتَه»، قال فاتس، «في توليفة خاصة سوف تنشرح لها رئتاك.»

«ما الفرق بين هذا والماريجوانا العاديّة؟» سأل آندرو.

سبق للفتَيَين أن تقاسما بضع قطع سوداء من صمغ القنّب الشبيهة بكتل من الشمع في كهفهما السريّ.

«تلفّ بها سيجارة أيضًا، لكنّ الإحساس مختلف، هذا كلّ ما في الأمر»، قال فاتس. أطفأ سيجارته، أخرج من جيبه رزمة من أوراق ريزلا للفّ وسحب منها ثلاث أوراق هشّة ألصقها ببعضها البعض.

«هل حصلتَ على الخلطة من كيربي؟» سأل آندرو، وهو يتحسّس الظرف ويشتمّ محتواه.

الكلّ يعرف أن سكاي كيربي هو المرجع للمخدّرات. كان يكبرهما بسنة، في السنة الدراسيّة الأخيرة. جدّه هيبيّ قديم أحيل أكثر من مرّة على المحكمة بتهمة زرع القنّب لاستخدامه الشخصيّ.

«أجل»، أجاب فاتس وهو يشقّ سيجارتين ويفرغ التبع منهما على أوراق اللفّ. «أتعلم؟ يُقال أنّ هناك شخص يدعى أوبو في حيّ الحقول، يمكنه أن يمدّك بكلّ ما تشاء. سحقًا! حتّى الهيروويين، إن كان هذا مطلبك.»

«لكن ليس هذا ما تريده، أليس كذلك؟» سأل آندرو محدّقًا إلى وجه فاتس.

«لا.»

تناول فاتس الظرف ونثر بعض السنسيميلا فوق التبغ. لفّ السيجارة الملغومة ولعق طرف الأوراق لإلصاقه، ثمّ طرق السيجارة برفق ليكدّس التبغ بشكل جيّد وفتل أحد طرفيها ليضيق.

«رائع»، قال مسرورًا.

كان ينوي نقل الخبر العظيم إلى آندرو مباشرة بعدما يدخّنان الصاروخ، وقد جلب السنسيميلا لتكون بمثابة مقدّمة تضعهما في المزاج المناسب. مدّ يده إلى آندرو طالبًا الولّاعة، وضع طرف السيجارة بين شفتيه وأشعلها. أخذ مجّة عميقة، مطرقًا في تأمّلاته، وقذف نفسًا طويلًا من الدخان الأزرق، قبل أن يعاود الكرّة.

«مممم!» قال متلذّذًا، وهو يستبقي الدخان في رئتيه، مقلّدًا أبو خزانة حين أعطته تيسا مرّة درسًا في تذوّق النبيذ في عيد الميلاد. «نكهة كالعشب الأخضر. طعم قويّ يبقى في الفم. آثار من... سحقًا!...»

شعر بدوار قويّ، وكأنّ الأرض تنهار من تحته، رغم أنّه كان جالسًا. نفث الدخان وهو يضحك.

«...إليك، جرّب هذا.»

انحنى آندرو وتناول السيجارة، مقهقهًا مسبقًا ببلاهة لرؤية ابتسامة البهجة على وجه فاتس، في تباين صارخ مع تجهّمه وفتوره الاعتياديّين.

أخذ آندرو نفسًا وأحسّ بقوّة المخدّر تملأ رئتيه وتشعّ منهما، فتفتّح كلّ خلاياه وتحلحلها. مجّة ثانية، وأحسّ وكأنّ أحدًا ما نفض ذهنه مثل لحاف قديم، فاستكان من جديد وانفلش، أملس خاليًا من أي ثنايا. كلّ ما من حوله أصبح سلسًا، بسيطًا، سهلًا وطيّبًا.

«لذيذ...» قال معقّبًا على كلام فاتس، وهو يبتسم لنبرة صوته. أعاد السيجارة إلى فاتس الذي كان يمدّ أصابعه منتظرًا، وتذوّق ذلك الإحساس بالحبور.

«إذًا، هل تودّ سماع قصّة مثيرة؟» سأل فاتس وعلى وجهه ابتسامة يعجز عن السيطرة عليها.

«هيّا، إنني أستمع.»

«ضاجعتها ليل أمس.»

كاد آندرو يسأله «من؟»، غير أنّ دماغه الخدر تذكّر فجأة: كريستال ويدون، بالطبع. ومن سواها؟

«أين؟» سأل بحماقة. لم يكن هذا ما يودّ معرفته.

تمدّد فاتس على ظهره في بدلة الدفن، مدلّيًا رجليه فوق النهر. استلقى آندرو إلى جانبه في الاتّجاه المعاكس، بدون التفوّه بكلمة. كانا يستلقيان على هذا النحو رأسًا على عقب حين كانا يقضيان الليل أحدهما لدى الآخر في طفولتهما. حملق آندرو في السقف الصخريّ، حيث يبقى الدخان الأزرق معلّقًا في الجوّ لبرهة قبل أن يتبدّد ببطء، وانتظر حتّى يطلعه صديقه على التفاصيل.

«على فكرة، قلت لأبو خزانة وتيس إنّني ذاهب إلى منزلك، في حال سألك أيّ منهما»، قال فاتس مادًا السيجارة إلى آندرو. شبك يديه الطويلتين على صدره وراح يستمع إليه يخبر قصّته. «ثمّ صعدت في الباص إلى الحقول. التقينا خارج أودبينز.»

«متجر الكحول، قرب محلّات تيسكو؟» سأل آندرو من غير أن يدري لماذا يواصل طرح أسئلة حمقاء.

«أجل»، أجاب فاتس. «ذهبنا إلى المتنزّه. كانت هناك أشجار عند الزاوية، خلف المراحيض العامّة. مكان لطيف وبعيد عن الأنظار. كان الوقت مساءً والعتمة بدأت تلفّ المكان.»

بدّل فاتس وضعيّته وناوله آندرو السيجارة مجدّدًا.

«ولوجها كان أصعب ممّا ظننتُ»، قال فاتس. كان آندرو ينصت مفتونًا، تتنازعه الرغبة في الضحك، والخوف من أن يُفَوّت أيًّا من التفاصيل الجريئة التي قد يكشفها له فاتس بشكل فجّ. «ترطّبَت كثيرًا حين أدخلت إصبعي.»

تصاعدت ضحكة خافتة في صدر آندرو، لكنّها بقيت عالقة فيه مثل غصّة مكبوتة.

«عليك أن تدفع بقوّة للولوج إلى عمقها. إنّه أضيق ممّا ظننت.»

رأى آندرو نفسًا من الدخان يتصاعد فوق المكان الذي يفترض أن يكون فيه رأس فاتس.

«عشر ثوان، حوالى عشر ثوان وبلغت النشوة. إنّه إحساس لذيذ بعدما تصبح في الداخل، تبّا!»

قاوم آندرو رغبته في الضحك، ربّما لدى صديقه المزيد.

«وضعتُ واقيًا، لكنّ الأمر ألذّ بالتأكيد بدونه.»

وضع السيجارة في يد آندرو الذي أخذ مجّة مطرقًا. الولوج أصعب مما كنّا نظنّ، انتهى الأمر في عشر ثوان... كلّ هذا لا يبدو له استثنائيًا، لكنّه لكان أعطى كلّ ما لديه لقاءه... تخيّل غايا بودين، ممدّدة على ظهرها من أجله، فأطلق أنينًا طفيفًا عن غير قصد، غير أنّه لم يبدُ على فاتس أنّه سمعه. تائهًا في غيمة تضجّ بصور شهوانيّة مثيرة ينتصب لها عضوه، كان آندرو يمجّ اللفافة الملغومة، ممدّدًا على بقعة التراب التي امتصّت حرارة جسده، يستمع إلى خرير المياه الجارية على مسافة أمتار قليلة من رأسه.

«ما هو أهمّ شيء، آرف؟» سأل فاتس بعدما تأمّل مطوّلًا، مستغرقًا في أحلامه.

«الجنس»، أجاب آندرو ورأسه يترنّح بعذوبة.

«صحّ»، قال فاتس، منشرحًا. «الجماع. هذا ما يهمّ. انشتار... انتشار الجنس البشري. إلى الجحيم، الواقيات. تكاثروا.»

«أجل»، قال آندرو ضاحكًا.

«والموت»، أضاف فاتس. صدمته حقيقة ذلك النعش، وهشاشة الفاصل ما بين كلّ تلك العقبان المتطفّلة، والجثّة. لم يكن آسفًا لمغادرته قبل أن يراه يتوارى في جوف الأرض. «الموت حتمًا، أليس كذلك؟»

«أجل»، قال آندرو، ورأسه مليء بمشاهد حروب واصطدام سيّارات، حالمًا بنهايات عظيمة متّقدة.

«أجل»، قال فاتس. «الجماع والموت. هذا ما يهمّ، أليس كذلك؟ الجماع والموت. هذا ما يختصر الحياة.»

«أن نسعى للجماع، ونحاول تفادي الموت.»

«أو نحاول أن نموت»، قال فاتس. «بالنسبة إلى البعض. المجازفة.»

«أجل، المجازفة بالحياة.»

خيّم الصمت مجدّدا. كان الجوّ نديًا وعابقًا بالدخان في مخبئهما.

«والموسيقى»، تابع آندرو بصوت منخفض، ونظره تائه في سحابة الدخان الأزرق المعلّقة على الصخور القاتمة.

«أجل، قال فاتس بصوت كأنّما قادم من بعيد. والموسيقى.»

في الأسفل، واصل النهر طريقه، منسابًا أمام الكهف.

الجزء الثاني

الرأي المقبول

7.33 الرأي المقبول في مسألة تتعلّق بالمصلحة العامّة لا يصلح أساسًا لبناء دعوى قضائيّة.

تشارلز آرنولد-بيكر
إدارة المجالس المحليّة
الطبعة السابعة

1

هطل المطر على قبر باري فيربراذر. ذاب الحبر على بطاقات التعازي وأضحت الكلمات بقعًا مبهمة. تحدّت بتلات دوّار الشمس العريضة القطرات الغزيرة المتساقطة، لكنّ أزهار الزنبق والفريزيا في إكليل ماري ذوَت وتغضّنَت، قبل أن تتفكّك تمامًا. أقحوانات المجذاف غَمِقَ لونها، ثمّ تعفّنت. ارتفعت المياه في النهر، تحوّلت المزاريب إلى جداول وأصبحت منحدرات باغفورد طرقات زلقة غدّارة. غطّى البخار نوافذ الحافلة المدرسيّة وحوّل زجاجها إلى ألواح قاتمة. أحواض الأزهار المعلّقة في الساحة تداعت، وتعرّضت سامانثا موليسون لحادث اصطدام طفيف فيما كانت عائدة في سيّارتها إلى المنزل بعد إغلاق متجرها في المدينة، رغم أنّها كانت قد شغّلت مسّاحات الزجاج بأقصى سرعتها.

بقيت نسخة من جريدة يارفيل والجوار عالقة ثلاثة أيام خارج علبة البريد على باب السيّدة كاثرين ويدون في شارع هوب، إلى أن تشبّعت بالمياه وباتت الأحرف عليها مجرّد خربشات سوداء غير مفهومة. أخرجتها المساعِدة الاجتماعيّة كاي بودين أخيرًا من علبة البريد واسترقت النظر من الكوّة الصدئة، فلمحت السيّدة المسنّة ممدّدة أرضًا عند أسفل الأدراج، باسطة ذراعَيها وساقَيها، فطلبت الطوارئ ونُقِلت السيّدة ويدون في سيّارة إسعاف إلى مستشفى ساوث وست العامّ.

لم يتوقّف المطر، فاضطرّ رسّام اللافتات الذي أُحضِر لتغيير الاسم على لافتة محلّ الإسكافيّ، إلى تأجيل عمله. استمرّ المطر أيّامًا وليالِيَ، واكتظّت الساحة بظلال تعبر حانية ظهرها، متحدّبة في معاطف واقية من المطر، حاملة مظلّات تتشابك وتتصادم على الأرصفة الضيّقة.

وجد هاورد موليسون نقر المطر الرقيق على زجاج النافذة المعتم مُطَمْئِنًا. جلس في المكتب الذي كان في الماضي غرفة ابنته باتريسيا، متأمّلًا الرسالة الإلكترونيّة التي تلقّاها من الصحيفة المحليّة. قرّرت هيئة التحرير نشر المقالة التي كتبها عضو المجلس فيربراذر، ويدعو فيها إلى وجوب بقاء حيّ الحقول ضمن دائرة باغفورد، لكنّها كانت تأمل من باب التوازن أن يعرض عضو آخر في المجلس رأيًا مخالفًا حول المسألة في العدد التالي.

ها إنّك وقعت في الفخّ الذي نصبته، أليس كذلك يا فيربراذر؟ فكّر هاورد مسرورًا. كنتَ تعتقد أنّ الأمور ستسير على هواك...

أغلق الرسالة الإلكترونيّة والتفت إلى الرزمة الصغيرة من الأوراق إلى جانبه. إنّها الرسائل التي وردته الواحدة تلو الأخرى، مطالبة بتنظيم انتخابات لملء مقعد باري الشاغر. العدد المطلوب قانونًا لتنظيم عمليّة اقتراع عامّ هو تسعة طلبات، وقد تلقّى عشرة. أعاد قراءة الرسائل الواحدة تلو الأخرى، فيما كانت ترده من المطبخ ثرثرات زوجته وشريكته في المحلّ، تناقشان همسًا وتعجّبًا وصياحًا مداورةً الفضيحة الجديدة التي تهزّ البلدة، ومحورها العارض الصحّيّ الذي أصاب السيّدة ويدون واكتشافه المتأخّر، كانتا تشرّحان كلّ تفاصيلها المثيرة.

«... لا أحد يقاطِع طبيبه من غير سبب، ألستُ على حق؟ كانت تصيح بأعلى صوتها، على ما قالت كارين...»

«... تتّهمها بوصف أدوية غير صالحة لها، أجل، أعرف ذلك»، قالت شيرلي التي كانت تعتبر نفسها المرجع الأخير والوحيد المؤتَمن على سائر النظريّات والافتراضات الطبيّة، بفعل تطوّعها في المستشفى. «أتوقّع أن يجروا لها فحوصًا وتحاليل كاملة في المستشفى للتثبّت ممّا حصل.»

«لو كنت محلّ الدكتورة جاواندا، لما كنت الآن مرتاحة البال.»

«لا شكّ في أنّها تأمل أن تكون عائلة ويدون أكثر بساطة وجهلًا من أن تقاضيها، لكنّ كلّ ذلك لن يكون له أيّ أهميّة إذا ما اكتشف المستشفى العامّ أنها اخطأت في وصف الأدوية لها.»

«سوف يتمّ حتمًا شطبها من نقابة الأطبّاء»، قالت مورين مهلّلة لهذا الاحتمال.

«هذا صحيح»، عقّبت شيرلي، «وأخشى أن يقول العديدون في أنفسهم رحيل بلا رجعة. رحيل بلا رجعة!»

قام هاورد بفرز الرسائل بشكل منهجيّ. وضع جانبًا استمارات الترشّح التي ملأها مايلز. أمّا الرسائل المتبقّية، فكانت من زملاء في مجلس البلدة، ولم تكن تحوي أيّ مفاجأة. ما أن تلقّى هاورد رسالة إلكترونيّة من بارميندر تعلن له فيها أنّ أحدهم مهتمّ بالترشّح لمقعد باري، حتّى توقّع من هؤلاء الستّة أن يتضامنوا ويقفوا خلفها للمطالبة بتنظيم انتخابات. كان يشير إلى هؤلاء الستّة مع براز الزيز نفسها بلقب «الفصيل المشاكس»، الذي غاب زعيمه مؤخّرًا. وضع فوق هذه الرزمة ملفّ مرشّحهم المختار كولين وول الذي أتمّ الوثائق وفق الأصول.

ثمّ شكّل رزمة ثالثة وضع فيها أربع رسائل من مصادر متوقّعة أيضًا: متذمّرون محترفون من بارغفورد، ساخطون أبدًا ومشكّكون دومًا، يعرفهم هاورد عن ظهر قلب، وكلّهم يواظبون على مراسلة جريدة يارفيل والجوار متشكّين وعارضين نظريّاتهم التآمريّة. كلّ منهم كان لديه اهتمام بمسألة غامضة يهجس بها ولا أحد يفهمها سواه. هذا الفريق لكان أطلق صيحات الاستنكار وندّد بـ«المحاباة» لو تمّ اختيار مايلز بالتراضي لمنصب باري، غير أنّهم كانوا من جهة أخرى من أشدّ معارضي حيّ الحقول في البلدة.

تناول هاورد أخيرًا الرسالتين المتبقّيتين ووزنهما كلًّا في يد. كانت إحداهما من سيّدة لم يسبق أن التقاها، تدّعي (لم يكن هاورد يعتبر أيّ شيء يقال له بمثابة حقيقة مثبتة) أنّها تعمل في عيادة بيلتشابيل لمعالجة المدمنين (تعريفها عن نفسها بلقب «الآنسة» فلانة بعث فيه الثقة وجعله ميّالًا إلى تصديقها). بقي حائرًا لبرهة، ثمّ وضع الرسالة فوق ملفّ أبو خزانة وول.

الرسالة الأخيرة كانت مطبوعة على الكمبيوتر وغير موقّعة، وهي تطالب بلهجة نزقة حادّة بإجراء انتخابات. أسلوبها ينمّ عن تسرّع واستهتار، وتحوي أخطاء مطبعيّة كثيرة. عدّد كاتب الرسالة المجهول مزايا باري فيربراذر، معتبرًا أنّ مايلز «غير مؤهّل للحلول محلّه». تساءل هاورد إن كان مايلز أثار غضب أحد زبائنه الذي يحاول الآن ناقمًا إثارة المتاعب له. يجب أن يكون هاورد مطّلعًا على مثل هذه الاحتمالات الخطيرة التي قد تباغتهم. لكنّه كان يشكّ أن تكون مثل هذه الرسالة المجهولة تُعَدّ بمثابة صوت في عمليّة انتخابيّة. فكّر في الأمر، ثمّ أدخلها في الآلة الصغيرة لتقطيع الأوراق التي أهدته إيّاها شيرلي في عيد الميلاد.

2

كان مكتب إدوارد كولينز وشركاؤه للمحاماة يحتلّ الطبقة العلويّة من منزل قرميديّ في باغفورد، يؤوي في طبقته الأرضيّة محلّ نظّارات طبيّة. إدوارد كولينز توفّي، ويدير مكتبه اليوم الكاتبا بالعدل غافين هيوز، الشريك غير المساهم ذو الراتب الذي يشغل مكتبًا بنافذة واحدة، ومايلز موليسون، الشريك المساهم الذي يحتلّ مكتبًا بنافذتين. كانا يتقاسمان سكرتيرة واحدة، فتاة عزباء في الثامنة والعشرين من العمر، بملامح عاديّة غير مميّزة، لكنّ تقاطيعها متناسقة. كانت شونا تسترسل طويلًا في الضحك على نكات مايلز، وفي المقابل تعامل غافين باستخفاف متعجرف يلامس الإهانة.

في يوم الجمعة الذي تلى دفن باري فيربراذر، دقّ مايلز على باب مكتب غافين في الواحدة بعد الظهر ودخل بدون أن ينتظر الجواب. وجد شريكه شاردًا في تأمّل السماء الرماديّة المكفهرّة من خلال زجاج نافذته المرقّط بقطرات المطر.

«أنا ذاهب لتناول بعض الطعام»، قال مايلز. «هل يمكنك، إن حضرت لوسي بيفان قبل موعدها، أن تبلّغها بأنّني سوف أعود في الساعة الثانية؟ شونا خرجت من المكتب.»

«أجل، بالطبع»، ردّ غافين.

«هل أنت على ما يرام؟»

«اتّصلت ماري. ثمّة مشكلة صغيرة بالنسبة إلى بوليصة التأمين على الحياة التي عقدها باري. تريدني أن أساعدها على تسوية الأمر.»

«بالطبع. حسنًا، يمكنك تولّي المسألة، أليس كذلك؟ في مطلق الأحوال، سوف أعود في الساعة الثانية.»

ارتدى مايلز معطفه وانحدر بسرعة على الأدراج الحادّة، ثمّ تقدّم مندفعًا تحت زخّات المطر الغزير في الشارع الضيّق المؤدّي صعودًا إلى الساحة. انفرجت زاوية من السماء بشكل عابر، فتدفّق شعاع الشمس وانسكب على نصب الحرب المتلألئ وسلال الأزهار المعلّقة. غمر مايلز إحساسٌ جارف بالاعتزاز متوارَثٌ منذ أجيال وهو يقطع الساحة متعجّلًا، ليدخل محلّ موليسون ولوي، المؤسّسة المحوريّة في باغفورد وأرقى متاجر البلدة. اعتزاز لم يتراجع مع السنوات والعادة، بل نضج معه وتجذّر فيه.

انبثق رنين بلّوريّ من الجرس المعلّق على الباب حين دفعه مايلز ليدخل محلّ الأطعمة الفاخرة. كان المحلّ يشهد زحمة وقت الغداء. أمام الكونتوار اصطفّ ثمانية أشخاص ينتظرون دورهم، فيما بدا هاورد بكامل أناقته مرتديًا بدلة عمله، وذبابات صيد السمك تتدلّى من قبّعته المتألّقة، بينما ينهمك في التندّر والمداهنة، موزّعًا اللياقات بلا كلل.

«ربع أوقيّة من الزيتون الأسود، إليك روزماري. أيّ شيء آخر؟ انتهينا؟ ثمانية جنيهات و62 سنتًا. ثمانية جنيهات لك عزيزتي، باسم شراكتنا الطويلة المثمرة...»

ضحكات سرور وتعابير امتنان. قرقعة الصندوق وطرطقة القطع النقديّة.

«وها هو محاميَّ، جاء يستفسر عن حالتي»، زعق هاورد بأعلى صوته، غامزًا في اتّجاه مايلز ومبتسمًا له من فوق رؤوس الزبائن المنتظرين. «إن سمحت، حضرة المحامي، انتظرني في المخزن الخلفيّ، سأحاول عدم قول أي شيء يورّط السيّدة هاوسون...»

ابتسم مايلز للسيّدات المتوسّطات العمر اللواتي بادلنَه ابتسامات مشعّة. بطول قامته، وشعره الكثّ الضارب في الشيب والمقصوص قصيرًا، وعيناه الزرقاوان المستديرتان والكبيرتان، وكرشه المخفيّ تحت معطفه القاتم، شكّل مايلز بوسامته إضافة مهمّة إلى جودة المحلّ والرونق الذي تضفيه عليه كنوز الكعك المخبوز منزليًا وقوالب الجبنة المحليّة. قطع القاعة بحذر، متعرّجًا بين الطاولات الصغيرة التي تتكدّس عليها الأطعمة اللذيذة، وتوقّف عند القنطرة العالية المحفورة بين متجر هاورد ومحلّ الأحذية القديم، وقد أزيل عنها للمرّة الأولى الشادر البلاستيكيّ. نصبت مورين (بوسع مايلز تمييز خطّها) في منتصف الممرّ تحت القنطرة لوحًا على قوائم ثلاثيّة، كتبت عليه: «ممنوع الدخول. يُفتح قريبًا... الإبريق النحاسيّ». عاين مايلز المساحة الجانبيّة الخالية التي سيقام فيها قريبًا أحدث وأفضل مقهى في باغفورد. الجدران مجصّصة ومطليّة، والأرضيّة مرصوفة بألواح خشبيّة سوداء لمّاعة.

التفّ حول الكونتوار وعبَر خلف مورين التي كانت تشغّل قطّاعة اللّحم، فهمس نكتة في أذنها، سانحًا لها فرصة أمام الجميع لإطلاق قهقهات سفيهة بصوتها الخشن. ثمّ انحنى وعبَر الباب المؤدّي إلى الغرفة الخلفيّة الضيّقة المعتمة. كانت هناك طاولة من الفورميكا عليها صحيفة «دايلي مايل» التي تقرأها مورين، مطويّة بعناية. معطفا هاورد ومورين معلّقان على مشجبين. وباب الحمّام ينبعث منه عطر خزامى اصطناعيّ. علّق مايلز معطفه بدوره وجرّ كرسيًا قديمًا حتّى الطاولة.

بعد دقيقة أو دقيقتين، ظهر هاورد حاملًا طبقين يطفحان باللحوم الباردة من حواضر المحلّ.

«إذًا، وقع الاختيار في النهاية على الإبريق النحاسيّ؟» سأل مايلز.

«الواقع أنّ مو أحبّت هذا الاسم»، أجاب هاورد، واضعًا طبقًا أمام ابنه.

خرج من جديد بخطى متثاقلة بطيئة ليعود حاملًا قنّينتين من البيرة، ويدفع الباب برجله لإغلاقه. خيّمت في الغرفة الخالية من النوافذ ظلمة لم يبدّدها قليلًا سوى مصباح كهربائيّ كئيب يتدلّى من السقف. جلس هاورد بدوره، مطلقًا غمغمة عميقة. كان كلّمه على الهاتف قبل الظهر بنبرة تآمريّة،

أوحت إليه بمخطّطات سريّة. أُرغِم مايلز على التريّث لحظات، حتّى يفتح هاورد إحدى الزجاجتين.

«أرسل وول ملفّه»، أعلن أخيرًا وهو يمدّ البيرة إلى ابنه.

«آه!»

«سوف أحدّد مهلة. أسبوعان اعتبارًا من اليوم، حتّى يعلن كلّ مَن يشاء ترشّحه.»

«يبدو لي ذلك منطقيًّا»، قال مايلز.

«تقول والدتك إنّ برايس ذلك لا يزال مهتمًّا. هل سألتَ سام إن كانت تعرف مَن يكون؟»

«لا.»

حكّ مايلز إحدى ثنايا كرشه المندلق حتّى أعلى ركبتيه. أطلق الكرسي صريرًا حين جلس عليه.

«هل الوضع على ما يرام بينكما أنت وسام؟»

لطالما كان مايلز معجبًا بحدس والده وقوّة بصيرته.

«الوضع ليس مثاليًا، لا.»

لما كان أقرّ بذلك لوالدته، حرصًا منه على عدم تأجيج الحرب الباردة الجارية بين شيرلي وسامانثا والتي كان فيها الرهينة والمكافأة في آن.

«ليست مرتاحة لفكرة ترشّحي»، شرح مايلز. رفع هاورد حاجبيه الأشقرين، وفكّاه يواصلان مضغ لقمته. «لست أدري ما الذي يجول في بالها في الآونة الأخيرة. أعتقد أنها تمرّ بإحدى نوباتها المزاجيّة المعادية لباغفورد.»

أخذ هاورد وقته لابتلاع لقمته، ثمّ مسح طرفي فمه بمحرمة من الورق وتجشّأ.

«سوف تتخطّى ذلك بأسرع ممّا تعتقد ما إن يتمّ الأمر. هناك الجانب الاجتماعيّ للمسألة. هذا ما يستهوي الزوجات. أنشطة كثيرة في قصر سويتلوف هاوس. سوف تشعر بأنّها في بيئتها الطبيعيّة.» أخذ جرعة جديدة من البيرة وحكّ بطنه.

«لا يسعني أن أتبيّن مَن هو برايس ذاك»، قال مايلز، متطرّقًا من جديد إلى النقطة الرئيسيّة في حديثهما، «لكن يتهيّأ لي أنّه كان لديه طفل في صفّ ليكسي في مدرسة سانت توماس.»

«لكنّه في النهاية من مواليد الحقول، وهذا أهمّ ما في المسألة. من مواليد الحقول يعني أنّ ذلك قد يكون لمصلحتنا. فسوف تنقسم أصوات مؤيّدي الحقول بينه وبين وول.»

«صحيح»، قال مايلز. «هذا منطقيّ.»

لم تكن هذه النقطة خطرت له. وجد طريقة تفكير والده مذهلة.

«اتّصلت والدتك بزوجته وقالت لها أن تطبع وثائق الترشّح عن الإنترنت ليملأها. ربّما أطلب منها أن تتّصل بها مجدّدًا هذا المساء وتوضح لها أنّ أمامه مهلة أسبوعين. سنحاول دفعه إلى القيام بتحرّكه.»

«ثلاثة مرشّحين إذًا؟ مع كولين وول.»

«ثلاثة على حدّ علمي. من المحتمل بعد نشر تفاصيل الإجراءات على الموقع الإلكترونيّ، أن يتقدّم مرشّح آخر. لكنّني واثق بفرصنا. واثق تمامًا.» ثمّ أضاف «اتّصل أوبري»، متّخذًا تلك النبرة الوقورة كما في كلّ مرّة يتحدّث عن أوبري فاولي، مشيرًا إليه باسمه الأوّل. «إنّه يقف بجانبك كليّا، هذا غنيّ عن القول. سوف يعود هذا المساء. كان في المدينة.»

حين يقول سكّان باغفورد «في المدينة»، يعنون إجمالًا «في يارفيل». لكنّ هاورد وشيرلي يستخدمان العبارة للإشارة إلى لندن، مقلّدين بذلك أوبري فاولي نفسه.

«اقترح عليّ أن نلتقي جميعًا لمناقشة الموضوع. ربّما غدًا. قد يدعونا حتّى إلى القصر. قطعًا ستُسَرّ سام لذلك.»

وافقه مايلز الرأي هازًّا رأسه مطوّلًا، عاجزًا عن الكلام وقد قضم للتوّ لقمة ضخمة من فطيرة الكبد بالخبز. أعجبته فكرة وقوف أوبري فاولي «بجانبه كليّا». يمكن لسامانثا أن تسخر قدر ما تشاء من إذعان والديه لآل فاولي، يبقى أنّ مايلز لاحظ أنّها في المناسبات النادرة التي قابلت فيها وجهًا لوجه أيًّا من أوبري أو جوليا، فقد تبدّلت لهجتها بشكل طفيف وازداد سلوكها رزانة وتحفّظًا.

«أمر آخر»، تدارك هاورد وهو يحكّ كرشه. «تلقّيت رسالة إلكترونيّة من جريدة يارفيل والجوار هذا الصباح. يسألونني رأيي حول حيّ الحقول، بصفتي رئيس مجلس البلدة.»

«حقًا؟ هل يُعقَل؟ ظننت أن فيربراذر حسم هذه المسألة...»

«انقلبت ضدّه، أليس كذلك؟» ردّ هاورد بسرور عظيم. «سوف ينشرون مقالته، ثمّ يريدون أن يعرض شخصٌ آخر رأيًا مضادًا له في الأسبوع التالي، لإعطاء وجهة النظر الأخرى في القضيّة. يمكنك تقديم مساعدة بهذا الصدد، ستكون موضع ترحيب. المحامون لديهم أسلوبهم في صياغة الحجج، إلى ما هنالك.»

«طبعًا»، قال مايلز. «يمكننا التطرّق إلى تلك العيادة اللعينة لمعالجة الإدمان. هذا ما سيرجّح الكفّة.»

«بالتأكيد، فكرة ممتازة، عظيم.»

في غمرة الحماسة، كاد هاورد يختنق بلقمة ضخمة ابتلعها دفعة واحدة، فسارع مايلز إلى الضرب على ظهره إلى أن هدأ سعاله. مسح هاورد عينيه الدامعتين بمحرمة وقال أخيرًا وهو يلهث ويجهد لالتقاط أنفاسه: «سوف يوصي أوبري الإدارة المحليّة بقطع التمويل من جهتها، وأنا من جهتي، سأدفع المجلس إلى الإعلان أنّ الوقت حان لإنهاء عقد الإيجار على المبنى. طرح القضيّة في الصحافة لا يمكن أن يضرّ بنا. تصوّر كل هذه الأموال والجهود التي تمّ توظيفها في هذا المكان اللعين، بدون الحصول على أيّ نتيجة في المقابل. لديّ الأرقام كلّها.» أخرج تجشّؤًا مدوّيًا وأضاف: «هذا عار. عذرًا.»

3

انهمك غافين في تلك الليلة بإعداد العشاء لكاي في منزله، فراح يفتح علب طعام محفوظ ويسحق فصوصًا من الثوم، لكنّه كان عكر المزاج.

ثمّة أمورٌ ينبغي قولها بعد مشاجرة، لإحلال هدنة مضمونة: تلك كانت القاعدة، والكلّ يدرك ذلك. اتّصل غافين بكاي من سيّارته في طريق العودة من

دفن باري، وقال لها إنّه تمنّى لو رافقته إلى هناك، إنّ النهار بكامله كان فظيعًا، وإنّه يأمل لقاءها في المساء. كان يعتبر هذه الاعترافات بمثابة الثمن المترتّب عليه للحصول على ليلة هادئة برفقتها، ليلة خالية من التساؤلات والشروط.

لكنّ كاي رأت في موقفه على ما يبدو ما يشبه دفعة على الحساب تمهيدًا لعقدٍ جديد بشروطٍ معدّلة. افتقدتَني. احتجتَ إليّ حين كنت كئيبًا. إنّك نادم لأنّنا لم نذهب معًا. حسنًا، دعنا لا نرتكب الخطأ نفسه مرّتين. كانت، منذ ذلك الحين، تبدي قدرًا من الثقة بنفسها في تعاملها معه، شيئًا من الحدّة، وكأنّها تراهن عليه من جديد.

أعدّ طبقًا من المعكرونة بصلصة البولونيز. تعمّد عدم شراء حلوى، وعدم إعداد الطاولة مسبقًا. كان يريد بأيّ ثمن أن يظهر لها أنّه لم يُجهد نفسه في الواقع. بدا على كاي أنّها لم تلاحظ كلّ ذلك، بل أظهرت تصميمًا على اعتبار هذا السلوك المهمِل من قبيل الإطراء. جلست إلى طاولة المطبخ الصغيرة تحدّثه، وطقطقة المطر المنهمر على زجاج الكوّة في السقف تطغى على صوتها، بينما كانت تقلّب عينيها في أرجاء القاعة متفحّصة قطع الأثاث والتجهيزات. لم تزر منزله كثيرًا.

«أفترض أن ليسا هي من اختار لون الأصفر هذا، أليس كذلك؟»

ها هي تعاود الكرّة، فتعمد مرّة جديدة إلى المسّ بمحرّمات، وكأنّهما انتقلا مؤخّرًا إلى مستوى أعلى من الحميميّة. كان غافين يفضّل عدم التحدّث عن ليسا إن كان بوسعه تفادي ذلك. لا شكّ في أنّها تعرف ذلك بعد كلّ هذا الوقت. رشّ بعض الزعتر البريّ على صلصة اللّحم في القدر على النار وقال: «لا، كلّ ما في الشقّة من المالك السابق. كنت أعتزم تغيير بعض الأشياء، لكن لم يتسنّ لي ذلك بعد».

«آه»، علّقت وهي تحتسي كأسًا من النبيذ، «الحقيقة أنّ الشقّة جميلة. باهتة قليلًا ربّما.»

استاء غافين لهذه الملاحظة. فالديكور الداخليّ في منزل سميثي كان بنظره أرقى بكلّ المعايير الممكنة من ديكور الرقم عشرة في شارع هوب. ظلّ واقفًا يراقب قدر المعكرونة يغلي على النار، مديرًا ظهره لها.

«أتعرف ما حصل لي؟» قالت، «التقيت سامانثا موليسون بعد ظهر اليوم.»

استدار غافين دفعة واحدة. كيف لكاي أن تعرف حتّى كيف هو وجه سامانثا موليسون؟

«خارج محلّ الأطعمة في الساحة. كنت في طريقي لشراء هذا، أوضحت كاي وهي تنقر بظفرها على زجاجة النبيذ الموضوعة في جانبها. سألتني إن كنت صديقة غافين.»

قالت كاي ذلك بنبرة ساخرة، كأنّها وجدت الموقف طريفًا، لكن الحقيقة إنّ الصيغة التي استخدمتها سامانثا أفرحت قلبها. هكذا إذًا يصفها غافين لأصدقائه! وجدَت ذلك مطَمْئنًا.

«وكيف أجبتِها؟»

«قلت... قلت نعم.»

بدت كاي مرتبكة وخائبة. لم يكن غافين يقصد طرح السؤال بمثل هذه النبرة العدوانيّة، لكنّه كان يفضّل لو لم تلتقِ كاي وسامانثا إطلاقًا.

«مهما يكن»، واصلت كاي بصوت ينمّ عن بعض التوتّر، «دعتنا إلى العشاء يوم الجمعة المقبل، بعد أسبوع.»

«تبًا! غير معقول!» قال غافين مستاءً.

تبخّرت فرحة كاي بشكل شبه كامل.

«ما المشكلة؟»

«لا شيء. الواقع أنّ... لا، لا شيء، قال غافين وهو يحرّك المعكرونة التي كانت تغلي على النار. كلّ ما في الأمر أنّني بصراحة أرى مايلز أكثر مما ينبغي خلال دوام العمل، ويكفيني هذا القدر.»

حصل ما كان يخشاه منذ البداية: أن تشقّ طريقها وتستقرّ في حياته، ويصبحا «الثنائي غافين وكاي»، يدوران في الفلك الاجتماعي ذاته، فيصبح من الصعب عليه مع الوقت إقصاءها. كيف ترك الأمور تصل إلى هذا الحدّ؟ كيف سمح لها بالانتقال إلى البلدة؟ ما لبث استياؤه من نفسه أن تحوّل إلى نقمة عليها. لماذا لم يكن بوسعها أن تدرك كم أنّه لا يرغب بها؟ لماذا لا تخرج

من حياته من تلقاء نفسها، بدون أن يضطرّ إلى تنفيذ المهمة القذرة بنفسه؟ رمى مياه المعكرونة في المجلى، مطلِقًا شتيمة مكبوتة حين طرطشته بضع قطرات من المياه الغالية.

«في هذه الحالة، يجدر بك أن تتّصل بمايلز وسامانثا وتعتذر عن قبول الدعوة»، قالت كاي.

لمس غافين قسوة في صوتها، فسعى لتنفيس أيّ احتقان آنيّ، عملًا بعادة متجذّرة في أعماقه، على أمل أن تصطلح الأمور من تلقاء نفسها لاحقًا.

«لا، لا»، قال وهو يمسح الماء عن قميصه بفوطة مطبخ، «سوف نذهب، لا بأس. سوف نذهب.»

غير أنّه حرص على إبداء قلّة اندفاعه لهذا المشروع بشكل واضح، بحيث يتمكّن من تسجيل موقف يعود ويستند إليه لاحقًا، ويستخدمه ضدّها عند الحاجة. كنتِ تعلمين جيّدًا أنّني لم أشأ الذهاب. لا، لم أستمتع بالأمر. لا، لا أريد لذلك أن يتكرّر.

بقيا دقائق طويلة يأكلان بصمت. كان غافين يخشى أن يندلع شجار جديد، وأن ترغمه كاي على مناقشة مسائل أساسيّة عالقة بينهما. أخذ ينقّب في ذهنه، بحثًا عن موضوع حديث يطرحه، فبدأ يكلّمها عن ماري فيربراذر وشركة التأمين على الحياة.

«إنّهم يتصرّفون بنذالة كليّة»، قال. «عقد باري تأمينًا مُحكمًا على حياته، لكنّ محاميهم يبحثون عن وسيلة لعدم دفع المبلغ لها. يحاولون أن يثبتوا أنّه لم يقدّم بيانًا كاملًا بوضعه الصحيّ.»

«بأيّ معنى؟»

«قضى أحد أعمامه جرّاء تمدّد في الأوعية الدمويّة أيضًا. تقسم ماري بأنّ باري أفصح عن ذلك لوكيل التأمين عند توقيع البوليصة، لكنّ هذا التفصيل ليس مدوّنًا في أيّ مكان. لا بدّ أنّ الوكيل لم يدرك أنّه قد يشكّل عاملًا وراثيًا. ليس لديّ أيّ طريقة للتثبّت من أنّ باري أدلى فعلًا بهذه المعلومات...»

غصّ غافين وصمت. حنى رأسه فوق طبقه، وعلى وجهه المحتقن تعبير هول وارتباك. كانت كتلة من الغضب والحزن تثقل صدره بدون أن

يتمكّن من حلحلتها. سمع قوائم كرسي كاي تحفّ على الأرض. كان يأمل أن تتوجّه إلى الحمّام، لكنّه أحسّ بذراعيها تضمّان كتفيه، تشدّانه نحوها. مدّ يده تلقائيًا بدون أن يفكّر، وغمرها بدوره.

كم كان العناق يبعث شعورًا بالدفء... لو كانت علاقتهما تقتصر على حركات، حركات مواساة بسيطة، خالية من الكلام. لماذا تعلّم البشر أن يتكلّموا أساسًا؟

سال خيط ضئيل من المخاط من أنفه على ظهر قميصها.

«آسف»، قال بصوت أجشّ خفيض، ماسحًا البقعة الصغيرة بمحرمته.

تفلّت من ذراعيها ليتمخّط. جرّت كرسيها وجلست في جانبه، واضعة يدها على ذراعه. كان يحبّها أكثر بكثير حين تلزم الصمت، وتلتفت إليه بوجه يشعّ حنوّا ورفقًا، كما تفعل الآن.

«لا يسعني أن... كان رجلًا طيّبًا. باري. كان شخصًا طيّبا.»

«أجل، هذا ما يقوله الجميع عنه.»

لم تسنح لها الفرصة يومًا للقاء باري فيربراذر الشهير ذاك، لكنّها كانت تشعر بالفضول حيال لغز التأثّر الشديد الذي يبديه غافين، وحيال الرجل الذي يثير لديه هذه المشاعر.

«هل كان شخصًا طريفًا؟» سألت. كان بوسعها تصوّر غافين مفتونًا كليًّا بكوميديّ مرحٍ، بقياديّ مشاكس يقضي وقته متّكئًا إلى البار، يطلق المزاح ويثير الصخب.

«أجل، على ما أعتقد. في الواقع، لم يكن هكذا تمامًا. كان عاديًّا. كان يحبّ الضحك... كان في الواقع شخصًا... شخصًا في غاية الطيبة. كان يحبّ الناس، تعلمين؟»

انتظرت منصتة، لكن لم يبدُ غافين قادرًا على شرح المزيد عن طيبة باري.

«ثمّ الأطفال... وماري... مسكينة ماري... يا إلهي! لا يمكن أن تتصوّري الوضع.»

كانت كاي لا تزال تربّت ذراعَه برفق، لكنّ تعاطفها حياله فتَر قليلًا. ما الذي لا يمكنها أن تتصوّره؟ ذلك الإحساس بالوحدة؟ صعوبة الوضع، حين تكون مسؤولة وحدها عن عائلة؟ متى أظهر مثل هذه الشفقة لها هي، كاي؟

«كانا سعيدين حقًا، تابع غافين بصوت متهدّج. إنّها منهارة تمامًا.»

ربّتت ذراعَه بدون أن تتفوّه بكلمة. هي لم تسمح لنفسها يومًا بالانهيار. كان ذلك ترفًا لا يمكنها احتماله.

«إنّني أفضل حالًا»، قال ماسحًا أنفه بمحرمته. تناول شوكته مجدّدا وسرت اختلاجة طفيفة على ذراعه، مشيرة إليها أن تسحب يدها.

4

بادرت سامانثا إلى دعوة كاي للعشاء بدافع تختلط فيه النقمة والسأم. كانت ترى في خطوتها تلك انتقامًا من مايلز الذي يقضي وقته في تدبير المكائد والمؤامرات بدون أن يأخذ برأيها، غير أنّه يتوقّع منها في الوقت نفسه أن تتعاون معه. أرادت أن ترى ردّ فعله إذا ما دبّرت أمرًا ما بدون أن تستشيره. كما أنّها بدعوتها هذه تتقدّم شوطًا على مورين وشيرلي، العجوزين الشمطاوين المتطفّلتين، المفتونتين بكلّ ما يمتّ إلى شؤون غافين الخاصّة بصلة، غير أنّهما تكادان لا تعرفان شيئا عن علاقته بصديقته من لندن. وأخيرًا، فإنّ هذا العشاء سيمنحها فرصة جديدة لتسديد بعض اللكمات إلى غافين، الذي تأخذ عليه تخاذله وتردّده في حياته العاطفيّة. قد تتطرّق حتّى إلى موضوع الزواج أمام كاي، أو تبدي فرحتها لرؤية غافين يقدم أخيرًا على الارتباط.

لكنّ هذه الخطط التي وضعتها سامانثا للإيقاع بالآخرين لم تجلب لها البهجة التي كانت تأملها. حين أخبرت مايلز صباح السبت بما فعلت، أبدى حماسة أثارت ريبتها.

«عظيم، بالتأكيد، لم يزرنا غافين منذ دهر. ومن الجيّد أن تتعرّفي إلى كاي.»

«لماذا؟»

«تعلمين! لطالما اتّفقتِ مع ليسا، أليس كذلك؟»

«مايلز، كنت أكره ليسا.»

«حسنًا... إذًا قد تتّفقين أكثر مع كاي!»

حدّقت إليه، متسائلة من أين يستمدّ هذا المزاج الجيّد. كانت ليكسي وليبي تشاهدان حفلًا موسيقيًا على دي. في. دي في غرفة الجلوس. فهما عادتا إلى المنزل لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، ووجدتا نفسيهما محتجزتين فيه بسبب المطر الغزير. كان زعيق أغنية مشبعة بأوتار غيتار كهربائيّة يتسلّل إلى المطبخ حيث كان والداهما يتحدّثان.

«اسمعي»، قال مايلز رافعًا هاتفه الجوّال، «يريد أوبري أن نناقش مسائل تتعلّق بالمجلس. اتّصلتُ بوالدي للتوّ. إنّنا مدعوّون لتناول العشاء الليلة لدى آل فاولي في قصر سويتلوف...»

«شكرًا، لا...» قاطعته سامانثا. تملّكها غضب مفاجئ لم يكن بوسعها تفسيره حتّى لنفسها، وخرجت من المطبخ.

قضَيا النهار بكامله يتشاجران ذهابًا وإيّابًا في المنزل، محاولَيْن قدر المستطاع عدم إفساد عطلة نهاية الأسبوع على ابنتيهما. لكنّ سامانثا لم تشأ أن تبدّل رأيها أو تناقش أسباب رفضها الدعوة. مايلز، من جانبه، كان يخشى أن يفقد صبره وينفجر غضبًا بزوجته، فكان يهادنها أحيانًا، ويبدي برودة في أحيانٍ أخرى.

«كيف سيبدو الأمر بنظرك إن لم تأتي برفقتي؟» سألها في الثامنة إلّا عشر دقائق من تلك الليلة، وهو يقف عند باب غرفة الجلوس ببدلته وربطة عنقه، جاهزا للانطلاق.

«لا دخل لي بهذه المسألة على الإطلاق مايلز»، ردّت سامانثا. «لست أنا المرشّحة للمنصب، بل أنت.»

كانت تجد متعة في رؤيته محتارًا. تعلم جيّدًا أنّه يخشى أن يتأخّر عن الموعد، لكنّه يتساءل إن كان لا يزال من الممكن إقناعها بمرافقته.

«تعلمين جيّدًا أنّهما ينتظران قدومنا معًا.»

«حقًا؟ أنا لم أتلقّ دعوة من أيّ كان.»

«هيّا سام، لا تكوني هكذا، تعرفين جيّدًا أنّهما لم يقصدا... اعتبرا الأمر مفروغًا منه...»

«لا آبه. قلت لك أنّني لا أرغب في الذهاب. يجدر بك أن تسرع. بابا وماما في انتظارك، أكيد أنّك لا ترغب في تأخيرهما.»

خرج مايلز. سمعت صوت السيّارة تعود إلى الخلف في الممرّ المؤدّي إلى المنزل. ذهبت بعدها إلى المطبخ، فتحت زجاجة من النبيذ وعادت بها إلى غرفة الجلوس مع كأس. كانت تتصوّر مشهد هاورد، شيرلي ومايلز جالسين إلى مائدة العشاء في سويتلوف هاوس. لا شكّ في أنّ شيرلي ستبلغ النشوة لأوّل مرّة منذ سنوات مديدة.

شردت أفكارها وتحوّلت إلى ما قاله لها محاسبها خلال الأسبوع. لم يكن بوسعها طرد كلامه من ذهنها. أرباح متجرها تتراجع بشكل كبير، بمعزل عمّا تدّعيه وتتباهى به أمام هاورد. الواقع أنّ المحاسب اقترح عليها أن تغلق المحلّ وتركّز نشاطها على البيع على الإنترنت. لكنّ هذا الحلّ سيكون بمثابة إقرار بفشلها، وهي خطوة لم تكن سامانثا مستعدّة للقيام بها. فذلك سيكون في المقام الأوّل هديّة على طبق من ذهب لشيرلي. حماتها تصرّفت معها بمنتهى القذارة والوقاحة منذ البداية. آسفة سام، لا أستسيغ كثيرًا كلّ ذلك... أراه مفرطًا بعض الشيء... يتجاوز بقليلٍ الحدّ المقبول... لكنّ سامانثا كانت تحبّ متجرها الصغير الأحمر والأسود. تحبّ الهروب من باغفورد كلّ يوم، التحدّث إلى الزبائن، الثرثرة مع مساعدتها كارلي وتبادل آخر الأخبار. سيكون عالمها ضيّقًا للغاية بدون ذلك المتجر الذي تعتني به منذ أربعة عشر عامًا. باختصار، لن يعود يتعدّى باغفورد.

(باغفورد، تلك البلدة اللعينة. لم ترغب سامانثا يومًا في العيش هنا. كانت خطّطت مع مايلز لأخذ سنة راحة واستجمام قبل الانطلاق في حياتهما المهنيّة، والقيام برحلة حول العالم. حتّى إنّهما حدّدا مسار رحلتهما وحصلا على تأشيرات الدخول. كانت سامانثا تحلم بالتسكّع عارية القدمين مع مايلز، شابكة يدها بيده، على طول شواطئ رمليّة بيضاء في أستراليا. ثمّ اكتشفت أنّها حامل.

قصدت مايلز في آمبلسايد غداة إجرائها اختبار الحمل، بعد أسبوع على تخرّجهما. كان من المفترض أن يغادرا إلى سنغافورة بعد ذلك بثمانية أيّام.

لم تشأ سامانثا أن تنقل الخبر إلى مايلز في منزل والديه. كانت تخشى أن يسترقا السمع. كلّما كانت سامانثا تفتح بابًا في المنزل الصغير، كان يتهيّأ لها أن شيرلي مختبئة خلفه.

انتظرت إذًا حتّى جلسا إلى طاولة في زاوية معتمة من الراهب الأسود. لا تزال تذكر كيف تشنّج فكّ مايلز حين أعلنت له الخبر. حصل له أمرٌ لا يمكنها أن تصفه تحديدًا، وكأنّه شاخ فجأة حين تلقّى النبأ.

توقّف الزمن لبضع ثوان، لم يتفوّه خلالها بكلمة. ثمّ قال: «حسنًا. سوف نتزوّج.»

أكّد لها أنّه سبق أن اشترى لها خاتمًا، وأنّه كان يعتزم طلب يدها، لكنّه كان ينتظر حتّى يكونا في مكان يليق بالمناسبة، على رأس جبل آيرز روك الصخريّ مثلًا في أستراليا. لم يكن كذب عليها، إذ ما أن عادا إلى المنزل العائليّ الصغير، حتّى أخرج العلبة الصغيرة من مخبئها في قعر حقيبة الظهر التي كان سيحملها في الرحلة. كان خاتمًا صغيرًا مرصّعًا بالماس اشتراه من محلّ صيغة في يارفيل، ودفع ثمنه من الأموال التي ورثها من جدّته. جلست سامانثا على طرف سرير مايلز وراحت تبكي، تبكي بدون توقّف. وبعد ثلاثة أشهر، تزوّجا.)

جلست سامانثا وحيدة مع زجاجة النبيذ، وشغّلت التلفزيون. ظهر مشهد من شريط الموسيقى الذي كانت ليكسي وليبي تشاهدانه. صورة جامدة لأربعة فتيان بالكاد تخطّوا سنّ المراهقة، يغنّون مرتدين قمصان تي شيرت ضيّقة. ضغطت على زرّ التشغيل. حين انتهى الفتيان من أداء أغنيتهم، انتقل الشريط إلى مقابلة معهم. أنهت سامانثا كأس النبيذ وهي تشاهد أعضاء الفرقة الموسيقيّة يضحكون ويتندّرون بعضهم على بعض، ثمّ يتّخذون نبرة بمنتهى الجديّة ليشرحوا كم أنّهم يحبّون المعجبين بهم. خطر لها أنّها لكانت حزرت أنّهم أميركيّون حتّى لو كانت تشاهد المقابلة بدون الصوت. كانت أسنانهم رائعة، ناصعة ومتراصّة.

تأخّر الوقت. أوقفت الشريط، صعدت إلى الطبقة العلويّة وطلبت من الفتاتين أن تتوقّفا عن اللعب على البلاي ستيشن وتخلدا إلى النوم. ثمّ عادت إلى غرفة الجلوس. كانت أفرغت ثلاثة أرباع زجاجة النبيذ. لم تشعل الضوء. ضغطت على زرّ تشغيل الفيلم وواصلت الشرب. حين انتهى الفيلم، باشرت تشغيله منذ البداية وشاهدت المقطع الذي كانت فوّتته.

بدا أحد الفتيان أكثر نضجًا بكثير من الآخرين. كان عريض الكتفين، عضلاته مفتولة تحت كمّي قميصه القصيرين، عنقه غليظة وفكّه الأسفل مربّع. تأمّلته سامانثا وهو يتمايل مترنّحًا على وقع الموسيقى، محدّقًا إلى عدسة الكاميرا بلامبالاة وجديّة، وجهه فاتن بعظامه البارزة ووجنتيه المسطّحتين وحاجبيه السوداوين العريضين.

فكّرت في حياتها الجنسيّة مع مايلز. آخر مرّة ضاجعها كانت قبل ثلاثة أسابيع. كان أداؤه كالمعتاد، خاليًا من أي مفاجأة، مثل مصافحة مع ماسونيّ. من مبادئه المفضّلة في الحياة «لا تصلح ما ليس محطّمًا».

أفرغت سامانثا ما تبقّى من النبيذ في كأسها، وتصوّرت نفسها تمارس الجنس مع الفتى في الفيلم. نهداها في الآونة الأخيرة يبدوان أفضل حالًا في حمّالة الصدر. حين تتمدّد، يتراخيان وينفلشان في كلّ الاتّجاهات، ما يجعلها تشعر بنفسها مترهّلة وقبيحة. تخيّلت نفسها مدفوعة لصق جدار، إحدى ساقيها مرفوعة وفستانها مشمّر حتّى خصرها، وذلك الفتى الأسمر القويّ يلجها بعنف متأرجحًا بين فخذيها، وقد أنزل جينزه حتّى ركبتيه...

أحسّت بالدماء تندفع في عروقها وغمرها إحساس التهم أحشاءها، يكاد يشبه السعادة. في تلك اللحظة، سمعت هدير السيّارة تنعطف في الممرّ المؤدّي إلى المنزل وألقت الكشّافات شعاعًا من الضوء التفّ من حول القاعة المعتمة.

تعاركت مع جهاز التحكّم عن بُعد لتنقل التلفزيون إلى نشرة إخباريّة، ما استغرق وقتًا أطول من العادة. دفعت زجاجة النبيذ الفارغة فتدحرجت تحت الأريكة، وأمسكت كأسها شبه الفارغة في يدها لتعطي نفسها بعض الثّقة. فُتِح باب المدخل وأغلق. دخل مايلز القاعة من خلفها.

«لماذا تجلسين في الظلمة؟»

أشعل الضوء والتفتت نحوه. وجدته أنيقًا ومهندَمًا كما كان حين خرج، باستثناء بعض قطرات المطر التي حطّت على كتفَي سترته.

«كيف كان عشاؤك؟»

«جيّد. افتقدناك. أوبري وجوليا أبديا أسفهما لعدم حضورك.»

«آه! إنني واثقة بذلك. وأراهن على أنّ والدتك بكت من شدّة خيبتها.»

جلس في كنبة عند زاوية أريكتها وحدّق إلى وجهها. أبعدت خصلات شعرها عن عينيها.

«ما المسألة سام؟»

«إن كنتَ لا تدري من تلقاء نفسك، مايلز...»

لكنّها في الواقع لم تكن واثقة بنفسها. أو بالأحرى لم تكن تدري كيف تستوضح ذلك الإحساس المبهم بأنّها ضحيّة سوء معاملة، لتوظّفه في اتّهام واضح ومتماسك.

«لست أفهم كيف أنّ ترشّحي لمقعد في المجلس...»

«آه مايلز، بربّك!» صرخت، متفاجئة قليلًا بحدّة صوتها.

«اشرحي لي، أرجوك. كيف يمكن أن يبدّل ذلك حياتك؟»

رمقته بنظرة غاضبة، محاولة أن تجد العبارات المناسبة لتشرح ما تشعر به لعقله القانونيّ المتحذلق الذي ينقضّ مثل كمّاشة لا ترحم على أدنى كلمة غير دقيقة ليراوغ ويحرّف، غير أنّه يخفق غالبًا في تكوين صورة عريضة شاملة للمشهد. ماذا عساها تقول له حتّى يفهمها؟ إنّها سئمت الاستماع إلى هاورد وشيرلي يتحدّثان باستمرار عن المجلس وشؤون المجلس؟ إنّها تجده هو نفسه مضجرًا بما يكفي، بنكاته المستنفدة حول ماضيه المجيد في نادي الركبي، وتشدّقه حول نجاحاته في العمل، بدون أن يزيد الطين بلّة بعظاته الرنّانة حول حيّ الحقول؟

«الحقيقة أنّني كنت أظنّ أنّ لدينا خططًا أخرى»، قالت سامانثا، جالسة في النور الخافت في الصالون.

«خطط أخرى؟ أيّ خطط؟ سأل مايلز. ما الذي تقصدينه؟»

«اتّفقنا في الماضي على أنّنا سوف نذهب في رحلة بعدما تنهي الفتاتان دراستهما»، قالت سامانثا متعمّدة التكلّم بوضوح، وشفتاها تكادان تلامسان حافة الكأس المرتجفة بين يديها. «كان ذلك وعدًا قطعناه أحدنا للآخر، هل تذكر؟»

لم يسبق لها يومًا أن تحسّرت على تلك الرحلة التي فوّتتها على نفسها، حتّى في أحلك أوقات الغضب والتعاسة التي ألمّت بها منذ أن أعلن مايلز نيّته الترشّح للمجلس، غير أنّه بدا لها في تلك اللحظة تحديدًا أنّ تلك كانت المشكلة الحقيقية. أو أنّها تعبّر على أفضل وجه عن النقمة والمرارة اللتين تلتهمانها من الداخل.

بدا مايلز مذهولًا.

«ما الذي تتحدّثين عنه؟»

«حين حملت بليكسي»، قالت سامانثا بصوت عالٍ، «ولم يكن بوسعنا السفر، وأرغمتنا والدتك البغيضة على الزواج بأسرع ما يكون، ودبّر لك والدك وظيفة في مكتب إدوارد كولينز، قلتَ حينها، بل اتّفقنا على أن نؤجّل مشاريعنا إلى حين تكبر الفتاتان. قلنا حينها إنّنا سنرحل ونقوم بكل ما لم يتسنّ لنا القيام به.»

هزّ رأسه ببطء.

«هذه أوّل مرّة أسمع بمثل هذا الشيء»، قال. «من أين تخرجين بكلّ هذا؟»

«مايلز، كنّا في حانة الراهب الأسود. أخبرتُك أنّني حامل، وقلت... بحقّ السماء مايلز... أخبرتك أنّني حامل، ووعدتَني، قطعتَ لي وعدًا...»

«تريدين عطلة؟ هذا ما تريدينه؟ عطلة؟»

«لا مايلز، تبًا، لا أريد عطلة. ما أريده... ألا تذكر؟ قلنا إنّنا سنأخذ سنة إجازة لاحقًا وننفّذ مشروعنا، بعدما تكبر الفتاتان!»

«حسنًا أذًا»، قال بعصبيّة، مصمّمًا على وضع حدّ للحديث. «حسنًا. حين تبلغ ليبي الثامنة عشرة، بعد أربع سنوات، سنعاود مناقشة الموضوع.

في هذه الأثناء، لست أفهم كيف يمكن أن تؤثّر عضويّتي في المجلس بأيّ شكل من الأشكال على المسألة برمّتها...»

«معك حق. فعلًا لن يؤثّر شيئًا سوى أنّنا سنموت من السأم ونحن نقضي ما تبقّى لنا من أيّامٍ طبيعيّة على هذه الأرض مستمعين إليك وإلى والديك تتذمّرون وتتشكّون من حيّ الحقول...»

«أيّام طبيعيّة؟» قال مبتسمًا ابتسامة ساخرة. «طبيعيّة بالمقارنة مع ماذا؟»

«تبّا لك»، ردّت بحدّة. «لا تتذاكَ مايلز، قد تُبهِر والدتك بهذه الحذلقات، لكن...»

«بصراحة، لست أفهم ما هي المشكلة...»

«المشكلة»، صاحت، «أنّ الأمر يتعلّق بمستقبلنا، مايلز. مستقبلنا نحن الاثنين. ولا أريد أن نناقش الموضوع بعد أربع سنوات، أريد مناقشته الآن، حالًا!»

«أعتقد أنّه يجدر بك أن تأكلي شيئًا»، قال مايلز وهو ينهض. «لقد شربتِ بما فيه الكفاية.»

«اذهب إلى الجحيم، مايلز!»

«عذرًا، لكن إن كنت ستبدئين بالشتائم...»

استدار وخرج من الغرفة. بالكاد تمالكت نفسها عن قذفه بالكأس.

ذاك المجلس اللعين. إن نجح بالانضمام إليه، فلن يخرج منه أبدًا. لن يتخلّى تحت أية ظروف عن مقعده، لن يتنازل عن الفرصة بأن يصبح من أعيان باغفورد الأصليّين، مثل هاورد. سوف ينذر نفسه لباغفورد بدون سواها، يجدّد ولاءه للبلدة التي أبصر فيها النور، لمستقبل مختلف تمامًا عن ذلك الذي وعد به خطيبته الشابّة البائسة، وهي جالسة تبكي على حافّة سريره.

متى كانت آخر مرّة تكلّما فيها على السفر حول العالم؟ لم تكن واثقة. منذ سنوات طويلة جدًّا ربّما، لكنّ سامانثا قرّرت في تلك الليلة تحديدًا أنّها، هي على الأقل، لم تتخلّ يومًا عن هذا الحلم. أجل، فلطالما انتظرَت أن يأتي يومٌ يحزمان فيه حقائبهما ويرحلان، يقطعان نصف العالم بحثًا عن الشمس

والحريّة، بعيدًا عن باغفورد، وشيرلي، ومولیسون ولوي، والمطر، بعيدًا عن هذا العالم الضيّق المملّ. ربّما مضت سنوات بدون أن تحلم بالشواطئ الرمليّة الناصعة التي تنتظرها في أستراليا وسنغافورة، لكن الحقيقة أنّها تفضّل أن تكون هناك، رغم فخذيها المكتنزين والتشقّقات على جلد بطنها، على أن تكون هنا، عالقة في فخّ باغفورد، تراقب مايلز يتحوّل تدريجيًا إلى هاورد.

استلقت على الأريكة، تناولت جهاز التحكّم وأعادت تشغيل فيلم ليبي. ظهر أعضاء الفريق بالاسود والأبيض، يتسكّعون ببطء على طول شاطئ مقفر، وهم يغنّون. كانت قميص الفتى العريض الكتفين مشرّعة على صدره، تتطاير مع الريح. كان خيطًا رقيقًا من الوبر ينحدر من سرّته ويتوارى تحت بنطاله الجينز.

5

نجحت آليسون جينكينز، الصحافيّة في جريدة يارفيل والجوار، في العثور على منزل كريستال، من بين كلّ المنازل التي تقيم فيها عائلات باسم ويدون. كانت العمليّة شاقّة. فلم يكن هناك أيّ ناخب مسجّل في ذلك العنوان، كما أنّه لم يكن هناك خطّ هاتفيّ ثابت في المنزل مدرج في الدليل. توجّهت آليسون شخصيًا إلى شارع فولي يوم الأحد ودقّت باب المنزل، لكنّ كريستال كانت خرجت، وبدت تيري مرتابة وعدائيّة، وقد رفضت أن تحدّد لها ساعة عودتها، أو تؤكّد لها حتّى إن كانت تقيم هناك.

لم تمضِ عشرون دقيقة على مغادرة الصحافيّة في سيّارتها، حتّى عادت كريستال، ودار شجار جديد بينها وبين والدتها.

«لماذا لم تقولي لها أن تنتظر؟ كانت ستُجري معي مقابلة حول الحقول، ومسائل كهذه.»

«مقابلة معك أنت؟ اللعنة، إنّك تهذين. ولماذا تقابلك؟»

احتدم الشجار، وغادرت كريستال من جديد، قاصدة منزل نيكي، بعدما دسّت هاتف تيري في جيب سروالها الرياضيّ. غالبًا ما كانت تسرق

الهاتف من والدتها وتغادر. والعديد من المشاحنات بينهما كانت تبدأ حين تطالبها والدتها بالهاتف الجوّال، فتدّعي كريستال أنّها لا تعرف أين يمكن أن يكون. في تلك الليلة، كانت كريستال تأمل أن تكون الصحافيّة وجدت سبيلًا للحصول على الرقم، وأن تتّصل بها مباشرة.

كانت في مقهى مزدحم وصاخب في المركز التجاريّ، تخبر نيكي وليان عن الصحافيّة، حين رنّ الهاتف.

«آلو؟ من أنت؟ هل أنت الصحافيّة؟»

«مَن.. هو... تيري؟»

«أنا كريستال. من يتكلّم؟»

«... نا... خال... شقي... لدتك.»

«مَن؟» صرخت كريستال. ملصقةً الهاتف بأذنها وضاغطة إصبعها على الأذن الأخرى، التفّت حول الطاولات المكتظّة وابتعدت إلى زاوية أكثر هدوءًا.

«دانيال، قالت المرأة بصوت عالٍ وواضح في السمّاعة. أنا شقيقة والدتك.»

«آه، أجل» قالت كريستال، وقد خاب أملها.

متعجرفة عاهرة. هذا ما كانت تيري تقوله دائمًا ما أن يرد اسم دانيال في الحديث. لم تكن كريستال واثقة بأنّها التقت دانيال من قبل.

«أتّصِل بشأن جدّة والدتك.»

«من؟»

«نانا كاث»، قالت دانيال وقد بدأت تفقد صبرها. خرجت كريستال إلى الشرفة المطلّة على الساحة أمام مركز التسوّق. كان الإرسال قويًّا في تلك النقطة، فتوقّفت وتسمّرت في أرضها.

«ماذا بها؟ هل حصل لها شيء؟» أحسّت كريستال بأحشائها تنقلب، كما عندما كانت طفلة تتشقلب فوق سياج كالذي تقف أمامه الآن. على مسافة عشرة أمتار في الأسفل، كان الحشد يعبر مثل سيل بشريّ متراصّ، البعض يحمل أكياسًا بلاستيكيّة، البعض الآخر يدفع عربات أطفال والبعض أيضا يجرّ أولادًا من أيديهم.

«إنّها في مستشفى ساوث وست العامّ. نُقلت إلى هناك منذ أسبوع. أُصيبت بنوبة.»

«إنّها في المستشفى منذ أسبوع؟» استغربت كريستال، ومعدتها لا تزال منقبضة. «لم يخبرنا أحد بشيء.»

«أجل. فهي لا تستطيع التكلّم بوضوح، لكنّها لفظت اسمك مرّتين.»

«اسمي أنا؟» قالت كريستال وهي تشدّ على الهاتف بكلّ قوّتها.

«أجل. أعتقد أنها ستفرح برؤيتك. حالتها خطيرة. يقولون إنّها قد لا تتعافى.»

«أين في المستشفى؟ أيّ قسم؟» سألت كريستال وفي رأسها طنين.

«القسم 12. العناية الفائقة. ساعات الزيارات من الظهر وحتّى الرابعة، ومن السادسة إلى الثامنة. كلّ شيء واضح؟»

«هل إنّ...؟»

«عليّ أن أتركك الآن. أردت فقط أن أبلّغك، في حال كنت ترغبين في رؤيتها. إلى اللقاء.»

أغلقت الخطّ. أبعدت كريستال الهاتف عن أذنها، وهي تتأمّل الشاشة. أخذت تضغط على زرّ بإبهامها، إلى أن ظهرت لها عبارة «رقم خاصّ». خالتها حجبت رقمها.

عادت كريستال إلى نيكي وليان. حزرت الفتاتان على الفور أن شيئًا ما حصل لها.

«اذهبي لزيارتها»، قالت نيكي وهي تتحقّق من الساعة على هاتفها الجوّال. «سوف تصلين في الساعة الثانية. اذهبي في الباص.»

«أجل»، ردّت كريستال، وهي تحت وطأة الصدمة.

خطر لها أن تصطحب والدتها معها، أو أن تأخذ روبي ليرى نانا كاث هو أيضًا، غير أنّ شجارًا هائلًا كان قد وقع في العام السابق بين تيري ونانا كاث، ولم يجرِ أيّ اتّصال بينهما منذ ذلك الحين. كانت كريستال واثقة بأنّها ستضطرّ إلى بذل جهود هائلة لإقناع والدتها بالذهاب إلى المستشفى، ولم تكن متأكّدة من أنّ نانا كاث ستكون سعيدة برؤيتها.

حالتها خطيرة. يقولون إنّها قد لا تتعافى.

«هل تحملين ما يكفي من النقود؟» سألت ليان وهي تنقّب في جيوبها، فيما الفتيات الثلاث يسلكن الطريق صعودًا نحو موقف الحافلات.

«أجل»، قالت كريستال بعدما تحقّقت ممّا لديها. «ندفع جنيهًا واحدًا للوصول إلى المستشفى، أليس كذلك؟»

كان لديهنّ ما يكفي من الوقت لتقاسم سيجارة قبل وصول الباص رقم 27. وقفت نيكي وليان تلوّحان لها وكأنّها تنطلق في رحلة استجمام إلى مكان جميل. في اللحظة الأخيرة، شعرت كريستال بالخوف وأرادت أن تصرخ لهما «تعالا معي!» لكنّ الحافلة انطلقت مبتعدة عن الرصيف، ورأت نيكي وليان تستديران وتكملان طريقهما وهما تثرثران.

لم يكن المقعد مريحًا. كان مغطّى بقماش قديم تنبعث منه رائحة كريهة. سلكت الحافلة وهي تتأرجح وتتهادى على الطريق المحاذي للحيّ التجاريّ، وانعطفت يمينًا في إحدى الجادات الرئيسة، تصطفّ على جانبيها كل المتاجرالراقية ذات الماركات الكبيرة.

كان الخوف يختلج في أحشاء كريستال مثل جنين. كانت تدرك جيّدًا أنّ نانا كاث أصبحت هرمة وصحّتها هشّة، لكنّها كانت تحتفظ بأمل لا يمكنها تفسيره بأنّها ستستعيد عافيتها بطريقة ما، وستعود بين ليلةٍ وضحاها إلى ذروة حيويّتها، هي التي أعطت دومًا انطباعًا بأنّ العمر لن ينال منها. كانت كريستال تنتظر أن يستعيد شعرها لونه الأسود، وأن يستقيم ظهرها مجدّدًا، وتعود لها ذاكرتها الحادّة ولسانها السليط. لم يخطر لها يومًا احتمال أن تموت نانا كاث، بل كانت ذكراها تقترن دائمًا في ذهنها بالصلابة والصمود، وكأن شيئا لن يمسّها. لم تعر كريستال يومًا اهتمامًا لصدر نانا كاث المتشوّه، ولا للتجاعيد الكثيرة التي تزيّح وجهها، بل كانت ترى في كلّ ذلك ندبات مشرّفة خلّفتها المعركة القاسية التي خاضتها من أجل البقاء، وخرجت منها منتصرة. لم يعمّر أحدٌ من محيط كريستال المباشر طويلًا.

(كان الموت يدهم جميع المقرّبين من والدتها في سنّ الشباب، بعضهم قضوا حتّى قبل أن تترهّل وجوههم وأجسادهم وتضمر. الجثّة التي عثرت عليها

كريستال في الحمّام حين كانت طفلة في السادسة كانت لشابّ وسيم يشبه تلك التماثيل الرائعة، ببشرته البيضاء. هكذا بقيَت صورته مطبوعة في ذاكرتها على الأقلّ. لكنّها تجد هذه الذكرى أحيانًا مشوّشة، غامضة، فتبدأ بالتشكيك فيها. من الصعب أن تعرف ما عليها أن تصدّقه حقًا. فهي كثيرًا ما سمعت أشياء في طفولتها نقضَها البالغون لاحقًا ونفوها. يمكنها أن تقسم إنّ تيري قالت لها يومها «ذلك كان والـدك». غير أنّها عادت بعد مضي وقت طويل وقالت لها «لا تكوني حمقاء، والدك ليس ميتًا. إنّه في بريستول، فهمت؟» فتوجّب بالتالي على كريستال أن تحاول التمسّك مجدّدًا بفكرة «الفِرْقَيع»، وهو الاسم الذي يطلقه الجميع على الرجل الذي يقولون إنّه والدها.

وسط كلّ ذلك، كانت هناك على الدوام نانا كاث. إن كانت كريستال نجت من نقلها إلى عائلة استقبال، فذلك بفضل نانا كاث. كانت تبقى في الانتظار، متأهّبة. شبكة أمان غير مريحة، إلّا أنّها قويّة. تصل كالصاعقة، مطلقة الشتائم والزعيق، فتصبّ جامّ غضبها على تيري كما على أجهزة المساعِدة الاجتماعيّة، وتصطحب معها إلى المنزل ابنة حفيدتها التي لا تقلّ عنها نقمة وحنقًا.

لم تعرف كريستال يومًا إن كانت أحبّت ذلك المنزل الصغير في شارع هوب أم كرهته. كان منزلًا مهمَلًا قذرًا تفوح فيه رائحة موادّ التبييض الخانقة، يبعث فيك إحساسًا بأنّك محاصَر. غير أنّك، في الوقت نفسه، تشعر بالأمان، بأمان تامّ. لم تكن نانا كاث تسمح بالدخول سوى لأشخاص ترضى عنهم. وكانت هناك مربّعات من أملاح الحمّام القديمة الطراز في إناء زجاجيّ في زاوية المغطس.)

ماذا لو وجدت آخرين بجانب سرير نانا كاث في المستشفى عندما تصل إلى هناك؟ ستعجز عن التعرّف إلى نصف أفراد عائلتها، وفكرة التقاء غرباء مجهولين يسري في عروقهم الدم ذاته كانت ترهبها. كان لتيري العديد من الأخوات غير الشقيقات يتحدّرن من العلاقات الكثيرة التي أقامها والدها، والذين لم تلتقِهم تيري يومًا. غير أنّ نانا كاث حاولت جاهدةً طوال حياتها أن تتابع أخبار الجميع، وألّا تقطع الاتّصال مع العائلة الكبيرة والمفكّكة المتحدّرة

من أبنائها. على مرّ السنين، كان أقرباء لا تعرفهم كريستال يحضرون أحيانًا إلى منزل نانا كاث وهي هناك. كان يتهيّأ لها أنّهم ينظرون إليها شزرًا، وأنّهم يهمسون أشياء سيّئة عنها لنانا كاث. كانت تدّعي بأنّها لم تلاحظ وتنتظر إلى أن يرحلوا، فتعود وتستأثر بنانا كاث وحدها. أكثر ما كانت تمقته فكرة أن يكون هناك أطفال غيرها في حياة جدّة والدتها.

(«من هم هؤلاء؟» سألت كريستال نانا كاث حين كانت في التاسعة من العمر، مشيرة بحسد إلى صورة لفتيين يرتديان بدلة مدرسة باكستون هاي، موضوعة في إطار على الصوان في منزل نانا كاث.

«إنّهما اثنان من أبناء أحفادي. هذا دان وهذا ريكي. إنّهما ابنا خالك.»

لم تكن كريستال تودّ أن يكونا ابنَي خالها، ولم تكن تودّ رؤيتهما معروضين فوق صوان نانا كاث.

«ومن هذه؟» سألت، مشيرة إلى فتاة صغيرة ذات خصل ذهبيّة مجعّدة.

«هذه ريانون، صغيرة ابني مايكل حين كانت في الخامسة. إنّها جميلة أليس كذلك؟ لكنّها حمقاء، لم تجد أفضل من زنجيّ تتزوّجه!»

لم تعرض نانا كاث يومًا أيّ صورة لروبي على صوانها.

لا تعرفين حتّى مَن هو والده، أليس هذا صحيحًا، أيّتها العاهرة؟ إنّني أتبرّأ من مسؤوليّتك. سئمت كلّ ذلك تيري، طفح الكيل. سوف تهتمّين به وحدك.)

واصل الباص تقدّمه ببلادة عبر المدينة، شاقًّا طريقه بين حشود متسوّقي بعد ظهر الأحد. حين كانت كريستال طفلة، كانت تيري تصطحبها إلى وسط يارفيل في كلّ عطلة نهاية أسبوع تقريبًا، فترغمها على الجلوس في عربة أطفال حتّى بعدما تخطّت السنّ بسنوات، لأنّه كان من الأسهل عليها أن تخفي ما تختلسه في عربة طفل. لم يكن عليها سوى أن تدسّ البضائع المسلوبة تحت ساقي الطفلة، أو تخفيها تحت الأكياس المكدّسة في السلّة تحت المقعد. أحيانًا كانت تيري تذهب في «جولات التسوّق» هذه برفقة شقيقتها الوحيدة التي لم تكن قد قاطعتها بعد، شيريل، المتزوّجة من شاين

تالي. كانت شيريل وتيري تعيشان في حيّ الحقول، على مسافة أربعة شوارع الواحدة من الأخرى. كلّما تشاجرتا، وكان ذلك كثير الحدوث، كان الحيّ يتسمّر هولًا إزاء سيل الشتائم والكلام البذيء الذي يخرج من فمَيهما. لم تدرِ كريستال يومًا ما إذا كان يفترض بها أن تظلّ على علاقة مع أبناء خالتها أم أن تقاطعهم، والواقع أنّها لم تعد تكترث للبقاء على اتصال بهم، لكنّها كانت تكلّم داين كلّما التقته. تضاجعا مرّة حين كانا في الرابعة عشرة، بعدما تقاسما زجاجة من خمر التفّاح في المتنزّه. ولم يأتِ أيّ منهما على ذكر المسألة في ما بعد. لم تكن كريستال تدري تمامًا ما إذا كانت ممارسة الجنس مع الأقرباء أمرًا مشروعًا أم لا. قالت نيكي مرّة شيئًا جعلها تعتقد أنّه قد لا يكون مشروعًا.

تسلّق الباص بمشقّة الطريق المؤدّية إلى مدخل المستشفى الرئيسيّ، وتوقّف على مسافة عشرين مترًا من المبنى الضخم ذي الشكل المستطيل والمصنوع من الإسمنت الرماديّ والزجاج. كانت هناك بقع من العشب الأخضر النضر، بضع شجيرات صغيرة، وغابة من اللافتات.

نزلت كريستال من الحافلة بعد سيّدتين مسنّتين، ووقفت تتلفّت بحثًا عن طريقها، ويداها في جيبَي سترتها الرياضيّة. نسيت اسم القسم الذي أُدخلت إليه نانا كاث، كلّ ما تذكره هو الرقم 12. تقدّمت نحو أقرب لافتة إليها، متظاهرة بعدم الاكتراث، ملتفتة إليها وكأنّما مصادفة، عن غير قصد: كانت تحمل خطوطًا متداخلة من الأحرف التي لا يمكن تهجئتها، كلمات طويلة مثل ذراع كريستال، ترافقها أسهم تشير يمينًا، ويسارًا، وجانبيًا. لم تكن كريستال تجيد القراءة، ومواجهة هذا الكمّ من الكلمات كان يجعلها تشعر بالرهبة ويثير عدائيّتها. بعد إلقاء عدّة نظرات خلسةً إلى الأسهم، اعتبرت أنّه لم يكن هناك أيّ رقم مدرج، وقرّرت أن تلحق بالسيّدتين إلى الباب الزجاجيّ المزدوج في الواجهة الأماميّة للمبنى الرئيسيّ.

كانت ردهة المدخل مكتظّة، ومحيّرة أكثر من اللافتات بعد. وجدت متجرًا مزدحمًا، تفصله عن القاعة ألواح زجاجيّة ترتفع حتّى السقف. كانت هناك صفوف من الكراسي البلاستيكيّة يحتلّها أشخاص يلتهمون الشطائر، ومقهى يغصّ بالناس في إحدى الزوايا. يتوسّط الردهة مكتب استقبال

سداسيّ الشكل، تجلس خلفه موظّفات يُجِبن عن أسئلة الزائرين بعد استطلاع شاشات أجهزة كمبيوتر أمامهنّ. توجّهت كريستال إلى المكتب، وهي لا تزال تغرز يدَيها في جيبَيها.

«أين القسم 12؟» سألت إحدى الموظّفات بنبرة واثقة بنفسها.

«الطبقة الثالثة»، أجابت المرأة بصوت مماثل.

لم تشأ كريستال أن تطرح أيّ سؤال آخر من باب الكبرياء، فاستدارت وابتعدت، إلى أن رصدت مصاعد عند أقصى قعر الردهة. دخلت أحد المصاعد الذي ارتفع بها.

استغرق الأمر حوالى ربع ساعة حتّى تجد القسم الذي كانت تبحث عنه. لماذا لم يضعوا بكلّ بساطة أرقامًا وأسهمًا، بدل كلّ هذه الكلمات الطويلة الحمقاء؟ كانت تمشي على طول ممرّ مطليّ باللون الأخضر الفاتح، وحذاؤها الرياضيّ يصرّ على الأرضيّة المشمّعة، حين سمعت أحدًا يناديها باسمها.

«كريستال؟»

كانت تلك خالتها شيريل، امرأة بدينة طويلة القامة ترتدي تنّورة من الجينز وسترة بيضاء ضيّقة. شعرها مصبوغ باللون الأصفر كالموز، وجذوره تلوح سوداء. ذراعاها السمينتان مكسوّتان بالوشوم من أصابعها حتّى كتفيها، ومن أذنيها تتدلّى أقراط ذهبيّة أشبه بحلقات الستائر. كانت تمسك بيدها عبوة بيبسي.

«إذًا، لم تكلّف نفسها العناء؟» قالت شيريل، واقفة بصلابة على ساقيها العاريتين المتباعدتين، في وقفة حارسٍ متأهّب.

«من؟»

«تيري. لم تشأ المجيء؟»

«لم تعلم بالمسألة بعد. بلغني الخبر للتوّ. اتّصلَت بي دانيال وأخبرتني.»

فتحت شيريل عبوة البيبسي وابتلعت جرعة، وهي تراقب كريستال من فوق طرف العبوة بعينيها الدقيقتين الغائرتين في وجهها المسطّح العريض الخالي من أيّة رقّة، وجه مرقّط بالبقع الداكنة مثل قطعة لحم مقدّد.

«أنا طلبت من دانيال أن تتّصل بك عندما حصل ما حصل. ثلاثة أيّام، بقيت ثلاثة أيّام ممدّدة أرضًا في منزلها، ولم يعثر عليها أحد. بحقّ الجحيم، لو رأيت الحالة التي كانت فيها. اللعنة!»

لم تسأل كريستال شيريل لماذا لم تقطع بنفسها المسافة الضئيلة التي تفصلها عن شارع فولي لتخبر تيري. فمن الواضح أنّ الشقيقتين متخاصمتان مجدّدًا. لا يمكن أبدًا التكهّن بآخر تقلّبات العلاقة بينهما.

«أين هي؟» سألت كريستال.

تقدّمتها شيريل، ونعلا خفّيها يقرقعان على أرض الممشى.

«على فكرة»، قالت لكريستال وهما تسيران، «تلقّيت اتّصالًا من صحافيّة تسأل عنك.»

«حقًّا؟»

«أعطتني رقمًا.»

كانت كريستال تودّ طرح المزيد من الأسئلة، لكنّهما دخلتا في تلك اللحظة قسمًا يخيّم فيه صمتٌ مطبق، فشعرت فجأة بالفزع. لم تعجبها الرائحة المنتشرة هناك.

لم يكن من الممكن التعرّف إلى نانا كات. كان نصف وجهها ملتويًا بشكل مريع، وكأنّ أحدًا شدّ عضلاته بسلك. فمها يتدلّى من طرفه، وعينها منهارة. كان ثمّة أنابيب موصولة بجسدها، وإبرة مغروزة في ذراعها. بدا صدرها أكثر اعوجاجًا وهي ممدّدة في السرير، والغطاء يتحدّب غير سويّ فوقه. انبعث رأسها فوق عنقها الهزيل مثل كائن ممسوخ يطلّ من برميل.

حين جلست كريستال إلى جانبها، لم تقم نانا كات بأيّة حركة. نظرت إليها فقط وارتجفت إحدى يديها الواهنتين بشكل طفيف.

«إنّها لا تتكلّم، لكنّها لفظت اسمك مرّتين الليلة الماضية»، قالت لها شيريل، وهي ترمقها بنظرة كئيبة من خلف عبوة البيبسي.

أحسّت كريستال بعبء يثقل صدرها. ودّت لو تمسك بيد نانا كات، لكنّها خافت أن تؤلمها. مدّت يدها وتركتها ترقد على غطاء السرير، على مسافة بضعة سنتيمترات من يد نانا كات.

«زارتها ريانون»، قالت شيريل. «وجون وسو أيضًا. سو تحاول العثور على آن ماري.»

أحسّت كريستال بقلبها ينتفض.

«أين هي؟» سألت.

«في مكان ما ناحية فرينتشاي. تعلمين بأنّها رزقت طفلًا، أليس كذلك؟»

«أجل، هذا ما قيل لي. صبيّ أم بنت؟»

«وما أدراني؟» قالت شيريل وهي تبتلع جرعة من البيبسي.

كان أحدهم قد أعلن لها في المدرسة: هاي كريستال، شقيقتك حامل! تحمسّت للخبر. سوف تصبح خالة، ولو أنّها لن ترى الطفل على الأرجح. طوال حياتها سحرتها فكرة آن ماري، الشقيقة التي انتُزعت من تيري قبل ولادة كريستال، تبخّرت وانبعثت في عالم آخر، وكأنّها شخصيّة من قصّة خرافيّة، محاطة بهالة من الجمال والغموض، مثل الرجل الشابّ الميت في حمّام تيري.

حرّكت نانا كاث شفتيها.

«ماذا؟» سألت كريستال منحنية نحوها، مترقّبة بفرح ما يمكن أن تقوله، وفي الوقت نفسه متخوّفة منه.

«نانا كاث، هل تريدين شيئا؟» صاحت شيريل بأعلى صوتها، ما جعل الزائرين الذين كانوا يتهامسون حول الأسرّة الأخرى يلتفتون إليها.

سمعت كريستال حشرجة وأزيزًا، لكن بدا لها أنّ نانا كاث تحاول بالتأكيد أن تلفظ بكلمة. كانت شيريل منحنية من الجانب الآخر، تمسك بالقضبان الحديد عند أعلى السرير.

«آه... ممم...» قالت نانا كاث.

«ماذا؟» سألت كريستال وشيريل بصوت واحد.

تحرّكت العينان مليمترات قليلة. عينان غائمتان خلف غشاوة رطبة، تحدّقان بوجه كريستال الفتيّ العذب، بفمها المشقوق فيما تنحني فوق جدّة والدتها بترقّب وتخوّف وحيرة.

«... ذيف...» قال الصوت الهرم المتكسّر.

«إنّها لا تدري ماذا تقول»، صرخت شيريل من فوق كتفها إلى الزوجين الخجولين اللذين كانا يزوران المريض في السرير المجاور. «ثلاثة أيّام، بقيت ثلاثة أيّام متروكة وحيدة، ممدّدة على الأرض اللعينة. ليس من المفاجئ أن تكون على هذه الحال.»

لكنّ عينا كريستال غرقتا بالدموع. تبدّدت القاعة بنوافذها العالية وسط نور باهر تتماوج فيه ظلال ضبابيّة. تراءى لها وميض أشعّة الشمس تتلألأ فوق مياه خضراء داكنة، تتشظّى إلى رذاذ يلتمع ويتطاير حين تخبطه مجاذيف تعود وترتفع في الجوّ.

«أجل»، همست لنانا كات. «أجل نانا، ما زلت في فريق التجذيف.»

لكنّ ذلك لم يعد صحيحًا، لأنّ السيّد فيربراذر مات.

6

«تبًّا! ما الذي حصل لوجهك؟ سقطت عن الدرّاجة مرّة جديدة؟» سأل فاتس.

«لا»، أجاب آندرو. سيمو-حبيبو ضربني. «كنت أحاول أن أشرح للأحمق اللعين أنّه أخطأ في المسألة برمّتها بشأن فيربراذر.»

كان مع والده في مخزن الحطب، يملآن السلّتين اللتين تحيطان بالموقد في غرفة الجلوس. ضرب سايمون آندرو بحطبة على رأسه، فسقط وسط كومة الحطب، وجلَف وجنته المكسوّة بالبثور.

هل تظنّ أنّك تفهم أكثر منّي، أيّها الغبيّ الصغير المبَرْقَع؟ إن علمتُ أنّك تفوّهت بكلمة واحدة عمّا يجري في هذا المنزل...

لم أفعل...

سوف أسلخ جلدك حيًّا، هل تسمعني؟ كيف تعرف أنّ فيربراذر لم يكن يعقد صفقات؟ قل لي. وأنّ ابن العاهرة الآخر لم يكن الوحيد الذي سقط في الفخّ من شدّة حماقته وكُشِف أمره؟

بعد ذلك، سارع سايمون إلى إرسال وثائق ترشيحه، سواء بدافع الاعتداد بنفسه أو الاستفزاز، أو لأنّ أحلامه بجني أموال سريعة وسهلة استبدّت بذهنه، وبات يخال هذيانه واقعًا أقوى من الحقائق. الإذلال والتحقير، ذانك هما ما ستجنيهما حتمًا العائلة برمّتها.

عمليّة تخريب. كان آندرو يقلّب هاتين الكلمتين في ذهنه. أراد أن يحطّم مطامع والده، أن يجعله يسقط ويتدحرج من أعلى القمم التي رفعته إليها أحلامه بالثروة السهلة. وأراد أن يقوم بذلك، إذا ما استطاع (لأنّه كان يفضّل أن يحقّق المجد بدون أن يضطرّ إلى دفع حياته ثمنًا)، بشكل لا يكتشف سايمون مَن الذي يقف خلف المكائد التي قضت على طموحاته.

لم يبح بخطّته لأيّ كان، ولا حتّى لفاتس. كان يخبر صديقه كلّ شيء تقريبًا، غير أنّه كان يلزم الصمت في ما يتعلّق بالمواضيع الكبرى، تلك التي تحتلّ كيانه بشكل شبه كامل. صحيح أنّه يتقاسم مع فاتس لحظات شبقيّة في غرفته، وهما يبحثان عن مشاهد مثيرة على موقع «بنات في بنات» على الإنترنت، إلّا أنّ الأمر يختلف تمامًا حين يتعلّق بالاعتراف بهوسه الدفين وبحثه المحموم عن سبل للتحرّش بغايا بودين وبدء حديث معها. وبطريقة مماثلة، من السهل عليه الجلوس في الجحر ونعت والده بالحقير، لكنّه لا يمكن أبدًا أن يخبر كيف أنّ دمه يتجلّد في عروقه وأحشاءه تنقبض وترتعد أمام نوبات الغضب تلك التي تتملّك سايمون.

ثم جاءت تلك اللحظة السحريّة التي قلبت الأمور رأسًا على عقب. بدأت بمجرّد رغبة في النيكوتين وتوقٍ إلى بعض الجمال. المطر توقّف أخيرًا، وشمس الربيع الشاحبة سكبت نورها على زجاج الحافلة المدرسيّة المكسوّ ببقع الوحل الجافّة كالقشور، فيما كانت تتقدّم مترنّحة متهدهدة في شوارع باغفورد الضيّقة. كان آندرو عاجزًا، من حيث يجلس في مؤخّر الباص، عن رؤية غايا في أحد المقاعد الأماميّة، محشورة بين سوكفيندر وابنتَي فيربراذر. التوأمان عادتا مؤخّرًا إلى المدرسة بعدما فقدتا والدهما. بالكاد لمح غايا خلال النهار، وكان يتهيّأ لقضاء أمسية مضجرة فارغة، عزاؤه الوحيد فيها صور مستنفدة على فايسبوك حفظها عن ظهر قلب.

مع اقتراب الحافلة من شارع هوب، تذكّر آندرو فجأة أن كلا والديه لم يكونا في المنزل، وبالتالي لن يلاحظ أحدٌ إن لم يعد إلى البيت. صُعق لهذه الفكرة. كان يحمل في جيبه الداخليّ ثلاث سجائر أعطاه إيّاها فاتس. رأى غايا تنهض وتتمسّك بالعارضة المعدنيّة على ظهر المقعد، متهيّئةً للخروج من الحافلة، وهي تواصل الحديث مع سوكفيندر جاواندا.

لِم لا؟ حقًّا، لِم لا؟

نهض بدوره، ألقى حقيبته من فوق كتفه، وحين توقّفت الحافلة، عبر مسرعًا الممرّ بين صفّي المقاعد وخرج خلف الفتاتين.

«أراكَ لاحقًا في المنزل»، قال وهو يعبر أمام بول الذي نظر إليه محملقًا بذهول.

ترجّل على الرصيف المشمس، وانطلق الباص مزمجرًا ومقرقعًا. أشعل سيجارة مكوّرًا يديه حولها، وهو يراقب غايا وسوكفيندر من فوقهما. لم تسلكا طريق منزل غايا في شارع هوب، بل ابتعدتا متسكّعتين نحو الساحة. تبعهما آندرو، وهو يدخّن مقطّبًا بعض الشيء، مقلّدًا لاشعوريًّا فاتس، الشخص الأكثر جسارة وثقة بنفسه الذي عرفه في حياته. كان يمتّع نظره بشعر غايا الكستنائيّ النحاسيّ المتهدّل فوق كتفيها، مترنّحًا على وقع خطاها، وبخصرها المتمايل وتنّورتها المتماوجة.

تمهّلت الفتاتان عند اقترابهما من الساحة، وتوجّهتا نحو محلّ «موليسون ولوي». كان يعرض أبهى واجهة بين كلّ المتاجر المحيطة بالساحة، تعلوها لافتة عريضة بأحرف ذهبيّة وزرقاء، وتزيّنها أربع سلال معلّقة تفيض أزهارًا. بقي آندرو في الخلف. توقّفت الفتاتان لتفحّص إعلانٍ صغير ملصق بزجاج المقهى الجديد، ثمّ دخلتا محلّ الأطعمة وغابتا عن أنظاره.

قام آندرو بجولة حول الساحة، تجاوز الراهب الأسود وفندق جورج، ثمّ توقّف بدوره أمام الإعلان. كان إعلانًا مكتوبًا بخطّ اليد، يطلب موظّفين لعطلة نهاية الأسبوع. شعر أكثر فأكثر بالبثور التي تلهب وجهه، خصوصًا وأنّها في حالة أسوأ من العادة في هذه الفترة. نفض طرف سيجارته المشتعل، أعاد ما تبقّى منها إلى جيبه، وتبع غايا وسوكفيندر إلى داخل المحل.

وجد الفتاتين واقفتين قرب منضدة صغيرة تتكدّس عليها علب بسكويت بالشوفان ورقائق مالحة، تراقبان الرجل البدين الذي يعتمر قبّعة صيدٍ خلف الكونتوار، وهو يتحادث مع زبون مسنّ. التفتت غايا حين رنّ الجرس المعلّق فوق الباب.

«مرحبًا»، قال آندرو، وفمه جافّ من شدّة الانفعال.

«مرحبًا»، أجابت.

لم يصدّق آندرو جرأته. تقدّم نحو الفتاتين، فاصطدمت الحقيبة المتدلّية في ظهره بالرفوف الدوّارة التي وُزِّعت عليها نسخ من دليل باغفورد ومن كتاب «أطباق تقليديّة من غرب إنكلترا». سارع إلى التقاط الرفوف وتثبيتها، ثمّ أنزل الحقيبة عن كتفه.

«تبحث عن وظيفة؟» سألته غايا خافضة صوتها، بلهجتها اللندنيّة الساحرة.

«أجل، وأنتِ؟»

هزّت رأسها: لقد جاءت من أجل الإعلان.

«انشره على صفة الاقتراحات إيدي»، قال هاورد بصوت مزمجر للزبون. «ضعه على الموقع الإلكتروني، وسوف أُدرجه على جدول الأعمال من أجلك. العنوان هو مجلس بلدة باغفورد، بكلمة واحدة، نقطة كو، نقطة يو كاي، خطّ فاصل، صفحة المقترحات. يمكنك أيضًا أن تتبع الرابط. باغفورد...». أخذ يهجّئ العنوان ببطء، فيما أخرج الرجل ورقة وقلمًا وراح يكتب بيد ترتجف:»... البلدة...»

رمق هاورد الفتيان الثلاثة الذين كانوا ينتظرون بهدوء قرب علب البسكويت الشهيّة. كانوا يرتدون زيًّا بالكاد يمكن وصفه بالمدرسيّ، يشير إلى مدرسة وينترداون، المتهاونة مع التلاميذ، إذ تسمح لهم بقسط وافٍ من الحريّة والتنويع (خلافًا لمدرسة سانت آن التي تفرض بصرامة ارتداء تنّورة ذات مربّعات وسترة بليزر). لكن لا بدّ أن يقرّ بأن الفتاة البيضاء فاتنة، مثل ماسة منحوتة بمنتهى الدقّة، تشعّ إلى جانب ابنة جاواندا القميئة التي لا يعرف حتّى اسمها، وذلك الفتى بشعره الأشبه بوبر فأر وسحنته المهتاجة المتبثّرة.

خرج الزبون ونعلاه يطقطقان على أرضيّة المحلّ، وسمع رنين الجرس خلفه.

«نعم؟ هل من خدمة؟» سأل هاورد محدّقًا إلى غايا.

«أجل»، أجابت متقدّمة نحوه. «جئنا بخصوص الوظائف»، تابعت مشيرة بيدها إلى الإعلان الصغير على الواجهة.

«آه! طبعًا»، قال هاورد باهتمام، وقد أشرق وجهه. النادل الجديد الذي كان وظّفه ليخدم في عطلة نهايات الأسبوع تركه قبل بضعة أيام، تخلّى عن الوظيفة للعمل في سوبرماركت في يارفيل.

«أجل، أجل. هكذا إذًا، تحبّين العمل نادلة في مقهى؟ نعرض الحدّ الأدنى للأجور. الدوام من التاسعة إلى الخامسة والنصف أيّام السبت، ومن الظهر إلى الخامسة والنصف أيّام الأحد. الافتتاح بعد أسبوعين اعتبارًا من اليوم. نؤمّن التدريب. كم عمرك عزيزتي؟»

كانت ممتازة، ممتازة. مثلما كان يتصوّر تمامًا. وجه نضر وجسد فاتن. يتخيّلها في فستان أسود ضيّق، وحول خصرها مئزر أبيض من الدنتيل. سوف يعلّمها كيف تستخدم الصندوق ويقودها في جولة على المخزن. سوف يمازحها قليلًا، وربّما يقدّم لها مكافأة صغيرة في الأيّام التي تسجّل فيها أرباحًا عالية.

التفّ هاورد حول الكونتوار، أمسك غايا بأعلى ذراعها، متجاهلًا كليًّا سوكفيندر وآندرو، وقادها إلى قاعة المقهى، عابرًا معها من تحت القنطرة الفاصلة. لم يكن هناك طاولات وكراسٍ بعد، لكنّه تمّ نصب الكونتوار، وثُبّتت خلفه جداريّة من البلاط الأسود والعاجيّ، تُصوّر الساحة كما كانت في زمنٍ ماضٍ، تغصّ بنساء يرتدين فساتين طويلة فضفاضة ورجال يعتمرون قبّعات عالية، فيما تتوقّف عربة يجرّها حصان أمام محلّ كتب بوضوح على واجهته موليسون ولوي، وإلى جانبه مقهى صغيرٌ هو مقهى الإبريق النحاسيّ. وابتكرت مخيّلة الفنّان مكان نصب الحرب مضخّة ماء تزيينيّة أضفت الفرادة إلى المشهد.

بقي آندرو وسوكفيندر وحدهما في المحلّ، مرتبكين وكأنّهما على خصومة.

«نعم؟ هل من خدمة؟»

وقفت أمامهما امرأة متحدّبة خرجت من غرفة خلفيّة، شعرها الأسود كالليل منفوش فوق رأسها. تمتم آندرو وسوكفيندر أنّهما ينتظران صديقتهما. لحظات، وظهر هاورد وغايا من تحت القنطرة. حين رأى مورين، أفلت هاورد ذراع غايا التي كان يمسك بها من دون أن يتنبّه لإلى الأمر، وهو يشرح لها مهمّات النادلة.

«مو!» قال، «قد أكون وجدت فتاة تساعدنا في الإبريق!»

«حقًا؟» سألت مورين، ملتفتة إلى غايا بعينين فيهما بريق اهتمام. «هل لديك خبرة في مثل هذا العمل؟»

لكنّ هاورد قاطعها ليشرح بأعلى صوته لغايا قصّة محلّ الأطعمة الفاخرة الذي يشكّل بنظره مؤسّسة من مؤسّسات باغفورد العريقة، إن لم يكن أحد معالم البلدة.

«خمس وثلاثون سنة مضت على افتتاح هذا المحلّ»، قال مبديًا ازدراءً تامًا لما توحي به جداريّته. «الشابّة وصلت حديثًا إلى البلدة، مو.»

«أنتما أيضًا جئتما من أجل الوظيفة؟» سألت مورين سوكفيندر وآندرو.

هزّت سوكفيندر رأسها نفيًا، فيما رفع آندرو كتفيه في إشارة مبهمة لا يُفهم منها قصده. لكنّ غايا نظرت إلى صديقتها وقالت لها: «هيّا، قلتِ إنّك قد تكونين مهتمّة.»

تأمّل هاورد سوكفيندر. من المؤكّد أنّ فستانًا أسود ضيّقًا ومئزرًا مخرّمًا لن يساهما في تحسين مظهرها، لكنّ ذهنه الحذق والخصب كان يعمل في كلّ الاتّجاهات، متقصّيًا جميع الاحتمالات في آن. ربّما كان يجدر به اغتنام الفرصة للقيام بمبادرة. تكريم والدها، تسجيل نقطة لمصلحته بالنسبة لوالدتها، منح خدمة مجّانيّة لم تُطلَب منه... تلك كانت اعتبارات ينبغي ربّما أخذها في الحسبان، بمعزل عن الناحية الجماليّة البحتة.

«الحقيقة أنّه، إن صحّت توقّعاتنا، فقد نحتاج على الأرجح إلى نادلتين»، قال وهو يحكّ ذقنه السمين المتدلّي، محدّقا إلى سوكفيندر التي احمرّ وجهها، ما زاد من قبحها بنظره.

«لستُ...» قالت، لكنّ غايا أصرّت عليها.

«هيّا، لنقم بذلك معًا.»

احتقن وجه سوكفيندر وأدمعت عيناها.

«أنا... حسنًا، موافقة.»

«إذًا آنسة جاواندا، سوف نوظّفك في فترة تجريبيّة»، قال هاورد.

تسمّرت سوكفيندر من شدّة هلعها. بالكاد كانت قادرة على التقاط أنفاسها. ماذا ستقول والدتها؟

«وأنت؟ قال هاورد لآندرو بصوته المدوّي، أفترض أنّك ترغب في أن تكون فتى المهمّات الثقيلة؟»

فتى المهمّات الثقيلة؟

«ما نحتاج إليه يا صديقي، هو ذراعان قويّتان لرفع الأوزان» شرح هاورد لآندرو الذي وقف محملقًا في ذهول وحيرة. هو لم يقرأ من الإعلان المعلّق على الواجهة سوى الجزء الأوّل المطبوع بخطّ عريض. «تفريغ أقفاص من البضائع في المخزن، إخراج صناديق الحليب من القبو، نقل أكياس القمامة إلى خلف المحلّ، إلى ما هنالك. عمل جسديّ حقيقيّ. هل تعتقد أنّ بوسعك تولّي هذه المهام؟»

«أجل»، أجاب آندرو. هل سيكون هناك أثناء وجود غايا؟ كان هذا كلّ ما يهمّه.

«سوف نحتاج إليك في وقت باكر. الساعة الثامنة صباحًا على الأرجح. لنقل من الثامنة إلى الثالثة، ومن ثمّ نرى كيف تسير الأمور. مع فترة تجريبيّة أوّلًا لمدّة أسبوعين.»

«أجل، لا بأس.»

«ما اسمك؟»

رفع هاورد حاجبيه عند سماع الاسم.

«أنت ابن سايمون؟ سايمون برايس؟»

«نعم.»

توتّرت أعصاب آندرو فجأة. لم يكن أحد، عادةً، يعلم من هو والده.

طلب هاورد من الفتاتين العودة بعد ظهر الأحد، في الوقت الذي يُفترض أن يتسلّم فيه الصندوق. بهذه الطريقة، سيكون بوسعه الشروع في تدريبهما. بدا واضحًا أنّه كان يودّ استبقاء غايا لمواصلة الحديث معها، غير أنّ زبونًا دخل في تلك اللحظة، فاغتنم الثلاثة الفرصة للانسحاب والرحيل.

لم يجد آندرو ما يقوله بعدما باتوا خارج الباب الزجاجيّ بجرسه الرنّان. وقبل أن يتسنّى له أن يستجمع أفكاره، قالت له غايا «إلى اللقاء» بلامبالاة كاملة، وابتعدت برفقة سوكفيندر. أشعل آندرو ثاني السجائر الثلاث التي أعطاه إيّاها فاتس (لم يكن من الملائم إخراج عقب سيجارة نصف مستهلَكة من جيبه)، ما أعطاه حجّة للبقاء في مكانه بدون حراك، يراقبها تبتعد بين الظلال المتطاولة.

«لماذا ينادونه فستق، ذلك الفتى؟» سألت غايا صديقتها، بعدما أصبحتا بعيدتين ولم يعد بوسعه سماعهما.

«لديه حساسيّة»، أجابت سوكفيندر. كان الهلع يتملّكها حين تفكّر أنّه سيترتّب عليها أن تخبر بارميندر بما قامت به. بدا لها صوتها وكأنّه يخرج من شخص آخر. «كاد يُقتل ذات يومٍ في مدرسة سانت توماس. جعله أحدهم يأكل حبّة فستق خبّأها في قطعة حلوى خطميّة قدّمها له.»

«آه!» قالت غايا، «ظننت أنّهم أطلقوا عليه اللقب نسبة إلى صغر عضوه.»

ضحكت، وضحكت معها سوكفيندر، وهي ترغم نفسها على التظاهر بالمرح، وكأنّها معتادة سماع هذا النوع من المزاح يوميًّا.

رآهما آندرو تلتفتان إليه وهما تقهقهان، وحزر أنّهما كانتا تتكلّمان عليه. الضحك قد يكون مؤشّرًا إيجابيًا، ذلك في مطلق الأحوال من الأمور القليلة التي يعرفها عن الفتيات. مبتسمًا وحده في الهواء المنعش، ابتعد حاملًا حقيبته على كتفه، وبين أصابعه سيجارة. عبَر الساحة وسلَك شارع تشيرتش روو، قبل أن يبدأ بتسلّق المنحدر للوصول بعد أربعين دقيقة إلى هيلتوب هاوس.

كانت الشجَيرات على طريقه تلوح شاحبة في الغسق، مثل سياج شبحيّ مرصّع بأزهار الخوخ البريّ البيضاء، ونبتات الكلندين تفرش من جانبي

الممرّ بساطًا من الأوراق اللمّاعة على شكل قلوب، مخرّمًا بتويجيّات صفراء. عطر الأزهار، متعة السيجارة في أعماق صدره، وذلك الوعد بقضاء نهايات أسبوع كثيرة مع غايا... كلّ ذلك اختلط وتداخل في سيمفونيّة مجيدة من البهجة والروعة ضجّ بها رأسه، وهو يلهث متسلّقًا سفح التلّة. في المرّة التالية التي سيقول له سايمون «هل وجدت وظيفة، وجه البيتزا؟» سيكون بوسعه أن يجيبه «نعم»، فهو سيصبح زميل عمل غايا بودين في كلّ نهاية أسبوع.

وتتويجًا لكلّ ذلك، أصبح يعرف أخيرًا كيف يطعن والده بخنجر في ظهره، بدون أن يدري من أيّ جهة جاءته الطعنة.

7

تبدّدت متعة الانتقام التي كانت تحرّكها في بادئ الأمر، فندمت سامانثا بمرارة على دعوتها غافين وكاي إلى العشاء. قضت صبيحة يوم الجمعة تمزح مع مساعِدتها وتسخر من السهرة الفظيعة التي ستقضيها حتمًا. غير أنّها انهارت تمامًا حين تركت كارلي وحيدة في متجر «حمّالات وكلسونات للنحيفات والبدينات» (ذلك الاسم الذي جعل هاورد يضحك كثيرًا أوّل مرّة سمعه، يضحك إلى أن تحوّلت قهقهاته إلى شهقات ربو، والذي يجعل شيرلي تكشّر كلّما تلفّظ به أحدٌ في حضورها). حرصت سامانثا على العودة إلى باغفورد قبل ساعة الزحمة، حتى يتسنّى لها التبضّع والشروع في إعداد العشاء. حاولت، وهي خلف المقود، أن ترفع معنويّاتها، فراحت تفكّر في أسئلة محرجة يمكنها طرحها على غافين. بوسعها ربّما أن تتساءل بصوت عالٍ لماذا لم تنتقل كاي للعيش معه. أجل، ذلك سيكون سؤالًا موفّقًا.

كانت تسير عائدة من الساحة إلى منزلها، حاملة بيديها أكياسًا مليئة بالبضائع من موليسون ولوي، حين صادفت ماري فيربراذر قرب الصرّاف الآليّ في واجهة مصرف باري.

«ماري! مرحبًا... كيف حالك؟»

بدت ماري هزيلة وشاحبة، وعيناها محاطتان بظلال رماديّة. كان الحديث بينهما متشنّجًا، غريبًا. لم تتكلّما معًا منذ تلك الرحلة المشؤومة في سيّارة الإسعاف، باستثناء اللحظات السريعة المتكلّفة خلال الجنازة، حين قدّمت لها سامانثا تعازيها.

«كنتُ أنوي المرور بك، قالت ماري. كنتِ في غاية الطيبة. أردتُ أيضا أن أشكر مايلز...»

«لا حاجة إلى ذلك»، أجابت سامانثا مرتبكة.

«لا أبدًا، هذا من دواعي سروري...»

«آه! في هذه الحالة، أهلًا وسهلًا بك.»

ابتعدت ماري، فانتاب سامانثا إحساسٌ مقلق بأنّها قد تكون أوحت إليها بأن تأتي لزيارتهما في المساء ذاته.

ما أن وصلت إلى البيت، حتّى تخلّصت من الأكياس في ردهة المدخل واتّصلت بمايلز في المكتب لتخبره بما فعلت. غير أنّه أبدى هدوءًا تامًّا في تعاطيه مع فكرة انضمام أرملةٍ حديثة العهد إلى جلستهم، ما أغاظها كثيرًا.

«لا أرى أين المشكل، فعلًا»، قال. «ثمّ إنّ الخروج قليلًا من المنزل لا يمكن إلّا أن ينفع ماري.»

«لكنّني لم أقل لها إنّنا نستقبل غافين وكاي على العشاء...»

«ماري تحبّ غاف. لا تقلقي بشأن ذلك.»

فكّرت سامانثا أنّه يتعمّد التظاهر بعدم فهم قصدها. لا بدّ أنّه وجد وسيلة للانتقام منها بعدما رفضت أن ترافقه إلى سويتلوف هاوس. أغلقت الخطّ، وهي تتساءل إن لم يكن من الأفضل أن تتّصل بماري وتقول لها ألّا تأتي في المساء ذاته، لكنّها كانت تخشى أن تبدو فظّة. في نهاية المطاف، اكتفت بترك الأمور على حالها، على أمل ألّا تجد ماري القوّة الكافية للخروج.

ذهبت إلى غرفة الجلوس وشغّلت شريط ليبي، رافعة الصوت إلى أقصى حدّ حتّى تسمع موسيقى الفرقة الشبابيّة من المطبخ. ثمّ حملت أكياس التبضّع إلى المطبخ وباشرت إعداد العشاء: طبق يخنة، ثمّ كعكة ميسيسيبي بالشوكولاتة، خيارها الأنسب للحلوى في جميع المناسبات. كانت تفضّل لو

اشترت واحدًا من قوالب الحلوى الضخمة المعروضة لدى موليسون ولوي، لكانت وفّرت على نفسها بعض العناء. لكنّ الخبر لكان وصل مباشرة إلى شيرلي التي لم تكن تفوّت فرصة إلّا وتلمح إلى أنّ كنّتها تعتمد أكثر ممّا ينبغي على الطعام المجلّد والوجبات المسبقة الإعداد.

باتت سامانثا تعرف عن ظهر قلب أغنيات الشريط، حتّى أنّه كان بوسعها أن تبصر في ذهنها المشاهد المرافقة لكلّ من مقاطع الموسيقى التي كانت تزعق وتصلها إلى المطبخ. فهي شاهدت الشريط مرارًا وتكرارًا خلال الأسبوع، أثناء وجود مايلز في مكتبه في الطبقة العلويّة، أو على الهاتف مع هاورد. ما أن وردتها أولى فواصل الأغنية التي يظهر فيها الشابّ المشدود العضلات وهو يمشي على طول شاطئ، بينما يتطاير قميصه المفتوح على صدره مع الريح، حتّى هرعت، بمريول المطبخ، لمشاهدته، وهي تلعق، شاردةً، أصابعها المكسوّة بالشوكولاتة.

كانت تعتزم أخذ دوشٍ مطوّلٍ فيما يعدّ مايلز الطاولة، لكنّها نسيت أنّه سوف يعود متأخّرًا. فذلك كان يوم الجمعة، وعليه، كما في كلّ نهاية أسبوع أن يذهب إلى يارفيل لجلب ابنتيهما من مدرسة سانت آن. حين تذكّرت سامانثا أخيرًا لماذا لم يعد بعد، وأدركت أنه سيكون برفقة التوأمين حين يصل، سارعت إلى إعداد غرفة الطعام بنفسها على عجل، ثمّ ارتجلت عشاء لليكسي وليبي قبل وصول الضيوف. حين وصل مايلز في السابعة والنصف، وجد زوجته لا تزال في ملابس البيت، تتصبّب عرقًا، غاضبة وتترصّد أدنى فرصة لإلقاء اللوم عليه بالكامل في هذا المسألة، مع أنّ المسألة برمّتها كانت فكرتها هي.

ما أن دخلت ليبي المنزل، حتّى توجّهت مسرعةً إلى غرفة الجلوس، بدون أن تلقي التحيّة على سامانثا، وسحبت قرص الدي في دي من جهاز التشغيل.

«آه! رائع! لم أكن أذكر ماذا فعلت به»، قالت. «لماذا التلفزيون مشغّل؟ لا تقولي لي إنّك كنت تحضرينه؟»

أحيانًا كانت سامانثا ترى في ابنتها الصغرى البالغة من العمر أربعة عشر عامًا شبهًا بشيرلي.

«كنت أستمع إلى نشرة الأخبار، ليبي. لا وقت لديّ لمشاهدة أشرطة دي في دي. هيّا، إلى العشاء. البيتزا جاهزة. لدينا ضيوف الليلة.»

«بيتزا مجلّدة؟ الليلة أيضًا؟»

«مايلز!» نادت سامانثا. أحتاج إلى تبديل ملابسي. هل يمكنك أن تهرس البطاطا؟ مايلز؟»

لكنّ مايلز كان صعد الأدراج واختفى في الطبقة العلويّة. اضطرّت سامانثا إلى هرس البطاطا بنفسها، فيما جلست ليسلي وليبي إلى الطاولة وسط المطبخ تتناولان عشاءهما. أسندت ليبي علبة الدي في دي إلى كوب البيبسي دايت أمامها، وراحت تحملق بشوق في صورة الفرقة على غطائه.

«ميكي غير معقول! سوف يقتلني!» قالت مطلقةً تأوّهات شهوانيّة صدمت والدتها. لكنّ سامانثا تذكّرت أنّ الفتى المفتول العضلات اسمه جايك، فاطمأنّت إلى أنّهما لم تكونا معجبتَين بالفتى ذاته.

كانت ليكسي تثرثر بدون توقّف، ساردة كلّ أخبار المدرسة بصوتها العالي وثقتها المطلقة بنفسها. كان ذلك شلّالًا لا ينضب من المعلومات عن فتيات لا تعرفهنّ سامانثا، ولا يسعها متابعة كلّ مستجدّات حماقاتهنّ وعداواتهنّ وتحالفاتهنّ المتبدّلة.

«حسنًا، اسمعاني: عليّ أن أبدّل مٰلابسي. رتّبا المطبخ حين تنتهيان من تناول الطعام، اتّفقنا؟»

خفّفت النار تحت القدر وهرعت إلى الطبقة الأولى. كان مايلز في غرفة النوم يبكّل أزرار قميصه، وهو يتأمّل نفسه في مرآة الخزانة. الغرفة تعبق برائحة الصابون وعطر ما بعد الحلاقة.

«كلّ شيء تحت السيطرة، حبيبتي؟»

«نعم، شكرًا. إنّني مسرورة للغاية لأنّك وجدت متّسعًا من الوقت لأخذ دوش»، قالت سامانثا بنبرة استياء، وهي تُخرِج من الخزانة تنّورتها الطويلة وقميصها المفضّلين، ثمّ تصفق الباب بعنف.

«يمكنكِ أخذ دوش الآن.»

«سوف يصلان بعد عشر دقائق. لن أتمكّن من تجفيف شعري والتبرّج.» قذفت حذاءيها بضربة رجلٍ لخلعهما، فصدمت إحدى الفردتين جهاز التدفئة محدثةً خبطة قويّة. «هل يمكنك، من بعد إذنك، وبعد أن تنتهي من التأنّق، أن تنزل لإعداد المشروب؟»

بعدما خرج مايلز من الغرفة، حاولت تسريح شعرها الكثّ المتشابك، وإصلاح مكياجها. كانت بحالةٍ مزرية. ما إن انتهت من تبديل ملابسها، حتّى تنبّهت إلى أنّها كانت ترتدي حمّالة صدر لا تناسب قميصها الضيّق الملتصق بجسدها. وبعد عمليّة بحث محمومة في أدراجها، تذكّرت أن الحمّالة المناسبة التي كانت تفتّش عنها معلّقةً في غرفة الغسيل لتجفّ. خرجت مسرعة إلى الردهة عند أعلى الأدراج، لكنّها سمعت جرس الباب يقرع في تلك اللحظة بالذات. استدارت وعادت على وجه السرعة إلى الغرفة وهي تلعن وتشتم. كانت موسيقى الفرقة الشبابيّة تزعق في غرفة ليبي.

وصل غافين وكاي في الساعة الثامنة تمامًا. كان غافين يتوجّس مما يمكن أن تقوله لهما سامانثا إن تأخّرا. فهي قد تلمّح إلى أنّهما لم يتنبّها للوقت لأنّهما كانا يتضاجعان أو يتشاجران، إلى ما هنالك من احتمالات. فهي مقتنعة، على ما يبدو، بأنّه من الإمتيازات التي يمنحها إيّاها وضعها كامرأة متزوّجة، الحقّ في حشر أنفها في حياة الآخرين العاطفيّة وإعطاء رأيها الخاصّ فيها. كما كانت تعتقد أنّ جلافتها ووقاحتها في الكلام بدون أن تقيم وزنًا لأيّ اعتبار، وخصوصًا بعد تناول كأسٍ أو كأسين، إنّما هما علامة حسّ الفكاهة في أبهى تجلّياته.

«مرحبًا، قال مايلز وهو يتنحّى مفسحًا لغافين وكاي. تفضّلا. أهلًا وسهلًا بكما في مسكن آل موليسون.»

قبّل كاي على وجنتَيها وتناول من يديها علبة الشوكولاتة التي كانت تحملها.

«لماذا كلّفت نفسك هذا العناء؟ شكرًا جزيلًا. يسعدني أن ألتقيكِ أخيرًا. أبقاكِ غاف طيّ الكتمان لوقت طويل جدًا.»

أخذ مايلز زجاجة النبيذ من يدَي غافين وصفق على ظهره، في حركة يكرهها غافين.

«ادخـلا واجـلسا. سـام ستنزل بعد دقيقة. مـاذا أقـدّم لكما؟ أيّ مشروب؟»

في الظروف الطبيعيّة، كانت كاي لتجد مايلز متملّقًا وحميميّ السلوك أكثر ممّا ينبغي، لكنّها في تلك الليلة كانت مصمّمة على الانسجام مع الجميع بدون تقييم أيّ كان أو إصدار أحكام. في العلاقات، يفترض بكلّ من الشريكين أن يخالط أوساط شريكه، وأن يجد وسيلة للتآلف مع أصدقائه. هذه الأمسية إنما تشكّل خطوةً هامّة في سعيها لولوج مساحات من حياة غافين لم يسمح لها بدخولها من قبل. أرادت أن تثبت له أنّ في وسعها الانسجام تمامًا في منزل كبير متأنّق مثل منزل آل موسيلون، وأنّ لا داعيَ لإقصائها بعد اليوم. بادرت مايلز، إذًا، بابتسامة مشعّة، طلبت منه كأسًا من النبيذ الأحمر، وأبدت إعجابها بالصالون الفسيح، بأرضيّته الخشبيّة من الصنوبر الخام، وكنبته الغارقة تحت كميّة هائلة من الوسائد، ونسخ اللوحات المعلّقة في أطر على جدرانه.

«مضت علينا في هذا المنزل... أه! سوف نتمّ قريبًا أربعة عشر عامًا هنا! قال مايلز وهو يتعارك مع فتّاحة القناني. أنت تقيمين في شارع هوب، على ما أظنّ؟ فيه منازل صغيرة جميلة، بعضها يحمل فرصًا ممتازةً للارتقاء بقيمتها إذا ما أجريت عليها بعض الترميمات.»

ظهرت سامانثا، وعلى وجهها ابتسامة باردة. كاي، التي لم تكن قد رأتها سوى بالمعطف حين تقابلتا من قبل، لاحظت هذه المرة ضيق قميصها البرتقاليّ الذي يلتصق بصدرها كاشفًا بوضوح عن أدقّ تفاصيل حمّالة صدرها الدنتيل. بشرة وجهها أكثر سمرة من صدرها الملوّح مثل الجلد المدبوغ. عيناها مطليّتان بكميّة مبالَغ بها من مساحيق التجميل، والقرطان الذهبيّان المصلصلان في أذنَيها، يقابلهما الحذاءان الذهبيّان بكعب عالٍ، ينمّان بنظر كاي عن ذوقٍ بذيء. بدت لكاي من صنف النساء اللواتي يشاركن في سهرات نسائيّة صاخبة، واللواتي يجدن في إرسال راقصٍ متعرٍّ إلى إحدى الصديقات فكرة طريفة، ويثملن في السهرات فيغازلن أزواج جميع النساء الحاضرات.

«مرحبًا بكما»، قالت سامانثا. قبّلت غافين وابتسمت لكاي. «عظيم، أرى أنّ كلّا منكما لديه كأس. مايلز، هلا أحضرت لي كأسًا مثل كأس كاي؟»

استدارت وابتعدت عنهما للجلوس، وقد قدّرت بنظرة واحدة مظهر المرأة الأخرى: نهدان صغيران ووركان عريضان. لا شكّ في أنّها اختارت ارتداء ذلك البنطال الأسود للتقليل من حجم مؤخّرتها. كان يجدر بها، برأي سامانثا، اختيار حذاءين بكعب عالٍ للتعويض عن قصر ساقيها. وجهها جميل، ببشرتها الزيتونيّة الملساء، وعينيها الداكنتين العريضتين، وشفتيها السخيّتين. غير أنّ شعرها المقصوص قصيرًا والحذاءين المسطّحين تمامًا، أمران يشيران بشكل حاسم إلى أنّها من أولئك المتمسّكين بقناعاتٍ يعتبرونها مُنزَلة. ها إنّ غافين أعاد الكرّة، واختار مرّة جديدة امرأة مستبدّة لا تعرف معنى الفكاهة، سوف تحوّل حياته إلى جحيم.

«إذًا»، قالت سامانثا رافعة كأسها ببهجة، «نخب غافين وكاي!»

شعرت بالارتياح حين رأت ابتسامة يائسة ترتسم بتردّدٍ على وجه غافين التعس. لكن قبل أن تتمكّن من إحراجه أكثر أو انتزاع بعض المعلومات الحميمة منهما تفاجئ بها لاحقًا شيرلي ومورين، رنّ جرس الباب مرّة ثانية.

ظهرت ماري، هزيلة وهشّة، وخصوصًا إلى جانب مايلز الذي قادها إلى الصالون. كانت ترتدي قميص تي شيرت يتدلّى فضفاضًا من عظام الترقوّتين البارزتين عند كتفيها.

وقفت مذهولة عند باب الصالون.

«آه، قالت، لم أكن على علم أنّكم...»

«غافين وكاي وصلا للتوّ لزيارتنا»، ارتجلت سامانثا ببعض التوتّر. «تفضّلي ماري، أرجوك... تناولي كأسًا معنا...»

«ماري، أقدّم لك كاي»، قال مايلز. «كاي، ماري فيربراذر.»

«آه! نعم، مرحبًا»، قالت كاي مرتبكة. كانت تظن أنّ العشاء سيقتصر عليهم الأربعة.

لاحظ غافين أنّ ماري لم تكن تقصد التطفّل والوصول وسط عشاء، وأنّها كانت على وشك العودة أدراجها والخروج على الفور، فأشار إليها أن تجلس في جانبه على الأريكة. جلست ماري وعلى وجهها ابتسامة شاحبة. شعر غافين بسعادة لا توصف لرؤيتها. فهي ستكون درعه خلال السهرة. حتّى سامانثا

لا يمكن إلّا أن تدرك أنّه لن يكون من اللائق القيام بإيحاءاتها وتلميحاتها الجنسيّة المعهودة في حضور امرأة مفجوعة. كما أنّ حضور ماري كسر الحلقة المغلقة بين الزوجين وبدّد تناسقها المضني.

«كيف حالك؟» سألها بصوت منخفض. «الحقيقة أنّني كنت أنوي الاتّصال بك... حصلت بعد التطوّرات في القضيّة مع شركة التأمين...»

«أليس لدينا مشهّيات للّقمشة، سام؟» سأل مايلز.

خرجت سامانثا من الصالون، ناقمة على زوجها. ما أن فتحت باب المطبخ حتّى بادرتها رائحة لحم محروق.

«ياي! تبًا! تبًا! غير معقول...»

نسيت القدر على النار، فتبخّرت الماء منها وجفّت. وجدت قطعًا متيبّسة من اللحم والخُضَر جاثمة في قعر القدر المتفحّم، مثل ناجين أيتام من كارثة. سكبت على وجه السرعة دفقة من النبيذ والمرقة فوق اليخنة، تناولت ملعقة وراحت تقشط الأجزاء الملتصقة بالقدر وتحرّك الطبخة بعصبيّة، وهي تتصبّب عرقًا في حرارة المطبخ. ارتفعت ضحكة مايلز الحادّة من غرفة الجلوس. رمت بضعة براعم من البروكولي الطويل العنق في طنجرة البخار، أفرغت كأسها، فتحت بعنف كيسًا من التورتيلا وعلبة من الحمّص، وسكبت محتواهما في أكواب صغيرة.

حين عادت إلى الصالون، كان غافين لا يزال مستغرقًا في الحديث بصوت منخفض مع ماري على الأريكة، ومايلز يُري كاي صورة جويّة لباغفورد معلّقة على أحد الجدران، مغتنمًا الفرصة لتلقينها درسًا في تاريخ البلدة. وضعت سامانثا الأكواب على الطاولة الصغيرة، سكبت لنفسها كأسًا أخرى وجلست في كنبتها، بدون أن تقوم بمطلق مجهود للمشاركة في أيّ من الحديثين. كان وجود ماري يبعث فيها إحساسًا رهيبًا بالضيق والاضطراب. تلك المرأة مثقلة بالأسى إلى حدّ أنّه يفيض من حولها. لو دخلت مدّثرة بكفن، لما كان الأمر اختلف كثيرًا. لكن من المؤكّد أنّها سوف تغادر قبل العشاء.

كان غافين مصمّمًا على استبقاء ماري. فيما كانا يناقشان آخر التطوّرات في معركتهما المحتدمة مع شركة التأمين، شعر بنفسه أكثر ارتياحًا

وثقة بكثير ممّا يكون عادة في حضور مايلز وسامانثا. لم يكن هناك من يحجّمه أو يتعالى عليه. كما أنّ مايلز حرّره موقّتًا من أيّة مسؤوليّة تجاه كاي.

«... وهنا تمامًا، خارج إطار الصورة مباشرة»، قال مايلز مشيرًا إلى نقطة خارج إطار الصورة بسنتيمترين، «هنا يقع سويتلوف هاوس، مسكن آل فاولي. قصر ضخم من حقبة الملكة آن، كوّات في السطح، أحجار زاوية... مذهل! يجدر بك زيارته، القصر مفتوح أمام الجمهور أيّام الأحد في الصيف. آل فاولي عائلة ذات وزن محليّا.»

«أحجار زاوية؟»، «عائلة ذات وزن محليّا؟»، يا إلهي مايلز! كم أنّك أبله!

نهضت سامانثا بعناء عن أريكتها وعادت إلى المطبخ. كانت الصلصة تغمر اليخنة الآن، لكنّ طعم الحريق كان مسيطرًا. البروكولي كان رخوًا وعديم المذاق، والبطاطا المهروسة باردة وجافّة. لكنّ سامانثا لم تعد تكترث البتّة. سكبت الطعام في أطباق ووضعتها بخشونة على الطاولة.

«العشاء جاهز!» صاحت من باب غرفة الطعام.

«آه! عليّ أن أغادر»، قالت ماري وهي تنهض واثبة عن الكنبة. «لم أشأ أن...»

«لا لا!» قال غافين بنبرة لم يسبق أن سمعتها كاي من قبل، نبرة عطف وتودّد. «يجدر بك أن تتناولي بعض الطعام. لن يحصل أيّ مكروه للأولاد إن بقيتِ ساعة زمن.»

أصرّ مايلز عليها أيضًا، مؤيّدًا غافين. نظرت ماري بحيرة إلى سامانثا التي اضطرّت إلى ضمّ صوتها إليهما، ثمّ اندفعت عائدة إلى غرفة الطعام لإضافة طبق خامس.

دعت ماري إلى الجلوس بين غافين ومايلز، حتّى لا يظهر غياب زوجها أكثر جلاء إن جلست إلى جانب امرأة. كاي ومايلز كانا يتحدّثان الآن عن العمل في المجال الاجتماعيّ.

«لا أحسدكِ على عملك» قال وهو يصبّ مغرفة طافحة من اليخنة في صحن كاي. كان بوسع سامانثا أن ترى كتلًا سوداء محترقة تعوم في الصلصة التي ملأت الصحن الأبيض. «مهنة في غاية الصعوبة!»

«الواقع أنّ ما نعانيه هو نقص متواصل في الموارد. لكنّ العمل بحدّ ذاته يمكن أن يكون مصدر سرور، خصوصًا عندما نشعر بأنّنا نحدث تغييرًا.»

فكّرت، وهي تقول ذلك، بعائلة ويدون. فالعيادة أجرت في اليوم السابق تحليلًا لتيري أعطى نتيجة سلبيّة، وروبي قضى أسبوعًا كاملًا في دار الحضانة. تلك الفكرة رفعت من معنوياتها، لتخفّف من استياء طفيف تملّكها تجاه غافين الذي كان يصبّ اهتمامه كاملًا على ماري منذ بداية العشاء، بدون أن يقوم بمطلق بادرة لمساعدتها على التقرّب من أصدقائه.

«لديك ابنة، أليس كذلك كاي؟»

«أجل. غايا. عمرها ستة عشر عامًا.»

«بعمر ليكسي، قال مايلز. يجدر بنا أن نعرّفهما إحداهما إلى الأخرى.»

«مطلّقة؟» سألت سامانثا محاولة اتّخاذ نبرة لبقة.

«لا»، أجابت كاي. «لم نكن متزوّجين. كان صديقي أيام الجامعة، وافترقنا بعد قليل على ولادتها.»

«أجل، أنا ومايلز أيضًا بالكاد كنّا تخرّجنا من الجامعة» قالت سامانثا.

لم تفهم كاي بوضوح قصد سامانثا من خلال كلامها هذا. هل إنّها تريد إظهار الفارق الشاسع بينهما، بالإشارة إلى أنّها تزوّجت ذلك الرجل الضخم المغرور الذي أنجبت منه ابنتين، في حين أنّ صديق كاي تركها؟ لكن من المستحيل أن تكون سامانثا على علم بأنّ بريندان هو الذي تركها...

«الواقع أنّ غايا حصلت على وظيفة ليوم السبت في محلّ والدك، في المقهى الجديد»، قالت لمايلز.

فرح مايلز كثيرًا بهذا الأمر. كان يجد سرورًا واعتزازًا لامتناهيين لفكرة أنّه هو وهاورد من نسيج ذلك المكان، إلى حدّ أنّ جميع مَن في باغفورد مرتبطون بأحدهما بطريقة أو بأخرى، سواء كصديق، أو زبون، أو موكّل، أو موظّف. كان غافين يمضغ منذ وقت قطعة من اللحم المطّاط ترفض أن تلين في فمه. لكنّه عند سماع هذا الخبر، أحسّ بقبضة تطبق على أعلى معدته. لم يكن على علم بأنّ غايا حصلت على وظيفة في محلّ والد مايلز. غاب عن ذهنه نوعًا ما أنّ كاي لديها وسيلة فعّالة لترسيخ وجودها في باغفورد،

وهي ابنتها. حين لا يكون غافين في جوار غايا المباشر، تحت رحمة نظراتها الحاقدة وملاحظاتها اللاذعة والأبواب التي تصفقها، ينسى في غالب الأحيان أنّ لديها حياة مستقلّة، أنّها قائمة بحدّ ذاتها، وليست مجرّد عنصر من عناصر ذلك الإطار المكرب الذي تجري ضمنه علاقته الصعبة مع كاي، مثل شراشف السرير الباهتة، والطبخ الرديء، والأحقاد المتفاقمة بينهما.

«هل تحبّ غايا العيش في باغفورد؟» سألت سامانثا.

«عليّ أن أقول أنّ الحياة هنا أكثر هدوءًا منها في هاكني»، أجابت كاي، «لكنّها تتأقلم بشكل معقول.»

ابتلعت جرعة وافية من النبيذ لغسل فمها من هذه الكذبة الهائلة التي خرجت منه للتو. كان شجار جديد وقع بينهما في المساء نفسه، قبل أن تغادر كاي المنزل.

(«ما بك؟» سألت كاي، فيما غايا جالسة إلى طاولة المطبخ، منحنية فوق حاسوبها النقّال، ترتدي مبذلًا فوق ملابسها. كانت هناك أربعة أو خمسة مربّعات حوار مفتوحة على الشاشة أمامها. كانت كاي على علم بأنّ غايا تتحادث عبر الإنترنت مع أصدقائها في هاكني، ومعظمهم أصدقاء لها منذ أيّام المدرسة الابتدائيّة.

«غايا؟»

هذا الصمت كان وسيلة جديدة ومقلقة تتحصّن غايا خلفها. كانت كاي معتادةً نوبات الغضب الشرسة الموجّهة ضدّها، وبصورة خاصّة ضدّ غافين.

«غايا! إنّني أكلّمك.»

«أعرف، وأنا أسمعك.»

«أرجوكِ إذًا أن تبدي بعض اللياقة وتجيبيني.»

قفزت أسطر حوار سوداء فجأة إلى الأعلى في مربّعات الحوار، ترافقها أيقونات صغيرة طريفة، تومض وتتراقص.

«أرجوكِ غايا، أجيبيني.»

«ماذا؟ ما الذي تريدينه؟»

«أحاول أن أستعلم عن نهارك.»

«نهاري كان كريهًا. أمس كان كريهًا. غدًا أيضًا سيكون كريهًا.»

«متى عدت إلى المنزل؟»

«في الساعة التي أعود بها كلّ يومٍ إلى المنزل.»

لا تزال غايا، بعد كلّ هذه السنوات، تبدي أحيانًا نقمة على والدتها، آخذة عليها عدم وجودها في المنزل لتفتح لها الباب عند عودتها، ولتستقبلها كما تفعل الأمّهات النموذجيّات في قصص الأطفال.

«هل تودّين أن تشرحي لي لماذا كان يومك كريهًا؟»

«لأنّكِ جلبتني للعيش هنا في هذا الحُجر العَفِن.»

ضبطت كاي نفسها حتّى لا ترفع صوتها. جرت بينهما في الآونة الأخيرة مسابقات في الزعيق لا بدّ أنّ الشارع برمّته تابعها.

«أنت على علم بأنّني سوف أخرج مع غافين هذا المساء، أليس كذلك؟»

تمتمت غايا شيئا لم تفهمه كاي.

«ماذا؟»

«قلت إنّني كنت أظنّ أنّه لا يحبّ اصطحابك للخروج معه.»

«ماذا تقصدين بذلك؟»

لكنّ غايا لم تجب، واكتفت بنقر جواب في أحد الحوارات الجارية على شاشتها. وقفت كاي حائرة. كانت تشعر بالرغبة في الضغط عليها أكثر لحضّها على الكلام، لكنّها في الوقت نفسه تخشى ما يمكن أنه تسمعه منها.

«سوف نعود في منتصف الليل، على ما أعتقد.»

لم تردّ غايا، وذهبت كاي لتنتظر غافين في ردهة المدخل.)

«تعرّفت غايا إلى بعض الأصدقاء»، قالت كاي لمايلز. «لديها صديقة، فتاة تقيم في هذا الشارع. ما اسمها؟ ناريندر، أظنّ.»

«سوكفيندر»، قال مايلز وسامانثا بصوت واحد.

«إنّها فتاة لطيفة»، قالت ماري.

«هل التقيتِ والدها؟» سألت سامانثا كاي.

«لا.»

«إنّه جرّاح قلب»، قالت سامانثا التي كانت تحتسي كأسها الرابعة من النبيذ. «رجل جذّاب يخطف الألباب.»

«آه!» قالت كاي.

«مثل نجوم بوليوود تمامًا.»

خطر لسامانثا أنّ أيًا منهم لم يكترث ليقول لها إنّ العشاء شهيّ، ولو أنّه كريه تمامًا، من باب المجاملة البحتة. إن لم يكن بوسعها مضايقة غافين، فلا بدّ لها أن تعوّض وتعاكس مايلز.

«فيكرام هو الشيء الوحيد الذي يعطي نكهة للعيش في هذه البلدة النائية المنسيّة، أؤكّد لكِ ذلك، قالت سامانثا. إنّه الإغراء والشهوة متجسّدَين.»

«زوجته هي طبيبتنا العامّة المحليّة»، قال مايلز، «وهي من أعضاء مجلس البلدة. أنت تعملين لحساب مجلس يارفيل المحلّي، أليس كذلك كاي؟»

«تمامًا»، أجابت. «لكنّني أقضي معظم وقتي في الحقول. هذا الحيّ ملحقٌ إداريًا ببلدة باغفورد، صحّ؟»

لا، لا تثيري موضوع الحقول، فكّرت سامانثا، لا تذكري هذا الاسم اللعين.

«آه»، قال مايلز وعلى وجهه ابتسامة مليئة بالمعاني المبطّنة. «حسنًا، الحقول تنتمي إلى باغفورد، إداريًا. هذا صحيح إداريًا. إنّه موضوع أليم، كاي.»

«حقًا؟ لماذا؟» سألت كاي على أمل أن تفتح موضوع نقاش ينضمّ إليه الجميع، لأنّ غافين كان يواصل التحدّث بصوت منخفض مع الأرمل.

«سوف أقول لك. المسألة تعود إلى الخمسينيّات»، باشر مايلز، منطلقًا في خطاب بدا أنّه تدرّب عليه إلى أن بات يتقنه. «أرادت يارفيل توسيع حيّ كانترميل، وبدل أن تتمدّد في البناء غربًا، حيث الطريق الدائريّ الذي يلتفّ حول المدينة حاليًا...»

«غافين، ماري، المزيد من النبيذ؟» سألت سامانثا بصوت طغى على صوت مايلز.

«... قاموا بضرب احتيال نوعًا ما. اشتروا الأرض بدون أن يوضحوا تمامًا كيف يعتزمون استخدامها، وبعد ذلك قاموا بتوسيع الحيّ عبر حدود بلدة باغفورد.»

«لماذا لا تتحدّث عن الجدّ أوبري فاولي، مايلز؟» سألت سامانثا، وقد بلغت أخيرًا ذلك المستوى الممتع من السكر، حيث يصبح لسانها مثل لسان الأفعى. عند وصولها إلى هذه الحالة، تتحرّر سامانثا تمامًا من الخوف من العواقب، وتطلق العنان لرغبتها الجامحة في الاستفزاز والمشاكسة. «الحقيقة أن الجدّ أوبري فاولي الذي كان يملك تلك الزوايا الحجريّة الرائعة وكلّ ما كان مايلز يتغنّى به، عقد صفقة مريبة من خلف ظهر الجميع...»

«هذا ليس عدلًا سام»، احتجّ مايلز، لكنّها واصلت الكلام غير آبهة، رافعة صوتها ليطغى على صوته.

«... أعاد بيع الأرض حيث يقوم حيّ الحقول حاليًا، ووضع في جيبه... لست أدري كم بالتحديد... لنقل ربع مليون، أو ما يقارب ذلك...»

«هذا كلام فارغ سام، ربع مليون؟ في الخمسينيّات؟»

«... وبعد ذلك»، تابعت سامانثا، «حين أدرك الجدّ أنّه أثار حفيظة الجميع، ادّعى أنّه لم يكن يعلم أنّه سوف يثير متاعب في البلدة. أبله من الطبقة الراقية. وسكّير.»

«أعذريني، لكنّ هذا غير صحيح بكلّ بساطة»، قال مايلز بنبرة حازمة. «لا بدّ لكاي من الاطّلاع قليلًا على تاريخ المنطقة، لفهم المسألة بكلّ أبعادها.»

كانت سامانثا جالسة، تسند ذقنها إلى يدها، متظاهرةً بأنّ مرفقها ينزلق عن الطاولة من شدّة السأم. لم يكن بوسع كاي أن تستلطف سامانثا، لكنّها قهقهت ضاحكة عند رؤية المشهد، فقاطعت الحديث الجاري همسًا بين غافين وماري.

«إنّنا نتحدّث عن الحقول هنا»، قالت كاي بنبرة تتقصّد بها أن تذكّر غافين بوجودها، وبأنّه يجدر به تقديم دعمٍ معنويّ لها.

تنبّه مايلز وسامانثا وغافين في اللحظة ذاتها بأن حيّ الحقول هو الموضوع الأقلّ لباقة الذي يمكن التطرّق إليه في حضور ماري، بعدما كان موضع خلاف محتدم بين باري وهاورد.

«يبدو أنّ هذا موضوع حسّاس بعض الشيء في المنطقة»، قالت كاي، في محاولة لإرغام غافين على إبداء موقف، وإقحامه في الحديث.

«مممم»، همهم قبل أن يستدير مجدّدًا نحو ماري. «وديكلان؟ كيف تسير الأمور معه في نادي كرة القدم؟»

شعرت كاي بغضب جارف يجتاحها. صحيح أنّ ماري فقدت زوجها حديثًا، لكنّ العطف الذي يحيطها به غافين بدا مسرفًا إلى حدّ غير ضروريّ. كانت تتوقّع أمسية مختلفة تمامًا، جلسة بين أربعة أشخاص، يضطرّ غافين خلالها إلى الاعتراف بأنّهما على علاقة فعليّة. عوضًا عن ذلك، لما كان خطر لأيّ شخص يراقبهما خلال العشاء أنّ العلاقة بينهما تتعدّى المعرفة السطحيّة. فضلًا عن ذلك، فإنّ الطعام كريه إلى أقصى حدّ. وضعت كاي سكّينها وشوكتها جنبًا إلى جنب في عرض صحنها الذي بالكاد تناولت ربع محتواه - وهو ما لم تغفل عنه سامانثا - وتوجّهت مجدّدًا إلى مايلز.

«هل نشأتَ في باغفورد؟»

«يمكن أن نقول ذلك، نعم»، أجاب مايلز وعلى وجهه ابتسامة رضى واعتزاز. «ولدت في مستشفى كيلاند القديم الذي أُغلِق في الثمانينيّات.»

«وأنتِ...؟» سألت كاي سامانثا التي قاطعتها.

«لا، الحمد لله. أنا هنا عرضًا.»

«عفوًا، لم توضحي لي في أيّ مجال تعملين تحديدًا، سامانثا؟» سألت كاي.

«تبيع حمّالات صدر للأوزان الثقيلة»، أجاب مايلز.

نهضت سامانثا بخشونة وذهبت لجلب زجاجة نبيذ جديدة. حين عادت إلى غرفة الطعام، كان مايلز يخبر كاي قصّة طريفة، يفترض أن تصوّر لها حلاوة العيش في بلدة صغيرة يعرف الجميع فيها بعضهم بعضًا. كانت قصّة عن المرّة التي أوقفه فيها شرطيّ تبيّن أنّه كان صديقًا له من أيّام المدرسة الابتدائيّة. كثيرًا ما سمعت سامانثا زوجها يردّد تلك القصّة المضجرة وفق إخراج اختبره وطوّره مرّة بعد مرّة، حتّى إنّها حفظت عن ظهر قلب مقطع الحوار الهزليّ الذي دار لاحقًا بينه وبين ستيف إدواردز. جالت بزجاجة النبيذ على المدعوّين حول الطاولة لملء الكؤوس من جديد، فلاحظت التعبير الصارم على وجه كاي. بدا واضحًا أنها لم تكن تستسيغ التندّر حول موضوع جديّ مثل القيادة بعد تناول الكحول.

«... ها هو إذًا ستيف يُخرج جهاز قياس الكحول، وفيما أنا على وشك أن أنفخ فيه، ننهار كلانا فجأة في نوبة ضحك خارجة تمامًا عن السيطرة. شريكه لا يفهم إطلاقًا ما يجري، ويتأمّلنا كالمخبول (يقلّد مايلز رجلًا فاغر الفاه، يقلّب رأسه يمينًا ويسارًا) بينما يوشك ستيف أن يسقط أرضًا، ويسترسل في الضحك حتّى يكاد يتبوّل في سرواله، لأنّنا في تلك اللحظة نتذكّر آخر مرّة كنّا فيها في وضع مماثل: ستيف ممسكًا شيئًا يمدّه لي فيما أنا أنفخ فيه. كان ذلك قبل حوالى عشرين عامًا و...»

«كانت دمية مطّاطيّة للنفخ»، قاطعته سامانثا مقطّبة، وهي تنهار في كرسيها إلى جانب مايلز. «وضعها مايلز وستيف في سرير والدي صديقهما إيان، خلال حفل عيد ميلاده الثامن عشر. باختصار، يضطرّ مايلز في نهاية المطاف إلى دفع غرامة قدرها ألف جنيه، وتُحسم ثلاث نقاط من رصيد رخصته، لأنّها كانت ثاني مرّة يتمّ ضبطه فوق حدّ السرعة المسموح به. كما ترون، قصّة مضحكة بشكل لا يقاوم.»

ظلّت ابتسامة متشنّجة مرتسمة على وجه مايلز، مثل بالون منفّس متروك وحيدًا بعد انتهاء حفلة. بدا وكأنّ ريحًا باردة عصفت بالقاعة التي خيّم عليها لوهلة صمت مطبق. قد يكون مايلز أعطاها انطباعًا بأنّه نموذج الرجل الثقيل المضجر، لكنّ كاي كانت في تلك اللحظة تقف إلى جانبه. من بين كلّ الذين كانوا جالسين حول الطاولة، كان الشخص الوحيد الذي يقوم بمحاولة، مهما كانت متعثّرة، لتيسير اندماجها في حياة باغفورد الاجتماعيّة.

«لا بدّ من الإقرار بأنّ الوضع في الحقول في غاية القسوة»، قالت قاطعة الصمت. تقصّدت العودة إلى الموضوع الذي بدا مايلز مرتاحًا في مناقشته، من غير أن تتنبّه بعد إلى أنّه من المستحسن عدم الخوض فيه في حضور ماري.

«أجل، لدينا حصّتنا من المدمنين والانتهازيّين»، علّق مايلز. «أعتقد أنّني سأكتفي بهذا الحدّ سام»، قال دافعًا صحنه الذي لا يزال يحتوي على كميّة وافية من الطعام.

باشرت سامانثا إزالة الأطباق عن الطاولة. نهضت ماري لمساعدتها.

«لا، لا ماري، إنّني أتدبّر أمري، ابقي جالسة»، قالت سامانثا. ازدادت كاي غيظا حين رأت غافين يثب من كرسيه وقد استنفر فيه حسّ الشهامة، ليرغم ماري على الجلوس من جديد، غير أنّها أصرّت.

«كان العشاء لذيذًا سام»، قالت ماري في المطبخ وهما ترميان معظم الطعام في سلّة النفايات.

«لا، بل كان كريهًا»، ردّت سامانثا، وقد أدركت للتو بعدما نهضت إلى أيّ حدّ كانت ثملة. «ما رأيك بكاي؟»

«لست أدري، ليست كما كنت أتوقّع.»

«إنها مثلما تصوّرتها تمامًا»، قالت سامانثا وهي تُخرِج أطباق الحلوى. «برأيي، إنها نسخة طبق الأصل عن ليسا.»

«آه! لا، لا تقولي هذا»، احتجّت ماري. «إنّه يستحقّ امرأة تصلح له هذه المرّة.»

كانت هذه وجهة نظر جديدة تمامًا برأي سام التي كانت مقتنعة بأنّ خنوع غافين وضعف شخصيّته لا يستحقّان سوى العقاب المتواصل.

عادتا إلى غرفة الطعام حيث كان يدور حديث محتدم بين كاي ومايلز، فيما غافين جالس لا يتفوّه بكلمة.

«... التنصّل من أيّ مسؤوليّة حيالهم، وهو موقف يبدو لي في غاية الأنانيّة والعجرفة...»

«حسنًا، أعتقد أنّه من المثير للاهتمام أن تستخدمي تحديدًا كلمة «مسؤوليّة»، قال مايلز. هنا يكمن بنظري لبّ المشكلة، ألا تعتقدين ذلك؟ السؤال الجوهري هو التالي: أين نرسم الحدود؟»

«بعد الحقول، على ما يبدو»، ردّت كاي وهي تضحك بازدراء. «ما تريده في الحقيقة هو رسم حدّ فاصل واضح وصريح ما بين ملّاكي الطبقة الوسطى وفقراء الطبقات...»

«لكن كاي، باغفورد مليئة بمواطنين من الطبقة العاملة. الفرق هو أن معظمهم يعملون فعليًّا. هل تعلمين كم من سكّان حيّ الحقول يعيشون على المساعدات؟ ذكرتِ المسؤوليّة، أليس كذلك؟ حسنًا، في هذه الحال، أين

هي المسؤوليّة الشخصيّة؟ مضت سنوات والمدرسة المحلية تستقبل أفواجًا منهم. أطفال يتحدّرون من عائلات لا تجدين بين أفرادها شخصًا واحدًا يعمل. فكرة كسب العيش هي مفهوم غريب تمامًا عن أذهانهم. أجيال وأجيال من العاطلين عن العمل، ويفترض بنا أن نمدّهم بالمساعدات...»

«والحلّ الذي تقترحه بالتالي هو إلقاء المشكلة على عاتق يارفيل، بدل أن تواجهوا جذور...»

«كعكة ميسيسيبي بالشوكولاتة؟» صاحت سامانثا.

تناول كلّ من غافين وماري قطعة وشكرا سامانثا. أمّا كاي، فاكتفت بمدّ طبقها لها بدون أن تعيرها أيّ اهتمام، وكأنّها مجرّد نادلة في مقهى، فيما واصلت حديثها المحتدم مع مايلز، ما أغضب سامانثا إلى أقصى حدّ.

«... عيادة معالجة الإدمان مثلا التي تعتبر أساسيّة، والتي وردني أنّ البعض يضغط من أجل إغلاقها...»

«عظيم، إن أردت مناقشة مسألة بيلتشابيل»، قال مايلز وهو يهزّ رأسه، وعلى وجهه ابتسامة زائفة، «آمل أن تكوني تمعّنت في نسب النجاح التي تحقّقها، كاي. بصراحة، إنّها نسب مزرية، مزرية تمامًا. اطّلعت على الأرقام، كنت أراجعها هذا الصباح تحديدًا، وسوف أكون صريحًا معك، كلّما أسرعنا في إغلاق هذا المكان...»

«هذه الأرقام التي تتحدّث عنها، ما هي تحديدًا؟»

«معدّلات النجاح كاي، كما سبق وقلتُ تمامًا. عدد الأشخاص الذين توقّفوا فعلًا عن تعاطي المخدّرات، أقلعوا عن الإدمان...»

«اعذرني، لكن هذه وجهة نظر في غاية السذاجة. إن كنت ستحكم على النجاح بمجرّد...»

«لكن كيف يفترض بنا أن نقيّم نجاح عيادة لمعالجة الإدمان سوى من خلال الأرقام؟» سأل مايلز بذهول. «كلّ ما يفعلونه في بيلتشابيل على حدّ علمي هو توزيع الميثادون يمينًا ويسارًا على مدمنين يواصل نصفهم في الوقت نفسه حقن أنفسهم بالهيرويين.»

«مشكلة الإدمـان برمّتها مشكلة بالغة التعقيد، قالت كـاي، ومن السذاجة والتبسيط أن تطرح المسألة وكأنّ هناك المدمنين من جهة، ومن جهة أخرى الذين...»

لكنّ مايلز كان لا يزال يهزّ رأسه مبتسمًا. شعرت كاي بالغضب يغلي فجأة في عروقها، بعدما كانت استساغت حتّى الآن نقاشها الحادّ مع ذلك المحامي المغرور.

«حسنًا، يمكنني أن أعطيك مثالًا ملموسًا عن العمل الـذي تنجزه بيلتشابيل. ثمّة عائلة أتابع أوضاعها، والـدة وابنة في سنّ المراهقة وابن صغير. لو لم تكن الوالدة تخضع لعلاج بالميثادون، لكانت حاليّا في الشارع تمارس الدعارة لتسدّد تكاليف إدمانها. من الأفضل بكثير للولدين...»

«من الأفضل لهما أن يتمّ إبعادهما عن والدتهما، بحسب ما تروين لي،» قال مايلز.

«وأين تقترح إرسالهما تحديدًا؟»

«إلى عائلة استقبال لائقة، ستكون هذه بداية جيّدة.»

«هل تعرف عـدد عائلات الاستقبال المتوافرة؟ وفي المقابل عدد الأطفال الذين يحتاجون إلى مثل هذه العائلات؟» سألت كاي.

«الحلّ الأنسب كان لو تمّ تبنّيهم عند الولادة...»

«عظيم! سوقف أقفز فورًا في آلة الزمن وأعود إلى الماضي» ردّت كاي.

«الواقع أنّنا نعرف زوجين كانا يبحثان يائسين عن طفل لتبنّيه»، قالت سامانثا مقدّمة دعمًا غير متوقّع لمايلز. لم تغفر لكاي وقاحتها حين مدّت لها صحنها. تلك المرأة مشاكسة ومتعجرفة، تمامًا مثل ليسا. زوجة غافين السابقة هيمنت على كلّ لقاءاتهم بخطاباتها السياسيّة الطنّانة وعملها كاختصاصيّة في قانون الأسرة، مبدية في المقابل احتقارًا واضحًا لسامانثا، لامتلاكها متجر صـدّارات. «آدم وجانيس»، قالت لمايلز الذي هزّ رأسه موافقًا. «لم يتركا وسيلة إلّا ولجآ إليها، لكنّهما لم يتمكّنا من الحصول على طفل، أتذكر؟»

«أجل، طفل، قالت كاي رافعة نظرها إلى الأعلى وكأنّها بدأت تفقد صبرها. الجميع يريد طفلًا. عمر روبي يقارب الأربع سنوات. ما زال يضع

حفّاضة، وهو متخلّف عن مستوى النموّ الطبيعي لأقرانه، ولا شكّ في أنّه تعرّض لسلوك جنسي غير لائق. هل يرغب صديقاكما في تبنّيه؟»

«ما أقوله هو أنّه لو تمّ فصله عن أمّه عند الولادة...»

«كانت مقلعة عن الإدمان عند ولادته، وتحقّق الكثير من التقدّم»، قالت كاي. «كانت تحبّه وتريد الاحتفاظ به، وكانت في تلك الفترة تؤمّن له كلّ احتياجاته. سبق أن ربّت كريستال قبله، مستفيدة من بعض المساعدة من العائلة...»

«كريستال!» صرخت سامانثا. «يا إلهي! لا أصدّق! هل أنّنا نتكلّم فعلًا على عائلة ويدون؟»

شعرت كاي بالهول حين تنبّهت إلى أنّها ذكرت أسماء. لم يكن الأمر يهمّ في لندن، لكن في باغفورد يبدو أنّ الجميع يعرفون بعضهم البعض.

«ما كان يجدر بي...»

لكنّ مايلز وسامانثا أخذا يضحكان، فيما بدت ماري متوتّرة. لم تكن كاي مسّت الحلوى في طبقها، وبالكاد تناولت بعضًا من طبق اليخنة. تنبّهت فجأة إلى أنّها أسرفت في الشرب. قضت الأمسية تحتسي النبيذ بدون توقّف، ساعية للحدّ من عصبيّتها، وها هي الآن قد ارتكبت هفوة لا تغتفر، ولم يعد بوسعها إصلاحها. لكنّ الغضب تملّكها وطغى على أيّة اعتبارات أخرى.

«كريستال ويدون لا تعتبر خير دليل على تجلّيات الأمومة لدى تلك المرأة»، قال مايلز.

«كريستال تبذل كلّ ما في وسعها للحفاظ على عائلتها»، قالت كاي. «إنّها تحبّ شقيقها الصغير من كلّ قلبها، واحتمال أن يُنتزع منهما يبعث فيها الذعر...»

«أنا شخصيًا لن أوكل إلى كريستال ويدون مسؤوليّة سلق بيضة»، أجاب مايلز، مثيرًا ضحك سامانثا مرّة جديدة. «حسنًا، إنّها تحبّ شقيقها، هذا ممتاز، لكن الواقع أنّه ليس دمية...»

«نعم، أعرف ذلك، قاطعته كاي بنبرة جافة»، متذكّرة بقايا البراز الملتصقة بمؤخّرة روبي المسمّطة. «لكنّه على الأقل، يجد لديها بعض الحنان.»

«كريستال هاجمت ابنتنا ليكسي»، قالت سامانثا، «وبالتالي، فإنّنا رأينا ناحية من شخصيّتها مختلفة تمامًا عن تلك التي تظهرها لك.»

«اسمعي، جميعنا يعلم أنّ كريستال لم تحظَ بحياة سهلة، لا أحد ينكر ذلك. مشكلتي شخصيًا ليست معها، بل مع والدتها التي أفسدت المخدّرات رأسها.»

«إذًا، في هذه الحالة، ينبغي أن تعرف أنّ علاجها يسير بشكل ممتاز في الوقت الحاضر في بيلتشابيل.»

«لكن على ضوء ماضيها»، أصرّ مايلز، «ليس من المطلوب أن يكون المرء قارئًا للغيب ليحزر أنّها سوف تعاود تعاطي المخدّرات، أليس كذلك؟»

«لكن إن عمّمت هذا المبدأ، يفترض عندها ألّا تحمل رخصة قيادة، لأنّه على ضوء ماضيك، لا مفرّ من أن تعاود الكرّة وتقود في حال السكر.»

بقي مايلز مشدوهًا، عاجزًا عن الكلام، لكنّ سامانثا أجابت ببرودة «أعتقد أنّ هذا أمر مختلف تمامًا.»

«تعتقدين ذلك حقًّا؟» ردّت كاي. «لكنّ المبدأ هو نفسه.»

«أجل، لكن دعيني أقول لك شيئًا، المبادئ هي التي تطرح مشكلة في بعض الأحيان»، قال مايلز. «الموقف يتطلّب في غالب الأحيان القليل من المنطق، هذا كلّ ما في الأمر.»

«وهو في غالب الأحيان الاسم الذي يطلقه الناس على أحكامهم المسبقة.»

«يقول نيتشه إنّ الفلسفة ليست سوى السيرة الذاتيّة للفيلسوف.»

جفل الجميع لسماع ذلك الصوت الحادّ يرتفع لأوّل مرّة خلال الأمسية. التفتوا ووجدوا نسخة مصغّرة عن سامانثا واقفة عند الباب في الرواق، فتاة عارمة الصدر في السادسة عشرة من العمر، ترتدي سروال جينز ضيّقًا وقميص تي شيرت وتمسك بقبضتها عنقودًا من العنب. بدت راضيةً عن نفسها.

«أقدّم لكم ليكسي»، قال مايلز باعتزاز. «شكرًا على هذه الملاحظة، أنت عبقريّتي الصغيرة.»

«بكلّ سرور»، قالت ليكسي بشقاوة، قبل أن تنطلق كالبرق عائدة إلى الطبقة العلويّة.

خيّم صمت محرج ثقيل حول الطاولة. التفت مايلز وسامانثا وكاي دفعة واحدة من غير أن يدري أيّ منهم السبب إلى ماري، التي بدت على شفير الانهيار بالبكاء.

«قهوة»، قالت سامانثا وهي تنهض مترنّحة على ساقيها، فيما توارت ماري في الحمّام.

«دعونا ننتقل إلى الصالون»، قال مايلز. كان يدرك أنّ الجوّ مشحون، لكنّه كان واثقًا بأنّه سيتمكّن ببعض نكاته الطريفة ودماثته الاعتياديّة، من إعادة إحلال أجواء طيّبة ينشرح لها الجميع. «اجلبوا معكم كؤوسكم.»

حجج كاي زعزعت قناعاته الداخلية مثلما يمكن أن تزعزع نسمة ريح كتلة صخريّة. لكنّه رغم ذلك لم يكن يشعر بأيّ بغض حيالها، بل بالأحرى بالشفقة. من بين كلّ الحاضرين، كان الأقلّ سكرًا بعد كلّ جولات ملء الكؤوس المتتالية، لكنّه ما أن وصل إلى الصالون حتّى شعر أنّ مثانته على وشك الانفجار.

«ضع بعض الموسيقى غاف، سوف أجلب علبة الشوكولاتة.»

لكنّ غافين لم يقم بخطوة واحدة صوب أقراص السي دي المكدّسة في رفوفها العموديّة الأنيقة من البليكسيغلاس الرقيق. بدا وكأنّه ينتظر أن تنقضّ كاي عليه في أيّ لحظة. ولم يكن مخطئًا. ما أن توارى مايلز حتّى بادرته كاي قائلةً «حسنًا غاف، شكرًا جزيلًا، لا بدّ أن أشكرك على دعمك لي.»

غافين أيضًا أقبل بنهم على النبيذ خلال العشاء، أكثر من كاي. كان يحتفل بينه وبين نفسه بحظّه السعيد، إذ انّه لم يجد نفسه في نهاية المطاف ضحيّة لتنمّر سامانثا وغضبها الشرس. واجه كاي بدون مواربة ولا تهرّب، بشجاعة لم يكن يدين بها للكحول فحسب، بل لأنّ ماري عاملته على مدى ساعة كشخص مهمّ، جدير بالثقة ويمكن الاعتماد على نصائحه.

«بدا لي أنّك تبلين حسنًا بدون أن تحتاجي إلى أحد»، أجابها.

الحقيقة أنّه لم يتابع الجدل المحتدم الذي دار بين كاي ومايلز، لكنّ القليل الذي سمح لنفسه بسماعه بعث فيه إحساسًا مريرًا بتكرار الماضي. لو لم تكن ماري إلى جانبه تحوّل انتباهه عمّا يجري، لكان خال نفسه عاد في الزمن إلى تلك الليلة الشهيرة في غرفة الطعام ذاتها، حين أعلنت ليسا

لمايلز أنّه يجسّد بنظرها كلّ نواقص المجتمع. ضحك مايلز عندها ساخرًا منها، ففقدت صوابها ورفضت البقاء لتناول القهوة. وبعد تلك الليلة بفترة قصيرة، اعترفت ليسا له بأنّها على علاقة غراميّة بأحد زملائها في الشركة وأوصت غافين بالخضوع لفحص طبيّ للتثبّت ممّا إذا كان أصيب بعدوى الكلاميديا.

«لست أعرف أيًّا من هؤلاء الأشخاص جميعًا»، قالت كاي، «وأنت لم تقم بمطلق بادرة لتسهيل الأمر عليّ بعض الشيء. ألست محقّة؟»

«ماذا كنت تريدين منّي أن أفعل؟» سأل غافين. كان يشعر بهدوء رائع، وكأنّه معزول تمامًا عمّا يجري، متحصّن خلف عودة مايلز وسامانثا وماري الوشيكة، وخلف نبيذ الكيانتي الذي استهلكه بكميّات وافية. «لم أشأ الدخول في نقاش حول الحقول. الحقول والمرّيخ سيّان عندي. ثمّ إنّه موضوع بالغ الحساسيّة يجدر تفادي طرحه في حضور ماري. باري كان يخوض معركةً حقيقيّة في المجلس لإبقاء الحيّ ملحقًا بباغفورد.»

«في هذه الحالة، ألم يكن بوسعك أن تقول شيئًا؟ أن تقوم بإشارة أو تومئ لي؟»

ضحك، تمامًا مثلما فعل مايلز قبله. لكنّه لم يتسنّ لها أن تردّ عليه، إذ عاد الآخرون مثل المجوس حاملين هدايا: سامانثا تمسك صينيّة صفّت عليها فناجين قهوة، تتبعها ماري بين يديها إبريق القهوة، وأخيرًا مايلز مع علبة الشوكولاتة التي جلبتها كاي. عند رؤية الشريط الذهبيّ البهيّ المربوط حول العلبة، تذكّرت كاي كم كانت تتطلّع بتفاؤل إلى تلك الأمسية حين اشترتها. أشاحت بوجهها، محاولة إخفاء غضبها العارم. كانت في غاية التوتّر، تتنازعها رغبة جارفة في الصراخ بوجه غافين، وفي الوقت نفسه توق مفاجئ ومخزٍ إلى البكاء.

«كانت أمسية ممتعة»، سمعَت ماري تقول بصوت مبحوح يوحي بأنّها ربّما كانت تبكي هي أيضًا، «لكنّني لن أبقى لتناول القهوة معكم، لا أريد أن أتأخّر في العودة إلى المنزل. ديكلان... ديكلان مضطرب بعض الشيء في الوقت الحاضر. شكرًا جزيلًا، سام، مايلز، كان من المفيد لي أن... حسنًا، أن أخرج قليلًا.»

«سوف أرافقك إلى...» بادر مايلز، لكنّ غافين قاطعه بحزم.

«ابقَ هنا مايلز، سوف أتكفّل أنا بماري. ماري، سأرافقك إلى منزلك. لن يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق. الظلام دامس في الخارج.»

انقطعت أنفاس كاي. كيانها برمّته كان منصبًّا في تقزّزها، تقزّزها من مايلز المزهوّ بنفسه، سامانثا البذيئة، وماري الهشّة الذاوية، لكنّ نقمتها الأكبر كانت على غافين نفسه.

«آه أجل!» فوجئت بنفسها تقول، إذ بدا لها أنّ جميع الأنظار موجّهة إليها بانتظار إذنٍ منها. «طبعًا! هيّا غاف، رافق ماري إلى منزلها.»

سمعت باب المنزل يُغلَق، وها هو غافين انطلق. صبّ لها مايلز فنجان قهوة. وفيما كانت تتأمّل السائل الأسود الحارّ ينسكب، أدركت فجأة بشكل أليم كلّ ما جازفت به حين قلبت حياتها رأسًا على عقب من أجل الرجل الذي كان الآن يبتعد في الليل مع امرأة أخرى.

8

لمح كولين وول غافين وماري يعبران تحت نافذة مكتبه. عرف ماري على الفور من ظلّ جسدها، لكنّه اضطرّ إلى التحديق مليّا، مرخيًا جفنيه، ليتعرّف إلى الرجل الهزيل الذي يمشي إلى جانبها، قبل أن يخرجا من دائرة النور المنبعث من المصباح في الشارع. نهض كولين قليلًا من كرسيّه منحنيًا فوق الكمبيوتر، وحملق في الظلّين اللذين ابتعدا وتواريا في الظلمة.

صُعق كولين لهذا المشهد. كان يظنّ أنّ ماري منزوية، في نوعٍ من الخلوة، بعيدًا عن الرجال، ولا تستقبل في قدسيّة بيتها سوى النساء، ومن بينهنّ تيسا التي كانت تواصل زيارتها يوميًّا. لم يخطر له مرّة أنّ ماري يمكن أن تنخرط في اجتماعيّات بعد هبوط الليل، وخصوصًا مع رجل أعزب. أحسّ بطعنة غدر في ظهره، وكأنّ ماري خانته شخصيًا على مستوى روحيّ.

هل إنّ ماري سمحت لغافين بإلقاء نظرة أخيرة على جثمان باري؟ هل كان غافين يقضي أمسياته جالسًا في أريكة باري المفضّلة قرب المدفأة؟ هل

أنّ غافين وماري... هل يعقل أن يكونا...؟ الواقع أنّ مثل هذه الأمور تحصل كلّ يوم. ربّما... ربّما حتّى قبل وفاة باري...؟

كانت مسألة الانحطاط الأخلاقي المستشرية لدى الآخرين من حوله تروّع كولين عمومًا. كان يرغم نفسه دائمًا على توقّع الأسوأ من محيطه، محاولًا بذلك تحصين نفسه ضدّ الصدمات. فيستحضر سيناريوهات دناءة وخيانة، بدل أن ينتظر جلاء الحقيقة التي ستهشّم أوهامه الساذجة. لم تكن الحياة بنظر كولين سوى صراع طويل مع الألم والخيبة، والكلّ في هذه المعركة، عدا زوجته، كان عدوًّا إلى أن يثبت العكس.

كاد يهرع إلى الطبقة السفليّة ليخبر تيسا بما رآه للتوّ، علّها تعطيه تبريرًا بريئًا لنزهة ماري الليليّة، وتطمئنه بأنّ أرملة أعزّ أصدقائه كانت ولا تزال وفيّة لزوجها. غير أنّه تمالك نفسه، لأنّه كان غاضبًا من تيسا.

لماذا كانت تعاند وتبدي قلّة اكتراث لنيّته الترشّح لعضويّة المجلس؟ ألم تتنبّه إلى القلق المسيطر عليه مثل قبضة محكمة تكاد تخنقه منذ أن أرسل ملفّ ترشّحه؟ بالطبع، كان يتوقّع أن يشعر على هذا النحو، لكنّ ذلك لا يخفّف حدّة قلقه. فإن رأيت القطار يدنو منك مزمجرًا على سكّته، هذا لا يعني أنّه سيوفّرك، بل سيصدمك ويسحقك بالعنف ذاته. الواقع أنّ كولين كان يعاني عذابين: مرّة من توقّع ما سيحلّ به، ومرّة أخرى من تحقّق توقّعاته.

التخيّلات الجديدة التي كانت تراوده مثل كوابيس كانت تدور حول آل موليسون، والسبل الكثيرة التي يمكن أن يلجأوا إليها لمهاجمته. كان ذهنه يضجّ باستمرار بالحجج المضادّة والتفسيرات والتبريرات. يرى نفسه مسبقًا محاصرًا، يخوض معركة للحفاظ على سمعته. ذلك الميل إلى البارانويا الذي يظلّل باستمرار تعاطي كولين مع العالم الخارجيّ أخذ يزداد حدّة. وفي هذه الأثناء، كانت تيسا تدّعي بأنّها لا تلاحظ شيئًا، ولا تحرّك ساكنًا لتخفيف وطأة ذلك الضغط الفظيع الذي كان يرزح تحته.

كان على علم بأنّها غير موافقة على ترشّحه. ربّما كانت هي أيضًا مذعورة، تخشى أن يشقّ هاورد موليسون أحشاء ماضيهما المثقلة وينشر ما فيها من أسرار مريعة لتتناقلها كواسر باغفورد الشرهة.

سبق وأجرى كولين بعض الاتّصالات الهاتفيّة بالذين كان باري يعوّل على دعمهم. فوجئ واطمأنّ حين رأى أنّ أيًّا منهم لم يشكّك في أهليّته ولم يخضعه لاستجواب حول المسائل المطروحة في ما يتعلّق بالبلدة. بل عبّروا جميعهم بدون استثناء عن أسفهم العميق لخسارة باري، وأبدوا بغضهم الشديد لهاورد موليسون، «ذلك النذل المغرور» كما لقّبه أحد الناخبين الذين لا يتردّدون في تجاهل اللياقات. «يحاول بكلّ الوسائل حشر ابنه. بالكاد تمكّن من محو الابتسامة عن وجهه عندما علم بوفاة باري». حرص كولين على وضع قائمة بالحجج التي تساند قضيّة الحقول، غير أنّه لم يضطرّ للعودة إليها مرّة. كان يبدو حتّى الآن أنّ ميزته الرئيسة كمرشّح هي أنّه كان صديق باري، وأنّه لا يُدعى كولين موليسون.

رأى صورة وجهه المصغّرة المنعكسة بالأسود والأبيض على شاشة الكمبيوتر أمامه تبتسم له. قضى الأمسية بكاملها جالسًا هناك، يعمل على صياغة منشوره الانتخابيّ، وقد اختار له الصورة ذاتها المدرجة على موقع مدرسة وينترداون على الإنترنت: صورة لوجهه بجبينه العريض اللمّاع والابتسامة الباهتة بعض الشيء المرتسمة عليه. فمن حسنات هذه الصورة أنّها معروضة منذ فترة على العموم ولم تجلب له العار ولا السخرية، وفي ذلك فأل حسن. لكن تحت الصورة، في الموقع المخصّص للنبذة الشخصيّة، لم تكن هناك سوى جملة أو جملتين متعثّرتين. قضى كولين القسم الأكبر من الساعتين الأخيرتين يطبع جملًا ثمّ يمحوها. توصّل في لحظة من اللحظات إلى تأليف فقرة كاملة، لكنّه عاد ومحاها، حرفًا بعد حرفٍ، ناقرًا بعصبيّة بإصبعه على مفتاح المحو.

اشتدّت عليه وطأة التردّد والوحدة، فوثب ناهضًا عن كرسيه، ونزل إلى الطبقة السفليّة. كانت تيسا ممدّدة على الأريكة في غرفة الجلوس، وقد غفت على ما يبدو أمام التلفزيون الذي كان لا يزال مشغّلًا في الخلف.

فتحت عينيها. «كيف تجري الأمور معك؟» سألت بصوت نعس.

«مرّت ماري للتوّ في الشارع. كانت تمشي برفقة غافين هيوز.»

«آه»، قالت تيسا، «ذكرت لي شيئًا من هذا القبيل بعد الظهر.. أنّها ذاهبة لزيارة مايلز وسامانثا. لا شكّ في أنّ غافين كان هناك واقترح مرافقتها إلى منزلها.»

صُدم كولين تمامًا بهذا الخبر. هل يعقل أن تقوم ماري بزيارة مايلز، الرجل الذي يسعى بكلّ الوسائل للاستيلاء على موقع زوجها، والذي يقف بوجه كلّ ما كافح باري من أجله؟

«ماذا ذهبت تفعل في منزل آل موليسون؟ ما دخلها بهم؟»

«تعلم جيّدًا أنّهما رافقاها إلى المستشفى»، قالت تيسا وهي تنهض للجلوس وتمدّد ساقيها القصيرتين، مطلقةً أنينًا طفيفًا. «لم تسنح لها فرصة مناسبة منذ ذلك الحين لتكلّمهما. أرادت أن تشكرهما. هل انتهيتَ من كتابة منشورك الإنتخابي؟»

«أوشكت على إنجازه. اسمعي، بالنسبة إلى النبذة، أعني المعلومات الشخصيّة، هل تعتقدين أنّ عليّ أن أذكر الوظائف السابقة؟ أم أكتفي بوينترداون؟»

«لا أعتقد أنه من المطلوب منك أن تذكر ما يزيد عن وظيفتك الحاليّة. لكن لماذا لا تسأل ميندا؟ إنّها... (تثاءبت تيسا)... إنّها قامت بذلك من قبل.»

«أجل،» قال كولين. ظلّ واقفا أمامها ينتظر لبعض الوقت، لكنّها لم تعرض مساعدته، أو حتّى قراءة ما كتبه إلى الآن. «أجل، قال رافعًا صوته قليلًا، إنّها فكرة جيّدة. سوف أطلب من ميندا أن تلقي نظرة على النصّ.»

أخذت تدلّك كاحليْها وتغمغم، فخرج كولين من الصالون وهو يشعر بأنّه أُهين في كرامته. لا يمكن زوجته أن تفهم الحالة التي هو فيها، الأرق الذي ينهكه، وتلك الآلام التي تنخر معدته من الدّاخل.

لم تكن تيسا نائمة في الحقيقة، بل ادّعت ذلك. أيقظها صدى خطى ماري وغافين قبل عشر دقائق.

بالكاد كانت تيسا تعرف غافين. كان يصغرهما هي وكولين بخمسة عشر عامًا، لكنّ العائق الأساسي الذي منعها من التقرّب منه كان على الدوام الغيرة التي يشعر بها كولين من جميع أصدقاء باري الآخرين.

«كان مذهلًا في مسألة التأمين»، قالت ماري لتيسا خلال مكالمة هاتفيّة بينهما في وقت سابق. «لم يكفّ عن الاتّصال بهم يوميًا، بحسب ما فهمت، ويقول لي باستمرار ألّا أقلق بشأن أيّ رسوم. يا إلهي تيسا، إن لم يدفعوا التأمين...»

«سوف يحلّ غافين المسألة، لا تخافي»، قالت تيسا. «إنّني واثقة بأنّه سيجد وسيلة.»

ودّت تيسا، وهي تجلس متيبّسة وعطشانة على الأريكة، لو كان بوسعهما هي وكولين استقبال ماري في منزلهما، التمويه عنها والتثبّت من أنّها تأكل كما ينبغي لكنّ حاجزًا منيعًا كان يحول دون ذلك: كانت ماري تجد صعوبة في التعاطي مع كولين، تشعر به عبئًا ثقيلًا. هذا الإحساس المزعج الذي ظلت ماري تكبته إلى ذلك الحين، خرج إلى العلن شيئًا فشيئًا بعد وفاة باري، مثل حطام عائم يظهر بعد انحسار المدّ. بدا، بجلاءٍ مطلَقٍ، أنّ ماري تريد أن تقتصر علاقتها على تيسّا فحسب. كانت تتهرّب حالما تُطرح فكرة أن يساهم كولين في أيّ شيء كان، وتتفادى التحدّث إليه مطوّلًا على الهاتف. لم يسبق أن بدرت عن ماري إيّ إشارة إلى نفورها من كولين طوال تلك السنين التي التقى فيها الأربعة كثيرًا. لا بدّ أنّ طرافة باري وأطباعه الطيّبة هي التي حجبت ذلك.

كانت تيسا مضطرّة إلى التعاطي مع هذا الوضع المستجدّ بمنتهى اللّباقة والحذر. نجحت في إقناع كولين بأنّ ماري تكون أكثر ارتياحًا حين تكون محاطةً بالنساء. غفلت مرّة واحدة خلال الجنازة، حين ترصّد كولين ماري وفاجأها أثناء خروج الجميع من كنيسة سانت مايكل، محاولًا أن يشرح لها بصوت تخنقه العبرات أنّه سيتقدّم لمنصب باري في المجلس، وسيكمل ما بدأه باري، وسيحرص على أن يحقّق له النصر ولو بعد رحيله. رأت تيسا يومها بوضوح ملامح الصدمة والغضب على وجه ماري التي أبعدت كولين عنها.

أعلن كولين مرّة أو مرّتين منذ ذلك الحادث أنّه سيذهب إلى ماري ليعرض عليها برنامجه الانتخابيّ ويسألها إن كان باري ليوافق عليه. حتّى أنّه أراد أن يستشيرها لمعرفة كيف كان باري ليتعاطى مع حملة كسب الأصوات. اضطرّت تيسا، في نهاية الأمر، إلى أن تقول له بحزم إنّ عليه ألّا يزعج ماري بمسائل مجلس إدارة البلدة. استاء كثيرًا لمعاكستها مشروعه، لكنّ تيسا كانت تفضّل أن يصبّ غضبه عليها بدل أن يزيد همًّا على معاناة ماري، أو يدفعها إلى صدّه، مثلما حصل حين طلب إلقاء نظرة أخيرة إلى جثمان باري.

«لكن كيف أمكنها! آل موليسون؟!» قال كولين، وقد عاد إلى الصالون حاملًا فنجان شاي، بدون أن يعرض فنجانًا على تيسا. فهو غالبا ما يبدي أنانيّة في تلك التفاصيل الصغيرة التي لا تخطر له حتّى، من شدّة ما يظلّ مأخوذًا بأموره الخاصّة. «من بين كلّ الذين يمكنها تناول العشاء معهم، اختارت تحديدًا آل موليسون؟! كان هؤلاء يعارضون كلّ ما يناصره باري!»

«إنّك تبالغ قليلًا، كول»، قالت تيسا. «في مطلق الأحوال، لم تكن ماري يومًا مهتمّة بقضيّة الحقول مثل باري.»

غير أنّ مفهوم كولين الوحيد الأوحد عن الحبّ هو أنّه تعبير خالص عن وفاءٍ لا يضعف وتسامحٍ لا ينضب. على ضوء هذه المعايير، كان لا بدّ أن تسقط ماري من عينه بشكلٍ لا رجوع عنه.

9

«إلى أين تظنّ نفسك ذاهبًا؟» سأل سايمون، متمترسًا في وسط الممرّ الضيّق.

كان باب المدخل مفتوحًا، والرواق المزجّج من خلفه، حيث تتكدّس الأحذية والمعاطف، يشع بنور باهر في صباح يوم السبت المشمس ذاك. واقفًا عكس الضوء، بدا سايمون خيالًا قاتمًا يمتدّ ظلّه على السلالم حتّى الدرجة التي كان آندرو واقفا عليها.

«إلى المدينة مع فاتس.»

«أنهيت فروضك المدرسيّة كلّها بالطبع، أليس كذلك؟»

«أجل.»

كان آندرو يكذب، لكنّ سايمون لن يكلّف نفسه عناء التثبّت من ذلك.

«روث؟ روث!»

ظهرت عند باب المطبخ، وقد ربطت مئزرًا على وسطها، وجهها محتقن ويداها مكسوتان بالطحين.

«ماذا؟»

«هل نحن بحاجة إلى أيّ شيء من المدينة؟»

«ماذا؟ لا، لا أعتقد ذلك.»

«تنوي أخذ درّاجتي على ما أظن؟» سأل سايمون آندرو.

«أجل، كنت سوف...»

«سوف تتركها في منزل فاتس؟»

«أجل.»

«في أيّة ساعة نريده أن يعود؟» سأل سايمون وهو يلتفت إلى روث من جديد.

«آه! لست أدري سيمو»، أجابت وقد بدأت تفقد صبرها. المرّات الوحيدة التي كانت تجرؤ فيها على إبداء بعض الاستياء حيال زوجها، كانت حين يبدأ بفرض القانون لمجرّد المتعة، رغم أنّه في مزاج جيّد نسبيًا. غالبًا ما كان آندرو وفاتس يقصدان المدينة معًا، وكان من المفهوم ضمنيًا أن يعود آندرو قبل حلول المساء.

«الساعة الخامسة إذًا»، قال سايمون بشكل اعتباطيّ. «بعد الخامسة بدقيقة، تُحتجَز في المنزل.»

«حسنًا»، أجاب آندرو.

كانت يده اليمنى مغروزة في جيب سترته، مطبقةً على قطعة ورق مطويّة لا تغيب عن ذهنه لحظة، مثل قنبلة موقوتة. مضى أسبوع والخوف من فقدان هذه الورقة يؤرقه. كانت قصاصة ورق عليها سطر من الرموز المشفّرة دوّنه بكثير من العناية، وبضع جمل فيها الكثير من الكلمات المشطوبة، أعاد كتابتها ونقّحها مرارًا وتكرارًا. قطعة الورق هذه لم تكن تفارقه، وحين ينام يخبئها في غطاء وسادته.

بالكادِ تنحّى سايمون من وسط الممرّ، فاضطرّ آندرو إلى الالتفاف من حوله للخروج إلى الرواق الخارجيّ، وأصابعه متشبّثة بالورقة. كان مذعورًا لاحتمال أن يرغمه سايمون على إفراغ جيوبه، بداعي التثبّت من أنّه لا يخفي سجائر فيها.

«حسنًا، إلى اللقاء إذًا.»

لم يردّ سايمون. توجّه آندرو إلى المرأب، حيث توقّف برهة ليخرج الورقة. بسطها ثمّ قرأها مرّة جديدة. كان على يقين بأنّ مخاوفه لم تكن عقلانيّة، فمجرّد وجود سايمون في الجوار لا يمكن أن يكون بدّل الورقة كأنّما بالسحر، لكن رغم ذلك كان عليه التثبّت من الأمر. عاد وطواها بعدما اطمأنّ إلى أنّ كلّ شيء على ما يرام، وحشرها عميقًا في جيبه التي أغلقها بالزرّ. دفع بعدها الدرّاجة إلى خارج المرأب، وعبر بها البوّابة وصولًا إلى الطريق الضيّق. كان بوسعه أن يتصوّر والده واقفًا يراقبه من خلال زجاج الرواق، على أمل أن يراه يسقط أرضًا أو يلحق ضررًا بالدرّاجة بطريقة ما.

في الأسفل، كانت باغفورد متّشحة بضباب رقيق في الشمس الربيعيّة اللطيفة، والهواء بارد حاد. بلغ آندرو نقطة أحسّ عندها بأن سايمون لم يعد قادرًا على متابعته بنظره. شعر وكأنّ ضغطًا أُزيل عن ظهره.

انحدر مسرعًا على التلّة نحو بارغفورد، بدون أن يمسّ فرامل الدرّاجة، ثمّ انعطف في شارع تشيرتش روو. تمهّل عند وصوله إلى منتصف الطريق وولج بلياقة وهدوء الممرّ المؤدّي إلى منزل آل وول، محترسًا حتّى لا يصطدم بسيّارة أبو خزانة.

«أهلًا آندي»، قالت تيسا وهي تفتح له الباب.

«مرحبًا سيّدة وول.»

كان آندرو يعتنق الرأي السائد والقائل إنّ والدَي فاتس مثيران للسخرية. تيسا كانت سمينة وغير جذّابة، شعرها مُسرَّح بطريقة عجيبة وذوقها في اختيار الملابس رديء إلى حدٍّ محرج. أمّا أبو خزانة، فمتشنّج وعصبيّ إلى حدّ مضحك. ورغم ذلك، لم يكن يسع آندرو سوى أن يقول لنفسه بأنّه لربّما كان أحبّهما لو كانا والديه. كانا في غاية التحضّر والكياسة. في منزلهما، لا ينتابك الشعور بأنّ الأرض قد تنشقّ فجأة من تحتك وتلقي بك في جحيم من الفوضى.

وجد فاتس جالسًا عند أسفل الأدراج، ينتعل حذاءه الرياضيّ. كانت رزمة من التبغ تظهر بوضوح من جيب صدر سترته.

«آرف.»

«فاتس.»

«هل تريد أن تترك درّاجة والدك في المرأب، آندي؟»

«أجل، شكرًا سيّدة وول.»

(خطر له أنّها تقول له على الدوام «والدك» وليس «أباك». كان آندرو يعرف أنّ تيسا تكره سايمون. كان ذلك أحد الأمور التي تجعله على استعداد لتناسي الملابس القبيحة الشبيهة بالأكياس التي ترتديها، والغرّة العديمة الشكل التي تعترض جبينها.

وبغضها لسايمون عمره سنوات، يعود إلى ذلك اليوم الرهيب الذي شكّل علامة فارقة لا تنتسى، حين كان فاتس في السادسة من عمره. قدم في يوم السبت ذاك إلى منزل هيلتوب هاوس لقضاء بعد الظهر مع آندرو، في أوّل زيارة يقوم بها له. اعتلى الولدان يومها علبة من الطلاء مودَعة في المرأب ووقفا فوقها في توازن هشّ، يحاولان سحب مضربَي بادمينتون قديمَين من مخبئهما، حين صدما عن غير قصد رفًّا متخلخلًا، وأوقعاه أرضًا.

بوسع آندرو أن يذكر كيف سقطت علبة طلاء القطران على سقف السيّارة، فتحطّمت وطار غطاؤها. ما زال يشعر بوقع الصدمة والرعب اللذين أطبقا عليه. كان صديقه يتلوّى ضحكًا، فيما هو عاجز عن أن يشرح له خطورة الورطة التي وقعا فيها.

سمع سايمون الجلبة فهرع إلى المرأب. عند رؤية المشهد، انقضّ عليهما وقد نتأ فكّه الأسفل، مطلقًا ذلك الصوت الحيوانيّ، ذلك العويل المخنوق البهيميّ، قبل أن يبدأ بالزئير مهدّدًا الطفليْن بإنزال أقسى العقاب الجسديّ بهما، وقبضتاه مشدودتان على مسافة بضعة سنتيمترات من وجهيهما الصغيرين المرفوعين صوبه.

يومها، تبوّل فاتس في ملابسه وانساب خيط من البول من تحت سرواله القصير إلى أرض المرأب. سمعت روث الزئير والصراخ من المطبخ، فركضت لتتوسّط بين زوجها والصبيَّين: «لا، سيمو! سيمو! لا، لم يقصدا، كان ذلك حادثًا!» كان فاتس شاحبًا يرتجف من شدّة الفزع. أراد العودة إلى منزله على الفور. طلب أن تَحضُر والدته فورًا.

وصلت تيسا، فركض فاتس في سرواله القصير المبلّل، ولاذ بها منتحبًا. كانت تلك المرّة الوحيدة في حياته التي رأى فيها آندرو والده مرتبكًا، يبحث عن سبيل للتراجع عن موقفه. كانت تيسا تقطر غضبًا من غير صراخ أو تهديد أو ضرب. حرّرت شيكًا وحشرته في يد سايمون رغم تمنّعه، فيما روث تردّد «لا، لا، هذا غير ضروري، هذا غير ضروري.» لحق بها سايمون إلى سيّارتها، محاولًا أن يمازحها لتخفيف حدّة التوتّر، لكنّ تيسا رمقته بنظرة ازدراء وهي تساعد فاتس الذي كان لا يزال ينشج، على الجلوس في المقعد الأماميّ، ثمّ جلست خلف المقوَد وصفقت الباب في وجه سايمون الذي كان يبتسم لها. رأى آندرو التعبير على ملامح والديه: كانت تيسا تعود إلى البلدة، وهي تحمل معها أحد تلك الأسرار التي تبقى عادة مطمورةً في المنزل عند أعلى التلّة.)

كان فاتس في تلك الأيّام يتودّد إلى سايمون. حين يأتي إلى منزل هيلتوب هاوس، يبذل كلّ ما في وسعه ليُضحِكه. وفي المقابل، كان سايمون يرحّب بزيارات فاتس، يقهقه عند سماع نكاته البذيئة، ويستمتع بقصص مقالبه الطريفة. لكنّ هذا لم يكن يمنع فاتس حين يبقى وحيدًا مع آندرو، من الانضمام بقناعة تامّة إلى رأي آندرو بأنّ سايمون نذل من الطراز الأوّل الذي لا يضاهى.

«أراهن على أنّها سحاقيّة»، قال فاتس وهما يعبران أمام منزل أولد فايكريج الذي ينتصب داكنًا في ظلّ أشجار الصنوبر البريّ، واللبلاب المتعرّش على جدار واجهته.

«من؟ والدتك؟» سأل آندرو الغارق في تأمّلاته، والذي بالكاد يستمع لصديقه.

«ماذا؟» صاح فاتس بصوت لمس فيه آندرو سخطًا حقيقيًّا. «إخرس! كنت أقصد سوكفيندر جاواندا!»

«أه أجل، طبعًا.»

ضحك آندرو، وبعد لحظات، ضحك فاتس أيضًا.

كان الباص إلى يارفيل مكتظًّا بالركّاب، فاضطرّ آندرو وفاتس إلى الجلوس جنبًا إلى جنب، وليس الواحد مقابل الآخر على مقعدين مزدوجين،

مثلما كانا يفضّلان. عند مرورهما أمام مفرق شارع هوب، ألقى آندرو نظرة إليه، لكنّه كان مقفرًا. لم يلتقِ غايا مجدّدًا خارج المدرسة منذ بعد الظهيرة تلك، حين حصلا على عملٍ في مقهى الإبريق النحاسيّ. كان افتتاح المقهى مقرّرًا في عطلة نهاية الأسبوع التالي، وكانت موجة من الغبطة تغمره كلّما تذكّر ذلك.

«كيف تسير حملة سيمو-حبيبو الانتخابية؟ على السكّة؟» سأل فاتس، وهو ينهمك في لفّ سجائر. كانت ساقه الطويلة ممدودةً في عرض الممرّ بين صفّي المقاعد، والركّاب يعبرون من فوقها بدون أن يطلبوا منه سحبها. «أبو خزانة بدأ يفسدها منذ الآن، مع العلم أنّه لا يزال في مرحلة صياغة منشوره الإنتخابي.»

«أجل، إنّه يشغل نفسه»، قال آندرو، وهو يشعر بنوبة ذعر تجتاحه من الداخل وتعصر معدته، بدون أن يرفّ له جفن أو يتفوّه بكلمة.

راوده مشهد والديه جالسَين إلى طاولة المطبخ كما يفعلان كلّ مساء منذ أسبوع. فكّر في علبة من المنشورات السخيفة التي طبعها سايمون في المكتب، وقائمة المواضيع التي ساعدته روث على وضعها، والتي كان يستخدمها حين يُجري اتّصالات هاتفيّة كلّ مساء مع كلّ مَن يعرفه ضمن حدود الدائرة الانتخابيّة. هذه الإجراءات كانت تتطلّب من سايمون جهدًا جهيدًا على ما يبدو، فيبقى مشدود الأعصاب طوال الوقت في المنزل، ويتعاطى مع ولديه بمزيد من العدائيّة. كان يعطي انطباعًا بأنّه يتحمّل عبئًا عظيمًا أُلقِي على عاتقه وحده بعدما تملّص منه الجميع. كانت الانتخابات الموضوع الأوحد الذي يدور الحديث حوله حين يجلسون إلى مائدة الطعام، فينطلق سايمون وروث في تكهّناتهما المحمومة بشأن القوى المتحالفة في وجه سايمون. كانا يعتبران تقدّم مرشّحين آخرين لمقعد باري فيربراذر بمثابة إهانة شخصيّة، ويفترضان بأنّ كولين وول ومايلز موليسون يقضيان القسم الأكبر من وقتهما يدبّران المكائد والمؤامرات، شاخصَين بنظرَيهما إلى هيلتوب هاوس، وجهودهما مصبوبة كليًّا على هزم الرجل المقيم في ذلك المنزل في أعلى التلّة.

تحسّس آندرو مرّة جديدة قطعة الورق المطويّة في جيبه للتثبّت من وجودها. لم يخبر فاتس بما كان ينوي القيام به، خشية أن ينشر صديقه المسألة. لم يكن يدري كيف يجعل صديقه يدرك ضرورة الحفاظ على السرّ، كيف يجعله يعي أنّ المهووس الذي جعلهما يتبوّلان في ملابسهما وهما صغيران لا يزال حيًّا أكثر من أيّ وقت مضى، ومقيمًا في المنزل نفسه مع آندرو.

«أبو خزانة لا يحسب لسيمو-حبيبو حسابًا»، قال فاتس. «يعتقد أنّ المنافسة الحقيقيّة ستأتي من مايلز موليسون.»

«نعم.. نعم..»، أجاب آندرو. فقد سمع والديه يتناقشان في هذه المسألة. إنّهما يعتقدان على ما بدا له أنّ شيرلي خانتهما، أنّه كان يجدر بها أن تمنع ابنها من الترشّح في مواجهة سايمون.

«أتعلم؟ إنّ المسألة برمّتها أشبه بحملة صليبيّة لعينة بنظر أبو خزانة»، علّق فاتس وهو يلفّ سيجارة بين سبابته وإبهامه. «إنّه يلمّ الراية العسكريّة التي سقطت مع سقوط صديقه في ساحة المعركة. ذلك الرجل الطيّب، باري فيربراذر.»

غرز التبغ داخل طرف اللفافة، مستخدمًا عود ثقاب.

«زوجة باري فيربراذر لديها نهدان هائلان»، قال فاتس.

التفتت امرأة مسنّة جالسة أمامهما ورمقت فاتس بنظرة استياء. ضحك آندرو مجدّدًا.

«ثديان عارمان مترنّحان»، تابع فاتس بصوت عالٍ، محدّقًا في وجه المرأة العابس المتجعّد. «بزّان ضخمان طريّان عظيمان من القياس الكبير.»

أدارت وجهها المحتقن ببطء لتنظر مجدّدًا أمامها، نحو مقدّم الحافلة. كاد آندرو يختنق من الضحك.

نزلا من الباص في وسط يارفيل، قرب المنطقة التجاريّة حيث شارع المشاة الرئيسي المحاط بالمحلّات، وانسلّا شاقّين طريقهما بين سيل المتسوّقين، وهما يدخّنان لفافات فاتس. لم يعد لدى آندرو أي نقود في جيبه عمليًا. يبدو أنّ الأجر الذي سيتقاضاه من هاورد موليسون سيأتي في الوقت المناسب.

اللافتة البرتقاليّة المتوهّجة فوق مقهى الإنترنت كانت تشعّ، وكأنّها تلوّح لآندرو، تناديه من بعيد. لم يكن بوسعه التركيز على ما كان فاتس يقوله له. كان يسأل نفسه بدون توقّف: هل ستفعل؟ هل ستقدم على ذلك؟

لم يكن يعلم. كانت ساقاه تواصلان السير، واللافتة تكبر وتعرض خطوة بعد خطوة، مضاعِفة الإشارات له لإغوائه وإغرائه.

إن علمتُ أنّك تفوّهت بكلمة واحدة عمّا يجري في هذا المنزل، سوف أسلخ جلدك حيًّا.

لكنّ البديل سيكون الذلّ الذي سيلحق بهم حين يكشف سايمون للعالم أجمع طبيعته الحقيقيّة. العواقب التي ستلحق بالعائلة حين تأتي النهاية المحتومة، فيُهزم بعد أسابيع طويلة من الترقّب والبلاهة المحمومة. عندها سيشتعل غضبًا ونقمة، وسيقرّر أن يجعل الجميع يدفعون ثمن قراراته المتهوّرة الحمقاء. بالأمس اقترحت روث في لحظة تجلّ: «سيقوم الفتيان بتوزيع منشوراتك الانتخابيّة في باغفورد». لمح آندرو من طرف عينه مسحة الرعب تعلو ملامح بول وهو يحاول يائسًا النظر إلى عينيه.

«أريد الدخول إلى هنا»، تمتم آندرو وهو يستدير يمينًا.

اشتريا بطاقتين تحملان رمزًا للاتّصال بالإنترنت، وجلس كلّ منهما خلف كمبيوتر، يفصل بينهما مقعدان يشغلهما مستخدمان. الرجل المتوسّط العمر إلى يمين آندرو كانت تفوح منه رائحة كريهة، رائحة عرق وسجائر، وكان ينْشق باستمرار.

دخل آندرو إلى الإنترنت ونقر اسم الموقع الإلكتروني: مجلس... بلدة... باغفورد... نقطة... كو... نقطة... يو كاي...

ظهرت على الشاشة صفحة استقبال الموقع الخاصّ بالمجلس، وعليها شعاره بالأزرق والأبيض، وصورة لباغفورد التقطت من نقطة قريبة من هيلتوب هاوس، يلوح في خلفيّتها دير بارغيتر. يبدو الموقع لمن يتصفّحه وكأنّه من زمنٍ آخر، أنشأه هواة غير محترفين، وهو ما سبق أن لاحظه آندرو في المرّات التي وَلجَ فيها على كمبيوتر المدرسة. لم يجرؤ على تنفيذ مشروعه على حاسوبه النقّال. قد يكون والده جاهلًا تمامًا في مسائل الإنترنت، غير

أنّ آندرو لا يستبعد أن يجد في المكتب زميلًا يمكن أن يساعده على إجراء تحقيق، بعدما يكون آندرو فعل فعلته...

حتّى في هذا المكان المزدحم الذي يضمن للمستخدمين سريّة هويّتهم، فإنّ التاريخ سيَرِدُ على التعليق، وهو واقع لا مفرّ منه، كما أنّه لن يكون بوسع آندرو الادّعاء بأنّه لم يكن في يارفيل في ذلك اليوم. لكن الواقع أنّ سايمون لم يدخل مقهى إنترنت في حياته، وقد لا يكون يعلم حتّى بوجود مثل هذه المقاهي.

شعر آندرو بانقباض أليم في قلبه. استعرض بشكل سريع لوح الرسائل الذي لم يكن يشهد الكثير من الإقبال على ما يبدو. كانت التعليقات مبوّبة في مواضيع بعناوين مثل «جمع النفايات»، «سؤال» و«الفعاليّات في مناطق التجمّعات المدرسيّة في كرامبتون وليتل؟» وبعد كلّ عشرة تعليقات أو ما يقارب، كان هناك تعليق من مدير الموقع، مرفق بمحضر آخر اجتماع للمجلس. عند أسفل الصفحة كان هناك موضوع تعليقات بعنوان «وفاة عضو المجلس باري فيربراذر». حصد الموضوع مئة واثنتَين وخمسين مشاهدة وثلاثة وأربعين ردًا. ثمّ على الصفحة الثانية من لوح الرسائل، وجد آندرو ما كان يأمل العثور عليه: تعليق من الميت نفسه.

قبل شهرين، تولّى أستاذ مساعد شابّ مراقبة المجموعة التي ينتمي إليها آندرو في صفّ الكمبيوتر. أراد أن يبدو عصريًّا ومختلفًا، سعيًا منه لكسب مودّة التلاميذ، لكن ما كان يجدر به على الإطلاق أن يأتي على ذكر «اختراق لغة الاستعلام البنيويّة». كان آندرو واثقًا بأنّه لم يكن الوحيد الذي انقضّ على حاسوبه فور عودته إلى المنزل يومها للبحث عن هذه التقنيّة. أخرج الورقة الصغيرة وعليها الرمز الذي بحث عنه على الإنترنت أثناء أوقات فراغه في المدرسة، واستدعى صفحة الدخول على موقع المجلس. كلّ شيء يتوقّف الآن على الافتراض بأنّ الموقع صمّمه هاوٍ قبل وقت طويل، وأنّه لم يجهَّز بأيّ وسيلة حماية تقيه حيل القرصنة التقليدية الأكثر بدائيّة.

أدخل آندرو بكثير من الحيطة سطر الحروف السحريّة، مستخدمًا سبابته فقط.

أعاد مراجعته مرّتين للتثبّت من أنّ كلّ علامة وفاصلة في مكانهما، تردّد للحظة وأنفاسه مقطوعة، على شفير اجتياز الخطّ الذي لا رجوع عنه، ثمّ ضغط على مفتاح الدخول.

انتفض تحت وطأة المفاجأة، مبتهجًا مثل طفل صغير، بالكاد يتمالك نفسه عن إطلاق صيحة أو رفع قبضته في الهواء. فقد نجح منذ المحاولة الأولى في اختراق الموقع الهشّ. ظهرت أمامه، على الشاشة، معلومات المستخدم الخاصّة بباري فيربراذر: اسمه، كلمة السرّ الخاصّة به، ملفّه الكامل.

سوّى آندرو الورقة السحريّة التي احتفظ بها طوال الأسبوع تحت غطاء وسادته، وباشر العمل. كانت طباعة الفقرة التالية بكلّ ما تتضمّنه من كلمات مشطوبة وإضافات وجمل أعاد كتابتها، عمليّة أصعب بكثير.

حاول قدر الإمكان الكتابة بأسلوب مجرّد، غير شخصيّ، لا يكشف شيئًا عن كاتبه. أسلوب أقرب إلى موضوعيّة محرّر في صحيفة رصينة.

يأمل المرشّح سايمون برايس الفوز على أساس برنامج يقوم على الاقتطاع من نفقات المجلس التبذيريّة. من المؤكّد أنّ السيّد برايس خبير في مسألة تقليص النفقات، ولا شكّ في أنّ المجلس سوف يجني منفعة من علاقاته الكثيرة والمفيدة بهذا الصدد. فهو يدّخر المال في منزله من خلال تأثيثه بالبضائع المسروقة - وآخرها جهاز كمبيوتر. كما أنّه مقصدٌ لكلّ مَن هو بحاجة إلى إنجاز أعمال طباعة بسعر مخفّض، إذ ينجزها له في مطبعة هاركورت - والش لقاء أموال يتلقّاها نقدًا وعدًّا، بعد مغادرة كبار المسؤولين الإداريّين.

أعادَ آندرو قراءة الرسالة مرّتين. كان راجعها مرارًا وتكرارًا في ذهنه. بوسعه أن يقذف سايمون بتهم لا تعدّ ولا تحصى، لكنّ المحكمة التي يمكنه أن يرفع إليها مآخذه الحقيقيّة على والده، ويدعمها بأدلّة دامغة مثل ذكريات الترهيب الجسديّ والإذلال المتواصل، تلك المحكمة لم تكن موجودة. كلّ ما كان لديه كان الجنح الصغرى الكثيرة التي خالف بها القانون والتي سمع

سايمون نفسه يتبجّح بها، وقد اختار منها نموذجين هما الكمبيوتر المسروق وأعمال الطباعة خلسة خارج دوامات العمل، لأنّهما على ارتباط وثيق بمكان عمل سايمون. فالجميع في المطبعة على علم بتجاوزات سايمون، ومن الممكن أن يكونوا نقلوا الأمر إلى أيٍّ كان، سواء من أصدقائهم أو أفراد عائلاتهم.

كانت أحشاؤه ترتعد كما حين يفقد سايمون صوابه ويخرج تمامًا عن السيطرة، فينهال بالضرب على كلّ مَن يقدّر له أن يكون في جواره. رؤية الخيانة التي كان يرتكبها أمامه على الشاشة بالأسود والأبيض شكّلت مشهدًا يبعث الذعر.

«ما الذي تفعله بحقّ الجحيم؟» سأل فاتس هامسًا في أذنه.

كان الرجل الخمسينيّ النتن قد غادر، فاقترب فاتس من آندرو وقرأ ما كتبه.

«إنّك تفتح أبواب جهنّم!» قال فاتس.

شعر آندرو بفمه جافًا. يده ترقد هامدة على فأرة الكمبيوتر.

«كيف دخلت إلى الموقع؟» همس فاتس.

«»اختراق لغة الاستعلام البنيويّة»، أجاب آندرو. «كلّ المعلومات الممكنة موجودة على الإنترنت. نظام حمايتهم عبارة عن هراء موصوف.»

بدا فاتس مبتهجًا إلى حدٍّ لا يوصَف، ملامحه عكست أشدّ الذهول والإعجاب. أمّا آندرو، فكان يتنازعه السرور إزاء ردّ الفعل هذا، وفي الوقت نفسه الفزع.

«عليك أن تحافظ على...»

«دعني أكتب شيئا عن أبو خزانة!»

«لا!»

انزلقت يد آندرو المطبقة على الفأرة، مبتعدةً عن أصابع فاتس الذي كان يريد انتشالها منه. ذلك العمل الشنيع الذي كان آندرو على وشك ارتكابه ضدّ والده، إنّما كان نابعًا من قدر الغضب والإحباط والخوف الذي كان يغلي في داخله طوال حياته، إلى أبعد ما تعود به ذكرياته. لكنّه لم يجد كلمات ليعبّر عن كلّ ذلك لفاتس، فاكتفى بالاحتجاج قائلًا «لست أقوم بذلك لمجرّد اللهو.»

أعاد قراءة الرسالة للمرّة الثالثة، ثمّ طبع لها عنوانًا. كان بوسعه أن يشعر بفاتس مهتاجًا إلى جانبه، وكأنّهما يتصفّحان مواقع إباحيّة كالعادة. شعر آندرو برغبة في المضي أبعد، وإثارة إعجاب صديقه أكثر بعد.

«انظر»، قال وهو يبدّل اسم المستخدم الخاصّ بباري، لينقر محلّه «شبح - باري-فيربراذر».

قهقه فاتس بصوتٍ عالٍ. كانت أصابع آندرو ترتعش بعصبيّة على الفأرة وهو يزيحها يمينًا ويسارًا. هل كان مضى حتّى النهاية ونفّذ مخطّطه لو لم يكن فاتس يراقبه؟ ذلك السؤال سيبقى بدون جواب. نقر نقرةً أخيرة، فظهر موضوع جديد عند أعلى لوح الرسائل على موقع مجلس بلدة باغفورد: «سايمون برايس غير أهل للترشّح للمجلس».

واقفَين على الرصيف في الخارج، حملقا أحدهما في الآخر، وانفجرا ضاحكَين إلى أن انقطعت أنفاسهما، رغم إحساسهما بقدر من الرهبة لما ارتكباه. ثمّ استعار آندرو عيدان الثقاب من فاتس، واشعل قطعة الورق التي كان كتب عليها الرسالة. راح يراقبها وهي تتفتّت وتتحلّل إلى ندفٍ سوداء رقيقة تطايرت على الرصيف القذر قبل أن تختفي تحت أقدام المارّة.

10

غادر آندرو يارفيل في الساعة الثالثة والنصف، حرصًا منه على أن يكون في هيلتوب هاوس قبل الساعة الخامسة. رافقه فاتس إلى موقف الباص، وهناك، خطرت له فكرة مفاجئة على ما يبدو، فقال لآندرو أنّه قرّر في نهاية الأمر أن يبقى في المدينة لبعض الوقت.

كان فاتس اتّفق مع كريستال على أن يلتقيا في المركز التجاريّ، بدون أن يتواعدا بشكل قاطع. عاد أدراجه متوجّهًا إلى حيّ المتاجر، وهو لا يزال يفكّر بما فعله مع آندرو في مقهى الإنترنت، محاولًا استكشاف مشاعره حيال هذه المسألة.

عليه أن يقرّ بأنّه معجب بما فعله صديقه. بل أكثر من ذلك، كان يشعر بأنّ آندرو تفوّق عليه هذه المرّة. فقد خطّط للمسألة برمّتها، واحتفظ بالسرّ لنفسه، ثمّ نفّذها بشكل فعّال. كلّ ذلك مثيرٌ للإعجاب. شعر فاتس ببعض الامتعاض، فقد وضع آندرو خطّته بدون أن يكشف له شيئًا، وهذا يقود فاتس إلى التساؤل إن لم يكن من المؤسف أن يكون آندرو كتم هويّته لشنّ الهجوم على والده. ألم يكن في الأمر بعض المكر وأكثر ممّا ينبغي من التحذلق؟ أما كان من النزاهة أن يهدّد سايمون مباشرة أو يسدّد إليه لكمة في وجهه؟

أجل، سايمون نذل، لا جدال في ذلك، لكنّه بالتأكيد نذل أصيل. يفعل ما يريد، حينما يريد، بدون الرضوخ للقيود الاجتماعيّة ولا للأخلاقيّات التقليديّة. تساءل فاتس إن لم يكن يجدر به التعاطف بالأحرى مع سايمون. كان فاتس يستمتع بإضحاك سايمون، فيطلق العنان من أجل ذلك لحسّه الفكاهيّ الأكثر بذاءة وفظاظة، موجّهًا سهامه بصورة خاصّة إلى أولئك الذين يزجّون بأنفسهم في مواقف مثيرة للسخرية، أو يقعون ضحايا حوادث مضحكة. غالبًا ما كان فاتس يقول لنفسه إنّه لكان فضّل التعامل مع سايمون، بمزاجه المتقلّب وفورات غضبه المفاجئة، ما يجعل منه خصمًا قيّمًا وعدوًّا لائقًا، على التعامل مع أبو خزانة.

لكن في المقابل، فإنّ فاتس لم ينسَ سقوط علبة طلاء القطران، سحنة سايمون البهيميّة وقبضتيه المنكمشتين، ذلك الصوت المرعب الذي كان يُصدره، الإحساس بالبول الساخن ينساب على ساقيه، وتوقه اليائس من أعماق قلبه إلى أن تحضر تيسا وتأخذه بعيدًا من هناك، إلى برّ الأمان (وربّما كان ذلك أكثر ما هو مخزٍ في المسألة برمّتها). لم يكن فاتس أدرك مستوى من المناعة يخوّله عدم التعاطف مع رغبة آندرو في الثأر.

ها هو فاتس عاد إذًا إلى نقطة الانطلاق: أقدم آندرو على عمل جريء، حاذق، يمكن أن تنتج منه عواقب وخيمة. مرّة جديدة، أحسّ فاتس بلسعة أسف طفيفة لأنّه لم يكن هو مَن خطرت له تلك الفكرة. كان يسعى جاهدًا لتخطّي ذلك الاعتماد الحصريّ على الكلمات الذي لقّنته إيّاه تنشئته في

عائلة من الطبقة الوسطى، لكنّه من الصعب التخلّي عن رياضة يبرع فيها. وفيما كان يذرع أرضيّة باحة المركز التجاريّ المصقولة، وجد نفسه يؤلّف في ذهنه جملًا ويبتكر عبارات يمكنها أن تقضي على ادّعاءات أبو خزانة المغرورة وتعرّيه تمامًا لتتركه عرضة لسخرية العموم...

لمح كريستال وسط مجموعة صغيرة من فتيان حيّ الحقول المتجمهرين حول المقاعد في وسط الممرّ بين المتاجر، وبينهم نيكي وليان وداين تالي. لم يتردّد فاتس لحظة، ولم يظهر عليه أيّ ارتباكٍ، بل واصل السير بالمشية ذاتها، غارزًا يديه في جيبيه، إلى أن وصل إلى الزمرة. كان الجميع يحدّق إليه بنظرات ساخرة مستغربة راحت تفصّله من رأسه وحتّى حذائه الرياضيّ.

«كيف الحال، فاتبوي؟» بادرته ليان.

«كيف الحال؟» ردّ فاتس. همست ليان شيئًا في أذن نيكي التي أخذت تقرقر. كانت كريستال تمضغ علكة، مشدّقة بملء فمها، ووجنتاها محمرّتان. كانت ترفع خصر سروالها الرياضيّ باستمرار وتنفض رأسها إلى الخلف لطرد خصلات شعرها عن وجهها، فتتراقص الأقراط المعلّقة في أذنيها.

«كيف حالكِ؟» قال لها فاتس، متعمّدًا التوجّه إليها دون سواها.

«تمام»، أجابت.

«هل تعرف أمّك أنّك في المدينة فاتس؟» سألت نيكي.

«أجل، هي التي أقلّتني»، أجاب بهدوء فيما الجميع صامت يترصّد جوابه. «إنّها تنتظرني على مقربة في السيّارة. قالت لي إنّه لا بأس بمضاجعة سريعة قبل أن نعود إلى المنزل لتناول الشاي.»

انفجر الجميع بالضحك باستثناء كريستال التي زعقت: «اذهب إلى الجحيم! ابن سافلة مغرور!» لكنّها بدت مسرورة كمن تلقّى إطراء.

«تدخّن سجائر لفّ؟» سأل داين مهمهمًا، وهو ينظر إلى جيب الصدر في سترة فاتس. كانت قشرة سوداء عريضة من الدم المتخثّر تعترض شفته.

«أجل»، أجاب فاتس.

«عمّي يدخّن سجائر لفّ. أتلفت رئتيه اللعينتين.»

حكّ القشرة السوداء على شفته شاردًا.

«أين تذهبان؟» سألت ليان مقلّبة النظر بين فاتس وكريستال.

«لست أدري»، قالت كريستال وهي تمضغ علكتها، رامقةً فاتس بطرف عينها.

لم يعطِ فاتس أيًّا منهما توضيحات، مكتفيًا بالإشارة إلى مخرج المركز التجاريّ بإبهامه.

«أراكم راحقًا»، قالت كريستال بصوتٍ عالٍ لباقي الشلّة.

استودعهم فاتس رافعًا يده قليلًا بتكاسل وابتعد برفقة كريستال. سمع ضحكات ترتفع خلفهما، لكنّه لم يأبه. كان على يقين بأنّه أبلى حسنًا.

«أين نذهب؟» سألت كريستال.

«لست أدري. أين تذهبين عادة؟»

رفعت كتفيها وواصلت المشي وهي تعلك. خرجا من المركز التجاريّ وانحدرا على الطريق الرئيسي. كان هناك متنزّه ألعابٍ صغير على مقربة من المركز، قصداه مرّة في الماضي بحثًا عن بعض الخصوصيّة.

«صحيح أنّ والدتك اصطحبتك إلى هنا؟» سألته كريستال.

«اللعنة، لا.. طبعًا لم تفعل.. جئت إلى هنا في الحافلة.»

تقبّلت كريستال النبرة الحادّة بدون أن تجفل. كانت تسترق النظر إلى واجهات المتاجر لرؤية صورتهما معًا. كان فاتس بقامته الهزيلة وسلوكه الغريب نجمًا حقيقيًّا في المدرسة. حتّى داين كان يجده طريفًا.

«إنّه يستغلّك، هذا كلّ ما يريده، أيّتها الداعرة الحمقاء»، صاحت بها آشلي ميلور قبل ثلاثة أيّام عند زاوية شارع فولي. «هذا لأنّك مجرّد عاهرة لعينة، مثل أمّك.»

كانت آشلي من شلّة كريستال، إلى أن تشاجرتا بشأن فتى. الكلّ كان يعرف أنّ آشلي بها مسّ خفيف من جنون. كانت عرضة لنوبات غضب وبكاء في أيّ لحظة، وتقضي معظم وقتها في وينترداون بين الدروس الخاصّة وجلسات الإرشاد. وفي دليل جليّ على قلّة إدراكها لعواقب أيّ من أفعالها، فقد تحدّت كريستال على أرضها، حيث تحظى بالمساندة، في حين ليس لديها، هي آشلي، أيّ سند. هكذا، أطبقت نيكي وجيما وليان على آشلي وقمن

بتثبيتها، فيما انقضّت عليها كريستال وأوسعتها ضربًا ولكمًا حيثما طالت يداها، حتّى تلطّخت مفاصل أصابعها بالدم المنساب من فم الفتاة.

لم تكن كريستال تخشى عواقب فعلتها.

«مجرّد جبناء متخاذلين»، قالت عن آشلي وعائلتها، «يفرّون كالأرانب بأسرع ما يمكن.»

لكنّ الحقيقة أنّ كلمات آشلي أصابت وترًا حسّاسًا أليمًا في نفس كريستال. وفي اليوم التالي، شعرت بالعزاء حين قصدها فاتس في المدرسة وطلب منها لأوّل مرّة أن يلتقيا خلال عطلة نهاية الأسبوع. سارعت إلى إخبار نيكي وليان على الفور بأنّها ستخرج مع فاتس وول السبت. كم كان سرورها كبيرًا حين رأت الذهول في عيونهما. وها هي فرحتها تكتمل الآن مع حضور فاتس في الموعد الذي حدّده (حسنًا، بفارق نصف ساعة)، أمام الشلّة بكاملها، ليصطحبها معه. وكأنّهما يتواعدان حقًّا.

«ما أخبارك؟» سأل فاتس فيما عبرا أمام مقهى الإنترنت بعدما مشيا خمسين مترًا بصمتٍ تامّ. كان يشعر بحاجة تقليديّة إلى إبقاء نوعٍ من الحديث جاريًا بينهما، ولو أنّ همّه الوحيد كان العثور على مكان معزول قبل المتنزّه الذي سيستغرق الوصول إليه نصف ساعة. كان يريد مضاجعتها وهما محشّشان. يتوق لمعرفة ما سيشعر به في مثل هذا الوضع.

«ذهبت لزيارة جدّتي في المستشفى هذا الصباح»، قالت كريستال. «أصيبت بجلطة.»

لم تقم نانا كاث هذه المرّة بأيّ محاولة لمكالمتها، لكنّ كريستال كانت واثقة بأنّها تشعر بوجودها. رفضت تيري أن تزور نانا كاث، وهو ما كانت كريستال تتوقّعه، فجلست ساعةً وحدها بجانب السرير، إلى أن حان وقت موعدها في المركز التجاريّ.

كان فاتس مهتمًّا بمعرفة تفاصيل حياة كريستال، لكنّ فقط بقدر ما تكشف له عن واقع الحياة في حيّ الحقول. تلك التفاصيل مثل زيارة المستشفى لم تكن ذات أهميّة على الإطلاق بنظره.

«وأمر آخر»، أضافت كريستال باعتزاز لم تتمكّن من كبته، «أجروا معي مقابلة في الصحيفة.»

«ماذا؟ قال فاتس بذهول. ما السبب؟»

«لمجرّد الحديث عن الحقول. كيف نشأت هناك.»

(تمكّنت الصحافيّة في نهاية الأمر من العثور عليها في منزلها، وبعدما أعطتها تيري إذنها على مضض. اصطحبتها إلى أحد المقاهي للتحدّث إليها. ظلّت تسألها بإصرار إن كان الانتساب إلى مدرسة سانت توماس ساعد كريستال، وإن كان بدّل حياتها بأي شكل من الأشكال. بدا وكأنّها ممتعضة وخائبة بعض الشيء إزاء أجوبة الفتاة.

«كيف هي علاماتك المدرسيّة؟» سألتها. لكنّ كريستال تهرّبت من الإجابة متخذةً على الفور موقعًا دفاعيًّا.

«قال السيّد فيربراذر إنّ المدرسة وسّعت آفاقك بنظره.»

لم تكن كريستال لديها أية فكرة عن أيّة آفاق. حين كانت تفكّر في سانت توماس، كانت تخطر ببالها متعة اللهو في ملعب تتوسّطه شجرة الكستناء الضخمة التي تمطر عليهم كلّ سنة ثمارها المنتفخة اللمّاعة. لم ترَ يومًا كستناء قبل أن تبدأ بالذهاب إلى سانت توماس. أعجبتها في بادئ الأمر البدلة المدرسيّة. أحبّت ذلك الشعور بأنّها شبيهة بالجميع. أحسّت بالإثارة لرؤية اسم جدّ جدّها على نصب الحرب في وسط الساحة: الجندي ساموبل ويدون. كان هناك تلميذ واحد آخر اسم عائلته مدرجٌ على قائمة النصب التذكاريّ. كان ابن مزارع تمكّن في سنّ التاسعة من قيادة جرّار زراعيّ. ذلك التلميذ جلب مرّة خروفًا إلى الصفّ. لا تزال كريستال تذكر إحساسها حين لامست بيدها صوف الخروف. وحين أخبرت نانا كاث عنه، قالت لها جدّتها إنّ عائلتهما كانت في فترة من الزمن عائلة فلّاحين.

أحبّت كريستال النهر الأخضر المترقرق الذي كانوا يقصدون ضفافه للتنزّه في الطبيعة. لكن ما كانت تفضّله كان لعبة كرة القاعدة وألعاب القوى. كانت دائمًا أوّل مَن يقع عليه الاختيار لدى تشكيل أيّ فريق رياضيّ، فتتصاعد في كلّ مرّة من صفوف الفريق الآخر همهمةُ تذمّرٍ واستنكارٍ تُفرح قلبها. كانت

تفكّر أحيانًا في كلّ أساتذة دروس الدّعم الذين حظيت بهم، وفي طليعتهم الآنسة جايمسون التي كانت فتيّة وعصريّة بشعرها الأشقر الطويل. لا بدّ أنّ آن ماري تشبه قليلًا الآنسة جايمسون. هكذا كانت تتصوّرها كريستال.

ثمّ كانت هناك تلك المعلومات المتفرّقة، التي ظلّت مطبوعة في ذاكرتها بشكل واضح ودقيق. البراكين: تتشكّل من صفائح تنزاح تحت الأرض. صنعوا في الصفّ نماذج براكين مصغّرة وملأوها بثاني كربونات الصوديوم وسائل الجلي، ففارت وفاضت على أطباقٍ بلاستيكيّة. أحبّت كريستال كثيرًا هذا الاختبار. كانت تعرف أيضًا عن الفايكينغ: كان لديهم سفن حربيّة ويعتمرون خوذات ذات قرون، غير أنّها نسيت متى ولماذا بالضبط غزوا سواحل بريطانيا.

لكن كانت هناك أيضًا ذكريات من نوع آخر عن سانت توماس، مثل الملاحظات التي كانت تتهامسها بعض فتيات الصفّ بشأنها، وقد صفعت واحدة أو اثنتَين منهنّ بسببها. وحين سمحت لها دائرة الخدمات الاجتماعيّة بالعودة إلى والدتها، كانت بدلتها المدرسيّة قد ضاقت عليها وأصبحت قصيرة وقذرة إلى حدّ دفع المدرسة إلى توجيه رسائل تحذير، ما تسبّب بشجار عنيف بين نانا كاث وتيري. لم تكن الفتيات الأخريات يرغبن فيها في مجموعاتهنّ، إلّا في ما يتعلق بفرق كرة القاعدة التي يشكّلونها. لا تزال تذكر كيف وزّعت ليكسي موليسون ذات يوم دعوات إلى حفلة تعتزم إقامتها، ثمّ حين وصلت إلى كريستال، عبرت أمامها وهي تتجاهلها، شامخة الأنف، بحسب الصورة المطبوعة في ذهن كريستال.

شخصان أو ثلاثة فقط دعوها إلى حفلات. كانت تتساءل إن كان فاتس ووالدته يذكران أنّها حضرت مرّة إلى حفلة عيد ميلاد في منزلهما. يومها دعي الصفّ بكامله، واشترت نانا كاث لها فستانًا جميلًا يليق بالمناسبة. تذكر الحديقة الشاسعة خلف منزل فاتس، وفيها بركة ماء وأرجوحة وشجرة تفّاح. أكلوا يومها جيلو وقاموا بسباق قفز بالأكياس. وتدخّلت تيسا يومها لتأنيب كريستال لأنّها، في سعيها اليائس للفوز بميداليّة بلاستيكيّة، راحت تدفع الأطفال الآخرين. حتّى إنّ أحدهم تعرّض لنزف في أنفه.

«لكنّك أحببت الذهاب إلى سانت توماس، أليس كذلك؟» سألتها الصحافيّة.

«أجل»، أجابت كريستال، غير أنّها كانت على يقين بأنّها لم تعبّر عمّا أراده السيّد فيربراذر. تمنّت لو كان هناك بجانبها ليساعدها. «أجل، أحببت الذهاب إلى هناك.»

«لماذا أرادوا أن يقابلوك بشأن الحقول؟» سأل فاتس.

«كانت هذه فكرة السيّد فيربراذر.»

صمتا بضع لحظات، ثمّ سألها فاتس: «هل تدخّنين؟»

«أدخّن ماذا؟ صواريخ؟ أجل، فعلتها مع داين.»

«معي بعض الصواريخ»، أعلن فاتس.

«ذهبتَ إلى سكاي كيربي. هذا ما فعلتَه، صحّ؟» تساءل فاتس إن كانت السخرية الطفيفة التي لمسها في صوتها من نسج خياله. الواقع أنّ سكاي كان الخيار السهل والآمن للحصول على الحشيشة، فكان مقصد أولاد الطبقة الوسطى. إن كان هذا ما تعنيه، فهو يستسيغ تلك السخرية الصادقة.

«من أين تحصلين على صواريخك إذًا؟» سألها وقد أثارت اهتمامه.

«لا أعلم، داين هو الذي يجلبها.»

«من أوبو ربّما؟» اقترح فاتس.

«ذلك السافل اللعين!»

«ما به؟»

لكنّ كريستال كانت عاجزة عن التعبير بالكلام عن غضبها من أوبو. وحتّى لو كان بوسعها أن تجد الكلمات المناسبة، فهي لم تكن ترغب في التحدّث عنه. كان يثير اشمئزازها. يحضر أحيانًا إلى المنزل ويحقن نفسه مع تيري. وفي أحيانٍ أخرى يضاجعها، فتصادفه كريستال على الأدراج وهو يبكّل أزرار بنطاله القذر، مبتسمًا لها من خلف نظّارتيه السميكتين مثل قعر قنّينة. غالبًا ما كان أوبو يعرض على تيري القيام بمهامّ صغرى، مثل إخفاء أجهزة الكمبيوتر، أو إيواء أشخاص لا تعرفهم لليلة، أو حتّى تقديم خدمات لم تكن كريستال تعرف طبيعتها بالضبط، لكنّها تعرف أنّها تستبقي والدتها خارج المنزل لساعات.

راود كريستال منذ فترة قصيرة كابوس، رأت فيه والدتها مُمدَّدة، ومثبّتة على نوعٍ من الإطار. كانت مجرّد ثقب شاسع فاغر. بدت أشبه بدجاجة عملاقة عارية، منتوفة الريش. كان أوبو في الحلم يدخل ويخرج باستمرار من ذلك الجوف الشبيه بالكهف، يعبث بأشياء فيه، فيما رأس تيري الصغير الهَلِع يتلوّى فزعًا. استيقظت كريستال وهي تشعر بمزيج من الغثيان والقرف والسخط.

«وغدٌ حقير» قالت.

«أليس فتى طويل القامة، حليق الرأس، مكسوًّا بالوشوم حتّى خلف عنقه؟» سأل فاتس الذي تسكّع مرّة أخرى خلال الأسبوع في الحيّ، وجلس فوق سورٍ لساعة يراقب مِن حوله. ذلك الشابّ الأصلع المنشغل في مؤخّر فانٍ صغيرة بيضاء أثار اهتمامه.

«لا، هذا بيكي بريتشارد، لا بدّ أنّك رأيته في شارع تاربن.»

«وماذا يفعل عمومًا؟»

«لا أدري»، قالت كريستال. «اسأل داين، فهو صديق شقيقه.»

لكنّها كانت مسرورة لهذا الاهتمام الحقيقيّ من جانب فاتس. لم يبدِ مثل هذه الرغبة في التحدّث إليها من قبل.

«بيكي قيد الإفراج المشروط.»

«ماذا فعل؟»

«حطّم قنّينةً على رأس رجل قرب حانة كروس كيز.»

«لماذا؟»

«وكيف لي أن أعرف؟ لم أكن هناك.»

كانت سعيدة، والسعادة تجعلها دائمًا وقحة صلفة. كان الأسبوعان الماضيان جيّدين، إذا ما استثنت قلقها بشأن نانا كاث (التي لا تزال في مُطلَق الأحوال على قيد الحياة، ما يعني أنّه من الممكن أن تتعافى). فتيري ملتزمة من جديد برنامج بيلتشابيل، وكريستال تحرص على أن يذهب روبي بانتظام إلى الحضانة. مؤخّرته شفيت تقريبًا. المساعِدة الاجتماعية بدت مسرورة بقدر ما يمكن لهذا الصنف من البشر أن يبدي سرورًا. كريستال أيضًا ذهبت

إلى المدرسة يوميًا في الآونة الأخيرة، ولو أنّها تخلّفت عن جلستَي الإرشاد مع تيسا صباح الاثنين والأربعاء، من غير حتّى أن تدري لماذا. أحيانًا يتخلّف المرء عن روتينه.

نظرت إلى فاتس من جديد من طرف عينها. لم يخطر لها يومًا أنّها قد تُعجب به، إلى أن تحشّر بها في ذلك الحفل الراقص في مسرح المدرسة. الكلّ كان يعرف فاتس. كان الجميع يتناقلون بعض نكاته، مثل تلك المستقاة من البرامج الطريفة التي تُعرض على التلفزيون. (كانت كريستال تدّعي أنّ لديها تلفزيونًا في منزلها. كانت تشاهد ما يكفي من البرامج لدى صديقاتها وعند نانا كاث، حتّى تتمكّن من النجاة بكذبتها. فحين كان الآخرون يتحدّثون عن برامج شاهدوها، كانت تعلّق هي أيضًا عليها «أجل، كان رديئًا جدًا»، «أعرف، كدت أبوّل على نفسي من شدّة الضحك».)

حاول فاتس أن يتخيّل ما الذي يمكن أن يشعر به المرء حين يتلقّى ضربة بقنّينة على رأسه، كيف تشقّ شظايا الزجاج الحادّة الوجه الطريّ. بوسعه أن يشعر بالأعصاب المشدودة والهواء يلسع الجلد المهشّم. أحسّ بوخز حول فمه، وكأنّ جرحًا وهميًا يدغدغه.

«هل لا يزال داين يحمل سكّينًا؟»

«كيف تعرف أنّ لديه سكّينًا؟»

«هدّد به كيفين كوبر.»

«آه، أجل!» أقرّت كريستال. «كوبر نذل حقيقيّ، ألا تعتقد؟»

«بلى، بالتأكيد.»

«داين يحمل سكّينًا فقط بسبب الأشقّاء ريوردون»، قالت كريستال.

كان فاتس يحبّ نبرة كريستال الواقعيّة البسيطة. تقبُّلها للحاجة إلى حمل سكّين، بسبب شِجارٍ ترَك نقمة في النفوس ويهدّد باندلاع العنف مجدّدا. ذلك هو واقع الحياة الخام، تلك كانت أمور حقيقيّة تهمّ فعلًا... قبل وصول آرف إلى المنزل في ذلك اليوم، كان أبو خزانة يلاحق تيسا ويضغط عليها بإلحاحٍ لتعطيه رأيها في مسألةٍ تتعلّق بمنشورات حملته الانتخابيّة، إن كان من الأفضل طبعها على أوراق صفراء أو بيضاء...

«ما رأيك لو ندخل هنا؟» اقترح فاتس بعد وقت.

إلى يمينهما كان يمتدّ جدار حجريّ طويل فيه بوّابة مفتوحة تبرز من خلالها خضرة تتوزّع بينها أحجار.

«حسنًا، أجل»، قالت كريستال. سبق أن دخلت مرّة مقبرة مع نيكي وليان. جلسن على قبرٍ وتقاسمن عبوتين من البيرة، وهنّ يشعرن ببعض الإحراج لما كنّ يقمن به، إلى أن نهرتهنّ امرأة وانهالت عليهنّ بالتأنيب الشديد. قذفتها ليان بعبوة بيرة فارغة وهنّ يغادرن.

لكنّ فاتس وجد المكان معرّضًا للأنظار. مشى إلى جانب كريستال على طول الممرّ الإسمنتيّ العريض بين القبور. مجرّد مساحة خضراء مسطّحة تتبعثر فيها شواهد لا يمكن الاحتماء خلفها. ثمّ لمح فجأة شجيرات بارباريس بمحاذاة الجدار في الجهة المقابلة، فتوجّه إليها عابرًا بوسط المقبرة. تبعته كريستال، يداها في جيبيها، وتعرّجا بين مربّعات من الحصى وشواهد متفسّخة عليها كتابات لم يعد من الممكن قراءتها. كانت مقبرة كبيرة، شاسعة وحالتها تشير إلى صيانة جيّدة. وصلا شيئًا فشيئًا إلى المقابر الجديدة من الرخام الأسود المصقول، حفرت عليه كتابات بأحرف ذهبيّة، وقد وضعت عليها أزهار جديدة تكريمًا لموتى توفّوا حديثًا.

إلى ليندسي كايل، 15 سبتمبر 1960 - 26 مارس 2008
نومًا هنيئًا أمّي

«أجل، سنكون على ما يرام هنا»، قال فاتس وقد رصَد فسحة معتمة بين الشجيرات الشائكة المكسوّة بالزهور الصفراء وسور المقبرة.

انسلّا منحنيَين بين الأغصان إلى المساحة المظلّلة الرطبة وجلسا أرضًا، ساندَين ظهريهما إلى الجدار البارد. كانت شواهد القبور تصطفّ كأنّما في استعراض بين جذوع الشجيرات، لكنّهما لم يلمحا أيّ وجود بشريّ بينها. بدأ فاتس بلفّ صاروخ بيدَين خبيرتَين، آملًا أن تكون كريستال تراقبه وأن يكون أبهرها.

لكنّها كانت شاخصة في الفراغ، تائهة في أفكارها تحت قبّة الأوراق الداكنة اللمّاعة. كانت تفكّر في آن ماري التي جاءت لزيارة نانا كاث الخميس (كما قالت لها خالتها شيريل). تمنّت لو تغيّبت عن المدرسة وذهبت إلى المستشفى في الوقت نفسه، لكانت التقتها أخيرًا بعد كلّ هذا الوقت. كثيرًا ما حلمت بتلك اللحظة التي تلتقي فيها آن ماري فتقول لها «أنا أختك.» كانت آن ماري في أحلامها تفرح دائمًا للقاء شقيقتها وتتقابلان على الدوام في ما بعد، وفي نهاية المطاف تعرض على كريستال أن تنتقل للعيش معها. آن ماري الوهميّة تلك كانت تقيم في منزل شبيه بمنزل نانا كاث، مرتّب ونظيف، لكنّه عصريّ أكثر بكثير. وفي الآونة الأخيرة، أضافت كريستال إلى هذا الحلم طفلًا صغيرًا جميلًا متورّد الوجه، في مهدٍ محاطٍ بالكشاكش المخرّمة.

«خذي هذا»، قال فاتس وهو يمدّ اللفافة إلى كريستال. أخذت نفسًا عميقًا، حبست الدخان في رئتيها لثوانٍ، وفيما بدأ القنّب يأتي مفعوله السحريّ، لانت ملامحها متّخذة تعبيرًا حالمًا.

«ليس لديك أخوة أو أخوات، أليس كذلك؟» سألته.

«لا»، أجاب فاتس وهو يتفحّص جيبه للتثبّت من وجود الواقيات الذكوريّة التي جلبها معه.

ناولته كريستال اللفافة، ورأسها يسبح في دوار لذيذ. أخذ فاتس نفسًا عميقًا ونفث دوائر من الدخان.

«أنا ابن بالتبنّي»، قال فاتس بعد برهة.

حملقت فيه كريستال بذهول.

«صحيح ما تقوله؟ أنت ابن بالتبنّي؟»

حين تتخدّر الحواسّ وتخبو، تطفو الأسرار بسهولة إلى السطح، يصبح كلّ شيء سهلًا.

«أختي تمّ تبنّيها»، قالت كريستال. أدهشتها تلك المصادفة، وكانت مسرورة للغاية لتمكّنها من ذكر آن ماري في حديثهما.

«أجل، لا بدّ أنّني متحدّر من عائلة تشبه عائلتك»، تابع فاتس.

لكنّ كريستال لم تكن تستمع. كانت تريد أن تتكلّم بنفسها.

«لديّ شقيقة أكبر منّي، وشقيق يدعى ليام، لكنّهما فُصلا عن أمّي قبل أن أولد.»

«لماذا؟» سأل فاتس.

«كانت أمّي في حينها تعيش مع ريتشي آدامز.» أخذت نفسًا عميقًا من اللفافة ثمّ قذفت الدخان في نفثة طويلة رقيقة وتابعت «إنّه مختلّ حقيقيّ. يقضي عقوبة مؤبّد. قتل رجلًا. كان عنيفًا جدًّا مع أمّي والولدين، ثمّ حضر جون وسو وأخذا الولدين. وبعدها تدخّلت الخدمات الاجتماعيّة، وفي نهاية المطاف، احتفظ جون وسو بهما.»

سحبت نفسًا جديدًا، متأمّلةً زمنَ ما قبل ولادتها، زمنًا مضرّجًا بالدماء، تلفّه الضراوة والظلمة. سمعت أمورًا عن ريتشي آدامز، سمعتها من خالتها شيريل بصورة رئيسيّة. أحرق ذراعَي آن ماري بسجائره وهي طفلة عمرها سنة، وركلها إلى أن كسر ضلوعها. حطّم وجه تيري. لا يزال أعلى خدّها الأيسر غائرًا قليلًا في وجهها بالنسبة إلى خدّها الأيمن. غرقت تيري في إدمانها إلى حدٍّ كارثيّ معه. لم تُبدِ الخالة شيريل أيّ تأثّر أو أسف في معرض كلامها عن قرار انتزاع الطفلين اللذين كانا يعانيان العنف والإهمال من والديهما.

«كان لا بدّ من ذلك»، قالت شيريل.

جون وسو كانا قريبين بعيدين، لا أطفال لهما. لم تعرف كريستال يومًا أين تصنّفهما تحديدًا على شجرة عائلتها المتشعّبة والمعقّدة، ولا كيف تصرّفا لتنفيذ عمليّة بدت لها، بحسب أقوال خالتها، أقرب إلى عمليّة خطف. مهما يكن، خاضا صراعًا طويلًا مع السلطات، قبل أن تسمح لهما بتبنّي الطفلين. أمّا تيري، التي بقيت مع ريتشي إلى أن تمّ توقيفه، فلم ترَ مجدّدًا أيًّا من آن ماري أو ليام، لأسباب لم تكن كريستال تفهمها بشكل واضح. القصّة، برمّتها، كانت غامضة، تضجّ بالحقد وبكلام وتهديدات لا تغتفر، بإنذارات وأوامر قضائيّة، وجيش من عاملي الخدمات الاجتماعيّة.

«ومن هو والدك إذًا؟» سأل فاتس.

«الفِرْقَيع،» أجابت كريستال وهي تحاول جاهدة أن تتذكّر اسمه. «باري»، تمتمت أخيرًا، غير واثقة بأنّها أصابت. «باري كوتس. لكنّني أستخدم اسم عائلة أمّي، ويدون.»

طفت إلى ذهنها صورة الشابّ الميت جراء جرعة زائدة من المخدّرات في حمّام تيري، مثل فقّاعة تتصاعد وسط دخان كثيف عذب. ناولت فاتس اللفافة وأسندت رأسها إلى السور الحجريّ، سارحة في قطعة السماء التي كانت تتراءى خلف تخريم الأوراق الداكنة.

. كان فاتس يفكّر في ريتشي آدامز الذي قتل رجلًا، ويقلّب في رأسه احتمال أن يكون والده الطبيعيّ أيضًا في السجن، في مكان ما. مكسوًّا بالوشوم مثل بايكي، ممشوقًا ومفتول العضلات. قارن في ذهنه أبو خزانة بذلك الرجل القويّ الصلب، رجل أصيل حقيقيّ. كان فاتس يعلم أنّه فُصِل عن والدته الطبيعيّة حين كان طفلًا صغيرًا، لأنّ لديهم صورًا له بين ذراعي تيسا، طفلًا واهنًا أشبه بفرخ عصفور، وعلى رأسه قلنسوة صوفيّة بيضاء. كان طفلًا خديجًا. أخبرته تيسا بعض الأمور، ولو أنّه لم يسألها يومًا أيّ شيء. والدته الحقيقيّة كانت شابّة جدًا حين أنجبته، كان يعرف ذلك. ربّما كانت مثل كريستال، يتناوب عليها الجميع في المدرسة...

بات الآن مخبولًا تمامًا تحت تأثير الحشيشة. وضع يده خلف عنق كريستال وشدّها إليه. أخذ يقبّلها، غارزًا لسانه في فمها، ويده الأخرى تتلمّس طريقها إلى نهديها. كان ذهنه مشوّشًا وأطرافه بليدة. حتّى حاسّة اللمس لديه كانت خدرة. دسّ يده متعثّرًا تحت قميصها، محاولًا حشرها تحت صدريّتها. كان فمها حارًّا، طعمه تبغًا وحشيشةً، وشفتاها جافّتين متشقّقتين. أحسّ بتهيّجه متبلّدًا بعض الشيء. بدا وكأنّه يتلقّى إشارات حواسّه عبر غشاء غير مرئيّ. استغرق وقتًا أطول من المرّة الماضية ليحلّ ملابسها، ووجد صعوبة في وضع الواقي الذكريّ، وقد تصلّبت أصابعه وتبالدت. ثمّ أسند مرفقه عن غير قصد على إبطها وضغط بكلّ وزنه على اللحم الطريّ، فأطلقت صرخة ألم.

كانت جافّة أكثر من المرّة السابقة. ولجَها بالقوّة، مصمّمًا على تنفيذ ما جاء من أجله. مضت اللحظات بطيئة لزجة كالدبق. كان بوسعه سماع

أنفاسه المتسارعة، وهذا ما وتّره. كان يتصوّر شخصًا آخر قابعًا في المساحة الضيّقة المظلمة معهما، يراقبهما، يلهث في أذنه. أطلقت كريستال أنينًا خافتًا. طارحةً رأسها إلى الخلف، بدا أنفها عريضًا، أشبه بفنطيسة خنزير. رفع قميصها ليتأمّل النهدين الأبيضين الطريّين يرتجّان قليلًا في الصدريّة المتراخية المفكوكة. جاءته النشوة بشكلٍ مفاجئ، وبدا له أنّ همهمة اللذّة التي أطلقها خرجت من المتطفّل المقرفص في جانبهما.

انقلب عنها، نزع الواقي ورماه جانبًا، ثمّ أغلق سحّاب بنطاله ونظر بعصبيّة حوله ليتثبّت ممّا إذا كانا فعلًا وحيدين. كانت كريستال تُحكِم بنطالها إلى الأعلى بيد، وتشدّ باليد الأخرى قميصها إلى الأسفل، قبل أن تمدّ ذراعها خلف ظهرها لتبكّل حمّالة صدرها من جديد.

تراكمت الغيوم وقتمت السماء فيما كانا مختبئين خلف الشجيرات. ملأ طنين خافت أذنَي فاتس. كان يتضوّر جوعًا. ذهنه يعمل ببلادة، والأصوات تخدش أذنيه الحسّاستين. الخوف من أن يكون أحدٌ ما راقبهما، ربّما من فوق السور خلفهما، لم يكن يفارقه. كلّ ما كان يريده هو الرحيل من هذا المكان.

«دعينا...» تمتم. وبدون أن ينتظر كريستال، زحف خارجًا من مخبئهما، ثمّ نهض وراح ينفض ثيابه. كان هناك زوجان مسنّان على مسافة حوالى مئة متر، منحنيَين فوق قبر. كان يرغب في الهروب فورًا، بعيدًا عن العينين اللتين قد تكونان او لا تكونان راقبتاه وهو يضاجع كريستال ويدون، مثل شبح في الظلّ. لكن في الوقت نفسه، بدا له العثور على محطة الحافلات المناسبة والصعود على متن الحافلة التي ستقوده إلى باغفورد، عمليّة شاقّة فوق طاقته. تمنّى لو كان بوسعه الانتقال بلمحة بصر إلى غرفته في العليّة.

تباطأت كريستال خلفه. كانت تشدّ على طرف قميصها، محدّقة إلى الأرض المكسوّة بالعشب عند قدميها.

«اللعنة!» همهمت.

«ماذا؟ سأل فاتس. هيّا، دعينا نرحل.»

«إنّه السيّد فيربرازر»، قالت بدون أن تتحرّك من مكانها.

«ماذا؟»

أشارت إلى تلّة التراب الصغيرة أمامهما. لم توضع شاهدة بعد عليها، لكنّها كانت مغطّاة بأزهار نضرة.

«أترى؟» قالت وهي تنحني، مشيرة إلى البطاقات المدبّسة بأوراق السيلوفان المحيطة بالباقات. «هنا كتب فيربراذر.» كانت تتعرّف إلى الاسم بسهولة، فهي اعتادت رؤيته على كلّ تلك الرسائل التي كانت تنتقل من المدرسة إلى البيت، لتطلب من والدتها إذن اصطحابها في رحلة في الحافلة الصغيرة. قرأت بعناية: «إلى باري». وهنا كتب «إلى والدي». كانت تهجّئ الأحِرف ببطء وعناية. «من...»

لكنّها عجزت عن قراءة اسمَي نيام وسيوبان.

«وإن يكن؟» قال فاتس. لكن الواقع أنّ هذا الاكتشاف جعله يرتعد فزعًا. النعش الخيزران ذاك كان هنا، تحت أقدامهما، وفيه أعزّ أصدقاء أبو خزانة، بجسده القصير ووجهه البشوش. ذلك الرجل الذي غالبًا ما رآه في منزلهم كان الآن يتحلّل ويضمحلّ تحت الأرض. شبح باري فيربراذر... تملّكه الذعر. بدا وكأنّ الميت ينتقم من قبره.

«هيّا، تعالي»، قال. لكنّ كريستال بقيت مسمّرة في مكانها. «ما بالك؟»

«كنت أجذّف في فريقه، ألا تذكر؟» قالت بنبرة جافّة.

«آه، أجل.»

كان فاتس يتململ بعصبيّة مثل حصان جافل، محاولًا التراجع.

بقيت كريستال شاخصة في التلّة الترابيّة الصغيرة، ذراعاها ملفوفتان من حولها. شعرت بنفسها فارغة وحزينة وقذرة. تمنّت لو لم يكونا فعلا فعلتهما هناك، على مقربة من السيّد فيربراذر. اخترقها البرد. لم تكن ترتدي سترة، خلافًا لفاتس.

«هيّا»، قال فاتس مرّة جديدة.

تبعته وخرجا من المقبرة. لم يتفوّه أيّ منهما بكلمة. كانت كريستال تفكّر في السيّد فيربراذر. كان يدعوها «كريس»، وهو ما لم يفعله أحد يومًا. كانت تحبّ أن تكون كريس. كان طريفًا جدًّا. أحسّت برغبة في البكاء.

كان فاتس يبحث عن إخراج يمكّنه من تحويل هذه الحادثة إلى قصّة مضحكة يرويها لآنـدرو، فيخبره كيف حشّش وضاجع كريستال، ثمّ أصيب بنوبة ارتياب، فظنّ أنّ أحدهم يراقبه، وبعدها هرع زاحفًا، ليجد نفسه فوق قبر باري فيربراذر. لكنّ القصّة لم تبدُ له طريفة في الوقت الحاضر، لم تكن طريفة بعد.

الجزء الثالث

الازدواجيّة

7.52 يجب أن يقتصر القرار على معالجة موضوع واحد...
إنّ عدم الأخذ بهذه القاعدة عادةً ما يقود إلى بلبلة
في المناقشات وقد يقود إلى بلبلة في العمل...

تشارلز آرنولد-بيكر
إدارة المجالس المحليّة
الطبعة السابعة

1

«... خرجَت كالمجنونة وهي تزعق بأعلى صوتها غاضبة، وتنعتها بالعاهرة الباكيّة، والآن اتّصلت الصحيفة تطلب تعليقًا على المسألة، لأنّها...»

سمعت بارميندر موظّفة الاستقبال تتكلّم همسًا حين عبرت أمام باب قاعة الموظّفين المشقوق. تقدّمت كالبرق بدون إحداث أيّ صوت وفتحت الباب بشكل مفاجئ، لتجد إحدى موظّفات الاستقبال والممرّضة منحنيتين الواحدة نحو الأخرى، مستغرقتين في حديث منفعل. انتفضتا واستدارتا دفعة واحدة.

«دكتورة جاوان...»

«أنت تدركين معنى اتفاق السريّة الذي وقّعتِه عندما استلمت هذه الوظيفة، أليس كذلك كارين؟»

بدت موظّفة الاستقبال مذعورة.

«نعم، أنا... لم أكن... كانت لورا أساسًا... جئت أنقل إليك هذه الرسالة. اتّصلت جريدة يارفيل والجوار. السيّدة ويدون توفّيت وإحدى حفيداتها تقول...» .

«وهذه لي؟» سألت بارميندر ببرودة، مشيرةً إلى ملفّ مريض كانت كارين تحمله.

«آه أجل»، أجابت كارين مضطربة. «طلب رؤية الدكتور كروفورد، لكن...»

«يجدر بك العودة إلى مكتب الاستقبال.»

أخذت بارميندر ملفّ المريض وعادت بحزم إلى قسم الاستقبال، وهي تغلي غضبًا. حين وصلت إلى قاعة الاستقبال، أدركت أنّها لا تدري مَن يجدر بها أن تنادي، فنظرت إلى الملفّ بين يديها.

«السيّد... السيّد موليسون.»

نهض هاورد متثاقلًا وهو يبتسم وتقدّم نحوها بمشيته المترنّحة المعهودة. أحسّت بمشاعر الكره تتملّكها، حتّى شعرت بطعم المرورة في حلقها. استدارت وعادت إلى عيادتها، وهاورد في أثرها.

«كيف حال طبيبتنا بارميندر؟» سأل وهو يغلق الباب ويجلس في كرسي المريض بدون أن ينتظر دعوة منها.

كان هذا سلامه الاعتياديّ لها، لكنّها لمست فيه اليوم نبرة تحدٍّ.

«ما المشكلة؟» سألت بخشونة.

«تقرّح طفيف. هنا. إنّني بحاجة إلى مرهم أو دواء ما.»

أخرج طرف قميصه من تحت بنطاله ورفعه بضعة سنتيمترات. رأت بارميندر بقعة حمراء متقرّحة على الجلد، عند حافة الثنية حيث يندلق كرشه فوق أعلى فخذيه.

«أرجو أن تخلع قميصك»، قالت.

«لكن هذه البقعة فقط هي التي تحكّني.»

«إنّني بحاجة إلى معاينة المنطقة بكاملها.»

تنهّد ووقف. «هل اطّلعت على جدول الأعمال الذي أرسلته هذا الصباح؟» سألها وهو يفكّ أزرار قميصه.

«لا، لم أتفقّد صندوق بريدي الإلكترونيّ اليوم.»

كانت بارميندر تكذب. فهي قرأت جدول الأعمال، وثارت ثائرتها، لكنّ الوقت لم يكن مناسبًا لتقول له ذلك. امتعضت من محاولته التطرّق إلى مسائل المجلس في عيادتها، وكأنّه يذكّرها بأنّه حتّى لو كان بوسعها في هذه القاعة أن تأمره بخلع ملابسه، فهو يبقى في مكان آخر رئيسها.

«هل يمكنك رجاء... أودّ إلقاء نظرة تحت...»

رفع إلى الأعلى مئزر الجلد العريض المتدلّي، كاشفًا عن أعلى ساقَي بنطاله، ثمّ حزامه. ممسكًا بكلّ هذه السمنة بملء يديه، ابتسم لها من أعلى قامته. اقتربت منه أكثر في كرسيها النقّال، ورأسها بمستوى خصره.

كان طفحٌ جلديّ حادّ مكسوّ بالقشور منتشرًا في جوف ثنية كرش هاورد. احمرار ملتهب يلتفّ على عرض خصره، مثل ابتسامة هائلة متقرّحة. اشتمّت بارميندر رائحة لحم فاسد.

«داء الثنيات والتهاب جلديّ عصبيّ، هنا حيث كنت تحكّ»، قالت. «حسنًا، يمكنك ارتداء قميصك مجدّدًا.»

أفلت جلد كرشه وتناول قميصه من دون أن يبدي أيّ ردّ فعل.

«سوف ترين أنّني أدرجت قضيّة مبنى بيلتشابيل على جدول الأعمال. إنّها تثير حاليًّا بعض الاهتمام من جانب الصحافة.»

كانت منهمكة في النقر على الكمبيوتر ولم تردّ.

جريدة يارفيل والجوار، تابع هاورد. «إنّني بصدد كتابة مقال لهم. «وجهتا النظر»، قال وهو يبكّل أزرار قميصه، «حول المسألة..»

كانت تسعى جاهدة لعدم الاستماع إليه، لكنّها شعرت بعقدة تشتدّ في معدتها عند سماع إسم الصحيفة.

«متى كانت آخر مرّة خضعت فيها لقياس ضغط الدمّ هاورد؟ لا أرى أيّ قياس خلال الأشهر الستة الأخيرة.»

«كلّ شيء تمام. إنّني أتناول عقاقير لضبط الضغط.»

«علينا التثبّت رغم ذلك، بما أنّك هنا.»

تنهّد ورفع كمّ قميصه بمشقّة.

«سوف ينشرون مقالة باري قبل مقالتي. تعلمين أنّه أرسل لهم مقالة؟ عن الحقول؟»

«أجل،» قالت رغمًا عنها.

«هل لديك بالمصادفة نسخة؟ هكذا أتفادى تكرار ما كتبه.»

كانت أصابع بارميندر ترتجف قليلًا وهي تشدّ على حزام جهاز قياس الضغط. لم يكن يلتفّ حول ذراع هاورد. نزعته ونهضت لجلب حزام أكبر.

«لا»، قالت وهي تدير له ظهرها. «لم أطّلع عليها أصلًا.»

نظر إليها وهي تضغط على المنفاخ، وتأمّل العدّاد وعلى وجهه ابتسامة متعالية كمن يشاهد طقوسًا وثنيّة.

«إنّه مرتفع أكثر ممّا ينبغي» قالت فيما أشارت الإبرة إلى مئة وسبعين على مئة.

«إنّني أتناول أدويةً للضغط» ردّد وهو يحكّ مكان الحزام قبل أن يسدل كمّه من جديد. «الدكتور كروفورد يبدو راضيًا عن النتيجة.»

عاينت قائمة أدويته على شاشة الكمبيوتر.

«إنّك تتناول الأملوديبين والبندروفلوميتيازيد لضغط الدم، أليس كذلك؟ والسيمفاستاتين للقلب... من دون حاصرات بيتا...»

«بسبب الربو الذي أعاني منه» شرح هاورد وهو يشدّ كمّه ليستقيم.

«... حسنًا... وأسبرين.» التفتت لتواجهه. «هاورد، وزنك هو العامل الرئيسي خلف مشكلاتك الصحيّة. هل ذهبت يومًا لاستشارة اختصاصيّ في النظام الغذائي؟»

«أدير محلّ أطعمة فاخرة منذ خمسة وثلاثين عامًا» ردّ وهو لا يزال يبتسم، «لست بحاجة إلى من يلقّنني أصول الطعام.»

«إنّ بعض التعديلات في نظامك الحياتيّ يمكن أن تحدث فرقًا كبيرًا. إن تمكّنت من خسارة...»

تهيّأ لها أنه غمزها بطرف عينه وهو يقول بهدوء: «دعينا لا نعقّد المسألة. كلّ ما أنا بحاجة إليه هو مرهم للالتهاب.»

صبّت بارميندر غضبها على لوحة المفاتيح، فراحت تنقر بعنف وصفةً تتضمّن دواء مضادًا للفطريات ومرهمًا بالكورتيزون، ثمّ طبعتها وناولته إيّاها بدون التفوّه بكلمة.

«شكرًا جزيلًا»، قال وهو ينهض بصعوبة عن الكرسي. «أتمنّى لك يومًا سعيدًا.»

2

«ماذا تريدين؟»

بدا جسد تيري ويدون الهزيل محجّمًا في فتحة الباب. أسندت يديها الشبيهتين بمخالب على جانبَي إطار الباب، محاولة الإيحاء بالسطوة وهي تسدّ مدخل بيتها. كانت الساعة الثامنة صباحًا، وكريستال غادرت للتوّ مصطحبة روبي.

«أريد التحدّث إليك»، قالت شقيقتها.

بدت شيريل جسيمة أشبه برجل في سترتها البيضاء وسروالها الرياضيّ. كانت تمجّ سيجارةً وتنظر إلى تيري من خلال الدخان، وجفناها نصف مغلقين. «نانا كاث ماتت» قالت.

«ماذا؟»

«نانا كاث.. ماتت.» كرّرت شيريل رافعةً صوتها. «لا تتظاهري بأنّك متأثّرة، أعرف أنّك لا تأبهين.»

سمعت تيري ما قالته منذ المرّة الأولى. صعقها الخبر إلى حدّ أنّها عادت واستفهمت لأنّ الأمور اختلطت عليها.

«تبدين مخبولة، هل تعاطيت أيّ شيء؟» سألت شيريل محدّقة إلى وجه تيري الفارغ وقسماتها المشدودة المتعبة.

«اذهبي إلى الجحيم! لا، لم أتعاط شيئًا.»

كانت تيري تقول الحقيقة. فهي لم تتناول أيّ مخدّرات في ذلك الصباح، ولا خلال الأسابيع الثلاثة الماضية. لم تكن فخورة بذلك، ولم يكن هناك جدول شرف معلّق في المطبخ يشهد على إنجازها. سبق أن نجحت في الإقلاع عن المخدّرات لفترة أطول، وصلت إلى أشهر حتّى. أوبو لم يظهر منذ أسبوعين، وهذا ما سهّل الأمر عليها. غير أنّ عدّته لا تزال هنا، في علبة البسكويت المعدنيّة القديمة، وكانت تتضوّر توقًا يشبه نارًا مشتعلة لا تستكين داخل جسدها النحيل.

«ماتت بالأمس. دانيال لم تأبه لإخباري سوى هذا الصباح. اللعنة! حين أفكّر أنّني كنت أنوي الذهاب إلى المستشفى لزيارتها مرّة جديدة اليوم. دانيال تطمع في المنزل. منزل نانا كاث. عاهرة جشعة!»

مضى وقت طويل ولم تطأ قدما تيري البيت الصغير في شارع هوب. لكن فيما كانت تستمع إلى تيري، استعادت فجأة ذكرى التحف الصغيرة الرخيصة المعروضة على الصوان، والستائر المخرّمة. تخيّلت دانيال هناك، تدسّ كلّ ما تيسّر في جيوبها وتنقّب في الخزائن.

«الدفن نهار الثلاثاء في الساعة التاسعة عند فرن إحراق الجثث.»

«حسنًا»، قالت تيري.

«إنّه منزلنا بقدر ما هو منزل دانيال. سوف أقول لها إنّنا نريد حصّتنا أيضًا، موافقة؟»

«أجل.»

وقفت عند الباب تتأمّل شيريل إلى أن توارى شعرها الأصفر الكناري ووشومها عند زاوية الشارع، ثمّ عادت ودخلت.

نانا كاث ماتت. لم تتكلّما منذ فترة طويلة. إنّني أتبرّأ من مسؤوليّتك. سئمت كلّ ذلك تيري، طفح الكيل. لكنّها، رغم ذلك، واصلت رؤية كريستال. كريستال أصبحت حبيبتها الصغيرة المفضّلة. ذهبت حتّى لمشاهدة كريستال تجذّف في سباقات القوارب تلك التافهة. وحين كانت على فراش الموت، تلفّظت باسم كريستال، وليس تيري.

حسنًا إذًا، أيّتها العاهرة الشمطاء، لا آبه إن كنت هلكت. فات الأوان.

شعرت تيري بصدرها منقبضًا. كانت ترتجف وهي تجوب المطبخ بحثًا عن سجائر. الواقع أنّ ما كانت تتوق إليه هو الملعقة، الشعلة والإبرة.

فات الأوان الآن لتقول للعجوز ما كان يجدر بها قوله. فات الأوان لتعود «تيري بايبي» كما كانت تدعوها. الصبايا لا يبكين... الصبايا لا يبكين... لم تدرك إلّا بعد سنوات مديدة أنّ الأغنية التي كانت تغنّيها لها نانا كاث بصوتها الخشن، صوت المدخّنين، كانت في الحقيقة «شيري بايبي».

راحت يدا تيري تقلّبان بشكل محموم، ومثل حشرات طفيليّة هائمة، كلّ ما تجده على الطاولة والمجلى. كانت تعثر على علب سجائر، تمزّقها فتجدها فارغة، الواحدة تلو الأخرى. لا بدّ أنّ كريستال دخّنت آخر سجائر كانت متبقّية. بقرة جشعة، تمامًا مثل دانيال التي تنبش مقتنيات نانا كاث، محاولة إخفاء وفاتها عن باقي العائلة.

عثرت على عقب سيجارة مرميّ في صحن مكسوّ بالدهون. مسحته على قميصها القطنيّ وأشعلته على نار طبّاخ الغاز. سمعت صوتها داخل رأسها، صوت فتاة في الحادية عشرة من العمر.

ليتك أنتِ أمّي.

لم تكن تريد أن تتذكّر. استندت إلى المجلى وهي تعضّ على سيجارتها. حاولت أن تفكّر في ما سيحصل، أن تتصوّر الصدام الذي سيحدث بين الشقيقتين الكبريين. من الأفضل ألّا يخطئ أحد مع شيريل وزوجها شاين. كلاهما لا يتوانى عن استخدام قبضتيه، ومنذ فترة قصيرة، وضع شاين خِرَقًا مشتعلة في صندوق بريد أحمق مسكين. هذا ما أدخله السجن في المرّة الأخيرة، ولو لم يكن المنزل خاليًا عند ارتكاب فعلته، لكان لا يزال حتّى الآن خلف القضبان. لكنّ دانيال كانت لديها أسلحة لا تملكها شيريل: المال ومنزل خاصّ بها، وخطّ هاتف ثابت. كانت لديها معارف في الأوساط الرسميّة، وتعرف كيف تكلّمهم. كانت من الصنف الذي يحتفظ بمفاتيح احتياط ووثائق وأوراق غامضة تشهرها عند الحاجة.

لكنّ تيري كانت تشكّ رغم ذلك في أن تتمكّن دانيال من الاستيلاء على المنزل، حتى إن استخدمت أسلحتها السريّة. لم تكن المسألة تقتصر على ثلاثتهن فحسب، فلنانا كاث فيلق من الأحفاد وأبناء الأحفاد. فبعدما وُضعت تيري في عائلة استقبال، أنجب والدها المزيد من الأولاد. تسعة كما تذكر تيري، من أمهات مختلفات. لم تلتقِ تيري يومًا أخوتها وأخواتها من أمّهات أخريات، لكنّ كريستال أخبرتها بأنّ نانا كاث كانت تقابلهم.

«حقّا؟» ردّت. «آمل أن ينهبوها وألّا يتركوا لها شيئًا، تلك العجوز العاهرة الحمقاء.»

إذًا كانت على علاقة بباقي العائلة، رغم أنّهم ليسوا ملائكة، على ما ورد إلى مسامع تيري. كانت هي الوحيدة التي قطعت نانا كاث أيّ علاقة معها نهائيًا، هي التي كانت في يوم من الأيّام حبيبتها «تيري بايبي».

حين لا تكون تيري تحت تأثير المخدّرات، تطفو أفكار وذكريات فظيعة إلى ذهنها، تتدفّق من ظلمات روحها، مثل ذباب أسود يطنّ في رأسها ويتشبّث بجوف جمجمتها.

ليتك أنتِ أمّي.

القميص التي ترتديها تيري اليوم تكشف عن الندبات على ذراعها وعنقها وأعلى ظهرها، حيث الجلد متغضّن في ثنايا وتجاعيد غير طبيعيّة أشبه بالبوظة حين تذوب. قضت ستة أسابيع في وحدة الحروق في مستشفى ساوث وست العامّ حين كانت في الحادية عشرة من العمر.

(«كيف حصل هذا، حبيبتي؟» سألتها أمّ الطفل في السرير المجاور.

كان والدها قذفها بمقلاة من الذهن الغالي فاشتعلت قميصها التي كانت تحمل صورة فرقة «هيومن ليغ».

«حادث» تمتمت تيري. هذا ما قالته للجميع، بمن فيهم المساعِدة الاجتماعيّة والممرّضات. كانت تفضّل أن تُحرَق حيّة على أن تشي بوالدها.

غادرت والدتها بعد قليل من بلوغ تيري الحادية عشرة، تاركة خلفها بناتها الثلاث. أيام معدودة وانتقلت كلّ من دانيال وشيريل للعيش مع عائلتَي صديقَيهما. وحدها تيري بقيت في المنزل، تحاول قدر الإمكان إعداد الطعام لوالدها، متمسّكة بالأمل في أن تعود والدتها. حتّى في وسط الألم والمعاناة والرعب خلال تلك الأيّام والليالي التي قضتها في المستشفى، كانت سعيدة راضية بما حلّ بها، لأنّها كانت واثقة بأنّ والدتها ستعلم بحالها وستأتي لاصطحابها معها. كلّما كانت ترصد حركة عند طرف الممرّ، كان قلبها يخفق بقوّة كأنّه سيقفز من صدرها.

لكن طوال تلك الأسابيع الستّة الطويلة من العذاب والوحدة، كانت نانا كاث الوحيدة التي زارتها. تحضر وتجلس في جانب حفيدتها في الهدوء

المخيّم في ما بعد الظهيرة والمساء، تذكّرها بأن تقول «شكرًا» للممرّضات، مقطّبة وصارمة، غير أنّها تفيض حنانًا من حيث لا يدري أحد.

أهدَت تيري لعبة بلاستيكيّة رخيصة ترتدي مشمّعًا أسود لمّاعًا، لكن حين نزعت تيري ملابسها، وجدت أنّها لا ترتدي شيئًا تحتها.

«نانا، لا تضع سروالًا داخليًّا.»

قهقهت نانا كاث. لم تكن نانا كاث تقهقه إطلاقًا.

ليتك أنتِ أمّي.

أرادت تيري أن تأخذها نانا كاث إلى منزلها. طلبت منها ذلك، ووافقت نانا كاث. يخطر لتيري أحيانًا أن تلك الأسابيع التي قضتها في المستشفى كانت أسعد فترة في حياتها، على الرغم من آلامها الفظيعة. ذاقت فيها طعم الأمان، وكان الجميع يعاملها برفق ويعتني بها. ظنّت أنّها سترحل مع نانا كاث، إلى ذلك المنزل المزيّن بستائر مخرّمة جميلة، ولن تعود إلى والدها، إلى غرفة النوم تلك التي يُفتح بابها فجأة في وسط الليل بعنف، فيصفق ملصق ديفيد إيسيكس الذي تركته شيريل خلفها وينزعه عن الجدار، ثمّ يدخل والدها ويده على أزرار بنطاله، ويقترب من السرير حيث هي ممدّدة، تتوسّل إليه ألّا يفعل...)

رمت تيري ما تبقّى من عقب السيجارة على أرض المطبخ وتوجّهت بخطى سريعة إلى باب المدخل. كانت بحاجة إلى ما يزيد عن النيكوتين. انحدرت على الممرّ وانعطفت في الشارع حيث راحت تتقدّم بخطى حازمة سريعة في الاتّجاه ذاته الذي سلكته شيريل. لمحت بطرف عينها اثنتين من جاراتها مستغرقتين في حديث على الرصيف، تراقبانها وهي تعبر أمامهما. هل تريدان صورة لعينة؟ سوف تبقى أمامكما لفترة أطول. كانت تيري على علم أنّها محلّ قيلٍ وقال متواصل في الحيّ. حتّى إنّهم كانوا أحيانًا يقذفونها بأبشع الأوصاف في وجهها مباشرة. تلك العاهرة المتزمّتة في المنزل المجاور كانت تتشكّى بدون توقّف لدى المجلس، متذمّرة من حالة حديقة تيري. اللعنة عليهم جميعًا، ليذهبوا كلّهم إلى الجحيم، اللعنة...

أخذت تركض، تسابق الذكريات، محاولةً التفلّت منها.

لا تعرفين حتّى مَن هو والده، أليس هذا صحيحًا، أيّتها العاهرة؟ إنّني أتبرأ من مسؤوليّتك. سئمت كلّ ذلك تيري، طفح الكيل.

كانت هذه آخر مرّة تكلّمتا، ونعتتها فيها نانا كات بما يلصقه بها الجميع، فردّت عليها تيري بالمثل.

هكذا إذًا! اذهبي إلى الجحيم، أيّتها العجوز القذرة البائسة، اللعنة عليك!

لم تقل لها يومًا «تخلّيتِ عنّي، نانا كات.» لم تقل لها يومًا «لماذا لم تحتفظي بي؟» لم تقل لها مرّة «أحببتك أكثر من أي شخص آخر، نانا كات.»

كانت ترجو الله أن يكون أوبو عاد. من المفترض أن يعود اليوم. اليوم أو غدًا. لا بدّ لها من الحصول على كميّة ضئيلة. إنّها بحاجة ماسّة.

«كيف الحال تيري؟»

«هل رأيت أوبو؟» سألت الفتى الذي كان واقفًا عند السور خارج محلّ المشروبات الروحيّة، يدخّن ويشرب. شعرت بآثار الجروح على ظهرها تلهبها مجدّدًا.

هزّ رأسه وهو يشدّق بفمه ويرمقها بنظره. واصلت الركض، ورأسها يضجّ بأفكار تتدافع وتلاحقها، المساعدة الاجتماعية، كريستال، روبي. المزيد من الذباب الذي يتطاير ويطنّ، شبيهًا بالجيران الذين يحدّقون إليها، يطلقون أحكامًا على كلّ ما يرون، من غير أن يفهموا تلك الحاجة الملحاحة التي تحرّكها، حاجة فظيعة لا تنتظر.

(حضرت نانا كات لإخراجها من المستشفى واصطحبتها إلى منزلها، استقبلتها في غرفة الزوّار. كانت أنظف وأجمل غرفة نامت فيها تيري في حياتها. في كلّ من الليالي الثلاث التي قضتها هناك، جلست في السرير بعدما قبّلتها نانا كات وتمنّت لها نومًا هنيئًا، وأعادت ترتيب التحف الصغيرة الموضوعة على حافّة النافذة. كانت هناك ضمّة صغيرة من الأزهار الزجاجيّة تجلجل في إناء، ثقّالة ورق بلاستيكيّة زهريّة غُرزت فيها مصادفة، وأخيرًا تحفتها المفضّلة: حصان صغير من الفخّار منتصب على قائمتيه الخلفيّتين، وعلى سحنته ابتسامة ساذجة.

«أحبّ الأحصنة»، قالت لنانا كاث.

ذهبت تيري قبل أيّام من رحيل والدتها في رحلة مدرسيّة إلى المعرض الزراعي. هناك رأى الصفّ حصان شاير أسود عملاقًا مزيّنًا. وحدها تيري تجرّأت على الاقتراب منه وملامسته. امتلأت رئتاها برائحته القويّة النفّاذة. عانقت قائمته الضخمة، وفي آخرها حافر عريض غليظ يكسوه إكليل من الوبر الطويل الأبيض كالريش. أحسّت بلحمه ينبض حياةً تحت الوبر. نبّهها الأستاذ «احترسي تيري، انتبهي!» فيما الرجل العجوز الممسك برسن الحصان ابتسم لها مطمئنًا وقال لها ألّا تخاف، أنّ شمشوم لا يمكن أن يؤذي فتاة صغيرة جميلة مثلها.

الحصان الفخّار كان لونه مختلفًا: أصفر، وعرفه وذيله أسودَين.

«يمكنك الاحتفاظ به»، قالت نانا كاث، فغمر تيري إحساس بالحبور التامّ.

لكن في صباح اليوم الرابع، وصل والدها.

«سوف تعودين معي إلى المنزل»، قال لها وعلى ملامحه تعبير مخيف. «لن تبقي مع هذه البقرة العجوز اللعينة. لن تبقي هنا. لا، لن تبقي، أيّتها العاهرة الصغيرة.»

سيطر الرعب على نانا كاث كما على تيري.

أخذت تردّد متوسّلة بصوت متهدّج «ميكي، لا!» كان بعض الجيران يتلصّصون من خلف نوافذهم. كانت نانا كاث تتشبّث بأحد ذراعَي تيري، ووالدها يشدّها من ذراعها الأخرى.

«سوف تعودين معي إلى المنزل!»

لكَمَ نانا كاث على عينها وجرَّ تيري إلى سيّارته. حين عاد بها إلى المنزل، انهال عليها ضربًا وركلًا حيثما طالت يداه ورجلاه.)

«هل رأيت أوبو؟» صرخت تيري لإحدى جاراته على مسافة خمسين مترًا. «هل عاد؟»

«لست أدري»، أجابت المرأة قبل أن تدير لها ظهرها.

(حين لم يكن مايكل منهمكًا في ضرب تيري، كان يمارس عليها أفعالًا أخرى، تلك التي لم يكن بوسعها ذكرها. توقّفت نانا كاث عن المجيء. وفي

سنّ الثالثة عشرة، هربت تيري من المنزل، لكنّها لم تقصد بيت نانا كاث. لم تشأ أن يجدها والدها. عثروا عليها في مطلق الأحوال، ووضعوها في عائلة استقبال.)

طرقت تيري بقوّة على باب منزل أوبو وانتظرت. ثمّ دقّت مجدّدًا، لكنّ أحدًا لم يفتح. انهارت أرضًا عند المدخل وأخذت تبكي وهي ترتجف.

رمقتها فتاتان من وينترداون تغيّبتا عن المدرسة، وكانتا تعبران من هناك مصادفةً.

«إنّها والدة كريستال ويدون» قالت إحداهما بصوت عالٍ.

«مَن؟ الباغية؟» أجابت الثانية بأعلى صوتها.

لم تجد تيري القوّة لشتمهما، لأنّها كانت تنشج وتشهق باكية. واصلت الفتاتان طريقهما وهما تقرقران وتقهقهان بسخرية.

«عاهرة!» صاحت إحداهما من آخر الشارع.

3

كان بوسع غافين أن يدعو ماري للحضور إلى مكتبه ليناقش معها مضمون آخر رسائل تبادلها مع شركة التأمين، لكنّه قرّر بدل ذلك أن يزورها في منزلها. في ذلك النهار، حرص على عدم عقد أي موعد طوال بعد الظهر، في حال دعته للبقاء وتناول الطعام، رغم أنّه كان يستبعد هذا الاحتمال. كانت طبّاخة بارعة.

على مرّ الاتّصالات المتتالية بينهما، وشيئًا فشيئًا، تبدّد التحفّظ التلقائي الذي كان يقابل به فداحة أساها. لطالما أحبّ ماري، لكنّ حضور باري كان دائمًا يظلّلها ويتفوّق عليها. هذا لا يعني أنّها أظهرت في يومٍ من الأيّام أيّ امتعاض بسبب دورها الثانويّ، بل على العكس، لطالما بدت مسرورة بإضفاء مسحة من الرقّة إلى الأجواء، سعيدة بالضحك على نكات باري، سعيدة لمجرّد أنّها معه.

كان غافين يشكّ في أنّ ترضى كاي يومًا بلعب دور ثانويّ. خطر له وهو يتسلّق شارع تشيرتش روو ومحرّك سيّارته يزمجر، أنّ كاي لكانت ثارت ثائرتها لمجرّد التلميح إليها بأن تبدّل سلوكها أو تكبت آراءها في سبيل إسعاد شريكها، أو حتّى إرضاء غروره.

لا يذكر يومًا كان فيه أكثر تعاسة في علاقة ممّا هو عليه الآن. حتى في أواخر علاقته مع ليسا، حين كان الخلاف على أشدّه بينهما، كانت هناك هُدَنٌ، ضحكات، ولحظات مؤثّرة تذكّرهما فجأة بأيّامهما السعيدة. أمّا مع كاي، فكان الوضع أشبه بحرب شعواء، إلى حدّ أنّه ينسى أحيانًا أنّه من المفترض أن تكون هناك مشاعر تربطهما. هل كانت تستلطفه حتّى؟

وقع أعنف شجار بينهما على الهاتف في صباح اليوم الذي تلى العشاء عند مايلز وسامانثا. وفي نهاية المطاف، أغلقت كاي الخطّ بوجهه. ظنّ على مدى أربع وعشرين ساعة كاملة أنّ علاقتهما انتهت. لكن رغم أنّ ذلك كان ما يريده حقّا، إلّا أن شعورًا بالخوف طغى على أيّ ارتياح لديه. في أحلامه، كانت كاي تبخّرت بكلّ بساطة، عادت إلى لندن. لكنّها في الحقيقة باتت متجذّرة في باغفورد، حيث ترتبط بوظيفة وبابنة في مدرسة وينترداون. البلدة صغيرة، وقد يصادفها في أي مكان يذهب إليه. ربّما كانت في تلك اللحظة بالذات تلقي سمّها في البئر الذي سيغذّي سيل الثرثرات بحقّه. بوسعه أن يتصوّرها تردّد بعض ما قالته له على الهاتف لسامانثا، أو لتلك العجوز المتطفّلة التي تبعث فيه القشعريرة في محلّ الأطعمة.

اقتلعْتُ ابنتي من بيئتها وتركت وظيفتي وانتقلت إلى منزل جديد من أجلك، وفي المقابل تعاملني وكأنّني مجرّد عاهرة لستَ مضطرًا إلى دفع المال لها.

سوف يقول الناس إنّه أساء التصرّف. ربّما أساء التصرّف فعلًا. لم يجد نفسه في مثل هذا الموقف من قبل. فالجميع أظهروا له المراعاة والتعاطف بعدما تركته ليسا، وخصوصا باري وماري فيربراذر. ظلّ يتحرّق خوفًا وذنبًا إلى أن استسلم مساء الأحد واتّصل بكاي معتذرًا. وها هو الآن عاد إلى حيث لا يريد، ويشعر بنقمة تجاهها من أجل ذلك.

ركن سيّارته في الممرّ المؤدّي إلى منزل عائلة فيربراذر كما كان يفعل دائمًا حين كان باري على قيد الحياة. ترجّل وتوجّه إلى باب المدخل. لاحظ وهو يعبر أنّ أحدهم جزّ العشب منذ آخر زيارة له. ما أن رنّ الجرس حتّى فتحت ماري الباب على الفور.

«مرحبًا، كيف... ماري، ما بك؟»

كان وجهها مبلّلًا بالكامل، والدموع تنهمر من عينيها متلألئةً كحبّات من الماس. بلعت ريقها مرّة أو مرّتين، هزّت رأسها، فوجد نفسه فجأةً يضمّها بين ذراعيه أمام باب المدخل.

«ماري، ما الذي حصل؟»

شعر بها تهزّ برأسها. كان يعي بوضوح تامّ أنّ وقفتهما أمام الشارع تعرّضهما للأنظار الفضوليّة والألسن السليطة، فناور بخطى بطيئة ليُدخل ماري برفق إلى المنزل. كانت رقيقة وهشّة بين ذراعيه، متشبّثة به، غارزة وجهها في معطفه. أفلت حقيبته بألطف ما أمكنه، لكنّ الصوت الذي أحدثته حين ارتطمت بالأرض جعل ماري تجفل، فتفلّتت من ذراعيه وابتعدت عنه، مقطوعة الأنفاس، واضعة يديها أمام فمها.

«إنّني متأسّفة... إنّني متأسّفة... يا إلهي، غاف...»

«ماذا حصل؟»

بدا صوته مختلفًا عن العادة. كان قويًّا جازمًا، كصوت مَن يمسك بزمام الأمور، كان أقرب إلى الصوت الذي يصدر عن مايلز أحيانًا حين تطرأ أزمة في المكتب.

«ثمّة من وضع... لست... أحدهم وضع لباري...»

أومأت إليه أن يتبعها إلى المكتب. كانت غرفة رثّة، تعمّها الفوضى، لكنّها مريحة. يمكن رؤية جوائز التجذيف القديمة التي فاز بها باري معروضة على الرفوف، وصورة كبيرة معلّقة في إطار على الجدار، وفيها ثماني فتيات يرفعن قبضاتهنّ في الهواء، وحول أعناقهنّ تتدلّى ميداليّات. أشارت ماري بإصبع مرتجفة إلى شاشة الكمبيوتر. جلس غافين على الكرسي بدون أن ينزع معطفه وحدّق إلى لوح الرسائل على موقع مجلس بلدة باغفورد.

«كنت... كنت في محلّ الأطعمة هذا الصباح، وأخبرتني مورين لوي أنّ ثمة الكثير من رسائل التعازي على الموقع... أردت أن أط... أطبع بدوري رسالة لـ... لأشكرهم. و... انظر...»

رأى الرسالة فيما كانت تتكلّم: «سايمون برايس غير أهل للترشّح للمجلس»، والمرسِل هو «شبح باري فيربراذر».

انهارت ماري بالبكاء من جديد. كان بودّ غافين أن يضمّها، لكنّه لم يكن يجرؤ على ذلك، وخصوصًا هنا، في حميميّة تلك الغرفة الضيّقة العابقة بوجود باري. بدل ذلك، أمسكها بمعصمها الرقيق وقادها عبر الممشى إلى المطبخ.

«أنتِ بحاجة إلى كأس»، قال لها بذلك الصوت الحازم الآمر الذي لم يعهده. «انسي القهوة! أين الكحول؟»

لم ينتظر جوابها. تذكّر أنّه كثيرًا ما رأى باري يُخرج الزجاجات من الخزانة. أعدّ لها كأس جين تونيك صغيرة، المشروب الوحيد الذي سبق له أن رآها تتناوله قبل العشاء.

«غاف، الساعة الرابعة بعد الظهر.»

«وإن يكن؟ مَن يأبه؟» أجاب بذلك الصوت الغريب عنه. «هيّا، اكرعيه دفعة واحدة.»

انسلّت ضحكة متردّدة بين عبراتها. تناولت الكأس من يده وأخذت رشفة منه. جلب لها لفافة محارم المطبخ لمسح وجهها وعينيها.

«أنت في غاية الرقّة، غاف. ألا تودّ تناول شيء؟ قهوة أو... أو بيرة؟» سألته مطلقة ضحكة ثانية واهنة.

جلب زجاجة بيرة من البرّاد، خلع معطفه وجلس قبالتها خلف الطاولة في وسط المطبخ. حين أصبح كأسها على وشك أن يفرغ، كانت قد استعادت هدوءها وتحفّظها، مثلما عهدها على الدوام.

«مَن قام بذلك برأيك؟» سألته.

«نذلٌ من الطراز الأوّل.»

«جميعهم يتصارعون الآن على مقعده في المجلس. يتشاجرون كالعادة حول حيّ الحقول. وها هو أيضًا، يخوض في السجال. ربّما يكون هو فعلًا مَن يكتب على لوح الرسائل.»

لم يدرِ غافين ما إذا كانت تمزح، فاكتفى بالردّ بابتسامة شاحبة يمكن محوها بسهولة.

«تعلم، بـودّي أن أقنع نفسي أنّـه قلق علينا أنا والأولاد، حيث هو، أينما كان ذلك المكان، لكنّني أشكّ في ذلك. أراهن بأنّ اهتمامه الأوّل ما زال كريستال ويدون. أتعلم ماذا كان ليقول لي على الأرجح لو أنّه هنا؟»

أفرغت كأسها. لم يتنبّه غافين إلى أنّ الكوكتيل الذي أعدّه قويّ، لكنّ خدَّيها كانا متورّدين.

«لا،» أجاب بحذر.

«لكان قال لي أنّ لديّ مَن يساندني»، قالت ماري، وللمرّة الأولى لمس بذهول نبرة غضب في الصوت الذي لم يعرفه إلّا عذبًا ناعمًا. «أجل، لكان قال لي بالتأكيد: لديك العائلة برمّتها وأصدقاؤنا والأولاد لمواساتك، لكنّ كريستال - أكملت وفي صوتها غضب متزايد - كريستال ليس لديها من يعتني بها. أتعلم كيف قضى يوم عيد زواجنا؟»

«لا»، أجاب غافين للمرّة الثانية.

«قضاه يكتب مقالة للصحيفة المحليّة حـول كريستال. كريستال والحقول. الحقول اللعينة. كفاني! لا أودّ أن يُذكر هذا الاسم على مسمعي بعد الآن. أحضر لي كأسًا أخرى من الجين. لست أشرب بما يكفي.»

تناول غافين الكأس من يدها في حركة تلقائيّة، وعاد بها إلى خزانة الكحول. كان مصعوقًا ممّا سمعه. لطالما اعتبر زواج ماري وباري مثاليًّا بكلّ ما للكلمة من معنى. لم يخطر له يومًا أنّ ماري يمكن ألّا تكون موافقة مئة بالمئة على أيّة مغامرة يخوضها باري أو على أيّة حملة يشنّها، وهو الذي شغل نفسه على الدوام بقضايا كثيرة.

«تـدريبات على التجذيف في المساء، وقيادة الفان لنقلهنّ إلى المسابقات في عطلة نهاية الأسبوع»، قالت على وقع رنين مكعّبات الثلج

التي ألقاها في كأسها. «وفي معظم الليّالي، كان يبقى أمام الكمبيوتر، يحاول شحذ التأييد لقضيّة الحقول، ويدرج بنودًا على جدول أعمال اجتماعات المجلس. والكلّ كان يردّد: أليس باري رائعًا، كيف ينجز كلّ هذه المهامّ، كيف يتطوّع من تلقاء نفسه، كم هو ملتزم قضايا مجتمعنا.» ابتلعت جرعة سخيّة من كأس الجين تونيك الثانية. «أجل، كان رائعًا. رائعًا فعلًا. إلى أن قتلته كلّ هذه الروعة. قضى النهار بكامله، يوم عيد زواجنا، يجاهد ويكابد لتسليم المقالة في المهلة السخيفة. وهم حتّى اليوم لم ينشروها بعد.»

كانت عينا غافين مسمّرتين عليها. وجهها استعاد ألوانه الطبيعيّة تحت تأثير الغضب والكحول. كانت جالسة منتصبة، بعدما كانت متحدّبة ومطقطقة الرأس في الآونة الأخيرة.

«هذا ما قضى عليه»، قالت بصوت واضح وحادّ تردّدت أصداؤه قليلًا بين جدران المطبخ. «أعطى كلّ ما لديه للجميع، باستثنائي أنا.»

منذ وفاة باري، وغافين يفكّر متحسّرًا كم أنّ الفراغ الذي سيخلّفه هو إن رحل سيكون ضئيلًا بالمقارنة مع الفراغ الذي تركه باري. كان يعي مدى نواقصه. تساءل وهو يتأمّل ماري إن لم يكن من الأفضل ترك فراغ هائل في قلب شخص واحد. ألم يفهم باري مشاعر ماري؟ ألم يدرك كم أنّه محظوظ؟

فُتِح باب المدخل بصخب وسَمع أصوات الأولاد الأربعة يدخلون. أصوات ووقع خطى، ثمّ خبط أحذية وحقائب تسقط أرضًا.

«مرحبًا غاف»، قال فيرغوس البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا، وهو يقبّل والدته على أعلى رأسها. «أمّي، هل تشربين فعلًا كأسًا، أم أنّني مخطئ؟»

«أنا المذنب»، قال غافين. «يمكنك إلقاء اللوم عليّ.»

كانوا أولادًا رائعين. يحبّ غافين أن يرى كيف يكلّمون والدتهم، يعانقونها، يدردشون في ما بينهم، ويحادثونه هو. كانوا صريحين، مهذّبين وطريفين. فكّر في غايا، تلميحاتها الخبيثة التي توجّهها إليه بدون أن تكلّمه مباشرة، صمتها القاطع مثل شظايا زجاج، الشراسة في نبرتها حين تكلّمه مزمجرة.

«غاف، لم نتكلّم حتّى في مسألة التأمين»، قالت ماري فيما اندفع الأولاد الأربعة في المطبخ بحثًا عمّا يشربونه ويلقمِشونه.

«لا يهمّ»، قال غافين تلقائيًا، قبل أن يتدارك بسرعة «هل نذهب إلى غرفة الجلوس أم...»

«أجل، هيّا بنا.»

ترنّحت قليلًا وهي تنزل عن كرسي المطبخ العالي، فأمسك بذراعها مرّة جديدة.

«هل ستبقى لتناول العشاء معنا غاف؟» سأل فيرغوس.

«أرجو أن تبقى، إن لم يكن لديك شيء»، قالت ماري.

غمره إحساس بالدفء.

«بكلّ سرور، شكرًا.»

4

«هذا مؤسف»، قال هاورد موليسون وهو يتأرجح قليلًا على رؤوس أصابع قدميه أمام الموقد في منزله. «مؤسف فعلًا.»

نقلت إليه مورين للتوّ كلّ ما تعرفه عن وفاة كاثرين ويدون. صديقتها كارين، موظّفة الاستقبال في المستشفى، هي التي أخبرتها بالقضيّة في المساء، وقالت لها إنّ حفيدة كاث ويدون قدّمت شكوى. وجهها المتجعّد كان يعكس مشاعر متناقضة من الاستنكار والبهجة تزيده تشوّهًا. بدا لسامانثا المتنكّدة في تلك الأمسية أشبه بقشرة فول سودانيّ. راح مايلز يصدر الهمهمات التقليديّة في مثل هذه المناسبة لإبداء دهشته وشفقته، لكنّ شيرلي كانت تحدّق إلى السقف بوجهٍ خالٍ من أيّ تعبير. كانت تكره حين تُسلَّط الأضواء على مورين لأنّها تصل حاملة أنباء كان يجدر أن تكون شيرلي أوّل من يطّلع عليها.

«كانت والدتي تعرف هذه العائلة منذ زمن طويل»، قال هاورد لسامانثا التي سمعت هذه القصّة من قبل. «جيران في شارع هوب. كانت كاث امرأة محترَمة، على طريقتها، تعرفين كيف. منزلها كان يبقى مرتّبًا ونظيفًا، ولم

تتوقّف عن العمل حتى بعد بلوغها الستّين. أجل، كانت كاث ويدون حقًا من الصنف الكادح، بمعزل عمّا آل إليه باقي عائلتها.»

كان هاورد يحرص على قول الحقّ، حين يكون ذلك في محلّه.

«خسر زوجها وظيفته حين أغلقوا مصنع الصلب. كان مدمنًا الكحول. لا يمكن القول إنّها ذاقت حلاوة الحياة، كاث.»

كانت سامانثا تجهد لإبداء بعض الاهتمام. لحسن حظّها، قاطعته مورين.

«والجريدة انقضّت على الدكتورة جاواندا!» أكملت بحماسة في نعيق. «تصوّروا ما يمكن أن تكون تشعر الآن، وقد وصلت المسألة إلى الصحافة! العائلة تقيم الأرض وتقعدها. حسنًا، لا يمكن أن نلومهم على ذلك! تصوّروا، ثلاثة أيّام، متروكة وحيدة في ذلك المنزل! هل تعرفها هاورد؟ أيّهما هي دانيال فاولر؟»

نهضت شيرلي بمئزرها وخرجت من الصالون. تناولت سامانثا جرعة جديدة من النبيذ وهي تبتسم.

«مهلًا، دعوني أفكّر قليلًا...» كان هاورد يعتزّ بأنّه يعرف الجميع تقريبًا في باغفورد، لكنّ الأجيال الشابّة في عائلة ويدون أكثر انتماءً إلى يارفيل. «لا يمكن أن تكون ابنة لها، لأنّ كاث كان لديها أربعة أبناء. لا بدّ أن تكون حفيدة لها، على ما أظنّ.»

«إنّها تطالب بتحقيق»، أكملت مورين. «حسنًا، كان لا بدّ أن تصل المسألة إلى هذا الحدّ. ذلك كان متوقّعًا منذ زمن. بل أجد من المفاجئ ألّا تكون الفضيحة وقعت من قبل. في الماضي، رفضت الدكتورة جاواندا وصف مضادّات حيويّة لابن عائلة هابرد، وفي نهاية المطاف، اضطرّوا إلى إدخاله المستشفى بسبب نوبة ربو. في مطلق الأحوال، هل يعرف أحد إن كانت فعلًا قد درست الطبّ في الهند، أم...»

كانت شيرلي تستمع إلى الحديث من المطبخ وهي تحرّك الصلصة في القدر. كانت تشعر بامتعاضٍ شديد، كما في كلّ مرّة تستأثر فيها مورين بالحديث. هكذا كانت شيرلي ترى الموقف. كانت مصمّمة على عدم العودة

إلى الصالون إلى أن تنتهي مورين من إخراج كلّ ما في جعبتها، فتوجّهت إلى المكتب لتلقي نظرة على موقع المجلس، علّ أحدًا أرسل كلمة للاعتذار عن عدم حضور الاجتماع المقبل الذي باشرت إعداد جدول أعماله، بصفتها سكرتيرة.

«هاورد! مايلز! تعالا بسرعة! يجب أن تريا هذا!»

لم يكن صوت شيرلي عذبًا وناعمًا كالعادة، بل كان أشبه بزعيق حادّ.

خرج هاورد من الصالون مسرعًا بقدر ما تسمح به مشيته المترنّحة المتثاقلة، يتبعه مايلز، وهو لا يزال في البدلة التي ارتداها طوال النهار في المكتب. بقيت عينا مورين المحمرّتان خلف جفنيها المتراخيين ورموشها المثقلة بالماسكارا، مسمّرتين على الباب المفتوح الذي توارى منه هاورد ومايلز. لم يكن بوسعها إخفاء نهمها لمعرفة ما اكتشفته شيرلي أو رأته. أصابعها الأشبه بكومة من المفاصل النافرة المكسوّة بجلدة رقيقة نصف شفّافة مبقّعة مثل جلد نمر، كانت تشدّ بعصبيّة على الصليب وخاتم الزواج المتدلّيين من سلسلة حول عنقها، فينزلقان صعودًا ونزولًا. الثنيتان العميقتان الممتدّتان من طرفَي فمها إلى أسفل ذقنها تذكّران سامانثا بدمية تتكلّم من بطنها.

لماذا كلّما أتيت إلى هنا أجدك؟ سألت سامانثا المرأة المسنّة بصوت عالٍ داخل رأسها. وكأنّ الوحدة التي أجد نفسي فيها بين هاورد وشيرلي لا تكفيني! لا بدّ لك أن تنضمّي أنت أيضًا إلى الجوقة!

شعرت سامانثا بالقرف يملأها، يتصاعد في داخلها مثل غثيان. ودّت لو تطبق يدَيها على تلك الغرفة، بدفئها الخانق وتحفها المكدّسة، إلى أن تسحقها بين يديها، فتتشظّى آنية الخزف الصينيّ الملكيّة، وموقد الغاز، وحتّى صور مايلز في إطارها المذهّب. ومن ثمّ ترفع هذا الحطام كلّه، وفي وسطه مورين تزعق وتبكي، متقوقعة على نفسها بوجهها المطلي بالمساحيق، وتقذفه مثل كرة سماويّة نحو المغيب. ترى في مخيّلتها الصالون المحطّم والساحرة العجوز عالقة في داخله، يطير مثل سهم في السماء ويغرق في المحيط الشاسع السحيق، تاركًا سامانثا وحدها وسط سكينة لامتناهية تغلّف الكون.

قضت ما بعد ظهيرة مريعة. كان لها مجدّدًا حديث مقلق مع محاسبها. ثمّ عادت من يارفيل إلى المنزل شاردة الذهن، لا تذكر حتّى كيف قادت السيّارة. كان بودّها أن تشكي همّها لمايلز، لكنّه ما أن تخلّص من حقيبته وحلّ ربطة عنقه، حتّى قال لها: «لم تباشري إعداد العشاء بعد، أليس كذلك؟» رفع أنفه يشتمّ الهواء، ثمّ أجاب نفسه.

«لم، لم تفعلي. هذا ممتاز، لأنّنا مدعوان عند أبي وأمّي إلى العشاء.» وقبل أن يتسنّى لها الاحتجاج، أضاف بخشونة: «لا علاقة للأمر إطلاقًا بالمجلس. علينا أن نناقش الترتيبات لعيد ميلاد والدي الخامس والستّين.»

الغضب الذي سيطر على سامانثا كان أقرب إلى بلسم حجب قلقها ومخاوفها. تبعت مايلز إلى السيّارة، وفي داخلها نار ملتهبة، يغذّيها إحساسها بسوء المعاملة. حين سألها أخيرًا بعدما وصلا إلى زاوية إيفرتري كريسنت «كيف كان نهارك؟»، أجابته «رائع إلى حدّ لا يوصف.»

«تُرى ما الذي يجري؟» قالت مورين، قاطعةً الصمت المخيّم في الصالون.

هزّت سامانثا كتفيها. من خصائل شيرلي أن تستدعي الرجال وتترك النساء حائرات بأمرهنّ. لن تلعب سامانثا لعبة حماتها وتبدي لها أدنى قدر من الاهتمام.

سُمع صرير الأرضيّة الخشبيّة تحت بساط الممشى وهي ترتجّ على وقع خطى هاورد الضخمة. تسمّرت مورين فاغرة فاها، في لهفة وترقّب.

«يا للمفاجأة! أمر لا يصدّق!» صاح هاورد وهو يعود مجرجرًا قامته الهائلة إلى الصالون.

«كنت أتفقّد موقع المجلس بحثًا عن رسائل إبلاغ بأيّ تغيّب عن الاجتماع المقبل»، قالت شيرلي وهي تسرع لاهثة في إثره. «الاجتماع المقبل...»

«أرسل أحدٌ ما اتّهامات بحقّ سايمون برايس»، قال مايلز لسامانثا، قاطعًا الطريق على والديه ليتكفّل بنفسه بمهمّة نقل الخبر.

«أيّ نوع من الاتّهامات؟» سألت سامانثا.

«إخفاء أغراضٍ مسروقة»، أجاب هاورد الذي لم يكن يعتزم التنازل عن موقعه محورًا للانتباه، «والقيام بضروب احتيال من خلف ظهر رؤسائه في المطبعة.»

ارتاحت سامانثا حين لاحظت أنّ المسألة برمّتها لم تكن تهمّها. لم تكن لديها مطلق فكرة حتّى عمّن يكون سايمون برايس هذا.

«والرسالة موقّعة باسم مستعار»، تابع هاورد، «ويمكن القول إنّ هذا الاسم لا ينمّ عن حسن ذوق.»

«تعني أنّه فظّ؟» سألت سامانثا، «مثل قضيب- ضخم- سمين أو شيء من هذا القبيل؟»

قهقه هاورد بضحكة مدوّية هزّت جدران الغرفة، فيما اصطنعت مورين صيحة استنكار، وتجهّم مايلز فبدت شيرلي مغتاظة.

«ليس من هذا الصنف تمامًا سامي، لا»، أجاب هاورد. «لا، التوقيع باسم شبح باري فيربراذر.»

«أوف!» قالت سامانثا، وقد تبدّدت الابتسامة عن وجهها. وجدت ذلك كريهًا. فهي في نهاية الأمر كانت في سيّارة الإسعاف حين غرزوا في جسد باري الفاقد الوعي إبرًا وأنابيب. رأته يحتضر خلف ذلك القناع البلاستيكي. رأت ماري تتمسّك بيده، سمعتها تبكي وتئنّ.

«آه لا، هذا ليس لطيفًا على الإطلاق»، قالت مورين وصوت الضفدع الضخم الخارج من حنجرتها يكشف عن غبطة وإثارة. «بل هذا خبيث. نَسْب كلام إلى ميت، تلطيخ أسماء بصورة مجّانيّة. هذا لا يجوز.»

«لا»، عقّب هاورد. عبَر الغرفة، تناول زجاجة النبيذ وعاد ليملأ كأس سامانثا الفارغة. كان يتحرّك بشكل تلقائيّ، من غير أن يفكّر. «لكن يبدو أنّ ثمّة مَن لا يأبه لحسن الذوق، طالما أنّ ذلك بوسعه إقصاء سايمون برايس من السباق.»

«إن كنتَ تقصد فعلًا ما أظنّ أنّك تقصده أبي، أما كانوا استهدفوني أنا بالأحرى، وليس برايس؟»

«ألا تظنّ أنّهم فعلوا، مايلز؟»

«ماذا تعني؟» سأل مايلز متحفّزًا.

«ما أعنيه»، أجاب هاورد بسرور وقد عاد محطّ الأنظار، «أنّني تلقّيت رسالة بشأنك من مجهول قبل أسبوعين. لم يكن فيها شيء محدّد. مجرّد أنّك غير أهل لتولّي مقعد فيربراذر. أراهن على أنّ مَن كتب الرسالة هو نفسه الذي نشر التعليق على الإنترنت. موضوع فيربراذر يتردّد في كليهما، ألا تلاحظ ذلك؟»

سارعت سامانثا إلى ابتلاع جرعة من النبيذ، لكنّها في اندفاعها قلبت الكأس، فاندلق النبيذ وانساب على طرفي ذقنها، راسمًا خطّي أخدودين سيتجوفان أكثر حتما مع الوقت، لتبدو بدورها مثل دمية تنطق من بطنها. مسحت وجهها بكمّها.

«أين هذه الرسالة؟» سأل مايلز محاولًا كبت انفعاله.

«أتلفتها. كانت مُغفَلة، يعني أنّه لا يمكن أخذها بالاعتبار.»

«لم نشأ أن نقلقك حبيبي»، قالت شيرلي وهي تطبطب على ذراع مايلز.

«في مطلق الأحوال، لا يمكن أن يكونوا عثروا على أيّ ملفّ ضدّك، وإلّا لكانوا فضحوا الأمر مثلما فعلوا مع برايس»، شرح هاورد مطَمْئنًا.

«زوجة سايمون برايس امرأة لطيفة للغاية»، قالت شيرلي بأسف. «إن كان زوجها يقوم فعلًا بضروب احتيال، لا يسعني أن أصّدق أنّ روث على علم بأيّ شيء. إنّها صديقة لي من المستشفى»، تابعت متوجّهة لمورين. «ممرّضة متعاقدة.»

«لن تكون أوّل زوجة لا ترصد ما يجري من تحت أنفها»، ردّت مورين، متسلّحة بالحكمة الشعبيّة لتواجه تفوّق شيرلي المطّلعة على معلومات من الداخل.

«أمر معيب تمامًا استخدام اسم باري فيربراذر»، تابعت شيرلي، متظاهرة بأنّها لم تسمع ما قالته مورين، «بدون إقامة أيّ اعتبار لأرملته ولعائلته. كلّ ما يهمّهم هو الهدف الذي يريدون تحقيقه، وقد يضحّون بكلّ شيء في سبيله.»

«هذا يكشف طبيعة الخصوم الذين نواجههم»، قال هاورد وهو يحكّ ثنية بطنه مُطرقًا في التفكير. «من الناحية الاستراتيجيّة، هذه مناورة ذكيّة. توقّعت منذ البداية أن يشقّ ترشيح برايس صفوف المؤيّدين للحقول. لا يمكن القول إنّ براز الزيز تهدر الوقت. هي أيضا أدركت ذلك وتريد التخلّص منه.»

«لكن قد لا يكون لبارميندر وشلّتها أيّ دخل في المسألة»، اقترحت سامانثا. «قد يكون ذلك من فعل شخص لا نعرفه ويحمل ضغينة لسايمون برايس.»

.«آه سام!» ردّت شيرلي وهي تهزّ رأسها، مطلقة ضحكة حادّة. «من الواضح أنّك هاوية في السياسة.»

اذهبي إلى الجحيم، شيرلي.

«ولماذا استخدموا اسم باري فيربراذر إذًا؟» سأل مايلز زوجته بحدّة.

«حسنًا، الإعلان على الموقع، أليس كذلك؟ المقعد الشاغر هو مقعده.»

«ومن سينقّب في موقع المجلس بحثًا عن هذا النوع من المعلومات؟ لا»، تابع بنبرة جادّة تليق بخطورة الموقف. «هذا من فِعل شخص من الداخل.»

شخص من الداخل... قالت ليبي مرّة لسامانثا إنّه يمكن العثور على آلاف الكائنات المجهريّة داخل قطرة ماء واحدة في بحيرة. كم إنّهم سخفاء، قالت سامانثا لنفسها، جالسين هنا أمام أطباق شيرلي التذكاريّة وكأنّهم في قاعة مجلس الوزراء في داونينغ ستريت، وكأنّ أدنى ثرثرة تافهة على موقع مجلس بارغفورد تشكّل حملة منظّمة، وكأنّ أيًّا من كلّ ذلك يهمّ على الإطلاق.

صرفت سامانثا اهتمامها عنهم جميعًا، متعمّدة إظهار قلّة اكتراثها، مثل تحدٍّ في وجه الجميع. سرح نظرها من النافذة وتاه في صفاء السماء الليليّة. راحت تفكّر في جايك، الفتى المفتول العضلات في فرقة ليبي المفضّلة. كانت سامانثا خرجت من محلّها في ذلك اليوم خلال استراحة الظهر لجلب شطائر، واشترت مجلّة فيها مقابلة مع جايك ورفاقه في الفرقة، ترافقها صور كثيرة.

«هذه لليبي»، شرحت لمساعِدتها في المحلّ.

«واو! ما هذا؟ انظري! لو كان هذا الفتى في سريري، لما كنت نهضت منه لو قامت القيامة»، قالت كارلي مشيرة إلى جايك، بصدره العاري، ورأسه

الملقى إلى الخلف كاشفًا عن عنقٍ عريضةٍ قويّة. «آه! لكنّه في الواحدة والعشرين فقط، انظري! لا، لا يهمّني أن أربّي طفلًا.»

كانت كارلي في السادسة والعشرين. سامانثا لم تأبه لحساب فارق العمر بينها وبين جايك. تناولت شطيرتها وهي تقرأ المقابلة، وتتفحّص الصور واحدة واحدة. جايك متشبّثًا بيديه بعارضة فوق رأسه، وعضلات ذراعيه منتفخة تحت تي شيرت أسود. جايك في قميص أبيض مفتوح على صدره، وعضلات معدته بارزة واحدة واحدة فوق خصر جينزه المتراخي.

كانت سامانثا تحتسي نبيذ هاورد شاردةً في السماء المصبوغة بلون زهريّ رهيف فوق سياج شجيرات الحنّاء السوداء. حلمتاها كانتا بلون هذه السماء الزهريّة قبل أن تقتما وتتمدّدا بفعل الحمل والرضاعة. تصوّرت نفسها في التاسعة عشرة من جديد، وجايك في الواحدة والعشرين، ممشوقة القامة، رهيفة القدّ، معدتها مسطّحة مشدودة، في سروال قصير ضيّق تنسلّ فيه بشكل رائع. عاودها بوضوح ذلك الإحساس اللذيذ، أن تكون جالسة في حضن شاب وهي ترتدي ذلك السروال القصير، وتشعر تحت ساقيها العاريتين بخشونة الجينز الحارّ في أشعّة الشمس، بينما ترتاح على خصرها الطريّ الرشيق يدان عريضتان. تخيّلت نفَس جايك يلفح عنقها. رأت نفسها تلتفت لتنظر إلى عينيه الزرقاوين، الخدّين العاليين والشفتين الصلبتين المنحوتتين...

«... في صالون الكنيسة، وسوف نوصي على المأكولات من عند باكنولز»، قال هاورد. «دعَونا الجميع: أوبري وجوليا... الجميع. وإذا ما حالفنا الحظّ، سوف يكون ذلك احتفالًا مزدوجًا، لكَ في المجلس، ولي لعام جديد من الشباب الدائم...»

كانت سامانثا سكرانة ومهتاجة. متى سيتناولون العشاء؟ لاحظت أنّ شيرلي خرجت من الغرفة. على أمل أن تكون تعتزم تقديم الطعام...

رنّ جرس الهاتف قرب مرفق سامانثا، فانتفضت جفِلة. وقبل أن يتمكّن أيّ منهم من القيام بأيّة حركة، هرعت شيرلي عائدة إلى الصالون. كانت تضع قفّاز مطبخ مزيّنًا بنقوش أزهار في إحدى يديها، رفعت السمّاعة باليد الأخرى.

«اثنان وعشرون، صفر تسعة، نعم؟» قالت منغّمة، خاتمة بنبرة عالية.

«آه... مرحبًا روث عزيزتي!»

تسمّر هاورد ومايلز وموربن في أرضهم، مرهِفَين السمع. التفتَت شيرلي وحدّقت إلى زوجها بتركيز شديد، وكأنّ عينيها تنقلان كلام روث مباشرة إلى ذهن زوجها.

«نعم»، تابعت شيرلي بصوتها الرخيم، «نعم...»

كانت سامانثا الأقرب إلى السمّاعة. كانت تسمع صوت المرأة بدون أن تميّز ما تقوله.

«آه، حقّا...؟»

كانت موربن مشدوهة، فاغرة الفاه. بدت أشبه بفرخ عصفور تاريخيّ، أو ربّما ديناصور، شادقًا منقاره الهائل ينتظر بلهفة أن يتقيّأ فيه أحدٌ أنباء جديدة.

«أجل عزيزتي، فهمت... آه لا، هذا لا يطرح مشكلة على الإطلاق... لا،لا، سوف أشرح لهاورد. لا، لا تقلقي، لا إزعاج أبدًا.»

عينا شيرلي العسليّتان الصغيرتان لم تفارقا لحظة عينَي هاورد الزرقاوين الضخمتين الجاحظتين.

«روث عزيزتي»، تابعت، «روث لا أريد أن أخيفك، لكن هل تصفّحت موقع المجلس اليوم؟... حسنًا... ليس هذا نبأ سارًا، لكن أعتقد أنه ينبغي أن تكوني على علم... نشر أحدٌ ما أشياء قبيحة عن سايمون... أعتقد أنّه من الأفضل أن تقرأيها بنفسك، لا أودّ أن... حسنا، عزيزتي. ممتاز. أراك الأربعاء إذًا. أجل. إلى اللقاء.»

وضعت شيرلي السمّاعة.

«لم تكن على علم»، قال مايلز.

هزّت شيرلي رأسها.

«لماذا اتّصلت؟»

«بشأن ابنها»، قالت لهاورد. «فتى المهمّات الجديد في المقهى. لديه حساسيّة على الفستق.»

«هذا ملائم جدّا في محلّ أطعمة»، علّق هاورد.

«أرادت أن تسأل إن كان بوسعك الإحتفاظ بحقنة من الأدرينالين في برّاد المحلّ من أجله، في حال احتاج إليها.»

«جميع الأولاد في أيّامنا لديهم حساسيّات» قالت مورين وهي تستنشق بقوّة.

كانت يد شيرلي لا تزال ممسكة بالسمّاعة. كانت تأمل في أعماقها أن تشعر بهزّات قادمة عبر الخطّ من هيلتوب هاوس.

5

وقفت روث وحيدة في نور المصباح في الصالون، يدها لا تزال متشبّثة بالسمّاعة بعدما وضعتها فوق الهاتف.

منزل هيلتوب هاوس صغير ومضغوط. من السهل في أيّ وقت تحديد موقع كلّ من أفراد العائلة الأربعة فيه، لأنّ الأصوات ووقع الخطى وصرير الأبواب وصفقها، كلّ ذلك يتردّد بوضوح تامّ في أرجاء البيت القديم. كانت روث تعرف أنّ زوجها ما زال تحت الدوش، كان بوسعها سماع غلّاية المياه تحت الدرج تصفر وتطرطق. انتظرت حتّى شغّل سايمون الماء لتتّصل بشيرلي، خشية أن يفسّر طلبها بشأن حقنة الإيبي-بن بمثابة تقرّب من العدوّ.

كان الكمبيوتر العائليّ موضوعًا في زاوية من الصالون، حيث يمكن لسايمون أن يراقبه باستمرار للتحقّق ممّا إذا كان أحدٌ ما يستنفد حساب الإنترنت من خلف ظهره. أفلتت روث السمّاعة وهرعت إلى لوحة المفاتيح.

بدا لها أنّ دهرًا مرّ قبل أن تنجح في فتح موقع مجلس باغفورد. سوّت نظّاراتيها الطبيّتَين على أنفها بيد ترتجف وهي تستعرض الصفحات، إلى أن وقعت على لوح الرسائل. صعقت عند رؤية اسم زوجها بالأبيض والأسود:

«سايمون برايس غير أهل للترشّح للمجلس.»

نقرت نقرة مزدوجة على العنوان، فظهر نصّ الرسالة بكامله وقرأته.

أخذ المنزل يترنّح ويدور من حولها.

«يا إلهي»، تمتمت.

توقّفت غلّاية الماء عن إصدار طرطقاتها. لا بدّ أن سايمون يرتدي الآن ملابس النوم التي حرص على نشرها على مشعاع التدفئة لتكون حارّة عندما يرتديها. أسدل ستائر الصالون قبل أن يصعد إلى الحمّام، أضاء المصابيح وأشعل مدفأة الحطب. هكذا يمكنه الاسترخاء على الأريكة عندما ينزل، ومشاهدة الأخبار على التلفزيون.

كانت روث تدرك أنّ عليها إبلاغه بالأمر. من غير الوارد ألّا تطلعه بنفسها، وتتركه يكتشف ذلك من تلقاء ذاته. لم تكن قادرة على الاحتفاظ بالمسألة لنفسها. كانت تشعر بالذعر والذنب، من غير أن تدري السبب.

سمعته ينزل الأدراج مهرولًا، ثمّ ظهر عند الباب، مرتديًا البيجاما الزرقاء من القطن المزأبر.

«سيمو»، قالت همسًا.

«ماذا هناك؟» سألها ممتعضًا في الحال. بوسعه أن يحزر أنّ أمرًا ما حصل، وأنّه سيبلبل حتمًا خططه لقضاء أمسية من الترف والاستجمام ما بين الأريكة والموقد والأخبار.

أشارت إلى شاشة الكمبيوتر، ويدها الأخرى تضغط على فمها بحماقة، مثل فتاة صغيرة خائفة. انتقل ذعرها إليه. حثّ الخطى نحو الكمبيوتر وحدّق إلى الشاشة مقطّبًا. لم يكن يقرأ بطلاقة. قرأ الرسالة ببطء ومشقّة كلمة كلمة، سطرًا سطرًا.

بعدما انتهى من قراءة الرسالة، بقي مطرقًا بلا حراك، مستعرضًا في ذهنه كلّ الوشاة المحتملين. تبادر إلى ذهنه سائق الرافعة ذو العلكة، الذي تركه في وسط الشارع في الحقول حين ذهبا لإحضار الكمبيوتر الجديد. خطر له أيضا جيم وتومي اللذان كانا يشاركانه في صفقاته المشبوهة. لا بدّ أنّ أحد العاملين في المطبعة سرّب المسألة. اجتاحه غضب شديد اقترن بإحساس بالفزع، ليولّد ردّ فعلٍ مدمّرًا.

هرع إلى أسفل الدرج وصاح بأعلى صوته «أنتما الإثنان! انزلا حالًا!»

كانت روث لا تزال تضغط يدها على فمها. ودّ بساديّة لو يزيحها عن فمها بصفعة، أن يقول لها أن تتمالك نفسها، اللعنة! فهو من وقع في ورطة.

دخل آندرو الصالون أوّلًا، يتبعه بول. لمح آندرو شعار بلدة باغفورد على الشاشة، ورأى والدته مسمّرة، ويدها على فمها. عبر الغرفة حافي القدمين على البساط القديم، وهو يحسّ وكأنّه يهوي من علو شاهق في مصعد معطّل.

«ثمّة من ثرثر بشأن أمور ذكرتها داخل هذا المنزل» قال سايمون محدّقًا في الفتيين.

بول جلب معه كتاب تمارين الكيمياء، وكان يضمّه إلى صدره وكأنّه كتاب تراتيل، بينما واجه آندرو والده بدون أن يشيح بنظره، محاولًا التظاهر بالدهشة والفضول.

«مَن منكما أخبر أنّ لدينا كمبيوترًا مسروقًا؟» سأل سايمون.

«أنا لم أفعل» أجاب آندرو.

حدّق بول بوالده بنظرة فارغة مشدوهة، محاولًا فهم السؤال. تمنّى آندرو أن يجيب شقيقه. لماذا ينبغي أن يكون دائمًا بطيئًا إلى هذا الحدّ؟

«إذًا؟» صاح سايمون ببول.

«لا أعتقد أنّني...»

«لا تعتقد؟ لا تعتقد أنّك أخبرت أحدًا؟»

«لا، لا أعتقد أنني أخبرت أيًّا...»

«آه، هذا مثير للاهتمام»، قال سايمون وهو يمشي ذهابًا وإيابًا أمام بول. «هذا مثير للاهتمام.»

بضربة قذف الكتاب من بين يدَي بول فطار عبر الغرفة.

«حاول أن تفكّر، أيّها الأبله»، زعق. «حاول أن تفكّر اللعنة! هل قلت لأيّ كان أنّ لدينا كمبيوترًا مسروقًا؟»

«لا، ليس مسروقًا، قال بول. لم أقل لأحد... لا أعتقد حتّى أنّني قلت لأحد أنّ لدينا كمبيوترًا جديدًا.»

«حسنًا،» قال سايمون. «إذًا انتشر الخبر بالسحر، أليس كذلك؟» قال وهو يشير إلى شاشة الكمبيوتر.

«لا بدّ أن يكون أحدٌ تكلّم، اللعنة!» صرخ، «لأنّ المسألة باتت على الإنترنت اللعين، وسوف يكون حظّي لا يُصدَّق إن... لم... أفقد... وظيفتي!»

رافق كلًّا من الكلمات الأربع الأخيرة بضربة بقبضته على رأس بول الذي خفض رأسه بين كتفيه، محاولًا تفادي الضربات. سال خيط أسود من منخاره الأيسر. كان أنفه ينزف عدّة مرّات في الأسبوع.

«وماذا عنكِ أنتِ؟» زعق سايمون ملتفتًا إلى زوجته. كانت روث لا تزال مسمّرة قرب الكمبيوتر، محملقة خلف نظّارتَيها، ويدها تحجب فمها مثل نقاب. «هل استرسلت في ثرثراتك اللعينة؟»

«لا سيمو»، همست. «أقصد أنّ الشخص الوحيد الذي قلت له إنّ لدينا كمبيوترًا كان شيرلي، وهي لا يمكن أن...»

يا لك من حمقاء! حمقاء لعينة! ما الحاجة إلى قول ذلك له؟

«ماذا فعلتِ؟» سأل سايمون بصوت هادئ.

«أخبرت شيرلي» قالت روث في أنين. «لكنّني لم أقل إنّه مسروق، سيمو. قلت فقط إنّك ستجلب كمبيوترًا إلى المنزل...»

«اللعنة! هذا ما حصل إذًا، الآن فهمنا!» صاح سايمون مزمجرًا. «ابنها المعتوه مرشّح للانتخابات، بالطبع تودّ أن يكون لها مأخذ عليّ!»

«لكنّها هي مَن أخبرني بالمسألة سيمو، قبل قليل، لما كانت...»

اندفع نحوها وضربها على وجهها، تمامًا مثلما كان يتوق إلى فعله منذ أن رأى تعبير الذعر الأبله هذا على ملامحها. طارت نظّارتاها في الهواء وتحطّمتا على رفوف المكتبة. ضربها مرّة ثانية، فانهارت فوق طاولة الكمبيوتر التي اشترتها بافتخار بأوّل أجر تقاضته من مستشفى ساوث وست العامّ.

كان آندرو قطع وعدًا على نفسه. تهيّأ له أنّه يتقدّم في حركة بطيئة، وكلّ شيء من حوله بدا باردًا ودبقًا، وكأنّه غير واقعيّ.

«لا تضربها»، قال وهو يحشر نفسه بين والديه. «لا...»

انشقّت شفته حين سحقتها قبضة سايمون على أسنانه الأماميّة، فسقط إلى الخلف وهوى على والدته الممدّدة فوق لوحة مفاتيح الكمبيوتر. سدّد إليه سايمون لكمة ثانية أصابت آندرو في ذراعه التي رفعها ليحمي وجهه. كان آندرو يحاول النهوض من فوق والدته التي تتخبّط منهارة على الطاولة الصغيرة، فيما سايمون فاقدًا صوابه تمامًا، ينهال عليهما ضربًا ولكمًا أينما طالت يداه.

«إيّاك أن تقول لي ما أفعل، إيّاك أن تتجرأ، أيّها الجبان الخرائيّ، كومة البراز المتبثّر...»

جثم آندرو على ركبتيه محاولًا أن يحيد من أمام والده، فركله سايمون على ضلوعه. سمع آندرو شقيقه يئنّ بصوت مثير للشفقة «توقّف!» رفع سايمون رجله ليركل آندرو على ضلوعه من جديد، لكنّ آندرو تلافى الركلة، فاصطدمت أصابع قدم والده بحافّة الموقد من أحجار القرميد، وها هو فجأة يتلوّى مولِولًا من شدّة الألم، في انقلاب عبثيّ تمامًا في الموقف.

سارع آندرو إلى الابتعاد زحفًا. كان سايمون ممسكًا بطرف قدمه، يقفز في مكانه على ساقٍ واحدة ويطلق وابلًا من الشتائم في زعيق حادّ يصمّ الآذان. انهارت روث على الكرسي الدوّار وراحت تشهق بالبكاء وهي تخبئ وجهها خلف يديها. نهض آندرو. كان طعم الدم يملأ فمه.

«يمكن أيًّا كان أن يخبر عن هذا الكمبيوتر» قال لاهثًا، وهو يتوقّع المزيد من العنف. اشتدّ شجاعة وجسارة، الآن وقد انفجرت المسألة وبدأت المعركة فعليًّا. الانتظار هو ما كان يرهق الأعصاب، رؤية فكّ سايمون يبرز شيئًا فشيئًا، ولمس اللهفة إلى العنف تشتدّ في صوته. «قلت لنا إنّ حارسًا تعرّض للضرب. قد يكون أيّ شخص تكلّم. لم نكن نحن.»

«إيّاك أن... أيّها القذر الوضيع... كسرت أصبع قدمي اللعين!» صاح سايمون لاهثًا قبل أن يستلقي على أريكة وهو يمسّد قدمه. بدا وكأنّه يتوقّع منهم التعاطف معه.

تصوّر آندرو نفسه يرفع مسدّسًا ويطلق النار عليه مصوّبًا على وجهه، ثمّ يراقب ملامحه تتفجّر ودماغه يتطاير شظايا في أرجاء الغرفة.

«وها هي بولين تحيض مرّة جديدة!» صاح سايمون ببول الذي كان يحاول احتواء الدم الذي يسيل من أنفه وينساب من بين أصابعه. «ابتعد عن السجّادة! ابتعد عن السجّادة اللعينة، أيّها المخنّث التافه!»

سارع بول إلى الخروج من الغرفة. ضغط آندرو بطرف قميصه على فمه الذي كان يؤلمه.

«ماذا عن الصفقات خلسة في العمل؟» قالت روث منتحبة. كان خدّها الذي لكمها عليه محمرًا، والدموع تقطر من ذقنها. يكره آندرو أن يراها ذليلة ومثيرة للشفقة كما هي عليه الآن. لكنّه في الوقت نفسه يكرهها لأنّها وضعت نفسها في هذا المأزق، في حين أنّ أيّ أبله لكان لاحظ... «تتحدّث الرسالة عن الصفقات لقاء أموال نقديّة. شيرلي لا تعلم بها. كيف يمكن أن تكون على علم بها؟ هذا من فعل أحدٍ في المطبعة. نبّهتك سيمو، نبّهتك ألّا تتعاطى مثل هذه الصفقات، فهي لم تجلب سوى القلق والخوف إلى...»

«لم لا تصمتين بدل أن تتذمّري، أيّتها البقرة اللعينة؟ لم تجدي أيّ مانع في إنفاق هذه الأموال!» صرخ سايمون وفكّه ينفر مجدّدًا. كان آندرو يودّ أن يصيح بوالدته أن تلزم الصمت. كانت تثرثر في حين أن أبلهًا كان ليَعي أنّ عليه عدم التفوّه بكلمة، بينما تصمت حين يجدر بها أن تتكلّم. لم تتعلّم شيئًا طوال هذه السنين، لم تتمكّن يومًا من استباق الأمور.

خيّم الصمت لبرهة. مسحت روث عينيها بظهر يدها وهي تنشق بشكل متقطّع. أمسك سايمون أصبع رجله، كازًّا على أسنانه، مطلقًا صفيرًا وحفيفًا وهو يتنفّس. لعق آندرو الدم عن شفته المتورّمة، أحسّ بوخز الجرح.

«اللعنةّ! هذه المسألة ستكلّفني وظيفتي»، قال سايمون وهو يقلّب النظر كالمجنون في الغرفة، وكأنّه يبحث في زواياها عن شخص لم يضربه بعد. «كانوا يتكلّمون أساسًا عن تسريح موظّفين، وها هي الذريعة تقدّم لهم جاهزة. هذه المرّة سوف...» رمى بضربة المصباح عن الطاولة الصغيرة الموضوعة إلى جانب الأريكة، لكنّه تدحرج على الأرض من دون أن يتحطّم، فانحنى ولمّه، اقتلع الشريط الكهربائيّ من المقبس في الحائط، ورماه على آندرو الذي تفاداه.

«اللعنة! من الذي تكلّم؟» صرخ سايمون فيما تحطّم المصباح على الجدار. «هناك وضيع لعين تكلّم!»

«لا بدّ أن يكون شخص حقير من المطبعة!» صاح آندرو بدوره. كانت شفته منتفخة، تنبض ألمًا، وكأنّها قطعة ليمونة. «هل تظنّ فعلًا أنّنا... ألا تعتقد أنّنا تعلّمنا بعد كلّ هذا الوقت أن نقفل فمنا؟»

تهيّأ لآندرو أنّه يحاول فهم ما يدور في رأس حيوان مفترس. بوسعه رؤية العضلات تختلج في فكّ والده، لكن بوسعه أيضًا أن يحزر أنّ سايمون يفكّر في الكلام الذي قاله له.

«متى وضعوا الرسالة على الموقع؟» زعق بوجه روث. «انظري، هيّا! ما هو التاريخ المدوّن عليها؟»

حملقَت روث في الشاشة وهي لا تزال تنشج. لم تكن ترى جيّدًا بدون نظّارتَيها اللتَين تحطّمتا.

«الخامس عشر من الشهر» همست.

«الخامس عشر... يوم الأحد»، قال سايمون. «الأحد، أليس كذلك؟»

لم يصحّح له أيّ من روث وآندرو. لم يسع آندرو أن يصدّق كيف إنّ الحظّ حالفه، لكنّه في الوقت نفسه لم يكن يعتقد أن ذلك سيدوم.

«الأحد»، تابع سايمون. «بوسع أيّ كان في يوم أحد... اللعنة! قدمي!» صاح وهو ينهض بصعوبة ويعرج جارًّا ساقه خلفه بشكل مبالغ به، متوجّها صوب روث. «ابتعدي عن طريقي!»

وثبَت عن الكرسي وراقبته وهو يقرأ الرسالة مرّة جديدة. كان ينشق باستمرار مثل بهيمة لفتح مجاريه التنفسيّة. خطر لآندرو أنّ بوسعه أن يكبّل يدَي والده وهو جالس هناك، لو كان في متناوله سلك.

«هذا من فعل أحد في المطبعة» أعلن سايمون وكأنّه توصّل للتوّ إلى هذا الاستنتاج، وكأنّه لم يسمع زوجته وابنه يردّدان له الفرضيّة ذاتها. وضع يديه على لوحة المفاتيح والتفت نحو آندرو. «كيف أتخلّص من كلّ هذا؟»

«ماذا؟»

«أنت تدرس الكمبيوتر اللعين! كيف أمحو كلّ هذا من هنا؟»

«لا يمكنك أن... لا يمكنك ذلك»، قال آندرو. «لا بدّ أن تكون مدير الموقع لتتمكّن من القيام بذلك.»

«في هذه الحالة، تفضّل، إلعب دور المدير»، قال سايمون وهو يقفز ناهضًا عن الكرسي ويشير إلى آندرو أن يجلس محلّه.

«لا يمكنني أن أجعل نفسي المدير»، قال آندرو. كان يخشى أن يكون سايمون يتهيّأ لجولة عنف ثانية. «ينبغي من أجل ذلك إدخال اسم المستخدم وكلمة السرّ المناسبين.»

«وجودك في هذا المنزل مجرّد إهدار لعين للهواء!»

دفع سايمون ابنه بضربة في وسط صدره وهو يعبر أمامه مجدّدًا جارًّا ساقه، فسقط آندرو إلى الخلف، على حافّة المدفأة.

«اعطني الهاتف!» صاح بزوجته وهو يجلس في الأريكة.

تناولت روث الهاتف وأعطته لسايمون الذي انتزعه من يدها وراح يضرب على الأزرار طالبًا أحد الأرقام.

وقف آندرو وروث ينتظران بصمت فيما اتّصل سايمون أوّلًا بجيم، ثمّ تومي، شريكَيه في ضروب الاحتيال في المطبعة. أفرغ سايمون غضبه وشكوكه حيال شريكيه على الهاتف في جمل مقتضبة لاذعة تتخلّلها شتائم.

لم يعد بول إلى الصالون. ربّما لا يزال يحاول وقف النزيف من أنفه، لكنّ الأرجح أنّه خائف من العودة. وجد آندرو أنّ في تصرّف شقيقه قلّة احتراز. من الأضمن دائمًا عدم الخروج إلّا بعد الحصول على إذن من سايمون.

أنهى سايمون اتّصالاته، ثمّ مدّ الهاتف لروث بدون أن يقول لها كلمة. تناولته وقطعت الغرفة مسرعة لوضعه على الجهاز مجدّدًا.

جلس سايمون يفكّر، وإصبع قدمه المكسور تنبض ألمًا. كان يتصبّب عرقًا أمام نار المدفأة، يتحرّق حنقًا وعجزًا. أوسع زوجته وابنه ضربًا للتوّ، لكنّه لم يكن يكترث البتّة، لم يكن لذلك أيّ وزن في خضمّ الأفكار التي تجول في باله: ثمّة شيء فظيع حصل له، فصبّ سخطه بشكل طبيعيّ على مَن هم في جواره المباشر. هكذا تسير الحياة. وفي مطلق الأحوال، فإنّ العاهرة الحمقاء روث اعترفت بأنّها أخبرت شيرلي...

كان سايمون يبني في رأسه تسلسله الخاصّ للأدلّة والوقائع، وفق تصوّره لما حصل. ثمّة حقير ما (يَشتبه في أنّه سائق الرافعة ذاك الذي كان يجترّ علكته، والذي جنّ جنونه حين ابتعد سايمون مسرعًا في سيّارته وتركه في الحقول) أخبر آل موليسون بأمره (وما يعزّز هذه الفرضيّة بمعنى ما، ولو

أنّ الرابط يفتقر إلى المنطق، إقرار روث بأنّها ذكرت الكمبيوتر لشيرلي)، ومن ثمّ قاموا (آل موليسون، المؤسّسة، الخبثاء الحقيرون، الحرّاس الساهرون على أبواب السلطة) بوضع هذه الرسالة على موقعهم الإلكتروني (تلك البقرة العجوز شيرلي هي التي تدير الموقع، ما يمهر النظريّة برمّتها بختم الحقيقة).

«إنّها صديقتك اللعينة»، قال سايمون لزوجته التي كانت شفتاها ترتجفان ووجهها مبلّلًا بالدموع. «إنّها تلك الحقيرة شيرلي. هذه فعلتها. تقذفني بقذارة ما، حتّى تبعدني عن طريق ابنها. هي التي تقف خلف كلّ هذا.»

«لكن سيمو...»

اخرسي، فقط اخرسي، يا لك من حمقاء ثرثارة، قال آندرو في نفسه.

«ما زلت تقفين إلى جانبها؟ لا أصدّق!» زمجر سايمون متحفّزًا للنهوض مجدّدًا.

«لا!» صرخت روث بصوت حادّ. عاد واسترخى في الكنبة، مسرورًا لعدم اضطراره إلى الوقوف بكلّ وزنه على قدمه التي كانت تؤلمه.

فكّر أنّ إدارة مطبعة هاركورت- والش لن تكون راضية عن قصّة الصفقات هذه المعقودة خلسة. لا يستبعد حتّى أن تحضر الشرطة اللعينة للتقصّي بشأن الكمبيوتر. سيطرت عليه رغبة في القيام بتحرّك على وجه السرعة.

«أنت»، قال مشيرًا إلى آندرو، «افصل هذا الكمبيوتر عن الكهرباء. افصله بالكامل، فكّ كلّ الأسلاك، كلّ شيء. سوف تأتي معي.»

6

كلّ ما ننكره، كلّ ما نكتمه، كلّ ما نخفيه ونموّهه.

غمرت مياه نهر أور الموحلة حطام الكمبيوتر المسروق الذي ألقي في منتصف الليل من أعلى الجسر الحجريّ القديم. ذهب سايمون إلى العمل

عارجًا على إصبع قدمه المكسورة، وأخبر الجميع بأنّه انزلق في ممرّ الحديقة. وضعت روث مكعّبات من الثلج على كدماتها وأخفتها تحت طبقة كريم أساس من أنبوب قديم لديها، مرغتها فوقها بيد خرقاء. كست قشرة من الدم المتخثّر شفة آندرو فبدا مثل داين تالي، ونزف أنف بول مجدّدًا في الحافلة فهرع إلى قاعة التمريض ما إن وصل إلى المدرسة.

كانت شيرلي موليسون تتسوّق في يارفيل، ولم تردّ على اتّصالات روث المتكرّرة حتى وقت متأخر من بعد الظهيرة. في هذه الأثناء، كان ابنا روث غادا من المدرسة. استمع آندرو إلى المكالمة من طرف واحد وهو يقف على الدرج أمام الصالون. كان يعرف أنّ روث تحاول معالجة المشكلة قبل أن يعود سايمون إلى المنزل، علمًا منها بأنّه قادر تمامًا على انتزاع السمّاعة منها وشتم صديقتها.

«... مجرّد تلفيقات كاذبة لا أساس لها من الصحّة»، قالت بصوت بشوش، «لكنّنا سنكون ممتنّين لك شيرلي إن كان بوسعك إزالتها عن الموقع.»

علت وجهه تكشيرة كادت تشقّ من جديد الجرح على شفته. كان يكره أن يسمع والدته تطلب خدمة من تلك المرأة. في هذه اللحظة بالذات، شعر باستياء غير منطقيّ لكون الرسالة لا تزال على الموقع، ثمّ تذكّر أنّه هو من كتبها، متسبّبًا بالمشكل برمّته، الكدمات على وجه والدته، الجرح على شفته، والرعب المسيطر على المنزل ترقّبًا لعودة سايمون.

«إنّني أفهم جيّدًا أنّ لديك الكثير من المشاغل...» قالت روث مداهنة بجبن، «لكن بوسعك أن تتفهّمي كم يمكن أن يضرّ ذلك بسايمون، إن اعتقد الجميع بأنّه...»

تلك كانت النبرة التي تعتمدها روث مع سايمون في المرّات النادرة التي تشعر فيها بأنّها مضطرّة إلى مواجهته، فكّر آندرو. نبرة خانعة، متأسّفة، خجولة. لماذا لم تطالب والدته من المرأة ببساطة أن تزيل الرسالة فورًا عن الموقع؟ لماذا تعمد دائمًا إلى التزلّف وتقديم الاعتذارات؟ لماذا لم تترك والده؟

لطالما اعتبر روث شخصًا قائمًا بحدّ ذاته بمعزل عن الآخرين، شخصًا طيّبًا ونقيًّا. حين كان طفلًا، كان والداه يبدوان له على طرفَي نقيض، مثل

الأبيض والأسود، هو شرّير ومخيف، وهي فاضلة ورقيقة. لكنّه مع الوقت اشتدّ صرامة تجاهها في ذهنه. عماها الطوعيّ، دفاعها المستميت عن والده، ولاؤها الذي لا يتزعزع لمعبودها الزائف.

سمعها آندرو تضع السمّاعة على الهاتف، فنزل الأدراج المتبقّية محدثًا جلبة والتقاها وهي خارجة من الصالون.

«كنت تتكلّمين مع المرأة المشرفة على الموقع؟»

«أجل»، قالت روث بصوت سئم متعب. «سوف تسحب ما قيل عن والدك عن الموقع. آمل أن تنتهي المسألة بذلك.»

كان آندرو على يقين بأنّ والدته ذكيّة، وقادرة تمامًا على تدبّر أمرهها في المنزل أكثر بكثير من والده الذي لم يكن يحسن استخدام يديه. كان بوسعها كسب معيشتها وحدها.

«لماذا لم تسحب التعليق مباشرة إن كانت فعلًا صديقتك؟» سألها وهو يتبعها إلى المطبخ. لأوّل مرّة في حياته، اختلطت شفقته على روث بمشاعر إحباط وحنق.

«كانت منشغلة» أجابت روث بنبرة جافّة.

كانت إحدى عينيها حمراء جرّاء لكمة سايمون.

«هل قلتِ لها إنّها قد تواجه متاعب لإبقائها كلامًا مسيئًا على الموقع، إن كانت هي من يشرف على ما ينشر عليه؟ رأينا هذه الأمور في صفّ ال...»

«قلت لك آندرو إنّها ستسحبه» قالت روث بحنق.

لم تكن تخشى أن تغضب أمام ابنيها. هل لأنّهما لم يكونا يضربانها؟ أم لسبب آخر؟ كان آندرو واثقًا بأنّ وجهها يؤلمها بقدر ما يؤلمه وجهه هو.

«إذًا من برأيك كتب هذه الأمور عن والدي؟» سألها بجسارة وتحدٍّ.

التفتت لتواجهه بشراسة.

«وكيف لي أنا أن أعرف؟ ما أعرفه هو أنّ من فعل هذا، أيًا يكن، هو شخص حقير جبان. الكلّ لديه ما يودّ إخفاءه. ما رأيك لو نشر والدك على الإنترنت بعض ما يعرفه هو عن الآخرين؟ لكنّه لن يفعل أمرًا كهذا.»

«سيكون ذلك مخالفا لمبادئه الأخلاقيّة، أليس كذلك؟» قال آندرو.

«أنت لا تعرف والدك بالقدر الذي تظنّ!» صاحت به والدموع تملأ عينيها. «اخرج، اذهب، انصرف لفروضك المدرسيّة، اعمل ما تشاء، لا يهمّني. فقط اخرج من هنا!»

عاد آندرو إلى غرفته وهو يتضوّر جوعًا، وقد توجّه أساسًا إلى المطبخ لتناول بعض الطعام. بقيَ ممدّدًا في سريره لوقت طويل، يتساءل ما إذا كان ارتكب خطأً فظيعًا بنشره ذلك التعليق على الموقع. إلى أيّ حدّ ينبغي أن يبرح سايمون أحد أفراد العائلة ضربًا، قبل أن تدرك والدته أنّه يفتقر إلى أيّ نوع من المبادئ الأخلاقيّة؟

في هذه الأثناء، على مسافة ميل من هيلتوب هاوس، كانت شيرلي موليسون تحاول أن تتذكّر كيف تمحو تعليقًا عن لوح الرسائل. نادرًا ما يتلقّى الموقع تعليقات، إلى حدّ أنّها تبقيها منشورة عادة لمدّة تصل إلى ثلاث سنوات. عثرت، في نهاية المطاف، في خزانة الملفّات في زاوية الغرفة على دليل إرشادات لإدارة الموقع، أعدّته لنفسها حين باشرت العمل عليه. بعد عدّة محاولات متعثّرة، نجحت في حذف الاتّهامات الموجّهة إلى سايمون. قامت بذلك فقط لأنّ روث التي تكنّ لها الودّ طلبته منها. غير أنّها لم تكن تشعر بأيّ مسؤوليّة شخصيّة في هذه القضيّة.

قد تكون شيرلي محَت التعليق عن الموقع، لكنّ هذا لا يكفي لمَحوِه من ذهن الذين يتابعون بشغف واهتمام السباقَ المحمومَ على منصب باري. بارميندر جاواندا نسخت الرسالة حول سايمون برايس على حاسوبها، وكانت تعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا، مدقّقة في كلّ من جملها وتعابيرها. مثل طبيب شرعي يتفحّص أليافًا على جثة، أخذت تبحث في الرسالة عن آثار الحمض النوويّ الأدبيّ الخاصّة بهاورد موليسون. لا شكّ في أنه بذل كلّ ما في وسعه لتمويه كلّ ما يميّز أسلوبه الشخصيّ في التعبير، غير أنها كانت واثقة بأنّها لمست ميله إلى الحذلقة والتفخيم في عبارتي «من المؤكّد أنّ السيّد برايس خبير في مسألة تقليص النفقات» و«سوف يجني منفعة من علاقاته الكثيرة والمفيدة».

«ميندا، أنت لا تعرفين سايمون برايس»، قالت تيسا وول. كانت تيسا وكولين يتناولان العشاء مع بارميندر وزوجها فيكرام في مطبخ منزل أولد

فايكريج، وقد فاتحتهما بارميندر بمسألة التعليق على صفحة المجلس حالما عبَرا عتبة بيتها. «إنّه رجل مقيت إلى أقصى حدّ، ومن المحتمل أن يكون أغضب العديد من الناس. بصراحة، لا أعتقد أنّ هذا من فعل هاورد موليسون. لا أتصوّره يقدم على شيء فاضح كهذا.»

«لا تخطئي، تيسا» أجابت بارميندر. «هاورد يمكن أن يفعل أيّ شيء لضمان انتخاب مايلز. انتظري وسوف ترين. هدفه المقبل سيكون كولين.»

رأت تيسا مفاصل أصابع كولين تبيَضّ وهو يمسك بشوكته. تمنّت لو تفكّر بارميندر قليلًا قبل أن تتكلّم. فهي تعرف أكثر من أيّ كان كيف هو، وقد وصفت له بنفسها البروزاك.

كان فيكرام جالسًا عند طرف الطاولة، صامتًا. كانت ابتسامة على قدر من السخرية تعلو عفويًا وجهه الفاتن. لطالما أحسّت تيسا بالرهبة في حضور الطبيب الجرّاح، كما في حضور أيّ رجل وسيم. وبالرغم من الصداقة الوثيقة التي كانت تربطها ببارميندر، فهي بالكاد تعرف فيكرام الذي كان يعمل حتّى ساعة متأخّرة من المساء، وقلّما كان يشارك مثلها في مسائل باغفورد.

«أخبرتك بشأن جدول الأعمال، أليس كذلك؟» تابعت بارميندر. «برنامج الاجتماع المقبل؟ إنّه يطرح مذكّرةً بشأن الحقول، يريد منّا أن نرفعها إلى مجلس يارفيل خلال جلسة مراجعة الحدود، وكذلك قرارًا يرغم عيادة معالجة الإدمان على مغادرة المبنى. إنّه على عجلة من أمره، يريد تمرير المشروعين طالما أنّ مقعد باري شاغر.»

كانت تنهض باستمرار عن الطاولة، تشغل نفسها بفتح خزائن أو بجلب أغراض أكثر ممّا تحتاج إليه فعليًا، وهي تائهة في أفكارها، عاجزة عن التركيز. وقفت مرّتين بدون أن تذكر السبب، فعادت وجلست خائبة. كان فيكرام يراقبها من تحت رموشه الكثّة، يتابع كلّ تنقّلاتها.

«اتّصلت بهاورد الليلة الماضية»، روَت بارميندر، «وقلت له إنّه يجدر بنا التريّث إلى أن يكتمل عدد أعضاء المجلس مجدّدًا حتّى نصوّت على قضايا مهمّة كهذه. ضحك وقال إنّه لا يمكننا الانتظار. قال إنّ يارفيل بحاجة إلى الاطّلاع على وجهات نظرنا، مع اقتراب موعد مراجعة الحدود. ما يخشاه

في الواقع هو أن يفوز كولين بمقعد باري، لأنّه في هذه الحالة لن يكون من السهل أن يفرض علينا مشاريعه. وجّهتُ رسائل إلكترونيّة إلى كلّ من أعتقد أنّه سيصوّت لنا، لأرى إن كان بوسعهم ممارسة الضغط عليه لتأجيل عمليّة التصويت حتّى الاجتماع اللاحق...»

«شبح باري فيربراذر» أضافت بانفعال شديد. «القذر! من غير الوارد أن يستغلّ وفاة باري ليهزمه. لن أسمح بذلك.»

خُيّل لتيسا أنّها رأت شفتَي فيكرام تختلجان. الحرس القديم في باغفورد يغفر بصورة عامة لفيكرام الجرائم التي لا يغفرها في المقابل لزوجته: البشرة الداكنة، الذكاء والثراء (وكلّها أمور، برأي شيرلي موليسون، تفوح منها رائحة التبجّح). لم يكن ذلك منصفًا البتّة برأي تيسا. بارميندر تشارك بشكل نشط في كلّ نواحي الحياة في باغفورد: الحفلات المدرسيّة، وجبات الطعام الجماعيّة دعمًا لقضيّةٍ ما، العيادة المحليّة ومجلس البلدة. ولقاء جهودها هذه، لم تجنِ سوى ازدراءٍ بلا رحمة من قِبَل سكّان باغفورد الأصليّين. وفي المقابل، كان هؤلاء يتملّقون فيكرام، يغدقون عليه بالثناء ويتحدّثون عنه برضى أهل الدار، رغم أنّه نادرًا ما انضمّ إلى أيّ مناسبة تعنيهم أو شارك في إعدادها.

«موليسون مصاب بجنون العظمة»، قالت بارميندر وهي تدفع الطعام بعصبيّة في صحنها. «متنمّر متغطرس ومصاب بجنون العظمة.»

وضع فيكرام سكّينه وشوكته في عرض طبقه واستلقى إلى الخلف في كرسيه.

«في هذه الحالة»، سأل، «لماذا يكتفي برئاسة مجلس البلدة؟ لماذا لم يحاول الدخول إلى مجلس بلدية المنطقة؟»

«لأنّه يعتبر باغفورد محور الكون» أجابت بارميندر بنبرة قاطعة. «أنت لا تفهم: لن يقبل بمبادلة رئاسة مجلس بلدة باغفورد حتّى برئاسة الوزراء. في مطلق الأحوال، ليس بحاجة فعلًا إلى عضويّة في مجلس يارفيل، فلديه هناك أوبري فاولي لدعم أجندته. لقد تهيّأ لمراجعة الحدود. إنّهما ينسّقان ويتعاونان معًا.»

افتقدت بارميندر باري، وكأنّه شبح يطوف حول طاولة المطبخ. لكان شرح المسألة بكاملها لفيكرام، بل وجعله يضحك وهو يفعل ذلك. كان باري بارعًا في تقليد أسلوب هاورد في الكلام، مشيته المترنّحة المتمايلة، والارتجاعات المَعِديّة التي كانت تقاطعه بشكل مباغت.

«أقول لها باستمرار إنّها تعرّض نفسها لضغط شديد» قال فيكرام لتيسا التي شعرت بالهول إذ أحسّت بوجهها يحمرّ قليلًا حين حدّق إليها بعينيه الداكنتين. «هل علمت بهذه الشكوى السخيفة، المرأة المسنّة المُصابة بنفاخٍ رئويّ؟»

«أجل، تعلم تيسا بها. الجميع على علم بها. هل لا بدّ لنا من مناقشة هذه المسألة حول مائدة العشاء؟» قالت بارميندر باستياء وهي تقفز ناهضة عن كرسيها، وتباشر نزع الأطباق عن الطاولة.

أرادت تيسا أن تساعدها، لكنّ بارميندر أمرتها بنبرة غاضبة لا تقبل الجدل أن تبقى جالسة. وجّه فيكرام لتيسا ابتسامة تضامن طفيفة اختلجت لها معدتها. لم يسعها إلّا أن تتذكّر فيما بارميندر تنشغل بعصبيّة حول الطاولة، أنّ زواج بارميندر وفيكرام كان زواجًا مدبّرًا.

(«كلّ ما تقوم به العائلة هو تعريف الشخصين أحدهما إلى الآخَر» قالت لها بارميندر في بداية صداقتهما، في موقع الدفاع عن النفس، وقد استاءت من تعبير رأته على ملامح تيسا. «لا أحد يُرغَم على الزواج، كوني أكيدة.»

لكنّها في مناسبات أخرى تحدّثت عن الضغط الهائل الذي مارسته عليها والدتها لدفعها إلى الزواج.

«جميع الأهالي السيخ يريدون أن يتزوّج أولادهم. إنّه هوس حقيقيّ»، قالت بارميندر بمرارة.)

رأى كولين طبقه يُنتزَع من أمامه، ولم يأسَف. فالغثيان الذي كان يقلب معدته ازداد حدّة منذ أن وصل مع تيسا. لو كان في فقّاعة من الزجاج السميك، لما كان شعر بنفسه معزولًا أكثر ممّا كان وهو مع الثلاثة الأخرين حول الطاولة. كان ذلك إحساسًا أليفًا، إحساسًا كثيرًا ما راوده، بأنّه يدور في

كرة عملاقة من الهموم، تحاصره وتطبق عليه، فيما يشاهد كوابيسه المروّعة تتحقّق أمام عينيه، حاجبةً العالم الخارجيّ.

لم تكن تيسا تساعده على الإطلاق. كانت تتعمّد البرودة حياله، ولا تُبدي له أيّ تعاطف في الحملة التي يخوضها لكسب منصب باري. والهدف من هذا العشاء أساسًا كان أن يتمكّن كولين من استشارة بارميندر بشأن المنشورات الصغيرة التي صمّمها للترويج لترشيحه. كانت تيسا ترفض الضلوع في المسألة، وتقطع الحديث كلّما تطرّق إلى الخوف الذي يغمره شيئًا فشيئًا، فتحرمه من مخرج لتنفيس قلقه.

كان كولين يحاول أن يماشيها في فتورها، فيدّعي بأنّه لا يرزح تحت وطأة هذا الضغط الذي فرضه على نفسه. لم يخبرها عن الاتّصال الهاتفيّ الذي تلقّاه من جريدة يارفيل والجوار في اليوم نفسه في المدرسة. أرادت الصحافيّة أن يكلّمها على كريستال ويدون.

هل إنّه لمسها؟

قال كولين للمرأة إنّ المدرسة تمتنع عن مناقشة مسألة أيّ من تلاميذها وأنّه ينبغي المرور عبر عائلة كريستال للوصول إليها.

«لقد قابلت كريستال، ردّ الصوت على الخطّ، كلّ ما أريد هو الحصول منك على...»

لكنّه أغلق الخطّ، وطغى الرعب على كلّ ما هنالك.

لماذا يريدون أن يكلّموه على كريستال. لماذا اتّصلوا به؟ هل فعل شيئًا ما؟ هل لمسها؟ هل اشتكت؟

علّمه الطبيب النفسيّ ألّا يحاول السعي لتأكيد مثل هذه الأفكار أو معارضتها. كلّ ما يفترض به أن يفعل هو الإقرار بوجودها، ثمّ المضيّ في حياته بشكل طبيعيّ. لكنّه كان يشعر كمن يحاول عدم مسّ مكان من جلده يستحكّه بشكل مؤلم. ذُهِل لنشر أسرار سايمون برايس القذرة علنًا بهذه الطريقة على موقع المجلس الإلكترونيّ. ذلك الخوف من الانكشاف الذي سيطر على القسم الأكبر من حياة كولين، بات له الآن وجه. وجه ملاك مسنّ طيّب الملامح، عقله الجهنّميّ يغلي تحت خصلات رماديّة متجعّدة تعلوها قبّعة صيد، وخلف عينين

جاحظتين فضوليّتين. يتذكّر باستمرار الأخبار التي كان يرويها باري عن صاحب متجر المأكولات الفاخرة وذهنه الاستراتيجيّ بامتياز، وعن شبكة التحالفات المتداخلة والمتشعّبة التي تربط بين أعضاء مجلس بلدة باغفورد الستة عشر.

غالبًا ما تخيّل كولين كيف سيكتشف أنّ السباق انتهى بالنسبة إليه. مقالة تنطوي على تلميحات متكتّمة في الجريدة، وجوه تشيح عنه حين يدخل متجر موليسون ولوي. مديرة المدرسة تستدعيه إلى مكتبها لإجراء حديث هادئ بسرّية تامة. تصوّر سقوطه ألف مرّة ومرّة، إحساسه بالعار مفضوحًا، معلّقًا حول عنقه مثل جرسٍ مجذوم، لن يكون بوسعه إخفاؤه. سوف يطرد من وظيفته. قد ينتهي حتّى في السجن.

«كولين!» نادته تيسا بصوت منخفض للفت انتباهه. كان فيكرام يعرض عليه كأسًا من النبيذ.

هي تعرف ما يجول خلف ذلك الجبين العريض المتقوّس. لم تكن على علم بالتفاصيل، لكنّ القلق بقي العنوان العامّ الذي لم يتغيّر على مرّ السنين. تعرف أنّ كولين لا يسعه أن يقاوم هذا الشعور، هكذا هو. قرأت قبل سنوات بيت شعر لوليام باتلر ييتس بدا لها عين الصواب: «ثمّة رحمة يعصى الكلام عن التعبير عنها، كامنة في قلب الحب.» ابتسمت عند قراءة هذه الكلمات ووضعت علامة على الصفحة، لأنّها على يقين بأنّها تحبّ كولين، وبأنّ الرأفة تحتلّ الحيّز الأكبر من هذا الحبّ.

لكنّها أحيانًا تفقد صبرها. هي أيضًا بحاجة بين الحين والآخر إلى مَن يهتمّ بها قليلاً ويطمئنها. أصيب كولين بنوبة هلع متوقّعة حين أعلنت له أنّها تلقّت نتائج فحوصها وأنّه تمّ تشخيص إصابتها بداء السكّري من النمط الثاني. لكن ما أن أقنعته بأنّها ليست مهدّدة بموت وشيك، حتّى نسي الموضوع بسرعة مدهشة، ليعود ويتفرغ كليًا لخططه الانتخابيّة.

(في ذلك الصباح، قامت لأوّل مرّة عند الفطور بفحص نسبة السكّر في دمها، مستخدمة جهاز القياس الخاصّ بذلك، ثمّ أخرجت حقنة الإنسولين وغرزتها في بطنها. شعرت بألم لم تشعر به حين حقنتها بارميندر بيديها الخفيفتين.

تناول فاتس كوب الحبوب المقرمشة من أمامه واستدار في كرسيه حتّى لا يراها، فدلق الحليب على الطاولة ولطّخ كمّ قميصه المدرسيّ وأرض المطبخ. نَهَرَ كولين فاتس باستياء حين بصق هذا الأخير الحبوب التي كان يمضغها في الكوب وسأل والدته «هل أنّك مضطرّة فعلًا إلى القيام بهذا على طاولة الفطور اللعينة؟»

«لا تكن عديم التهذيب ومقرفًا إلى هذا الحدّ!» صاح به. «اجلس جيّدًا! ونظّف كلّ هذه القذارة التي نثرتها! كيف تجرؤ وتكلّم والدتك بهذه اللهجة؟ اعتذر على الفور!»

سحبت تيسا الإبرة أسرع ممّا ينبغي، فجرحت نفسها وأخذت تنزف.

«آسف تيس لإحساسي بالغثيان حين أراك تحقنين نفسك عند الفطور»، قال فاتس من تحت الطاولة وهو يمسح الأرض بمحارم المطبخ.

«والدتك لا تحقن نفسها، بل هي مريضة»، صرخ كولين. «ثم توقّف عن مناداتها تيس!»

«أعرف أنّك لا تحبّ الحقن ستو»، قالت تيسا. كانت على شفير البكاء، تتألّم وتشعر بالضياع والغضب تجاه الاثنين، وهي مشاعر لم تكن فارقتها في تلك الأمسية.)

تساءلت تيسا لماذا لم تكن بارميندر تقدّر لفيكرام اهتمامه بها وخوفه عليها. كولين لم يلاحظ مرّة أنّها تشعر بالإجهاد. لعلّ في مسألة الزيجات المدبّرة هذه خير، قالت تيسا لنفسها ناقمة. لو كان الأمر يعود لوالدتي، بالتأكيد إنّها لم تكن لتختار كولين زوجًا لي...

وزّعت بارميندر أكوابًا من مكعّبات الفاكهة على الطاولة بدل الحلوى. تساءلت تيسا بشيء من الامتعاض ماذا كانت ستقدّم لو لم يكن هناك ضيف مصاب بالسكّري. لكنّها شعرت بالعزاء حين تذكّرت لوح الشوكولاتة الذي كان ينتظرها في برّاد مطبخها.

في هذه الأثناء كانت بارميندر، التي تكلّمت خمس مرّات أكثر منهم جميعًا طوال العشاء، قد انتقلت للثرثرة والتذمّر من ابنتها سوكفيندر. سبق

أن أخبرت تيسا عبر الهاتف كيف إنّ ابنتها غدرت بها، لكنّها عادت وسردت القصّة مجدّدًا بحذافيرها على مائدة العشاء.

«نادلة لدى هاورد موليسون! لا أفهم، فعلًا لا أفهم ما الذي خطر ببالها. لكنّ فيكرام...»

«إنّهم لا يفكّرون بكلّ بساطة، ميندا»، قال كولين، خارجًا عن صمته الطويل. «هكذا هم الأحداث. لا يأبهون. جميعهم هكذا.»

«هذا مجرّد هراء، كولين»، قاطعته تيسا بنبرة جافّة. «ليسوا جميعهم هكذا. سيكون من المفرح لنا كثيرًا لو يخرج ستو ويعثر على وظيفة ليوم السبت، علمًا أنّه ليس هناك أدنى فرصة بأن يحصل ذلك.»

«... لكنّ فيكرام لا مانع لديه»، تابعت بارميندر، متجاهلةً مداخلة تيسا. «لا يرى أيّ ضير في ذلك، أليس هذا صحيحًا؟»

ردّ فيكرام بدون تردّد: «إنّها خبرة عمل. فهي لن تذهب على الأرجح إلى الجامعة، وهذا ليس عارًا. الجامعة ليست للجميع بشكل حتميّ. يمكنني أن أرى سنونو متزوّجة في سنّ مبكّرة وسعيدة في حياتها.»

«نادلة...»

«وإن يكن؟ لا يمكن أن يكونوا كلّهم أكاديميّين.»

«لا، هذه صفة لا تنطبق بالتأكيد عليها» قالت بارميندر وهي تكاد ترتجف من شدّة الغضب والتوتّر. «علاماتها في المدرسة مروّعة تمامًا... لا تطلّعات، لا طموح على الإطلاق... نادلة! - لنكن واقعيّين، فأنا لن أتمكّن من الالتحاق بجامعة... - لا، بالتأكيد أنّك لن تفعلي إن بقيت على مثل هذا الموقف... عند هاورد موليسون... آه! لا بدّ أنه شعر بالجذل... ابنتي أنا تتوسّل إليه من أجل وظيفة. ما الذي خطر ببالها؟ ماذا خطر ببالها؟»

«لن تكوني راضية إن عمل ستو لحساب شخص مثل موليسون»، قال كولين لتيسا.

«لن يهمّني»، أجابت. «سأفرح كثيرًا إذا ما أثبت حدًّا أدنى من الإلتزام بعمل. كلّ ما يهمّه على ما أرى هو الألعاب على الكمبيوتر و...»

لكنّ كولين لم يكن على علم بأنّ ستوارت يدخّن. توقّفت في منتصف جملتها فقال كولين: «الواقع أنّ ستوارت كان ليقدم تحديدًا على مثل هذا العمل. تقرّبه من شخص يعرف أنّنا لا نحبّه، لمجرّد معاكستنا. ذلك شيء كان ليعشقه.»

«بربّك كولين، سوكفيندر لا تتعمّد إغاظة ميندا»، قالت تيسا.

«إذًا تعتقدين أنّني غير منطقيّة؟» قالت بارميندر مستهدفة تيسا برصاص كلماتها.

«لا، إطلاقًا»، ردّت تيسا، وقد صدمت للسرعة التي انجرّا بها إلى الشجار العائليّ. «كلّ ما أقوله إنّه ليس هناك الكثير من الخيارات المتاحة للفتيان للعمل في باغفورد.»

«وما حاجتها إلى العمل أساسًا؟» سألت بارميندر، رافعةً ذراعيها إلى السماء بحنق. «ألا نعطيها ما يكفي من المال؟»

«المال الذي تكسبينه بنفسك يكون دائمًا مختلفًا، تعلمين ذلك.»

كانت كرسي تيسا مواجِهة لجدار تكسوه صور أولاد بارميندر وفيكرام. غالبًا ما جلست تيسا هنا، وعدّت الصور التي يظهر فيها كلّ من الثلاثة: ثماني عشرة صورة لجاسوانت، تسع عشرة لراجبال، وتسع لسوكفيندر. كانت هناك صورة واحدة لا غير على الجدار تحتفي بإنجاز فرديّ حقّقته سوكفيندر، هي صورة لفريق وينترداون للتجذيف يوم هزم فريق سانت آن. في ذلك اليوم وزّع باري على جميع أهالي الفتيات نسخًا مكبّرة عن هذه الصورة، وفيها تصطفّ الثماني وفي وسطهنّ سوكفيندر وكريستال ويدون جنبًا إلى جنب، وعلى وجهَيهما ابتسامة عريضة، كلٌّ منهما تضع ذراعها حول كتفي الأخرى، وتقفزان من شدّة فرحهما فتظهران بشكل مغشّى بعض الشيء.

لو كان باري هنا، لكان ساعد بارميندر على رؤية الأمور بالشكل الصحيح، فكّرت. أقام باري جسرًا بين الأمّ وابنتها، وكلتاهما كانتا تحبّانه كثيرًا.

تساءلت تيسا مرّة جديدة إلى أي مدى تغيّرت حياتها لكونها لم تنجب ابنها. هل إنّ من الأسهل عليها أن تتقبّله فردًا قائمًا بحدّ ذاته بمعزل عنها، ممّا لو أنّه كان من لحمها ودمها؟ ذلك الدم العليل المشبَع بالسكّر...

لم يعد فاتس مؤخّرًا يناديها «أمّي». وهي مرغمة على التظاهر بعدم الاكتراث، لأنّ ذلك كان يغضب كولين إلى أقصى حدّ، ولم تشأ أن تزيد الطين بلّة. لكن في كلّ مرّة كان فاتس يخاطبها باسمها «تيسا»، كانت تشعر كأنّه يغرز إبرة في قلبها.

أنهى الأربعة تناول أكواب الفاكهة وسط صمت مطبق.

7

في المنزل الأبيض الصغير المطلّ على البلدة من أعلى التلّة، كان سايمون برايس ينتظر على أحرّ من الجمر، أفكاره مضطربة كالموج. الأيّام تمرّ الواحد تلو الآخر. التعليق الاتّهامي أُزيل عن لوح الرسائل، لكنّ سايمون لا يزال مشلولًا. لم يشأ سحب ترشيحه، حتّى لا تبدو خطوته بمثابة إقرار بالذنب. لم يدقّ أيّ شرطيّ باب منزله للتقصّي بشأن الكمبيوتر. حتّى إنّ سايمون بات يشعر بشيء من الندم لرميه إيّاه عن الجسر القديم. في المقابل، لا يدري إن كانت مخيّلته تخدعه، غير أنه تهيّأ له أنّه رأى ابتسامة على وجه الرجل الجالس خلف صندوق المحاسبة في الكاراج عند أسفل التلّة، حين ناوله بطاقته الائتمانيّة، ابتسامة من اطّلع على سرّ. كانت شائعات كثيرة تسري في المطبعة بشأن تسريح موظّفين، وكان سايمون لا يزال يخشى أن تصل أصداء ذلك التعليق إلى آذان مديريه، فيغتنمون الفرصة لطردهم هو وجيم وتومي، بدون تكبّد تعويضات إقالة من الوظيفة.

كان آندرو يراقب بتوجّس، ويفقد الأمل يومًا بعد يوم. حاول أن يكشف للعالم حقيقة والده، وبدا له أنّ العالم اكتفى بهزّ كتفيه، غير آبه. تصوّر آندرو أنّ أحدًا ما في المطبعة أو في المجلس سيقف بوجه سايمون ويقول له بحزم «لا!»، إنّه غير أهل للدخول في منافسة مع مرشّحين آخرين، إنّه في غير محلّه ودون المعايير المطلوبة، ويجدر به ألّا يلحق العار بنفسه وبعائلته. لكنّ شيئًا من هذا لم يحدث. كلّ ما حصل أنّ سايمون لم يعد يتكلّم على المجلس أو

يُجري اتصالات هاتفيّة سعيًا لكسب أصوات، وأنّ المناشير الانتخابيّة التي طبعها خلسة في عمله بقيت مكدّسة في علبة كرتون عند المدخل، بدون أن يمسّها أحد.

ثمّ جاء النصر على حين غرّة، بدون سابق إنذار. كان آندرو ينزل الدرج في العتمة ليل الجمعة لجلب طعام من المطبخ، حين سمع سايمون يتكلّم على الهاتف في الصالون. بدا متوتّرًا. تسمّر آندرو في أرضه وأرهف السمع.

«... أن أسحب ترشيحي»، قال سايمون. «أجل. حسنًا، حصل تطوّر في ظروفي الشخصيّة. أجل... أجل... نعم، تمامًا. حسنًا، شكرًا.»

سمع آندرو سايمون يقفل الخطّ.

«حسنًا، انتهى الأمر»، قال سايمون لروث. «أنسحِب من المسألة برمّتها، إن كان هذا نوع القذارة الذي يمارسونه.»

سمع والدته تردّ مهمهمة، موافقة سايمون الرأي، وقبل أن يتسنّى لآندرو أن يتحرّك من مكانه، ظهر سايمون في الممشى في الأسفل، نفخ صدره ونادى الأحرف الأولى من اسم آندرو، قبل أن يتنبّه لوجوده أمامه.

«ماذا تفعل هنا؟»

كان نصف وجه سايمون في العتمة، لا يضيئه سوى بعض النور المتسرّب من الصالون.

«كنت أريد أن أشرب»، كذب آندرو. لم يكن والده يحبّ أن يتناول ابناه ما يحلو لهم من الطعام.

«ستبدأ العمل لدى موليسون في نهاية هذا الأسبوع، صحّ؟»

«نعم.»

«عظيم، إذًا اسمعني جيّدًا: أريد منك أي معلومات يمكنك جمعها بشأن ذلك الحقير، فهمت؟ كلّ الأعمال القذرة التي يمكنك نبشها. عن ابنه أيضًا، إن سمعت أيّ شيء.»

«حسنًا»، أجاب آندرو.

«وسوف أنشره على الموقع الإلكتروني اللعين»، قال سايمون وهو يعود إلى الصالون. «شبح باري فيربراذر اللعين.»

فيما كان آندرو ينتشل ما تيسّر له من المأكولات التي يمكن ألّا يتنبّه والده لاختفائها، مقتطعًا بضع شرائح من هنا، ومالئًا قبضته من هناك، كانت لازمة تتردّد بجذل في ذهنه: تمكّنتُ منك أيّها النذل، تمكّنت منك.

ها أنّه حقّق ما خطّط له تمامًا: لم يكن لسايمون مطلق فكرة عمّن حطّم طموحاته. حتّى أنّ المعتوه المسكين يطلب من آندرو أن يساعده على الانتقام. إنّه انقلاب كليّ في الموقف، بعدما ثار غضب سايمون في بادئ الأمر، حين أخبر آندرو والديه بأنّه حصل على وظيفة في متجر المأكولات الفاخرة.

«أيّها الأبله الصغير. ألم تفكّر في حساسيّتك اللعينة؟»

«عاهدت نفسي أنّني سأحاول عدم لمس المكسّرات»، أجاب آندرو.

«إيّاك أن تتذاكى معي، وجه البيتزا. ماذا سيحصل لك إن تناولت بالخطأ حبّة فستق، كما حصل في سانت توماس؟ هل تعتقد أنّنا نودّ أن نعيش من جديد كلّ الهراء الذي عشناه من قبل؟»

لكنّ روث ساندت آندرو، مؤكّدة لسايمون أنّه في سنّ تسمح له بالاحتراس والاهتمام بنفسه. وحين غادر سايمون الغرفة، سعت جاهدة لإقناع آندرو بأنّ سايمون إنّما يخشى عليه.

«الأمر الوحيد الذي يخشاه، هو أن يضطرّ إلى تفويت برنامج الهراء الذي يشاهده، مباراة اليوم ذاك، لنقلي إلى المستشفى.»

عاد آندرو إلى غرفة النوم، وجلس يلتهم الطعام الذي أحضره معه بيد، فيما ينقر باليد الأخرى رسالة نصيّة لفاتس.

كان يعتقد أنّ المسألة انتهت، والصفحة طويت من غير رجعة. لم يسبق لآندرو أن راقب الفقّاعات الصغيرة التي تتشكّل عند بدء اختمار العجينة، وتحمل في طيّاتها بذور تحوّل كيميائيّ لا مفرّ منه.

8

كان الانتقال إلى باغفورد أسوأ ما حصل لغايا بودين في حياتها. فهي لم تغادر يومًا لندن، سوى في بعض المناسبات القليلة حين زارت والدها في ريدينغ. لم يسع غايا أن تصدّق حين أعلنت لها كاي أنّها تعتزم الانتقال إلى بلدة صغيرة في جنوب غرب إنكلترا. انقضت عدّة أسابيع قبل أن تأخذ الفتاة هذا التهديد بجديّة. ظنّت في بادئ الأمر أنّها مجرّد فكرة جديدة من أفكار كاي المجنونة، مثل الدجاجتين اللتين اشترتهما لتربيتهما في حديقتهما الخلفيّة الصغيرة في هاكني، وفتَك بهما ثعلب بعد أسبوعين، أو حين خطر لها أن تعدّ مربّى في حين أنّها بالكاد تحسن الطبخ، فنجحت في إفساد نصف آنية الطبخ لديهما وتركت أثر حرق سيبقى مطبوعًا على يدها إلى الأبد.

سُلخت غايا عن أصدقاء لها منذ المدرسة الابتدائيّة، واقتُلعت من المنزل الذي عاشت فيه منذ أن كانت في الثامنة من العمر، وحُرِمَت نهايات أسبوع كانت قد بدأت تكتشف تدريجيًا خلالها كلّ ما تقدّمه المدينة من سبل اللهو والمرح. لم ينفع التوسّل، التهديد والاحتجاج، بل وجدت نفسها رغمًا عنها وسط حياة لما كان خطر لها حتّى في خيالها أن تكون موجودة. شوارع مكسوّة بالحصى، متاجر تغلق بعد الساعة السادسة، حياة اجتماعيّة محورها الكنيسة كما يبدو، حياة هادئة لا يعكّرها في الأغلب سوى زقزقة العصافير. أحسّت غايا بأنّها سقطت في فجوة وهوت في بلاد ضائعة خارج الزمن.

لطالما كانت غايا وكاي متشبّثتين الواحدة بالأخرى لا تنفصلان (والد غايا لم يعش معهما أبدًا، والعلاقتان اللتان أقامتهما كاي على التوالي في ما بعد لم تتطوّرا إلى ارتباط رسميّ)، فكانتا تتشاجران وتواسيان إحداهما الأخرى مداورة، وباتتا مع السنوات أقرب إلى شريكتين في السكن. لكن عندما كانت غايا تنظر اليوم إلى والدتها الجالسة قبالتها إلى طاولة المطبخ، لم تكن ترى سوى عدوّة لها. طموحها الوحيد كان العودة إلى لندن بأي وسيلة كانت، والانتقام من كاي بتحويل حياتها إلى جحيم من البؤس والتعاسة. لم تستطع أن تحسم ما إذا كانت أفضل طريقة للانتقام من كاي أن تفشل في كلّ امتحانات نهاية

دراستها، أو أن تنجح فيها كلّها وتحاول إقناع والدها بإيوائها حتّى تتمكّن من الانتساب إلى كليّة ثانويّة في لندن. في هذه الأثناء، كان يتحتّم عليها العيش في بلاد غريبة، حيث بات مظهرها ولهجتها عملة أجنبيّة لا يمكنها صرفها، بعدما كانا يفتحان أمامها الدوائر الإجتماعية الأكثر انغلاقًا وانتقائيّة.

لم تكن غايا تشعر بأدنى رغبة في الانتماء إلى نخبة التلاميذ الشعبيّين في وينترداون. كانت تجدهم مصدر إحراج، بلهجتهم المحليّة، وتصوّرهم المثير للشفقة لسبل الترفيه. تعمّدت التقرّب من سوكفيندر جاواندا لأكثر من سبب. فهي تريد أن تثبت لهؤلاء القوم أنّها تراهم سخفاء، كما أنّها كانت في وضع نفسيّ يجعلها تشعر بالإلفة مع أيّ شخص يبدو لها منبوذًا ومستضعفًا.

ومع موافقة سوكفيندر على العمل مع غايا نادلة في المقهى، ارتقت صداقتهما إلى مستوى مختلف. خلال حصّة علم الأحياء التالية، استرخت غايا لأوّل مرّة، وأدركت سوكفيندر أخيرًا أحد الأسباب التي جعلت هذه الفتاة الجديدة الفاتنة والمختلفة تختارها هي تحديدًا صديقة لها. تمتمت لها غايا وهي تضبط عدسة المجهر المشترك بينهما: «الوضع هنا أبيض إلى حدّ مخيف، ألا تعتقدين ذلك؟»

فوجئت سوكفيندر بنفسها تقول «أجل» قبل أن تفهم السؤال حتّى. واصلت غايا الكلام، لكنّ سوكفيندر لم تكن تستمع. «أبيض إلى حدّ مخيف.» افترضت أنّ هذه هي الحال فعلًا.

حين كانت سوكفيندر لا تزال في مدرسة سانت توماس، أرغمَت ذات يوم على الوقوف في وسط الصفّ الذي كانت التلميذة الوحيدة الداكنة البشرة فيه، والتحدّث عن الديانة السيخيّة. امتثلت ووقفت أمام الصفّ، وروت قصّة الغورو ناناك، مؤسّس الديانة السيخيّة، الذي اختفى على ضفّة نهرٍ وظنّ الجميع أنّه غرق، لكنّه عاد بعد ثلاثة أيّام وخرج من جوف المياه ليعلن «ما من هندوس ولا من مسلمين.»

ضحك الأولاد الآخرون، هازئين من فكرة أن يبقى أيّ كان على قيد الحياة ثلاثة أيّام في قعر الماء. لم تجد سوكفيندر الشجاعة الكافية لتردّ

عليهم بأنّ المسيح مات ثمّ قام من بين الأموات. اختصرت قدر الإمكان قصّة الغورو ناناك، حتّى تتمكّن من العودة إلى مقعدها. لم تزر سوكفيندر معبدًا للسيخ سوى مرّات قليلة في حياتها. لم يكن هناك أيّ معبد في باغفورد، ومعبد يارفيل كان صغيرًا جدًّا، ويسيطر عليه بحسب والديها الشامار، وهم من طبقة مختلفة عن طبقة عائلتها. لم تكن سوكفيندر تفهم حتّى أهميّة ذلك، فهي تعرف أن الغورو ناناك حظّر بشكل صريح وواضح التمييز بين الطبقات. اختلطت عليها الأمور. كانت لا تزال تستمتع بتلوين البيض في عيد الفصح وتزيين شجرة عيد الميلاد، وتجد مشقّة كبرى في قراءة الكتب التي تدفع بارميندر أولادها للاطّلاع عليها وهي تشرح حياة المعلّمين الروحيّين ومبادئ عقيدة «الخالصة»[1].

حين كانت سوكفيندر تزور عائلة والدتها في بيرمينغهام، حيث الجميع تقريبًا في الشارع أكثر سمرةً منها، والمتاجر تزخر بملابس الساري والتوابل الهنديّة، كانت تشعر بأنّها في غير مكانها. أبناء خالاتها وأخوالها يتكلّمون البنجابي بطلاقة كما الإنكليزيّة. يعيشون حياة مدينيّة مثيرة، وبنات خالاتها وأخوالها جميلات وعلى الموضة. كانوا جميعهم يسخرون من لدغتها الخاصّة بأهل الجنوب الغربي من إنكلترا، ومن افتقارها إلى أيّ حسّ بالموضة والأناقة، وكانت سوكفيندر تكره أن يضحك أيّ كان عليها. قبل أن يبدأ فاتس وول بممارسة نظام التعذيب اليوميّ عليها، وقبل أن يتمّ تقسيم الصفّ إلى مجموعات بحسب المستوى وأن تجد نفسها على اتّصال يوميًّا بداين تالي، أحبّت في كلّ مرّة العودة إلى باغفورد. كانت تشعر في تلك الفترة بأنّ البلدة ملاذٌ وملجأ لها.

فيما كانتا تقلّبان شرائح المجهر الزجاجيّة، خافضتين رأسيهما حتّى لا تتنبّه السيّدة نايت إليهما، كاشفت غايا سوكفيندر كما لم تفعل من قبل، فأخبرتها عن حياتها في ثانويّة غرافنر في هاكني. كانت الكلمات تتدفّق من شفتيها مثل جدول ينساب نزقًا متوثّبًا. وصفت الصديقات اللواتي تركتهنّ

[1] فئة من السيخ تشكل العمود الفقري الروحيّ والعسكريّ لمجموعة السيخ وتلتزم نظامًا سلوكيًّا دينيًّا قاسيًا.

خلفها. هاربريت، التي تحمل الاسم ذاته مثل ابنة خال سوكفيندر الأكبر سنّا. شيريل، ذات البشرة السوداء والذكاء الأكثر اتّقادًا بين بنات الشلّة. جين، التي كان شقيقها صديق غايا الأوّل.

كانت سوكفيندر مأخوذة بكلّ ما تخبرها غايا عنه، لكنّ أفكارها شردت، فتصوّرت جمعًا من التلاميذ تجهد العين ولا تميّز فيه أفرادًا نشازًا وسط فسيفساء من جميع ألوان البشرة، من الأبيض الحليبيّ إلى الأسمر الداكن. هنا في وينترداون، يبرز شعر التلاميذ الآسيويين بجلاء بلونه الأسود المموّج بالزرقة، وسط بحر من الرؤوس الفاتحة بين الأشقر والكستنائيّ. في مكان مثل غرافنر، قد يكون أمثال فاتس وول وداين تالي هم الأقليّة.

طرحت سوكفيندر سؤالًا خجولًا.

«لماذا انتقلتِ إلى هنا؟»

«لأنّ أمّي تريد أن تكون قريبة من صديقها الحقير»، تمتمت غايا. «غافين هيوز، تعرفينه؟»

هزّت سوكفيندر رأسها نفيًا.

«لا بدّ أنّك سمعتِهما يتضاجعان»، تابعت غايا. «الحيّ برمّته يسمعهما حين يقومان بذلك. ابقي نافذتك مفتوحة، أكيد سوف تسمعينهما ذات ليلة.»

حاولت سوكفيندر كبت صدمتها، وهي تجد أساسًا فكرة سماع والديها، والديها المتزوّجين، يتضاجعان، بمثابة فضيحة. غايا نفسها كان وجهها أحمر، لكنّ سوكفيندر فكّرت أنّ ذلك كان من شدّة الغضب، وليس الإحراج. «سوف يتخلّى عنها. إنّها تخدع نفسها. ما أن ينتهيا من ممارسة الجنس، حتّى يتلهّف للرحيل.»

لن يرد في ذهن سوكفيندر على الإطلاق أن تتكلّم بهذه الطريقة عن والدتها. كما أنّ هذا مستحيل أيضًا بالنسبة إلى التوأمتين فيربراذر. كانت نيام وسيوبان تعملان معًا على مجهر على مقربة. لا تزالان مبدئيًا أفضل صديقتين لسوكفيندر، لكن يبدو منذ وفاة والدهما وكأنّهما انغلقتا إحداهما على الأخرى، فباتتا تفضّلان البقاء وحدهما معًا، وتبتعدان تدريجيًا عن سوكفيندر.

كان آندرو برايس يحدّق بغايا بدون أن يحيد نظره عنها من خلال فراغ بين الرؤوس البيضاء المحيطة بهما. لاحظت سوكفيندر ذلك، وظنّت أنّ غايا لم تتنبّه للأمر، لكنّها كانت مخطئة. كلّ ما في الأمر أنّ غايا لم تكترث لمبادلته النظرات أو التأنّق والتفاخر. فهي اعتادت أن يحملق فيها الفتيان، وهو ما يحصل منذ أن كانت في الثانية عشرة من العمر. كان هناك فتَيان في الصفّ السادس يظهران في ممرّات المدرسة كلّما خرجت من صفّ إلى آخر، وكلاهما أكثر وسامة من آندرو. غير أنّ أيًّا منهما لا يقارَن بالفتى الذي فقدت غايا عذريّتها معه قبل قليل من انتقالها إلى باغفورد.

أن يكون ماركو دي لوكا لا يزال حيًّا جسديًّا في مكان ما من الكون، تفصلها عنه مئة واثنان وثلاثون ميلًا من المسافة الأليمة غير المجدية: تلك كانت فكرة بالكاد تقوى غايا على احتمالها.

«إنّه في الثامنة عشرة»، روت لسوكفيندر. «نصف إيطاليّ. يلعب كرة القدم بمهارة. من المفترض أن يقوم بتجربة لفريق نادي آرسنال للشباب.»

مارست غايا الجنس مع ماركو أربع مرّات قبل أن تغادر هاكني، وفي كلّ مرّة كانت تسرق واقيًا ذكوريًّا من الطاولة الصغيرة قرب سرير كاي. كان جزء منها يريد أن تعرف كاي إلى أيّ مدى وصلت بهدف ترك الأثر في نفس ماركو قبل أن ترغَم على الانفصال عنه.

استمعت سوكفيندر إليها مشدوهة، من غير أن تعترف لها بأنّها رأت ماركو على صفحة صديقتها الجديدة على موقع فيسبوك. ليس هناك بين جميع فتيان وينترداون مَن يمكن مقارنته به. إنّه يشبه جوني ديب.

استرخت غايا فوق الطاولة وراحت تعبث بنظام تعديل بؤرة المجهر، شاردة الذهن، فيما واصل آندرو برايس استراق النظر إليها عبر القاعة، كلّما تهيّأ له أنّ فاتس ساهٍ عنه.

«ربّما يبقى وفيًّا لي. شيريل ستقيم سهرة ليلة السبت وقد دعته إليها. أقسمَت لي أنّها لن تسمح له بالقيام بأيّ حماقة. لكن تبًا! كم كنت أودّ...»

تاهت عيناها المرقّشتان في سطح الطاولة من غير أن تراه. تأمّلتها سوكفيندر بتواضع، مفتونة بجمالها، معجبة بحياتها. فكرة أن يكون هناك

عالم آخر تنتمي إليه بكلّ كيانها، حيث لها صديق لاعب في كرة القدم وشلّة من الصديقات الوفيّات المميّزات، بدا لها كلّ ذلك عالمًا مذهلًا تحسدها عليه ولو أنّها انتُزعت منه بالقوة.

توجّهتا معًا خلال استراحة الغداء صوب المحلّات، وهو أمر لم يسبق لسوكفيندر أن قامت به، إذ كانت تتناول الغداء عادة مع نيام وسيوبان في مطعم المدرسة.

وفيما كانتا واقفتين على الرصيف أمام محلّ الصحف حيث اشترتا شطيرتين، صعقتا لسماع زعيق حادّ يثقب الأذن.

«أمّك اللعينة قتلت جدّتي!»

تلفّت جميع تلاميذ وينترداون المتجمّعين في جوار المحلّ متعجّبين، بحثًا عن مصدر الصراخ، وكذلك فعلت سوكفيندر نفسها، وهي لا تقلّ عنهم دهشة. ثمّ لمحت كريستال ويدون، واقفة في الجانب الآخر من الطريق، تشير إليها بأصبعٍ سمينةٍ مشدودة وكأنّها تصوّب عليها مسدّسًا. كانت محاطة بأربع فتيات أخريات، مصطفّات على الرصيف، تمنعهنّ حركة السير من التقدّم.

«أمّك اللعينة قتلت جدّتي! سوف أقضي عليها وعليك أيضًا!»

أحسّت سوكفيندر بأنّ قلبها سيتوقّف عن النبض. كان الجميع ينظر إليها. هربت فتاتان من الصفّ الثالث. شعرت سوكفيندر بالمارّة من حولها يتجمهرون ويتحوّلون إلى حشد متراصّ من الفضوليّين النهمين. كانت كريستال وفتيات زمرتها يتوثّبن على رؤوس أقدامهنّ، يترصّدن أيّ فسحة بين السيّارات للانقضاض عليها.

«ما الذي تتكلّم عليه هذه؟» سألت غايا سوكفيندر. لكنّ فم سوكفيندر كان جافًّا وكانت عاجزة عن التفوّه بكلمة. لن ينفع أن تركض، مستحيل أن تنجو منهنّ. ليان كارتر كانت أسرع فتاة في صفّهنّ. بدا لها أنّ الكون برمّته تسمّر، وحدها السيّارات كانت تواصل حركتها، مانحة إيّاها بضع لحظات أخيرة من الأمان.

عندها، ظهرت جاسوانت، برفقة بعض الفتيان من الصفّ الثالث.

«كيف حالك سنونو؟» سألتها. «ما أخبارك؟»

لم تكن جاسوانت سمعت كريستال، بل كانت تعبر من هناك مصادفةً مع أصدقائها. في الجهة المقابلة من الطريق، وقفت كريستال ورفيقاتها في جمع متراصّ.

«لا شيء» أجابت سوكفيندر، وهي تشعر بالأرض تدور من تحت قدميها، عاجزة عن تصديق الحظَ الذي سمح لها بأن تنجو بجلدها، ولو موقّتًا. لم يكن بوسعها أن تخبر جاز بما حصل أمام الفتيان. كانت قامتا اثنين منهم تفوقان، كلٍّ منهما، مترًا وثمانين سنتيمترًا. كانوا جميعهم ينظرون إلى غايا.

توجّهت جاز ورفاقها إلى مدخل محلّ الصحف، تبعتهم سوكفيندر وهي ترمق غايا بنظرة توسّل لحضّها على اللحاق بها. وقفتا تراقبان من نافذة الدكّان كريستال وبنات زمرتها يبتعدن، ويلقين نظرات إلى الخلف كلّما تقدّمن بضع خطوات.

«ما القصّة؟» سألت غايا.

«جدّة والدتها كانت مريضة تعاينها أمّي، وتوفّيت.» قاومت سوكفيندر رغبة جامحة في البكاء، حتّى إنّ عضلات عنقها كانت تؤلمها.

«عاهرة بلهاء» قالت غايا.

لكنّ العبرات التي كانت سوكفيندر تحبسها لم تكن تنبع من فزعها. فهي تحبّ كريستال كثيرًا، وكانت على يقين بأنّ كريستال أيضًا أحبّتها. كلّ ما بعد الظهيرات تلك التي قضتاها على مياه القناة، كلّ الرحلات تلك في الحافلة الصغيرة... تعرف شكل ظهر كريستال وكتفيها أكثر ممّا تعرف شكلها هي.

عادتا إلى المدرسة برفقة جاسوانت وأصدقائها. بادر الأكثر وسامة بين الفتيان إلى فتح حديث مع غايا. وحين وصلوا إلى بوّابة المدرسة، كان انتقل إلى ممازحتها بشأن لهجتها اللندنيّة. لم تلمح سوكفيندر كريستال في الجوار، لكنّها رصدت فاتس وول على مسافة، يعبر بخطواته المتوثّبة برفقة آندرو برايس. يمكنها تمييز شكله ومشيته في أيّ مكان، تمامًا كما قد يميّز المرء، مدفوعًا بغريزة داخلية ما، عنكبوتًا يزحف في العتمة.

تصاعدت في داخلها أمواج متتالية من الغثيان مع اقترابها من مبنى المدرسة. ها إنّ اثنين يطاردانها الآن: فاتس وكريستال. الكلّ يعرف أنّهما

يتواعدان. تخيّلت سوكفيندر مشهدًا صارخ الألوان، رأت نفسها مطروحة أرضًا تنزف، فيما تنهال عليها كريستال وشلّتها ركلًا، ويقف فاتس وول يتفرّج مقهقهًا.

«عليّ أن أذهب إلى الحمّام» قالت لغايا. «التقيك في الصفّ فوق.»

ولجت أوّل حمّام للفتيات صادفته وهي عابرة، دخلت إحدى حجرات المراحيض، أوصدت الباب على نفسها وجلست على المقعد بعدما أغلقت غطاءه. ودّت لو تموت... لو تختفي إلى الأبد... لكنّ الأغراض الصلبة من حولها ترفض أن تذوب وتضمحلّ، وجسدها، ذلك الجسد الخنثويّ البغيض، يبقى على قيد الحياة مثل مسخ متعنّت...

سمعت الجرس يؤذن ببداية حصص بعد الظهر، فوثبت وخرجت مسرعة من المراحيض. وجدت صفوفًا من التلاميذ تتشكّل على طول الممرّ. أدارت لهم ظهرها وخرجت مسرعة من المبنى.

ثمّة تلاميذ آخرون يتسرّبون من المدرسة، من بينهم كريستال وفاتس وول. لو تستطيع فقط الفرار والبقاء بمنأى عنهما بعد الظهر، ربّما يمكنها تصوّر طريقة لحماية نفسها قبل أن تعود إلى المدرسة. بوسعها أيضًا أن ترمي نفسها أمام سيّارة. تصوّرت السيّارة تصدم جسدها وتهشّم عظامها. كم من الوقت سينقضي قبل أن تلفظ أنفاسها، محطّمة في عرض الطريق؟ إنّها تفضّل فكرة الغرق، الانسياب في مياه باردة نقيّة والانزلاق في سبات أبديّ، سبات لا تسكنه أحلام...

«سوكفيندر؟ سوكفيندر!»

أحسّت بقلبها يهبط. كانت تيسا وول تسرع صوبها، عابرة موقف السيّارات. للحظة يحكمها الجنون، فكّرت سوكفيندر في الانطلاق ركضًا والفرار، لكنّها تخلّت عن هذه الفكرة ما أن تبيّنت سخافتها، فوقفت تنتظر حتّى تصل تيسا إليها. أحسّت بكره عنيف لها، لوجهها الباهت الأحمق وابنها المؤذي الشرّير.

«سوكفيندر، ماذا تفعلين؟ إلى أين أنت ذاهبة؟»

لم تجد القوّة حتّى لابتكار كذبة. هزّت كتفيها يائسة واستسلمت.

لم يكن لدى تيسا أيّ موعد قبل الساعة الثالثة. كان يفترض بها اصطحاب سوكفيندر إلى مكتب المديرة والإبلاغ بمحاولتها التسرّب من المدرسة، لكنّها عوضًا عن ذلك رافقتها إلى الطبقة الأولى وأدخلتها إلى مكتب التوجيه المزيّن بالنسيج الجداريّ النيباليّ وملصقات خطّ إنقاذ الطفولة. لم يسبق لسوكفيندر أن دخلت هذه القاعة.

راحت تيسا تتكلّم، تاركة بين الحين والآخر فسحة صمت، علّ سوكفيندر تقول شيئا، ثمّ تستأنف الكلام. جلست سوكفيندر وراحتا يديها تتعرّقان، محدّقة إلى حذائها. تيسا تعرف والدتها، وستخبر بارميندر بأنّها حاولت الفرار من المدرسة. لكن ماذا لو حاولت سوكفيندر أن تشرح لها سبب سلوكها؟ هل ستتدخّل تيسا؟ هل بوسع تيسا أن تتدخّل؟ ليس لدى ابنها، فهي عاجزة تمامًا عن ضبط فاتس، الجميع يعرف ذلك. لكن لدى كريستال ربّما؟ كريستال تزور بانتظام مكتب التوجيه...

كم ستوسعها كريستال ضربًا إن وشت بها؟ لكنّها ستتعرّض للضرب في مطلق الأحوال، حتّى لو لم تفعل. كريستال أثبتت قبل قليل أنّها على استعداد لإطلاق شلّتها بكاملها في أعقابها...

«... حصل أيّ شيء، سوكفيندر؟»

أومأت برأسها إيجابًا. تابعت تيسا مشجّعة «هل يمكنك إخباري بالأمر؟»

أخبرتها سوكفيندر.

كانت واثقة بأنّ الانقباض الطفيف في حاجبَي تيسا وهي تستمع إليها لم يكن مجرّد تعبيرٍ عن التعاطف معها. ربّما كانت تيسا تفكّر في ما سيكون ردّ فعل بارميندر حين ستعلم أنّ العلاج الذي وصفته للسيّدة كاثرين ويدون يتسبّب بمشاحنات في الشارع. تلك الفكرة لم تغب عن ذهن سوكفيندر وهي جالسة في حجرة المرحاض، تتمنّى أن يحصدها الموت. أو ربّما كانت البلبلة الظاهرة على ملامح تيسا تشير إلى تمنّعها عن توبيخ كريستال ويدون. لا شكّ في أنّ كريستال تلميذتها المفضّلة هي أيضًا، مثلما كانت المفضّلة لدى السيّد فيربراذر.

اجتاح سوكفيندر إحساسٌ طاغٍ أليمٌ بالظلم، انفجر وسط يأسها وخوفها وبغضها لنفسها، ليطغى على عقدة القلق والفزع التي كانت تحاصرها يوميًا. فكّرت في كريستال ورفيقاتها، يترصّدن الفرصة للانقضاض عليها. فكّرت في فاتس، يهمس لها كلامًا سامًّا من خلف ظهرها في كلّ حصّة رياضيّات، وفي الرسالة التي محتها في المساء السابق عن صفحتها على موقع فيسبوك:

السحاقيّة اسم يشير الى ميل المرأة إلى النساء جنسيًا وعاطفيًا، وأصل الكلمة إغريقيّ يعود إلى جزيرة لسبوس مسقط رأس الشاعرة اليونانية صافو التي كانت تمارس السحاق في القرن السادس قبل الميلاد.

«لست أدري كيف عرفت بالأمر» قالت سوكفيندر وهي تشعر بالدم ينبض في أذنيها.

«عرفت...؟» سألت تيسا حائرة.

«عرفت بأنّ هناك شكوى مرفوعة في مسألة والدتي وجدّة والدتها. كريستال ووالدتها لا تكلّمان باقي العائلة. ربّما أخبرها فاتس؟»

«فاتس؟» ردّدت تيسا من غير أن تفهم.

«تعرفين، لأنّهما يتواعدان. هو وكريستال؟ يخرجان معًا؟ إذًا قد يكون أخبرها.»

شعرت بانتصارٍ مريرٍ حين رأت الهدوء المهنيّ يتبدّد كليًّا عن وجه تيسا.

9

كانت كاي بودين عازمة على عدم دخول منزل مايلز وسامانثا أبدًا بعد ذلك العشاء. لم يكن بوسعها أن تغفر لهما كونهما شهدا على عدم اكتراث غافين الفاضح لها، كما لم يكن بوسعها أن تنسى ضحكة مايلز المتعالية حيال موقفها من عيادة بيلتشابيل، ولا الازدراء الذي أظهره هو وسامانثا حين تكلّما بسخرية عن كريستال ويدون.

قد يكون غافين اعتذر لها وطمأنها ولو بفتور إلى مشاعره حيالها، غير أنّه لا يسعها سوى أن تتذكّره جالسا بجنب ماري على الأريكة، يثب على قدميه ليساعدها على حمل الأطباق، ثم يرافقها إلى منزلها في الظلام. حين أخبرها غافين بعد بضعة أيّام أنّه تناول العشاء في منزل ماري، اضطرّت إلى كبح نفسها بعنف حتّى لا يثور غضبها، لأنّه لم يتناول يومًا أكثر من شطيرة خبز محمّص في منزلها في هوب ستريت.

قد لا يكون غافين يسمح لها بالتفوّه بأي كلمة غير ملائمة عن الأرملة التي يتحدّث عنها وكأنّها مريم العذراء، لكنّ الأمر مختلف بالنسبة لآل موليسون.

«لا يمكنني القول إنّني أُعجبتُ بمايلز.»

«هو، بالتأكيد، ليس من أفضل أصدقائي.»

«إن أردت رأيي، سيكون الأمر بمثابة كارثة لعيادة معالجة الإدمان إن تمّ انتخابه.»

«أشكّ في أن يُحدث الأمر أيّ تغيير.»

لطالما كان تخاذل غافين، وقلّة اكتراثه لمآسي الآخرين، يثيران غضب كاي.

«أليس هناك مَن هو مستعدّ لمساندة بيلتشابيل؟»

«كولين وول على ما أظنّ.»

إذًا، في الساعة الثامنة من مساء الاثنين، عبرت كاي الممرّ المؤدّي إلى منزل عائلة وول ورنّت الجرس. من عند الباب، كان بوسعها أن ترى سيّارة سامانثا موليسون، سيّارة فورد فييستا حمراء، مركونة في الممرّ المؤدّي إلى بيتها على مسافة ثلاثة منازل. أضاف هذا المشهد شيئًا من الإثارة إلى رغبتها في الانتقام.

فُتح الباب وأطلّت عليها امرأة قصيرة القامة بدينة ترتدي تنّورة مصبوغة يدويًا.

«مرحبًا. اسمي كاي بودين وأودّ التكلّم إلى كولين وول إذا أمكن.»

بقيت تيسا لحظة بدون حراك، تتأمّل المرأة الشابّة الجذّابة التي لم يسبق أن التقتها. عبرت ذهنها فكرة غريبة للغاية، خطر لها أنّ كولين على علاقة غراميّة، وأنّ عشيقته جاءت تخبرها بالأمر.

«آه، بالطبع. تفضّلي، أنا تيسا.»

مسحت كاي قدميها بعناية على البساط الصغير أمام الباب وتبعت تيسا إلى غرفة الجلوس. كانت أصغر مساحة من صالون سامانثا ومايلز موليسون وأقلّ فخامة، غير أنّها مريحة أكثر. كان رجل طويل القامة عريض الجبين، في بدايات صلعه، جالسًا في الكنبة يمسك بيده قلمًا وعلى ساقَيه دفتر ملاحظات.

«كولين، أقدّم لك كاي بودين»، قالت تيسا. «تودّ التحدّث إليك.»

رأت تيسا الذهول والريبة على وجه كولين، فحزرت على الفور أنّها أوّل مرّة يرى فيها المرأة. حقًّا، قالت لنفسها وهي تشعر بقدر من الخجل، ما الذي خطر ببالي؟

«آسفة لمباغتتك بهذه الطريقة، من دون سابق إنـذار»، قالت كاي فيما نهض كولين لمصافحتها. «لكنت اتّصلت قبل الحضور، لكنّك...»

«صحيح، إنّنا خارج دليل الهاتف» أجاب كولين، محدّقًا إلى كاي من أعلى قامته بعينيه الصغيرتين خلف نظّارتَيه السميكتَين. «تفضّلي اجلسي، أرجوك.»

«شكرًا. المسألة تتعلّق بالانتخابات» قالت كاي. «انتخابات مجلس البلدة. حضرتك مرشّح على ما فهمت ضدّ مايلز موليسون؟»

«تمامًا»، ردّ كولين متوتّرًا. لا بدّ أنّها الصحافيّة التي أرادت أن تسأله عن كريستال. لا شكّ في أنّهم تعقّبوه وعثروا عليه. لم يكن يجدر بتيسا أن تسمح لها بالدخول.

«كنت أتساءل إن كان بوسعي تقديم مساعدة، بأيّ طريقة كانت. إنّني عاملة اجتماعيّة، أعمل بشكل أساسيّ في حيّ الحقول. لديّ بعض الحقائق والأرقام يمكنني إطلاعك عليها بشأن عيادة بيلتشابيل لمعالجة الإدمان، تلك التي يبدو موليسون متلهّفًا لإغلاقها. قيل لي إنّك تؤيّد العيادة؟ إنّك تعتزم الإبقاء عليها؟»

كاد يغمى عليه من شدّة السرور والارتياح.

«آه، أجل» قال. «بالطبع، هذا ما سأفعله. أجل، كان هذا موقف سلفي، أعني الشخص الذي كان يشغل المنصب من قبل، باري فيربراذر، كان معارضًا بالتأكيد لإغلاق العيادة. وهو موقفي أنا أيضًا.»

«حسنًا، كان لي حديث مع مايلز موليسون، وقال لي بوضوح تامّ إنّه لا يعتبر أنّ العيادة مجدية، وإنّه لا ينبغي أن تستمرّ في العمل.. بصراحة، أعتقد أنّه ساذج وأنّه يجهل أسباب الإدمان وسبل معالجته. هو لا يدرك حجم ما تنجزه بيلتشابيل. اذا رفضت البلدة تجديد إيجار المبنى وقطع مجلس إدارة المنطقة التمويل عنها، قد يجد بعض الأشخاص من الفئات الأكثر ضعفًا أنفسهم محرومين من أي دعم.»

«أجل، أجل بالتأكيد»، قال كولين. «نعم، إنّني موافق تمامًا.»

شعر بالذهول والإطراء لكون هذه المرأة الشابّة الجميلة قطعت المسافة في المساء لتحضر إلى منزله وتعرض عليه التحالف معه.

«هل تودّين تناول كوب من الشاي أو القهوة كاي؟» سألت تيسا.

«آه، أشكرك» قالت كاي. «كوب من الشاي، أرجوك تيسا، بدون سكّر.»

كان فاتس في المطبخ، ينقّب في البرّاد بحثًا عن طعام. كان يأكل بنهم وبشكل متواصل، لكنّه يبقى نحيلًا ضامرًا، ولا يكسب أدنى سمنة. وبالرغم ممّا كان يظهره من اشمئزاز، إلا أنّه لم يبدُ متأثّرًا بوجود رزمة حقن تيسا الجاهزة في علبة طبيّة بيضاء موضوعة لصق الجبنة.

ذهبت تيسا إلى الغلّاية، وهي تعود بأفكارها مجدّدًا إلى الموضوع الذي يشغل بالها بإلحاح منذ أن ألمحت لها سوكفيندر إلى أنّ فاتس وكريستال «يتواعدان». لم تسأل فاتس بهذا الشأن، ولم تفاتح به كولين.

كلّما كانت تيسا تقلّب الفكرة في رأسها، تزداد قناعة بأن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا. هي واثقة بأنّ فاتس لديه من الكبرياء ما يجعله يرى أيّ فتاة غير صالحة له، وعلى الأخصّ فتاة مثل كريستال. لا يمكن بالتأكيد أن...

ماذا؟ أن يحطّ من قدره؟ أهذا ما تعنينه؟

«من تكون هذه؟» سأل فاتس تيسا وفمه مليء بلحم الدجاج البارد، فيما كانت تسخّن الماء في الغلّاية.

«امرأة تريد أن تساعد والدك على الفوز في انتخابات المجلس» ردّت تيسا وهي تنقّب في الخزانة بحثًا عن بسكويت.

«لماذا؟ يعجبها؟»

«لا تقل تفاهات، ستو» قالت تيسا باستياء.

غرف بضع شرائح رقيقة من الجمبون من علبة مفتوحة وراح يحشرها الواحدة تلو الأخرى في فمه المليء، مثل ساحر يخفي محارم من الحرير في قبضته. بوسع فاتس أحيانًا أن يقف عشر دقائق أمام البرّاد المفتوح، يمزّق غلافات وينزع أغطية ليحشو فمه بقطع طعام يجرفها مباشرة من العلب والأوعية. كانت تلك عادة يستهجنها كولين، مثلما يستهجن سائر أوجه سلوك فاتس.

«لماذا تريد أن تساعده؟ بجدّ؟» سأل بعدما ابتلع قطعة الجمبون.

«تريد أن تبقى عيادة بيلتشابيل مفتوحة.»

«لماذا؟ هي مدمنة؟»

«لا، ليست مدمنة» أجابت تيسا، وهي تلاحظ بامتعاض أنّ فاتس التهم آخر ثلاث قطع بسكويت بالشوكولاتة وترك الغلاف فارغًا على الرفّ. «إنّها عاملة اجتماعيّة وتعتقد أنّ العيادة تنجز عملًا جيّدًا. والدك يريد أن تبقى مفتوحة، لكنّ مايلز موليسون لا يعتقد أنّها فعّالة جدًا.»

«لا شكّ أنّها لا تقوم بعملها بشكل جيّد، فحيّ الحقول مليء بالمخبولين من مستنشقي الغراء ومدمني الهيروويين.»

كانت تيسا على ثقة بأنّها لو قالت إنّ كولين يريد إغلاق العيادة، لكان فاتس خرج على الفور بحجّة تؤكّد وجوب استمرارها في العمل.

«يجدر بك أن تصبح محاميًا ستو» قالت، فيما بدأ غطاء الغلّاية يجلجل.

حين عادت تيسا إلى الصالون حاملة صينيّة الشاي، وجدت كاي تحدّث كولين وتعرض عليه رزمة من الوثائق المطبوعة جَلبتها في حقيبتها الكبيرة.

«... عاملان في معالجة الإدمان، بتمويل مشترك من المجلس ومن جمعية العمل ضد الإدمان، التي هي منظّمة خيريّة ممتازة فعلًا. ثمّ هناك عامِلة اجتماعيّة ملحَقة بالعيادة، نينا، هي التي زوّدتني بكلّ هذا... آه، شكرًا جزيلًا»، قالت مبتسمة بحرارة لتيسا التي وضعت فنجان الشاي على الطاولة أمامها.

كانت الدقائق القليلة التي قضتها كاي مع الزوجين وول كافية لتشعر حيالهما بمودّة لم تشعر بها حتّى الآن تجاه أيٍّ كان في باغفورد. لم تفصّلها تيسا بنظرها من رأسها حتّى أخمص قدميها حين دخلت، ولم ترمقها بعينين ثاقبتين لرصد أدنى شائبة جسديّة أو لتقييم ملابسها. صحيح أنّ زوجها عصبيّ، لكنّه بدا لكاي لائقًا وصادقًا في تصميمه على التصدّي لمشروع التخلّي عن حيّ الحقول.

«لهجتك من لندن، كاي؟» سألت تيسا وهي تغمّس بسكويتة في كوبها من الشاي. هزّت كاي رأسها موافقة.

«ما الذي جاء بكِ إلى باغفورد؟»

«علاقة عاطفيّة» قالت كاي بدون أن تشعر بأيّ سرور لذلك، ولو أنّها تُعتبر رسميًا متصالحة مع غافين. التفتَت مجدّدًا إلى كولين.

«لا أفهم تمامًا العلاقة بين مجلس البلدة والعيادة.»

«آه، المبنى ملك للمجلس» شرح كولين. «إنّه كنيسة قديمة وقريبًا يستحقّ تجديد إيجارها.»

«هذه إذًا فرصة ذهبيّة لطرد المستأجرين منه.»

«تمامًا. متى قلتِ أنّك تكلّمت إلى مايلز موليسون؟» سأل كولين، على أمل أن يكون مايلز ذكره، ومتخوّفًا في الوقت نفسه من هذا الاحتمال.

«تناولنا العشاء معًا يوم الجمعة ما قبل الأخير، قالت كاي. أنا وغافين...»

«آه، أنت صديقة غافين إذًا!» قاطعتها تيسا مندهشة.

«نعم. في مطلق الأحوال، أُثيرت مسألة الحقول في سياق الحديث...»

«طبعًا، لا مفرّ من ذلك» قالت تيسا.

«... وذكر مايلز بيلتشابيل، وأعترف بأنّني شعرت... شعرت بالهول إزاء طريقة عرضه للمسائل المطروحة. أخبرته أنّني أتولّى حاليًا متابعة عائلة...» وهنا تذكّرت كاي قلّة احترازها حين كشفت أسماء أفراد عائلة ويدون، فتوخّت الحذر «... إذا حرمت الوالدة من الميثادون، فمن شبه المؤكّد أنّها ستعود في نهاية المطاف إلى إدمانها.»

«هذا يذكّرني بقصّة العائلة ويدون»، قالت تيسا. انتابها إحساس بالإحباط.

«إنّني... نعم، إنّني أتكلّم في الواقع عن آل ويدون»، ردّت كاي.

تناولت تيسا بسكويتة أخرى.

«أنا مسؤولة التوجيه التي تتولّى متابعة كريستال. أعتقد أنّ هذه المرّة هي الثانية التي تتبع والدتها فيها علاجًا في بيلتشابيل، صحّ؟»

«الثالثة»، صحّحت كاي.

«نعرف كريستال منذ أن كانت في الخامسة»، شرحت تيسا. «كانت في صفّ ابننا في المدرسة الابتدائيّة. عاشت حياة رهيبة، فعلًا.»

«تمامًا»، قالت كاي. «أمر مذهل في الحقيقة أن تكون لطيفة إلى هذا الحدّ.»

«بالتأكيد، معك كلّ الحق»، أكّد كولين باندفاع.

تذكّرت تيسا كيف أنّ كولين رفض بشكل قاطع إلغاء عقوبة حجز كريستال بعد حادث الزعيق خلال التجمّع، فرفعت حاجبيها مستغربة. ثمّ تساءلت ومعدتها تعتصر تشنّجًا، ما الذي يمكن أن يقوله كولين إذا ما تبيّن أنّ سوكفيندر لم تكذب أو لم تكن مخطئة. لكنّ سوكفيندر كانت مخطئة بالتأكيد. إنّها فتاة خجولة، ساذجة. الأرجح أنّها أخطأت الفهم... سمعت شيئًا ما وأخطأت تفسيره...

«مهما يكن، الحافز الوحيد تقريبا الذي يحرّك تيري في الوقت الحاضر هو الخوف من أن تخسر ولديها»، قالت كاي. «عادت إلى السكّة في الوقت الحاضر. قالت لي المسؤولة عنها في العيادة إنّها تلمس تبدّلًا في موقف تيري. إذا ما أغلقت العيادة، سيذهب كلّ هذا سدًى، والله أعلم ما الذي سيحلّ بالعائلة.»

«كلّ هذا مفيد جدّا» قال كولين وهو يهزّ رأسه بوقار وجديّة ويباشر تدوين ملاحظات على صفحة جديدة من دفتره. «مفيد جدًّا في الحقيقة. قلتِ لي إنّ لديك إحصاءات حول نسبة الذين يقلعون عن إدمانهم؟»

قلّبت كاي الوثائق المطبوعة بحثًا عن المعلومات المطلوبة. تهيّأ لتيسا أنّ كولين يسعى للاستئثار باهتمام كاي. لطالما كان عاجزًا عن مقاومة الجمال والسلوك المتعاطف.

قضمت تيسا بسكويتة أخرى، وهي لا تزال تفكّر في كريستال. لم تكن جلسات التوجيه الأخيرة معها مرضية جدًّا. بدت كريستال باردة ومنغلقة خلالها. وجلسة اليوم لم تكن استثناءً. نجحت في انتزاع وعدٍ منها بأنّها لن تعاود ملاحقة سوكفيندر جاواندا أو مضايقتها، لكنّ سلوك كريستال أوحى إليها بأنّ الثقة بينهما سقطت، وكأنّ تيسا خيّبت أملها. ربّما كان ذلك بسبب قرار كولين معاقبة كريستال. كانت تيسا تظنّ أنّهما أقامتا بينهما علاقة وطيدة بحيث يمكنها مقاومة أمرٍ كهذا، ولو أنّها لم ترتقِ يومًا إلى مستوى العلاقة التي كانت تربط كريستال بباري.

(كانت تيسا هناك، يوم جاء باري إلى المدرسة مُحضِرًا معه آلة تجذيف، يبحث عن متطوّعات للفريق الذي كان يحاول تشكيله. تمّ استدعاؤها يومها من قاعة الأساتذة إلى قاعة الرياضة لأنّ معلّمة التربية البدنيّة كانت غائبة بداعي المرض، والأستاذ البديل الوحيد الذي تمكّنوا من استقدامه على وجه السرعة كان رجلًا.

أخذت فتيات الصفّ الرابع يتبادلن ضحكات مكتومة حين وصلن إلى قاعة الرياضة في سراويلهنّ القصيرة وقمصانهنّ القطنيّة، ليجدن الآنسة جارفيس غائبة، ومحلّها رجلان غريبان. اضطرّت تيسا إلى تأنيب كريستال ونيكي وليان اللواتي دفعن الفتيات الأخريات ليصلن إلى الصفّ الأوّل، ورحن يدلين بملاحظاتٍ ذات إيحاءاتٍ بذيئة بشأن الأستاذ البديل. كان فتًى وسيمًا غير أنّ وجهه يحمرّ بسهولة عند الإحساس بالحرج.

أمّا باري القصير القامة في بدلته الرياضيّة، الأصهب الشعر واللحية، فأخذ في ذلك النهار نصف يوم إجازة من عمله من أجل تنفيذ مشروعه. بدت

الفكرة للجميع غريبة وغير واقعيّة. فالمدارس الشبيهة بوينترداون لا تملك فرق تجذيف. وجدت نيام وسيوبان وجود والدهما محرجًا وطريفًا في آن.

شرح باري أنّ ما كان يحاول إنجازه هو تشكيل فرق. أوضح أنّه حصل على إذن لاستخدام حظيرة المراكب القديمة على ضفّة القناة في يارفيل. قال إنّها رياضة هائلة، وفرصة رائعة للتألّق تتاح لهنّ ولمدرستهنّ. بقيت تيسا يومها واقفة بجانب كريستال وصديقاتها لضبطهنّ. ومع تقدّم باري في الشرح عن مشروعه، كان هيجانهنّ خمد، لكنّه لم يتبدّد تمامًا.

عرض باري عليهنّ طريقة عمل آلة التجذيف وسألهنّ من يودّ التطوّع لاختبارها، فلم تتقدّم أيّ فتاة.

«كريستال ويدون»، قال باري مشيرًا إليها بإصبعه. «رأيتك تتأرجحين على قضبان التسلّق في المتنزّه. عضلات جذعك ممتازة لهذه الرياضة. تعالي وجرّبي.»

كانت كريستال في غاية السرور لاستعراض نفسها أمام الصفّ. تقدّمت متبخترة وجلست على الآلة. انفجرت نيكي وليان بالضحك رغم نظرات تيسا الصارمة لكبحهنّ، وانضمّ باقي الصفّ إليهما.

شرح باري لكريستال كيف تجذّف. وقف الأستاذ البديل بصمت، يراقب بنظرة مهنيّة فيما باري يضع يدَي كريستال في الموقع المناسب على المقبضين الخشبيّين.

رفعت المقبضين وشدّت بكلّ قوّتها إلى الخلف. كشّرت، مثيرة ضحك نيكي وليان وجميع الفتيات من جديد.

«انظروا إليها» قال باري ووجهه يشعّ فرحًا. «إنّها تجذّف بالفطرة.»

هل كانت كريستال فعلًا موهوبة في هذه الرياضة؟ لم يكن بوسع تيسا أن تجزم، فهي لا تعرف أيّ شيء عن التجذيف.

«قوّمي ظهرك»، قال باري لكريستال «وإلّا سوف تؤذين نفسك. ممتاز. اسحبي... اسحبي... انظروا إلى هذه التقنيّة!... لا يُعقل أن تكون هذه المرّة الأولى.»

كانت كريستال في هذه الأثناء انتصبت وقوّمت ظهرها، وراحت تجذّف بالشكل الصحيح تمامًا. لم تعد تنظر إلى نيكي وليان، وانتظمت حركتها في وتيرة ثابتة.

«ممتاز» قال باري. «انظروا إليها... ممتاز حقًّا. هكذا نجذّف! هيّا! اسحبي بعد... وبعد... و....»

«هذا مؤلم!» صرخت كريستال.

«أعرف أنّه مؤلم» قال باري. «لكن هكذا تحصلين على ذراعَين مثل ذراعَي جنيفر آنيستون، التجذيف هو الوسيلة.»

سرت ضحكات خفيفة، لكنّهنّ ضحكن معه هذه المرّة. ما كان سرّ باري؟ كان حاضرًا على الدوام، عفويًّا إلى أقصى حدّ، بعيدًا عن أي تصنّع. تعرف تيسا كم أنّ الخوف من السخرية يكبّل الفتيان والفتيات. أولئك الذين لا يعرفون هذا الخوف، والله أعلم كم أنّهم نادرون في عالم البالغين، يحظون بسطوة طبيعيّة على الشباب، ويجدر إرغامهم على امتهان التعليم.

«واستريحي!» قال بيري، فانهارت كريستال، وجهها قرمزيّ، وأخذت تمسّد ذراعيها. «سيتعيّن عليك الإقلاع عن التدخين كريستال»، قال باري، حاصدًا هذه المرّة ضحكة عارمة من الصفّ بكامله. «حسنًا، من يريد القيام بتجربة أيضًا؟»

واقفة مجدّدًا بين رفيقاتها تتفرّج معهنّ، لم تعد كريستال تضحك، بل كانت تراقب كلّ فتاة تجلس على آلة التجذيف بحسد، فتحدّق إلى وجه باري الملتحي لتتبيّن رأيه فيها. حين أخفقت كارمن لويس بشكل كامل، قال باري «هيّا كريستال، أريهنّ كيف»، فشعّ وجهها وهي تعود وتجلس على الآلة.

لكن في نهاية العرض، حين طلب باري من التلميذات المهتمّات بالقيام بتجربة للانضمام إلى الفريق أن يرفعن أيديهنّ، بقيت كريستال مكتوفة اليدين. رأتها تيسا تهزّ رأسها وتبتسم بسخرية حين همست نيكي في أذنها. دوّن باري باهتمام أسماء الفتيات اللواتي تقدّمن، ثمّ رفع رأسه ونظر إليهنّ.

«وماذا عنك أنت، كريستال ويدون؟» سأل مشيرًا إليها. «أنت أيضًا ستأتين. سوف أغضب كثيرًا إن لم تأتي أنت. ما كشفتِه لنا اليوم هو موهبة

فطريّة. ولا أحبّ أن أرى موهبة فطريّة تُهدَر.» ثمّ تابع بصوت عالٍ مدوّنًا اسمها «كريس... تال... وي... دون.»

هل إنّ كريستال فكّرت في موهبتها الفطريّة تلك وهي تأخذ دشًّا في نهاية الدرس؟ هل لازمتها فكرة مهارتها الجديدة طوال ذلك اليوم، كمن يصادف الحبّ على حين غفلة؟ لم تكن تيسا تعلم. لكن كريستال أثارت ذهول الجميع باستثناء باري ربّما، وحضرت إلى جلسات التجارب.)

كان كولين يهزّ رأسه بقوّة فيما تعرض عليه كاي نسب الانتكاس التي سجّلتها عيادة بيلتشابيل.

«يجب أن ترى بارميندر هذه الأرقام»، قال. «سوف أتثبّت من تلقّيها نسخة. أجل، أجل، هذا مفيد للغاية.»

تناولت تيسا بسكويتة رابعة، وهي تشعر بغثيان طفيف.

10

كانت بارميندر تعمل أيّام الاثنين حتّى ساعةٍ متأخّرة من المساء. وبما أنّ فيكرام يكون عادة في المستشفى في مثل ذلك الوقت، فإن أولادهما الثلاثة كانوا يفرشون الطاولة ويعدّون العشاء لأنفسهم. كانوا يتشاجرون أحيانًا، ويضحكون معًا من وقت إلى آخر. لكن في ذلك المساء، كان كلٌّ منهم مستغرقًا في أفكاره، فأُنجِزَ العمل بفعاليّة غير معهودة، وبصمتٍ شبه كامل.

لم تخبر سوكفيندر شقيقها أو أختها بأنّها حاولت الفرار من المدرسة، ولا بتهديدات كريستال ويدون بضربها. فهي عادة ما تتكتّم على أخبارها، وفي الآونة الأخيرة، ازدادت تحفّظًا. أكثر ما تخشاه كان البوح بأسرارها، تخشى أن تفضح تلك الأسرار غرابة العالم الذي تعيش فيه، عالم يبدو فاتس وول قادرًا على اختراقه بسهولة مرعبة. غير أنّها كانت على يقين بأنّ أحداث ذلك اليوم بالذات لن تبقى سرًّا إلى ما لا نهاية. قالت لها تيسا بوضوح أنّها ستتّصل حتما ببارميندر.

«إنّني مضطرّة إلى الاتّصال بوالدتك، سوكفيندر. هذا ما نفعله في مثل هذه الحالة، لكنّني سأشرح لها الأسباب التي دفعتك إلى ذلك.»

شعرت سوكفيندر بما يشبه المودّة حيال تيسا، ولو أنّها والدة فاتس وول. بالرغم من تخوّفها من ردّ فعل والدتها، إلّا أنّ فكرة أن تتواسط لها تيسا ولّدت في نفسها بصيص أمل ضئيلًا. حين ستدرك والدتها مدى اليأس الذي تشعر به، هل سيحدث ذلك أخيرًا تصدّعا في جدار الخيبة والرفض القاطع الذي أقامته الوالدة في وجه سوكفيندر، ويخفّف من الانتقادات المتواصلة التي توجّهها لها بدون رحمة؟

حين فُتِح باب المدخل بعد طول انتظار، سمعت والدتها تتكلم البنجابي.

«لا! لا أودّ سماع أيّ حديث عن تلك المزرعة اللعينة من جديد» تذمّرت جاسوانت ملصقةً أذنها بالباب.

كانت لعائلة جاواندا قطعة أرض في البنجاب تملكها الأسرة منذ أجيال، ورثتها بارميندر من والدها بصفتها الأكبر سنًّا بين أخواتها، وفي غياب أيّ أشقّاء ذكور لها. كانت المزرعة تحتلّ حيّزًا كبيرًا في وعي العائلة، ناقشته جاسوانت وسوكفيندر في بعض الأحيان، بعد أن اكتشفتا أنّ بعض أقربائهما من الكبار في السنّ ينتظرون أن تعود العائلة بكاملها إلى الهند ذات يوم، الأمر الذي وجدته الفتاتان مدهشًا، بل على قدر من الطرافة. طوال حياته، كان والد بارميندر يرسل المال إلى المزرعة التي يديرها أقرباء له من الدرجة الثانية. وكان هؤلاء مشاكسين ونكدين على ما يبدو. تلك المزرعة تتسبّب على الدوام بشجارات متكرّرة داخل عائلة والدتها.

«ناني أعاد الكرّة»، شرحت جاسوانت منصتةً إلى صوت بارميندر الذي وصلهم مكتومًا من خلف الباب.

علّمت بارميندر ابنتها البكر بعض البنجابي، واكتسبت جاز لاحقًا المزيد من الطلاقة من خلال التحدّث إلى أقربائها. أمّا سوكفيندر، فإنّ الديسلكسيا التي تعانيها منعتها من تعلّم لغتين، وتمّ التخلّي عن أيّ محاولة لتلقينها البنجابي.

«... ما زال هاربريت يريد بيع تلك القطعة من الأملاك لمشروع الطريق...»

سمعت سوكفيندر بارميندر تخلع حذاءها. تمنّت لو لم تكن والدتها منشغلة في تلك الليلة بالذات بمسألة المزرعة هذه التي تعكّر مزاجها في كلّ مرّة. وحين دفعت بارميندر باب المطبخ، ورأت سوكفيندر وجهها بملامحه المشدودة وكأنّه قناع متوتّر، فارقها ما تبقّى لها من شجاعة.

سلّمت بارميندر على جاسوانت وراجبال بإشارة طفيفة بيدها، لكنّها صوّبت إصبعها إلى سوكفيندر، ثمّ إلى أحد كراسي المطبخ، مشيرة إليها أن تجلس وتنتظر حتّى تنهي اتّصالها. سارع جاسوانت وراجبال إلى الصعود إلى غرفتيهما، بينما انتظرت سوكفيندر تحت جدار الصور الذي كان يفضح لأعين العالم برمّته عدم ارتقائها للمكانة ذاتها التي يحتلها باقي أفراد العائلة، وهي مسمّرة في كرسيها بأمر صامت من والدتها. تواصلت المكالمة إلى ما لا نهاية، حتّى ختمتها بارميندر أخيرًا وأغلقت الخطّ.

ما أن استدارت ونظرت إلى ابنتها، حتّى حزرت سوكفيندر على الفور، قبل حتّى أن تتفوّه بكلمة واحدة، أنّ آمالها كانت مجرّد أوهام.

«إذًا» بادرتها بارميندر، «تلقّيتُ اتّصالًا من تيسا وأنا في المستشفى. أتصوّر أنّك تعرفين سبب اتّصالها.»

هزّت سوكفيندر رأسها. أحسّت وكأنّ فمها محشو بالقطن.

انفجر غضب بارميندر وانهمر على ابنتها مثل مدّ هائل جرفها على طريقه، بدون أن تتمكّن من النهوض أو استعادة توازنها.

«لماذا؟ لماذا؟ هل إنّك تقلّدين تلك الفتاة اللندنيّة من جديد؟ هل تحاولين كسب إعجابها؟ جاك وراج لم يتصرّفا مرّة على هذا النحو، ولا مرّة. لماذا ينبغي أن تفعلي أنت هذا؟ هل أنت فخورة بكونك كسولة ومستهترة؟ هل تعتقدين أنّك ستبدين مميّزة إذا ما تصرّفت كالجانحين؟ هل فكّرت في مشاعري حين تخبرني تيسا؟ اتّصلت بي في العمل... لم أشعر يومًا بهذا القدر من الإحراج. إنّك تثيرين اشمئزازي، سمعت؟ ألا نعطيك ما يكفي؟ ألا نساعدك كما يجب؟ ما مشكلتك سوكفيندر؟»

حاولت سوكفيندر يائسة أن تقاطع سيل التأنيب الشديد المسهب، فنجحت في التفوّة باسم «كريستال ويدون»...

«كريستال ويـدون!» صرخت بارميندر. «تلك الفتاة البلهاء! لماذا تعيرين اهتمامًا لأيّ شيء تقوله؟ هل قلتِ لها أنّني حاولت إبقاء جدّتها اللعينة على قيد الحياة؟ هل قلت لها هذا؟»

«أنا... لا...»

«إن كنتِ ستكترثين لما تقوله كريستال ويدون وأمثالها، هذا يعني أنّك حالة ميئوس منها! ربّما هذا مستواك الطبيعيّ، أليس كذلك سوكفيندر؟ تريدين الفرار من المدرسة والعمل في مقهى، وإهدار كلّ فرصك للحصول على تعليم جيّد، لأنّ هذا أسهل؟ أهذا ما تعلّمته من المشاركة في فريقٍ واحد مع كريستال ويدون؟ أن تهبطي إلى مستواها؟»

فكّرت سوكفيندر بكريستال وفتيات زمرتها، يتوثّبن للعبور إلى الرصيف المقابل، يترصّدن بفارغ الصبر فسحة بين سيّارتين. ما السبيل لجعل والدتها تفهم؟ قبل ساعة فقط كان لديها أمل ضئيل بأنّه سيكون بوسعها أن تشكو همّها لوالدتها، وتخبرها على الأقلّ عن فاتس وول...

«أغربي عن وجهي! اذهبي! سوف أتكلّم مع والدك حين يعود. اذهبي الآن!»

صعدت سوكفيندر إلى الطبقة الأولى. نادتها جاسوانت من غرفتها: «ما كان سبب كلّ هذا الصراخ؟»

لم تردّ سوكفيندر. دخلت إلى غرفتها، أوصدت الباب وجلست على حافّة سريرها.

ما العلّة فيك سوكفيندر؟

إنّك تثيرين اشمئزازي.

هل أنت فخورة بكونك كسولة ومستهترة؟

ما الذي توقّعته سوكفيندر؟ أن تضمّها والدتها إليها بحنان وتواسيها؟ متى عانقتها بارميندر وحضنتها؟ بوسع سوكفيندر أن تلقى المزيد من العزاء في الشفرة المخبّأة في دميتها الأرنب. لكنّ هذه الرغبة التي تحوّلت إلى

حاجة ماسّة، الرغبة في شقّ جلدها ونزف دمها، لا يمكن تلبيتها خلال النهار، حين يكون جميع أفراد العائلة مستيقظين ووالدها في طريقه إلى المنزل.

اشتعل في جوف سوكفيندر بركان اليأس والألم الداكن الراقد في أعماقها، متحيّنًا فرصة لإطلاق العنان لأمواجه الصاخبة، اشتعل وكأنّه حقل من النفط.

يجب أن تختبر بنفسها هذا الشعور.

نهضت، قطعت غرفتها بخطوتين حانقتين، جلست على الكرسي أمام مكتبها وراحت تنقر بقوّة على لوحة مفاتيح الكمبيوتر.

لم تكن سوكفيندر أقلّ اهتمامًا من آندرو برايس حين حاول ذلك الأستاذ البديل الغبيّ إثارة إعجابهم باستعراض مهاراته في الكمبيوتر. لكن خلافًا لآندرو وبضعة فتيان آخرين في الصف، لم تلاحق سوكفيندر الأستاذ بالأسئلة حول سبل القرصنة. تريّثت إلى أن عادت إلى منزلها، وأجرَت هناك أبحاثًا على الإنترنت. اكتشفت أنّ جميع المواقع الإلكترونيّة الحديثة تقريبًا محصّنة ضدّ الوسائل التقليديّة لاختراق لغة الاستعلام البنيويّة. لكن، حين سمعت سوكفيندر والدتها تتحدّث عن الهجوم الذي شنّه قراصنة مجهولون على موقع مجلس بلدة باغفورد، خطر لها أن مستوى نظام الحماية الذي يتمتّع به هذا الموقع القديم البدائيّ هو في الحدّ الأدنى على الأرجح.

لطالما وجدت سوكفيندر الطباعة أسهل بكثير من الكتابة، وشيفرة الكمبيوتر أسهل بكثير للقراءة من خطوط طويلة من الكلمات المتتالية. سرعان ما عثرت على موقع يعطي تعليمات واضحة لأبسط أشكال اختراق لغة الاستعلام البنيويّة، ثمّ فتحت موقع مجلس البلدة.

استغرق بها الأمر ما لا يزيد عن خمس دقائق لاختراق الموقع، وذلك فقط لأنّها أخطأت في نقر الشيفرة في المرّة الأولى. ذهلت حين اكتشفت أنّ مديرالموقع، أيّا يكُن، لم يمحُ معلومات المستخدم الخاصّة بـ «شبح- باري- فيربراذر» من قاعدة البيانات، بل اكتفى بحذف التعليق. وسيكون في غاية السهولة بالتالي نشر تعليق جديد باستخدام الهويّة ذاتها.

اختراق الموقع كان أيسر على سوكفيندر من تأليف التعليق. كانت تحتفظ لنفسها بالاتّهام السريّ منذ أشهر، منذ ليلة رأس السنة، حين لاحظت

بذهول التعبير على وجه والدتها قبل عشر دقائق من حلول منتصف الليل، من زاوية القاعة حيث كانت مختبئة. راحت تطبع ببطء، بمساعدة نظام التصحيح التلقائيّ.

لم تكن تخشى أن تدقّق بارميندر في تاريخ حاسوبها بحثًا عن المواقع التي استشارتها. فوالدتها تعرف القليل عنها، وعمّا يجري في غرفتها، بحيث إنّها لن تشكّ لحظة في ابنتها الخمولة، الحمقاء والمستهترة.

ضغطت سوكفيندر على الفأرة وكأنّها تضغط على زناد مسدّس.

11

لم تأخذ كريستال روبي إلى الحضانة صباح الثلاثاء، بل أعدّته لحضور دفن نانا كاث. حاولت وهي تحضِر له من بين ملابسه الرثّة والبالية السروال الأفضل حالًا والذي بات قصيرًا عليه بحوالى ثلاثة سنتيمترات على أقلّ تقدير، أن تشرح له من كانت نانا كاث، لكن بدون جدوى. فلم يكن لروبي أيّ ذكرى عن نانا كاث، لم يكن لديه مطلق فكرة عمّا تعنيه، ولا أيّ تصوّر للعائلة خارج والدته وشقيقته. ورغم تلميحات تيري التي تختلف في كلّ مرّة، والقصص التي كانت تطلع بها كل مرة، كانت كريستال واثقة بأنّه ليس لدى والدتها مطلق فكرة عمّن يكون والد روبي.

سمعت كريستال خطى والدتها تنزل الأدراج.

«اتركها»، قالت بنبرة جافّة لروبي الذي كان يمدّ يده لتناول عبوة بيرة فارغة مرميّة تحت الأريكة التي تجلس عليها تيري عادة. «تعال إلى هنا.»

جرّت روبي من يده إلى الممشى. كانت تيري لا تزال ترتدي سروال ملابس النوم والقميص القذر اللذين قضت الليل فيهما، وكانت حافية القدمين.

«لماذا لم تبدّلي ملابسك بعد؟» سألت كريستال.

«لن أذهب» ردّت تيري وهي تتجاوز ابنها وابنتها لتدخل إلى المطبخ. «بدّلت رأيي.»

«لماذا؟»

«هكذا، لا أريد» أجابت تيري. أشعلت سيجارة من نار عين الغاز.

«اللعنة! لست مجبرة.»

كانت كريستال لا تزال تمسك بيد روبي الذي يشدّ على ذراعها ويتأرجح.

«كلّهم ذاهبون» قالت كريستال. «شيريل، شاين، والجميع.»

«وإن يكن؟» ردّت تيري بعدائيّة.

كانت كريستال تخشى فعلًا أن تبدّل والدتها رأيها وتعْدُل في اللحظة الأخيرة. فتيري ستجد نفسها في المأتم وجهًا لوجه مع دانيال، الشقيقة التي تتصرّف وكأنّ تيري غير موجودة، وكذلك مع جميع الأقرباء الآخرين الذين تبرّأوا منهم. قد تكون آن ماري هناك أيضًا. كانت كريستال تتشبّث بهذا الأمل، كمن يتمسّك بقنديل في الظلام، في تلك الليالي التي قضتها تبكي نانا كاث والسيّد فيربراذر.

«لا بدّ أن تذهبي»، قالت لوالدتها.

«لا، لست ملزمة.»

«هذه نانا كاث، كيف يمكنك؟»

«وإن يكن؟» كرّرت تيري.

«بذلَت الكثير من أجلنا.»

«لا، لم تفعل» ردّت تيري بنبرة قاطعة.

«بلى، فعلت» جادلتها كريستال، وقد احمرّ وجهها بشدّة وهي لا تزال متشبّثة بيد روبي.

«من أجلك أنت ربّما، لكنّها لم تفعل أيّ شيء لعين من أجلي. اذهبي وابكي على قبرها اللعين إن كان هذا ما تريدينه. أمّا أنا، فسأنتظر هنا.»

«ماذا تنتظرين؟»

«هذا شأني.»

خيَّمت على الغرفة ظلالٌ قديمةٌ أليفة.

«سيأتي أوبو، أليس كذلك؟»

«هذا شأني أنا» ردّدت تيري بكبرياء مثيرة للشفقة.

«ستأتين إلى الدفن» قالت كريستال رافعة صوتها.

«اذهبي أنت.»

«لا تتعاطي، اللعنة!» زعقت كريستال.

«لن أفعل»، قالت تيري، قبل أن تشيح بوجهها وتسرح بنظرها من النافذة المتّسخة، متأمّلة المربّع المكسوّ بالأعشاب البريّة والنفايات والذي يسمّونه حديقة.

تمكّن روبي من الإفلات من يد كريستال وتوارى في غرفة الجلوس. وقفت كريستال غارزة قبضتَيها عميقًا في جيبَي بنطالها الرياضيّ، مقوّمة ظهرها، تحاول أن تقرّر ما ينبغي بها أن تفعل. كادت أن تبكي لفكرة عدم حضور الدفن. لكنّها رغم حزنها، شعرت بالارتياح إذ لن تضطرّ إلى مواجهة كلّ هذه النظرات المعادية التي صادفتها أحيانًا في منزل نانا كاث. كانت ناقمة على تيري، لكنّها في الوقت نفسه تشعر بتضامن غريب معها. لا تعرفين حتّى مَن هو والده، أليس هذا صحيحًا، أيّتها العاهرة؟

كانت تتوق إلى لقاء آن ماري، لكنّها كانت خائفة.

«حسنًا، في هذه الحالة سوف أبقى هنا أنا أيضًا.»

«لستِ ملزَمة بالبقاء. اذهبي إن شئت، لا يهمّني على الإطلاق.»

لكنّ كريستال بقيت، واثقة بأنّ أوبو سيحضر. مضى أكثر من أسبوع وهو غائب، مستغرقًا في أحد انشغالاته المشؤومة. تمنّت كريستال لو يكون مات، ولّى من غير رجعة.

باشرت توضيب المنزل، سعيًا منها لملء الفراغ، وهي تدخّن إحدى اللفافات التي أعطاها إيّاها فاتس وول. لم تكن تحبّ طعمها، لكن تحبّ أن يكون هو مَن أعطاها إياها. كانت تحتفظ بها مع ساعة تيسا في علبة المجوهرات البلاستيكيّة التي سلبتها من نيكي.

ظنّت بعدما تضاجعا في المقبرة أنّها لن تلتقيه مجدّدًا، لأنّه لم يتفوّه بكلمة تقريبًا في ما بعد، وفارقها بدون أن يستودعها حتّى. لكنّهما عادا والتقيا في المتنزّه. لاحظت هذه المرّة أنّه استمتع أكثر من المرّة السابقة. لم يدخّنا الحشيشة، فاستطاع أن يصمد لوقت أطول. استلقى بجانبها على

العشب، خلف الشجيرات، وأشعل سيجارة. وحين أخبرته عن وفاة نانا كاث، قال لها إن والدة سوكفيندر جاواندا وصفت لنانا كاث أدوية خاطئة أو شيئًا من هذا القبيل، لم يكن واثقًا تمامًا ممّا حصل.

شعرت كريستال بالهول. إذًا لم يكن من المقدّر لنانا كاث أن تموت، بل كان من الممكن أن تكون الآن في منزلها الصغير المرتّب في شارع هوب، تنتظر علّ كريستال تحتاج إليها، فتؤمّن لها ملاذًا مع سرير فَرشَت عليه شرشفًا نظيفًا، والمطبخ الصغير المليء بالطعام والخزفيّات غير المتجانسة، وذلك التلفزيون الصغير في زاوية الصالون: لا أرغب في مشاهدة هذه القذارات كريستال، أطفئي هذا.

كريستال تكنّ الكثير من المودّة لسوكفيندر، لكنّ والدة سوكفيندر قتلت نانا كاث، ولا يمكن التمييز بين أفراد قبيلة معادية. كانت كريستال عازمة على سحق سوكفيندر، وهو ما جاهرت به، لكنّ تيسا وول تدخّلت. لا يمكن كريستال أن تتذكّر بالتفصيل ما قالته لها تيسا، لكن يبدو أنّ فاتس فهم المسألة بشكل خاطئ، أو على الأقلّ لم يفهمها بشكل صحيح تمامًا. قطعت وعدًا لتيسا على مضض بعدم التعرّض لسوكفيندر، غير أنّ مثل هذه الوعود ليست سوى حلول موقّتة في عالم كريستال المتحوّل الصاخب.

«اترك هذا!» صاحت كريستال بروبي الذي كان يحاول أن ينزع الغطاء عن علبة البسكويت المعدنيّة حيث كانت تيري تحتفظ بعدّتها.

انتزعت كريستال العلبة منه وحملتها بين يديها وكأنّها كائن حيّ، كائن على استعداد أن يصارع من أجل بقائه، ستترتّب عن تدميره عواقب هائلة. كانت هناك صورة مخدّشة على الغطاء، تظهر فيها عربة كدّست على ظهرها حقائب، تجرّها أربعة خيول كستنائيّة في الثلج، ويقودها سائق يعتمر قبّعة عالية ويحمل بوقًا. حملت العلبة معها إلى الطبقة العلويّة، فيما تيري في المطبخ تدخّن، وخبّأتها في غرفة نومها. لحق بها روبي.

«أريد ألعب حديقة.»

كانت تأخذه أحيانًا إلى الحديقة، تدفعه على الأرجوحة والدولاب الدوّار.

«لا أستطيع اليوم روبي.»

أخذ يئنّ، إلى أن صاحت به أن يتوقّف.

لاحقًا في الليل، بعدما أعدّت كريستال لروبي عشاءه من السباغيتي المعلّبة وحمّمته، وبعد ساعات على دفن نانا كاث، نقر أوبو على الباب. لمحته كريستال من نافذة غرفة روبي، فهرعت لتصل إلى الباب قبل والدتها، لكنّ كيري سبقتها.

«مرحبًا تير» قال وهو يدخل بدون أن يدعوه أحد. «قيل لي إنّك كنت تبحثين عنّي الأسبوع الماضي.»

كانت كريستال أوصت روبي بملازمة غرفته، لكنّه تبعها إلى الأسفل. كان بوسعها أن تشمّ رائحة الشامبو المنبعثة من شعره تختلط برائحتَي التبغ والعرق المختمرتَين اللتين تفوحان من سترة أوبو الجلديّة القديمة. بدا واضحًا أنّه تناول بضع كؤوس قبل أن يأتي. اشتمّت كريستال رائحة البيرة حين التفت ليرمقها بنظرة شبقة.

«مرحبًا أوبو»، قالت تيري بصوت لمست فيه كريستال نبرة لا تسمعها حين تتكلّم والدتها مع أيّ شخص آخر، نبرة مهادِنة مجامِلة، وكأنّها تقرّ بأنّ لديه حقوق في منزلهم. «إذًا، أين كنت؟»

«بريستول»، أجاب. «كيف حالك تير؟»

«لا تريد شيئا»، قاطعتهما كريستال.

نظر إليها بعينين ترفّان خلف نظّارتَيه الغليظتَين. كان روبي متشبّثا بساق كريستال يضغط عليها بشدّة، إلى حدّ أنّها شعرت بأظافره تنغرز في جلدها.

«من هذه تير؟» سأل أوبو، «والدتك؟»

ضحكت تيري. رمقته كريستال بنظرة غاضبة، وذراعا روبي تضغطان على ساقها. انخفضت عينا أوبو الزائغتان إليه.

«وكيف حال صبيّي الصغير؟»

«ليس صبيّك اللعين!» أجابت كريستال.

«وما أدراكِ؟» سألها أوبو بهدوء، وعلى وجهه ابتسامة أقرب إلى تكشيرة.

«اغرب من هنا، هي لا تريد شيئًا. قولي له»، صاحت بتيري، «قولي له إنّك لا تريدين شيئا.»

وقف تيري بائسة، حائرة بين عزيمتين أقوى بكثير من إرادتها. «جاء يطمئنّ عليّ فقط...»، قالت.

«لا، غير صحيح»، قالت كريستال. «هذا هراء. قولي له. توقّفَت عن التعاطي منذ أسابيع.»

«هل هذا صحيح تيري؟» سأل أوبو وهو لا يزال يبتسم.

«أجل، هذا صحيح»، ردّت كريستال فيما بقيت تيري صامتة. «لا تزال تذهب إلى بيلتشابيل.»

«لن تبقي هناك طويلًا»، قال أوبو.

«اغرب من هنا!» صاحت كريستال بسخط.

«سوف يغلقونها»، قال أوبو.

«حقًا؟» سألت تيري وقد تملّكها الذعر فجأة. «لن يفعلوا، أليس صحيحًا؟»

«بالطبع سيفعلون، أكّد أوبو. ألم تسمعي بحصر النفقات؟»

«أنت لا تعرف شيئًا»، قالت كريستال لأوبو قبل أن تلتفت إلى والدتها: «هذا هراء. لم يقولوا شيئًا، أليس كذلك؟»

«حصر النفقات»، كرّر أوبو وهو يربّت على جيوبه المنتفخة بحثًا عن سجائر.

«إنّهم يراجعون ملفّك»، قالت كريستال لتيري. «لا يمكنك تعاطي المخدّرات الآن. لا يمكنك ذلك.»

«ما هذا؟» سأل أوبو وهو يقلّب ولّاعته، بدون أن تكترث أيّ منهما لشرح المسألة له. واجهت تيري نظرة ابنتها لثانيتين عابرتين، ثمّ خفضت عينيها ونظرت على مضض إلى روبي في ملابس النوم، لا يزال متمسّكًا بساق كريستال.

«أجل أوبو، كنت سأذهب إلى السرير»، تمتمت بدون أن تنظر إليه. «أراك ربّما مرّة أخرى.»

«سمعت أنّ جدّتك ماتت، أخبرَتني شيريل.»

تلوّت ملامح تيري تحت وطأة الألم. بدت فجأة عجوزًا، بعمر نانا كاث نفسها.

«أجل، سأذهب إلى السرير. تعال روبي. تعال معي روبي.»

لم يكن روبي يريد مفارقة كريستال وأوبو لا يزال هناك. بقيت تيري واقفة، مادّة يدها الشبيهة بمخلب.

«أجل، هيّا روبي، اذهب»، قالت كريستال. تحبّ تيري أحيانًا، حين تكون في مزاج معيّن، أن تضمّ ابنها إليها وكأنّه دبدوب. من المُجدي أن تتشبّث به إن كان ذلك يبقيها بعيدة عن المخدرات. «هيّا، اذهب مع ماما.»

اطمأنّ لنبرة صوت كريستال وترك تيري تحمله معها إلى الطبقة العلوية.

«إلى اللقاء»، قالت كريستال بدون أن تنظر حتّى إلى أوبو. ابتعدت بلامبالاة وتوجّهت إلى المطبخ. أخرجت من جيبها آخر لفافة أعطاها إيّاها فاتس وول وانحنت لتشعلها من نار الغاز. سمعت باب المدخل يغلق وشعرت بزهو الانتصار. ليذهب إلى الجحيم.

«لديك مؤخّرة جميلة، كريستال.»

انتفضت بعنف وصدمت الأطباق المكدّسة بجانب حوض الغسيل، فانزلق صحن وتحطّم فوق الأرض المتّسخة. لم يغادر أوبو المنزل، بل تبعها إلى المطبخ، وها هو يحدّق إلى نهديها تحت قميص التي شيرت الضيّقة.

«اغرب من هنا»، قالت.

«أنت صبيّة الآن.»

«ارحل.»

«يقال إنّك تفعلينها مجّانًا»، قال وهو يقترب. «بوسعك جني المزيد مما تكسبه أمّك.»

«اغرب...»

وضع يده على نهدها الأيسر. حاولت نزعها، فأمسك معصمها بيده الثانية. لامست سيجارتها المشتعلة خدّه فلكَمَها مرّتين على جانب رأسها.

تحطّم المزيد من الصحون أرضًا. وفيما أخذا يتصارعان، انزلقت وسقطت، فصدم مؤخّر رأسها الأرض، وبلمحة بصر، كان أوبو ممدّدًا فوقها. أحسّت بيده تشدّ على خصر سروالها الرياضيّ لتنزعه.

«لا! اللعنة! لا!»

شعرت بمفاصل أصابعه تنغرز في بطنها وهو يفكّ أزرار بنطاله. حاولت أن تصرخ، لكنّه صفعها على وجهها. رائحته ملأت أنفها كثيفة دبقة فيما تمتم في أذنها: «صرخة واحدة لعينة، وأقطع عنقك.»

ولجَها واخترَقها الألم. سمعته ينخر، وسمعت أنينها الخافت الضئيل. خجلت من ذلك الصوت الصادر عنها، أحسّت بنفسها خائفة وصغيرة إلى أقصى حدّ.

انتشى ونهض عنها. شدّت على الفور بنطالها الرياضيّ وقفزت لتواجهه. انهمرت الدموع من عينيها وهو يرمقها مجدّدًا بنظرة شبق.

«سوف أخبر السيّد فيربراذر»، سمعت نفسها تقول بصوت متهدّج. لم تفهم من أين أتت هذه الكلمات، لكنّها كانت مجرّد حماقة.

«ومن يكون ذلك المعتوه؟» بكّل أزرار بنطاله، أشعل سيجارة متمهّلًا، وهو يسدّ عليها الطريق للخروج من المطبخ. عبَر الممشى بخمولٍ ورحَل.

كانت ترتجف مثل ورقة خريف، كما لم ترتجف من قبل. أحسّت وكأنّها ستتقيّأ. كانت تشتمّ رائحته عليها. مؤخّر رأسها يخفق وجعًا. أحسّت بألمٍ في داخلها، وبسائل ينساب داخل سروالها الداخليّ. خرجت من المطبخ وهرعت إلى غرفة الجلوس حيث وقفت ترتعد، ذراعاها ملفوفتان من حولها. ثمّ سيطر عليها الهلع لوهلة لاحتمال أن يعود، فسارعت إلى الباب وأوصدته.

عادت إلى غرفة الجلوس حيث عثرت على عقب سيجارة أشعلته. أخذت تدخّن وهي ترتجف وتشهق بالبكاء. انهارت في أريكة تيري الاعتياديّة، لكنّها انتفضت ونهضت عند سماع خطى على الدرج. ظهرت تيري، بدت مرتبكة وقلقة.

«ما بك؟»

تلعثمت كريستال.

«هو... لقد اغتصبني.»

«ماذا؟» قالت تيري.

«أوبو... لقد...»

«لا يمكن أن يفعل هذا.»

تلك هي غريزة الإنكار التي تواجه بها تيري كلّ ما يحلّ بحياتها: لا يمكن، لا، لم أفعل إطلاقًا، لا، لم أفعل.

انقضّت كريستال عليها ودفعتها. انهار جسد تيري الهزيل إلى الخلف في الممشى، حيث أخذت تزعق وتشتم. ركضت كريستال إلى الباب الذي أوصدته للتوّ، تعاركت معه لتفتحه، وشرّعته على مصراعيه.

قطعت عشرين مترًا وهي لا تزال تنشج في الشارع المظلم، قبل أن يخطر لها أنّ أوبو قد يكون متربّصًا هناك، يراقب. انحرفت وعبرت راكضةً حديقة أحد الجيران، وسلكت طريقًا متعرّجًا عبر أزقّة خلفيّة حتّى وصلت إلى منزل نيكي. كان سروالها الداخليّ دبقًا من شدّة البلل وشعرت بأحشائها تنقلب من الغثيان.

كانت كريستال على يقين بأنّه اغتصاب، ما فعله لها. حصل ذلك لشقيقة ليان الكبرى في موقف سيّارات خلف نادٍ ليليّ في بريستول. لو حصل ذلك لفتاة سواها، لكانت لجأت إلى الشرطة، هي تعرف ذلك. لكن لا يمكن لفتاة إدخال الشرطة إلى حياتها حين تكون ابنة تيري ويدون.

سوف أخبر السيّد فيربراذر.

تسارعت العبرات حتّى كادت تخنقها. لكانت أخبرت السيّد فيربراذر. هو كان يفهم كيف هي الحياة الحقيقيّة، فأحد أشقّائه قضى وقتًا خلف القضبان. أخبرها السيّد فيربراذر قصصًا عن شبابه. لم تكن تشبه البتّة حياتها هي، لا يمكن لحياة أحد أن تنحدر إلى البؤس الذي هي فيه، كانت واثقة بذلك. بل كانت حياته تشبه حياة نيكي أو ليان. نفد المال لديهم، فوالدته كانت اشترت منزلهم في مجمّع المساكن الاجتماعيّة، لكنّها لم تتمكّن من دفع الأقساط، هكذا، اضطرّوا إلى العيش لفترة في مقطورة أعارهم إيّاها أحد أخوالهم.

كان بوسع السيّد فيربراذر أن يسوّي المسائل، وأن يجد حلولًا لها. حضر إلى منزلهم وتكلّم مع تيري على كريستال والتجذيف، بعدما وقع شجار ورفضت تيري توقيع إذن السماح لابنتها بالذهاب في رحلات مع الفريق. لم يشمئز عند دخوله منزلهم، أو بالأحرى لم يظهر اشمئزازًا، والأمر سيّان. حتى تيري، التي لم يكن أحد يعجبها أو يوحي لها بالثقة، قالت في النهاية: «يبدو لي شخصًا طيّبًا»، ووقّعت الإذن.

قال لها السيّد فيربراذر مرّة: «ستكون الأمور أكثر مشقّة عليك من سواك، كريس. كانت شاقّة بالنسبة إليّ أيضًا. لكن يمكنك أن تُبلي حسنًا. ليس من المحتوم عليك أن تسلكي الطريق ذاته.»

كان يقصد أنّ عليها أن تعمل بجهد في المدرسة وما إلى هنالك. لكن الأوان قد فات الآن، وفي مطلق الأحوال، كلّ هذا هراء. كيف يمكن القراءة أن تساعدها الآن؟

«وكيف حال صبيّي الصغير؟»

«ليس صبيّك اللعين!»

«وما أدراكِ؟»

اضطرّت شقيقة ليان إلى تناول تلك الحبّة التي يتناولونها في الصباح التالي للعلاقة الجنسية لمنع الحمل. سوف تسأل كريستال ليان عن الحبّة، ثمّ تذهب وتشتريها. لا يمكنها ان تحمل بطفل أوبو. مجرّد الفكرة تبعث فيها الغثيان.

عليّ أن أرحل من هنا.

خطر لها للحظة أن تلجأ إلى كاي، لكنّها استبعدت هذه الفكرة. أن تخبر مساعِدة اجتماعيّة بأنّ أوبو يدخل إلى منزلهم ويخرج منه كما يحلو له ويغتصب مَن يشاء فيه، هذا أسوأ من الذهاب إلى الشرطة. بالتأكيد سوف تأخذ روبي إذا علمت بما حدث.

كانت كريستال تتحدّث، بصوتٍ هادئ وصافٍ، يدور في رأسها، إلى السيّد فيربراذر. كان البالغ الوحيد الذي يقول لها الكلام التي هي بحاجة إلى سماعه، وهو ما لا تحسنه السيّدة وول المحدودة الأفق رغم نيّاتها الطيّبة، ولا حتّى نانا كاث التي كانت ترفض سماع الحقيقة كاملة.

عليّ أن أُخرِج روبي من هنا. كيف يمكنني أن أرحل؟ لا بدّ لي أن أرحل.

ملاذها الوحيد الآمن، ذلك المنزل الصغير في شارع هوب، يسطو عليه الآن أقرباؤها وسط شجارات عائليّة يحرّكها الجشع...

انعطفت عند مفرق وعبرت مسرعة في ضوء مصباح، وهي تلقي نظرة من خلفها لتتحقّق ممّا إذا كان يتعقّبها أو يراقبها.

وفجأة خطر لها الحلّ، وكأنّ السيّد فيربراذر رسم لها الطريق.

إذا حملت بطفل فاتس وول، سيكون بوسعها الحصول على مسكن اجتماعيّ من المجلس. وستتمكّن من أخذ روبي ليعيش معها ومع الطفل إذا عادت تيري تتعاطى المخدّرات. وأوبو لن يدخل منزلها أبدًا، على الإطلاق. ستوصد الباب بمزالج وسلاسل وأقفال، وسيكون منزلها نظيفًا، ناصعًا على الدوام، مثل منزل نانا كاث.

واصلت كريستال السير بأسرع ما أمكنها في الشارع المظلم. تباعدت عبراتها، ثمّ سكنت.

سيمنحها كولين وتيسا وول على الأرجح بعض المال. إنّهما من هذا النوع. يمكنها أن تتصوّر تيسا تحني وجهها بعطف فوق مهد. سوف تحمل كريستال حفيدهما.

سوف تخسر فاتس إذا حملت منه. هذا ما يفعله الصبية دائمًا حين تحمل الفتاة. رأت هذا يحصل في كلّ مرّة تقريبا في الحقول. لكنّه قد يهتمّ لأمر الطفل. فهو غريب الأطوار. في مطلق الأحوال، الأمر سيّان عندها. وبمعزل عن كونه عنصرًا أساسيًّا في خطّتها، فهو لم يعد ذا أهميّة كبرى في نظرها. ما تريده هو الطفل. لم يكن الطفل في نظرها مجرّد وسيلة للخروج من محنتها، فهي تحبّ الأطفال. لطالما أحبّت روبي. سوف تبقيهما في أمان، معًا. ستكون لعائلتها كما كانت نانا كاث، ولكن بنسخة أفضل، أكثر رقّة وأصغر سنًّا.

سيصبح بوسع آن ماري أن تأتي لزيارتهم، بعدما تنجح كريستال في الابتعاد عن تيري. أطفالهما سيكونون أولاد خالة. تراءى لها مشهد، رأت

نفسها وآن ماري واقفتين عند أبـواب مدرسة سانت توماس في باغفورد، تلوّحان لفتاتَين صغيرتَين ترتديان فستانَين من الأزرق الفاتح وجوارب.

لمحت الأضـواء مشتعلة في منزل نيكي، كالعادة. راحـت كريستال تركض بأقصى سرعتها.

الجزء الرابع

الجنون

5.11 بحسب أحكام القانون المدني، فإنّ الأحمق غير مؤهّل قانونيًّا وبشكل دائم للتصويت، لكنّ المصابين باختلال عقليّ يمكنهم التصويت خلال فترات الإدراك التي يمرّون بها.

تشارلز آرنولد-بيكر
إدارة المجالس المحليّة
الطبعة السابعة

1

باتت سامانثا تملك الآن أقراص الدي في دي الثلاثة التي أصدرتها فرقة ليبي الموسيقيّة المفضّلة. احتفظت بها في أحد أدراجها، مخبّأة بين جواربها وسراويلها الداخليّة، إلى جانب غشائها المانع للحمل. أعدّت حجّة جاهزة في حال اكتشفها مايلز: لقد اشترتها هديّة لليبي. أحيانًا، حين تكون الحركة أبطأ من العادة في متجرها، تبحث على الإنترنت عن صور لجايك. وخلال إحدى جولات التقصّي هذه لتصفّح صور جايك في بدلة رسميّة بدون قميص، أو جايك في سروال جينز وسترة بيضاء، اكتشفت أنّ الفرقة ستحيي حفلًا موسيقيًّا في ملعب ويمبلي بعد أسبوعين.

كانت لديها صديقة من أيّام الجامعة تقيم في وست إيلينغ بوسعها أن تبيت عندها لليلة. سوف تصطحب ليبي، وتقدّم المشروع لابنتها على أنّه هديّة لإرضائها وليقضيا بعض الوقت معًا. نجحت في شراء بطاقتَين باهظتي الثمن للحفل الموسيقيّ، وهي تشعر بإثارة لم تعرفها منذ وقت طويل. حين دخلت البيت في ذلك المساء، كانت مبتهجة، تخفي سرًّا حلوًا وكأنّها عائدة من موعد غراميّ.

كان مايلز في المطبخ، لا يزال في البدلة التي كان يرتديها في المكتب، وبيده الهاتف. رمقها بنظرة غريبة، غامضة، حين دخلت.

«ماذا؟» سألت سامانثا متحفّزة، في ردّ فعل دفاعيّ.

«لا يمكنني الاتّصال بوالدي. هاتفه اللعين مشغول. نُشر تعليق جديد على الموقع.»

نظرت إليه سامانثا بحيرة، فأضاف ببعض الامتعاض: «شبح باري فيربراذر! رسالة أخرى! على موقع المجلس الإلكتروني!»

«آه!» قالت سامانثا وهي تحلّ شالها عن عنقها. «فهمت.»

«أجل، التقيت بيتي روسيتر للتوّ في الشارع. كانت في غاية الانفعال. بحثت عن التعليق على لوح الرسائل، لكنّني لم أستطع العثور عليه. لا بدّ أنّ أمّي محته. آمل ذلك على الأقلّ. تبًّا! هي التي ستكون في الواجهة إن قرّرت براز الزيز الذهاب إلى محام.»

«إذًا كانت الرسالة حول بارميندر جاواندا، صحّ؟» سألت سامانثا متعمّدة اتّخاذ نبرة غير مبالية. لم تسأله ما التهمة، أوّلًا لأنّها لم تشأ أن تتحوّل إلى عجوزمتطفّلة ثرثارة مثل شيرلي ومورين، وثانيًا لأنّها واثقة بأنّها تعرف ما هي المسألة. لا بدّ أنّ الأمر على علاقة باتّهام بارميندر بالتسبّب بمقتل الجدّة كاث ويدون. انتظرت ثانية أو ثانيتين، ثمّ سألت وكأنّ في الأمر طرافة «هل قلتَ أنّ والدتك قد تكون في الواجهة؟»

«أجل، بما أنّها مديرة الموقع، فهي التي تتحمّل المسؤوليّة إن لم تحذف عنه التعليقات التشهيريّة أو التي يمكن أن تكون تشهيريّة. لست واثقًا بأنّهما هي وأبي يفهمان مدى خطورة المسألة.»

«يمكنك تولّي الدفاع عن أمّك. سيعجبها ذلك.»

لكنّ مايلز لم يسمعها. كان مقطّب الوجه، يحاول مجدّدًا الاتصال برقم والده الذي لا يزال مشغولًا.

«المسألة تأخذ منحى خطيرًا.»

«كنتم سعداء للغاية حين كان الهجوم يستهدف سايمون برايس. لماذا يختلف الوضع الآن؟»

«حسنًا، إن كانت هذه حملة ضدّ كلّ مَن هو عضو في المجلس، أو كل مَن يترشّح ليصبح عضوًا فيه...»

أشاحت سامانثا بوجهها حتّى لا يراها تبتسم. إذًا هو ليس قلقًا على شيرلي.

«لكن لماذا يكتب أيّ كان أشياء عنك؟» سألت ببراءة. «أنت لا تخفي أسرارًا معيبة.»

اللعنة! قد تكون أكثر إثارة بكثير لو أنّك تفعل.

«ماذا عن تلك الرسالة؟»

«أيّ رسالة؟»

«بحقّ الـ... قال أبي وأمّي إن رسالة وردت، رسالة من مجهول يقول فيها إنّني لست أهلًا للحلول محلّ باري فيربراذر!»

فتحت سامانثا الثلّاجة وتأمّلت محتواها غير المشهّي على الإطلاق، مدركة أنّ الباب المفتوح يحجب وجهها بحيث لا يعود بوسع مايلز أن يرى التعبير عليه.

«هل تعتقد حقًّا أنّ أحدًا ما يمسك عليك قضايا؟» سألت.

«لا، لكنّني محامٍ، صح؟ قد يكون هناك من له مآخذ عليّ. لا أعتقد أنّ هذا النوع من الرسائل التي يوجّهها مجهول... أعني أنّها لا تزال حتّى الآن موجّهة ضدّ الطرف الآخر، لكن قد تحصل أعمال انتقاميّة... لا يعجبني المنحى الذي تتّخذه هذه المسألة.»

«مايلز، هكذا هي السياسة»، قالت سامانثا بدون أن تأبه لإخفاء استمتاعها بالموقف. «وسط قذر.»

خرج مايلز بعصبيّة من الغرفة، لكنّها لم تكترث، إذ كانت قد عادت بأفكارها إلى ذلك الوجه المنحوت، الحاجبين العريضين، وعضلات المعدة المشدودة النافرة. بات بوسعها الآن أن تدندن مع معظم الأغاني. سوف تشتري تي شيرت عليها صورة الفرقة لترتديها... وتي شيرت أخرى لليبي أيضًا. سيكون جايك على مسافة بضعة أمتار منها، يترنّح ويتمايل. ستقضي أمسية ممتعة، أكثر متعة ممّا عرفته منذ سنوات.

في هذه الأثناء، كان هاورد يذرع محلّ الأطعمة المغلق، وهاتفه ملتصق بأذنه. كانت الستائر مغلقة والأضواء مشتعلة، وفي الجانب الآخر من القنطرة، كانت شيرلي وموربن منهمكتين في توضيب الأطباق والأكواب، مع اقتراب موعد افتتاح المقهى. كانتا تثرثران بانفعال، وبصوت منخفض، بينما

تنصتان في الوقت نفسه لهاورد وردوده التي لم تتخطّ كلمات وهمهمات يتيمة ومتباعدة.

«أجل... همممم... مممممم... نعم...»

«...تزعق بي» قالت شيرلي. «تزعق وتشتم. قالت لي: احذفيه حالًا، اللعنة! فأجبتها: سوف أحذفه دكتورة جاواندا، وأرجو منك ألّا تشتمي وأنت تكلّمينني.»

«لو تفوّهت بمثل هذه الشتائم معي أنا»، قالت مورين، «لكنت تركته على الموقع ساعتين إضافيّتين.»

ابتسمت شيرلي. الواقع أنّها بعد ذلك ذهبت وأعدّت كوب شاي، تاركة التعليق حول بارميندر على الموقع لخمس وأربعين دقيقة قبل أن تمحوه عنه. قامت مع مورين بتحليل موضوع التعليق ومناقشة جميع جوانبه إلى أن استنفدتاه تمامًا. ما زال هناك نقاط كثيرة يمكن تشريحها لاحقًا، لكنّهما أشبعتا نهمهما في الوقت الحاضر. كانت شيرلي تتطلّع الآن بنهم إلى ردّ فعل بارميندر بعدما فضح سرّها وخرج إلى العلن.

«إذًا، على ضوء ما حصل، من غير المعقول أن تكون هي من نشر ذلك التعليق حول سايمون برايس»، قالت مورين.

«لا، بالتأكيد»، وافقتها شيرلي وهي تلمّع الأطباق الجميلة الزرقاء والبيضاء التي اختارَتها بنفسها، متجاهلة رأي مورين التي كانت تفضّل اللون الزهريّ. تحبّ شيرلي أن تذكّر مورين بين الحين والآخر بأنّها لا تزال، بصفتها زوجة هاورد، تحظى بتأثيرٍ كبيرٍ على سير الأعمال، ولو أنّها لا تشارك فيها بصورة مباشرة.

«أجل» قال هاورد على الهاتف. «لكن ألن يكون من الأفضل لو...؟ همممم... ممممممم...»

«إذًا، من يقف خلف ذلك برأيك؟» سألت مورين.

«ليس لديّ أدنى فكرة»، أجابت شيرلي بتكلّف، وكأنّ معلومات أو شكوك مثل هذه لا تليق بمستواها.

«شخص يعرف عائلتي برايس وجاواندا»، تابعت مورين.

«طبعًا.»

أغلق هاورد الخطّ أخيرًا.

«أوبري من رأيي»، قال للمرأتين وهو يدخل المقهى بمشيته المتمايلة البطيئة، حاملًا بيده نسخة اليوم من جريدة يارفيل والجوار. «إنّها مقالة ركيكة جدًا. فعلًا ركيكة.»

استغرق الأمر بضع لحظات حتّى تتذكّر المرأتان أنّه من المفترض بهما أن تبديا اهتمامًا بالمقالة التي صدرت لباري فيربراذر بعد وفاته في الصحيفة المحليّة. فشبحه أكثر تشويقًا بكثير.

«آه، أجل» تداركت شيرلي.

«بالفعل، وجدتُ النص ضعيفًا جدّا حين قرأته.»

«المقابلة مع كريستال ويـدون كانت مضحكة»، قهقهت مورين بدورها. «حين تدّعي أنّها تحبّ الفنّ! أراهن أنّها تعني بالفنّ حفر مناضد المدرسة بالكتابات والنقوش.»

ضحك هاورد. أدارت شيرلي ظهرها، متذرّعة بالتقاط حقنة الإيبي-بن، التي جلبتها روث إلى متجر الأطعمة في الصباح لآندرو، عن الكونتوار. بحثت شيرلي عن معلومات حول هذه الحقنة على موقعها الطبّي المفضّل، وباتت تشعر بأنّ لديها الكفاءة التامّة لتشرح كيفيّة عمل الأدرينالين في الجسد. لكنّ أحدًا لم يسألها. وضعت إذًا الأنبوب الأبيض الصغير في الخزانة وأغلقت الباب، مُحدِثة أكبر قدر ممكن من الضجيج سعيًا لتعطيل انطلاقة مورين في التهكّم والتندّر.

رنّ الهاتف في يد هاورد الضخمة.

«آلو نعم؟ آه مايلز، أجل... أجل، علمنا بالأمر... أمّك رأته هذا الصباح»، قال ضاحكًا. «لا أدري... أعتقد أنّه نشر بالأمس... آه، لن أذهب إلى حدّ قول ذلك... جميعنا على علم، منذ سنوات، بشأن براز الزيز...»

غير أنّ الابتسامة على وجه هاورد أخذت تتبدّد فيما كان يستمع إلى مايلز. وبعد وهلة قال «آه... أجل، أفهم هذا. نعم. لا، لم أنظر إلى المسألة من هذه... ربّما يجدر بنا تكليف أحد التدقيق في أمن...»

لم يعر أيّ من الثلاثة في متجر الأطعمة انتباهًا لهدير محرّك سيّارة عبرت الساحة في المساء الذي بدأ يرخي ظلمته، لكنّ السائق لاحظ ظلّ هاورد موليسون الضخم يتنقّل خلف الستائر المعدنيّة بلون الكريم. ضغط غافين على دوّاسة البنزين، متلهّفًا للوصول إلى ماري. بدت يائسة تمامًا على الهاتف.

«مَن الذي يفعل هذا؟ مَن؟ مَن يكرهني إلى هذا الحدّ؟»

«لا أحد يكرهك، أجابها. مَن يمكنه أن يكرهك؟ ابقي في مكانك... إنّني آتٍ.»

ركَن السيّارة أمام المنزل، صفق الباب وعبر الممرّ مسرعًا. فتحت باب المدخل قبل أن يدقّ حتّى. كانت عيناها منتفختين من جديد، تملأهما الدموع. كانت ترتدي مبذلًا صوفيًا طويلًا يصل إلى الأرض، تبدو فيه قصيرة القامة. لم يكن مبذلًا جذّابًا على الإطلاق، بل كان نقيض الكيمونو القرمزيّ الذي كانت كاي ترتديه، لكنّ ظهورها أمامه في مثل هذه الملابس، ملابس البيت البسيطة، كان يعني الانتقال الى مستوى جديد من الحميميّة بينهما.

كان أولاد ماري الأربعة في الصالون. أشارت له ماري بيدها إلى المطبخ.

«هل هم على علم؟» سألها.

«فيرغوس علم بالأمر. أخبره أحد ما في المدرسة. طلبت منه ألّا يخبر الآخرين. بصراحة، غافين... لم أعد أقوى على الاحتمال. كلّ هذه الضغينة...»

«هذا غير صحيح» قال قبل أن يغلبه الفضول. «أليس كذلك؟»

«لا،» قالت بسخط. «أعني... لست أدري... لا أعرفها حقًا... لكن أن يجعلوه يتكلّم على هذا النحو... أن يضعوا الكلمات في فمه... ألا يكترثون إطلاقًا لما أشعر به؟»

انهارت باكية من جديد. شعر بأنّه يجدر به ألّا يضمّها وهي ترتدي مبذلها، وقال لنفسه إنّه حسنًا فعل، إذ دخل فيرغوس المطبخ بعد لحظة.

«مرحبًا غاف.»

كانت ملامح الفتى تعكس التعب، وبدا أكبر سنًا من سنواته الثماني عشرة. طوّق ماري بذراعه فأسندت رأسها على كتفه، وهي تمسح دموعها بكمّ مبذلها الفضفاض مثل طفلة.

«لا أعتقد أنّه الشخص نفسه»، قال فيرغوس بدون مقدّمات. «كنت أتفحّص التعليق. أسلوبه مختلف.»

كان الفتى قد نزّل الرسالة على هاتفه الجوّال، وراح يقرأها بصوت عالٍ.

«عضو مجلس البلدة د. بارميندر جاواندا التي تدّعي الحرص على رعاية الفقراء والمحتاجين في المنطقة، لطالما كان لديها دافع سرّي. حتّى موتي...»

«فيرغوس، توقّف!» قالت ماري وهي تنهار في أحد كراسي المطبخ. «لا يمكنني احتمال ذلك! حقّا، لم أعد أقوى! ومقالته التي صدرت اليوم أيضًا في الصحيفة!»

فيما راحت تبكي بصمت، مخبّئةً وجهها خلف يدَيها، لاحظ غافين نسخة من جريدة يارفيل والجوار على الطاولة. لم يكن قرأها. ذهب إلى خزانة الكحول ليعدّ لها كأسًا بدون أن يستأذنها أو يسألها.

«شكرًا غاف»، قالت بصوت مبحوح حين وضع الكأس بيدها.

«قد يكون هذا من فعل هاورد موليسون»، اقترح غافين وهو يجلس بجانبها، «بحسب ما كان باري يقول عنه.»

«لا أعتقد» قالت ماري وهي تمسح عينيها. «هذا في غاية الصلافة. لم يفعل يومًا شيئًا كهذا حين كان باري - أصيبت بحازوقة - على قيد الحياة.»

ثمّ التفتت الى ابنها وقالت له بعصبيّة: «ارمِ هذه الصحيفة، فيرغوس.»

بدا الفتى مرتبكًا وحزينًا.

«لكنّ مقالة أبي...»

«ارمِها حالًا!» ردّدت ماري بنبرة تلامس الهستيريا. «يمكنني قراءته على الكمبيوتر إن أردت ذلك. آخر عمل قام به، وفي يوم ذكرى زواجنا!»

أخذ فيرغوس الصحيفة عن الطاولة ووَقف لحظة يتأمّل والدته التي خبّأت وجهها مجدّدًا خلف يديها. ثمّ نظر إلى غافين وخرج من الغرفة وبيده الصحيفة.

بعد لحظات، حين أدرك غافين أنّ فيرغوس لن يعود، مدّ يده ليداعب ذراع ماري، محاولًا مواساتها. جلسا بصمت لبعض الوقت. كان غافين مسرورًا لعدم وجود الصحيفة أمام عينيه على الطاولة.

2

لم يكن يفترض ببارميندر أن تعمل في الصباح التالي، لكنّها كانت على موعد في يارفيل. ما أن غادر الأطفال إلى المدرسة حتى جابت المنزل بشكل روتينيّ لتتأكّد من أنّ كلّ ما تحتاج إليه في حوزتها. لكن عندما رنّ الهاتف، جفلت وأوقعت حقيبتها.

«نعم؟» أجابت بصوت أقرب إلى العواء كشف عمّا يشبه الخوف، ما باغت تيسا، على الطرف الآخر من الخطّ.

«ميندا، هذه أنا... هل أنت بخير؟»

«أجل... أجل... أجفلني الهاتف»، قالت بارميندر ناظرة إلى أرض المطبخ التي تبعثرت عليها المفاتيح والأوراق والنقود المعدنيّة والسدادات القطنيّة الصحّية.

«ما الأمر؟»

«لا شيء بالتحديد، قالت تيسا. اتّصلت لمجرّد الدردشة. لأطمئنّ على أحوالك.»

بقي موضوع التعليق الذي كتبه مجهول عالقاً بينهما كوحش متهكّم، يتدلّى من الخطّ. فبارميندر بالكاد سمحت لتيسا بالتطرّق إليه في اتّصال الأمس، وصرخت: «إنها كذبة، كذبة قذرة، ولا تقولي لي هاورد موليسون لم يفعلها!» لذا لم تجرؤ تيسا على متابعة الحديث في الموضوع.

«لا يمكنني التحدُّث، قالت بارميندر. لديّ اجتماع في يارفيل. مراجعةٌ لملفّ صبيّ صغير مُدرَج على سجلّ المعرّضين للخطر.»

«آه، حسنًا. آسفة. ربّما لاحقاً؟»

«نعم، قالت بارميندر. ممتاز. وداعاً.»

جمعت محتويات حقيبتها وأسرعت خارجةً من المنزل، لكنّها عادت أدراجها بعد وصولها إلى بوّابة الحديقة، لتتأكّد من أنّها أغلقت الباب جيّدًا.

من وقتٍ إلى آخر، في أثناء القيادة، كانت تتنبّه فجأة إلى أنّها لا تذكر أنّها اجتازت الميل الأخير، فتحثّ نفسها بحدّة على التركيز. لكنّ كلمات التعليق الخبيثة ظلّت تراودها. باتت تحفظها عن ظهر قلب.

عضو مجلس البلدة د. بارميندر جاواندا التي تدّعي الحرص على رعاية الفقراء والمحتاجين في المنطقة، لطالما كان لديها دافع سرّي. حتى موتي، كانت مغرمة بي، وكانت بالكاد قادرة على إخفاء ذلك عندما تنظر إليّ، وكانت تصوّت بما أملي عليها عند انعقاد مجلس البلدة. الآن بعد رحيلي، ستكون عديمة الفائدة كعضو لأنّها خسرت عقلها.

رأته للمرّة الأولى صباح الأمس عندما فتحت موقع مجلس البلدة لتطّلعَ على محضر الاجتماع الأخير. كانت الصدمة شبه جسديّة. تسارعت أنفاسُها وضحلت كما في أكثر مراحل الولادة عذابًا، عندما تحاول التحامل على الألم والانفصال عن الوجع الآنيّ.

لا بدّ أن الكلّ بات يعلم. لا مكان للاختباء.

ظلّت أغرب الأفكار تراودها. مثلاً، ما كانت جدّتها لتقول إن علمت أنّ بارميندر اتُّهمت في منتدى عام بحبّ زوج امرأة أخرى، غورا[1] أيضًا. يمكنها أن تتصوّر بيبي[2] وقد غطّت وجهها بطرف الساري الذي ترتديه، وهي تهزّ رأسها مهدهدةً نفسها إلى الخلف والأمام كعادتها عندما تحلّ بالعائلةَ أزمةٌ قاسية.

«بعضُ الأزواج»، قال لها فيكرام في وقت متأخّر من الليلة الفائتة، وابتسامته الساخرة تلوي شفتيه بشكل غريب غير معهود، «قد يرغب في معرفة ما إذا كان الأمر صحيحًا.»

«بالطبع ليس صحيحًا!» أكّدت بارميندر، واضعة يدًا مرتعشة على فمها. «كيف يمكنك أن تطرح عليّ هذا السؤال؟ بالطبع لا! كنت تعرفه! كان صديقي... مجرّد صديق!»

[1] وصف يطلَق في جنوب آسيا على ذوي البشرة الفاتحة.
[2] لقب تحبّب للجدّة.

وجدت نفسها تعبر من أمام عيادة بيلتشابيل لمعالجة الإدمان. كيف قطعت كلّ هذه المسافة الطويلة من غير أن تدرك؟ لقد قادت بتهوّر، لم تكن متنبّهة.

تذكّرت تلك الليلة، عندما ذهبت وفيكرام إلى المطعم، قبل حوالى عشرين عامًا، ليلة اتّفقا على الزواج. أخبرته عن كلّ البلبلة التي أثارتها العائلة عندما سارت إلى المنزل برفقة ستيفن هويل، فأقرّ فيكرام كم أنّ الأمر سخيفاً. تفهّم الأمر آنذاك. لكنّه لم يتفهّم عندما أتى الاتهام من هاورد موليسون بدلاً من أقربائها المتزمّتين. يبدو أنه لا يدرك أنّ بإمكان الغورا أن يكونوا محدودين، ومنافقين وينضحون بالخبث...

فوّتَت المُنعطف. عليها أن تركّز. عليها أن تنتبه.

«هل تأخّرْتُ؟» هتفت فيما أسرعت أخيرًا عبر موقف السيّارات في اتجاه كاي بودين. سبق أن التقَت المساعدة الاجتماعيّة مرّة واحدة، عندما زارتها لتجديد وصفة حبوب منع الحمل.

«أبدًا» قالت كاي. «فكّرتُ أنّني قد أرافقك إلى المكتب، فهذا المكان عبارة عن متاهة، وكأنّه جحر أرانب...»

كان مبنى المكاتب الذي يؤوي مكتب يارفيل للخدمات الاجتماعيّة عبارة عن بناء قبيح يعود إلى السبعينيات. فيما استقلّت السيّدتان المصعد، تساءلت بارميندر إن كانت كاي تعلم بالتعليق الذي وضعه مجهول على موقع مجلس البلدة، أو بالاتهامات التي وجّهتها اليها عائلة كاثرين ويدون. تخيّلت باب المصعد ينفتح لتجد نفسها أمام صفّ من الأشخاص الذين يرتدون البدلات، متربّصين لاتهامها وإدانتها. ماذا لو كانت هذه المراجعة لملفّ روبي ويدون مجرّد حيلة لاستدراجها، وهي تتّجه الآن إلى محاكمتها؟

أصطحبتها كاي عبر رواق رسميّ مهملٍ ومُقفر إلى غرفة اجتماعات. ثلاث سيّدات كُنّ جالسات هناك، حيَّين بارميندر بابتسامات.

«هذه نينا التي تهتمّ بوالدة روبي في بيلتشابل»، قالت كاي وهي تجلس، مديرة ظهرها للنوافذ ذات الستائر المعدنية. «وهذه المشرفة عليّ

جيليان، وهذه لويز هاربر التي تشرف على حضانة انكور رود.، د. بارميندر جاواندا، الطبيبة العامّة التي تتابع روبي»، أضافت كاي.

تناولت بارميندر قهوة الضيافة، بينما بدأت النساء الأربع الأخريات حديثًا لا يشملها.

(عضو مجلس البلدة د. بارميندر جاواندا التي تدّعي الحرص على رعاية الفقراء والمحتاجين في المنطقة...

التي تدّعي الحرص. هاورد موليسون، أيّها الحقير. لكنّه لطالما اعتبرها منافقة، باري قال ذلك. «باعتقاده إنّني، بسبب تحدّري من حيّ الحقول، أرغب في أن يكتسح اليارفيليّون باغفورد. أمّا أنت، فبسبب انتمائك لطبقة المهنيين الراقية، لا تملكين بنظره أيّ حقّ في الوقوف إلى صفّ حيّ الحقول. لذا، يعتبرُك منافقة أو تثيرين المشاكل للتسلية.»)

«...أفهم لما تسجّلت العائلة لدى طبيب عامّ في باغفورد؟» قالت إحدى العاملات الاجتماعيّات الغريبات اللواتي نسيت بارميندر أسماءهن على الفور.

ردّت بارميندر على الفور: «هناك عدة عائلات من حي الحقول مسجّلة لدينا. لكن ألم تحصل مشاكل مع آل ويدون في السابق مع...؟»

«بلى، طُردوا من عيادة كانترميل»، قالت كاي، التي وضعت أمامها كدسة أوراق أكثر سماكة ممّا وضعته أي من زميلتيها. «تيري اعتدت على ممرّضة هناك. وبالتالي تسجّلوا لديكِ، منذ متى؟»

«منذ حوالى خمس سنوات»، قالت بارميندر، التي سبق أن اطّلعت على جميع التفاصيل في العيادة.

(رأت هاورد في الكنيسة، أثناء جنازة باري، متظاهرًا بالصلاة، وهو يشبك يديه الغليظتَين السمينتَين أمامه، فيما جثا أوبري وجوليا فاولي إلى جانبه. كانت بارميندر تعلم بما يفترض بالمسيحيين أن يؤمنوا به. أحبِب قريبك كما تحبّ نفسك... لو كان هاورد أكثر صدقاً لكان استدار وصلّى لأوبري...

حتى موتي كانت مغرمة بي، وكانت بالكاد قادرة على إخفاء ذلك عندما تنظر إليّ...

هل حقًّا كانت بالكاد قادرة على إخفاء ذلك؟)

«...رأيتِه للمرة الأخيرة، بارميندر؟» سألت كايت.

«عندما اصطحبَته شقيقته للحصول على مضادّات حيويّة من أجل التهاب في الأذن»، قالت بارميندر، «قبل حوالى ثمانية أسابيع.»

«وكيف كان وضعه الجسدي آنذاك؟» سألت إحدى السيّدتين الأخريين.

«في الحقيقة، لا يمكن القول إنّه يعاني تأخّرًا في النموّ»، قالت بارميندر، وهي تسحب رزمة صغيرة من الأوراق المنسوخة من حقيبتها. «فحصته بدقّة لأنني... في الواقع أعرف تاريخ عائلته. وزنه جيّد، لكنّني أشكّ في أن تكون حميته من أفضل ما يكون. لا قمل ولا بيوض قمل أو أي شيء من هذا القبيل. كانت مؤخّرته مسمّطة قليلاً، وأذكر أنّ شقيقته قالت إنّه ما زال يبلّل نفسه أحيانًا.»

«إنّهم يعيدون باستمرار إلباسه الحفاضات»، قالت كاي.

«لكن أليست لديك مخاوف كبيرة على المستوى الصحّي؟» قالت السيدة التي كانت بادرت أوّلًا إلى سؤال بارميندر.

«لم تكن هناك أي علامة سوء معاملة»، قالت بارميندر. «أذكر أنّني خلعت سترته للتأكّد، ولم تكن هناك أي رضوض أو جروح.»

«ليس هناك رجل في المنزل»، أكّدت كاي.

«وذاك الالتهاب في الأذن؟» سألت المشرفة على بارميندر بإلحاح.

«كان التهابًا جرثوميًّا عاديًّا نتيجة فيروس. لا شيء مريبًا. أمر عاديّ لدى الأطفال في هذه السنّ.»

«إذًا، بالإجمال...»

«رأيت أسوأ من ذلك بكثير»، قالت بارميندر.

«قلتِ إنّ شقيقته هي التي أحضرته، لا الوالدة؟ هل أنت طبيبة تيري كذلك؟»

«أعتقد أنّنا لم نرَ تيري منذ خمس سنوات» قالت بارميندر. التفتت المشرفة إلى نينا.

«كيف يجري علاجها بالميثادون؟»

(حتّى موتي كانت مغرمة بي...

فكّرت بارميندر، ربّما تكون شيرلي، أو مورين هي الشبح، وليس هاورد.. فالأرجح، بما لديهما من عقلية عجائز قذرات، أن تكونا هما مَن راقبتاها عندما كانت مع باري، على أمل أن ترصدا أيّ شيء...)

«...أطول فترة أمضتها في البرنامج حتى الآن»، قالت نينا. «ذكرَت مراجعة الملفّ كثيراً خلال حديثي معها. يخال لي أنّها تدرك أنّ هذه المرّة نهائيّة، وأنّ فرصها تنفد. لا تريد فقدان روبي. قالت ذلك عدّة مرات. عليّ أن أقرّ بأنك تمكّنت من التواصل معها، كاي. أراها حقًّا تتحمّل مسؤوليّة وضعها إلى حدّ ما، للمرّة الأولى منذ تعرّفت إليها.»

«شكراً، لكنّني لن أبالغ في الحماسة منذ الآن. فالوضع ما زال إلى حدّ كبير غير مستقرّ.» بدت كلمات كاي المُثبطة متناقضة مع ابتسامة الرضى الطفيفة التي عجزت عن كبتها. «كيف الحال في الحضانة، يا لويز؟»

«لقد عاد مجدّدًا»، قالت العامِلة الاجتماعية الرابعة. «سجّل حضورًا كاملًا طوال الأسابيع الثلاثة الفائتة، وهذا تغيّر هائل. أخته المراهقة تصطحبه. ملابسه صغيرة جدًّا عليه وغالبًا ما تكون متّسخة، لكنّه يتحدّث عن أوقات الاستحمام وعن واجباته في المنزل.»

«وسلوكيًّا؟»

«إنّه متأخّر في النمو. مهاراته اللغويّة ضعيفة جدًّا. يكره حين يدخل رجالٌ إلى الحضانة. وعندما يأتي الآباء يرفض الاقتراب منهم، بل يمكث إلى جانب عاملات الحضانة ويصبح شديد الاضطراب. مّرة أو مرّتين»، قالت وهي تقلب صفحة من أوراقها، «قلّد، حيال فتيات صغيرات أو قربهنّ، ما بدا بوضوح أفعالًا جنسيّة.»

«أعتقد، مهما قرّرنا، أنه ينبغي عدم إزالته من سجلّ المعرّضين للخطر»، قالت كاي، حاصدةً همهمة تأييد عامّة. «يبدو أن كلّ شيء رهن ببقاء تيري في برنامجك»، قالت المشرفة لنينا، «وببقائها نظيفة، بعيدًا عن المخدّرات.»

«هذا أساسيّ بالطبع»، أكّدت كاي، «لكن ما أخشاه هو أنّها حتّى عندما لا تكون تحت تأثير الهيرويين، فهي لا تمارس كثيرًا دور الأمّ مع روبي. يبدو أن كريستال هي التي تربّيه، وهي في السادسة عشرة ولديها الكثير من المشاكل الخاصة...»

(تذكّرت بارميندر ما قالته لسوكفيندر قبل ليلتين.

كريستال ويدون! تلك الفتاة البلهاء! أهذا ما تعلّمته من المشاركة في فريقٍ واحدٍ مع كريستال ويدون؟ أن تهبطي إلى مستواها؟

باري أحبّ كريستال. رأى فيها أشياء خفيت على الآخرين.

ذات مرّة منذ زمن طويل، روت بارميندر لباري قصّة باي كانايا، البطل السيخ الذي هبّ لخدمة جرحى الحرب سواء كانوا أصدقاء أو أعداء. وعندما سُئل لماذا كان يقدّم المساعدة بلا تمييز، أجاب باي كانايا أنّ نور الله يشعّ من كلّ روح، وتعذّر عليه التفريق بين الأرواح.

نور الله يشعّ من كلّ روح.

نعتَت كريستال ويدون بالغباء مُلمحة إلى أنها سافلة.

ما كان باري ليقول ذلك أبدًا.

شعرت بالخزي.)

«...عندما كانت هناك جدة والدتها التي قد توفّر بعض المساعدة في العناية بها، لكنّها...»

«توفّيت»، قالت بارميندر، مستبقة الجميع. «نُفاخ رئويّ وسكتة.»

«أجل»، قالت كاي وهي تواصل تفحّص أوراقها. «حسنًا، لنعد إلى تيري. هي نفسها كانت في عائلة استقبال. هل شاركت في أيّ وقت من الأوقات في دورةٍ تأهيليّة لتربية الأولاد؟»

«نحن نوفّر هذه الصفوف، لكنها لم تكن يومًا في حالة تسمح لها بالحضور»، قالت السيدة من الحضانة.

«إن وافقت على الحضور وأتت بالفعل، فسيكون ذلك خطوة هائلة إلى الأمام»، قالت كاي.

«إذا أجبرونا على الإغلاق»، تنهّدت نينا من بيلتشابيل موجّهة الحديث إلى بارميندر «أفترض أنها ستضطرّ على أن تتوجَّه إليك لتتزوّد بالميثادون.»

«أخشى ألّا تفعل»، قالت كاي قبل أن يتسنّى لبارميندر الردّ.

«ماذا تعنين؟» سألت بارميندر غاضبة.

حدّقت النساء الأخريات إليها.

«ما أعنيه هو أنّ مجرّد استقلال الحافلات وتذكّر المواعيد ليس من نقاط قوة تيري»، قالت كاي. «أمّا للذهاب إلى بيلتشابيل، فليس عليها سوى التقدّم قليلًا في الشارع.»

«آه»، قالت بارميندر مُحرَجة، «بالطبع. آسفة. نعم، أنتِ محقّة على الأرجح.»

(فقد ظنّت لوهلة أنّ كاي تلمّح إلى الشكوى حول وفاة كاثرين ويدون، وكيف أن تيري ويدون لم يعد بوسعها أن تثق بها.

ركّزي على ما يقلن. ما خطبك؟)

«إذاً، بصورة عامة» قالت المشرفة وهي تنظر إلى أوراقها، «لدينا حالة إهمالٍ في التربية تتخلّلها فترات من العناية المناسبة.» تنهّدت، لكنّ صوتها كان يحمل استياء أكثر ممّا يحمل حزنًا. «خطر الأزمة الوشيكة انقضى... فقد توقّفت عن التعاطي... روبي عاد إلى الحضانة حيث يمكننا متابعته بشكل مناسب... ولا خوف على سلامته بصورة آنيّة. كما قالت كاي، يبقى في سجلّ المعرّضين للخطر...أعتقد أننا نحتاج حتمًا إلى اجتماع آخر بعد أربعة أسابيع...»

مرّت أربعون دقيقة أخرى قبل أن ينتهي الاجتماع. رافقت كاي بارميندر إلى موقف السيارات. «أقدّر لك كثيرًا حضورك شخصيًّا، فأغلبيّة الأطبّاء العامّين يرسلون تقريرًا.»

«كانت هذه صبيحة عطلتي»، قالت بارميندر. أرادت بكلامها تبرير حضورها، فهي تكره المكوث في المنزل وحدها من دون أن تفعل شيئًا، لكنّ كايت ظنّت، على ما يبدو، أنّها تسعى إلى مزيد من الإشادة، فقدّمتها لها.

قرب سيارة بارميندر، قالت كاي: «أنت عضو مجلس البلدة، أليس كذلك؟ هل سلّمك كولين الأرقام التي أعطيتها له حول بيلتشابيل؟»

«أجل، فعل»، قالت بارميندر. «سيكون جيّدًا أن نناقش المسألة معًا في وقت ما. فهي مدرجة على جدول أعمال الاجتماع المقبل.» لكن ما إن أعطتها كيت رقم هاتفها وغادرت مكرّرةً شكرها، حتى عادت بارميندر بأفكارها إلى باري والشبح وعائلة موليسون. كانت تقود عبر حيّ الحقول عندما تمكّنت الفكرة البسيطة التي حاولت طمسها وكبتها من التسلل أخيراً عبر دفاعاتها.

ربما كنتُ مغرمةً به بالفعل.

3

أمضى آنـدرو ساعات ليقرّر ما سيرتدي في يوم عمله الأوّل في «الإبريق النحاسيّ». كان خياره النهائيّ ملقى على ظهر كرسيّ في غرفة نومه. وفيما قرّرت بثرة شنيعة لمّاعة الانبثاق باندفاع من خدّه الأيسر، آل الأمر به إلى تجربة كريم الأساس الخاصّ بروث، بعد أن سحبه خلسة من دُرج طاولة زينتها. كان يُعدّ المائدة على طاولة المطبخ مساء الجمعة، وفكره يضجّ بغايا وبالساعات السبع الكاملة التي سيمضيها بمحاذاتها ولا تفصله عنها سوى بعض الساعات، عندما عاد والده من العمل في حالة لم يشهده آندرو فيها من قبل. بدا سايمون محبطًا، شبه ضائع.

«أين والدتك؟»

جاءت روث مندفعةً من غرفة المؤونة.

«مرحبًا، سيمو حبيبو! كيف... ما الخطب؟»

«لقد فصلوني.»

وضعت روث يديها على وجهها مرتاعة، ثمّ اندفعت نحو زوجها، لفّت ذراعيها حول عنقه وجذبته إليها.

«لماذا؟» قالت هامسة.

«ذاك التعليق»، قال سايمون. «على ذاك الموقع اللعين. سرّحوا جيم وتومي كذلك. إما أن تُصرف بتعويضٍ أو نطردك. والصفقة مزرية. لا توازي

حتى ما أعطوه لبراين غرانت.» وقف آندرو مسمّرًا بدون حراك، حتّى أضحى أشبه بنصب من الذنب الخالص.

«اللعنة»، قال سايمون، مخفيًا وجهه في كتف روث.

«ستجد شيئًا آخر»، همست.

«ليس في هذه الأنحاء»، قال سايمون.

جلس إلى طاولة مطبخ من دون أن يخلع معطفه وحدّق عبر الغرفة، مشدوهًا إلى درجة بات معها عاجزًا عن الكلام. حامت روث حوله قلقة، مبدية عطفها وعيناها مغرورقتان بالدموع. فرح آندرو حين لمح في نظرة سايمون الكابية الجامدة مسحة من الكذب الذي يميّز نوباته المسرحيّة المرتجلة المعهودة، إذ خفّف ذلك بعض الشيء شعورَه بالذنب. واصَل ترتيب الطاولة من دون التلفّظ بكلمة.

كان العشاء هادئًا. بدا بول مذعورًا بعدما اطّلع على أخبار العائلة، وكأنّ والده قد يتّهمه بالتسبّب بكلّ شيء. تصرّف سايمون كشهيد مسيحي في أثناء الطبق الأوّل، جريحًا إنّما بكرامة في وجه اضطهاد لا مبرّر له. ثم فجأة...»سأدفع المال إلى أحدهم كي يلكم وجه السافل السمين ويفكّ رقبته»، انفجر بالكلام فيما كان يلتهم ملعقة من فطيرة التفاح. أدركت العائلة أنه يقصد هاورد موليسون.

«أتعلم أنّ تعليقًا جديدًا ورد إلى موقع مجلس البلدة ذاك؟» قالت روث منقطعة الأنفاس. «لست الوحيد الذي تلقى الضربة سيمو. أحدهم أخبرني في العمل. الشخص نفسه... شبح باري فيربراذر... نشر شيئا فظيعًا عن الدكتورة جاواندا. لذا، أحضر هاورد وشيرلي شخصًا ليتفحّص الموقع، وتبيّن معه أنّ مَن ينشر تلك التعليقات يستخدم بيانات الدخول الخاصّة بباري فيربراذر، لذلك، كإجراء احترازيّ، أزالوها من... من قاعدة البيانات أو شيء من هذا القبيل...»

«وهل سيعيدني أيّ من هذه الإجراءات إلى وظيفتي؟»

لم تتكلّم روث مجدّدًا لبضع دقائق.

أثارت أقوال روث توتّر آندرو. كان مقلقًا التحقيق في «شبح باري فيربراذر»، ومثيرًا للتوتّر أن يكون أحد آخر اتّبع خطاه. من قد يفكّر في استخدام بيانات الدخول الخاصّة بباري فيربراذر غير فاتس؟ لكن لِمَ يتهجّم فاتس على الدكتورة جاواندا؟ أم أنّها طريقة أخرى للانتقام من سوكفيندر؟ لم يرُق ذلك لآندرو على الإطلاق...

«ما خطبك؟» نبح سايمون من الطرف الآخر للمائدة.

«لا شيء»، تمتم آندرو، قبل أن يعود ويحوّل الحديث، «إنها صدمة، أليس كذلك...وظيفتك...»

«آه، أنت مصدوم، ألست كذلك؟» صرخ سايمون، فأوقع بول ملعقته وقطّر البوظة على ملابسه. «(نظّفيه يا بولين، أيّتها المخنّثة!) إنّه العالم الحقيقيّ، يا وجه البيتزا» صرخ في وجه آندرو. «السفلاء في كلّ مكان يحاولون النيل منك! لذا، أنت» واشار إلى ابنه البِكر من الطرف الآخر للمائدة، «أنت ستجد شيئًا قذرًا حول موليسون، وإلّا لا تعذّب نفسك في العودة إلى المنزل غدًا!»

«سيمو...»

دفع سايمون كرسيه بعيدًا عن الطاولة، ورمى ملعقته التي ارتطمت بالأرض مقرقعة، وخرج من الغرفة بحدّة مغلقًا الباب بعنف. كان آندرو ينتظر حدوث ما لا يمكن تجنّبه، ولم يخِب أمله.

«إنّها صدمة مروّعة بالنسبة إليه»، همست روث مضطربة لابنيها. «بعد كلّ هذه السنين التي قدّمها إلى تلك الشركة...إنه مهموم، لا يعرف كيف سيعيلنا جميعًا...»

عندما رنّ المنبّه في السادسة والنصف في الصباح التالي، اطفأه آندرو بعنف في ثوانٍ وقفز من السرير. كان يشعر وكأنّه صباح عيد الميلاد، اغتسل وارتدى ملابسه بسرعة، ثم أمضى أربعين دقيقة يرتّب شعره ويعتني بوجهه، مارغًا كميّات ضئيلة من كريم الأساس على بثراته الأكثر بروزًا.

كان شبه واثقٍ بأنّ سايمون سينقضّ عليه فيما تسلّل من أمام غرفة والديه، لكنه لم يلقَ أحدًا، وبعد فطور سريع أخرج درّاجة سايمون من المرأب وأسرع منحدرًا إلى أسفل التلّة في اتجاه باغفورد.

كان صباحًا ضبابيًا ينبئ بشمسٍ لاحقة. وجد الستائر لا تزال مسدلة في محلّ الأطعمة، لكنّ الباب أصدر جلجلة ناعمة من الأجراس المعلّقة عليه وفتح بسهولة عندما دفعه.

«ليس من هنا!» هتف هاورد متقدّمًا صوبه بخطى متثاقلة. «ادخل من الخلف! يمكنك أن تركن الدرّاجة قرب مستوعبات النفايات، أبعدها عن المدخل!»

كان ممرّ ضيّق يفضي إلى مؤخّر المتجر. مجرّد باحة رطبة ضيّقة أرضيّتها حجريّة، تحدّها جدران عالية، وسقيفات من الألواح المعدنيّة الصناعيّة الحجم، وباب أفقيّ يؤدّي عبر درجات شديدة الانحدار إلى قبو.

«يمكنك ربطها في مكان ما هناك، بعيدًا عن الممرّ»، قال هاورد الذي ظهر من الباب الخلفيّ، لاهثًا متعرّق الوجه.

وقف هاورد يجفّف جبينه بمئزره، فيما آندرو يعالج قفل الجنزير.

«حسنًا، سنبدأ بالقبو» قال بعد أن ربط آندرو الدراجة. أشار إلى الباب الأفقيّ. «انزل إلى هناك وانظر إلى ترتيب الأغراض في المكان.»

إنحنى فوق الباب فيما كان آندرو ينزل السلالم. لم يطأ هاورد قبوه منذ سنوات. بالعادة كانت مورين تنزل وتصعد السلالم مرّتين في الأسبوع، لكن الآن، بعد تموين القبو بالكامل بالسلع من أجل المقهى، باتت هناك حاجة حتميّة إلى ساقين أكثر شبابًا.

«انظر حولك جيّدًا»، هتف بعدما توارى آندرو عن أنظاره. «أترى أين وضعنا الكعك المحلّى وجميع المخبوزات؟ أترى أكياس حبوب القهوة الكبيرة وعلب أكياس الشاي؟ وفي الزاوية... لفافات ورق الحمام وأكياس سلال النفايات؟»

«أجل»، تردّد صدى صوت آندرو من الأعماق.

«يمكنك أن تدعوني سيد موليسون»، قال هاورد، بصوت يصفِر شابَته بعض الحدّة.

تساءل آندرو في أعماق القبو ما إذا كان ينبغي به البدء على الفور.

«حسنًا... سيّد موليسون.»

بدا كلامه ساخرًا. سارع إلى التعويض عن ذلك بسؤال مهذّب.

«ماذا في هذه الخزائن الكبيرة؟»

«انظر»، قال هاورد وقد عيل صبره. «هذا سبب وجودك في الأسفل. كي تعلم أين تضع كل شيء ومن أين تجلبه.»

أنصت هاورد إلى الأصوات المكتومة التي بعثتها الأبواب الثقيلة حين فتحها آندرو، آملًا ألا يتبيّن في النهاية أن الفتى بليد أو يحتاج الكثير من الإرشاد. كان الربو الذي يعاني منه هاورد متأزّما بشكل خاص اليوم. فنسبة غبار الطلع في الجو عالية إلى درجة لا تعقل، فضلًا عن كلّ العمل الإضافي الذي يتطلّبه الإفتتاح، وكلّ ما يواكبه من قلق وإثارة. كان يتصبّب عرقًا، إلى حدّ قد يضطرّه للاتصال بشيرلي كي تحضر له قميصًا جديدة قبل أن يفتحوا الأبواب.

«ها هي سيارة النقل!» هتف هاورد بعد سماعه هديرًا في الطرف الآخر من الممرّ. «اصعد إلى هنا! عليك نقل الأغراض إلى القبو وترتيبها، سمعتني؟ واجلب لي غالونين من الحليب إلى المقهى. مفهوم؟»

«أجل... سيّد موليسون»، قال صوت آندرو من الأسفل.

عاد هاورد ببطء إلى الداخل ليحضر جهاز الاستنشاق الذي يحتفظ به في سترته المعلّقة في غرفة الموظّفين، خلف كونتوار محلّ الأطعمة. بعد عدة أنفاس عميقة، تحسّن وضعه. جلس يستريح على أحد الكراسي التي أصدرت صريرًا، وهو يمسح وجهه بمئزره مجدّدًا.

فكّر هاورد مرارًا منذ زيارته للدكتورة جاواندا بخصوص طفحه الجلديّ، بما قالت عن وزنه، وعن أنّه سبب جميع مشاكله الصحّية.

هراء بالطبع. ها هو ابن هابردز: نحيل كعود قشّة ويعاني الربو. لطالما كان هاورد ضخم الجثّة، إلى أبعد ما تعود به الذاكرة. في الصور القليلة له مع والده الذي ترك العائلة عندما كان هاورد في الرابعة أو الخامسة من العمر، كان مكتنزًا فحسب. لكن بعد رحيل والده، أصبحت أمّه تُجلِسه على رأس الطاولة بينها وبين جدته، وكانت تحزن إن لم يُعِد ملء طبقه. راح حجمه يزداد ويتضخّم باطّراد ليملأ الفراغ بين المرأتين، حتى أصبح، وهو في الثانية عشرة من العمر، بوزن الوالد الذي تخلّى عنهم. باتت الشهيّة النهمة ترتبط في ذهن

هاورد بالرجولة. أصبحت جسامته إحدى ميزات هوّيته الأساسيّة. فقد بنَتها المرأتان اللتان أحبّتاه، وسط الكثير من اللذّة والمتعة. ولم يكن مفاجئًا بنظره أن تحاول براز الزيز، تلك الخاصِيَة المُفسدة للبهجة، تجريده منها.

لكن أحيانًا، في لحظات الضعف، عندما كان يصعب عليه التنفّس أو التحرّك، كان هاورد يشعر بالخوف. كان بوسع شيرلي أن تتصرّف كما لو أنّه لم يكن يومًا في خطر، لكنّه لا يزال يذكر تلك الليالي الطويلة في المستشفى بعد خضوعه لعمليّة القلب، حين كان يعجز عن النوم، خشية أن يضعف قلبه ويتوقّف. وفي كلّ مرّة يلتقي فيكرام جاواندا، يتذكّر أن تلك الأنامل السمراء الطويلة لامست قلبه العاري النابض. تلك الحفاوة التي يبادرها به كلّما التقاه، إنّما كانت وسيلة لطرد ذاك الرعب البدائيّ الغريزيّ. قالوا له في المستشفى لاحقًا أنّ عليه أن يخسر بعض الوزن، لكنّه فقد حوالى ثلاثة عشر كيلوغرامًا تلقائيًا بمجرّد أنّه أجبر على تناول طعامهم المريع، وكانت شيرلي مصمّمة على إعادة تسمينه بعد خروجه...

بقي هاورد جالسًا لبعض الوقت، مستمتعًا باستعادة أنفاسه بعد استخدام المُستنشق. ذلك النهار يعني الكثير له. قبل خمسة وثلاثين عامًا، عَرّف باغفورد على الأطعمة الراقية، باندفاع مغامرٍ من القرن السادس عشر عائد من أصقاع العالم محمّلًا بالأطايب. وبعدما توجسّت باغفورد في البدء، بدأت لاحقًا تتشمّم أوعيته البوليستيرينيّة بحشريّة وخجل. فكّر بحزنٍ في والدته الراحلة التي كانت فخورة به وبمحلّه المزدهر. ودّ لو كان بوسعها رؤية المقهى. نهض هاورد متبالدًا، أخذ قبّعة صيد السمك عن مِشبكها، ووضعها بعناية على رأسه وكأنه يتوّج نفسه.

وصلت نادلتاه الجديدتان معًا في الساعة الثامنة والنصف. كانت لديه مفاجأة لهما.

«ها أنتما» قال، مناولًا إيّاهما بدلتهما: فستانان أسودان ومئزران أبيضان مكشكشان، تمامًا مثلما تخيّل. «يفترض أن يكون المقاس مناسبًا. تعتقد مورين أنّها تعرف مقاساتكما. هي أيضًا ترتدي زيًّا مماثلًا.» بالكاد تمالكت غايا نفسها عن الضحك حين دخلت مورين إلى المتجر من المقهى، مبتسمةً لهما.

كانت تنتعل خفّين من طراز دكتور شول فوق جاربَيها السوداوَين، وفستانها ينتهي قبل خمسة سنتيمترات من ركبتَيها المجعّدتَين.

«يمكنكما تبديل ملابسكما في غرفة الموظّفين، أيتها الفتاتَين» قالت، مشيرة إلى المكان الذي خرج منه هاورد للتوّ.

كانت غايا بدأت تنزع بنطالها الجينز قرب حمّام الموظّفين عندما رأت ملامح الهول على وجه سوكفيندر.

«ما الأمر، سوكس؟» سألت.

ذلك اللقب الجديد منح سوكفيندر الجرأة لقول ما كانت ربما عجزت عن التعبير عنه من دونه.

«لا يمكنني ارتداء هذا»، همست.

«لماذا؟» سألت غايا. «سيليق بك كثيرًا.»

كان الفستان قصير الكمّين.

«لا يمكنني.»

«لكن ما... يا إلهي!» قالت غايا.

كانت سوكفيندر رفعت أكمام قميصها القطنيّ. بدا داخل ذراعَيها مكسوًّا بالندوب المتقاطعة القبيحة، فيما امتدّت جروح حادّة ما زالت حديثة من معصميها إلى داخل ذراعيها.

«سوكس»، قالت غايا خافضة صوتها. «ما اللعبة التي تلعبينها يا صديقتي؟»

هزّت سوكفيندر رأسها وملأت الدموع عينيها.

فكّرت غايا للحظة ثم قالت «أعرف ما سنفعل... تعالي إلى هنا.»

خلعت قميصها الطويل الكمّين.

تلقى الباب ضربة كبيرة فانفتح القفل الذي لم يكن مُحكَمًا: كان آندرو أصبح داخل الغرفة تقريبًا، متصبّبًا بالعرق وهو يحمل رزمتَين ثقيلتَين من لفافات ورق الحمّام، عندما جمّدته صرخة غايا الغاضبة مكانه. تراجع متعثّرًا واصطدم بمورين.

«إنهما تبدّلان ملابسهما هناك» قالت، معترضة بصرامة.

«السيد موليسون طلب منّي وضع هذه الأغراض في حمّام الموظّفين.»

يا للهول، يا للهول! كانت في صدريّتها وسروالها الداخليّ فحسب. لقد رأى كلّ شيء تقريبًا.

«آسف»، هتف آندرو من خلف الباب المغلق. كان وجهه كلّه ينبض من شدّة احمراره.

«أخرق»، تمتمت غايا، من الجهة الأخرى. مرّرت قميصها إلى سوكفيندر. «ارتديه تحت الفستان.»

«سيبدو ذلك غريبًا.»

«لا يهمّ. يمكنك إحضار قميص أسود للأسبوع المقبل، ستبدين وكأنّك ترتدين فستانًا بكمّين طويلين. سنختلق له حجّة...»

«تعاني من الإكزيما»، أعلنت غايا عندما خرجت وسوكفيندر من غرفة الموظفين بالفستان والمئزر. «على كامل ذراعيها. كلّه متقشّر.»

«آه» قال هاورد ملقيًا نظرةً على ذراعي سوكفيندر المكسوّتين بالقميص الأبيض، ثم على غايا التي بدت رائعة الجمال على قدر ما كان يأمل.

«سأحضر قميصًا أسود للأسبوع المقبل» قالت سوكفيندر، عاجزة عن النظر إلى عينَي هاورد.

«حسنًا»، قال، مربّتًا على ظهر غايا، قبل أن يرسلهما إلى المقهى. «إستعدّوا»، هتف للجميع. «إنّنا على وشك البدء... افتحي الأبواب لو سمحتِ، مورين!»

كانت مجموعة صغيرة من الزبائن تنتظر على الرصيف. بدت في الخارج لافتة كُتب عليها: الإبريق النحاسيّ، الافتتاح اليوم...كوب القهوة الأوّل مجّانيّ!

لم يرَ آندرو غايا مجدّدًا لساعات. أبقاه هاورد مشغولًا، يحمل الحليب وعصير الفاكهة صعودًا ونزولًا على سلالم القبو الشاهقة ويمسح أرض المطبخ الصغير في الخلف. حصل على استراحة للغداء قبل أي من النادلتين. لمحها مجدّدًا عندما استدعاه هاورد إلى كونتوار المقهى، فمرّ على مسافة سنتيمترات منها وهي تسير في الاتّجاه المعاكس، نحو الغرفة الخلفية.

«المكان مكتظّ، سيّد برايس!» قال هاورد بشوشًا. «اجلب لنفسك مئزرًا نظيفًا وامسح لي بعض تلك الطاولات فيما تتناول غايا غداءها!»

جلس مايلز وسامانثا موليسون مع ابنتيهما وشيرلي إلى طاولة قرب الواجهة.

«يبدو أن الأمور تجري بشكل ممتاز، إليس كذلك؟» قالت شيرلي، ناظرة من حولها. «لكن بالله ما الذي ترتديه تلك الفتاة جاواندا تحت فستانها؟»

«ضمّادات؟» اقترح مايلز وهو ينظر مسدلًا جفنيه إلى الطرف الآخر من القاعة.

«مرحبًا، سوكفيندر!» نادت ليكسي، التي تعرفها من المدرسة الابتدائية.

«لا ترفعي صوتك، عزيزتي»، قالت شيرلي ناهية حفيدتها، فيما انتفضت سامانثا غاضبة.

خرجت مورين من خلف الكونتوار بفستانها الأسود القصير ومئزرها المكشكش، فيما قهقهت شيرلي ضحكًا منحنية فوق قهوتها.

«يا للويل»، همهمت بينما كانت مورين تقترب منهم، وعلى وجهها ابتسامة عريضة.

صحيح، فكّرت سامانثا، مورين تبدو مثيرة للضحك، لا سيّما بمحاذاة فتاتين في السادسة عشرة بفستانين مشابهين، لكنّها لن ترضي شيرلي وتوافقها الرأي. أشاحت وجهها بحركة استعراضية، وراقبت الفتى يمسح الطاولات القريبة. إنّه نحيل، لكنّ كتفيه عريضتان بما يكفي. بإمكانها رؤية عضلاته تشتدّ تحت قميص التي شيرت الواسعة. لا يمكن التخيُّل أن مؤخّرة مايلز السمينة كانت في يومٍ من الأيّام صغيرة وشديدة هكذا...عندئذ التفت الفتى الى الضوء ورأت حبّ الشباب على وجهه.

«لا بأس، أليس كذلك؟» قالت مورين لمايلز بصوتها الأشبه بالنقيق. «المكان ممتلئ منذ الصباح.»

«حسنًا يا فتيات»، وجّه مايلز الحديث إلى عائلته، «ماذا سنطلب لزيادة أرباح جدّنا؟»

طلبت سامانثا بفتور طبق حساء. أطلّ هاورد من المحلّ، بمشيته المتمايلة. أمضى اليوم بكامله يقصد المقهى كلّ عشر دقائق، ملقيًا التحيّة على الزبائن، متفقّدًا تدفّق المال إلى الصندوق.

«نجاحٌ مدوّ»، قال لمايلز، حاشرًا نفسه على طاولتهم. «ما رأيك في المكان سامي؟ لم تريه من قبل، أليس كذلك؟ أعجبتك لوحة الحائط؟ أعجبتك الأواني والأطباق؟»

«هممم» قالت سامانثا. «جميل.»

«كنت أفكّر في إقامة عيد ميلادي الخامس والستين هنا» قال هاورد، وهو يحكّ شاردًا الطفح الذي فشلت كريمات بارميندر في شفائه، «لكنّ المكان ليس واسعًا ما يكفي. أعتقد أنّ خيار قاعة الكنيسة يظلّ أفضل.»

«متى سيحدث ذلك، جدّي؟» قالت ليكسي بصوت حادّ. «هل سأحضر؟»

«في التاسع والعشرين، وكم عمرك الآن...ستة عشرة؟ بالطبع يمكنك الحضور» قال هاورد سعيدًا.

«التاسع والعشرون؟» قالت سامانثا. «آه، لكن...»

رمقتها شيرلي بنظرة لاذعة.

«هاورد يخطّط لذلك منذ أشهر. إنّنا نتحدّث في هذا الموضوع منذ فترة طويلة.»

«...إنها ليلة حفلة ليبي الموسيقية» قالت سامانثا.

«مناسبة مدرسيّة، اليس كذلك؟» سأل هاورد.

«كلّا» قالت ليبي، «ماما اشترت لي تذاكر لفرقتي المفضّلة. الحفل في لندن.»

«وأنا ذاهبة معها»، قالت سامانثا. «لا يمكن أن تذهب بمفردها.»

«أمّ هارييت قالت إنّها مستعدّة...»

«سأصطحبك أنا، ليبي، إذا ذهبت إلى لندن.»

«التاسع والعشرون؟» قال مايلز، محدّقاً إلى سامانثا. «اليوم التالي للانتخابات؟»

أطلقت سامانثا الضحكة الساخرة التي جنّبت مورين إياها.

«إنّه مجرّد مجلس البلدة، مايلز. لن تُعقَد مؤتمرات صحافيّة، على علمي.»

«حسنًا، سنفتقدك يا سامي»، قال هاورد وهو ينهض مستندًا إلى ظهر كرسيها. «عليّ العودة... حسنًا آندرو، إنتهى عملك هنا...تفقّد إن كنّا بحاجة إلى شيء من القبو.»

اضطرّ آندرو إلى الانتظار قرب الكونتوار فيما يمرّ الناس من الحمام وإليه. كانت مورين تحمّل سوكفيندر أطباقًا من الشطائر.

«كيف والدتك؟» سألَت الفتاةَ بغتة، كما لو أن الفكرة خطرت لها للتوّ.

«بخير»، قالت سوكفيندر، ووجهها يحمرّ تدريجيًا.

«آمل ألّا تكون مستاءة كثيرًا من تلك القضيّة القذرة على موقع المجلس؟»

«كلّا»، قالت سوكفيندر، واغرورقت عيناها بالدموع.

خرج آندرو إلى الباحة الرطبة التي باتت بعيد الظهر دافئة ومشمسة. كان يأمل أن يجد غايا هناك، تستنشق بعض الهواء النظيف، لكن لا بدّ أنها دخلت إلى غرفة الموظّفين في المتجر. خائبًا، أشعل سيجارة. بالكاد مجّ منها نفسًا حتّى خرجت غايا من المقهى، خاتمةً غداءها بعبوة مشروب غازيّ.

«مرحبًا» قال آندرو، وقد جفّ فمه.

«مرحبًا»، ردّت. ثم بعد لحظة أو اثنتين: «قل لي، لماذا يتصرّف صديقك بهذه الطريقة الحقيرة حيال سوكفيندر؟ هل الأمر شخصيّ أم إنّه عنصريّ؟»

«ليس عنصريًا»، قال آندرو. أبعد السيجارة عن فمه، محاولًا منع يديه من الارتجاف، لكن لم يخطر بباله أيّ شيء آخر يقوله. أشعّة الشمس المنعكسة على مستوعبات النفايات أدفأت ظهره المتعرّق. وجوده بقربها في ذلك الفستان الأسود الضيّق استحوذ عليه بشكل شبه كامل، لا سيّما الآن بعد أن لمح ما تحته. أخذ نفسًا آخر من السيجارة. لم يكن يذكر متى شعر بهذا القدر من الانبهار والحياة.

«لكن ماذا فَعَلَت له؟»

إنحناءة وركيها حتّى خصرها الرقيق، عيناها الواسعتان المشعّتان الرائعتان الباديتان أعلى عبوة السبرايت. شعر آندرو بأنّه يريد أن يقول، لا شيء، إنه حقير، سأضربه إن سمحتِ لي بلمسِك...

خرجت سوكفيندر إلى الباحة، وهي ترمش بعينيها بسبب الشمس. بدت غير مرتاحة وتشعر بالحرّ في قميص غايا.

«يريدك في الداخل»، قالت لغايا.

«يمكنه الانتظار»، أجابت غايا ببرودة. «سأنهي هذا. لم تمرّ سوى أربعين دقيقة فقط.»

تامّلها آندرو وسوكفيندر فيما ارتشفت مشروبها، مشدوهَين بجرأتها وجمالها.

«هل كانت تلك السافلة العجوز تقول لك شيئًا قبل قليل، بخصوص والدتك؟» سألت غايا سوكفيندر.

أومأت سوكفيندر برأسها إيجابًا.

«أعتقد أنه قد يكون صديقه هو» قالت، محدّقة مجدّدًا إلى آندرو، الذي وجد تركيزها على كلمة هو إيروتيكيًّا تمامًا، ولو أنّها قصدت التهكّم، «مَن وضع ذاك التعليق بخصوص والدتك على ذاك الموقع».

«غير ممكن»، قال آندرو بصوت يرتجف قليلًا. «من فعل ذلك تهجّم على والدي أيضًا. قبل أسبوعين.»

«ماذا؟» قالت غايا. «الشخص نفسه نشر شيئًا بخصوص والدك؟»

أومأ برأسه، مسرورًا باهتمامها.

«شيءٌ ما بخصوص سرقة، أليس كذلك؟» سألت سوكفيندر بجرأة كبيرة.

«نعم»، قال آندرو. «وفُصل من وظيفته بسببه أمس. وبالتالي، فإنّ والدتها..»، واجه نظرة غايا الباهرة بعينَين شبه ثابتتَين، «ليست الوحيدة التي عانت.»

«سحقًا»، قالت غايا وهي تنهي مشروبها وترمي العبوة في مستوعب النفايات. «الناس هنا معتوهون بالكامل.»

4

على إثر التعليق الذي استهدف بارميندر على موقع مجلس البلدة، ازدادت مخاوف كولين وول وبلغت مستوى جديدًا من الكابوسيّة. لم يكن يدري من أين يحصل آل موليسون على معلوماتهم، لكن إن كانوا يعلمون ذلك بخصوص بارميندر...

«بالله عليك يا كولين!» قالت تيسا. «إنّها مجرّد ثرثرات خبيثة، هذا كلّ ما في الأمر! لا تمتّ إلى الحقيقة بصِلة!»

لكن كولين لم يجرؤ على تصديقها. كان يميل بطبعه إلى الاعتقاد أنّ الآخرين أيضًا يخفون أسرارًا تدفع بهم إلى ما يشبه الجنون. لم يكن يجد الطمأنينة، حتّى لو كان يعي أنّه أمضى الحيّز الأكبر من حياته يخشى كوارث لم يتحقّق في نهاية المطاف. فلا مفرّ بحكم قانون الاحتمالات من أن يتحقّق أحدها ذات يوم. عائدًا من عند الجزّار في الثانية والنصف من ذلك النهار، كان يفكّر، كعادته، في انكشافه الوشيك، ولم يدرك أين كان إلى أن لفت انتباهه فجأة الصخب المنبعث من المقهى الجديد. لكان عبر إلى طرف الساحة الآخر لو أنّه لم يجد نفسه فجأة أمام نوافذ الإبريق النحاسيّ. بات وجوده قرب أيّ فرد من عائلة موليسون يخيفه.عندئذٍ لمح شيئًا عبر الزجاج جعله يحدّق مليًّا.

عندما دخل مطبخ منزلهم بعد عشر دقائق، كانت تيسا تتحدّث مع شقيقتها عبر الهاتف. وضع كولين فخذ الخروف في البرّاد وصعد السلالم إلى العلّية حيث غرفة نوم فاتس. فتح الباب بحدّة، فوجد الغرفة خالية، كما كان يتوقّع.

لا يذكر متى كانت آخر مرّة دخل فيها إلى هنا. الأرض تغطّيها الملابس المتّسخة. وفي الهواء تنتشر رائحة غريبة، رغم أن فاتس ترك كوّة السقف مفتوحة. لاحظ كولين علبة ثقاب كبيرة على مكتب فاتس. فتحها فوجد فيها عددًا من أعقاب السجائر الكرتونيّة المَلويّة. رأى علبة من ورق لفّ التبغ ريزلا موضوعة بقلّة اكتراث على المكتب قرب الكمبيوتر.

شعر كولين كما لو أنّ قلبه هبط من صدره وأخذ يطرق في أحشائه.

«كولين؟» ورَد صوت تيسا من أسفل الدرج. «أين أنت؟»

«هنا في الأعلى!» أجاب في زئير.

أطلّت من باب غرفة فاتس وبدت خائفة وقلقة.

رفع علبة الثقاب بدون التفوّه بكلمة، مظهرًا لها محتواها.

«آه»، قالت تيسا بصوت واهن.

«قال إنّه سيخرج مع آندرو برايس اليوم»، قال كولين. خافت تيسا من اختلاج العضلات في حنك كولين، مثل ورم صغير غاضب يتنقّل من جهة إلى أخرى من وجهه. «مررت للتو قرب ذلك المقهى الجديد في الساحة، وآندرو برايس يعمل هناك، يمسح الطاولات. أين ستوارت إذًا؟»

طوال أسابيع تظاهرت تيسا بأنّها تصدّق فاتس كلّما قال إنه سيخرج مع آندرو. طوال أيّام قالت لنفسها إن سوكفيندر مخطئة حتمًا باعتقادها أنّ فاتس يخرج (أو يتنازل لمرّة بالخروج مع) كريستال ويدون.

«لا أدري» قالت. «انزل لتناول كوب من الشاي. سأتّصل به.»

«أعتقد أنّني سأنتظر هنا» قال كولين، جالسًا على سرير فاتس غير المرتّب.

«هيّا كولين... تعال ننزل»، قالت تيسا.

كانت تخشى أن تتركه هناك. لا تعرف ما قد يعثر عليه في أدراج فاتس أو في حقيبته المدرسيّة. لا تريده أن يبحث في الكمبيوتر أو تحت السرير. بات تفادي استكشاف الزوايا القاتمة نمط استمرارها الوحيد في الحياة.

«تعالَ إلى الأسفل يا كول»، حثّته.

«كلّا»، قال كولين شابكًا ذراعَيه كطفلٍ متمرّد، وتلك العضلة تختلج في حنكه. «مخدّرات في غرفته. ابن نائب المديرة.»

جلست تيسا على كرسيّ الكمبيوتر أمام مكتب فاتس، وهي تشعر برعشة غضب مألوفة. كانت تعلم بأن هذا الانشغال بنفسه هو من نتائج مرضه المحتومة، لكن أحيانًا...

«الكثير من المراهقين يجرّبون»، قالت.

«أما زلتِ تدافعين عنه؟ ألا يخطر لك مرّة أنّ تبريراتك المتواصلة هي التي تجعله يخال بأنه قادر على النفاد بأعمال فادحة؟»

كانت تحاول ضبط أعصابها، فلا بدّ لها أن تقف فاصلًا بينهما.

«آسفة كولين، لكن أنت ووظيفتك لستما أكثر الأمور أ...»

«آه... إذًا، لو تعرّضتُ للطرد...»

«لمَ قد تتعرّض للطرد؟»

«بالله عليكِ!» صرخ كولين حانقًا. «كلّ شيء ينعكس عليّ... يكفيني ما أنا فيه... وهو أساسًا من الطلّاب الذين يطرحون أكبر مشكلة في الـ...»

«هذا ليس صحيحًا!» صاحت تيسا. «لا أحد يرى في ستوارت أكثر من مراهق عاديّ باستثنائك. هو ليس داين تالي!»

«إنّه يسير على خطى تالي... مخدّرات في غرفته...»

«قلت لك إنّه كان يجدر بنا إرساله إلى ثانويّة باكستون! كنت واثقة بأنّك ستعتبر كلّ ما يفعله بمثابة استهداف لك إن ذهب إلى وينترداون! هل من المستغرَب أن يتمرّد، فيما يُفترَض بكلّ حركة يقوم بها أن تصبّ في رصيدك؟ لم أكن أريد له يومًا أن يذهب إلى مدرستك!»

«ولا أنا»، صرخ كولين وهو يقفز واقفًا «لم أكن أريده في الأساس، اللعنة!»

«لا تقُل هذا!» قالت تيسا منقطعة الأنفاس. «أعلم أنّك غاضب...لكن لا تقل هذا!»

أُغلقَ باب المدخل بعنف في الأسفل. نظرت تيسا حولها خائفة، كما لو أنّ فاتس قد يظهر فجأة بقربهما. لم يكن الصوت وحده ما أجفلها. فستوارت لا يغلق باب المدخل بعنف أبدًا، بل غالبًا ما ينسلّ داخلًا أو خارجًا كالطيف.

وقع خطاه المألوفة على الدرج. أتراه يعلم أو يشتبه في أنّهما في غرفته؟ وقف كولين ينتظر، ويداه قبضتان مشدودتان إلى جانبيه. سمعت تيسا صرير الدرجة في منتصف السلالم، ثمّ وقف فاتس أمامهما. كانت واثقة بأنّه أعدّ مُسبَقًا ذلك التعبير على وجهه، مزيج من السأم والازدراء.

«مساء الخير»، قال، ناقلًا نظره من والدته إلى والده المسمّر المتشنّج. كان يملك كلّ ضبط النفس الذي ينقص كولين. «ما هذه المفاجأة!»

حاولت تيسا يائسة أن تبادر بشرح المسألة.

«والدك كان قلقًا، لم يكن يدري مكان وجودك» قالت بصوت فيه توسّل. «قلتَ إنّك ستكون مع آرف اليوم، لكنّ والدك رأى...»

«أجل، تغيّر المشروع»، قال فاتس.

ألقى نظرة خاطفة إلى حيث كانت علبة الثقاب.

«حسنًا، أتريد إخبارنا أين كنت؟» سأل كولين. بدت بقع بيضاء صغيرة حول فمه.

«نعم، إن أردت»، قال فاتس، وصمت منتظرًا.

«ستو»، قالت تيسا ما بين الهمس والأنين.

«خرجت مع كريستال ويدون»، قال فاتس.

يا إلهي، لا، فكّرت تيسا. لا، لا، لا...

«ماذا فعلت؟» قال كولين، متفاجئًا إلى حد نسي أن يتّخذ نبرة عدائيّة.

«خرجت مع كريستال ويدون»، كرّر فاتس رافعًا صوته قليلًا.

«منذ متى...» قال كولين بعد صمت وجيز، «وهي صديقة لك؟»

«منذ فترة»، قال فاتس.

رأت تيسا كولين يصارع لإيجاد صيغة تمكّنه من طرح سؤال منفّر إلى درجة لا يمكن التلفّظ به.

«كان عليك إخبارنا، ستو»، قالت.

«إخباركما بماذا؟»

كانت تخشى أن يدفع بالشجار إلى حدّ خطير.

«بالمكان الذي أنت ذاهب إليه»، قالت وهي تقف، محاولة أن تبدو واقعيّة. «في المرة التالية، اتّصل بنا.»

التفتَت إلى كولين على أمل أن يحذو حذوها ويتّجه إلى الباب، لكنّه بقي في مكانه في وسط الغرفة، يحدّق إلى فاتس مشدوهًا.

«هل أنت... مرتبط بكريستال ويدون؟» سأل كولين.

وقفا أحدهما في مواجهة الآخَر، كولين كان الأطول، لكن فاتس بدا الأقوى.

«مرتبط؟» كرّر فاتس. «ماذا تقصد بمرتبط؟»

«تعلم ما أقصد!» قال كولين، وقد بدأ وجهه يحمرّ.

«أتقصد إن كنتُ أضاجعها؟» سأل فاتس.

هتفت تيسا «ستو!» لكنّ صوتها طغى عليه صراخ كولين « كيف تجرؤ!»

بالكاد نظر فاتس إلى كولين مبتسمًا بسخرية. كلّ ما فيه كان ينضح استفزازًا وتحدّيًا.

«ماذا؟» قال فاتس.

«هل أنت...» كان كولين يتخبّط لاختيار كلماته، والحمرة تشتدّ على وجهه، «...هل تمارس الجنس مع كريستال ويدون؟»

«لا مشكلة لو كُنت أفعل، أليس كذلك؟» سأل فاتس ملقيًا نظرة خاطفة إلى والدته. «أنتما تؤيّدان مساعدة كريستال، ألستما كذلك؟»

«مساعدة...»

«ألستما تحاولان إبقاء عيادة معالجة الإدمان تلك مفتوحة لمساعدة عائلة كريستال؟»

«ما علاقة هذا...؟»

«لا أرى ما المشكلة في خروجي معها.»

«وهل تخرج معها فعلًا؟» سألت تيسا بنبرة قاطعة. إن أراد فاتس نقل الإشكال إلى هذا الميدان، فهي على استعداد لملاقاته. «هل تذهب بالفعل معها إلى أيّ مكان، ستوارت؟»

أثارت ابتسامته الساخرة غثيانها. لم يكن مستعدًّا حتى للتظاهر بقدر ضئيل من الحشمة.

«حسنًا، لا نفعلها في أي من منزلَينا، هل...»

رفع كولين إحدى قبضتَيه المشدودتَين وأطلقها بقوّة. أصاب خدّ فاتس الذي كان انتباهه مركّزًا على والدته، فأتَته الضربة على حين غرّة. تعثّر جانبيًّا، اصطدم بالمكتب وسقط أرضًا. ما هي إلّا ثوانٍ حتّى وثب على قدميه مجدّدًا، لكن تيسا كانت وقفت بينهما، مواجهةَ ابنها.

خلفها كان كولين يردّد: «أيّها اللقيط المُنحَطّ. أيّها اللقيط المُنحَطّ.»

«حقًّا؟» قال فاتس، وقد اختفت الابتسامة الساخرة عن وجهه. «أفضّل أن أكون لقيطًا منحطًّا من أن أكون أنت، أيها الحقير!»

«لا!» صرخت تيسا. «كولين، أخرج. أخرج!»

مرتاعًا، حانقًا ومضطربًا، لزم كولين مكانه للحظة، ثمّ خرج من الغرفة. سمعاه يتعثّر قليلًا على السلالم.

«كيف أمكنك ذلك؟» همست تيسا لابنها.

«كيف أمكنني ماذا؟» قال ستوارت، وعلى وجهه تعبير أخافها إلى درجة أنّها سارعت إلى إغلاق باب غرفة النوم وأوصدته.

«إنّك تستغلّ تلك الفتاة يا ستوارت، وأنت تعلم ذلك، وطريقة كلامك للتوّ مع...»

«بالتأكيد، تبًا!» قال فاتس وهو يذرع الغرفة بعصبيّة، وقد فارقته أيّ برودة. «بالتأكيد أستغلّها، تبًا. إنّها تعلم تمامًا ما تريد... لمجرّد أنّها تقيم في حيّ الحقول اللعين فذلك لا... الحقيقة أنّك أنت وأبو خزانة لا تريدانني أن أضاجعها لأنكما تعتقدان أنها دون...»

«هذا ليس صحيحًا!» قالت تيسا، ولو أنّه كان كذلك. وبالرغم من حرصها على كريستال، إلّا أنّها كانت قلقة لمعرفة إن كان فاتس تحلّى بما يكفي من المنطق لاستخدام واقيًا ذكريًّا.

«إنّكما منافقان لعينان، أنت وأبو خزانة»، قال، وهو ما زال يجوب الغرفة بالطول والعرض. «كلّ الهراء الذي يتدفّق منكما حول السعي إلى مساعدة عائلة ويدون، لكنّكما لا تريدان...»

«يكفي!» صرخت تيسا. «إياك أن تجرؤ على مخاطبتي بهذا الشكل! ألا تدرك... ألا تفهم... هل أنت أنانيّ إلى هذا الحدّ...؟»

عجزَت عن الكلام. استدارَت، فتحت الباب وخرجت مغلقةً إيّاه بعنف.

كان لخروجها تأثير غريب على فاتس، الذي توقّف عن السير ذهابًا وإيابًا وحدّق إلى الباب المغلق عدّة ثوانٍ. ثمّ بحث في جيوبه، سحب سيجارة

وأشعلها، غير آبه لنفث الدخان من الكوّة. جاب غرفته مرارًا وتكرارًا، عاجزًا عن السيطرة على أفكاره. ضجّ رأسه بصور متقطّعة فجّة، راحت تتعاقب على وقع موجة غضب عارم.

تذكّر مساء الجمعة ذاك، قبل عامٍ تقريبًا، عندما صعدت تيسا إلى غرفته هنا لتقول له إنّ والده يريد اصطحابه للعب كرة القدم مع باري وابنيه في اليوم التالي.

(«ماذا؟» تفاجأ فاتس. كان ذلك عرضًا غير مسبوق. «للتسلية»، قالت تيسا آنذاك، محدّقةً باستياء إلى الملابس المبعثَرة على الأرض لتفادي أنظار فاتس.

«لماذا؟»

«لأنّ والدك يعتقد أنّ الأمر سيكون مسلّيًا» قالت تيسا وهي تنحني لالتقاط قميص مدرسيّ. «ديكلان بحاجة إلى تمرين، أو شيء من هذا القبيل. لديه مباراة.»

كان فاتس ماهرًا في كرة القدم، ما كان يفاجئ الجميع. فقد كانوا يتوقّعون منه ألا يحبّ الرياضة، وأن يحتقر الفِرق. كان يلعب مثلما يتكلّم، ببراعة، فيمرّر الكرة بحذاقة، يخدع أيّ لاعب أخرق، ويتجرّأ على مجازفات لا يكترث إن كانت ستنجح.

«لم أكن أدري أنه يتقن اللعب.»

«والدك لاعبٌ جيّد، كان يلعب مرّتين في الأسبوع عندما تعرّفنا أحدنا إلى الآخر» قالت تيسا، منزعجة. «العاشرة صباح غد، حسنًا؟ سأغسل بنطال بدلتك الرياضية.»)

أخذ فاتس مجّة من سيجارته، عاجزًا عن كبح الذكريات. لماذا أذعن لذلك؟ اليوم، لكان ببساطة رفض المشاركة في تمثيليّة أبو خزانة الصغيرة، ولزم سريره إلى أن يتوقف الصراخ. قبل عام لم يكن فهم معنى الصدق بعد.

(عوضًا عن ذلك، غادر المنزل مع أبو خزانة متحمّلًا بصمت خمس دقائق من السير إلى جانبه، فيما كان كلّ منهما مدركًا الهوّة السحيقة التي تفصل بينهما.

كان الملعب ملكًا لمدرسة سانت توماس. كان يومًا مشمسًا والملعب خاليًا. انقسموا إلى فريقين من ثلاثة لاعبين، مع انضمام صديق كان يستضيفه ديكلان في عطلة نهاية الأسبوع تلك. الصديق الذي بدا واضحًا أنّه يبجّل فاتس ويعتبره بمصاف الأبطال، انضمّ إلى فريق فاتس وأبو خزانة. راح فاتس وأبو خزانة يمرّران الكرة بينهما بصمت، فيما باري، أسوأ اللاعبين بلا منازع، يصرخ ويداهن ويهلّل بلكنته اليارفيليّة، وهو يجوب، طولًا وعرضًا، الملعب الذي رسموا حدوده بستراتهم. عندما سجّل فيرغوس هدفًا، ركض باري نحوه ليضربا صدرَيهما ابتهاجًا، لكنّه أساء التوقيت ونطح حنَك فيرغوس. هوى الاثنان أرضًا، فيرغوس يئنّ ألمًا ويضحك، فيما جلس باري معتذرًا وسط هتافاته المبتهجة. وجد فاتس نفسه يبتسم ابتسامة عريضة، ثمّ سمع ضحكة أبو خزانة الخرقاء تتصاعد، فاستدار عابسًا.

ثم أتت تلك اللحظة البائسة المذلّة، عندما بات الفريقان متعادلَين فيما اقتربت النهاية، وإذ بفاتس ينجح في انتزاع الكرة من فيرغوس، فيهتف أبو خزانة «هيّا ستو، هيّا صاحبي!»

«صاحبي.» أبو خزانة لم يقل «صاحبي» قطّ في حياته. بدا الأمر مثيرًا للشفقة، فارغًا ومصطنَعًا. كان يحاول التشبّه بباري، مقلّدًا تشجيعه السلس العفويّ لابنيه. كان يحاول إثاة إعجاب باري.

انطلقت الكرة كالقذيفة من قدم فاتس، وتسنّى له متّسع من الوقت قبل أن تصيب أبو خزانة بملء وجهه الغبيّ غير المرتاب فتتحطّم نظّارتاه وتنبثق نقطة دم واحدة تحت عينه، ليدرك حقيقة نواياه، فيعي أنه إنّما كان يأمل في إصابة أبو خزانة، وأنّ تسديدته كانت بهدف الانتقام.)

لم يلعبا كرة القدم مجدّدًا على الإطلاق بعد ذلك اليوم. تلك المحاولة المحكومة بالفشل، محاولة التقرّب بين الأب والابن، وُضعت على الرفّ، كحوالى عشر محاولات من قبلها.

لم أكن أريده في الأساس!

كان واثقًا بأنّه سمعها. لا بدّ أن أبو خزانة كان يتكلّم عنه. كانا في غرفته. مَن غيره قد يكون أبو خزانة يتكلّم عليه؟

وكأنّني آبه مقدار ذرّة، فكّر فاتس. لطالما شعر بذلك أصلًا. لم يدرِ لماذا انتشر هذا الإحساس بالبرودة في صدره.

قوّم فاتس كرسيّ الكمبيوتر الذي وقع حين ضربه أبو خزانة، وأعاده إلى مكانه. ردّ الفعل الصادق لكان أن يدفع والدته جانبًا ويلكم أبو خزانة في وجهه. يكسِر نظّارتَيه مجدّدًا. يجعله ينزف. شعر فاتس بالاشمئزاز من نفسه لأنه لم يقم بذلك.

لكن أمامه وسائل أخرى. ثمّة أشياء كثيرة تناهت إلى مسامعه منذ سنوات. هو يعرف أكثر ممّا يخالان عن مخاوف والده السخيفة.

كانت يدا فاتس خرقاوَين أكثر من المعتاد. نثر رمادًا على لوحة مفاتيح الكمبيوتر من السيجارة التي تتدلّى من فمه، وهو يفتح موقع مجلس البلدة. قبل أسابيع، بحث عن حُقن «لغة الاستعلام البنيويّة»، وعثر على قطعة الترميز التي رفض آندرو مشاطرته إيّاها. بعد تفحُّص لوح التعليقات التابع لمجلس البلدة للحظات، سجّل دخوله بسهولة باسم بيتي روسيتر، وغيّر اسم المستخدم الخاصّ بها إلى «شبح باري فيربراذر»، وبدأ يكتب.

5

كانت شيرلي موليسون مقتنعةً بأنّ زوجها وابنها يُبالغان في تقدير المخاطر التي يواجهها مجلس البلدة في حال إبقاء تعليقات الشبح منشورة على الموقع.

لم ترَ كيف يمكن أن تكون التعليقات أسوأ من مجرّد الثرثرة، وهذا على حدّ علمها لا يعاقب عليه القانون. كما لم تكن تعتقد أنّ القانون أحمق وغير منطقيّ إلى حدّ أن يعاقبها على ما كتبه أحد غيرها، هذا سيكون ظلمًا فظيعًا. كانت فخورة إلى أقصى حدّ بشهادة الحقوق التي يحملها مايلز، لكنّها واثقة بأنّه مخطئ في هذا الشأن.

كانت تتفقّد لوائح التعليقات بوتيرة أعلى حتّى من تلك التي نصح بها مايلز وهاورد، لكن ليس لأنّها تخشى أيّ عواقب قانونيّة. فقد كانت واثقة

بأنّ شبح باري فيربراذر لم ينته بعد من مهمّة سحق أنصار حيّ الحقول التي أخذها على عاتقه، وكانت متلهّفة لتكون أوّل من يطّلع على تعليقه التالي.

عدّة مرّات في اليوم كانت تسارع إلى الغرفة التي كانت لباتريسيا سابقًا وتفتح صفحة الإنترنت. أحيانًا تعتريها قشعريرة وهي تنظّف بالمكنسة الكهربائية أو تقشّر البطاطس، فتهرع إلى المكتب ليخيب أملها مجدّدًا.

شعرت شيرلي بصِلة مميّزة تربطها سرًّا بالشبح. فهو اختار موقعَها منتدًى ليكشف فيه نفاق خصوم هاورد، وهذا، في رأيها، يعطيها الحقّ في أن تفتخر، وكأنّها عالِم بيئي جهّز بيئة طبيعيّة مناسبة، كرّمها فصيلٌ نادرٌ حين اختار أن يستوطنَها. لٰكن الأمر كان يتخطّى ذلك. استساغت شيرلي غضب الشبح، شراسته وجرأته. تساءلت من عساه يكون، متخيّلةً رجلًا قويًّا غامضًا يقف خلفها وهاورد، إلى جانبهما، يشقّ لهما طريقًا عبر الخصوم الذين يتهاوون إذ يصرعهم بكشف حقائقهم القبيحة.

لم يبدُ لها أيّ من رجال باغفورد جديرًا بأن يكون الشبح. سوف تشعر بالخيبة إن تبيّن بأنّه أيّ من معارضي حي الحقول الذين تعرفهم.

«هذا إن كان رجلًا أصلًا»، قالت مورين.

«ملاحظة في محلّها»، قال هاورد.

«أعتقد أنّه رجل»، قالت شيرلي ببرودة.

عندما غادر هاورد إلى المقهى صباح الأحد، توجّهت شيرلي تلقائيّا إلى المكتب، وهي لا تزال في مبذَلها وفي يدها كوب شاي، وفتحت الموقع.

نزوات نائب مديرة مدرسة، نشرها شبح_باري_فيربراذر.

وضعت كوب الشاي بيدٍ ترتجف على المكتب، نقرت على التعليق، وقرأته فاغرة الفم. بعد ذلك، ركضت إلى الصالون، رفعت سمّاعة الهاتف واتّصلت بالمقهى، لكنّ الرقم كان مشغولًا.

بعد خمس دقائق بالكاد، قامت بارميندر جاواندا التي باتت كذلك تتفقّد لوحات النقاش التابعة لمجلس البلدة أكثر من المعتاد، بفتح الموقع وقرأت التعليق. على غرار شيرلي، كان ردّ فعلها الفوري التقاط هاتف. كان

كولين وتيسا وول يتناولان الفطور من دون ابنهما الـذي ما زال نائمًا في الأعلى. عندما أجابت تيسا، قاطعت بارميندر تحيّة صديقتها.

«هناك تعليق حول كولين على موقع مجلس البلدة. لا تدعيه يراه، مهما يكن.»

استدارت عينا تيسا بجذع إلى زوجها، لكنّه كان على بعد ثلاثة أقدام بالكاد منها وسمع كلّ كلمة قالتها بارميندر بصوت مرتفع وواضح.

«أتّصل بكِ لاحقًا»، قالت تيسا باستعجال. «كولين» قالت، محاولة إعادة السمّاعة إلى مكانها بارتباك، «كولين، انتظر...»

لكنه سبقها وخـرج من الغرفة بخطواتٍ طويلة متوثّبة، وذراعـاه متجمّدتان إلى جانبيه، فاضطرّت تيسا إلى الهرولة للّحاق به.

«ربّما من الأفضل ألّا تقرأ» قالت له بإصرار، فيما يده الضخمة البارزة المفاصل تحرّك الفأرة على المكتب، «أو يمكنني أن أقرأه و...»

نزوات نائب مديرة مدرسة

أحد الرجال الطامحين إلى تمثيل السكّان على مستوى مجلس البلدة هو كولين وول، نائب مديرة مدرسة وينترداون الشاملة. قد يهمّ الناخبين أن يعلموا أن وول، الانضباطيّ الصارم، لديه حياة خياليّة غير عاديّة. السيّد وول يخشى كثيرًا أن تتّهمه تلميذة بسلوك جنسيّ غير ملائم، إلى حدّ أنه يحتاج مرارًا إلى أخذ عطل ليهدّئ من روعه. إن كان السيّد وول داعب بالفعل طالبةً في السنة الأولى، لا يسعُ الشبح إلا التكهّن. فحماسة وحماوة تخيّلاته توحيان بذلك، وحتى لو لم يفعَل إلى الآن، إلّا أنه يتحرّق للقيام بذلك.

ستوارت هو الذي كتب هذا، فكّرت تيسا على الفور.

بدا وجه كولين مروّعًا في الضوء المنبعث من الشاشة.

بدا كما كانت تتخيّله لو أصابته سكتة.

«كولين...»

«أفترض أنّ فيونا شوكروس أخبرت أحدًا»، همس. الكارثة التي لطالما كان يخشاها حلّت عليه. هذه نهاية كلّ شيء. لطالما تخيّل نفسه يتناول حبوبًا منوّمة. تساءل إن كان لديهم ما يكفي منها في المنزل.

تفاجأت تيسا للحظة بذكر المديرة، لكنّها استدركت: «فيونا لن تفعل...على كلّ حال هي لا تعلم...»

«تعلم أنّني أعاني اضطراب الوسواس القهريّ.»

«أجل، لكنّها لا تعلم ماذا...ما أنت خائف منه...»

«بلى، تعلم» قال كولين. «أنا أخبرتها، قبل المرّة الأخيرة التي احتجت فيها إلى عطلة مرضيّة.»

«لماذا؟» قالت تيسا بانفعال. «لماذا أخبرتها بالله عليك؟»

«أردت أن أشرح لماذا كان أخذ العطلة أمرًا بهذه الأهميّة بالنسبة إليّ»، قال كولين شبه ذليل. «خلت أنّها تحتاج أن تعلم كم أن الأمر جديّ.»

قاومت تيسا رغبة جامحة في الصراخ في وجهه. الآن بات النفور الذي يشوب معاملة فيونا له وحديثها عنه مفهومًا. هي لم تحبّ تلك المرأة يومًا، لطالما اعتقدت أنّها قاسية وغير متفهّمة.

«مهما يكن»، قالت، «لا أعتقد أن لفيونا أي علاقة...»

«ليس مباشرة»، قال كولين، واضعًا يدًا مرتعشة على شفته العليا المتعرّقة. «لكن لا بدّ أنّ موليسون سمع ثرثرات من مصدر ما.»

لم يكن هذا موليسون. ستوارت هو الذي كتب ذلك. أعلم أنّه فعل. رأت تيسا بصمات ابنها في كلّ سطر. أذهلها حتّى كيف إنّ كولين كان عاجزًا عن رؤية ذلك، كيف إنّه لم يربط التعليق بمشادّة البارحة، وبإقدامه على ضرب ابنه. لم يتمالك نفسه حتّى عن استخدام بعض الجناس في رسالته. لا بدّ أنه كتبها جميعًا... سايمون برايس. بارميندر. شعرت تيسا بهول الصدمة.

لكنّ كولين لم يكن يفكّر في ستوارت. كانت خواطر أخرى تتبادر إلى ذهنه، خواطر حيّة مثل ذكريات، انطباعات حسّية، أفكار عنيفة كريهة: يدٌ تلتقط وتعتصر أثناء مروره وسط أجساد فتيّة متلاصقة بكثافة، صرخة ألم، وجه طفلة ينقبض. ثمّ تلك الأسئلة نفسها التي تعاوده مرارًا وتكرارًا: هل فعلها؟ هل

استمتع بذلك؟ لا يمكنه التذكّر. كلّ ما يعلم أنّه يواصل التفكير في الأمر، يراه يحدث، يشعر به يحدث. لحمٌ طريّ تحت قميص قطنيّ خفيف: يدٌ تلتقط، تعتصر، ألم وصدمة، انتهاك. كم مرّة؟ لم يكن يعلم. أمضى ساعات يتساءل كم من الأطفال يعلمون أنه فعلها، وهل تكلّموا بعضهم مع بعض في الأمر، وكم من الوقت سيمضي قبل أن يُفضح أمره.

وسط جهله عددَ المرّات التي تعدّى فيها، وعجزه عن الوثوق بنفسه، بدأ يتزوّد قدرًا كبيرًا من الأوراق والملفّات، بحيث يشغل يديه لمنعها من التهجّم، وهو يعبر الأروقة. كان ينهر الأطفال المتدافعين ليبتعدوا من طريقه ويقفوا جانبًا فيما يمرّ. لم يُجْدِ شيء. كان هناك دومًا أطفال شاردون، يعبرون في جانبه راكضين، يلتصقون به، وفيما كانت يداه مشغولتين، تخيّل وسائل أخرى للاحتكاك بهم بطريقة غير لائقة: حركة سريعة من كوعه كي يلامس ثديًا، خطوة جانبيّة لضمان الاصطدام بجسد، رِجل طفلة تتعثّر عرضيًا فيلامس حوضها جسمه.

«كولين»، قالت تيسا.

لكنّه عاود البكاء، وجسمه الضخم الأخرق يرتعش على وقع شهقاته. وعندما لفّته بذراعيها ووضعت وجهها على وجهه، ابتلّ بالدموع التي ذرفتها هي أيضًا.

على بُعد أميال، في هيلتوب هاوس، كان سايمون برايس جالسًا أمام كمبيوتر العائلة الجديد في غرفة الجلوس. مشاهدة آندرو يقود الدرّاجة إلى عمله في نهاية الأسبوع، واضطراره إلى تسديد ثمن الكمبيوتر بالكامل بسعر السوق، أثارا أعصابه وجعلاه يشعر بأنّه ضحيّة ظلم كبير. لم ينظر سايمون إلى موقع مجلس البلدة مرّة واحدة منذ الليلة التي رمى فيها الكمبيوتر المسروق، لكن خطر له بعد ترابط عدّة أفكار أن يتفقّد إن كان التعليق الذي كلّفه وظيفته ما زال على الموقع ويمكن لأرباب عمل محتملين رؤيته.

لم يعد هناك. لم يدرِ سايمون أنّه مدين بذلك لزوجته، لأن روث كانت تخشى الاعتراف بأنّها اتّصلت بشيرلي، ولو كان ذلك لتطلب منها إزالة التعليق. فرح سايمون قليلًا باختفاء التعليق، فبحث عن التعليق حول بارميندر، لكنّه لم يكن موجودًا كذلك.

كان على وشك إغلاق الموقع عندما رأى التعليق الأخير، بعنوان «نزوات نائب مديرة».

قرأه مرّتين ثم بدأ يضحك، وحيدًا في غرفة الجلوس. أطلق ضحكة شرسة، ضحكة انتصار. لم يشعر يومًا بالودّ حيال ذاك الرجل الضخم ذي الجبهة الهائلة، الذي يسير متوثّبًا. وكان مسرورًا لمعرفة أنّه هو، سايمون، نجا بالقليل من الضرر مقارنة به.

دخلت روث الغرفة، مبتسمة بخجل. كانت سعيدة لسماع ضحك سايمون، لأنه في مزاج مريع منذ خسارة وظيفته.

«ما المضحك؟»

«أتعرفين والد فاتس وول، نائب المديرة؟ إنّه مجرّد متحرّش لعين بالأطفال.»

اضمحلّت ابتسامة روث. سارعت إلى قراءة التعليق.

«سأذهب لأستحمّ»، قال سايمون ببشاشة.

إنتظرت روث حتى غادر الغرفة قبل أن تحاول الاتّصال بصديقتها شيرلي، لتنذرها بهذه الفضيحة الجديدة، لكنّ هاتف آل موليسون كان مشغولًا.

كانت شيرلي تمكّنت أخيرًا من الاتصال بهاورد في محلّ الأطعمة. كانت لا تزال في مبذلها، فيما هو يسير ذهابًا وإيّابًا في الغرفة الخلفيّة الصغيرة خلف المنضدة.

«أحاول الاتصال بك منذ فترة طويلة...»

«مو كانت تستخدم الهاتف. ماذا جاء في التعليق؟ اقرئيه ببطء.»

قرأت شيرلي التعليق حول كولين، أملته كمذيعة أخبار. لم تكن وصلت إلى نهايته حين قاطعها.

«هل نسختِ هذا أم شيء من هذا القبيل؟»

«عفوًا؟» قالت.

«هل تقرئينه من الشاشة؟ هل ما زال منشورًا؟ هل أزلتِه؟»

«أنا أعالج الأمر الآن» كذبت شيرلي مستاءة. «ظننت أنك قد ترغب في...»

«أزيليه الآن! يا إلهي يا شيرلي، بدأ الأمر يخرج عن السيطرة...لا يمكننا أن نسمح بنشر أمور كهذه!»

«خلت فحسب أنه عليك أن...»

«تأكّدي من التخلّص منه، وسنتحدّث في الموضوع عندما أعود إلى المنزل!» صرخ هاورد.

استشاطت شيرلي غضبًا. فهما لا يرفعان صوتهما أحدهما في وجه الآخر إطلاقًا.

6

سيكون الاجتماع التالي لمجلس البلدة، الأوّل منذ وفاة باري، محوريًا في المعركة الجارية بشأن حيّ الحقول. رفض هاورد إرجاء التصويت على مستقبل عيادة بيلتشابيل لمعالجة الإدمان، وعلى رغبة البلدة في نقل مسؤوليّة الحيّ إلى يارفيل.

لذلك اقترحت بارميندر على كولين وكاي أن يعقدا معًا اجتماعًا عشيّة اللقاء لبحث الاستراتيجيّة.

«لا يمكن لباغفورد اتّخاذ قرار من طرف واحد بتعديل حدود البلدة، هل يمكنها ذلك؟» سألت كاي.

«كلّا»، قالت بارميندر بصبر (لا مهرب، فكاي وفدت حديثًا)، «لكنّ مجلس يارفيل طلب رأي باغفورد، وهاورد مصمّم على تمرير رأيه هو.»

عقدوا اجتماعهم في غرفة جلوس عائلة وول، لأنّ تيسا ضغطت قليلًا على كولين كي يدعو بارميندر وكاي، حتّى تتمكّن من الاستماع إلى الحديث. قدّمت تيسا كؤوسًا من النبيذ، ووضعت طبقًا من رقائق البطاطس على طاولة الضيافة، ثمّ جلست صامتة، فيما دار النقاش بين الثلاثة الآخرين.

كانت منهكة وغاضبة. فالتعليق الذي وضعه مجهول حول كولين أثار إحدى أسوأ نوبات الهلع الحادّة التي عرفها حتّى الآن، أضعفته إلى حدّ

أنّه عجز عن الذهاب إلى المدرسة. بارميندر تعرف حالته، فهي التي أعطته تقريرًا مرضيًّا للتغيّب عن العمل، لكنّها رغم ذلك دعته إلى المشاركة في هذا الاجتماع التمهيديّ، غير عابئة على ما يبدو بأيّ نوبة جديدة من جنون الاضطهاد والكرب التي قد تضطرّ تيسا إلى التعامل معها الليلة.

«من المؤكّد أنّ هناك استياء حيال طريقة معالجة آل موليسون للأمور»، قال كولين بنبرة مترفّعة عليمة يعتمدها أحيانًا، للادّعاء بأنّه لا يعرف الخوف أو جنون الارتياب. «أعتقد أن الناس بدأوا يسأمون كلّ ذلك، كيف يخالون أنّهم يستطيعون التكلّم باسم البلدة. حصلتُ على هذا الانطباع، على ما تعلمون، فيما كنت أجول لجذب الأصوات.»

لكان أمرًا جيّدًا، فكّرت تيسا بمرارة، لو كان بوسع كولين استنهاض هذه القدرات على إخفاء مشاعره ومخاوفه أمامها أحيانًا. سابقًا، منذ زمن طويل، كانت تستسيغ كونها حافظة أسرار كولين الوحيدة، المؤتمنة على هواجسه ومنبع اطمئنانه، لكنّها لم تعد تجد في ذلك إطراء. أبقاها مستيقظة في الليلة الماضية من الساعة الثانية إلى الثالثة والنصف، وهو يجلس على حافّة السرير، يهدهد نفسه إلى الأمام والخلف آنًّا وباكيًا، طالبًا الموت، مؤكّدًا أنه لا يستطيع التحمّل، وأنّه انتهى، ومتمنّيًا لو أنّه لم يتقدّم إلى هذا المنصب...

سمعت تيسا خطوات فاتس على الدرج فتشنّجت، لكنّ ابنها مرّ أمام الباب المفتوح متّجهًا إلى المطبخ من دون إلقاء أكثر من نظرة ازدراء إلى كولين الجالس أمام المدفأة على مسند، وركبتاه في مستوى صدره.

«ربّما سيثير ترشّح مايلز للمقعد الشاغر اعتراض الناس فعلًا...حتى أنصار آل موليسون الطبيعيين؟» قالت كاي آملة.

«أعتقد أنّ هذا ما قد يحصل»، قال كولين وهو يهزّ رأسه موافقًا.

استدارت كاي إلى بارميندر.

«أتعتقدين أن المجلس سيصوّت فعلًا لطرد بيلتشابيل من مبناه؟ أعلم أنّ الناس يتوتّرون بخصوص الحقن المستعملة التي يمكن رميها والمدمنين الذين قد يتسكّعون في الحيّ، لكنّ العيادة على بعد أميال...لماذا تبالي باغفورد؟»

«هاورد وأوبري يتبادلان الخدمات»، أوضحت بارميندر التي بدا وجهها متشنّجًا وامتدّت تحت عينيها ظلال سوداء. (هي التي ستشارك في اجتماع مجلس البلدة في اليوم التالي، لتواجه هاورد موليسون ورفاقه، من دون باري إلى جانبها.) «يحتاجون إلى الاقتطاع من النفقات على مستوى المنطقة. إذا طرد هاورد العيادة من مبناها البخس الثمن، فستصبح نفقات إدارتها باهظة ويمكن لفاولي عندها أن يقول إنّ التكاليف ارتفعت، ما يتيح له تبرير الحدّ من تمويل المجلس. بعدئذ سيبذل فاولي كلّ ما يسعه للتأكّد من ضمّ حيّ الحقول إلى يارفيل.»

متعبة من طول الشرح، تظاهرت بارميندر بتفقّد كدسة الأوراق المتعلّقة ببيلتشابيل التي أحضرتها كاي معها، منسحبة من الحديث.

لماذا تراني أفعل ذلك؟ سألت نفسها.

كان بإمكانها أن تكون في المنزل مع فيكرام، الذي كان يشاهد فيلمًا كوميديًّا على التلفزيون مع جاسوانت وراجبال عند مغادرتها. صوت ضحكاتهم أربكها. متى كانت آخر مرّة ضحكت فيها؟ لماذا هي هنا، تتناول كأس نبيذ دافئ سيّئ، وتحارب من أجل عيادة لن تحتاج إليها على الإطلاق، ومشروع إسكان يقطنه أشخاص لن يروقوا لها على الأرجح إن التقتهم؟ ليست باي كانايا، الذي لم يكن بوسعه التفريق بين أرواح الحلفاء وأرواح الأعداء، لم ترَ نور الله يشرق من هاورد موليسون. بل هي تجد مزيدًا من المتعة في فكرة هزيمة هاورد، منها في فكرة تمكين أطفال الحقول من مواصلة ارتياد مدرسة سانت توماس، أو أهل الحي من التغلّب على إدمانهم في بيلتشابيل، ولو أنّها تعتقد، إن نظرت إلى المسألة بعين مجرّدة وحياديّة، أنّ هذه الأمور جيّدة...

(لكنّها كانت تعلم لماذا تفعل ذلك في الحقيقة. أرادت الفوز من أجل باري. أخبرها كلّ شيء عن قدومه إلى مدرسة سانت توماس. كان أترابه يدعونه إلى منازلهم للعب، هو الذي كان يقيم في مقطورة مع والدته وشقيقيه، فأعجبته منازل شارع هوب المرتّبة والمريحة، وأذهلته الدور الكبيرة الفيكتوريّة الطراز في شارع تشيرتش روو. حتّى إنّه حضر يومًا حفل عيد ميلاد في المنزل نفسه الشبيه بوجه البقرة والذي اشتراه لاحقًا وربّى فيه أطفاله الأربعة.

أُغرم باري بباغفورد، بالنهر والحقول والمنازل ذات الجدران المتينة. تخيّل أنّه يمتلك حديقة يلعب فيها، وشجرة يعلّق عليها أرجوحة، ومساحات فسيحة وخُضرة في كلّ مكان. كان يجمع حبوب الكستناء ويحملها معه إلى حيّ الحقول. بعد سنوات دراسته اللامعة في سانت توماس وتخرّجه منها أوّل في دفعته، بات باري أوّل مَن يرتاد الجامعة من عائلته.

الحب والكراهية، فكّرت بارميندربصراحة أخافتها قليلًا. الحبّ والكراهية، لهذا أنا هنا..)

قلبت صفحة من وثائق كاي، متظاهرة بالتركيز. سعدت كاي بتدقيق الطبيبة في أوراقها بعناية، لأنّها خصّصت وقتًا ومجهودًا كبيرين في إعدادها. كانت متأكّدة من أنّه لا يمكن لأحد أن يقرأ وثائقها ولا يقتنع بضرورة بقاء عيادة بيلتشابيل في موقعها.

لكن بالرغم من جميع الإحصاءات ودراسات الحالات المُغفَلة الأسماء والشهادات المباشرة، كانت كاي تفكّر في العيادة استنادًا إلى مريضةٍ واحدة: تيري ويدون. حصل تغيّر لدى تيري، كان بإمكان كاي أن تشعر به، ما جعلها فخورة وخائفة في آن. كانت تيري تظهر بوادر ضئيلة تشير إلى يقظة حسّها بالسيطرة على حياتها. فمؤخّرًا، وفي مرّتين، قالت تيري لكاي: «لن يأخذوا روبي، لن أسمح لهم بذلك»، ولم تكن كلماتها مجرّد شكوى من مصير محتوم، بل أتت تعبيرًا عن تصميم راسخ.

«اصطحَبتُه إلى الحضانة بالأمس» قالت لكاي، التي ارتكبت خطأ بإبداء دهشة. «لماذا يصدمك هذا بحقّ الجحيم؟ ألست قادرة على الذهاب إلى حضانة النحس؟»

في حال أُغلِقت أبواب بيلتشابيل أمام تيري، كانت كاي واثقة بأنّ ذلك سينسف البناء الهشّ الذي كانوا يحاولون تشييده من حطام حياة. كانت تيري تبدي خوفًا عميقًا من باغفورد لم تفهمه كاي.

«أكره ذاك المكان اللعين»، قالت عندما تطرّقت كاي إلى الأمر بشكل عابر.

لم تكن كاي تعرف شيئا عن تاريخ تيري مع البلدة، سوى أنّ جدّة والدتها كانت تقيم هناك. لكنّها كانت تخشى في حال اضطرّت تيري إلى الذهاب إلى هناك أسبوعيًا للحصول على جرعة الميثادون، أن يؤدّي ذلك إلى انهيار سيطرتها على ذاتها، ومعها الأمان الهشّ الذي استعادته العائلة من جديد.

تولّى كولين الحديث بدلًا من بارميندر، شارحًا تاريخ حيّ الحقول. أومأت كاي برأسها مستمعة بملل وقالت «هممم»، لكنّ أفكارها كانت بعيدة جدًّا.

شعر كولين بالإطراء لإبداء امرأة شابّة جذّابة كهذه اهتمامًا بكلّ كلمة يقولها. أحسّ بمزيد من الهدوء الليلة من أيّ وقت منذ قرأ التعليق الفظيع، الذي أزيل على الموقع. لم يتحقّق أيّ من الكوارث التي تخيّلها كولين في ساعات الفجر الأولى. لم يُطرَد من وظيفته. لم يتجمّع حشد غاضب أمام باب منزله. لم يُطالب أحد في موقع مجلس باغفورد، ولا في أيّ موقع آخر على الإنترنت (أجرى عدّة أبحاث عبر غوغل)، بتوقيفه أو سَجنِه.

مرّ فاتس مُجدّدًا أمام الباب المفتوح، وكان يتناول ملعقة من اللبن. ألقى نظرة خاطفة إلى الغرفة، والتقت أنظاره للحظة وجيزة بأنظار كولين. نسي كولين على الفور ما كان يقول.

«... و... نعم، حسنًا، هذا كلّ شيء باختصار»، أنهى حديثه بشكلٍ واهٍ. ألقى نظرة إلى تيسا سعيًا للاطمئنان، لكنّ زوجته كانت تحدّق بجمود إلى الفراغ. شعر كولين بالامتعاض. كان يخال أنّ تيسا ستفرح لرؤيته أفضل حالًا، مسيطرًا أكثر على نفسه، بعد ليلة الأرق الفظيعة التي أمضياها. كان فريسة إحساسٍ طاغٍ بالخوف يجتاحه ويُطبق على معدته، لكنّه وجد عزاء كبيرًا في وجود بارميندر المظلومة والمضطهدة مثله، بقربه، وفي الاهتمام المتعاطف الذي تبديه له المساعدة الاجتماعية الجذّابة.

على عكس كاي، استمعت تيسا إلى كلّ كلمة قالها كولين بخصوص حقّ حيّ الحقول في البقاء ضمن باغفورد. لم تجد في كلامه أيّة قناعة حقيقيّة. أراد، في رأيها، أن يؤمن بما كان باري يؤمن به، وأراد هزيمة آل موليسون، لأنّ

تلك كانت إرادة باري. لم يكن كولين يحبّ كريستال ويدون، لكنّ باري كان يحبّها، فافترض بالتالي أنّها أفضل حتمًا ممّا يعتقد. كانت تيسا تعلم أنّ زوجها يحمل مزيجًا غريبًا من الغرور والتواضع، من القناعة الراسخة وانعدام الأمان.

إنّهم واهمون تمامًا، فكّرَت تيسا وهي تنظر إلى الثلاثة الآخرين منكبّين على رسم بيانيّ سحبته بارميندر من بين أوراق كاي. يخالون أنّهم سيبطلون ستّين عامًا من الغضب والنقمة ببضع أوراق من الاحصاءات. لا أحد منهم كان يشبه باري. فهو كان مثالًا حيًّا على ما يطرحونه هم نظريًّا: الارتقاء من خلال التعليم من الفقر إلى الثراء، من العجز والتبعيّة إلى المساهمة القيّمة في المجتمع. ألا يرون مدى عجزهم في الدفاع عن هذه القضيّة، مقارنة بالرجل الذي توفّي؟

«من المؤكّد أنّ الناس باتوا مستائين من سعي آل موليسون لإدارة كلّ شيء»، قال كولين.

«أعتقد ذلك بالفعل»، قالت كاي، «إنّه سيكون في غاية الصعوبة عليهم، إذا قرأوا هذه الموادّ، أن يستمرّوا في ادّعائهم أن العيادة لا تؤدّي عملًا أساسيًا.»

«لم ينسَ الجميع باري، في مجلس البلدة»، قالت بارميندر بصوتٍ مرتجف بعض الشيء.

لاحظت تيسا أنّ أصابعها المزيّتة كانت تنقّب بلا جدوى في الإناء. ففيما استغرق الآخرون في النقاش، أجهزت بمفردها على إناء رقائق البطاطا بكامله.

7

كان صباحًا مشرقًا منعشًا، ومع اقتراب موعد الغداء، خيّم جوّ خانق داخل مختبر الكمبيوتر في مدرسة وينترداون الشاملة، وألقت النوافذ المتّسخة بقعًا باهرة من النور على الشاشات المُغبرّة، شتّتت انتباه التلاميذ. لم يكن بوسع آندرو برايس التركيز، بالرغم من عدم وجود فاتس أو غايا لإلهائه. الشيء

الوحيد الذي كان يستحوذ على فكره هو ما تناهى إلى مسمعه من حديث بين والديه في الليلة السابقة.

كانا يتكلّمان بجدّية تامّة على الانتقال للعيش في ريدينغ، حيث تقيم شقيقة روث وصهرها. مرهفًا السمع في اتجاه باب المطبخ المفتوح، حام آندرو في البهو الضيّق المظلم منصتًا: يبدو أنّ العمّ الذي بالكاد يعرفه آندرو وبول، لأنّ والدهما لا يحبّه على الإطلاق، عرض على سايمون عملًا، أو على الأقلّ لوّح له باحتمال الحصول على عمل.

«إنّه أدنى راتبًا»، قال سايمون.

«لستَ متأكّدًا من ذلك. فهو لم يقل...»

«لا بدّ أنّه كذلك. وستكون الحياة هناك أعلى كلفة بشكل عامّ.»

أصدرت روث صوتًا مُبهمًا. واقفًا في البهو، بالكاد يتجرّأ على التنفّس، بدا جليًّا لآندرو، من مجرّد عدم إسراع والدته على موافقة سايمون الرأي، أنّها ترغب في الانتقال.

وجد آندرو من المستحيل أن يتخيّل والديه في أيّ منزل غير هيلتوب هاوس، أو في أية خلفيّة غير باغفورد. لطالما كان واثقًا بأنّهما سيبقيان هناك إلى الأبد. هو، آندرو، سوف يغادر يومًا ما إلى لندن، لكنّ سايمون وروث باقيان متجذّرين في التلال كالأشجار، حتى مماتهما. انسلّ إلى الأعلى عائدًا إلى غرفته وحدّق من الشبّاك إلى الأنوار المتلألئة في باغفورد الوادعة في الغور الأسود العميق بين التلال. شعر كأنّه لم يرَ هذا المنظر من قبل. في مكان ما في الأسفل، كان فاتس على الأرجح يدخّن في عليّته، وهو يشاهد أفلامًا إباحيّة على كمبيوتره. غايا هناك أيضًا، مستغرقة في طقوسها النسائيّة الغامضة. خطر لآندرو أنّها عاشت هذه التجربة قبله. اقتُلعت من المكان الذي تعرفه وزُرِعَت في غيره. أخيرًا، بات لديهما شيء يتقاسمانه في العمق. وجد نوعًا من المتعة السوداويّة في فكرة أنه برحيله، سيشاطرها شيئًا ما.

لكنّ الفرق أنّها لم تكن هي نفسها السبب خلف اقتلاعها من جذورها. حمل هاتفه الجوّال وهو يشعر بضيق يعصر أحشاءه، وبعث رسالة نصيّة إلى فاتس: «سيمو-حبيبو تلقّى عرض عمل في ريدينغ. قد يقبله.»

لم يكن فاتس ردّ بعد. لم يره آندرو طوال فترة قبل الظهر لأنه لم يكن لديهما أيّ حصص دراسيّة مشتركة. كذلك، لم يرَه في نهايتي الأسبوع الفائتتين، لأنّه كان يعمل في الإبريق النحاسيّ. أطول حديث بينهما مؤخّرًا دار حول التعليق الذي نشره فاتس عن أبو خزانة على موقع مجلس البلدة.

«أعتقد أنّ تيسا تشكّ بأمري» قال فاتس لآندرو بشكل عرضيّ. «إنّها تنظر إليّ باستمرار كما لو أنّها تعلم.»

«ماذا ستقول لها؟» همهم آندرو خائفًا.

كان مدركًا أنّ فاتس يسعى إلى المجد والفخر، كما كان يعي شغف فاتس باشهار الحقيقة سلاحًا، لكنّه لم يكن واثقًا من أنّ صديقه يفهم أنّ دوره المحوريّ في نشاطات شبح باري فيربراذر ينبغي ألا ينكشف إطلاقًا. لم يكن يومًا من السهل على آندرو أن يشرح لفاتس ما معنى أن يكون سايمون والده، أصلًا، وبشكل عام، بات من الصعب أكثر وأكثر في الآونة الأخيرة شرح الأمور لفاتس.

ما إن غاب أستاذ المعلوماتيّة عن أنظار آندرو، حتّى بحث عن ريدينغ على الإنترنت. كانت هائلة مقارنة بباغفورد. ينظَّم فيها مهرجانٌ موسيقيٌّ سنويّ. وهي لا تبعد عن لندن سوى أربعين ميلًا. تفحّص جدول القطارات. ربّما يمكنه الذهاب إلى العاصمة في نهايات الأسبوع، مثلما يستقلّ حاليًّا الحافلة إلى يارفيل. لكنّ المسألة برمّتها بدت غير حقيقيّة: باغفورد هي كلّ ما عرفه طوال حياته، وما زال عاجزًا عن تخيّل عائلته تعيش في أي مكان آخر.

في وقت الغداء، خرج آندرو مباشرة من المدرسة بحثًا عن فاتس. أشعل سيجارة بعد ابتعاده عن حرم المدرسة، وفيما كان يعيد ولّاعته إلى جيبه، سُرّ بسماع صوت نسائيّ يقول: «مرحبًا». انضمّت إليه غايا وسوكفيندر.

«أهلًا»، قال نافثًا الدخان بعيدًا عن وجه غايا الجميل.

باتَ الثلاثة، هذه الأيام، يملكون شيئًا لا يملكه أحد غيرهم. فالعمل معًا في نهايتي أسبوعين في المقهى أنشأ رابطًا هشًّا بينهم. باتوا يعرفون تعابير هاورد المعتادة، وتحمّلوا فضول مورين الشهوانيّ حول حياتهم العائليّة. ابتسموا معًا ساخرين عند رؤية ركبتيها المجعّدتين في فستان النادلة الذي بدا أقصر ممّا ينبغي عليها، وتبادلوا، مثل تجّار في أرضٍ غريبة، أجزاء صغيرة

ثمينة من المعلومات الشخصية. بالتالي كانت الفتاتان تعلمان أن والد آندرو صُرف من العمل، وآندرو وسوكفيندر يعلمان أن غايا تعمل لتوفير ثمن بطاقة قطار للعودة إلى هاكني، وهو وغايا يعلمان أن والدة سوكفيندر تكره أن تكون ابنتها تعمل لحساب هاورد موليسون.

«أين صديقك الثقيل؟» سألَت، فيما سار الثلاثة جنبًا إلى جنب.

«لا أدري»، قال آندرو. «لم أره.»

«خسارة»، قالت غايا. «كم واحدة من تلك تدخّن في اليوم؟»

«لا أعدّها»، أجاب آندرو، مبتهجًا لاهتمامها. «أتريدين واحدة؟»

«كلا»، قالت غايا، «لا أحبّ التدخين.»

تساءل فورًا إن كانت لا تحبّ كذلك تقبيل مدخّنين. نيام فيربراذر لم تعترض عندما أقحم لسانه في فمها في حفل المدرسة الراقص.

يدخّن ماركو؟» سألت سوكفيندر.

«كلا، إنّه يتمرّن طول الوقت»، قالت غايا.

بات آندرو شبه معتاد على فكرة ماركو دي لوكا. هناك ميزات لكَوْن غايا ملتزمة وَلاءً يتخطّى حدود باغفورد. حتّى وقع صورهما معًا على صفحتها في موقع فيسبوك تراجَع حدّةً من قدر ما بات أليفًا له. لم يخل أنّه يتوهّم بأن وتيرة الرسائل التي كانت تتبادلها وماركو تتباطأ وتتراجع حرارتها. لا يسعه أن يعرف حقيقة ما يجري بينهما على الهاتف أو عبر البريد، لكنّه متأكّد من أنه يرى ملامح إحباطٍ على وجه غايا كلّما ورد ذكره.

«آه، ها هو»، قالت غايا.

لم يكن ماركو الوسيم مَن أطلّ عليهم، بل فاتس وول، يتحدّث إلى داين تالي خارج محلّ الصحف.

تسمّرت سوكفيندر في أرضها، لكنّ غايا أمسكت بزندها.

«يمكنكِ السير أينما تريدين»، قالت دافعة بها قُدُمًا بلطف، فيما ضاقت عيناها الخضراوان المرقّطتان مع اقترابهم من المكان حيث كان فاتس وداين يدخّنان.

«كيف الحال، آرف؟» هتف فاتس مع اقتراب الثلاثة منه.

«فاتس»، قال آندرو.

في محاولة لاستباق أيّ مشكلة، لا سيّما قيام فاتس بترهيب سوكفيندر أمام غايا، سأل «هل وصلَتْك رسالتي النصيّة؟»

«أي رسالة؟» قال فاتس. «آه أجل... ذاك الشيء عن سيمو؟ أنت مغادر إذًا، أليس كذلك؟»

قيلت الجملة الأخيرة بلامبالاة متعالية لم يتمكّن آندرو من تبريرها إلا بوجود داين تالي.

«نعم، ربّما»، قال آندرو.

«إلى أين ستذهب؟» سألت غايا.

«والدي تلقّى عرض عمل في ريدينغ»، قال آندرو.

«آه، والدي يقيم هناك!» قالت غايا متفاجئة. «يمكننا أن نلتقي عندما أزور المدينة. المهرجان رائع. أتريدين سندويشًا، سوكس؟»

ذُهل آندرو بعرضها العفويّ لإمضاء بعض الوقت معه، إلى درجة أنّها توارت داخل محلّ الصحف قبل أن يستجمع أفكاره ويوافق. للحظة، بدا كلّ ما من حوله، من محطّة الحافلة القذرة، ومحل الصحف، وحتى داين تالي الموشوم والمهلهل الشكل بقميص قصير وبنطال رياضيّ، وكأنّه يشع نورًا شبه سماويّ.

«حسنًا، لديّ أعمال أقضيها»، قال فاتس.

أصدر داين ضحكة مكتومة. قبل أن يتمكّن آندرو من قول شيء أو من أن يعرض عليه مرافقته، كان فاتس قد ابتعد بخطى طويلة متوثّبة.

كان فاتس متأكّدًا من أنّ سلوكه البارد أربك آندرو وجرَحه، وهذا ما أفرحه. لم يسأل فاتس نفسه لماذا أسعده الأمر، أو لماذا باتت تلك الرغبة المعمّمة في إلحاق الألم والأذى، هي الشعور الطاغي لديه في الأيام الأخيرة. قرّر مؤخّرًا أن مراجعة المرء لدوافعه أمر غير أصيل، صاقلًا بذلك فلسفته الخاصّة بشكل يُسَهّل اتّباعها.

في طريقه إلى حيّ الحقول، فكّر فاتس في ما حصل في المنزل مساء اليوم السابق، عندما دخلت والدته إلى غرفة نومه للمرّة الأولى بعد أن لكمه أبو خزانة.

(ذاك التعليق حول والدك على موقع مجلس البلدة»، قالت. «عليّ أن أسألك هذا، ستوارت، وأتمنّى... ستوارت، هل أنت كتبته؟»

احتاجت عدّة أيّام إلى استجماع الشجاعة لاتّهامه، وكان مستعدًّا.

«كلا»، قال.

لكان ربّما أكثر أصالة وصدقًا أن يقول نعم، لكنّه فضّل ألّا يفعل، ولم يرَ لم عليه تبرير نفسه.

«لم تفعل؟» كرّرت السؤال، من دون تبديل نبرتها أو تعبير وجهها.

«كلا»، كرّر القول.

«لأنّ عددًا ضئيلًا جدّا جدّا من الناس يعلم ممّا والدك... ممّا يخشى.»

«حسنًا، لم أكن أنا.»

«التعليق نُشر في الليلة نفسها التي حصلت فيها المشادّة بينك وبين والدك، حين ضرب...»

«قلت لك لم أفعل.»

«أنت تعلم أنّه مريض يا ستوارت.»

«أجل، هذا ما تواصلين تكراره لي.»

«أكرّر لك ذلك لأنّه صحيح! لا يسعه شيئا... لديه مرض نفسيّ جدّي يسبّب له حزنًا وبؤسًا لا يوصفان.»

أصدر هاتف فاتس الجوّال رنّة، فألقى نظرة إلى رسالة نصّية من آندرو. قرأها وشعر كأنّه تلقّى لكمة في وسط معدته: آرف راحلٌ نهائيًا.

«إنّني أخاطبك ستوارت...»

«أعلم...ماذا؟»

«جميع هذه التعليقات...سايمون برايس، بارميندر، والدك...كلّهم أشخاص تعرفهم. إن كنت وراء كلّ هذا...»

«قلت لك، لم أفعل.»

«... إنّك تسبّب ضررًا لا يُعقَل. ضررًا خطيرًا ومروّعًا يا ستوارت لحياة الناس.»

كان فاتس يحاول تخيُّل الحياة من دون آندرو. فهما يعرفان أحدهما الآخَر منذ كانا في الرابعة.

«لست أنا»، قال.)

ضررٌ خطير ومروّع لحياة الناس.

هم صنعوا حياتهم، فكّر فاتس بازدراء، وهو ينعطف في شارع فولي. ضحايا شبح باري فيربراذر غارقون في وحول النفاق والأكاذيب، ولم يرُق لهم انكشاف أمرهم. إنّهم حشرات غبيّة تفرّ من النور الساطع. لا يعرفون شيئًا عن الحياة الحقيقيّة.

تراءى له منزل أُلقيَ على العشب أمامه إطار أملَس. تهيّأ له بقوّة أنه منزل كريستال، وعندما رأى رقمه أدرك أنه محقّ. لم يأت إلى هنا البتّة من قبل. ما كان ليوافق قبل أسبوعين على لقائها في منزلها في ساعة الغداء، لكنّ الأمور تغيّرت. هو تغيّر.

يقولون إنّ والدتها مومس. من المؤكّد أنّها مدمنة. كريستال قالت له إنّ المنزل فارغ لأنّ والدتها ستكون في عيادة بيلتشابيل لتلقّي جرعتها من الميثادون. عبَر فاتس الممرّ وسط الحديقة من دون أن يبطئ خطواته، لكنّه شعر باضطراب مُفاجئ.

كانت كريستال في انتظاره، تترقّبه من نافذة غرفة نومها. أغلقت أبواب جميع الغرف في الأسفل حتّى لا يرى إلا البهو، بعدما رمت كلّ ما كان ملقًى فيه داخل غرفة الجلوس والمطبخ. كانت السجّادة متحجّرة في أماكن ومحترقة في أماكن أخرى، والحائط مبقّع، لكن لم يكن في وسعها فعل شيء بهذا الخصوص. لم تجد في المنزل ذلك المعقّم برائحة الصنوبر، لكنّها عثرت على سائل تبييض، فنثرته في أنحاء المطبخ والحمّام اللذين يبعثان أسوأ الروائح في المنزل.

عندما قرع الباب، ركضت إلى الأسفل. لم يكن أمامهما الكثير من الوقت، فتيري ستعود مع روبي على الأرجح في الواحدة. لا يترك ذلك لهما متّسعًا وافيًا من الوقت لصنع طفل.

«أهلًا»، قالت عندما فتحت الباب.

«كيف الحال؟» قال فاتس، نافثًا الدخان من منخريه. لم يكن يتوقّع ما سيجد. بدا المنزل للوهلة الأولى كعلبة متّسخة فارغة. لم يكن يحتوي على أثاث. وبدت الأبواب المغلقة إلى يساره وأمامه أشبه بنذير شؤم.

«هل نحن وحدنا هنا؟» سأل فيما كان يجتاز العتبة.

«نعم»، قالت كريستال. «يمكننا الذهاب إلى الأعلى. إلى غرفتي.»

سارت أمامه. كلّما توغّلا في المنزل ساءت الرائحة: خليط من المُبيّض والقذارة. حاول فاتس ألا يعبأ. كانت جميع الأبواب مغلقة في الطابق الأعلى أيضًا، باستثناء واحد. عبرته كريستال.

لم يشأ فاتس أن يشعر بالصدمة، لكنّه لم يكن في الغرفة سوى فراش مغطّى بملاءة ولحاف عارٍ، فيما تكوّمت الملابس في إحدى الزوايا. على الحائط عُلّقت بشريط لاصق صور ممزّقة من صحف الفضائح لبعض نجوم البوب والمشاهير.

علّقت كريستال الصور في اليوم السابق، مقلّدة ما رأته على حائط غرفة نوم نيكي. عندما علمت بأن فاتس آتٍ، أرادت أن تجعل الغرفة أكثر حميميّة. أغلقت الستائر الرقيقة التي أضفت وهجًا أزرق على نور النهار.

«هات سيجارة»، قالت. «سأجنّ على سيجارة».

أشعلها لها. كانت أكثر توتّرًا من أي وقت مضى. يفضّلها مزهوّة وخبيرة في شؤون الدنيا.

«ليس لدينا وقت طويل»، قالت له، مبقية السيجارة في فمها فيما بدأت تخلع ملابسها. «أمّي ستعود.»

«أجل، إنّها في بيلتشابيل، أليست كذلك؟» قال فاتس، محاولًا استنهاض قسوة كريستال في ذهنه.

«نعم»، قالت، فيما جلست على الفراش وبدأت تخلع بنطالها الرياضيّ.

«ماذا لو أغلقوها؟» سأل فاتس وهو يقلع سترته. «سمعت أنّهم يفكّرون في الأمر.»

«لا أدري»، قالت كريستال، لكنّها كانت خائفة. فإرادة والدتها هشّة وسريعة العطب مثل صوص بالكاد خرج من قشرة البيضة، وقد تنهار أمام أقلّ بلبلة.

كانت الآن في ملابسها الداخلية. كان فاتس يخلع حذاءيه عندما لحظ شيئا مخبّأ قرب كومة ملابسها: علبة مجوهرات بلاستيكيّة صغيرة مفتوحة، بدت داخلها ساعة مألوفة ملفوفة.

«هل هذه لوالدتي؟» قال متفاجئًا.

«ماذا؟» ردّت كريستال مذعورة. «كلّا»، كَذَبَت. «كانت لنانا كاث. لا...!»

لكنه سبق احتجاجاتها وأخرجها من العلبة.

«إنّها ساعتها»، قال، وقد تعرّف إلى سوار الساعة.

«كلا ليست كذلك!»

كانت مرتاعة. كادت تنسى أنّها سرقتها، ومن أين أتت. جلس فاتس صامتًا، فلم تطمئنّ إلى ذلك.

بدت الساعة في يد فاتس مثل تحدّ واتّهام في آن. تخيّل نفسه في تعاقب أفكار سريع، يخرج واضعًا إيّاها في جيبه بهدوء، أو يعيدها إلى كريستال هازًّا كتفيه.

«إنّها لي»، قالت.

لم يكن يريد أن يكون شرطيًّا، بل يريد أن يكون خارجًا على القانون. لكن ترتّب عليه أن يتذكّر أنّها هديّة من أبو خزانة حتّى يعيدها ويواصل خلع ملابسه. نزعت كريستال صدريّتها وسروالها الداخلي وانسلّت عارية تحت اللحاف، ووجهها لا يزال قرمزيًّا.

إقترب منها فاتس في سرواله الداخلي القصير وفي يده واقٍ ذكريّ في غلافه.

«لم نعد نحتاج إلى هذا»، قالت كريستال مهمهمة بلسان ثقيل. «أنا آخذ حبوب منع الحمل الآن.»

«حقًّا؟»

أفسحت له مكانًا على الفراش. انسلّ فاتس تحت اللحاف.

تساءل وهو يخلع سرواله الداخلي، إن كانت تكذب بخصوص حبوب منع الحمل، كما بشأن الساعة. لكنّه كان يرغب منذ فترة بالمحاولة من دون واقٍ ذكريّ.

«هيّا»، همست، وهي تسحب الغلاف المربّع الصغير من يده وترميه على سترته المكوّمة على الأرض.

تخيّل كريستال تحمل طفله. وجها تيسا وأبو خزانة عندما يسمعان بالأمر. إبنه في حيّ الحقول، من لحمه ودمه. سيكون ذلك أكثر بكثير مما يستطيع أبو خزانة التعامل معه. تشقلب وتمدّد فوقها. هذه هي الحياة، قال لنفسه، الحياة الحقيقيّة.

8

في السادسة والنصف من ذلك المساء، دخل هاورد وشيرلي موليسون قاعة كنيسة باغفورد. كانت شيرلي تحمل رزمة من الأوراق في ذراعها بينما وضع هاورد حول عنقه، خصّيصًا لهذه المناسبة، سلسلته الرسميّة المزيّنة بشعار باغفورد الأزرق والأبيض.

أصدرت الأرضية الخشبيّة صريرًا تحت ثقل هاورد الهائل فيما تقدّم إلى رأس الطاولات المخدوشة التي تمّ رصفها بالطول في صفّ واحد. كان هاورد مولعًا بهذه القاعة قدر ولعه بمحلّه الخاص. يستخدمها الكشّافة أيّام الثلاثاء، وتستضيف معهد النساء أيّام الأربعاء. نُظِّمَت فيها أسواق خيريّة واحتفالات يوبيليّة، حفلات زفاف ومراسم دفن، ولا تزال تعبق برائحة كلّ تلك المناسبات. مزيج ملابس قديمة وجرار قهوة، أشباح كعكات مخبوزة في المنازل وسلطات لحوم، غبار وأجساد بشريّة، لكن بشكل أساسيّ خشب معتّق وحجر. القاعة مضاءة بمصابيح من النحاس المطروق تتدلّى من عارضات السقف عند طرف أشرطة كهربائيّة لولبيّة غليظة سوداء، وفي قعرها أبواب مزخرفة من الخشب الماهوغاني تؤدّي إلى المطبخ.

تنقّلت شيرلي منشغلة من مكان إلى آخر، وهي ترتّب الأوراق. هي تعشق اجتماعات المجلس. ليس فقط أنّها تعتزّ وهي تستمتع بالاستماع إلى هاورد مترئسًا تلك الجلسات، بل إنّها أيضًا تجد لذّة في غياب مورين عنها حكمًا في ظلّ غياب أيّ صفة رسميّة لها، واضطرارها إلى الاكتفاء بفتات المعلومات الذي تتنازل شيرلي عنه وترميه لها.

وصل زملاء هاورد من أعضاء المجلس أفرادًا وأزواجًا. دوّى المكان بترحيبه، وتردّد صوته بين عارضات القاعة. نادرًا ما يحضر المجلس كاملًا بأعضائه الستة عشر، وكان يتوقّع اثني عشر منهم اليوم.

كان نصف المقاعد حول الطاولة امتلأ عندما وصل أوبري فاولي. عبَر القاعة بمشيته المعهودة، بخطى حازمة جاهدة، محدودبًا بعض الشيء مطأطئ الرأس، وكأنّه يقاوم رياحًا عاتية.

«أوبري!»، هتف هاورد مبتهجًا، وللمرّة الأولى تقدّم للترحيب بالوافد الجديد. «كيف حالك؟ كيف جوليا؟ هل تلقّيت دعوتي؟»

«عذرًا، أنا لا...»

«إلى عيدي الخامس والستين؟ هنا... السبت... في اليوم التالي للانتخاب.»

«آه، نعم، نعم. هاورد، هناك سيّدة شابّة في الخارج... تقول إنّها من جريدة يارفيل والجوار. آليسون ...؟»

«آه»، قال هاورد. «غريب. أرسلت لها مقالتي للتوّ، تعلم، تلك المتعلّقة بفيربراذر... ربّما تتعلّق المسألة بذلك... سأذهب لأرى.»

غادر متهاديًا، ومخاوف مبهمة تخامره. كان على مقربة من الباب حين دخلت بارميندر جاواندا. عابسة كعادتها، مرّت إلى جانبه من دون إلقاء التحيّة عليه، وهذه المرّة لم يسأل هاورد «كيف حال بارميندر؟»

في الخارج على الرصيف، وجد شابّة شقراء، ممتلئة ومربوعة القامة، تحيط بها هالة من البشاشة المُحكَمة التي رصد فيها على الفور تصميمًا يحاكي أطباعه. كانت تحمل مفكّرة وتتأمّل الأحرف الأولى لاسم عائلة سويتلوف المحفورة على الأبواب المزدوجة.

«أهلًا، أهلًا»، قال هاورد، لاهثًا قليلًا. «آليسون، أليس كذلك؟ هاورد موليسون. هل قطعتِ كلّ هذه المسافة لتقولي لي إنّ أسلوبي في الكتابة رديء تمامًا؟»

ابتسمت وصافحت اليد التي مدّها لها.

«آه، كلا، أعجبنا المقال»، أكّدت له مُطَمئِنة. «قلتُ لنفسي، بما أنّ الأمور باتت مثيرة للاهتمام إلى هذا الحدّ، أن آتي وأحضر الاجتماع. هل تمانع؟ وجود الصحافة مسموح على ما أظنّ. اطّلعتُ على جميع الأنظمة.»

كانت تسير باتجاه الباب في أثناء حديثها.

«نعم، نعم، يُسمح بحضور الصحافيّين»، قال هاورد لاحقًا بها، قبل أن يتوقّف بلباقة عند المدخل مفسحًا لها حتّى تدخل قبله. «إلّا إذا اضطررنا إلى التعامل مع أي موضوع في جلسة مغلقة، بالطبع.»

رمقته بنظرة سريعة وتمكّن من تمييز ابتسامتها وأسنانها الملتمعة حتى في النور الخافت.

«على غرار ذلك المتعلّق بالاتهامات التي يكيلها مجهول للبعض على لوائح نقاشاتكم؟ تلك الصادرة عن شبح باري فيربراذر؟»

«ربّاه لا»، قال هاورد بصوت كالصفير، وهو يبادلها الابتسامة. «هذه لا يمكن اعتبارها معلومات، بالتأكيد، أليس كذلك؟ مجرّد تعليقين سخيفين على الإنترنت؟»

«هل كانا مجرّد تعليقين لا غير؟ قيل لي إنّها أزيلت جميعها من الموقع.»

«لا، لا، أحدهم أساء الفهم»، قال هاورد. «ورد تعليقان أو ثلاثة فحسب، على حدّ علمي. ثرثرات فارغة. شخصيًّا»، قال مرتجلًا بشكل مفاجئ، «أعتقد أنّه فعْل أحد الفتيان.»

«أحد الفتيان؟»

«تعلمين. مراهقٌ ما يتسلّى.»

«وهل يستهدف مراهقون أعضاء في مجلس البلدة؟» سألت ولا تزال تبتسم. «سمعت، في الواقع، أنّ أحد الضحايا خسر وظيفته. يُحتمل أن يكون ذلك نتيجة المزاعم الموجّهة ضدّه على موقعكم.»

«هذه أوّل مرّة أسمع بذلك»، قال هاورد زورًا. كانت شيرلي التقت روث في المستشفى في اليوم السابق وروَت له ما حصل.

«أرى على جدول الأعمال»، قالت آليسون وهما يدخلان القاعة المضاءة بأنوار باهرة، «أنكم ستناقشون ملفّ بيلتشابيل. لقد سجّل كل منكما، أنت والسيد فيربراذر، في مقالته، نقاطًا جيدة دفاعًا عن وجهة نظره... تلقّينا في الجريدة عدة رسائل بعدما نشرنا مقال السيّد فيربراذر. هذا الأمر أعجب رئيس تحريري. أيّ شيء يجعل الناس يكتبون رسائل هو موضع ترحيب...»

«نعم، رأيتها»، قال هاورد. «لم يبدُ لي أنّ أحدًا يمتدح العيادة، أليس كذلك؟»

كان أعضاء مجلس البلدة المصطفّون حول الطاولة يراقبونهما.

نظرت إليهم آليسون جنكينز بدورها، والابتسامة لا تزال تشعّ على وجهها.

«دعيني أحضر لك كرسيًّا»، قال هاورد. لاهثًا قليلًا، رفع كرسيًّا من كدسة قريبة وأجلس آليسون على مسافة حوالى ثلاثة أمتار من الطاولة.

«شكرًا»، قالت وهي تسحب الكرسيّ مترين إلى الأمام.

«سيّداتي سادتي»، نادى هاورد، «الصحافة شرّفتنا بحضورها هنا الليلة. هذه الآنسة آليسون جنكينز من جريدة يارفيل والجوار.»

أظهر بعض الأعضاء اهتمامًا وسرورًا لوجود آليسون، لكنّ أغلبهم بدا مرتابًا. عاد هاورد متثاقلًا إلى رأس الطاولة حيث كان أوبري وشيرلي يستجوبانه بعينَيهما.

«شبح باري فيربراذر»، قال لهما بصوت خافت، جالسًا باحتراس شديد على الكرسيّ البلاستيكيّ، بعدما انهار واحد منها تحته قبل اجتماعين. «وبيلتشابيل. وها هو توني!» هتف مُجفِلًا أوبري. «تفضّل، يا توني... سنمنح هنري وشايلا دقيقتين إضافيّتين، هلّا فعلنا؟»

كانت همهمة الأحاديث حول الطاولة أكثر انخفاضًا بقليل من العادة. بدأت آليسون جنكينز تدوّن ملاحظات في دفترها. فكّر هاورد غاضبًا، كلّ هذا بسبب فيربراذر السافل. هو الذي سمح للصحافة بأن تحشر أنفها في

شؤون المجلس. لجزء من الثانية، خطر لهاورد أنّ باري والشبح واحد، شخص مثيرٌ للمتاعب، سواء كان حيًا أو ميتًا.

على غرار شيرلي، أحضرت بارميندر رزمة أوراق إلى الاجتماع، كدّستها تحت ورقة جدول أعمال الاجتماع التي تظاهرت بقراءتها كي لا تُضطَرّ لمحادثة أحد. في الحقيقة، كانت تفكّر في المرأة الجالسة مباشرة خلفها تقريبًا. فقد نقلت جريدة يارفيل والجوار خبر نوبة كاثرين ويدون وشكاوى العائلة ضدّ طبيبتها العامّة. لم يرد ذكر اسم بارميندر، لكن لا شكّ في أنّ الصحافية تعلم مَن تكون. ربّما سمعت آليسون بالتعليق الخاص ببارميندر الذي ورد على موقع مجلس البلدة كذلك.

إهدئي. إنّك تصبحين مثل كولين.

بدأ هاورد يسجّل الاعضاء المتغيّبين ويطلب مراجعات في اللحظات الأخيرة، لكن بالكاد كانت بارميندر تسمع أيّ شيء غير الدماء تنبض في أذنيها.

«الآن، إن لم يكن لدى أحد أيّ اعتراض»، قال هاورد، «سنبدأ بالنقطتين الثامنة والتاسعة أوّلًا لأن عضو مجلس يارفيل فاولي لديه أخبار بخصوصهما ولا يمكنه البقاء مطوّلًا...»

«لديّ حتى الثامنة والنصف»، قال أوبري، ناظرًا إلى ساعته.

«...نعم، بالتالي إن لم تكن هناك اعتراضات... كلا؟... الكلام لك، أوبري.»

عرض أوبري الوضع ببساطة وبنبرة خالية من أيّة عواطف أو انفعالات. مع اقتراب موعد المراجعة الجديدة للحدود، تظهر رغبة من خارج باغفورد في إعادة إلحاق حيّ الحقول بيارفيل. سوف تتكفّل يارفيل عندها بالتكاليف الملقاة حاليًا على عاتق باغفورد، غير أنّها منخفضة نسبيًا، وسيكون الأمر مجديًا إذ ستضمّ المدينة في المقابل إلى خزّانها الانتخابيّ أصواتًا معادية للحكومة يمكن أن ترجّح الكفّة، في حين أنّها تُهدِر حاليًا في باغفورد التي تشكّل منذ الخمسينيّات قلعة محافظة منيعة. والعمليّة برمّتها يمكن أن تتمّ تحت خانة التبسيط وزيادة الفعالية، إذ أنّ يارفيل هي التي توفّر حاليًّا القسم الأكبر من الخدمات التي يستفيد منها الحيّ.

ختم أوبـري بالقول إنّـه من المفيد، إن كانت باغفورد ترغب في الانفصال عن الحيّ، أن تعبّر عن رغباتها إلى مجلس يارفيل.

«... رسالة معبّرة واضحة منكم»، قال، «و أعتقد حقًّا هذه المرّة أنّ...»

«لم ينجح ذلك على الإطلاق في السابق»، قال مزارع، وردّت عليه تمتمات موافقة.

«الفرق جون، أنّ أحدًا لم يطلب منّا في الماضي أن نعبّر عن موقفنا»، قال هاورد.

«أليس علينا أن نقرّر ما هو موقفنا قبل إعلانه؟» سألت بارميندر بصوت لاذع.

«حسنًا»، قال هاورد بحياد. «هل تودّين افتتاح النقاش، دكتورة جاواندا؟»

«لست أدري كم منكم قرأوا مقالة باري في الجريدة»، قالت بارميندر. كانت كلّ الوجوه ملتفتة نحوها وهي تحاول ألّا تفكّر في التعليق الذي طالها أو في الصحافيّة الجالسة خلفها. «أعتقد أنه قدّم بشكل ممتاز الحجج التي تدعو إلى إبقاء حيّ الحقول من ضمن باغفورد.»

رأت بارميندر شيرلي المنهمكة في الكتابة، توجّه بسمة طفيفة لقلمها.

«بالقول لنا إنّ أمثال كريستال ويدون يستفيدون من ذلك؟» قالت سيّدة مسنّة تدعى بيتي، من آخر الطاولة. لطالما كرهتها بارميندر.

«بتذكيرنا أنّ المقيمين في حيّ الحقول هم جزء من مجتمعنا المحلّي أيضًا»، أجابت.

«هم يعتبرون أنفسهم من يارفيل»، قال المزارع. «لطالما فعلوا.»

«أذكر»، قالت بيتي، «عندما دفعت كريستال ويدون طفلًا إلى النهر خلال نزهة في الطبيعة.»

«كلّا، لم تفعل»، قالت بارميندر غاضبة، «ابنتي كانت هناك... كان صبيّان يتعاركان... في جميع الأحوال...»

«سمعت أنّها كريستال ويدون»، قالت بيتي.

«إذًا، لم تسمعي جيّدًا»، قالت بارميندر، إلّا أنها لم تكن تقول فحسب، بل كانت تصرخ.

صُدم الجميع. هي نفسها صُدمت. توالى الصدى مرتدًّا على الجدران القديمة. شعرت بارميندر بعقدة في حلقها تمنعها من بلع ريقها. حدّقت إلى جدول الاجتماع أمامها، مطأطئة الرأس، وسمعت صوت جون وكأنّه آت من مسافة بعيدة.

«كان حريًّا بباري أن يتحدّث عن نفسه، لا عن تلك الفتاة. هو استفاد كثيرًا من سانت توماس.»

«المشكلة هي أنه مقابل كلّ باري»، قالت امرأة أخرى، «هناك حفنة من الأشقياء.»

«إنّهم يارفيليّون في نهاية المطاف»، قال رجل، «ينتمون إلى يارفيل.»

«هذا غير صحيح»، قالت بارميندر، متعمّدة إبقاء صوتها منخفضًا، لكنّهم لزموا الصمت ليستمعوا إليها، مترقّبين أن تعاود الصراخ. «هذا ببساطة غير صحيح. انظروا إلى عائلة ويدون. هذه كانت النقطة الأساسية في مقال باري. كانوا عائلة من باغفورد لسنوات طويلة، لكن...»

«انتقلوا إلى يارفيل!» قالت بيتي.

«لم تكن ثمّة مساكن كافية هنا»، قالت بارميندر مصارعة طبعها، «لم يوافق أيّ منكم على مشروع سكنيّ جديد عند مشارف البلدة.»

«لم تكوني هنا، أنا آسفة»، قالت بيتي ووجهها متورّد، مشيحة بنظرها عن بارميندر بشكل فاضح. «لا تعرفين ماضي المنطقة.»

انتقل الحديث إلى العموميّات: انفرط عقد الاجتماع إلى أحاديث جانبيّة صغيرة وتعذّر على بارميندر فهم أي شيء ممّا يُقال حولها. كانت حنجرتها منكمشة ولم تتجرّأ على النظر في عينَي أحد.

«هلا صوّتنا برفع الأيدي؟» هتف هاورد عبر الطاولة، وعمّ الصمت مجدّدًا. «المؤيّدون لإبلاغ مجلس يارفيل بأن باغفورد يسعدها إعادة ترسيم حدود البلدة، وإزالة حيّ الحقول من منطقة صلاحياتنا؟»

كانت قبضتا بارميندر مشدودتين في حضنها، وأظافرها مغروزة في راحتَيها. سُمع حفيف أكمام حولها.

«ممتاز!» قال هاورد، فيما تردّدت الغبطة في صوته برنّة ظافرة من عارضات السقف. «حسنًا، سأصيغ مسودّة مع توني وهيلين وسنوزّعها على الجميع للاطلاع عليها ثم نرسلها. ممتاز!»

صفّق اثنان أو ثلاثة من أعضاء مجلس البلدة. أغشي على رؤية بارميندر وبدأت ترمش بقوّة. لفّ الورقة أمامها ضباب ولم تعد تميّز الكلمات عليها. خيّم صمت استمرّ طويلًا، إلى أن رفعت عينيها أخيرًا. وجدت هاورد وقد اضطرّ من فرط حماسه وانفعاله إلى الاستعانة بمُستنشقه، بينما نظر إليه أغلبية أعضاء المجلس بقلق.

«حسنا إذًا»، قال هاورد بصوت صافِر، مبعدًا المستنشق عنه مجدّدًا، بوجه متورّد علَته ابتسامة عريضة، «إن لم يكن لدى أحد ما يضيفه...» - توقّف ضئيل - «...النقطة التاسعة. بيلتشابيل. وأوبري لديه خبر لنا بهذا الخصوص أيضًا.»

ما كان باري ليسمح بحدوث ذلك. لكان جادل. لكان جعل جون يضحك ثم يصوّت معنا. كان عليه أن يكتب عن نفسه، لا عن كريستال...لقد خذلتُه.

«شكرًا هاورد»، قال أوبري، فيما نبض الدم في أذنَي بارميندر، فغرزت أظافرها أعمق في راحتيها. «كما تعلمون، علينا إجراء اقتطاعات جذرية جدًّا على مستوى المنطقة...»

كانت مغرمة بي، وكانت بالكاد قادرة على إخفاء ذلك عندما تنظر إليّ...

«...وأحد المشاريع التي علينا بحثها هي بيلتشابيل»، قال أوبري. «أعتقد أنه يمكنني الكلام لأن البلدة، كما تعلمون، هي التي تملك المبنى...»

«...والإيجار أوشك على الانتهاء» قال هاورد. «هذا صحيح.»

«لكن لا أحد مهتمّ بذلك المكان القديم، أليس كذلك؟» سأل محاسب متقاعد من طرف الطاولة. «إنّه في حال سيّئة، على ما سمعت.»

«آه، أنا واثق بأنّنا سنتمكّن من العثور على مستأجر جديد»، قال هاورد بارتياح، «لكن هذه ليست المشكلة الفعليّة. المسألة هي إن كنّا نعتقد أن العيادة تقوم بعمل جيّد...»

«هذه ليست المسألة الأساسيّة على الإطلاق»، قاطعته بارميندر. «ليس من صلاحيّات مجلس البلدة أن يقرّر إن كانت العيادة تنجز عملًا جيّدًا. فنحن لا نموّل عملهم. ليسوا من مسؤوليتنا.»

«لكنّنا نملك المبنى»، قال هاورد، وهو لا يزال يبتسم ويتكلّم بتهذيب، «لذا أعتقد أنّه من الطبيعي أن نرغب في درس...»

«إذا كنّا سندقّق في المعلومات حول عمل العيادة، فأعتقد أنّه من المهمّ جدًّا أن نحصل على صورة متوازنة»، قالت بارميندر.

«أنا آسفة جدّاً»، قالت شيرلي رامشة عينيها عبر الطاولة نحو بارميندر، «لكن هل يسعك الإحجام عن مقاطعة الرئيس، دكتورة جاواندا؟ من الصعب جدّا تدوين محضر إذا واصل الجميع الكلام في الوقت نفسه. وها إنّني أقاطع الحديث بدوري»، أضافت مبتسمة. «عذرًا!»

«أفترض أنّ البلدة تودّ الاستمرار في الحصول على مردود من المبنى»، قالت بارميندر متجاهلةً شيرلي. «وليس لدينا أي مُستأجرين آخرين محتملين ينتظرون دورهم، على حدّ علمي. لذلك أتساءل لماذا نبحث أساسًا في إنهاء عقد إيجار العيادة؟»

«إنّهم لا يشفونهم» قالت بيتي. «يعطونهم المزيد من المخدّرات. سأكون سعيدة جدّا إن رحلوا.»

«إنّنا مضطرّون إلى اتّخاذ قرارات صعبة جدًّا على مستوى مجلس يارفيل»، قال أوبري فاولي. «الحكومة تسعى إلى ادّخار أكثر من مليار من الإدارة المحلّية. لا يمكننا مواصلة تقديم الخدمات كما عهِدنا. هذا هو الواقع.»

تكره بارميندر كيف يتصرّف زملاؤها في المجلس بوجود أوبري، يتشبّعون بصوته العميق الرخيم، ويومئون برؤوسهم إيجابًا باستمرار في أثناء كلامه. هي تدرك أنّ بعضهم يطلق عليها لقب «براز الزيز».

«تشير الدراسات إلى أن استهلاك المخدّرات غير المشروعة يرتفع في أثناء فترات التدهور الاقتصادي»، قالت بارميندر.

«هذا خيارهم»، قالت بيتي. «لا أحد يجبرهم على تعاطي المخدّرات.»

نظرت حول الطاولة سعيًا إلى تأييد ما. إبتسمت لها شيرلي.

«علينا اتّخاذ قرارات صعبة»، قال أوبري.

«لذا اجتمَعتَ مع هاورد»، قاطعته بارميندر، «وقرّرتما إعطاء العيادة دفعة إضافيّة بطردهم من المبنى.»

«يمكنني إيجاد طرق لإنفاق المال أفضل من صرفه على حفنة مجرمين»، قال المحاسب.

«كنت شخصيًّا لألغي جميع مخصّصاتهم»، قالت بيتي.

«دُعيت إلى هذا الاجتماع لوضعكم جميعًا في صورة ما يحدث على مستوى المنطقة»، قال أوبري بهدوء. «لا أكثر، دكتورة جاواندا.»

«هيلين»، قال هاورد بصوت مرتفع، مشيرًا إلى عضو مجلس أخرى كانت ترفع يدها، محاولة إسماع آرائها منذ فترة.

لم تسمع بارميندر شيئًا ممّا قالته تلك المرأة. نسيَت وجود كدسة الأوراق تحت برنامج الاجتماع، تلك الأوراق التي أمضت كاي بودين وقتًا طويلًا عليها: الإحصاءات، عرض الحالات الناجحة، تفسير فوائد الميثادون مقارنة بالهيرويين، دراسات تظهر التكاليف الماليّة والاجتماعيّة للإدمان على الهيرويين. كلّ شيء حولها بات مموَّهًا، كأنّهُ غير حقيقيّ. هي على يقين بأنّها ستنفجر كما لم تفعل في حياتها، ولم يعد من مجال للأسف على ذلك ولا للحؤول دون حصوله. لا يسعها سوى أن تقف شاهدة على حدوثه. فات الأوان، أكثر مما ينبغي...

«...ثقافة الاعتماد على المساعدات»، قال أوبري فاولي. «أشخاص لم يعملوا فعليًّا يومًا واحدًا في حياتهم.»

«ولا بدّ أن نقرّ بالأمر»، قال هاورد، «إنّها مشكلة حلّها بسيط. توقّفوا عن تعاطي المخدّرات.»

التفت إلى بارميندر مبتسمًا مهادنًا. «يسمّونه انقطاعًا تامًّا، أليس كذلك، دكتورة جاواندا؟»

«آه، تعتقد أنّ عليهم تحمّل مسؤوليّة إدمانهم وتغيير سلوكهم؟» قالت بارميندر.

«باختصار، نعم.»

«قبل أن يكلّفوا الدولة مزيدًا من المال.»

«تمامًا...»

«وأنت»، قالت بارميندر رافعةً صوتها، فيما بدأ الانفجار الصامت يغمرها ويجرفها، «أتعلم كم من عشرات آلاف الجنيهات أنت، هاورد موليسون، كلّفتَ الخدمات الصحّية، بسبب عجزك التام عن وقف إتخام نفسك؟»

بدأت بقعة قرمزيّة واضحة تنتشر من عنق هاورد إلى وجنتيه.

«أتعلم كم كلّفَت عمليّة قلبك، وأدويتك، ومكوثك المطوّل في المستشفى؟ ومواعيد استشارات الأطبّاء التي تأخذها للربو وضغط الدم والطفح الجلديّ البغيض، الناجمة كلّها عن رفضك فقدان الوزن؟»

فيما تحوّل صوت بارميندر إلى صراخ، بدأ أعضاء آخرون في المجلس الاحتجاج نيابة عن هاورد. نهضت شيرلي، وبارميندر ما زالت تصرخ متشبّثة بالأوراق التي بعثرتها وهي تلوّح بيديها.

«ماذا عن السريّة الطبيّة؟» صرخت شيرلي. «هذا مشين! مشين تمامًا!»

وصلت بارميندر إلى باب القاعة وباتت على وشك الخروج، عندما سمعت وسط شهقاتها الحانقة بيتي تطلب طردها فورًا من المجلس. كانت كأنّما تهرب من القاعة. أدركت أنّها قامت بعمل رهيب له وقع الكارثة. ودّت لو تبتلعها الظلمة وتختفي إلى الأبد.

9

عمدت جريدة يارفيل والجوار إلى توخّي الحذر في تقريرها عمّا دار من نقاش وما قيل من كلام خلال الاجتماع الأكثر احتدامًا في تاريخ مجلس بلدة باغفورد. غير أنّ ذلك لم يُحدث فرقًا كبيرًا، إذ كان المقال المنقّح المدعوم بشهادات حيّة ومعبّرة لكلّ الذين حضروه، كافيًا لإثارة القيل والقال، ونشر الخبر على صعيد واسع. ولزيادة الطين بلّة، أوردت تقريرًا في الصفحة الأولى، فصّل كلّ الهجمات التي ظهرت على الإنترنت والموقّعة باسم الرجل الميت والتي تسبّبت بحسب ما كتبت آليسون جنكينز «بالكثير من التكهّنات والغضب... والتتمّة في الصفحة الرابعة.» وإن كانت الصحيفة حرصت على حذف أسماء الاشخاص المستهدَفين وكتم تفاصيل المخالفات المنسوبة إليهم، إلّا أنّ رؤية عبارتَي «مزاعم خطيرة» و«نشاط إجرامي» مطبوعتين في صفحاتها هزّت هاورد، ربّما أكثر من التعليقات الأصليّة على الموقع.

«كان يجدر بنا تعزيز حماية الموقع منذ أوّل تعليق»، قال لزوجته وشريكته في المحلّ، وهو يقف أمام مدفأة الغاز.

كان مطر ربيعيّ خفيف ينهمر بصمت مبلّلًا النافذة، والعشب يتلألأ بشرارات نور صغيرة متوهّجة. كان هاورد يرتعش، جسده الصخم يمتصّ كلّ الدفء المنبعث من الفحم الاصطناعيّ. مضت أيّام وروّاد المقهى ومحلّ الأطعمة لا حديث لهم سوى الرسائل التي بُثَّت على الموقع، وشبح باري فيربراذر، وانفجار بارميندر خلال اجتماع المجلس الأخير. يكره أن يرى كلّ المسائل التي كشفَتْها بأعلى صوتها وهي تزعق غاضبة، تتحوّل إلى محطّ الأحاديث والمناقشات. لأوّل مرّة في حياته، شعر هاورد بنفسه غير مطمئنّ في محلّه، وقلقًا على موقعه في باغفورد، بعدما كان يحتلّ مركزًا منيعًا لا يتزحزح في البلدة. من المقرّر أن يجري انتخاب خلف لباري في اليوم التالي، وبعدما كان هاورد يشعر بالإثارة والحماسة لهذه الفكرة، بات الآن قلقًا وعصبيًا.

«هذه المسألة تسبّبت بضرر كبير. ضرر جسيم»، كان يكرّر باستمرار.

امتدّت يده إلى بطنه لحكّه، لكنّه أبعدها، متحاملًا على نفسه، وعلى وجهه ملامح التضحية التامّة. لا يسعه أن ينسى كلّ ما صرخت به الدكتورة جاواندا بوجه المجلس والصحافة. دقّق مع شيرلي في بنود نظام نقابة الأطبّاء، كما استشارا الدكتور كروفورد وقدّما شكوى رسميّة. لم تظهر بارميندر في العيادة منذ ذلك الحين. لا شكّ في أنّها ندمت على ذلك الحادث الذي أثارته. لكن رغم كلّ ذلك، لم يكن مشهد وجهها وهي تنهره وتزعق به يفارق ذهنه. صدمه أن يرى هذا القدر من الحقد على وجه شخص آخر.

«سوف تتبدّد المسألة ولن تترك أثرًا»، قالت شيرلي مطَمْئنة إيّاه.

«لست واثقًا بذلك»، أجاب هاورد. «لست واثقًا إطلاقًا. كلّ هذا يسيء إلى صورتنا. صورة المجلس. مشاحنات أمام أعين الصحافة. نبدو منقسمين على أنفسنا. يقول أوبري إنّهم ليسوا مسرورين على مستوى مجلس إدارة المنطقة. هذه المسألة برمّتها أضرّت بموقفنا حيال الحقول. هذه المشاجرات العلنيّة، تلطيخ كلّ شيء... المجلس لم يعد يبدو وكأنّه المتحدّث باسم البلدة.»

«لكنّنا نتحدّث فعلًا باسمها»، قالت شيرلي مطلقة ضحكة صغيرة. «ليس هناك في باغفورد من يرغب بالحقول... لا أحد تقريبًا.»

«المقال يصوّر الوضع وكأنّ فريقنا هو الذي هاجم مؤيّدي الحقول وحاول ترهيبهم»، قال هاورد، مستسلمًا بشراسة للرغبة في حكّ بطنه. «حسنًا، أوبري يعرف أنّ لا دخل لأيّ منّا في المسألة، لكنّ الصحافيّة لم تسرد الأمر على هذا النحو. وأؤكّد لكِ أنّه إن تمكّنت يارفيل من تصويرنا على أنّنا عديمو الجدوى أو أنذال... إنّهم يترصّدون منذ سنوات فرصة لوضع يدهم علينا.»

«هذا لن يحصل»، ردّت شيرلي على الفور. «لا يمكن أن يحصل.»

«ظننت المسألة محسومة»، تابع هاورد، متجاهلًا مداخلة زوجته، وباله مشغول بقضيّة الحقول. «ظننت أنّنا حققنا غايتنا، أنّنا تخلّصنا منهم.»

خصّص هاورد الكثير من الوقت والجهد لكتابة مقالته، شارحًا فيها كيف أنّ حيّ الحقول وعيادة بيلتشابيل يشكّلان عالة على باغفورد ووصمة عار لها، غير أنّها مرّت مرور الكرام إزاء جسامة الفضيحة الناتجة عن فورة

غضب بارميندر في المجلس ورسائل شبح باري فيربراذر. لم يعد هاورد يذكر على الإطلاق كم تلذّذ بالاتّهامات الموجّهة ضدّ سايمون براس، ونسي تمامًا أنّه لم يخطر له حينها محو التعليق عن الموقع، إلى أن طلبت زوجة برايس ذلك.

«تلقّيت رسالة إلكترونيّة من مجلس يارفيل البلديّ تتضمّن مجموعة من الأسئلة بشأن الموقع الإلكتروني»، أخبر مورين. «يريدون الاستعلام عن الخطوات التي اتّخذناها لمنع التشهير. يعتقدون أنّ التدابير المتّخذة لضمان أمن الموقع متراخية.»

لمست شيرلي في المسألة انتقادًا شخصيًا لها، فردّت ببرودة: «قلت لك هاورد إنّني عالجت الأمر.»

الواقع أنّ شيرلي استقدمت في اليوم السابق فتى هو قريب زوجين من أصدقائهما هي وهاورد، فيما كان زوجها في المحلّ. وكانت توصية ذلك الطالب في المعلوماتيّة لها أن تغلق الموقع الإلكتروني الهشّ المشرّع على جميع أساليب القرصنة، وأن تستدعي «شخصًا يعرف ماذا يفعل» كما قال، ليصمّم لهم موقعًا جديدًا.

بالكاد فهمت شيرلي بضع كلمات من العبارات التقنيّة التي أمطرها بها الشابّ. كلّ ما كانت تعرفه هو أنّ «القرصنة» تعني اختراق الموقع بشكل غير قانونيّ. وحين توقّف الطالب الشابّ عن ثرثرته غير المفهومة، بقيت شيرلي على انطباع غامض بأنّ الشبح تمكّن بطريقة ما من العثور على كلمات السرّ الخاصّة بالمستخدمين، ربّما من خلال استجوابهم بدهاء في سياق أحاديث بريئة.

ارتأت بالتالي أن توجّه رسائل إلكترونيّة إلى الجميع تطلب منهم أن يبدّلوا كلمات السرّ الخاصّة بهم وألّا يبوحوا بها لأحد. هذا ما كانت تعنيه حين أكّدت لهاورد أنّها «عالجت الأمر».

أمّا بالنسبة إلى إغلاق الموقع الذي كانت مديرته وحارسته، فلم تتّخذ أيّ خطوة بهذا الصدد، ولم تأتِ حتّى على ذكر هذه الفكرة لهاورد. كانت شيرلي تخشى أن يكون موقع محصّن بجميع التدابير الأمنيّة التي اقترحها ذلك الفتى المغرور، يتخطّى بكثير مهاراتها الإداريّة والفنيّة المحدودة.

فالموقع الحاليّ، على علّاته، يستنفد كامل قدراتها، وكانت مصمّمة، مهما كلّف الأمر، على عدم التخلّي عن إدارته.

«إذا ما انتُخب مايلز...»، باشرت شيرلي قبل أن تقاطعها مورين بصوتها المبحوح، «لنأمل ألّا تكون هذه المسألة القذرة أضرّت به. لنأمل ألّا ينعكس الموقف ضدّه.»

«لكنّ الجميع سيعلم أنّ مايلز لا دخل له في كلّ ذلك»، قالت شيرلي بجفاف.

«هل سيفعلون؟ هذا ليس مؤكّدًا»، أجابت مورين. أحسّت شيرلي بكره شديد لها. كيف تجرؤ على الجلوس في صدر صالون شيرلي ومناقضتها الرأي؟ والأسوأ من ذلك أنّ هاورد كان يهزّ رأسه موافقًا إيّاها الرأي.

«هذا ما أخشاه أنا أيضًا»، قال. «ونحن بحاجة اليوم إلى مايلز أكثر من أيّ وقت مضى، ليعيد بعض التماسك إلى المجلس. بعد كلّ ما قالته براز الزيز، بعد كلّ الجلبة والضوضاء، لم نصوّت حتّى على مسألة بيلتشابيل. إنّنا بحاجة إلى مايلز.»

لم تنتظر شيرلي أن ينهي هاورد كلامه، بل خرجت من الغرفة، في احتجاج صامت على وقوف هاورد إلى جانب مورين. شغلت نفسها في المطبخ بإعداد فناجين شاي، وهي تغلي غضبًا بصمت. خطر لها أن تجلب فنجانَي شاي فقط، لتعبّر لمورين عن كلّ الاستياء الذي تستحقّه.

رغم كلّ ما حصل، فإنّ شيرلي لا تكنّ سوى الإعجاب للشبح، متحدّية بذلك الجميع. فاتّهاماته كشفت حقيقة شخصين تكرههما وتحتقرهما، شخصان لم يجلبا سوى الضرر والأذيّة. لم يكن يساورها أدنى شكّ بأنّ ناخبي باغفورد سيشاطرونها رأيها وسيصوّتون لمايلز بدل كولين وول المقزّز ذاك.

«متى سنذهب للإدلاء بصوتَينا؟» سألت شيرلي هاورد عند عودتها إلى الصالون حاملة صينيّة الشاي، والفناجين تطقطق عليها. تعمّدت تجاهل مورين. فالاسم الذي سيضعانه في صندوق الاقتراع هو اسم ابنهما.

لكنّها اشتدّت غيظًا حين اقترح هاورد أن يذهب الثلاثة معًا بعد موعد إغلاق المحلّ.

لم يكن مايلز موليسون أقلّ قلقًا من والده. كان يخشى مثله أن تنال أجواء البلبلة والاستياء غير المسبوقة المسيطرة على البلدة، من حظوظه الانتخابيّة. في صباح اليوم نفسه، سمع، عند دخوله إلى محلّ الصحف، حديثًا بين المرأة الجالسة خلف الصندوق وأحد الزبائن المسنّين.

«... لطالما ظنّ موليسون نفسه ملكًا على باغفورد»، قال الرجل المسنّ، غير آبه لعدم تجاوب المرأة التي تسمّرت ملامحها بدون أن تعكس أيّ تعبير. «كنت أحبّ باري فيربراذر. تلك كانت مأساة. مأساة حقيقيّة. موليسون الابن هو الذي كتب لنا وصيّاتنا، وجدته شديد الاعتداد بنفسه.»

عند سماع هذا الكلام، اهتزّت ثقة مايلز بنفسه وانسلّ خارج المحلّ، ووجهه أحمر مثل تلميذٍ في المدرسة. هل يعقل أن يكون ذلك الرجل المسنّ هو المجهول الذي بعث الرسالة لوالده؟ كان مايلز واثقًا بأنّه شخص ودود محبوب، وهذا ما كان يبعث فيه إحساسًا بالرضى. غير أنّ كلام الرجل هزّ قناعته، وحاول أن يتصوّر ما يمكن أن يشعر به إن لم يصوّت له أحد في اليوم التالي.

في تلك الليلة، راح يتأمّل انعكاس صورة زوجته الصامتة في مرآة طاولة التزيين، وهو يخلع ملابسه. مضت أيّام وسامانثا لا تظهر له سوى السخرية كلّما أتى على ذكر الانتخابات. كان بحاجة في ذلك المساء إلى بعض الدعم والمواساة. ثمّ إنّه كان مُثارًا. مضى وقت طويل منذ آخر مرّة تضاجعا فيها. حاول أن يتذكّر، فتهيّأ له أنّ ذلك كان في الليلة التي سبقت وفاة باري فيربراذر. كانت سامانثا سكرانة قليلًا. بات الأمر في هذه الأيّام يتطلّب منها غالبًا بضع كؤوس.

«كيف كان يومكِ في المحلّ؟» سألها، وهو لا يزال ينظر إليها في المرآة بينما تفكّ حمّالة صدرها.

أخذت تدلّك الأخدودين الأحمرين اللذين تركتهما الصدريّة الضيّقة تحت ذراعيها، ثمّ قالت بدون أن تنظر إلى مايلز: «الواقع أنّني كنت أنوي التحدّث إليك في هذا الموضوع.»

كانت تكره الإقرار بالأمر، وحاولت على مدى أسابيع تفادي الموضوع، لكنّها مضطرّة إلى ذلك.

«يعتقد روي أنّه من الأفضل أن أغلق المحلّ. الأعمال لا تسير بشكل جيّد.»

بالتأكيد إنّه سوف يُصدَم إذا ما كشفت له إلى أيّ حدّ وصلت الأعمال في تدهورها. هي نفسها صُدمت حين عرض عليها محاسبها الأرقام بشكل فجّ. كانت على علم بالوضع، من غير أن تقرّ به لنفسها. غريب، كيف إنّ العقل يعرف ما يرفض القلب تقبّله.

«آه»، قال مايلز. «لكنّك ستحتفظين بالموقع الإلكتروني؟»

«أجل، سوف نحتفظ بالموقع الإلكتروني.»

«حسنًا، هذا جيّد»، علّق مايلز بنبرة مشجّعة. تريّث دقيقة تقريبًا، احترامًا منه لوفاة محلّها، ثمّ قال: «أتصوّر أنّك لم تقرأي جريدة يارفيل اليوم؟»

مدّت ذراعها لتناول قميص النوم المطويّ فوق وسادتها، فرمَق نهديها بسرور. مضاجعتها سوف تريحه بالتأكيد.

«إنّه أمر مؤسف فعلًا سام»، قال وهو يندسّ في السرير من خلفها وينتظر أن تنتهي من ارتداء قميص النوم، متلوّية في كلّ الاتجاهات، حتّى يعانقها. «أعني المحلّ. كان محلًّا صغيرًا رائعًا. لديك هذا المحلّ منذ كم من الوقت؟ عشر سنوات؟»

«أربع عشرة سنة»، قالت سامانثا.

كانت تعرف ما يريده. خطر لها أن تقول له أن يذهب إلى الجحيم، ثمّ تتركه وتنتقل إلى غرفة الضيوف. لكنّ ذلك سيثير شجارًا وستكون الأجواء مشحونة، في حين أنّ كلّ ما تريده هو أن تتمكّن من الذهاب إلى لندن مع ليبي بعد يومين وهما ترتديان القميصين اللذين اشترتهما، وأن تقف على مقربة من جايك ورفاقه في الفرقة طوال الأمسية. تلك الرحلة كانت تختزل، في الوقت الحاضر كلّ السعادة بالنسبة إلى سامانثا. كما أنّها إن استسلمت لرغبته، فقد يدعها وشأنها ويتوقّف عن التذمّر باستمرار لتغيّبها عن حفلة عيد ميلاد هاورد.

تركته إذًا يضمّها ثمّ يقبّلها. أغمضت عينيها، اعتلته وتصوّرت نفسها تمتطي جايك على شاطئ أبيض مقفر، هي في التاسعة عشرة وهو في الحادية

والعشرين. بلغت الذروة وهي تتخيّل مايلز يراقبهما بحنق من خلال منظار من قارب بدوّاستين في البعيد.

10

في صباح يوم الانتخابات التي ستُجرى لملء مقعد باري الشاغر، غادرت بارميندر منزل أولد فايكريج في تمام التاسعة، وعبرت شارع تشيرتش روو متوجّهة إلى منزل كولين وتيسا وول. دقّت الباب وانتظرت بعض الوقت، إلى أن فتح كولين الباب أخيرًا.

كانت ظلال داكنة تحيط بعينيه الحمراوين وخدّيه الغائرين. بدا وكأنّ جلده رقّ وثيابه باتت فضفاضة عليه. لم يعاود العمل في المدرسة بعد. فهو كان بدأ يتعافى ولا يزال في حالة غير مستقرّة، حين ورد أنّ بارميندر أصيبت بنوبة غضب وكشفت في العلن وسط صراخ وزعيق معلومات تتعلق بهاورد وتقع ضمن إطار السريّة الطبيّة، الأمر الذي جعله ينتكس مجدّدًا. بدا وكأنّ كولين القويّ الذي جلس قبل ليالٍ قليلة على الوسادة الجلديّة، مدّعيًا خوض الانتخابات واثقًا بالنصر، وكأنّ كولين ذاك لم يوجد يومًا.

«هل كلّ شيء على ما يرام؟» سأل بقلق وهو يغلق الباب خلفها.

«أجل، بخير»، قالت. «فكّرت أنّك قد تودّ مرافقتي إلى قاعة الكنيسة للإدلاء بصوتينا.»

«أنا... لا»، قال بوهن. «آسف.»

«أعرف ما تشعر به كولين»، قالت بارميندر بصوت منخفض متوتّر. «لكن إن لم تصوّت، فهذا يعني أنّهم انتصروا. لن أدعهم ينتصرون. سوف أذهب إلى هناك وأصوّت لك، وأريدك أن تأتي معي.»

كانت بارميندر مفصولة موقّتًا من عملها بعدما اشتكى آل موليسون عليها لكلّ هيئة مهنيّة تمكّنوا من العثور على عنوانها، فنصح الدكتور كروفورد بارميندر بأخذ إجازة. الواقع أنّ ذلك بعث فيها إحساسًا غريبًا بالتحرّر، ما فاجأها كثيرًا.

لكنّ كولين هزّ رأسه، وتهيّأ لها أنّها رأت دموعًا تلتمع في عينيه.

«لا يمكنني ميندا.»

«بل يمكنك!» أصرّت. «يمكنك كولين! لا بدّ لك من مواجهتهم! فكّر في باري!»

«لا يمكنني... آسف... أنا...»

أصدر حشرجة وكأنّه يختنق، وانفجر باكيًا. سبق أن بكى كولين في عيادتها، ذرف دموعًا يائسة، رازحًا تحت عبء الخوف الذي كان يثقل كاهله في كلّ يوم من حياته.

«هيّا تعال»، قالت من غير أن ترتبك. أمسكت بذراعه وقادته إلى المطبخ، حيث ناولته لفافة محارم الورق وتركته يسترسل في البكاء والنشيج قدرما يشاء. «أين تيسا؟»

«في العمل»، أجاب متنهّدًا، ماسحًا عينيه.

كانت بطاقة دعوة إلى عيد ميلاد هاورد موليسون الخامس والستّين مرميّة على طاولة المطبخ، ممزّقة بشكل منهجيّ إلى نصفين.

«تلقّيت واحدة أنا أيضًا» قالت بارميندر. «قبل أن أصرخ به. اسمع، كولين، التصويت...»

«لا يمكنني»، همهم كولين.

«... يثبت لهم أنهم لم يهزمونا.»

«لكنّهم فعلوا»، أجاب كولين.

انفجرت بارميندر بالضحك. تأمّلها كولين مشدوهًا لوهلة، ثمّ بدأ يضحك بدوره، مطلقًا قهقهات مدوّية أقرب إلى عواء كلب هائل.

«حسنًا، جعلونا نفقد وظيفتَينا»، قالت بارميندر، «ولم يعد أيّ منّا يرغب في الخروج من منزله، لكن عدا ذلك، أعتقد أنّنا في موقع ممتاز فعلًا.»

نزع كولين نظّارتيه ومسح عينيه المبلّلتين مبتسمًا.

«هيّا كولين، أريد أن أصوّت لك. الأمر لم يحسم بعد. بعدما جنّ جنوني وقلت لهاورد موليسون إنّه ليس أفضل من المدمنين أمام المجلس بكامله والصحافة المحليّة...»

انفجر بالضحك من جديد وفرحت بذلك. لم تسمعه يضحك هكذا من قلبه منذ رأس السنة، وكان باري هو الذي أثار ضحكه في تلك الليلة.

«... نسوا أن يصوّتوا على إخراج عيادة معالجة الإدمان من مبناها. لذا، أرجوك أن تحضر معطفك. سوف نذهب إلى هناك معًا.»

توقّف تدريجيًا عن النشق والضحك. نظر إلى يديه الكبيرتين اللتين كان يلوّيهما ويفركهما بعصبيّة وكأنّه يغسلهما.

«كولين، لم ينتهِ الأمر. أنت أحدثت فرقًا. الناس لا يحبّون آل موليسون. إن ذهبت إلى هناك، سوف نكون في موقع أقوى بكثير لخوض المعركة. أرجوك، كولين.»

«حسنًا»، قال بعد لحظات، مذهولًا بجرأته.

قطعا المسافة القصيرة مشيًا في الهواء المنعش النقيّ، كلّ منهما ممسكٌ ببطاقته الانتخابيّة. وجدا قاعة الكنيسة فارغة عند وصولهما. وضع كلّ منهما علامة بخطّ عريض في المربّع إلى جانب اسم كولين وغادرا، ينتابهما إحساس بأنّهما نجَوا بجلدهما.

لم يدلِ مايلز موليسون بصوته حتّى الظهر. توقّف عند باب مكتب شريكه وهو خارج.

«إنّني ذاهب للتصويت غاف»، قال له.

أشار غافين إلى الهاتف الذي كان يلصقه بأذنه. كان على اتّصال مع شركة التأمين من أجل ماري.

«آه... حسنًا... أنا ذاهب للتصويت شونا»، قال مايلز ملتفتًا إلى السكرتيرة.

لا ضير في تذكيرهما بأنّه بحاجة إلى دعم منهما. هبط مايلز الأدراج مسرعًا وتوجّه إلى الإبريق النحاسيّ حيث اتّفق مع زوجته، خلال حديث مقتضب دار بينهما بعد مجامعتهما الليلة السابقة، على الالتقاء للذهاب معًا إلى قاعة الكنيسة.

قضت سامانثا الصبيحة في المنزل، تاركة لمساعدتها مسؤوليّة المحلّ. كانت تدرك أنّه لم يعد بوسعها أن ترجئ مفاتحة كارلي بالحقيقة وأنّ عليها

أن تعلن لها أنّ المحلّ سيغلق وأنّها ستجد نفسها بدون وظيفة. لكنّه لم يكن بوسعها أن تخبرها بالأمر قبل عطلة نهاية الأسبوع وقبل الحفل الموسيقيّ في لندن. حين وصل مايلز ورأت الابتسامة المنفعلة الطفيفة على وجهه، عاد إليها سخطها عليه.

«ألن يأتي أبي؟» بادرها.

«سيذهبون إلى صالون الكنيسة بعد إغلاق المحلّ»، ردّت سامانثا.

كانت هناك سيّدتان مسنّتان تقترعان عند وصولهما إلى هناك. انتظرت سامانثا دورها وهي تتأمّل من الخلف شعرهما المجعّد الرماديّ، معطفَيهما الغليظَين، وكواحلهما الأكثر غلاظة. هكذا ستكون في أحد الأيّام. انتبهت الأكثر انحناء بين الاثنتين لوجود مايلز وهما تغادران، فسطع وجهها وأسرّت له «صوّتت لك للتوّ!»

«أشكرك جزيل الشكر!» قال مايلز مسرورًا.

توارت سامانثا خلف الستارة العازلة وحدّقت إلى اسمَي مايلز موليسون وكولين وول، وفي القلم المربوط بخيط في يدها. ثمّ خربشت «أكره باغفورد المنحوسة» على الورقة، طوتها، عبرت القاعة إلى صندوق الاقتراع ودسّتها في فتحته بدون أن تبتسم.

«شكرًا حبيبتي»، قال مايلز بصوت منخفض وهو يربّت ظهرها.

تيسا وول التي لم تفوّت أيّ انتخابات من قبل بدون أن تدلي بصوتها، عبرت في سيّارتها أمام قاعة الكنيسة بدون أن تتوقّف وهي عائدة من المدرسة. روث وسايمون برايس قضيا النهار يناقشان بجديّة أكثر من أيّ وقت مضى، احتمالَ الانتقال إلى ريدينغ. روث رمت بطاقتيهما الانتخابيّتين فيما كانت توضّب طاولة المطبخ للعشاء.

غافين لم يكن يعتزم التصويت أساسًا. لكان ربّما أدلى بصوته لو كان باري على قيد الحياة ومرشّحًا للانتخابات، لكنّه لم يكن يرغب في مساعدة مايلز على تحقيق هدف آخر من أهداف حياته. في الساعة الخامسة والنصف، أغلق محفظته، ممتعضًا ومحبطًا، بعدما نفدت منه الأعذار لتفادي تناول العشاء في منزل كاي. ما كان يكدّره بصورة خاصّة هو أنّه كان يتوق إلى

زيارة ماري وزفّ خبر سعيد إليها، فقد لمس مؤشّرات تبعث أملًا بأنّ شركة التأمين باتت تميل إلى مصلحتها. لكنّ العشاء لدى كاي يعني أنّه سيضطرّ إلى الاحتفاظ بالنبأ السارّ إلى اليوم التالي، لأنّه لم يكن يريد إهدار الفرصة وإخبار ماري به على الهاتف.

ما أن فتحت له كاي الباب، حتّى انطلقت في خطاب مسهب سريع، ينبئ عادة بأنّ مزاجها عكر.

«آسفة، كان يومًا فظيعًا»، شرحت مع أنّه لم يتشكّ من شيء، بل بالكاد تبادلا السلام. «عدت متأخّرة. كنت أنوي إعداد العشاء مسبقًا. تعال، ادخل.»

كان دويّ طبول شرس يتدفّق بشكل متواصل من الطبقة العلويّة، على وقع غيتار باص يصمّ الآذان. كان غافين يستغرب كيف إنّ الجيران لا يتشكّون. لاحظت كاي أنّه ينظر إلى السقف وقالت: «آه، غايا مستاءة للغاية، لأنّ فتى ما، فتى كان يعجبها في هاكني، بدأ يتواعد مع فتاة أخرى.»

تناولت كأس النبيذ الذي صبّته لنفسها ورشفت منه جرعة سخيّة. شعرت بوخز ضمير حين أشارت إلى ماركو دي لوكا بمجرّد «فتى ما». فهو انتقل عمليًا للعيش معهما في المنزل خلال الأسابيع التي سبقت انتقالهما من لندن. وجدته كاي فاتنًا، لطيفًا وخدومًا. لكانت أحبّت أن يكون لها ابن مثل ماركو.

«لن يقتلها ذلك»، قالت كاي، نافضةً عنها الذكريات للعودة إلى البطاطا التي كانت تغلي على النار. «إنّها في السادسة عشرة. في هذا العمر، ينهضون بعد الخيبات. صبّ لنفسك كأس نبيذ.»

جلس غافين إلى الطاولة. تمنّى لو ترغم كاي غايا على خفض صوت الموسيقى. كانت مضطرّة إلى الصراخ تقريبًا حتّى يطغى صوتها على ارتجاجات الغيتار الباص، قرقعة القدور وأغطيتها، وهدير مروحة التهوية. تملّكه التوق إلى الهدوء الكئيب المخيّم في مطبخ ماري، إلى امتنانها له وحاجتها إليه.

«ماذا؟» سأل رافعًا صوته، وقد لاحظ من تعبير كاي أنّها طرحت عليه سؤالًا.

«سألتك هل أدليتَ بصوتك؟»

«صوتي؟»

«في انتخابات المجلس!»

«لا» أجاب. «لا يهمّني الموضوع إطلاقًا.»

لم يكن واثقًا بأنّها سمعت ردّه. واصلت الكلام، ولم يميّز ما تقوله إلّا عندما استدارت صوب الطاولة، وبيدها سكّينان وشوكتان.

«... مثير للاشمئزاز في الواقع، أن يتواطأ المجلس مع أوبري فاولي. أتوقّع أن ينتهي أمر بيلتشابيل إن فاز مايلز في...»

أفرغت المياه عن البطاطا، فضاعت كلماتها من جديد بين طرطشة الماء وطرطقة الطنجرة.

«... لو لم تفقد تلك المرأة البلهاء صوابها، ربّما كنّا الآن نحظى بفرصة أفضل. أعطيتها كمًّا هائلًا من المعلومات والوثائق حول العيادة، لكنّني لا أعتقد أنّها استخدمت أيًّا منها. كلّ ما قامت به هو الصراخ بوجه هاورد موليسون بأنّه سمين جدًّا. سلوك مهنيّ بامتياز!»

وردت غافين أصداء عن فورة غضب الدكتورة جاواندا في العلن. الواقع أنّه وجد الأمر طريفًا إلى حدّ ما.

«... كلّ هذه الشكوك حول المستقبل تضرّ كثيرًا بالذين يعملون في العيادة، فضلًا عن الضرر الذي تلحقه بالمدمنين أنفسهم.»

رغم ذلك، لم يكن بوسع غافين أن يشعر بأي شفقة أو سخط. كلّ ما كان يشعر به هو الرعب، إذ يتنبّه يومًا بعد يوم إلى أيّ حدّ باتت كاي ضالعة في تعقيدات هذه القضيّة المحليّة الغامضة، وممسكة بخيوط شخصيّاتها المتداخلة. كان ذلك دليلًا آخر على أنّها تتجذّر بشكل متزايد في باغفورد، وأنّه لن يكون من السهل بعد الآن اقتلاعها من البلدة.

التفت وسرح بنظره من النافذة، متأمّلًا الحديقة التي نمت فيها الأعشاب بشكل خارج عن السيطرة. عرض أن يساعد فيرغوس على الاهتمام بحديقة ماري في عطلة نهاية الأسبوع. فكّر أنّه، إن حالفَه الحظّ، فسوف تستبقيه ماري مجدّدًا للعشاء، وإن فعلت، فسوف يتغيّب عن حفل عيد ميلاد هاورد موليسون الخامس والستّين الذي كان مايلز يعتقد على ما يبدو أنّ شريكه يتطلّع إليه بفارغ الصبر.

«... الاحتفاظ بملف عائلة ويدون، لكن لا، لا مجال للمحاباة، كما تقول جيليان. هل ترى أنت في ذلك محاباة؟»

«عذرًا، ماذا قلتِ؟» سأل غافين.

«ماتي عادت»، قالت كاي، فيما سعى جاهدًا ليتذكّر أنّها زميلة لها كانت كاي تتكفّل بملفّاتها في غيابها. «أردت أن أواصل العمل مع عائلة ويدون، أحيانًا تشعر بصلة خاصّة تربطك بعائلة بالتحديد، لكنّ جيليان لم توافق. هذا هراء.»

«لا بدّ أنّك الشخص الوحيد على وجه الأرض الذي أراد في يوم من الأيّام مواصلة التعامل مع عائلة ويدون»، قال غافين. «أقلّه على ما وردني.»

اضطرّت كاي إلى استجماع كلّ ما لديها من قوّة إرادة حتّى لا تنفجر في وجهه. أخرجت شرائح سمك السلمون التي كانت تخبزها في الفرن. كان صوت الموسيقى المنبعث من غرفة غايا عاليًا إلى حدّ أنّها تشعر بنبضه من خلال الصينيّة. رمتها بعنف على سطح الفرن.

«غايا!» زعقت، فجفل غافين وانتفض فيما عبرت أمامه بحنق. «غايا!» زعقت مجدّدًا من أسفل الأدراج، «اخفضي الموسيقى! هذا أمر! اخفضي الموسيقى حالًا!»

بالكاد انخفض الصوت قليلًا. عادت كاي إلى المطبخ، تستشيط غضبًا. وقع شجار بينها وبين غايا قبل وصول غافين مباشرة، كان من أعنف الشجارات في حياتهما. أعلنت لها غايا أنّها تعتزم الاتّصال بوالدها لتسأله إن كان بوسعها الانتقال للعيش معه.

«حسنًا، إن كان هذا ما تريدين، حظًا سعيدًا!» صرخت كاي.

لكن ماذا لو وافق بريندان؟ تركها حين كانت غايا طفلة عمرها شهر واحد. بريندان متزوّج الآن، ولديه ثلاثة أولاد آخرين. يملك منزلًا شاسعًا ولديه وظيفة جيّدة. ماذا لو قال نعم؟

كان غافين سعيدًا لأنّه لم يكن عليه أن يحادث كاي أثناء العشاء. فصخب الموسيقى يملأ الصمت، ما يسمح له بالتفرّغ للتفكير في ماري بسلام. سوف يخبرها في الغد أنّ شركة التأمين تظهر ليونة في موقفها، فتبدي له امتنانها وإعجابها...

أوشك على إنهاء طبقه حين تنبّه فجأة إلى أنّ كاي لم تتناول لقمة واحدة. كانت تحدّق إليه من طرف الطاولة المقابل، وعلى وجهها تعبير أثار قلقه. ربّما كشف عمّا يدور في باله من غير أن يدري...

توقّفت الموسيقى في غرفة غايا بشكل مفاجئ. خيّم صمت لا يزال يطنّ في الآذان، صمت أثار هلع غافين. تمنّى لو تعزف غايا أغنية ما أخرى على وجه السرعة.

«إنّك لا تحاول حتّى»، قالت كاي بائسة. «لا تتظاهر حتّى بأنّك تكترث، غافين.»

حاول الخروج من الورطة بحجج سهلة.

«كاي، قضيتُ يوما شاقًا وطويلًا. آسف إن لم أكن مواكبًا لتفاصيل الحياة السياسيّة المحليّة في اللحظة التي أدخل...»

«لست أتكلّم على السياسة المحليّة»، قاطعته. «تجلس هنا وكأنّك تتمنّى لو كنت في مكان آخر... هذا... هذا مهين. ما الذي تريده غافين؟»

استعاد مشهد مطبخ ماري، ووجهها العذب.

«عليّ أن أتوسّل إليك حتّى أراك»، تابعت كاي، «وحين تأتي، تفعل كلّ ما بوسعك لتظهر لي بشكل جليّ أنّ آخر ما ترغب فيه هو المجيء إلى هنا.»

كانت تريد منه أن يقول «هذا غير صحيح». فاتته آخر فرصة تتاح له لإنكار الأمر. وها هما ينزلقان بسرعة متزايدة نحو تلك الأزمة التي كان غافين يتمنّاها ويخشاها في آن.

«قل لي ما الذي تريده»، قالت كاي بسأم. «قل لي فقط ما تريد.»

شعر كلاهما بالعلاقة تنهار وتتفكّك تحت وطأة كلّ ما يرفض غافين قوله. مدفوعًا برغبة في وضع حدّ لبؤسهما، بحث عن الكلمات التي لم يكن لديه نيّة أساسًا في البوح بها، الكلمات التي ما كان ربّما ليقولها يومًا، لو لم يتهيّأ له أنّها تعطي كلّا منهما العذر المثاليّ.

«لم أشأ أن يحصل هذا»، قال غافين بنبرة جادّة، صادقة. «لم يكن هذا ما أريده. كاي، إنّني متأسّف حقّا، لكن أعتقد أنّني مغرم بماري فيربراذر.»

رأى من التعبير على وجهها أنّ هذا كان آخر ما تتوقّع سماعه.

«ماري فيربراذر؟» كرّرت.

«أعتقد»، قال وفي نفسه إحساس حلو ومرّ باللذّة للبوح بمشاعره تلك، حتّى لو أنّه يعرف أنّه يؤلمها، إذ كانت هذه أوّل مرّة يتسنّى له التعبير عمّا يخالجه إلى أحد، «أعتقد أن هذا الشعور كان كامنًا فيّ منذ وقت طويل، لكنّني لم أقرّ به لنفسي... أعني طالما كان باري على قيد الحياة، لما كنت...»

«كنت أعتقد أنّه أعزّ أصدقائك»، تمتمت كاي.

«هذا صحيح.»

«لم يمضِ على وفاته سوى أسابيع قليلة!»

لم يكن غافين يودّ سماع ذلك.

«اسمعي»، قال، «أحاول أن أكون صريحًا معك، أحاول أن أكون منصفًا.»

«منصفًا؟ تحاول أن تكون منصفًا؟»

لطالما تصوّر علاقتهما تنتهي وسط تفجّر غضب وعنف، لكنّها اكتفت بالنظر إليه وهو يرتدي معطفه، والدموع تملأ عينيها.

«إنّني متأسّف»، قال قبل أن يخرج من منزلها للمرّة الأخيرة.

غمرته موجة عارمة من البهجة حين وصل إلى الرصيف، فأسرع إلى سيّارته. سوف يتمكّن في نهاية المطاف من إخبار ماري في الليلة ذاتها بشأن شركة التأمين.

الجزء الخامس

الامتياز

7.32 يمكن لمن أدلى بكلام تشهيريّ أن يُعفى من مسؤوليته في القانون استنادًا إلى حقّه في الامتياز، إن كان بوسعه أن يثبت أنّه أدلى به بدون نيّة في الضرر وفي سياق سعيه لتحقيق مصلحة عامة.

تشارلز آرنولد-بيكر
إدارة المجالس المحليّة
الطبعة السابعة

1

كانت تيري ويدون معتادةً أن يرحل الجميع من حولها ويتخلّوا عنها. الرحيل الأوّل والأعظم كان رحيل والدتها التي خرجت ذات يوم من المنزل حاملة حقيبتها من دون أن تودّعها، فيما كانت تيري في المدرسة.

وبعد فرارها من المنزل في الرابعة عشرة، عرفت العديد من المساعِدات الاجتماعيّات ومن موظّفي الأجهزة الاجتماعيّة، بعضهم كان في غاية الرفق معها، لكنّهم جميعهم كانوا يرحلون بعد انتهاء دوامهم. وكلّ رحيل جديد كان يضيف طبقة رقيقة إلى القوقعة التي تطبق عليها تدريجيًا.

أقامت صداقات في مراكز الاستقبال، لكنّهم كانوا يبدأون حياتهم الخاصّة حين يبلغون السادسة عشرة، فتفرّقهم الحياة. التقت ريتشي آدامز، وأنجبت منه طفلين. كائنان صغيران زهريّا البشرة، يشعّان جمالًا ونقاءً أكثر من كلّ ما في هذا الكون. خرجا من أحشائها. ولمرّتين، لبضع ساعات ساطعة في المستشفى، أحسّت وكأنّها تولد من جديد.

ثمّ انتزعوا الطفلين منها، ولم ترَ أيًّا منهما منذ ذلك الحين.

الفِرقَيع تركها. نانا كاث تركتها. الجميع تقريبًا رحل، ولم يبق أحد تقريبًا. يجدر بها أن تكون اعتادت الأمر بعد كلّ هذا الوقت.

حين عادت وظهرت ماتي، المساعِدة الاجتماعيّة المسؤولة عنها في الأساس، سألتها تيري: «أين هي الأخرى؟»

«كاي؟ كانت تحلّ محلّي خلال فترة مرضي» شرحت ماتي. «إذًا، أين ليام؟ لا... أعني روبي، أليس كذلك؟»

لم تكن تيري تحبّ ماتي. فهي أوّلًا ليست أمًّا، وكيف يمكن لمن ليس لديه أولاد أن يوزّع النصائح بشأن تربيتهم؟ كيف يمكن أن يفهم؟ هذا لا يعني أنها أحبّت كاي... لكنّ كاي كانت تبعث فيها إحساسًا غريبًا، الإحساس ذاته الذي كانت تثيره فيها نانا كاث في الماضي، قبل أن تنعتها بالعاهرة وتقول لها إنّها لا تودّ رؤيتها مجدّدًا... تشعر بأنّ كاي، رغم أنّها تصل كجميع الأخريات محمّلة بالملفّات، ورغم أنّها تسبّبت بمراجعة وضع تيري، تشعر بأنّها تريد لها أن تتحسّن أحوالها بصدق، وليس شكليًّا فقط. هذا ما تشعر به تيري بوضوح. لكنّها رحلت هي أيضًا، وأراهن بأنّنا لا نخطر حتّى على بالها الآن، فكّرت تيري بحنق.

في ما بعد ظهيرة يوم الجمعة، أخبرت ماتي تيري بأنّ عيادة بيلتشابيل سوف تغلق بشكل شبه مؤكّد.

«المسألة سياسيّة»، قالت بشكل فجّ. «يريدون ادّخار المال، لكنّ العلاج بالميثادون لا يحظى بتأييد مجلس يارفيل البلديّ. كما أنّ باغفورد تريد أن تخلي العيادة المبنى. كلّ هذه الأخبار نقلتها الصحيفة المحليّة، ربّما قرأتها؟»

كانت تكلّم تيري أحيانًا بهذه الطريقة، فتنحرف عن غرض زيارتها وتنطلق في ثرثرة عاديّة، وكأنّهما مجرّد رفيقتين واقعتين في المأزق نفسه، وهو ما يبدو زائفًا، لا سيّما وأنّه يتداخل مع التحقيقات الاعتياديّة للتثبّت من أنّ تيري تتذكّر مثلًا أن تطعم ابنها. لكنّ مضمون كلامها وليس شكله هو الذي أقلق تيري هذه المرّة.

«سوف يغلقونها؟» ردّدت.

«يبدو أن هذا ما سيحصل»، أجابت ماتي بقلّة اكتراث كاملة. «لكنّ المسألة لن تُحدث أيّ فرق بالنسبة إليك. حسنًا، من الواضح أنّ...»

باشرت تيري ثلاث مرّات العلاج في بيلتشابيل. تلك الكنيسة السابقة المُغبّرة، بالحواجز التي تفصل مختلف قاعاتها، والملصقات والإعلانات المعلّقة على جدرانها، وحمّاماتها المضاءة بمصابيح النيون الزرقاء (حتّى لا

يتمكّن أيّ من المدمنين من العثور على عرق ليحقن نفسه هناك)، باتت أليفة، بل تكاد تكون مطَمْئنة وودودة. بدأت في الآونة الأخيرة تلمس لدى العاملين هناك تغييرًا في نبرتهم حين يخاطبونها. ففي البداية، كان جميعهم يتوقّعون أن تفشل في مواصلة علاجها كما في كلّ مرّة، ولكن، لاحقًا، أخذوا يكلّمونها مثلما كلّمتها كاي، وكأنّهم يرون شخصًا حقيقيًا داخل جسدها المجدّر المكسوّ بآثار الإبر والحروق.

«... من الواضح أنّ الأمر سيكون مختلفًا بالنسبة إليك، لكن سيظلّ بوسعك الحصول على الميثادون من طبيبك العامّ عوضًا عن العيادة»، قالت ماتي. قلّبت صفحات في الملفّ الضخم الذي يحوي التوثيق الرسميّ لحياة تيري. «إنّك مسجّلة لدى الدكتورة جاواندا في باغفورد، أليس كذلك؟ باغفورد... لماذا تذهبين إلى مكان بعيد كهذا؟»

«ضربتُ ممرّضة في كانترميل»، قالت تيري شاردةً في أفكارها.

بعدما غادرت ماتي، بقيت تيري لوقت طويل جالسة في أريكتها القذرة في الصالون، تقضم أظافرها حتّى اللحم، حتّى الدم.

ما أن وصلت كريستال إلى المنزل بعدما أحضرت روبي من الحضانة، حتّى أخبرتها تيري أنّ بيلتشابيل ستغلق.

«لم يتّخذوا قرارًا بعد»، أجابت كريستال بثقة.

«وما أدراكِ أنت؟ اللعنة، سوف يغلقونها، والآن يقولون أنّ عليّ أن أذهب إلى باغفورد المنحوسة، إلى تلك الباغية التي قتلت نانا كاث. ليفعلوا ما يشاؤوا، لست ذاهبة إلى هناك.»

«عليكِ أن تفعلي»، قالت كريستال.

كانت كريستال تتصرّف على هذا النحو منذ أيّام، تُملي على أمّها ما عليها أن تفعل وكأنّها هي البالغة في المنزل.

«ليس عليّ أن أفعل أيّ شيء، تبًا!»، قالت تيري غاضبة، قبل أن تضيف «عاهرة وضيعة وقحة!»

«إن عاودْتِ تعاطي المخدّرات اللعينة، سوف ينتزعون روبي منّا»، صاحت بها كريستال، ووجهها محتقن.

كان روبي لا يزال يمسك بيد كريستال، فانفجر بالبكاء.

«أرأيت؟» صاحت كلّ منهما بوجه الأخرى.

«أنت السبب، أنت تفعلين به هذا!» صرخت كريستال. «وفي مطلق الأحوال، هذه الطبيبة لم تفعل شيئًا لنانا كاث، كلّ هذا الهراء من تلفيق شيريل والآخرين!»

«صرت الآن مغرورة لعينة تعرف كلّ شيء؟» زعقت تيري، «أنتِ لا تعرفين شيئًا! اللعنة!»

بصقت كريستال عليها.

«اخرجي! اغربي من هنا!» صرخت تيري. غير أنّ كريستال كانت أكبر وأضخم منها، فتناولت تيري حذاءً مرميًا على الأرض وأخذت تلوِّح به. «ارحلي من هنا!»

«هذا ما سأفعله!» صرخت كريستال. «وسآخذ روبي معي. انتهى الأمر! يمكنك البقاء هنا، لديك أوبو، سوف ينكحك، هكذا تنجبين ولدًا آخر.»

جرّت روبي الذي كان يبكي وينوح، وخرجت من المنزل قبل أن تتمكّن تيري من اعتراضها.

توجّهت كريستال بروبي إلى ملاذها الاعتياديّ، وقد نسيت أنّه في مثل هذا الوقت من بعد الظهر، لا تكون نيكي في منزلها، بل لا تزال تتسكّع مع الرفاق. فتحت والدة نيكي الباب، وهي ترتدي بدلة متاجر آسدا.

«لا يمكن أن يبقى هنا»، قالت لكريستال بحزم، فيما روبي يئنّ محاولًا الإفلات من قبضة كريستال. «أين والدتك؟»

«في المنزل»، أجابت كريستال وقد تبخّر كلّ ما كانت تودّ قوله تحت نظرة المرأة الصارمة.

عادت إذًا مع روبي مجدّدًا إلى شارع فولي، حيث فتحت لها تيري، مهلّلةً بالنصر. أمسكت بشراسة بذراع ابنها، شدّته إلى الداخل ووقفت في وجه كريستال لمنعها من الدخول.

«هكذا إذًا! سئمتِ منه سريعًا!» قالت تيري مستهزئة بصوت طغى على أنين روبي. «ارحلي!»

وصفقت الباب.

جعلت تيري ابنها في تلك الليلة ينام إلى جانبها على فراشها. تمدّدت محملقة بدون أن يأتيها النوم. فكّرت أنها قلّما تحتاج إلى كريستال، لكنّها كانت تتضوّر شوقًا إليها، بقدر توقها أحيانًا إلى الهيروويين.

مضت أيّام وكريستال غاضبة. ذلك الشيء الذي قالته عن أوبو...

(«قالت إنّني ماذا؟» سأل أوبو ضاحكًا، غير مصدّق ما يسمعه، حين التقيا في الشارع. وردّت تيري متمتمة أن كريستال ناقمة.)

... لا يمكن أن يكون فعل ذلك. هذا غير معقول.

أوبو من الأشخاص النادرين الذين بقوا إلى جانبها. تعرفه تيري منذ أن كانت في الخامسة عشرة. ذهبا إلى المدرسة معًا، تسكّعا معًا في يارفيل حين كانت لدى عائلة استقبال، احتسيا خمر التفّاح معًا تحت الأشجار، على حافّة الدرب الذي يعبر البقعة الصغيرة المتبقّية من الأراضي الزراعيّة، قرب حيّ الحقول. تقاسما لفافتهما الأولى من الحشيشة.

كريستال لم تحبّ أوبو يومًا. إنها تغار، قالت تيري لنفسها وهي تتأمّل روبي نائمًا، على ضوء مصباح الشارع المتسرّب من الستائر الرقيقة. إنّها تغار، هذا كلّ ما في الأمر. لقد فعل من أجلي أكثر من أيّ شخص آخر، قالت لنفسها بتحدٍّ، لأنّها حين كانت تحصي إشارات العطف التي حصدتها في حياتها، لم يكن يغيب عن ذهنها أن تقابلها بكلّ المرّات التي نُبِذت فيها. وفي حساباتها هذه، فإنّ كلّ الحنان الذي أحاطتها به نانا كاث سقط عندما تخلّت هذه الأخيرة عنها.

لكنّ أوبو خبّأها مرّة من ريتشي، والد طفليها الأوّلين، حين هربت من المنزل حافية القدمين، مضرّجة بالدم. كان يمدّها أحيانًا بحزم صغيرة من الهيروويين مجّانًا، وكانت ترى في ذلك إشارة عطف. وفي مطلق الأحوال، فإنّ المخابئ التي وفّرها لها كانت أكثر أمانًا من المنزل الصغير في شارع هوب الذي ظنّت لثلاثة أيام رائعة أنّه بيتها.

لم تعد كريستال إلى المنزل صباح السبت، لكنّ الأمر لم يكن مفاجئًا. لا بدّ أنّها عند نيكي، تيري واثقة بذلك. أصيبت تيري بنوبة غضب شديد، بعدما

أوشك الطعام أن ينفد من المنزل، ولم يعد لديها سجائر، وأخذ روبي يبكي مطالبًا بشقيقته، فاقتحمت كالمجنونة غرفة ابنتها وراحت تركل ملابسها المبعثرة في جميع الأرجاء، بحثًا عن نقود أو ربّما سيجارة غفلت عنها كريستال. سمعت جلجلةً مكبوتة حين رمت جانبًا كومة أغراض التجذيف القديمة، ولفتت نظرها علبة المجوهرات البلاستيكيّة الصغيرة المنقلبة على الأرض، وقد سقطت منها ميداليّة التجذيف التي فازت بها كريستال، وساعة تيسا وول.

لمّت تيري الساعة وتفحّصتها. لم تكن رأتها من قبل. تساءلت من أين جاءت بها كريستال. افتراضها الأوّل كان أنّها مسروقة. أو ربّما أعطتها إيّاها نانا كات، أو تركتها لها في وصيّتها؟ ذلك الاحتمال كان مقلقًا أكثر ممّا لو كانت الساعة مسلوبة. أن تكون العاهرة الصغيرة الخبيثة خبّأت الساعة، كتمت فرحتها بها ولم تأتِ مرّة على ذكرها...

دسّت تيري الساعة في جيب سروالها الرياضيّ وصرخت لروبي أن يأتي معها للتبضّع. قضى الطفل دهرًا لينتعل حذاءه، ففقدت تيري صوابها وصفعته. تمنّت لو كان بوسعها الذهاب للتبضّع وحيدة، لكنّ العاملات الاجتماعيّات لا يرضين بترك الأطفال وحيدين في المنزل، حتّى لو كان بالإمكان إنجاز الأمور بشكل أسرع بكثير بدونهم.

«أين كريستال؟» تشكّى روبي وهي تشدّه من يده لإخراجه من المنزل، «أريد كريستال!»

«لا أدري أين هي، تلك العاهرة الوضيعة»، ردّت تيري بعصبيّة وهي تجرّه على الطريق.

وجدت أوبو عند زاوية الشارع قرب السوبرماركت، مستغرقًا في حديث مع رجلين. أومأ إليها بيده ليحيّيها حين لمحها، فابتعد رفيقاه.

«كيف الحال، تير؟» سألها.

«بخير،» كذبت. «روبي، دعني!»

كان الطفل يتمسّك بساقها الهزيلة، غارزًا أصابعه فيها إلى حدٍّ مؤلم.

«اسمعي»، قال أوبو «هل يمكنك أن تحتفظي لي ببعض الأغراض مرّة أخرى لفترة قصيرة؟»

«أيّ نوع من الأغراض؟» سألت تيري وهي تفكّ بالقوّة قبضة روبي عن ساقها وتمسكه بيده.

«مجرّد كيسين أو ثلاثة من الأغراض»، قال أوبو. «سوف تسدين لي خدمة كبيرة، تير.»

«لكم من الوقت؟»

«بضعة أيّام. سوف أحضرها هذا المساء. موافقة؟»

فكّرت تيري في كريستال، وما يمكن أن تقوله لو علمت بالأمر.

«أجل، طبعًا، أحضر الأغراض.»

ثمّ تذكّرت أمرًا آخر، فأخرجت ساعة تيسا من جيبها. «عليّ أن أبيع هذه، ما رأيك؟»

«ساعة جيّدة»، قال وهو يزنها في يده. «أشتريها منك بعشرين جنيهًا. أدفعها لك هذا المساء.»

كانت تتوقّع ثمنًا أفضل للساعة، لكنّها لم تشأ أن تناقضه.

«حسنًا، موافقة.»

توجّهت إلى مدخل السوبرماركت ممسكة روبي بيده، لكنّها استدارت فجأة بعد خطوات قليلة.

«لكنّني مقلعة عن التعاطي هذه الأيّام»، قالت لأوبو. «إذًا لا تجلب شيئا...»

«ما زلت تتناولين تلك الوصفة؟» قال وهو يرمقها بنظرة ساخرة من خلف نظّارتيه الغليظتين. «بالمناسبة، بيلتشابيل انتهى أمرها. المسألة باتت في الصحيفة.»

«أجل»، ردّت بائسة، وهي تسحب روبي من يده متوجّهةً إلى مدخل السوبرماركت. «أعرف ذلك.»

لن أذهب إلى باغفورد، قالت لنفسها وهي تأخذ علبة بسكويت عن الرفّ. لن أذهب إلى هناك.

باتت تيري شبه محصّنة ضدّ الانتقادات والأحكام التي توجّه إليها باستمرار، اكتسبت مناعة ضدّ المارّة الذين ينظرون إليها شزرًا، والجيران

الذين يشتمونها، لكنّها لن تقطع المسافة كلّها إلى تلك القرية الصغيرة التي تخال نفسها مركز العالم، للتوسّل من أجل جرعة. لن تعود في الزمن مرّة كلّ أسبوع، إلى حين وعدتها نانا كاث بأن تبقيها بجانبها، لتعود بعد ذلك وتتخلّى عنها. سوف تضطرّ إلى العبور أمام تلك المدرسة الصغيرة الجميلة التي بعثت إليها رسائل فظيعة عن كريستال، تقول فيها إنّ ملابسها صغيرة جدًا عليها ووسخة جدًا، وإنّ سلوكها غير مقبول. تخشى أن تصادف أقرباء منسيّين، يظهرون عليها فجأة قادمين من شارع هوب حيث يتشاجرون حتمًا في الوقت الحاضر على منزل نانا كاث. تخشى ما يمكن أن تقوله شيريل إن علمت بأنّ تيري قبلت طوعًا بالتعاطي مع العاهرة الباكي التي قتلت نانا كاث. ستكون هذه وصمة عار جديدة على جبينها، تزيد من ازدراء عائلتها لها.

«لن يرغموني على الذهاب إلى باغفورد المنحوسة»، تمتمت تيري وهي تجرّ روبي نحو الصندوق.

2

«استعدّ!» أعلن هاورد موليسون ظهر السبت لمايلز. «والدتك على وشك نشر النتائج على الموقع الإلكترونيّ. تُفضّل الانتظار حتّى تخرج إلى العلن، أم أكشفها لك فورًا؟»

أدار مايلز ظهره تلقائيًا لسامانثا التي كانت جالسة قبالته من الجانب الآخر من الطاولة في وسط المطبخ. كانا يتناولان فنجان قهوة أخيرًا قبل أن تنطلق مع ليبي إلى محطّة القطارات للتوجّه إلى الحفل الموسيقيّ في لندن. ضغط السمّاعة بشدّة على أذنه وقال: «إنّني أستمع.»

«فزتَ في الانتخابات، وبفارق كبير. تفوّقت على وول بنسبة تقارب ضعف ما حصل عليه.»

ابتسم مايلز لباب المطبخ.

«حسنًا»، قال، جاهدًا لإبقاء صوته هادئًا قدر الإمكان. «شكرًا لإبلاغي.»

«انتظر لحظة» قال هاورد، «والدتك تودّ التكلّم إليك.»

«أبليت حسنًا حبيبي»، قالت شيرلي فرحة. «أخبار رائعة حقًا! كنت واثقة بأنّك ستفوز.»

«شكرًا أمّي»، أجاب مايلز.

عند سماع هاتين الكلمتين، فهمت سامانثا المسألة، لكنّها كانت مصمّمة على عدم إبداء أيّ استهزاء أو ازدراء لزوجها. فقد وضّبت قميص التي شيرت وعليها صورة فرقتها الموسيقيّة، ذهبت إلى الحلّاق لتصفيف شعرها واشترت حذاء جديدًا بكعب عالٍ. كانت متلهّفة للانطلاق.

«إذًا يمكننا أن نناديك حضرة السيّد موليسون، العضو في مجلس البلدة؟» قالت حين أغلق الخطّ.

«هذا صحيح»، أجاب باحتراز.

«مبروك»، قالت. «ستكون سهرة الليلة إذًا احتفالًا عارمًا. آسفة حقًا لتغيّبي عنها»، كذبت مترقّبة بإثارة مغامرتها الوشيكة. انحنى مايلز فوقها بتأثّر وضغط على يدها.

دخلت ليبي المطبخ وهي تبكي، حاملةً بيدها هاتفها الجوّال.

«ما بك؟» سألت سامانثا بدهشة.

«أرجوك أمّي، اتّصلي بوالدة هارييت.»

«لماذا؟»

«اتّصلي بها أرجوك.»

«لكن ما الأمر ليبي؟»

«هكذا، لأنّها تريد أن تكلّمك»، أجابت ليبي وهي تمسح عينيها وأنفها بظهر يدها. «وقع شجار كبير بيني وبين هارييت. هل تتصّلين بها أرجوك؟»

أخذت سامانثا الهاتف وتوجّهت إلى الصالون. بالكاد كانت تذكر تلك المرأة. منذ أن انتقلت الفتاتان إلى المدرسة الداخليّة، لم تعد على اتّصال عمليّا مع أهالي رفيقاتهما.

«إنّني متأسّفة للغاية لكلّ هذه القصّة»، بادرتها والدة هارييت. «قلت لهارييت إنّني سأكلّمك، لأنّني أكّدت لها أنّ الأمر ليس أنّ ليبي لا تريدها أن

تراقفها إلى ذلك... تعرفين كم أنّهما قريبتان الواحدة من الأخرى، وأكره أن أراهما على هذا النحو...»

تفقّدت سامانثا ساعتها. عليهما أن تغادرا بعد عشر دقائق على أبعد تقدير.

«هارييت مقتنعة بأنّ ليبي لديها بطاقة إضافيّة للحفل، لكنّها لا تريد أن تصطحبها معها. قلت لها إنّ هذا غير صحيح، وإنّك سترافقينها بنفسك لأنّك لا تودّين أن تذهب ليبي وحدها إلى هناك، أليس هذا صحيحًا؟»

«بالطبع، لا يمكنها الذهاب وحيدة»، وافقت سامانثا.

«كنت واثقة بذلك»، أجابت المرأة، وفي صوتها نبرة انتصار غريبة. «إنّني أتفهّم تمامًا حرصك على حماية ابنتك، ولما كنت اقترحت عليك أبدًا أمرًا كهذا لو لم أكن على ثقة بأنّه سوف يوفّر عليك الكثير من العناء. كلّ ما في الأمر أنّهما قريبتان إحداهما من الأخرى إلى حدّ غير معقول... وهارييت مولعة إلى حدّ الجنون بهذه الفرقة السخيفة... وأعتقد، ممّا قالته ليبي لهارييت للتوّ على الهاتف، أنّها تتمنّى بشدّة أن ترافقها هارييت. إنّني أتفهّم تمامًا حرصك على حماية ليبي، لكن الفكرة أنّ شقيقتي ستصطحب ابنتيها إلى الحفل أيضا، وبالتالي سيكون معهم هناك شخص بالغ. بوسعي أن أقلّ ليبي وهارييت معًا إلى هناك بعد الظهر، سوف ننضمّ إلى الآخرين خارج الملعب، ويمكننا أن نقضي الليل جميعًا في منزل شقيقتي. أؤكّد لك تمامًا أنّ ليبي لن تغيب عن أنظارنا، إمّا أنا أو شقيقتي، في أي لحظة.»

«آه... هذا لطيف جدًا. لكنّ صديقتي...»، تابعت سامانثا وهي تشعر بطنين غريب في أذنيها، «صديقتي تترقّبنا هناك، الواقع...»

«لكن بوسعك الذهاب وزيارة صديقتك إن كنت ترغبين في ذلك... كلّ ما أقوله أنّ لا حاجة لك إلى حضور الحفل إن كان هناك شخص آخر يرافق الفتاتين، أليس كذلك؟... وهارييت يائسة، يائسة فعلًا... لم أشأ التدخّل في المسألة، لكنّ الأمر بدأ ينعكس الآن على صداقتهما...»

ثمّ بنبرة عمليّة أقلّ تفجّعًا «بالطبع، سنشتري البطاقة منك.»

لم يكن هناك من مهرب أمام سامنثا، لا مجال للتذرّع بأيّ حجّة.

«آه»، قالت، «نعم، لكن فكّرت أنّنا قد نستمتع بوقتنا معًا إن رافقتها...»

«صدّقيني، تفضّلان رفقة إحداهما الأخرى على أيّ رفقةٍ أخرى»، قالت والدة هارييت بحزم. «ولن يترتّب عليك الانحناء للاختباء بين كلّ هؤلاء الفتيات الصغيرات المولهات، هاهاها... في هذا الخصوص، لن تواجه شقيقتي أيّ مشكلة، فقامتها لا تتخطّى مترًا وستّين سنتيمترًا.»

3

شعر غافين بالإحباط، إذ بدا أنّه سيتوجّب عليه في نهاية المطاف حضور حفل عيد ميلاد هاورد موليسون. لو طلبت منه ماري البقاء للعشاء، بصفتها من موكّلي الشركة وأرملة صديقه الحميم، لكان اعتبر ذلك حجّة أكثر من وافية للتغيّب عن الحفل... لكنّ ماري لم تسعَ لاستبقائه للعشاء. كان أقرباء لها يزورونها، وبدت مضطربة عندما وصل. كان سلوكها غريبًا.

لا تريدهم أن يعلموا، قال لنفسه، لامسًا إشارة مطَمْئنة في توتّرها وهي ترافقه إلى الباب.

عاد في سيّارته إلى منزله، وهو يستعيد في ذهنه حديثه مع كاي.

كنت أعتقد أنّه أعزّ أصدقائك، لم يمضِ على وفاته سوى أسابيع قليلة!

أجل، وكنت أعتني بها من أجل باري، ردّ في ذهنه، هذا ما كان ليريده. لم يتوقّع أيّ منّا أن يحصل هذا. باري توفّي. لا يمكن للأمر أن يجرح مشاعره الآن.

وحيدًا في منزله سميثي، بحث عن بدلة مناسبة للحفل، التزامًا بتوجيهات بطاقة الدعوة التي أشارت إلى «لباس سهرة»، محاولًا تصوّر أهالي البلدة الصغيرة المحبّين للنميمة والثرثرة ينقضّون بنَهَمٍ على أخبار غافين وماري ليروّجوا القال والقيل.

وإن يكن؟ فكّر، مذهولًا بجسارته. هل يفترض بها أن تبقى وحيدة إلى الأبد؟ هذه أمور تحصل. كنت أسهر عليها، هذا كلّ ما في الأمر.

وبالرغم من أنّه كان ذاهبًا مكرهًا إلى حفلٍ يثق بأنّه سيكون مضجرًا ومنهكًا، إلّا أنّه كان يشعر باختلاجات في داخله، اختلاجات إثارة وبهجة.

في منزل هيلتوب هاوس في أعلى التلّة، كان آندرو برايس يسرّح شعره، مستعينًا بمجفّف الشعر الذي كان لوالدته. لم يشعر يومًا بمثل هذه اللهفة لحضور حفلة كما يشعر اليوم. فقد كلّفهم هاورد هو وغايا وسوكفيندر تقديم المأكولات والمشروبات في الحفل. واستأجر له هاورد بدلة لهذه المناسبة: قميص أبيض وبنطالًا أسود وربطة عنق فراشة. سوف يعمل إلى جانب غايا، ليس كحمّال، بل كنادل.

لكنّ تلك الإثارة التي كانت تخفق فيه لم تكن تقتصر على ذلك، فغايا انفصلت عن صديقها الأسطوريّ ماركو دي لوكا. وجدها تبكي في الفناء الخلفيّ للمقهى ما بعد ظهيرة ذلك اليوم، حين خرج يدخّن سيجارة.

«هو الخاسر»، قال لها آندرو، جاهدًا لكبت صوته حتّى لا يفضح فرحته.

نشقت وقالت: «شكرًا آندي.»

«يا لك من مخنّث صغير»، قال سايمون ما إن أطفأ آندرو أخيرًا مجفّف الشعر. كان ينتظر منذ بضع دقائق ليقول كلمته، واقفًا في الرواق المظلم، يتلصّص من الباب المشقوق، مراقبًا آندرو وهو يستعدّ ويتأنّق أمام المرآة. جفل آندرو، ثمّ ضحك. فوجئ سايمون بمرحه فارتبك.

«انظر إلى نفسك!» قال متهكّمًا لابنه الذي تجاوزه في الرواق، مرتديًا قميصه الأبيض وربطة الفراشة. «بربطتك هذه البلهاء، تبدو أشبه بمخنّث شاذّ.»

وأنت مجرّد عاطل عن العمل، وأنا مَن فعل ذلك بك، أيّها المغفّل الأبله.

كانت مشاعر آندرو حيال ما فعله بوالده تتبدّل بين ساعة وأخرى. أحيانًا يشعر بالذنب يسيطر عليه، يكبّله، لكنّه ذنب سرعان ما يتبدّد، فيزهو بانتصاره في سرّه. وفي تلك الليلة بالذات، كانت فكرة هذا الانتصار تزيد حدّة الإثارة التي تلهب صدر آندرو، تحت قميصه الأبيض الرقيق، فتضاف اختلاجاتها إلى القشعريرة التي تعتريه في الهواء المسائيّ المنعش، وهو ينحدر من أعلى التلّة بسرعة على درّاجة سايمون في طريقه إلى البلدة. كان مبتهجًا، ملؤه الأمل. غايا غير مرتبطة وفي موقع ضعيف، ووالدها يقيم في ريدينغ.

حين وصل على درّاجته، كانت شيرلي موليسون واقفة في فستان سهرة خارج قاعة الكنيسة، تربط بالونات ذهبيّة ضخمة منفوخة بغاز الهيليوم وموضّبة على شكل رقمَي خمسة وستّة، إلى السياج.

«مرحبًا آندرو»، رحّبت به فرحة، «الدرّاجة بعيدًا عن المدخل رجاءً.»

ترجّل وجرّ الدرّاجة. حين انعطف عند الزاوية، عبر أمام سيّارة بي إم دبليو جديدة مركونة على مسافة بضعة أمتار. كانت سيّارة سبورت كشف خضراء. التفّ حولها للدخول إلى المقهى، متأمّلًا داخلها الفخم وتجهيزاتها الحديثة.

«ها هو آندي! مرحبًا!»

لاحظ آندرو فور دخوله أنّ ربّ عمله لا يقلّ عنه بهجة وإثارة. كان هاورد يذرع القاعة، مرتديًا سترة عشاء رسميّة مخمليّة ضخمة، يبدو فيها أشبه بساحر. وجد خمسة أو ستّة أشخاص فقط موزّعين في القاعة. فالحفل لن يبدأ قبل عشرين دقيقة. كانت هناك بالونات زرقاء وبيضاء وذهبيّة معلّقة في كلّ مكان، وطاولة طويلة منصوبة على ركائز خشبيّة، تتكدّس على قسم كبير منها أطباق مكسوّة بمحارم. وفي قعر القاعة كان دي جاي في أواسط عمره يعدّ تجهيزاته.

«آندي، هلا ذهبت لمساعدة مورين؟»

كانت مورين واقفة تحت النور العاري المنسكب من مصباح متدلّ من السقف، تصفّ أكوابًا عند طرف الطاولة الطويلة.

«يا لك من فتى وسيم اليوم!» قالت بنعيقها المعهود عند رؤيته.

كانت ترتدي فستانًا قصيرًا من القماش اللمّاع المطّاط يكشف أدقّ تفاصيل جسدها النحيل، فاضحًا بلا رحمة كتلًا صغيرة من اللحم تنفر بشكل مفاجئ بين العظام الناتئة. «مرحبًا.» لم يعرف مصدر هذا السلام. التفت، فرأى غايا منحنية فوق علبة مليئة بالصحون موضوعة أرضًا.

«أخرج الأكواب من العلب آندي، أرجوك» قالت مورين، «وضَعها هناك، حيث سنقيم البار.»

فعل كما قالت له. وفيما كان يفرغ محتوى العلبة الكرتون، اقتربت امرأة لم يسبق أن رآها، تحمل زجاجات شمبانيا.

«يجب وضعها في البرّاد، إن كان هناك برّاد في هذا المكان.»

كانت تشبه هاورد: أنف مستقيم، عينان عريضتان زرقاوان وشعر أشقر متجعّد. لكن خلافًا لهاورد الذي كانت سمنته تلطّف ملامحه، تغلّفها بعذوبة أنثويّة، فإن ابنته - لا بدّ أنّها ابنته - لم تكن جميلة، غير أنّها لافتة للنظر، بحاجبَيها الخفيضَين وعينيها الشاسعتين والغمّازة العميقة في وسط ذقنها. ترتدي بنطالًا وبلوزة من الحرير بأزرار. وضعت الزجاجات على الطاولة واستدارت مبتعدة. لمس آندرو في سلوكها ونوعيّة ملابسها الفاخرة، ما جعله على ثقة بأنّها صاحبة سيارة البي إم دبليو المركونة في الخارج.

«هذه باتريسيا»، همست غايا في أذنه، فاعترته قشعريرة وكأنّها سدّدت إليه شحنة كهربائيّة. «ابنة هاورد.»

«أجل، هذا ما ظننته»، أجابها، غير أنّ اهتمامه كان منصبّا على غايا التي فتحت زجاجة فودكا وسكبت منها جرعة ابتلعتها على الفور دفعة واحدة، فارتعشت ارتعاشة طفيفة. بالكاد كانت أعادت إحكام غطاء الزجاجة حتّى ظهرت عليهما مورين حاملة وعاء ثلج للمشروبات.

«عاهرة عجوز منحوسة!» قالت غايا فيما واصلت مورين طريقها. اشتمّ آندرو رائحة الكحول في أنفاسها. «انظر إليها، رأيت شكلها؟»

ضحك، لكنّه تسمّر فجأة حين استدار: كانت شيرلي واقفة بجانبهما، وعلى وجهها ابتسامة القطط تلك.

«ألم تصل الآنسة جاواندا بعد؟» سألت.

«إنّها في طريقها، بعثت لي رسالة نصيّة للتو»، أجابت غايا.

لكنّ شيرلي لم تكن تكترث البتّة لمعرفة أين سوكفيندر. فهي سمعت الحديث القصير بين آندرو وغايا، فانشرح صدرها مجدّدًا، بعدما تكدّرت قليلًا لرؤية مورين تتبختر مزهوّةً بنفسها، مستعرضة فستانها. من الصعب تحطيم وتبديد اعتداد يحمل هذَين البلادة والخواء، لكنّ شيرلي كانت تعرف الآن، وهي تبتعد متوجّهة إلى الدي جاي، ما ستقوله لهاورد ما أن تختلي به.

أخشى أن يكون فتيانا الصغيران... تعرف... هزأ من مورين... من المؤسف أن تختار ارتداء ذلك الفستان... أكره أن أراها تجعل نفسها محطّ سخرية هكذا.

كانت شيرلي بحاجة إلى ما يرفع معنويّاتها في تلك الليلة، والواقع أنّ لديها الكثير من الأمور التي يمكنها أن تفرح بها. ذكّرت نفسها بأنّ ثلاثتهم، هي وهاورد ومايلز، باتوا في المجلس، وسيكون الأمر رائعًا، رائعًا حقًّا.

تحقّقت من أنّ الدي-جاي يعرف أنّ أغنية هاورد المفضّلة هي «عشب بلدتي الأخضر»[1] بأداء توم جونز، ثمّ بحثت عن مهامّ صغرى أخرى تقوم بها، لكن قبل أن تهتدي إلى إحداها، وقع نظرها على السبب الذي حال دون اكتمال سعادتها في تلك الأمسية.

كانت باتريسيا واقفة وحدها، تتأمّل شعار باغفورد المعلّق على الجدار، بدون أن تبذل مطلق جهد للتكلّم مع أيّ كان. تمنّت شيرلي لو أنّ ابنتها ترتدي بين الحين والآخر تنّورة، على الأقلّ جاءت وحيدة إلى الحفل. كانت شيرلي تخشى أن يكون هناك شخص آخر غير ابنتها في سيّارة البي إم دبليو، وارتاحت حين تحقّقت من عدم وجود أحد.

لا يفترض بالأمّ أن تكنّ البغض لأولادها، بل يفترض بها أن تحبّهم مهما يكن، حتّى لو لم يكونوا كما أرادت لهم أن يكونوا، حتّى لو كبروا وأصبحوا من صنف الأشخاص الذين تفضّل أن تنتقل إلى الرصيف المقابل حتّى تتجنّب لقاءهم، لولا أن هناك صلة قربى تربطك بهم. هاورد اختار تبنّي موقف هادئ متساهل حيال المسألة برمّتها، حتّى إنّه يتندّر على الموضوع بلطافة، بعيدًا عن مسمع باتريسيا. أمّا شيرلي، فلم يكن بوسعها أن تصل إلى هذا الحدّ من اللامبالاة. شعرت بأنّها مرغمة على الانضمام إلى ابنتها، على أمل مبهم لا تقرّ لنفسها به، وهو أن تتمكّن بملبسها وسلوكها الخاليين من أيّ شائبة من تبديد الغرابة المنبعثة من ابنتها، والتي كانت تخشى أن يلاحظها الجميع.

«هل تودّين تناول كأس، عزيزتي؟»

«ليس الآن»، ردّت باتريسيا، وعيناها مسمّرتان على شعار باغفورد. «أسرفت في الشرب الليلة الماضية. لا شكّ في أنّ نسبة الكحول لا تزال مرتفعة لديّ. خرجنا في سهرة مع رفاق ميلي في المكتب.»

[1] «The green, green grass of home»

رفعت شيرلي نظرها إلى الشعار على الجدار، موجّهة إليه ابتسامة مبهمة.

«ميلي بخير، شكرًا لسؤالك»، قالت باتريسيا.

«آه، ممتاز»، أجابت شيرلي.

«أعجبني أسلوب الدعوة، بات وضيف.»

«عذرًا عزيزتي، لكن هذه هي الصيغة المتعارَف عليها حين يكون... تعرفين... حين لا يكون المدعو متزوّجًا...»

«آه! هذا ما يقولونه في دليل ديبريت للتشريفات، أليس كذلك؟ حسنًا، ميلي لم تشأ الحضور بما أن اسمها غير مذكور حتّى على بطاقة الدعوة، وبالتالي وقع شجار كبير بيننا، وها أنا وحدي هنا. خاتمة جميلة، أليس كذلك؟»

ابتعدت باتريسيا متوجّهة نحو المشروب، تاركة شيرلي مرتبكة. عوّدتهم باتريسيا منذ صغرها على نوبات غضب مخيفة.

«تأخرتِ، آنسة جاواندا»، صاحت شيرلي وقد استعادت رباطة جأشها، فيما هرعت الفتاة صوبها مضطربة. كانت شيرلي ترى أنّ مجرّد حضورها، سواء في الموعد المحدد أو متأخرة، ينمّ عن وقاحة من جانب الفتاة، بعد ما قالته والدتها لهاورد في هذه القاعة بالذات. سارعت سوكفيندر للانضمام إلى آندرو وغايا. خطر لشيرلي أنّها سوف تقول لهاورد إنّه يجدر بهما طردها. فهي بطيئة، والإكزيما الذي تخفيه تحت قميصها الأسود الطويل الكمّين يطرح على الأرجح مخاوف صحيّة. عاهدت نفسها القيام بأبحاث على موقعها الطبيّ المفضّل لمعرفة ما إذا كان هذا المرض معديًا.

عند الساعة الثامنة، بدأ الضيوف بالتوافد تباعًا. طلب هاورد من غايا أن تبقى بجانبه للاهتمام بمعاطف المدعوّين. كان يرغب في أن يراه الجميع يصدر أوامر إلى الفتاة في فستانها الأسود القصير ومئزرها الدنتيل. لكن أمام عدد الوافدين، بات من المستحيل أن تتكفّل وحدها بكميّة المعاطف، فاستدعى آندرو ليساعدها.

«اختلِسْ زجاجة»، أمرت غايا آندرو فيما كانا يعلّقان المعطفين رقم ثلاثة وأربعة في قاعة الملابس الضيّقة، «واخفِها في المطبخ. سوف نتناوب عليها لاحتساء جرعات بين الحين والآخر.»

«طيّب»، قال آندرو مغتبطًا لهذه الفكرة.

«غافين!» صاح هاورد مرحّبًا بشريك ابنه عند دخوله القاعة وحيدًا في الساعة الثامنة والنصف.

«غافين، ألم ترافقك كاي؟» سارعت شيرلي إلى الاستعلام، فيما مورين خلف الطاولة تنتعل حذاءها اللمّاع بالكعب العالي، ما يمنحها بضع لحظات للاستحصال على معلومات تؤمّن لها تفوّقًا عليها.

«لا، لا يمكنها الحضور للأسف»، قال غافين. اصيب بالهلع حين استدار ووجد نفسه وجهًا لوجه مع غايا التي كانت في انتظار أن يخلع معطفه.

«بل كان بوسع أمّي الحضور»، قالت غايا بصوت عالٍ وواضح وهي تحدّق إليه، «لكنّ غافين تخلّى عنها. أليس هذا ما حصل، غاف؟»

ربَّت هاورد كتفَ غافين، متظاهرًا بأنّه لم يسمع، وصاح «يسرّني مجيئك، المشروب هناك، تفضّل وأعدّ لنفسك كأسًا.»

لم يكشف وجه شيرلي عن أيّ تعبير، لكنّ هذه الحادثة بعثت فيها انفعالًا لم يتبدّد على الفور، وبقيت شاردة تحت وطأة الذهول لبضع لحظات، وهي تستقبل الضيوف الجدد. حين عادت مورين تختال في فستانها القبيح وانضمّت إليهما للترحيب بالقادمين، أحسّت شيرلي بسرور لا يوصف وهي تهمس لها بنبرة مَن يُفشي سرًّا «فاتكِ مشهد محرج للغاية. للغاية. غافين ووالدة غايا... يا إلهي... لو كنّا ندري...»

«ماذا؟ ما الذي حصل؟»

لكنّ شيرلي هزّت رأسها، متلذّذة بترك مورين تتضوّر فضولًا بدون أن تشفي غليلها، وفتحت ذراعيها مرحّبة بمايلز الذي دخل برفقة سامانثا وليكسي.

«ها هو! السيّد مايلز موليسون عضو مجلس البلدة!»

نظرت سامانثا إلى شيرلي تعانق مايلز، وكأنها تراها من مسافة بعيدة. فهي انتقلت بشكل مفاجئ للغاية من أقصى السعادة والتلهّف إلى أقصى الصدمة والخيبة، ولم تعد أفكارها سوى مجرّد ضجيج مبهم لا تميّز فيه أصواتًا، ويترتّب عليها أن تكافحه جاهدةً ليتراءى لها العالم الخارجيّ.

(قال مايلز: «هذا عظيم! يمكنك، إذًا، القدوم إلى حفل والدي! كنت تقولين للتو...»

«أجل»، أجابت، «أعرف. هذا عظيم، أليس كذلك؟»

لكن عندما رآها في بنطال الجينز والتي شيرت اللذين كانت تحلم منذ أكثر من أسبوع بارتدائهما، وقف حائرًا.

«إنه حفل رسميّ!»

«مايلز، إنّها مجرّد قاعة الكنيسة في باغفورد.»

«أعرف، لكنّ بطاقة الدعوة...»

«هذا ما سأرتديه.»)

«مرحبًا سامي»، قال هاورد. «انظروا إليها! لم تكوني بحاجة إلى ارتداء أجمل ملابسك!»

لكنّه عانقها بالقدر نفسه من الفسوق، مثلما يفعل على الدوام، وربّت مؤخّرتها المشدودة في الجينز الضيّق.

سلّمت سامانثا على شيرلي بابتسامة باردة مزمومة، وهي تعبر أمامها متوجّهة إلى الكحول. ارتفع صوت ماكر في داخلها يسألها: ما الذي كان سيحصل برأيك في ذلك الحفل الموسيقيّ؟ ما كان الهدف في مُطلق الأحوال؟ ما الذي كنت تريدينه؟

لا شيء. بعض المتعة والتسلية، هذا كلّ ما في الأمر.

أن تجد في الحفل متنفّسًا ما لذلك الحلم الذي يتملّكها، الحلم بذراعين شابّتين قويّتين وقهقهات غير مبالية. الحلم باستعادتها ذلك الخصر الرقيق الرهيف وفتًى ما يعانقه من جديد. نشوة المغامرة والمجهول. والآن ذلك الحلم فقد جناحيه وها هو يهوي أرضًا...

أردت فقط أن أنظر، أن أرى.

«تبدين متألّقة، سامي.»

«مرحبًا بات.»

لم تكن التقت شقيقة زوجها منذ أكثر من سنة.

أحبّك أكثر من أيّ شخص آخر في هذه العائلة، بات.

انضمّ مايلز إليها وقبّل شقيقته.

«كيف حالك؟ ما أخبار ميل؟ لم تأتِ معك؟»

«لا، لم تشأ المجيء»، قالت باتريسيا. كانت تشرب الشمبانيا، لكنّ التعبير على وجهها يوحي بأنّ كأسها مليئة بالخلّ. «البطاقة تقول بات والضيف الذي تختاره... وبالتالي وقع شجار فظيع. كلّ هذا بفضل أمّي.»

«هيّا بات، لا تقولي هذا!» قال مايلز مبتسمًا.

«هيّا بات لا تقولي ماذا، مايلز؟ اللعنة!»

أحسَّت سامانتا بغبطة شرسة تستيقظ في داخلها، وقد وجدت ذريعة لشنّ هجوم.

«إنّها طريقة فظّة إلى حدّ معيب لدعوة شريكة شقيقتك، وأنت تعرف هذا حقّ المعرفة، مايلز. إن أردت رأيي، والدتك بحاجة إلى بعض الدروس في اللياقة والسلوك.»

سمن مايلز بالتاكيد عما كان عليه قبل عام. بوسعها أن ترى عنقه يندلق من فوق ياقة قميصه. كما أن أنفاسه أصبحت سرعان ما تصبح كريهة. كذلك، بات يتأرجح على رؤوس قدميه، في عادة اكتسبها من والده. سيطر عليها فجأة اشمئزاز جسديّ طاغٍ وابتعدت صوب طرف الطاولة، حيث كان آندرو وسوكفيندر منهمكين في صبّ الكؤوس وتقديمها.

«هل لديك جين؟» سألت سامانثا. «ناولني كأسًا كبيرة.»

بالكاد عرفت آندرو. صبّ لها كأسًا، باذلًا كلّ ما بوسعه حتّى لا ينظر إلى نهديها البارزين تحت التي شيرت، لكنّ الأمر كان كمن ينظر إلى نور الشمس محاولًا عدم إغلاق جفنيه.

«هل تعرفهم؟» سألت سامانثا بعدما أفرغت نصف كأس الجين تونيك.

علتِ الحمرة وجه آندرو قبل أن يتمكّن من كبح أفكاره. ارتبك هولًا أمام الضحكة المتقطّعة التي أطلقتها سامانثا بجموح قبل أن تردف «الفرقة، كنت أتكلّم عن الفرقة الموسيقيّة.»

«أجل، أنا... نعم، سمعت بهم. لست... ليس هذا نوعي المفضّل من الموسيقى.»

«حقًا؟» سألته وهي تفرغ ما تبقّى من كأسها. «كأس ثانية أرجوك، المشروب ذاته.»

تذكّرته الآن: إنّه الفتى الخجول من محلّ الأطعمة. يبدو أكبر سنًا ببدلته، أو ربّما اشتدّت عضلاته قليلًا بعد أسبوعين قضاهما يحمل الصناديق صعودًا وهبوطًا على أدراج القبو.

«آه! انظر»، قالت سامانثا وقد لمحت أحدًا يبتعد للانضمام إلى الحشد المتزايد. «ها هو غافين! ثاني أتفه رجل في باغفورد بعد زوجي العزيز، طبعًا.»

ابتعدت مسرورة بمشية ثابتة واثقة، ممسكة كأسها الثانية بيدها. أتى الجين بالمفعول الذي كانت بحاجة إليه تمامًا، فخدّرها ونشّطها في آن. فكّرت وهي تستدير: أعجبه نهداي، سوف نرى ما رأيه بمؤخّرتي.

لمح غافين سامانثا تأتي صوبه، فحاول تفاديها عبر الانضمام إلى أحد الأحاديث الدائرة من حوله، أيّ حديث. كان هاورد أقرب شخص إليه، فدسّ نفسه على وجه السرعة داخل المجموعة المتحلّقة حول صاحب العيد.

«قمت بمجازفة»، قال هاورد للرجال الثلاثة حوله، وهو يلوح بسيجار، ناثرًا قليلًا من الرماد على صدر سترته المخمليّة. «جازفت وانكببت على العمل بمشقّة. المسألة بهذه البساطة. لا وصفة سحريّة. لم يعطني أحد... آه، ها هي سامي. مَن هم هؤلاء الفتيان، سامانثا؟»

تركت سامانثا الرجال الأربعة المسنّين يحدّقون إلى صورة أعضاء الفرقة الأربعة الممطوطة على عرض صدرها، والتفتت إلى غافين.

«مرحبًا»، قالت وهي تنحني لترغمه على تقبيلها. «لم تأتِ كاي؟»

«لا»، أجاب غافين باقتضاب.

«كنّا نتكلّم عن الأعمال سامي»، قال هاورد مبتهجًا. تذكّرت سامانثا محلّها المفلس الذي قُضِي أمره. «أنا صنعت نفسي بنفسي» قال هاورد للمجموعة، مكرّرا ما بدا واضحًا أنّه لازمة تدرّب عليها مسبقا، ستشكّل محور حديثه في تلك الأمسية. «هذا كلّ ما في الأمر. هذا كلّ ما يحتاج إليه المرء. العصاميّة. صنعت نفسي بنفسي.»

بدا هاورد بقامته الضخمة المتكوّرة أشبه بشمس مخمليّة منمنمة، تشعّ رضًى واعتزازًا بالنفس. كأس البراندي الذي يحمله بيده بدأ يأتي مفعوله، فلطّف صوته وميّع ألفاظه. «كنت على استعداد للمجازفة، كان من الممكن أن أخسر كلّ شيء.»

«بل الأحرى أنّ والدتك جازفت بكلّ ما لديها وكان يمكن أن تخسره»، صحّحت له سامانثا. «ألم ترهن هيلدا بيتها لتؤمّن لك نصف العربون على المتجر؟»

لمحت التماعة في عيني هاورد، لكنّ ابتسامته لم تبهت.

«كلّ الشكر إذًا لأمّي»، قال، «فهي عملت وادّخرت وأعطت ابنها انطلاقة جيّدة في الحياة. ما أُعطِيَ لي، أُضاعفه وأهب منه لعائلتي... أدفع مثلًا أقساط ابنتيكما في مدرسة سانت آن. الحياة أخذ وعطاء، أليس كذلك سامي؟»

كانت تتوقّع مثل هذه الملاحظة من شيرلي، وليس من هاورد. أفرغا كأسيهما، ونظرت سامانثا إلى غافين وهو يبتعد، بدون أن تقوم بأدنى محاولة لاعتراضه.

كان غافين يتساءل إن كان من الممكن أن ينسحب بدون أن يلاحظ أحد ذلك. كان متوترًا، وصخب الحفلة يزيده عصبيّة. خطرت له فكرة فظيعة استحوذت على ذهنه كليّا منذ أن التقى غايا عند الباب. ماذا لو كانت كاي أخبرت ابنتها كلّ شيء؟ ماذا لو كانت الفتاة تعرف أنّه مغرم بماري فيربراذر، وأخبرت آخرين بالأمر؟ مَن يدري ما الذي يمكن أن يدور في ذهن فتاة في السادسة عشرة مجبولة بالحقد؟

لم يكن يريد أن يعرف الجميع في باغفورد أنّه مغرم بماري قبل أن يتسنّى له أن يبوح لها بنفسه عن مشاعره. تصوّر أن يفاتحها بالأمر بعد أشهر طويلة، ربما بعد انقضاء عام كامل... أن ينتظر إلى ما بعد الذكرى الأولى لوفاة باري... وأن يعمل في هذه الأثناء على توطيد أواصر الثقة الناشئة بينهما، بحيث تتكشّف لها حقيقة مشاعرها حياله، مثلما تكشّفت مشاعره له.

«أنت لا تشرب شيئًا غاف!» بادره مايلز. «علينا معالجة هذا الوضع على الفور!»

قاد شريكه بحزم إلى طاولة المشروبات وصبّ له كوبًا من البيرة، وهو يحادثه أثناء ذلك. ومثل هاورد، كان يشعّ سعادة وزهوًا.

«علمت بأنّني فزت بالمقعد؟»

لم يكن غافين علم بالأمر، لكنّه لم يشعر بأنّه قادر على التظاهر بالمفاجأة.

«أجل، تهانيّ.»

«كيف حال ماري؟» سأل مايلز مبديًا اهتمامًا ودودًا، فهو الليلة صديق للبلدة برمّتها، إذ أنّها انتخبته. «هل هي بخير؟»

«أجل، أعتقد ذلك...»

«وردني أنّها قد تنتقل إلى ليفربول. قد يكون ذلك لخيرها.»

«ماذا؟» قال غافين منتفضًا.

«سمعتُ مورين تتكلّم في الصباح. يبدو أنّ شقيقة ماري تحاول إقناعها بالعودة إلى الديار مع أولادها. ما زال لديها الكثير من الأقرباء في ليفر...»

«لكنّ بيتها هنا.»

«أعتقد أنّ باري هو الذي كان يحبّ باغفورد. لست واثقًا بأنّ ماري تودّ البقاء هنا بدونه.»

كانت غايا تراقب غافين من شقّ في باب المطبخ، وفي يدها كوب من الكرتون فيه بعض الفودكا من الزجاجة التي سلبها آندرو من أجلها.

«يا له من حقير!» قالت. «لكنّا في هاكني الآن لو لم يخدع أمّي بأكاذيبه ونفاقه. غير معقول كم هي حمقاء. كان بوسعي أن أخبرها أنّه لم يكن مهتمًّا بها كما تتوهّم. لم يخرج معها يومًا لقضاء أمسية في الخارج. كان كلما انتهى من مضاجعتها يسارع إلى الرحيل.»

كان آندرو واقفًا خلف غايا، يكدّس كميّة إضافيّة من الشطائر على طبق شبه فارغ. ذهل لاستخدامها كلمات مثل «مضاجعتها». غايا الخياليّة التي تملأ شهواته الفانتازميّة هي عذراء مغامرة ومبدعة جنسيًّا. لم يكن لديه مطلق فكرة عمّا يمكن أن تكون غايا الحقيقيّة فعلت، أو لم تفعل مع ماركو

دي لوكا. غير أنّ تلك الآراء التي تصدرها عن والدتها توحي بأنّها تعرف كيف يتصرّف الرجال بعد ممارسة الجنس إن كانوا «مهتمّين» كما تقول...

«اشرب جرعة»، قالت لآندرو فيما كان يتقدّم نحو الباب حاملًا الطبق. مدّت له كوبها البلاستيكيّ ووضعته على شفتيه، فرشف بعض الفودكا. أطلقت ضحكة خافتة وتراجعت، مفسحة له حتّى يخرج إلى القاعة. «قل لسوكس أن تأتي إلى هنا لتناول بعض المشروب!» قالت له وهو يعبر.

كانت القاعة في هرج ومرج. وضع آندرو طبق الشطائر على الطاولة، غير أنّ المدعوّين لم يعودوا مهتمّين كثيرًا بالطعام، على ما بدا له. كانت سوكفيندر خلف طاولة المشروبات تجهد لتلبية الطلبات، وبدأ العديدون يسكبون كؤوسهم بأنفسهم.

«غايا تريدكِ أن توافيها في المطبخ» قال آندرو لسوكفيندر قبل أن يأخذ مكانها. لا حاجة لأن يتصرّف وكأنّه بارمان محترف. ملأ كلّ ما تيسّر له من كؤوس، وتركها على الطاولة حتّى يختار كلّ واحد ما يناسبه.

«مرحبًا فستق!» قالت ليكسي. «هل يمكنني الحصول على بعض الشمبانيا؟»

كانا معًا في الماضي في مدرسة سانت توماس، لكنّه لم يلتقِها منذ وقت طويل. تبدّلت لهجتها منذ أن انتقلت إلى سانت آن. هو يكره اسم فستق.

«الشمبانيا هنا أمامك»، قال مشيرًا إلى الكؤوس.

«ليكسي، إيّاكِ أن تشربي»، تدخّلت سامانثا بحزم، وقد خرجت من الحشد. «غير وارد إطلاقًا.»

«لكنّ جدّي قال...»

«لا يهمّني ما قاله.»

«الجميع...»

«قلت لا!»

ابتعدت ليكسي بحنق. سُرَّ آندرو برحيلها وابتسم لسامانثا. دهش حين ردّت بابتسامة ساطعة.

«أنت أيضًا تجيب والديك بفظاظة؟»

«أجل»، قال. ضحكت سامانثا. نهداها هائلان حقًا.

«سيّداتي، سادتي»، زعق هاورد عبر مكبّر الصوت، فصمت الجميع وأنصتوا. «أودّ أن أوجّه إليكم كلمة مقتضبة... لا بدّ أنّكم علمتم بمعظمكم أنّ ابني مايلز انتُخب عضوًا في مجلس البلدة.»

سُمع بعض التصفيق هنا وهناك، ورفع مايلز كأسه عاليًا. أصيب آندرو بذهول كامل حين سمع سامانثا بوضوح تتمتم: «لي لي ليش! يا فرحتي!»

لم يعد أحدٌ يدنو من الكؤوس. انسحب آندرو وانسلّ إلى المطبخ حيث وجد غايا وسوكفيندر تشربان وتقهقهان وحدهما. «آندي!» صاحتا حين أطلّ عليهما.

ضحك هو أيضًا.

«أنتما ثملتان؟»

«أجل»، ردّت غايا.

«لا» ردّت سوكفيندر، «لكن هي أجل.»

«لا يهمّني»، قالت غايا. «بوسع موليسون أن يطردني إن أراد. لا حاجة بعد اليوم لادّخار النقود من أجل شراء بطاقة إلى هاكني.»

«لن يطردك»، طمأنها آندرو وهو يصبّ لنفسه بعض الفودكا. «أنت فتاته المدلّلة.»

«طبعًا»، أجابت. «عجوزٌ حقيرٌ قذر!»

انفجر الثلاثة ضحكًا من جديد.

وصل إليهم من خلف زجاج الباب نعيق مورين، مدوّيًا عبر مكبّر الصوت.

«هيّا هاورد! هيّا! دويتّو في عيد ميلادك! سيّداتي سادتي... إليكم أغنية هاورد المفضّلة!»

تبادل الفتيان الثلاثة النظرات، مترقّبين ما سيأتي بهلع وإثارة. تعثّرت غايا وهي تبتعد منفجرة بالضحك، ودفعت الباب.

زعقت أولى نوطات أغنية «عشب بلدتي الأخضر»، ثمّ ارتفع صوت هاورد الجهير، ترافقه مورين بصريرها العريض الخشن:

The old home town looks the same,
As I step down from the train . . .

وحده غافين سمع القهقهات والقرقرات، لكنّه حين استدار، لم يلمح سوى باب المطبخ المزدوج يتأرجح قليلًا على مصراعيه.

كان مايلز قد ذهب للتحدّث إلى أوبري وجوليا فاولي اللذين وصلا متأخّرين، مكلّلين بأبهى ابتساماتهما المؤدّبة الراقية. كان غافين فريسة ذلك المزيج الأليف من الهول والقلق. واحة الحريّة والسعادة تحت سماء ساطعة مشمسة التي تراءت له بشكل عابر، خيّمت عليها غيوم قاتمة قادمة من جبهتين: فهو يخشى أن تنشر غايا ما قاله لوالدتها، كما يخشى أن تغادر ماري باغفورد من غير رجعة. ماذا عساه يفعل؟

Down the lane I walk, with my sweet Mary,
Hair of gold and lips like cherries . . .

«لم تأتِ كاي؟»

اقتربت منه سامانثا وبادرته بابتسامة بلهاء، متّكئة إلى الطاولة بجانبه.

«سبق أن طرحتِ عليّ السؤال ذاته»، قال غافين. «لا.»

«هل الأمور على ما يرام بينكما؟»

«وهل يعنيك الأمر أساسًا؟»

جاء ردّه تلقائيًا، قبل أن يتمكّن من ضبط نفسه. سئم تقصّياتها وتهكّمها المتواصلين. لمرّة، كان وحيدًا معها، فيما مايلز لا يزال منشغلًا مع أوبري وجوليا فاولي.

ادّعت الدهشة، مبالغة في تعبيرها الزائف. كانت عيناها حمراوين والأحرف تخرج بصعوبة من فمها. لأوّل مرّة، أوحت لغافين بالاشمئزاز وليس بالرهبة.

«آسفة، كنت فقط...»

«تسألين، طبعًا» قاطعها بينما كان هاورد ومورين يتمايلان على وقع الأغنية، شابكين ذراعيهما.

«أودّ أن أراكَ مستقرًا. بدَوتما متنناغمين، أنت وكاي.»

«حسنًا، لنقل أنّني متمسّك بحريّتي. لا أعرف الكثير من الأزواج السعداء في حياتهم الزوجيّة.»

كانت سامانثا ثملة أكثر من أن تشعر بحدّة الملاحظة اللاذعة، لكنّه تهيّأ لها بشكل مبهَم أنّها مستهدَفة.

«الزواج يبقى سرًا مطبقًا لمن ينظر إليه من الخارج»، قالت بحذر، وازنة كلماتها. «لا يمكن لأحد أن يعرف ما يغذّيه سوى الزوجين نفسيهما. لذا، يجدر بك عدم إطلاق الأحكام، غافين.»

«شكرًا لهذه النصيحة النابعة من حكمة عميقة»، قال. لم يعد يحتمل الموقف، فأفرغ عبوة البيرة التي كان يحملها وتوجّه نحو حجرة المعاطف.

رافقته سامانثا بنظرها وهو يبتعد، واثقة بأنّها غلبته، وانتقلت إلى صبّ اهتمامها على حماتها التي كانت تلمحها من خلال ثغرة وسط الحشد. كانت شيرلي تراقب هاورد ومورين يغنّيان معًا. بدا الغضب عليها، تفضحه الابتسامة على وجهها، هي ابتسامتها الأكثر برودة وتشنّجًا منذ بداية السهرة. هذا المشهد أفرح قلب سامانثا. كثيرًا ما قام هاورد ومورين عبر السنوات بأداء أغنيات معًا. كان هاورد يحبّ الغناء، ومورين شاركت مرّة في كورس رافق فرقة موسيقى ريفيّة محليّة. حين انتهت الأغنية، صفقت سامانثا بيديها صفقة واحدة، وكأنّها تستدعي خادمًا. أطلقت سامانثا قهقهات بأعلى صوتها، وتوجّهت صوب البار عند طرف الطاولة، حيث خاب أملها إذ لم تجد الفتى بربطة الفراشة.

في المطبخ، كان آندرو وغايا وسوكفيندر يتلوّون ضحكًا. يضحكون استهزاءً بأغنية هاورد ومورين، ولأنّهم أفرغوا ثلثي زجاجة الفودكا، لكنّهم يضحكون قبل أيّ شيء لمجرّد الضحك، فيقهقه كلّ منهم على وقع قهقهات الآخرين، إلى أن باتوا بالكاد قادرين على الوقوف.

سمعوا جلبة قادمة من النافذة الصغيرة فوق حوض الغسيل، التي شقّوها حتى لا يتجمّع البخار في المطبخ، وأطلّ منها فجأة رأس فاتس.

«مرحبًا»، قال. لا بدّ أنّه تسلّق شيئا ما في الخارج، لأنّه إذ انبثق من النافذة تدريجيًا، سُمع صرير غرض ثقيل ينزلق ويسقط أرضًا في الخارج. قفز فاتس وهبط بكلّ وزنه على المجلى، موقعًا بعض الأكواب على الأرض حيث تحطّمت.

خرجت سوكفيندر مباشرة من المطبخ. شعر أندرو في الحال أنّه لم يكن يرغب في وجود فاتس معهم. وحدها غايا لم تبدُ آبهة على الإطلاق لوجوده. بادرته وهي لا تزال تضحك: «ربّما لستَ على علم، لكن هناك باب.»

«تمزحين، صحّ؟» أجاب. «أين المشروب؟»

«هذه لنا»، قالت غايا وهي تخفي زجاجة الفودكا بين ذراعيها. «آندي سلبها. عليك أن تحضر مشروبك بنفسك.»

«هذا لا يطرح أي مشكل»، أجاب فاتس بدون أن يمتعض، وخرج إلى القاعة.

«عليّ الذهاب إلى المرحاض...»، تمتمَت غايا. خبّأت زجاجة الفودكا في الخزانة تحت حوض الغسيل وخرجت بدورها.

تبعها آندرو. كانت سوكفيندر عادت إلى جوار البار، غايا اختفت في المرحاض. أمّا فاتس، فكان متّكئا إلى الطاولة، يمسك عبوة من البيرة بيد، وشطيرة باليد الأخرى.

«لم يخطر لي أنّك قد تودّ القدوم إلى مثل هذه المناسبة» قال آندرو.

«تلقّيت دعوة يا صديقي» أجاب فاتس. «كنت مدرجًا على بطاقة الدعوة. عائلة وول بالكامل.»

«هل يعرف أبو خزانة أنّك هنا؟»

«لست أدري، إنّه متوارٍ عن الأنظار. لم يحصل في نهاية المطاف على مقعد العمّ باري. النسيج الاجتماعيّ سوف ينهار برمّته في غياب أبو خزانة الذي كان يحافظ على تماسكه. تفه! غير معقول كم هذا مقرف!» أضاف وهو يبصق لقمة من الشطيرة التي تناولها. «تريد سيجارة؟»

كانت القاعة في هرج ومرج، والمدعوون في حالة من السكر البيّن، إلى حدّ لم يعد أحد يأبه لمعرفة أين يتوارى آندرو. خرجا فوجدا باتريسيا

موليسون وحيدة قرب سيّارتها السبورت، تتأمّل السماء الصافية المرصّعة بالنجوم وهي تدخّن.

«يمكنكما تناول سيجارة من هذه إن شئتما»، قالت وهي تمدّ لهما علبتها.

أشعلت لهما السيجارتين ووقفت بجانبهما بهدوء، غارزة يدها عميقًا في جيبها. فيها ما يوحي لآندرو بالرهبة. لم يجرؤ حتّى على إلقاء نظرة إلى فاتس لتقييم ردّ فعله.

«اسمي بات»، قالت لهما بعد وقت، «ابنة هاورد وشيرلي.»

«مرحبًا، أنا آندرو.»

«ستوارت»، قال فاتس بدوره.

لم تبدِ رغبة في مواصلة الحديث. بدا الأمر بمثابة إطراء لآندرو، الذي حاول أن يقلّد لامبالاتها. سمعوا فجأة وقع خطى وصوت فتيات مكتومًا.

خرجت غايا من القاعة تجرّ سوكفيندر بيدها، مقهقهةً. بوسع آندرو أن يرى أنّ الفودكا ما زالت تتفاعل في داخلها.

«هاي! أنتَ!» قالت غايا لفاتس، «أنت قليل الأدب حقًّا حيال سوكفيندر.»

«كفى»، قالت سوكفيندر، وهي تشدّ على يد غايا، محاولة التفلّت. «توقّفي، لست أمزح... دعيني...»

«بل هو كذلك!» صاحت لاهثة. «أنت دميم! ألست من يرسل أشياء على صفحتها على فيسبوك؟»

«توقّفي!» صرخت سوكفيندر. لوت يدها فتمكّنت من التحرّر من قبضة غايا، وعادت مسرعة إلى قاعة الحفل.

«أنت قميء فعلًا معها!» ردّدت غايا وهي تتمسّك بالسياج للحفاظ على توازنها. «تنعتها بالسحاقيّة وأمور أخرى...»

«لا ضير في أن تكون الفتاة سحاقيّة»، تدخّلت باتريسيا، مغمضة عينيها قليلًا خلف دخان السيجارة الذي كانت تستنشقه. «على الأقلّ بالنسبة إليّ.»

رأى آندرو فاتس ينظر بطرف عينه إلى بات.

«لم أقل يومًا أنّ في ذلك ضيرًا، كنت أمازحها، هذا كلّ ما في الأمر»، قال.

انزلقت غايا على السياج وجلست على الأرض الباردة، ممسكة رأسها بين يديها.

«هل أنت بخير؟» سألها آنـدرو. لو لم يكن فاتس هناك، لكان جلس أرضًا بجانبها.

«ثملة»، تمتمت.

«ستكونين أفضل حالًا ربّما إن وضعت إصبعيك في حلقك وتقيّأت»، اقترحت باتريسيا، وهي ترمق الفتاة بنظرة خالية من أيّ تعاطف.

«سيّارة جميلة»، قال فاتس متأمّلًا البي إم دبليو.

«أجل»، قالت باتريسيا. «إنّها جديدة. أجني ضعف ما يجنيه شقيقي، لكنّ مايلز هو الطفل يسوع. مايلز السيّد المسيح... عضو مجلس البلدة موليسون الثاني... من باغفورد. هل تحبّ باغفورد؟» سألت فاتس، فيما آندرو يراقب غايا تأخذ نفَسًا عميقًا، ورأسها بين ركبتيها.

«لا»، أجاب فاتس، «إنّها مزبلة.»

«حسنًا... شخصيًا، لم يسعني الانتظار حتّى أرحل من هنا. هل كنتَ تعرف باري فيربراذر؟»

«قليلًا»، أجاب فاتس.

لمس آندرو في صوته نبرة مقلقة.

«كان مرشدي المدرسيّ في سانت توماس»، روت باتريسيا، وعيناها تائهتان في نهاية الشارع. «شخص فاتن. كان بودّي حضور الجنازة، لكنّني كنت مع ميلي في زيرمات. ما هذه المسألة التي تتشدّق بها أمّي بدون توقّف؟... مسألة شبح باري؟»

«ثمّة من ينشر تعليقات على موقع مجلس البلدة الإلكتروني»، ردّ آندرو على وجه السرعة، بدون أن يترك مجالًا لفاتس للردّ، خوفًا ممّا يمكن أن يقوله. «شائعات وأخبار.»

«أجل، لا شكّ في أنّ أمّي تستمتع بهذه القصص»، قالت باتريسيا.

«أتساءل ما الذي يمكن أن يقوله الشبح بعد الآن؟» سأل فاتس، ملقيًا نظرة خاطفة إلى آندرو.

«الأرجح أنّه سيتوقّف الآن، بعدما انتهت الانتخابات»، تمتم آندرو.

«لا أدري، لست واثقًا»، قال فاتس. «إن كانت هناك مسائل لا يزال شبح العمّ باري ناقمًا عليها...»

هو يعلم أنّه يثير توتّر آندرو، وهذا ما يسرّه. فآندرو يقضي كلّ وقته في هذه الآونة في وظيفته التافهة، وسوف ينتقل من البلدة قريبًا. أصلًا هو لا يدين لآندرو بأيّ شيء. لا يمكن للأصالة الحقيقيّة أن تتعايش مع الإحساس بالذنب وبالواجب.

«هل أنت بخير؟» سألت باتريسيا غايا التي هزّت رأسها، ووجهها لا يزال مخبّأ خلف يديها. «ما الذي تسبّب لك بالغثيان؟ المشروب أم الأغنية؟»

ضحك آندرو ضحكة خفرة، من باب اللياقة، ولأنّه كان يودّ تحويل الحديث عن موضوع شبح باري فيربراذر.

«أنا أيضًا كدت أتقيّأ»، تابعت باتريسيا. «العجوز مورين ووالدي يغنيّان جنبًا إلى جنب، شابكين ذراعيهما.» مجّت باتريسيا مجّة أخيرة عميقة من سيجارتها، ثمّ رمت العقب أرضًا وسحقته بكعب حذائها. «باغتتهما في أحد الأيّام وهي تلعق قضيبه، حين كنت في الثانية عشرة من العمر. أعطاني يومها خمسة جنيهات حتّى لا أخبر أمّي.»

تسمّر آندرو وفاتس في ذهولٍ، بدون أن يتجرآ حتّى على النظر أحدهما إلى الآخر. مسحت باتريسيا وجهها بظهر يدها. كانت تبكي.

«اللعنة! لم يكن يجدر بي أن آتي إلى هنا»، قالت، «كنت أعرف ذلك.»

صعدت في البي إم دبليو، ووقف الفتيان يحدّقان إليها مشدوهين فيما أدارت المحرّك، عادت بالسيّارة إلى الخلف قليلًا، ثم انطلقت مسرعة في الليل.

«اللعنة! غير معقول!» قال فاتس.

«أعتقد أنّني سأتقيّأ»، همست غايا.

«السيّد موليسون يريدكَ أن تعود إلى القاعة... لتقديم المشروب.»

نقلت سوكفيندر الرسالة وعادت كالسهم إلى الداخل.

«لا أقوى...»، تمتمت غايا.

تركها آندرو ودخل. حين فتح باب القاعة، كاد الصخب المخيّم فيها يصمّه. كانت الموسيقى تزعق والاحتفال في ذروته. تنحّى جانبًا، مفسحًا المجال لأوبري وجوليا فاولي اللذين كانا يغادران. كانا يديران ظهرَيهما للحشد، ووجهاهما الصارمان يكشفان سرورهما بالرحيل.

لم تكن سامانثا موليسون ترقص، بل تقف مستندة إلى الطاولة حيث كانت صفوف من الكؤوس مرصوصة قبل وقت قصير. فيما كانت سوكفيندر تهرع في كلّ الاتّجاهات لجمع الكؤوس الفارغة، فتح آندرو الحزمة الأخيرة من الكؤوس النظيفة، صفّها وملأها.

«ربطة عنقك عوجاء»، قالت سامانثا. انحنت فوق الطاولة وقوّمتها له. فرّ آندرو إلى المطبخ مرتبكًا ما أن انتهت. كان يحتسي جرعة من زجاجة الفودكا التي سلبها كلّما وضع دفعة جديدة من الكؤوس في غسّالة الصحون. أراد أن يكون ثملًا مثل غايا. أراد أن يعود إلى تلك اللحظة التي كانا فيها يضحكان معًا بدون أن يتمالكا نفسيهما، قبل أن يظهر فاتس.

تفقّد طاولة المشروب مجدّدًا بعد عشر دقائق، فوجد سامانثا لا تزال متّكئة إليها، تحملق في الفراغ بعينين كابيتين. لم يكن عليها سوى أن تمدّ يدها للاختيار من بين الكؤوس الطافحة الجديدة أمامها. كان هاورد ينطنط في وسط حلبة الرقص، والعرق يتصبّب من وجهه. قالت له مورين شيئا، فانفجر بالضحك. شقّ آندرو طريقه وسط الجموع وخرج من جديد.

لم يرهما في بادئ الأمر، ثمّ لمحهما. كانت غايا وفاتس مستندين إلى السياج، متلاصقين، وجسداهما متشابكان، يتبادلان القبلات الحارّة ولساناهما يتداخلان.

«اسمع، إنّني متأسّفة، لكن لا يمكنني القيام بكلّ شيء وحدي»، قالت سوكفيندر يائسة من خلفه. ثمّ لمحت بدورها فاتس وغايا، فشهقت. عاد آندرو معها إلى القاعة، مصعوقًا تمامًا. عند دخوله المطبخ، سكب ما تبقّى في زجاجة الفودكا في كأس وابتلعه دفعة واحدة. ملأ حوض الغسيل في حركة تلقائيّة بدون تفكير، وباشر غسل الأكواب التي لا يمكن حشرها في غسّالة الصحون.

مفعول الكحول لم يكن مثل مفعول الحشيشة، فهو يجعله يشعر بنفسه خاويًا، لكنّه يشعل فيه رغبة جامحة في ضرب أحدٍ ما. فاتس، على سبيل المثال.

تنبّه بعد وهلة إلى أنّ عقارب ساعة الحائط البلاستيكيّة المعلّقة في المطبخ قد انتقلت من منتصف الليل إلى الساعة الواحدة، وأنّ المدعوّين بدأوا يغادرون.

كان يفترض به أن يعيد إليهم معاطفهم. حاول القيام بذلك، لكنّه بعد وهلة انسلّ عائدًا إلى المطبخ، تاركًا سوكفيندر تهتمّ بالأمر.

كانت سامانثا مستندة إلى البرّاد، وحيدة، وبيدها كأس. كان آندرو يبصر ما يحيط به بشكل متقطّع، غريب، وكأنّه يرى سلسلة من اللقطات المتعاقبة. لم تعد غايا. لا شكّ في أنّها غادرت منذ وقت مع فاتس. سامانثا كانت تكلّمه. هي أيضًا ثملة. لم تعد تربكه. أحسّ بأنّه على وشك أن يتقيّأ.

«... لم أعد أحتمل باغفورد اللعينة...» قالت سامانثا. «لكنّك أنت شابّ، ما زال بوسعك الرحيل من هنا.»

«أجل»، أجاب، من غير أن يشعر بشفتيه. «وهذا ما سأفعله. هذا ما سأفعله.»

أزاحت خصلات شعره عن جبينه وقالت له إنّه قمّور. صورة غايا تقبّل فاتس غارزةً لسانها في فمه سيطرت عليه، حاجبة كلّ ما تبقّى. بوسعه أن يشتمّ عطر سامانثا يتصاعد مثل أمواجٍ من بشرتها الحارّة.

«هذه الفرقة خراء» قال مشيرًا إلى صدرها، لكن لم يتهيّأ له أنّها سمعته. شفتاها كانتا متشقّقتين وحارّتين ونهداها منتفخين عارمين حين ضغطتهما على صدره. ظهرها عريض مثل...

«ما الذي يجري هنا؟ اللعنة!»

دُفِع آندرو فارتمى على المجلى، فيما قام رجل ضخم ذو شعر رماديّ قصير بجرّ سامانثا خارج المطبخ. شعر آندرو بشكل مبهم أنّ سوءًا ما قد وقع، لكنّ الأمور اختلطت عليه بشكل متزايد، جعل يترنّح بغرابة، إلى أن لم يعد أمامه سوى أن يقطع الغرفة متعثّرًا نحو سلّة النفايات ليتقيّأ كلّ ما في أحشائه.

«عفوًا، لا يمكنكم الدخول!» سمع سوكفيندر تقول لأحد. «ثمّة أغراض مستوفة خلف الباب!»

أغلق كيس النفايات على قيئه وربطه بإحكام. ساعدته سوكفيندر على تنظيف المطبخ. تقيّأ مرّتين أخريين، لكنّه تمكّن من الوصول إلى الحمّام.

كانت الساعة أوشكت على الثانية صباحًا حين شكرهما هاورد، وهو يعصر عرقًا لكنّه باسم الوجه، واستودعهما.

«عمل ممتاز»، قال. «أراكما في الغد إذًا. عملٌ... بالمناسبة، أين الآنسة بودين؟»

ترك آندرو لسوكفيندر مهمّة ابتكار كذبة. خرج إلى الشارع، ففكّ السلسلة عن درّاجة سايمون وجرّها مبتعدًا في الليل.

ساعده المشي طوال المسافة البعيدة إلى منزله في البرد على تصفية أفكاره، لكنّه لم يخفّف من حدّة مرارته وتعاسته.

هل قال مرّة لفاتس إنّ غايا تعجبه؟ ربّما لم يبح له بذلك، لكنّ فاتس كان يعلم بالأمر. هو يعرف أنّ فاتس يعلم... أتراهما يتضاجعان في تلك الحظة بالذات؟ ربّما...

في مطلق الأحوال، سأنتقل من هنا، قال في نفسه، حانيًا ظهره وهو يرتعش من البرد، ودافعًا الدرّاجة صعودًا على التلّة. ليذهبوا كلّهم إلى الحجيم إذًا...

ثمّ قال لنفسه: من الأفضل أن أنتقل... هل قبّل للتوّ والدة ليكسي موليسون؟ هل لامسها؟ هل كان زوجها من دخل عليهما؟ هل حصل كلّ هذا فعلًا؟

كان خائفًا من مايلز، لكن بودّه في الوقت نفسه أن يخبر فاتس ما حصل، أن يرى وجهه حين يعلم...

حين دخل المنزل منهكًا، سمع صوت سايمون ينبثق في العتمة من المطبخ.

«هل أدخلت درّاجتي إلى المرأب؟»

كان جالسًا إلى طاولة المطبخ، يتناول كوبًا من الحبوب المقرمشة. الساعة حوالى الثانية والنصف صباحًا.

«لم يكن بوسعي النوم»، أوضح سايمون.

لمرّة، لم يكن غاضبًا. لم تكن روث في المنزل، وبالتالي لم يكن مضطرًا لأن يثبت لها أنّه أقوى من ابنيه أو أذكى منهما. بدا مرهقًا وصغير القامة.

«أعتقد أنّنا سنضطرّ إلى الانتقال إلى ريدينغ، وجه البيتزا»، قال سايمون. في تلك الليلة، بدا لهذا اللقب وقع التحبّب.

وقف آندرو يرتعش قليلًا. كان تحت وقع الصدمة. شعر بنفسه كهلًا، رازحًا تحت شعور هائل بالذنب. أراد أن يعوّض لوالده عمّا فعله به. حان الوقت لتسوية الأمور وكسب سايمون إلى جانبه حليفًا له. إنّهم عائلة واحدة، وسوف ينتقلون معًا من البلدة. ربّما تكون الأمور أفضل في مكان آخر.

«هناك أمر أريدك أن تراه»، قال. «تعال معي. اكتشفت في المدرسة طريقة القيام بذلك...»

تقدّم والده إلى الكمبيوتر.

4

امتدّت السماء الزرقاء مثل قبّة متّشحة بالضباب فوق باغفورد والحقول. طلع الفجر وسكب نوره على نصب الحرب الحجريّ في ساحة البلدة وواجهات المباني المتشقّقة في شارع فولي، وكسا جدران هيلتوب هاوس البيضاء بوهج ذهبيّ باهت. صعدت روث برايس في سيّارتها للذهاب إلى المستشفى حيث ينتظرها دوام عمل جديد طويل. نظرت إلى الأسفل، إلى نهر أور يتلألأ مثل شريط فضيّ في البعيد، وتملّكها إحساس فادح بالظلم. لم يكن عدلًا أن يصبح منزلها، والمشهد المحيط به ملكًا لشخص آخر عمّا قريب.

على مسافة ميل من هناك، في شارع تشيرتش روو، كانت سامانثا موليسون لا تزال مستغرقة في نوم عميق في غرفة الضيوف. لم يكن هناك قفل على الباب، لكنّها أحكمته بواسطة أريكة جرّتها إليه قبل أن تنهار على السرير بدون أن يتسنّى لها خلع ملابسها بالكامل. بلبلت نومها بوادر صداع

شديد، واخترقت بقع النور المتسرّبة من الفتحة بين الستائر طرف إحدى عينيها مثل شعاع لايزر. تشقلبت قليلًا، وهي تشعر بفمها جافًا في سباتها الخفيف المضطرب المسكون بأحلام غريبة ملؤها الذنب.

في الطبقة السفليّة، جلس مايلز في المطبخ مستقيمَ القعدة، وحيدًا وسط المساحات الناصعة اللمّاعة، وأمامه كوب من الشاي لم يمسّه، يحدّق إلى البرّاد ويستعيد في ذهنه تلك اللحظة اللتي ضبط فيها زوجته ثملة بين ذراعي تلميذ في السادسة عشرة من العمر.

على مسافة ثلاثة منازل، تمدّد فاتس في غرفة نومه، بالملابس التي ارتداها للذهاب إلى حفل عيد ميلاد هاورد موليسون. أراد أن يسهر الليل بكامله، وهو ما فعله. فمه خدر بعض الشيء ويخزه من كثرة ما دخّن. كان منهكًا، لكنّه لم يتوصّل إلى النتيجة المرجوّة: فإن كان عاجزًا عن استجماع أفكاره وترتيبها، إلّا أنّ إحساسه بالتعاسة والضيق لا يزال حادًّا طاغيًا.

استيقظ كولين يتصبّب عرقًا من أحد الكوابيس التي تراوده منذ سنوات. أحلامه مسكونة دائمًا بأفعال فظيعة يقترفها، من نوع الأفعال التي قضى حياته بالكامل يخشاها. هذه المرّة، قتل باري فيربراذر، والشرطة كشفت الأمر للتوّ، وجاءت تبلغه بأنّها على علم بفعلته وأنّها نبشت جثّة باري ووجدت السمّ الذي دسّه كولين له.

محدّقًا إلى الظلّ الأليف الذي يلقيه المصباح على سقف الغرفة، تساءل كولين كيف لم يخطر له يومًا أن يكون هو مَن قتل باري، ليفرض سؤال نفسه عليه على الفور: كيف تعرف بيقين أنّك لم تفعل؟

في الأسفل، كانت تيسا تغرز حقنة الإنسولين في معدتها. تعلم أنّ فاتس عاد إلى المنزل في الليلة السابقة، لأنها تشتمّ رائحة سجائر عند أسفل الأدراج المؤدّية إلى غرفته في العليّة. لا تدري أين قضى السهرة والساعة التي عاد فيها إلى المنزل، وهذا ما يخيفها. كيف وصلت الأمور إلى هذا الحدّ؟

كان هاورد موليسون غارقًا في نوم هنيء في سريره المزدوج. الستائر المعرّقة تغلّفه بوشاح رقيق من بتلات الأزهار الورديّة وتحميه من صحوة فجّة. غير أنّه كان يشخر، مطلقًا صفيرًا وحشرجات أيقظت زوجته. كانت شيرلي

تتناول شرائح خبز محمّصة وكوبًا من القهوة في المطبخ، وقد وضعت نظّارتَيها وارتدت مبذلها القطنيّ المطرّز. استرجعت مشهد مورين، تترنّح مع هاورد شابكة ذراعها بذراعه في قاعة كنيسة البلدة، فعصف بها حقد كثيف طاغٍ خطف الطعم من كلّ لقمة تبلعها.

في منزل سميثيز، على مسافة بضعة كيلومترات خارج باغفورد، كان غافين هيوز يأخذ دوشًا ساخنًا، متسائلًا لماذا لم يجد في نفسه في أيّ يوم من الأيّام، تلك الشجاعة التي يمتلكها الرجال الآخرون. كيف يمكنهم القيام بالخيار الصائب، في مواجهة احتمالات تكاد تكون لامتناهية؟ هو يتوق بكلّ جوارحه إلى حياة تراءت له من غير أن يذوق طعمها، لكنّ الخوف يكبّله. الاختيار ينطوي دائمًا على خطورة، لأنّ إقدام المرء عليه، يعني تخلّيه عن كلّ الاحتمالات المتبقّية.

في شارع هوب، كانت كاي بودين مستيقظة تتمدّد متعبة في السرير، تنصت للهدوء المخيّم على باغفورد في الصباح الباكر. كانت تنظر إلى غايا النائمة بجانبها في سريرها المزدوج، شاحبة ومنهكة في نور الفجر. كان هناك دلو على الأرض قرب غايا، وضعته كاي التي ساندت ابنتها وعادت بها من الحمّام إلى غرفة النوم في ساعة مبكرة، بعدما رفعت شعرها طوال ساعة حتّى لا يتدلّى في كرسيّ المرحاض.

«لماذا أرغمْتِنا على المجيء إلى هنا؟» انتحبت غايا وهي تغصّ وتختنق وتتقيّأ. «ابتعدي عنّي! اتركيني! اللعنة... أكرهك!»

تأمّلت وجه ابنتها في نومها، وتذكّرت الطفلة الصغيرة الرائعة التي كانت ترقد بجانبها قبل ستة عشر عامًا. تذكّرت الدموع التي ذرفتها غايا حين انفصلت كاي عن ستيف، رفيقها الذي عاش معهما على مدى ثماني سنوات. كان ستيف يشارك في اجتماعات ذوي التلاميذ في مدرسة غايا، وهو الذي علّمها كيف تركب الدرّاجة. تذكّرت كاي الحلم الذي راودها في يومٍ من الأيّام. بدا لها اليوم عبثيًّا، تمامًا مثل أمنية غايا حين كانت في الرابعة من العمر وطالبت بالحصول على حصان ذي قرن. كانت تحلم بأن تستقرّ مع غافين وتؤمّن أخيرًا لغايا عمًّا يعيش معهما بصورة دائمة، ومنزلًا جميلًا في

الريف. كانت تطمح يائسة إلى حياة شبيهة بنهايات قصص الأطفال، حياة ترغب غايا بالعودة إليها. كانت كاي تشعر باللحظة التي ستغادر فيها ابنتها تدنو منها بسرعة نيزك، وتتوقّع أن يكون رحيلها أشبه بكارثة تحطّم عالمها.

مدّت كاي يدها تحت اللحاف وأمسكت بيد غايا. عند ملامسة ذلك الجسد الدافئ الذي أنجبته مصادفةً إلى هذا العالم، انهمرت دموع كاي، وراحت تبكي بصمت ولكن بعنف هزّ الفراش من تحتها.

عند أسفل تشيرتش روو، ارتدت بارميندر جاواندا معطفًا فوق ملابس نومها وخرجت تتناول قهوتها في حديقة المنزل الخلفيّة. جالسة على مقعد خشبيّ في أشعّة الشمس الباردة في مثل هذا الوقت المبكر، رأت في الجوّ بوادر يوم رائع، غير أنّ شيئًا ما كان يقف حاجزًا بين عينيها وقلبها. العبء الذي يثقل صدرها كان يرخي بظلاله على كلّ ما يحيط بها، فيكبو ويبهت.

لم تُفاجأ بخبر فوز مايلز موليسون بمقعد باري في مجلس البلدة، لكنّ رؤية الإعلان الصغير المتأنّق الذي نشرته شيرلي على موقع المجلس، أشعلت فيها مجدّدًا شرارة من ذلك الجنون الذي تملّكها خلال الاجتماع الأخير. شعرت برغبة شرسة في شنّ هجوم، أعقبها على الفور يأس أطبق على صدرها.

«سوف أستقيل من المجلس»، قالت لفيكرام. «لا جدوى من وجودي فيه.»

«لكنّك تحبّين عملك في المجلس»، أجابها.

أحبّت المشاركة في المجلس حين كان باري هناك أيضًا. تلك الصبيحة الهادئة الصامتة تدعو إلى استحضار ذكراه. رجل أصهب اللحية قصير القامة، تتجاوزه طولًا بحوالى شبر. لم تشعر يومًا بمطلق جاذب جسديّ حياله. ما هو الحبّ في مطلق الأحوال؟ فكّرت بارميندر، وهي تستقبل النسمات الصباحيّة اللطيفة، مِنصتةً لحفيف أشجار السرو العالية التي تسيّج البستان الخلفيّ الشاسع لمنزل آل جاواندا. أهو حبّ، حين يملأ شخصٌ ما مساحة في حياتك، ثمّ يخلّف وراءه فراغًا هائلًا بعد أن يرحل؟

الأكيد هو أنّني أحببت الضحك، فكّرت بارميندر. اشتقت حقًّا إلى ذلك. أن أضحك.

ذكرى ضحكاتها تلك هي التي جعلت دموعها المحبوسة تنهمر أخيرًا من عينيها، لتسيل على أنفها وتسقط في فنجانها حيث أحدثت فجوات صغيرة على سطح القهوة سرعان ما تبدّدت. كانت تبكي لأنّه يتهيّأ لها أنّها لم تعد تضحك، ولأنّه في الليلة الماضية، فيما كانت تصلهم أصداء الموسيقى المتصاعدة من قاعة الكنيسة الجذلة في البعيد، قال لها فيكرام: «ما رأيك لو نزور أمريتسار هذا الصيف؟»

المعبد الذهبيّ، قدس أقداس الديانة التي لا يبالي بشأنها في العادة. حزرت على الفور ما كان يحاول القيام به. ها هو الوقت يرخي مساحاته الفارغة المديدة أمامها كما لم يفعل من قبل. لم يكن أيّ منهما يعلم ما سيكون قرار نقابة الأطبّاء بشأنها، بعد النظر في المخالفة التي ارتكبتها حين انتهكت أخلاقيّات المهنة حيال هاورد موليسون.

«تقول مانديب إنّ أمريتسار ليس سوى فخٍّ كبيرٍ لاصطياد السيّاح»، ردّت، رافضة المشروع على الفور.

لماذا قلت هذا؟ تساءلت بارميندر، وهي تجلس في الحديقة ودموعها تسيل بغزارة على وجنتيها، فيما فنجان القهوة يبرد في يدها من غير أن تعيره اهتمامًا. فكرة جيّدة أن نصطحب الأولاد لاكتشاف أمريتسار. كان يحاول ملاطفتي. لماذا رفضت؟

انتابها إحساس مبهم بأنّها ارتكبت خيانة برفضها زيارة المعبد الذهبيّ. تراءت لها صورته تغشّيها دموعها، قبّته الشبيهة بزهرة اللوتس تنعكس على صفحة المياه، وتتوهّج عسليّة على خلفيّة الرخام الناصع البياض.

«أمّي!»

كانت سوكفيندر عبرت الحديقة بدون أن تتنبّه لها بارميندر. ظهرت أمامها ترتدي بنطالًا جينزًا وقميصًا قطنيًا فضفاضًا. سارعت بارميندر إلى مسح الدموع عن وجهها وأرخت جفنيها لتنظر إلى سوكفيندر الواقفة والشمس من خلفها.

«لا أريد الذهاب إلى العمل اليوم.»

جاء ردّ بارميندر على الفور، نابعًا من روح التناقض ذاتها التي جعلتها ترفض اقتراح زيارة أمريتسار. «لقد التزمْتِ، سوكفيندر.»

«لكنّني لست على ما يرام.»

«تعنين أنّك متعبة. أنت مَن أردت هذه الوظيفة. والآن عليك الوفاء بالتزاماتك.»

«لكن...»

«أنتِ ذاهبة إلى العمل»، حسمت بارميندر بحزم، وكأنّها تصدر حكمًا مبرمًا، «لن تعطي آل موليسون ذريعة أخرى للتشكّي.»

شعرت بارميندر بالذنب بعدما دخلت ابنتها إلى المنزل. كادت تناديها، لكنّها امتنعت عن ذلك، مكتفية بمعاهدة نفسها بأن تحاول إيجاد بعض الوقت لتجالسها وتحادثها بدون الدخول في شجار معها.

5

كانت كريستال تسير في شارع فولي في نور الصباح الباكر، تأكل موزة. كان لذلك طعم وإحساس في فمها غير معهودين، ولم تتمكّن من معرفة ما إذا كانت الموزة تعجبها أم لا. لم يسبق أن اشترت هي وتيري فاكهة.

طردتها والدة نيكي من المنزل بدون أن تكلّف نفسها عناء المجاملات.

«لدينا ما نفعله كريستال»، قالت لها. «إنّنا ذاهبون لتناول العشاء في منزل جدّي نيكي.»

لكنّها استدركت وناولت كريستال الموزة محلّ الفطور. غادرت كريستال بدون أن تحتجّ. بالكاد كانت طاولة المطبخ تتّسع لعائلة نيكي.

لم يكن نور الشمس يلطّف من مظهر حيّ الحقول، بل يفضح ما فيه من قذارة وإهمال وتلف، كاشفًا الشقوق في جدران الإسمنت، والنوافذ المُخلّعة والنفايات المرميّة في كلّ مكان.

في المقابل، كانت ساحة باغفورد تبدو مطليّة حديثًا كلّما لامستها أشعّة الشمس. مرّتين في السنة، كان تلاميذ المدرسة الابتدائيّة يسيرون في الصفّ، عابرين وسط البلدة، في طريقهم إلى الكنيسة لحضور قدّاس عيد الميلاد وعيد الفصح. (لم يشأ أيّ من الأولاد يومًا أن يمسك يد كريستال، بعدما قال لهم فاتس إنّ شعرها يغصّ بالقمل. ترى هل يذكر ذلك؟) كانت هناك سلال معلّقة تتدلّى منها الأزهار في بقع أرجوانيّة، زهريّة وخضراء. وكلّما كانت كريستال تعبر أمام أحد الأحواض المزهرة المصفوفة أمام حانة «الراهب الأسود»، تقتلع بضع بتلات نضرة تنزلق مخمليّة بين أصابعها، لكنّها سرعان ما تذوي في قبضتها وتتحوّل إلى كتلة دبقة قاتمة، تلصقها في غالب الأحيان على جانب مقعد خشبيّ دافئ في كنيسة سانت مايكل.

فتحت باب المنزل ودخلت. أيقنت على الفور من خلال الباب المفتوح إلى يمينها، أنّ تيري لم تأوِ إلى فرشها. كانت جالسة في أريكتها، مغمضة العينين وفاغرة الفم. صفقت كريستال الباب، لكنّ تيري لم تتحرّك.

قطعت كريستال مسرعة الخطى الأربع التي تفصلها عن والدتها، وبلمح البصر كانت بجانبها. هزّت ذراعها النحيلة، فهوى رأسها فوق صدرها الضامر وأطلقت شخيرًا.

تركت كريستال ذراعها، بعد أن تراجعت صورة الرجل الميت في المغطس التي كانت طفت إلى ذهنها أمام مشهد والدتها.

«عاهرة حمقاء»، قالت. ثمّ تنبّهت إلى عدم وجود روبي. تسلّقت الدرج بأسرع ما أمكنها وهي تناديه.

«هنا»، سمعته يقول من خلف باب غرفة نومها الموصد.

خلعت الباب بكتفها، فرأت روبي واقفًا في الغرفة عاريًا. خلفه كان أوبو ممدّدًا على فراشها، يحكّ صدره العاري.

«أنت بخير كريس؟» قال موجّهًا لها ابتسامة عريضة.

أمسكت روبي وجرّته إلى غرفته. كانت يداها ترتجفان إلى حدّ أنّها استغرقت وقتًا بدا لها دهرًا لوضع ثياب له.

«هل فعل لك شيئًا؟» سألت روبي همسًا.

«جائع»، قال.

حين ألبسته ثيابه بالكامل، حملته وهرعت به إلى الطبقة السفليّة. كان بوسعها سماع أوبو يتنقّل في الغرفة فوق رأسها.

«ماذا يفعل هنا؟» صاحت بتيري التي استيقظت، لكنّها بقيت مرتمية خدرةً في أريكتها. «لماذا كان مع روبي في الغرفة؟»

راح روبي يتخبّط للتفلّت من ذراعيها. هو يكره الزعيق.

«وما هذا؟ اللعنة!» صاحت كريستال بعدما لمحت للتوّ كيسين أسودين على الأرض قرب أريكة تيري.

«لا شيء»، أجابت تيري بشكل مبهم.

لكنّ كريستال لم تنتظر الردّ، بل فتحت أحد الكيسين.

«هذا لا شيء!» صرخت تيري.

كان الكيس يحوي رزمًا من الحشيشة على شكل أحجار من الآجر، مغلّفة بعناية بأوراق من البلاستيك. حتّى كريستال التي بالكاد يمكنها التعرّف إلى نصف الخضروات المعروضة في السوبرماركت، ولا تستطيع أن تذكر اسم رئيس الحكومة، كانت تعلم أنّ محتوى الكيس يمكنه أن يرسل والدتها إلى السجن في حال تمّ ضبطه في المنزل. ثمّ رأت العلبة المعدنيّة الصغيرة، وعلى غطائها العربة وخيولها الأربعة والسائق، نصفها بارز من أريكة تيري.

«حقنتِ نفسك»، قالت كريستال مقطوعة الأنفاس. أحسّت بكارثة تطبق عليها، تهبط على كلّ ما حولها، فينهار كلّ شيء. «اللعنة عليك! حقنتِ...»

سمعَت خطى أوبو ينزل الأدراج، انتشلت روبي مجدّدًا وهو يئنّ ويتخبّط بين ذراعيها، مذعورًا من عنف غضبها، لكنّها تشبّثت به بقوّة فلم يستطع فكّ ذراعيها عنه.

«دعيه، اللعنة!» صاحت تيري بدون نتيجة. فتحت كريستال باب المدخل وفرّت بأسرع ما أمكنها عائدة إلى الشارع، وهي تحمل روبي الذي كان يقاوم ويئنّ، معيقًا حركتها.

6

أخذت شيرلي دوشًا وأخرجت ملابسها من خزانتها، بينما هاورد يشخر في نومٍ عميق. سمعت جرس كنيسة سانت مايكل وجميع القدّيسين يعلن صلاة الساعة العاشرة، فيما هي تبكّل أزرار معطفها. لطالما فكّرت في وقع جرس الكنيسة على آل جاواندا المقيمين في الجهة المقابلة مباشرة. لا بدّ أنّه يحدث صخبًا فظيعًا. كانت تأمل أن يصعقهم مثل إعلانٍ عالٍ وواضح، يجاهر بتمسّك باغفورد بعادات وتقاليد قديمة من الواضح بجلاء مطلق أنّهم دخلاء عليها.

عبرت شيرلي تلقائيًّا الممشى، دخلت غرفة نوم باتريسيا القديمة وجلست أمام الكمبيوتر. كان هذا ما تفعله على الدوام، من غير أن تفكّر حتّى.

كان من المفترض أن تكون باتريسيا نائمة هنا، على الأريكة التي أعدّتها لها شيرلي. شعرت شيرلي بالانفراج لعدم اضطرارها إلى التعامل معها هذا الصباح. لم يلاحظ هاورد في المساء غياب باتريسيا إلّا عندما أدخلت شيرلي المفتاح في قفل باب المدخل. كان لا يزال يغنّي «عشب بلدتي الأخضر» حين وصلا إلى «آمبلسايد» في ساعات الفجر الأولى.

«أين بات؟» سأل مصفرًا، متّكئًا إلى عمود السقيفة.

«آه، كانت مستاءة لأنّ ميلي لم تشأ مرافقتها»، قالت شيرلي متنهّدة. «وقع شجار بينهما، أو ما يشابه... أعتقد أنّها عادت إلى المنزل لتحاول أن تصلح الأمور بينهما.»

«هناك على الدوام تطوّرات جديدة مع هذه الفتاة»، قال هاورد وهو يتهاوى من جدار إلى آخر على جانبَي الممرالضيّق، متقدّما بحذر نحو غرفة النوم.

فتحت شيرلي موقعها الطبيّ المفضّل. ما أن نقرت الحرف الأوّل من الحالة التي تودّ تقصّيها، حتّى عرض الموقع مجدّدًا شرحه لحقن «إيبي-بن»، فاغتنمت شيرلي الفرصة لتراجع بشكل سريع استخدامها ومحتواها، تحسّبا لأيّ طارئ قد يتطلّب منها ذات يوم إنقاذ حياة ذلك الصبيّ العامل لديهما. ثمّ نقرت

بعناية كلمة «إكزيما». خاب أملها بعض الشيء حين علمت أن هذه الحالة غير معدية، وأنّه لن يكون بوسعها استخدامها حجّةً لطرد سوكفيندر جاواندا.

بعد ذلك، نقرت بدافع العادة عنوان موقع مجلس بلدة باغفورد وضغطت على لوح الرسائل.

باتت تميّز من اللمحة الأولى اسم المستخدم «شبح- باري- فيربراذر». تعرفه مباشرة من شكل أحرفه وطوله، مثل عاشق متيّم يميّز محبوبته من بين الآخرين من مؤخّر رأسها، أو انحناءة كتفيها، أو تمايل مشيتها.

منذ نظرتها الأولى السريعة إلى عنوان الرسالة، شعرت شيرلي بدمها يغلي إثارة. الشبح لم يتخلَّ عنها. كانت على ثقة بأنّ الدكتورة جاواندا لن تنجو بنوبة الغضب تلك التي فجّرتها.

العلاقة التي يقيمها مواطن باغفورد الأوّل

قرأت الرسالة، لكنّها لم تفهم للوهلة الأولى. كانت تتوقّع أن ترى اسم بارميندر. عاودت القراءة، وأطلقت شهقة مخنوقة، وكأنّ مياهًا مثلجة انهمرت عليها.

هاورد موليسون، المواطن الأوّل في باغفورد، وموررين لوو، المقيمة في البلدة منذ الأزل، هما منذ سنوات مديدة أكثر من مجرّد شريكي عمل. فمن المعروف أنّ مورين تقيم بانتظام حفلات تذوّق لأفخر الأنواع من سلامي هاورد. الشخص الوحيد الغافل كليًّا عن الأمر على ما يبدو هو شيرلي، زوجة هاورد.

بقيت شيرلي مسمّرة بلا حراك في كرسيّها، تقول لنفسها: هذا غير صحيح.

لا يعقل أن يكون هذا صحيحًا.

حسنًا، ساورتها شكوك مرّة أو مرّتين... قامت أحيانًا بتلميحات في اتّجاه هاورد...

لكن لا، لن تصدّق هذا. لا يمكنها أن تصدّق مثل هذا الأمر.

لكنّ الآخرين قد يصدّقونه. سوف يصدّقون الشبح. الجميع يصدّقه.

كانت يداها ترتجفان مرتبكتين مثل قفّازين فارغين، وهي تجهد متعثّرة لإزالة الرسالة عن الموقع. في كلّ ثانية تبقى منشورة على اللوح، يزداد احتمال أن يقرأها أحد، يصدّقها، يضحك ساخرًا وينقلها إلى الصحيفة المحليّة... هاورد ومورين... هاورد ومورين...

ها إنّ الرسالة غابت عن الموقع. جلست شيرلي تتأمّل شاشة الكمبيوتر، وأفكارها تتصادم مثل فئران عالقة في إناء زجاجيّ، تحاول الفرار يائسة. لا مخرج ولا دولاب نجاة تتمسّك به، لا مجال للعودة إلى واحة السعادة تلك التي كانت هانئة فيها قبل أن تقرأ هذه الرسالة المريعة المنشورة في العلن، معروضة على أعين الجميع...

حين تفكّر أنّه كان يسخر من مورين!

لا، بل كانت هي التي تسخر من مورين. هاورد كان يسخر من كينيث.

معًا على الدوام، في أيّام الإجازة وأيّام العمل، وفي نزهات نهايات الأسبوع...

... الشخص الوحيد الغافل كليًّا عن الأمر على ما يبدو...

... هي وهاورد لم يشعرا بالحاجة إلى حياة جنسيّة بينهما. ناما لسنوات في سريرَين منفصلين. كان ثمّة تفاهم ضمنيّ بينهما...

... تقيم بانتظام حفلات تذوّق لأفخر الأنواع من سلامي هاورد...

(كانت والدة شيرلي حيّة هنا، في الغرفة معها، تثرثر وتقهقه مستهزئة، وهي تحمل كأسًا يندلق منها النبيذ... لا يمكن لشيرلي أن تحتمل الضحكات القذرة. لم تحتمل يومًا البذاءة ولا السخرية.)

وثبت ناهضةً فجأة، فتعثرت بقوائم الكرسيّ، وهرعت عائدة إلى غرفة النوم. كان هاورد لا يزال نائمًا، ممدّدًا على ظهره، يصدر قرقرات وحشرجات صاخبة كالخنزير.

«هاورد،» نادته. «هاورد!»

مضت دقيقة كاملة قبل أن تتمكّن من إيقاظه. فتح عينيه أخيرًا، مشوّش البال وتائهًا. لكنّها، وهي تقف أمامه، كانت لا تزال ترى فيه، رغم كلّ شيء، فارس أحلامها الذي يحميها، فارسها القادر على إنقاذها.

«هاورد، شبح باري فيربراذر نشر رسالة جديدة.»

جَفِلًا ومستاء للاستيقاظ بهذه الطريقة رغمًا عنه، أصدر هاورد همهمة مبهمة، خنقتها الوسادة التي لا يزال وجهه مطمورًا فيها.

«عنْكَ أنت»، أضافت شيرلي.

نادرًا ما كانا يتكلّمان بشكل صريح في ما بينهما. لطالما أرتاحت إلى ذلك، لكنّها اليوم مرغمة على الخروج عن هذا التفاهم الضمنيّ المعقود بينهما.

«عنكَ أنت»، كرّرت، «وعن مورين. يقول إنّكما... إنّكما على علاقة غراميّة.»

مسح وجهه بيده الضخمة وفرك عينيه. فركهما لوقت أطول مّما يحتاج إليه برأي شيرلي.

«ماذا؟» سأل، وهو لا يزال يخفي وجهه بيده.

«أنت ومورين، أنّكما على علاقة غراميّة.»

«ومن أين أتى بهذا الخبر؟»

لم ينكر، لم يغضب، لم يقهقه ضاحكًا. مجرّد سؤال مرتاب عن مصدر هذه المعلومات.

سوف تذكر شيرلي طوال ما تبقّى من حياتها هذه اللحظة كما لو أنّها لحظة موت؛ لحظةٌ انتهت فيها حياة إلى دون رجعة.

7

«اصمت روبي، اللعنة! اصمت!»

كانت كريستال جرّت روبي إلى موقف حافلات على مسافة بضعة شوارع، بحيث لا يعثر عليهما أوبو ولا تيري. لم تكن واثقة بامتلاك ما يكفي من النقود لدفع ثمن الرحلة، لكنّها كانت مصمّمة في مطلق الأحوال على الوصول إلى باغفورد. نانا كاث رحلت، السيّد فيربراذر رحل، لكنّ فاتس وول هنا، ولا بدّ لها أن تنجب طفلًا.

«ماذا كان يفعل في الغرفة معكَ؟» صاحت كريستال بروبي الذي أنشج باكيًا من غير أن يردّ.

كانت بطارية هاتف تيري الجوّال على وشك أن تفرغ. اتّصلت كريستال برقم فاتس، لكنّها أُحيلَت على صندوق البريد الصوتيّ.

في شارع تشيرتش روو، كان فاتس منهمكًا في التهام شطائر، وهو يستمع إلى والديه في المكتب، في الجانب المقابل من الممشى، مسترسلين في أحد أحاديثهما الغريبة المعهودة. كان مستمتعًا بهذا التمويه، إذ يلهيه عن الأفكار التي تجول في باله. ارتجّ الهاتف الجوّال في جيبه، لكنّه لم يردّ. لا يودّ التكلّم مع أيّ كان. بالتأكيد ليس آندرو مَن يتّصل به. لن يتّصل به بعد ما حدث في الليلة الماضية.

«كولين، تعلم جيّدًا ما يفترض بك أن تفعل»، قالت والدته التي بدت منهكة. «أرجوك، كولين...»

«تناولنا العشاء معهم مساء السبت. عشيّة وفاته. أعددت الطعام بنفسي. ماذا لو...»

«كولين، لم تدسّ شيئا في الطعام... بالله عليك! إنّك تقحمني في مواقف... ليس من المفترض بي أن أفعل هذا كولين، تعرف جيّدًا أنّه لا يفترض بي أن أتدخّل في مثل هذا الموقف. هذا وسواسك يتكلّم.»

«لكن من المحتمل أن أكون فعلتها تيس. خطرت لي الفكرة فجأة. ماذا لو دسست شيئا...»

«عندها كيف تفسّر أنّنا ما زلنا على قيد الحياة، أنت وأنا وماري؟ لقد أجروا تشريحًا للجثّة كولين!»

«لكن لم يكشف لنا أحد التفاصيل. ماري لم تقل لنا شيئًا على الإطلاق. لم تعد تريد التكلّم معي. أعتقد أنّ هذا هو السبب. إنّها تشتبه في شيء.»

«كولين، بالله عليك!»

خفتَ صوت تيسا، بات مجرّد همس قلق لم يعد بوسع فاتس سماعه. ارتجّ الهاتف الجوّال من جديد. أخرجه من جيبه، فرأى رقم كريستال وأجاب.

«مرحبًا»، قالت كريستال فيما سمع زعيق طفل في الخلفيّة.

«أتريد ملاقاتي؟»

«لست أدري»، ردّ فاتس وهو يتثاءب. كان ينوي الإيواء إلى فراشه.

في الليلة الماضية، حشر غايا بودين على السياج خارج قاعة الكنيسة، إلى أن تفلّتت منه وتقيّأت. ثم عادت إلى التهجّم عليه، فتركها هناك وعاد مشيًا إلى منزله.

«لست أدري»، ردّد. كان متعبًا وبائسًا.

«هيّا، تعال»، قالت.

سمع صوت كولين قادمًا من المكتب. «هذا ما تقولينه، لكن ليس هناك ما يثبت ذلك. ماذا لو كنتُ...»

«كولين، لا يجدر بنا أن نخوض نقاشًا كهذا... لا يفترض بك أن تأخذ مثل هذه الأفكار بجدّية.»

«كيف يمكنك أن تقولي لي هذا؟ كيف لا آخذها بجديّة؟ إن كنتُ مسؤولًا...»

«حسنًا، موافق» قال فاتس لكريستال. «سأوافيك بعد عشرين دقيقة أمام الحانة في الساحة.»

8

خرجت سامانثا أخيرًا من غرفة الضيوف، مدفوعة بحاجة ملحّة إلى التبوّل. شربت بعض الماء البارد من الصنبور في الحمّام، إلى أن شعرت بالغثيان. ابتلعت قرصي بانادول من الخزانة الصغيرة فوق المغسلة، ثمّ أخذت دوشًا.

ارتدت ملابسها بدون أن تلقي نظرة إلى نفسها في المرآة. من خلال كلّ ما تفعله، كانت تترصّد أي صوت يمكن أن يشير لها إلى مكان وجود مايلز، لكنّ المنزل بدا صامتًا تمامًا. فكّرت أنّه ربّما اصطحب ليكسي إلى مكان ما، بعيدًا عن والدتها السكّيرة، الزانية، التي تتعدّى على أطفال تأتي بهم من ملاعب المدارس...

(«كان في صفّ ليكسي في المدرسة!» قال لها مايلز وكأنّما يبصق بوجهها، بعدما أصبحا وحيدين في غرفة النوم. انتظرت أن يبتعد عن الباب، ففتحته بقوّة من جديد وهرعت إلى غرفة الضيوف.)

اجتاحها الغثيان والندم على دفعات متتالية. تمنّت لو تنسى، لو يغمى عليها، لكنّ وجه الفتى وهي تقذف بنفسها عليه لم يكن يفارق ذهنها. لا تزال تراه أمام عينيها، تشعر بجسده ملتصقًا بجسدها، نحيلًا وشابًّا...

لو حصل ذلك مع فيكرام جاواندا، لكانت وجدت في الأمر ربّما بعض الرونق... إنّها بحاجة ماسّة إلى فنجان قهوة. لا يمكنها البقاء في الحمّام إلى الأبد. حين استدارت لتفتح الباب، عكست لها المرآة صورتها، فكادت شجاعتها تخذلها. رأت وجهها منتفخًا، عينيها متورّمتين، وخطوط التجاعيد في وجهها محفورة عميقًا بفعل التعب والجفاف.

يا إلهي، ماذا تُراه قال عنّي...

كان مايلز جالسًا في المطبخ عند دخولها. لم تنظر إليه، بل توجّهت مباشرة إلى الخزانة حيث تحفظ القهوة. لكنّه قال لها قبل أن تلمس المقبض بيدها: «أحضرت بعضًا هناك.»

«شكرًا»، تمتمت. صبّت فنجانًا، متفادية النظر إليه.

«أرسلتُ ليكسي إلى منزل أمّي وأبي»، قال مايلز. «علينا أن نتكلّم.»

جلست سامانثا إلى طاولة المطبخ.

«تفضّل إذًا، تكلّم»، قالت.

«تفضّل؟... أهذا كلّ ما يمكنك قوله؟»

«أنت من يريد التكلّم.»

«الليلة الماضية، خلال حفل عيد ميلاد والدي، جئتُ أبحث عنك، ووجدتك تقبّلين وتداعبين فتى في السادسة عشرة من...»

«السادسة عشرة من العمر، أجل» قاطعته سامانثا. «السنّ القانونيّة. نقطة جيّدة حتّى الآن.»

نظر إليها مذهولًا.

«تعتقدين أنّ الأمر طريف؟ لو وجدتِني ثملًا إلى حدّ لم أعد حتّى أدرك...»

«كنت مدركة»، قالت سامانثا.

ترفض أن تكون مثل شيرلي، أن تخفي كلّ شيء تحت غطاء رقيق مزركش من الأكاذيب والتلفيقات اللبقة. تريد أن تكون نزيهة، صادقة. أن تخرق درع الغرور والاعتداد الذي لم تعد تتعرّف من خلاله إلى ذاك الشاب الفتيّ الذي أحبّته.

«كنتِ مدركة؟ ما الذي كنتِ تدركينه؟» قال مايلز.

كان يتوقّع منها أن ترتبك، أن تشعر بالذنب والندم. بدا ذلك عليه جليًا، إلى حدّ أنّها كادت تضحك.

«كنتُ مدركة أنّني أقبّله.»

حدّق إليها مليًّا، ففارقتها شجاعتها، لأنّها كانت على يقين بما سيقوله.

«وماذا لو دخلت ليكسي عليك؟»

لم تكن سامانثا تملك ردًّا على هذا السؤال. مجرّد فكرة أن تعلم ليكسي بما فعلت، تجعل شيرلي تودّ أن تختفي، أن تهرب من غير رجعة... وماذا لو أنّ الفتى أخبرها؟ فهما كانا في الصفّ نفسه في المدرسة. غاب عن بالها كيف هي باغفورد...

«ما الذي يدور في بالكِ، بربّك؟» سأل مايلز.

«إنّني... لست سعيدة.»

«لماذا؟» قال مايلز قبل أن يستدرك على وجه السرعة «أهو المحلّ؟ هذا هو السبب؟»

«قليلًا، لكن المسألة أنّني أكره العيش في باغفورد. أكره العيش ملتصقة بوالديك. وأحيانًا»، تابعت ببطء، «أكره أن أستيقظ بجانبك.»

ظنّت أنّه سوف يغضب، لكنّه، عوضًا عن ذلك، سألها بهدوء: «هل تقولين أنّك لم تعودي تحبّينني؟»

«لا أدري»، أجابت.

بدا أنحف في قميصه بالأزرار. تهيّأ لها لأوّل مرّة منذ زمن طويل أنّها تلمح شخصًا أليفًا، هشًّا، داخل الجسد الذي بدأ العمر يطبع بصماته عليه، والجالس قبالتها خلف الطاولة. ولا يزال رغم كلّ شيء يرغب فيَّ، فكّرت وفي ذهنها الوجه المترهّل الذي طالعها للتو في مرآة الحمام.

«لكنّني كنت سعيدة»، تابعت، «ليلة وفاة باري فيربراذر، بأنّك لا تزال على قيد الحياة. أعتقد أنّني حلمت بك ميتًا، ثمّ استيقظت، وأنا واثقة بأنّني سررت حين سمعتك تتنفّس.»

«وهذا... هذا كلّ ما يمكنك قوله لي؟ إنّك سعيدة بأنّني لست ميتًا؟»

أخطأتْ حين ظنّت أنّه ليس غاضبًا. كان مصدومًا، هذا كلّ ما في الأمر.

«هذا كلّ ما يمكنك قوله لي؟ شربتِ حتّى ثملتِ كليًّا في عيد ميلاد والدي...»

«هل كان الأمر ليختلف لو لم تكن تلك حفلة والدك المنحوسة؟» صرخت، وقد انتقل غضبه إليها، «هل إنّ المشكلة الفعليّة تكمن في هذه النقطة بالذات؟ أنّني حططت من كرامتك أمام الماما والبابا؟»

«كنتِ تقبّلين فتى في السادسة عشرة...»

«ربّما يكون الأوّل في سلسلة طويلة من الفتيان الآخرين!» زعقت سامانثا وهي تنهض عن الطاولة وتخبط كوبها في حوض الغسيل، فتبقى عروته في يدها. «ألا تفهم مايلز؟ سئمت، طفح الكيل! أكره حياتك اللعينة، وأكره والديك اللعينين...»

«... لا ترين ضيرًا حين يدفعا الأقساط المدرسيّة للفتاتين...»

«... أكره أن أراك تتحوّل إلى والدك أمام عينَيّ...»

«... هراء، مجرّد هراء! ما لا تحبّينه هو رؤيتي سعيدًا في حين أنّك تعيسة...»

«... فيما زوجي العزيز لا يكترث البتّة لما أشعر به... «

«... أمور كثيرة يمكنك الانشغال بها، لكنّك تفضّلين المكوث في المنزل متجهّمة مثل البوم...»

«... لا أنوي البقاء جالسة في المنزل بعد اليوم، مايلز...»

«... لن أعتذر عن انخراطي في حياة مجتمعي...»

«... حسنا، عنيتُ كلّ كلمة قلتها... لستَ أهلًا للحلول محلّه!»

«ماذا؟» قال واثبًا على قدميه، فيما انقلب كرسيّه أرضًا.

«سمعتَني جيّدًا» صرخَتْ وهي تندفع نحو باب المطبخ. «مثلما كتبت في رسالتي تمامًا مايلز، لستَ أهلًا للحلول محلّ باري فيبراذر. هو كان صادقًا.»

«أنت؟ رسالتك أنت؟»

«أجل»، قالت فاقدة الأنفاس، ويدها على مقبض الباب. «أنا مَن بعث تلك الرسالة. شربتُ أكثر ممّا ينبغي في ذلك المساء، في حين كنتَ أنت مسترسلًا في الحديث مع والدتك على الهاتف. وهناك أمرٌ آخر»، قالت وهي تفتح الباب، «لم أصوّت لك أيضًا.»

التعبير الذي عكسه وجهه أفقدها ما تبقّى من صوابها. خرجت إلى الممشى، وانتعلت قبقاقين كانا أوّل ما تمكّنت من العثور عليه، وخرجت من باب المدخل قبل أن يتمكّن من اللحاق بها.

9

أعادت الرحلة في الحافلة كريستال في الزمن، إلى طفولتها. كانت تقطع هذه المسافة يوميًا للذهاب إلى مدرسة سانت توماس، جالسة وحدها في الباص. تعرف تمامًا النقطة التي يطلّ عندها الدير، وأشارت لروبي إلى ظلّه في البعيد.

«أترى ذلك القصر الكبير المهدّم؟»

كان روبي جائعًا، لكنّ الإثارة التي أمدّه بها ركوبه في الحافلة ألهته عن جوعه قليلًا. كانت كريستال تمسك يده بإحكام. وعدته بأنّها ستؤمّن له الطعام حين يصلان، لكنّها لم تكن تدري كيف ستحصل عليه. ربّما يمكنها اقتراض بعض النقود من فاتس لشراء كيس من شرائح البطاطا، بالإضافة إلى ثمن تذكرتَي العودة.

«ذهبتُ إلى المدرسة هناك»، قالت لروبي، وهو يمرغ أصابعه على الزجاج القذر، راسمًا خطوطًا مبهمة. «أنت أيضًا ستذهب إلى المدرسة هناك.»

سوف يؤمّنون لها مسكنًا حين تحمل، ومن شبه المؤكّد أنّه سيكون مسكنًا آخر في الحقول. لا أحد يرغب في شراء منزل في الحيّ لأنّها كلّها في حالة رديئة للغاية. لكنّ كريستال ترى الإقامة في منازل الحيّ أمرًا جيّدًا، لأنّه بالرغم من خرابها، فإنّ روبي والطفل سيكونان في المنطقة الملحقة بمدرسة سانت توماس. وفي مطلق الأحوال، فإنّ والدي فاتس سيمدّانها بمبلغ كافٍ لشراء غسّالة بعدما تنجب حفيدهما أو حفيدتهما. من يدري، ربّما تلفزيون أيضًا.

سلكت الحافلة منحدرًا نحو باغفورد، ولمحت كريستال لثانية النهر ينساب متلألئًا، قبل أن تنحدر الطريق أكثر، فيغيب عن نظرها. حين كانت في فريق التجذيف، كانت تشعر بالخيبة حين لا يتدرّبن على نهر أور، بل على القناة القديمة النتنة في يارفيل.

«ها أنّنا وصلنا»، قالت كريستال لروبي، فيما انعطفت الحافلة ببطء لتصل إلى الساحة المسيّجة بالزهور.

حين ضرب موعدًا لكريستال أمام «الراهب الأسود»، لم ينتبه فاتس إلى أنّه سيكون أمام محلّ موليسون ولوي و«الإبريق النحاسيّ». ما زالت ساعة

من الوقت تفصله عن موعد فتح المقهى في تمام الظهر، لكن من المفترض أن يحضر آندرو في وقت باكر، لا يدري فاتس متى تحديدًا. لم يكن يودّ الالتقاء بصديقه القديم في ذلك الصباح، فانسلّ داخل الزاروب الجانبيّ خلف الحانة متواريًا عن الأنظار، ولم يعد أدراجه إلّا عند وصول الحافلة التي ما أن انطلقت مكمّلة طريقها، حتى ظهرت كريستال ومعها صبيّ صغير قذر.

اندفع فاتس نحوهما، مرتبكًا ومذهولًا.

«إنّه شقيقي»، قالت كريستال بعدائيّة، ردًّا على تعبير لمحته على وجهه.

أجرى فاتس على الفور في ذهنه تعديلًا جديدًا على مفهوم الحياة الأصيلة بحقيقتها القاسية كما يراها. كانت تملّكته لوهلة الرغبة في أن يجعل كريستال تحمل منه (ليثبت لأبو خزانة ما في قدرة الرجال الفعليين على أن يقوموا به، هكذا، بدون مجهود)، لكنّ ذلك الصبيّ الصغير المتشبّث بيد شقيقته وساقها حيّره.

تمنّى فاتس لو لم يوافق على ملاقاتها. إنّها تجعله يبدو مثيرًا للسخرية. قال لنفسه الآن وقد رآها في الساحة، إنّه لكان فضّل العودة إلى منزلها ذاك القذر النتن.

«هل تحمل بعض المال؟» سألت كريستال.

«ماذا؟» كان ذهن فاتس بليدًا بسبب التعب. لم يعد بوسعه الآن أن يذكر حتّى لماذا أراد أن يبقى مستيقظًا الليل بكامله. شعر بلسانه يخز وينبض من شدّة التدخين.

«مال»، كرّرت كريستال. «إنّه جائع، أهدرت خمسة جنيهات. سأردّها لك.»

وضع فاتس يده في جيب بنطاله الجينز ولمس ورقة ماليّة مجعّدة. لم يشأ أن يبدو وكأنّه في وفرة من أمره، فنقّب عميقًا في قعر جيبه، وأخرج أخيرًا حفنة ضئيلة من القطع النقديّة.

ذهبا إلى محلّ الصحف الصغير على مسافة شارعين من الساحة، وبقي فاتس في الخارج فيما اشترت كريستال لروبي رقائق بطاطا ولفافة من أقراص الشوكولاتة. لم يتفوّه أيّ منهم بكلمة، ولا حتّى روبي الذي بدا خائفًا

من فاتس. بعدما ناولت كريستال رقائق البطاطا إلى شقيقها، قالت لفاتس أخيرًا: «أين نذهب؟»

لا يُعقل بالتأكيد أن تكون توحي له بأنّهما سوف يتضاجعان، قال فاتس لنفسه. ليس في حضور الصبيّ. خطر له قبل أن تصل أن يصطحبها إلى الجحر الصخريّ. فالكهف بعيد عن الأنظار، وسوف يكون ذلك خاتمة صداقته مع آندرو. لكنّ فكرة المضاجعة أمام أنظار طفل في الثالثة من العمر كانت تجفّله.

«سيكون على ما يرام»، قالت كريستال. «لديه الشوكولاتة الآن» ثم «لا، لاحقًا» قالت لروبي الذي كان يئنّ مطالبًا باللفافة التي لا تزال في يدها. «بعدما تنتهي من البطاطا.»

انحدرا على الطريق في اتّجاه الجسر الحجريّ القديم.

«سوف يكون على ما يرام»، ردّدت كريستال. «هو يفعل كما أقول له. أليس كذلك؟» سألت روبي رافعة صوتها.

«شوكولاتة!» قال.

«أجل، بعد دقيقة.»

بوسعها أن ترى أنّه سيترتّب عليها اليوم مداهنة فاتس. علمت وهي في الحافلة أنّ اصطحاب روبي، وإن كان ضروريًا، سوف يعقّد عليها الأمر.

«ما أخبارك؟» سألته.

«ذهبت إلى حفلة الليلة الماضية.»

«حقًّا؟ من كان فيها؟»

تثاءب مطوّلًا، وانتظرت حتّى ينتهي.

«آرف برايس. سوكفيندر جاواندا. غايا بودين.»

«وهل تعيش في باغفورد؟» سألت كريستال بحدّة.

«أجل، في شارع هوب.»

يعلم أين تقيم لأنّ آندرو ارتكب هفوة وكشف له شارعها. آندرو لم يعترف له يومًا بأنّها تعجبه، لكنّ فاتس راقبه، وراقب غايا، بشكل متواصل تقريبًا خلال الحصص الدراسيّة القليلة المشتركة بينهم. ولاحظ إلى أيّ حدّ يكون آندرو متنبّهًا لأدقّ تفاصيل مظهره وشخصه في حضورها، أو لمجرّد ذكرها.

غير أنّ كريستال كانت تفكّر في والدة غايا، المساعِدة الاجتماعيّة الوحيدة التي أحبّتها يومًا، والوحيدة التي تمكّنت من اختراق دفاعات والدتها وإقامة تواصل معها. إذًا هي تعيش في شارع هوب، الشارع ذاته الذي كانت تقيم فيه نانا كات. ربّما هي هناك في هذه اللحظة بالذات. ماذا لو...

لكنّ كاي تخلّت عنهم. الآن ماتي هي مساعِدتهم الاجتماعيّة من جديد. وفي مطلق الأحوال، لا يفترض بها اللحاق بأيّ منهما وإزعاجها في عقر دارها. شاين تالي لحق مرّة بمساعدته الاجتماعيّة إلى منزله، وكلّ ما حصل عليه كان أمرًا قضائيًا بمنعه من الاقتراب منها. لكن، يجدر القول إنّ شاين حاول قبل ذلك رمي حجر آجر على سيّارتها لتحطيم زجاجها...

ثمّ إنّ كاي تبقى من اللواتي يحملن الملفّات ويملأن الجداول ويطلقن الأحكام، قالت كريستال لنفسها وهي تسدل جفنيها، وقد أبهرها النهر المطلّ عليهم عند منعطف، متوهّجًا بألف شظيّة وشظيّة من النور. ثمّ إنّ أيًّا من الحلول التي قد تقترحها كاي لن يُبقي كريستال وروبي معًا...

«يمكننا الذهاب إلى هذه الناحية في الأسفل»، اقترحت على فاتس، مشيرة إلى فسحة مكسوّة بالأعشاب والنبتات على ضفّة النهر، على مسافة ضئيلة من البرج. «ويمكن لروبي أن ينتظرنا هناك، على المقعد.»

هكذا، فكّرت، يمكنها أن تراقبه من هناك، من غير أن يرى هو أيّ شيء. الواقع أنّه لن يكتشف شيئا لم يره من قبل، حين كانت تيري تجلب غرباء إلى المنزل...

لكنّ هذا الاقتراح أثار اشمئزاز فاتس الذي كان يشعر أساسًا بالإعياء. لا يمكنهما فعلها هكذا في العشب، أمام أنظار صبيّ صغير.

«لا»، أجاب، محاولًا اتّخاذ نبرة غير مبالية.

«لن يزعجنا»، قالت كريستال. «معه سكاكره. لن يعرف حتّى» ولو أنّها لم تكن تعتقد أن هذا صحيحًا. روبي يعرف الكثير. حصلت بعض المشاكل في الحضانة، حين تظاهر بأنّه ينكح طفلة أخرى من الخلف.

تذكّر فاتس أنّ والدة كريستال مومس. ما تقترحه عليه يثير اشمئزازه، لكن أليس في شعوره هذا قلّة صدق؟

«ما بك؟» سألت كريستال بعدائيّة.

«لا شيء»، أجاب.

داين تالي لكان فعلها. بيكي بريتشارد لكان فعلها أيضًا. أمّا أبو خزانة، فلا مجال على الإطلاق لمثل ذلك الاحتمال.

قادت كريستال روبي إلى المقعد. انحنى فاتس فوقه ليتقصّى الفسحة الممتدّة خلفه، تكسوها الأعشاب البريّة والشجيرات. قال لنفسه إنّ الطفل قد لا يرى شيئًا، غير أنّه في مطلق الأحوال سيسرع قدر الإمكان.

«اجلس هنا»، قالت كريستال لروبي، وهو يمدّ يده فرِحًا لتلقّف لفافة الشوكولاتة التي كانت تلوّح له بها. «يمكنك أن تأكلها بالكامل، إذا جلست هنا لحظة، فهمت؟ فقط اجلس هنا، روبي، وسوف أكون أنا هناك، بين الشجيرات. فهمت ما قلته روبي؟»

«أجل»، قال سعيدًا بغنيمته، وفمه مليء بالشوكولاتة السكاكر.

انزلقت كريستال هابطة المنحدر فوق ضفّة النهر نحو الشجيرات. كانت تأمل ألّا تجد صعوبة في إقناع فاتس بعدم استخدام واقٍ ذكريّ.

10

كان غافين يضع نظّارتين داكنتين تحميان عينيه من وهج الشمس الصباحيّة، لكن لا يمكنه الاعتماد عليهما للتخفّي. سوف تتعرّف سامانثا موليسون بالتأكيد إلى سيّارته. حين لمحها تحثّ الخطى وحيدة على الرصيف، يداها في جيبيها ومطأطئة الرأس، انعطف غافين يسارًا، وبدل أن يواصل طريقه نحو منزل ماري، عبر الجسر الحجريّ القديم وركن سيّارته في طريق جانبيّ ضيّق في الطرف الآخر من النهر.

لم يشأ أن تراه سامانثا يتوقّف خارج منزل ماري. لم يكن للأمر أيّ أهميّة أيّام الأسبوع، حين يحضر مرتديًا طقمًا وحاملًا محفظة أوراقه. لم يكن للأمر أيّ أهميّة على الإطلاق قبل أن يقرّ لنفسه بمشاعره حيال ماري. غير

أنّ الوضع أصبح مختلفًا الآن. وفي مطلق الأحوال، كانت تلك صبيحة مشرقة، والنزهة سوف تُكسبه بعض الوقت.

إنّني أبقي كلّ خياراتي مفتوحة، فكّر وهو يعبر الجسر مشيًا. رأى صبيًا صغيرًا في الأسفل، جالسًا وحده على مقعد، يأكل سكاكر. لست ملزمًا بقول أيّ شيء... سوف أرتجل طبقًا للموقف...

لكنّ راحتَي يديه كانتا متعرّقتين. لم يغمض له جفن طوال الليل. كان يخشى أن تخبر غايا التوأمين فيربراذر بأنّه مغرم بوالدتهما، وهذه الفكرة لم تفارق ذهنه.

بدت ماري مسرورة برؤيته.

«أين سيّارتك؟» سألته وهي تجول بنظرها في الشارع من فوق كتفه.

«ركنتها قرب النهر في أسفل الطريق»، أجابها. «إنّه صباح جميل. أردت أن أتمشّى قليلًا. ثمّ خطر لي أنّ بوسعي جزّ العشب إن كنتِ...»

«آه! غراهام قام بذلك، لكنّ عرضك في غاية اللطافة. تعال، أدخل. سوف أعدّ لك فنجان قهوة.»

أخذت تحادثه وهي منهمكة في المطبخ. كانت ترتدي بنطالًا جينزًا قديمًا قصّت ساقيه وقميصًا تي شيرت، يكشفان مدى نحالتها، لكنّ شعرها كان قد استعاد لمعانه، كما عهده من قبل. بإمكانه رؤية التوأمين في الخارج، ممدّدتين فوق غطاء مفروش على العشب المجزوز، تضعان سمّاعات وتستمعان إلى موسيقى على الأيبود.

«كيف حالك؟» سألته ماري، وهي تجلس قربه.

لم يفهم سبب اهتمامها هذا وقلقها عليه، ثمّ تذكّر أنّه أخبرها خلال زيارته القصيرة بالأمس أنّه انفصل عن كاي.

«إنّني بخير» قال. «الأرجح أنّ هذا أفضل للجميع.»

ابتسمت وربّتت ذراعه.

«سمعت مساء أمس أنّك قد تنتقلين من البلدة»، قال وفمه جافّ قليلًا.

«الأخبار تنتشر بسرعة في باغفورد»، علّقت. «إنّها مجرّد فكرة. تريدني تيريزا أن أعود إلى ليفربول.»

«وما رأي الأولاد في الموضوع؟»

«حسنًا، سوف أنتظر حتّى تنهي الفتاتان وفيرغوس امتحاناتهم في يونيو. ديكلان لا يطرح مشكلة فعليّة. الواقع أنّ لا أحد منّا يرغب في الرحيل بعيدًا...»

انهارت باكية أمامه، لكنّ السعادة غمرته. مدّ يده ولامس معصمها الرقيق.

«بالطبع لا تودّين...»

«... عن قبر باري.»

«آه»، قال غافين، وقد تبدَّدت سعادته بالكامل مثل شمعة أطفأها الريح.

مسحت ماري عينَيها بظهر يدها. وجدها غافين سوداويّة، كئيبة. في عائلته، هم يحرقون موتاهم. دَفْن باري كان ثاني دفن فقط يحضره طوال حياته، ووجد كلّ ما فيه مروّعًا. لم يكن القبر في نظر غافين سوى علامة تشير إلى موقع جثّة تتحلّل في جوف الأرض. مجرّد فكرة كريهة. ورغم ذلك، يزوره الناس ويحضرون معهم الأزهار، وكأنّ الميت قد يتعافى وينهض.

نهضت لإحضار محارم ورق. في الخارج، على العشب، تقاسمت الفتاتان السمّاعة ذاتها، وكانتا تهزّان رأسيهما بالتناغم، على وقع الأغنية نفسها.

«إذًا، حصل مايلز على مقعد باري»، قالت. «سمعت أصداء الاحتفالات الليلة الماضية، وصلت إلى هنا.»

«الواقع أن هاورد... أجل، هذا صحيح»، قال غافين.

«وباتت باغفورد على وشك التخلّص من الحقول».

«أجل، هذا ما يبدو.»

«الآن وقد أصبح مايلز داخل المجلس، سيكون من الأسهل عليهم إغلاق بيلتشابيل»، تابعَت.

لم يكن بوسع غافين أن يتذكّر تلقائيًا ما هي بيلتشابيل كلّما ورد الاسم على مسمعه. لم يكن يشعر بمطلق اهتمام بمثل هذه المسائل على الإطلاق.

«أجل، على ما أعتقد.»

«يمكن القول إذًا أنّ كلّ ما أراده باري انتهى أمره»، قالت.

دموعها جفّت، وعلت حمرة الغضب وجنتيها مجدّدًا.

«أعلم»، قال. «أمر حزين حقًا.»

«لست واثقة»، أضافت بحنق، ووجهها محتقن. «بأيّ منطِق يفترض بباغفورد أن تدفع نفقات الحقول؟ باري لم يرَ يومًا سوى جانب واحد من المسألة. ظنّ أنّ الجميع في الحقول مثله. ظنّ أنّ كريستال ويدون مثله، لكنّها ليست كذلك. لم يخطر له مرّة أنّ سكّان الحقول ربّما سعداء كما هي حالهم.»

«أجل»، قال غافين. غمرته سعادة لا توصَف لسماعها تخالف باري الرأي. شعر وكأنّ الظلال التي يلقيها قبره بينهما قد تبدّدت. «أعرف ما تعنيه تمامًا. على ضوء كلّ ما سمعته عن كريستال ويدون...»

«كان يخصّص لها من وقته واهتمامه أكثر ممّا يخصّصه لابنتَيه. وهي لم تشارك بفلس واحد في ثمن إكليل الزهر. علمت هذا من الفتيات. كلّ البنات في فريق التجذيف ساهمن، باستثناء كريستال. كما أنّها لم تأتِ حتّى إلى الدفن، بعد كلّ ما بذل من أجلها.»

«أجل. حسنًا، هذا يثبت...»

«إنّني متأسّفة، لكنّ المسألة برمّتها لا تفارق فكري»، قاطعته محتدّة. «لا يسعني ألّا أفكّر بأنّه لكان ودّ منّي أن أهتمّ بكريستال ويدون اللعينة. إنّني عاجزة عن تقبّل الأمر. قضى آخر يوم من حياته، والصداع يطوّق رأسه من غير أن يقوم بأي شيء حياله، وهو يكتب تلك المقالة اللعينة!»

«أعرف»، قال غافين، «أعرف. أعتقد أنّ الرجال هكذا بأطباعهم»، تابع وهو يشعر بأنّه يطأ جسرًا قديمًا من الحبال ممدودًا فوق الفراغ، «هكذا هو مايلز أيضًا. لم تكن سامانثا تودّ أن يترشّح لعضويّة المجلس، لكنّه رغم ذلك فعل. بعض الرجال كما تعلمين، تستهويهم السلطة...»

«لم تكن السلطة إطلاقًا ما يسعى إليه باري»، قاطعته ماري، فسارع غافين إلى التراجع عن كلامه.

«لا، لا، باري لم يكن يطمح إلى السلطة. كان يطمح إلى...»

«كان الأمر خارجًا عن إرادته. كان يعتقد أنّ الجميع يشبهه، أنّك إن مددت لهم يدك، فسوف يباشرون العمل على ترقية أنفسهم.»

«أجل»، قال غافين، «لكنّ المشكلة أنّ هناك آخرين أيضًا بحاجة إلى مساعدة... آخرون في العائلة...»

«تمامًا!» قالت ماري وهي تنهار باكية من جديد.

نهض غافين من كرسيّه ليقف بجانبها.

«ماري»، قال وهو يجازف على جسر الحبال، يتقاسمه شعور بالذعر والترقّب في آن، «اسمعي... من السابق للأوان... أعني أنّ الوقت ما زال مبكرًا جدًّا... لكنّك سوف تلتقين رجلًا آخر.»

«في سنّ الأربعين»، قالت وهي تنتحب، «ومع أربعة أولاد...»

«ثمّة رجال كثيرون...»، لكنّه لم يكن راضيًا عن اختيار كلماته. يفضّل ألّا يدفعها إلى الاعتقاد بأنّ الخيارات عديدة أمامها. «الرجل المناسب لن يأبه إن كان لديك أطفال»، صحّح كلامه. «وفي مطلق الأحوال، أولادك رائعون... أيّ رجل سيكون مسرورًا بالتكفّل بهم.»

«آه غافين، إنّك في غاية الرقّة»، قالت وهي تمسح عينيها.

لفّ كتفيها بذراعه، فلم تحاول التملّص. وقفا بصمت فيما كانت تتمخّط، ثمّ أحسّ بجسدها يتشنّج على وشك الابتعاد، فقال: «ماري...»

«ماذا؟»

«عليّ أن... ماري، أعتقد أنّني مغرم بك.»

تملّكه، لثوانٍ قليلة، ذلك الإحساس بالمجد والاعتزاز، مثل مظلّيٍّ يلقي بنفسه في الفضاء الشاسع اللامتناهي.

ثمّ ابتعدت عنه.

«غافين، أنا...»

«اعذريني»، قال عند رؤية التعبير المرتاع على وجهها. «أردتكِ ان تسمعي هذا الاعتراف منّي أنا. أخبرت كاي أنّ هذا ما جعلني أقرّر الانفصال عنها، وكنت أخشى أن تعلمي بالأمر من أحد سواي. لم أكن أنوي مفاتحتك قبل مضي أشهر. بل سنوات.» كان يسعى لإعادة البسمة إلى وجهها. ودّ لو تستعيد المزاج الذي كانت فيه حين قالت له إنّه رقيق.

لكنّ ماري راحت تهزّ رأسها، كاتفة ذراعيها على صدرها الهزيل.

«غافين، لما كنت إطلاقًا...»

«انسي كلّ ما قلته»، قاطعها ببلاهة، «دعينا ننسى المسألة من أصلها.»

«ظننتك تفهم الوضع.»

«بل أفهمه، صدّقيني»، كذب. «لما كنت أخبرتك بشيء لو لم...»

فكّر أنّه كان يجدر به ان يحزر أنّها سجينة قوقعتها الخفيّة من الأسى، وأنّها تحتمي بهذه القوقعة ولا تدع شيئا ينفذ إليها.

«لطالما قال باري أنّك معجب بي» قالت ماري.

«لم أكن كذلك!» قال باضطراب.

«غافين، أعتقد أنّك رجل رقيق ولطيف للغاية» قالت حابسة أنفاسها. «لكنّني لا... أعني حتّى لو...»

«لا»، قال رافعًا صوته حتّى لا يسمعها، «أفهم تمامًا. اسمعي، سوف أذهب الآن.»

«لا حاجة إلى أن...»

لكنّه بات الآن على وشك أن يكرهها. فهم جيّدًا ما أرادت قوله: حتّى لو لم أكن في حداد على زوجي، لما كنت رغبت فيك إطلاقًا.

كانت زيارته وجيزة، إلى حدّ أنّ قهوته كانت لا تزال ساخنة حين رمتها ماري وهي لا تزال ترتجف قليلًا.

11

قال هاورد لشيرلي إنّه متوعّك، ومن الأفضل أن يلزم السرير ويرتاح، وإنّ الإبريق النحاسيّ سيتدبّر أمره بدونه لما بعد الظهيرة.

«سوف أتّصل بمو» قال.

«لا، سأتّصل بها بنفسي»، ردّت شيرلي بحدّة.

فكّرت وهي تغلق باب الغرفة خلفها إنّ قلبه بدأ يتعب.

«لا تقولي حماقات شيرلي»، قال لها قبل أن يضيف: «هذا هراء، مجرّد تلفيقات لعينة»، وهي لم تصرّ على الموضوع. تلك السنوات المديدة من المناورات اللبقة لتفادي المواضيع المغمّة (صعقت شيرلي حين أعلنت لها باتريسيا في الثالثة والعشرين من العمر «أمّي، أنا مثليّة.»)، كانت تكمّم على ما يبدو شيئًا في داخلها.

رنّ جرس الباب. قالت ليكسي: «قال لي والدي أن آتي إلى هنا. لديه ما يفعله مع أمّي. أين جدّي؟»

«في السرير»، أجابت شيرلي. «أسرف في الاحتفال الليلة الماضية.»

«كانت سهرة ممتعة، ألا تعتقدين؟»

«بلى، ممتازة»، أجابت شيرلي وفي داخلها بدأت تتجمّع غيوم العاصفة. عاصفة على وشك أن تهبّ.

بعد وقت، سئمت شيرلي ثرثرة حفيدتها فاقترحت عليها: «لمَ لا نذهب لتناول الغداء في المقهى؟ هاورد!» صاحت عبر باب غرفة النوم المغلق «سوف أصطحب ليكسي لتناول الغداء في الإبريق النحاسيّ!»

بدا لها قلقًا، وهذا ما بعث فيها السرور. لم تكن تخشى مورين. سوف تنظر في عينيها...

لكن خطر لشيرلي وهي في طريقها إلى المقهى أنّ هاورد قد يكون اتّصل بمورين ما أن خارجت من المنزل. كم أنّها حمقاء... كيف تصوّرت أنّها إن اتّصلت بنفسها بمورين لإبلاغها بتغيّب هاورد، فسوف تمنعهما من التواصل؟ أين عقلها؟

مشت في الشوارع الأليفة التي تحبّها، فبدت لها مختلفة، غريبة. كانت شيرلي تستعرض بعناية بين الحين والآخر الواجهة التي تطلّ من خلالها على هذا الكون الصغير الجميل: زوجة وأمّ، متطوّعة في المستشفى، سكرتيرة مجلس البلدة، مواطنة أولى. وكانت باغفورد مرآتها، تعكس لها باحترام وتقدير قيَمها ومقامها. وها إنّ الشبح مرّ، طابعًا بصماته في كلّ مكان، تاركًا على صفحة حياتها الناصعة وصمة عارٍ تطغى على كلّ ما عداها: «زوجها ينام مع شريكته في المحلّ، وهي لم تعلم يومًا...»

هذا ما سيقوله الجميع حين يرد ذكر اسمها. هذا كلّ ما سيذكرونه منها.

دفعت باب المقهى، فرنّ الجرس. «ها هو فستق برايس!» قالت ليكسي.

«هاورد بخير؟» سألت مورين بنعيقها.

«متعَب، هذا كلّ ما في الأمر»، قالت شيرلي. اقتربت من إحدى الطاولات وجلست، وقلبها يطرق بسرعة خالت معها أنّها ستصاب بنوبة بنفسها.

«بوسعك أن تقولي له أنّ أيًّا من الفتاتين لم تظهر اليوم»، شكت مورين بحنق. «كما أنّ أيًّا منهما لم تكلّف نفسها عناء الاتّصال. من حسن حظّنا أنّ المقهى ليس مكتظًّا.»

توجّهت ليكسي إلى الكونتوار للتكلّم مع آندرو الذي كُلّف في هذه الظروف القيام بمهامّ نادل. جالسة إلى الطاولة، كانت شيرلي تشعر بوطأة وحدةٍ لم تألفها من قبل. استعادت صورة ماري فيربراذر، مستقيمة ونحيلة في دفن باري، متّشحة بحدادها كأنّما برداء ملكيّ. الشفقة، الإجلال. برحيل زوجها باتت ماري محطّ إعجاب بدون أن تتفوّه بكلمة أو تقوم بحركة، في حين أنّها هي، المقيّدة إلى رجل خانها، يكسوها الخزي ويجعلها عرضة لسخرية الجميع...

(في الماضي، منذ زمن بعيد في يارفيل، كان الرجال يطلقون نكاتًا بذيئة عن شيرلي بسبب سمعة والدتها، ولو أنّها هي كانت نقيّة طاهرة.)

«جدي مريض»، قالت ليكسي لآندرو. «ما هي حشوة هذه الكعكات؟»

انحنى خلف الكونتوار، محاولًا إخفاء الحمرة على وجهه.

قبّلت والدتك.

كاد آندرو يتغيّب عن العمل. كان يخشى أن يطرده هاورد فور وصوله بعدما قبّل كنّته. كما كان مذعورًا لاحتمال أن يظهر مايلز موليسون فجأة بحثًا عنه. لكنّه، في الوقت نفسه لم يكن ساذجًا. إنّه يدرك تمامًا أنّ سامانثا التي تخطّت الأربعين بسنوات، كما قدّر بدون رحمة، ستظهر في دور النذل الشرير

في هذه القصّة. والحجّة التي أعدّها دفاعًا عن نفسه كانت في غاية البساطة: «كانت ثملة وانقضّت عليّ.»

شعر في وسط إحراجه وارتباكه ببصيص اعتزاز. كان متلهّفًا لرؤية غايا، حتّى يخبرها بأنّ امرأة ناضجة ارتمت عليه. كان يأمل أن يضحكا معًا على المسألة، مثلما سخرا من مورين، لكن أن تُعجب به في سرّها. ربّما يمكنه أن يستفهم بين القهقهات والنكات ما الذي دار حقًا بينها وبين فاتس، إلى أيّ مدى سمحت له أن يصل. كان على استعداد للصفح عنها. هي أيضًا كانت ثملة. لكنّها لم تحضر.

ذهب لإحضار محرمة لليكسي وكاد يصطدم بزوجة هاورد، وهي واقفة خلف الكونتوار، تمسك حقنة «إيبي-بن».

«طلب منّي هاورد أن أتفقّد شيئًا»، قالت شيرلي. «لا ينبغي الاحتفاظ بهذه الحقنة هنا. سوف أضعها في الخلف.»

12

بعدما التهم روبي نصف الشوكولاتة، شعر بعطش شديد. كريستال لم تشترِ له شيئًا يشربه. قفز عن المقعد وقبع مقرفصًا بين الأعشاب الدافئة، حيث لا يزال بوسعه رؤية ظلّها بين الشجيرات مع الشاب الغريب، ثمّ بعد دقائق، زحف منحدرًا على ضفّة النهر في اتّجاههما.

«عطشان!» قال متذمّرًا.

«روبي، اذهب من هنا!» صرخت كريستال. «اذهب واجلس على المقعد!»

«أريد أن أشرب!»

«اللعنة!... اذهب وانتظر على المقعد، سوف أحضر لك ما تشربه بعد دقيقة! اذهب روبي!»

عاد باكيًا وتسلّق الضفّة الزلقة نحو المقعد. كان معتادًا عدم الحصول على ما يطلبه، وبات مع الوقت يعصى الأوامر. فالبالغون اعتباطيّون في

فورات غضبهم وقوانينهم، وتعلّم بالتالي أن يقتنص لذّاته ورغباته الصغيرة أينما ومتى يجدها.

ابتعد غاضبًا عن شقيقته، ومضى قليلًا على الطريق. كان رجل يضع نظّارتَي شمس يتقدّم في اتّجاهه.

(نسي غافين أين ركَن السيّارة. خرج من منزل ماري وسار منحدرًا في شارع تشيرتش روو. لم يتنبّه إلى أنّه اتّخذ الاتّجاه الخطأ إلّا عندما وصل أمام منزل مايلز وسامانثا، فالتفّ متّخذًا طريقًا دائريًّا للعودة إلى الجسر بدون أن يعبر مجدّدًا أمام منزل عائلة فيربراذر.

رأى الفتى المكسوّ ببقع الشوكولاتة. بدا له منفّرًا بثيابه المترهّلة وشعره المشعّث. أكمل طريقه، متحسّرًا على سعادته المحطّمة. كان شيء فيه يتوق للذهاب إلى منزل كاي حتّى تهدهده بصمت... لطالما كانت في غاية الرقّة معه حين يأتي إليها بائسًا. هذا ما جذبه إليها في بادئ الأمر.)

زاد صخب مياه النهر من عطش روبي. عاود البكاء قليلًا وهو ينحرف عن وجهته مبتعدًا عن الجسر، للعودة إلى حيث كانت كريستال مختبئة. رأى الشجيرات تهتزّ. أكمل طريقه، عطشًا. لاحظ فجوة في سياج طويل من الشجيرات إلى يسار الطريق. عندما وصل إليها، رأى خلفها ملعبًا.

انسلّ روبي من الفجوة وتأمّل المساحة الشاسعة الخضراء، وفيها شجرة كستناء وارفة وعوارض تحدّد مرميَي لعبة كرة القدم. تعرّف روبي إليهما لأنّ ابن خالته داين علّمه كيف يركل كرة في المتنزّه. لم يسبق أن رأى مثل هذه المساحة المترامية من العشب.

عبرت امرأة الملعب مسرعة، كاتفة يديها وحانية رأسها.

(هامت سامانثا على وجهها. مشت ومشت بدون توقّف، على غير هدى، طالما أنّ خطاها تحملها بعيدًا عن تشيرتش روو. أسئلة كثيرة كانت تراودها، من غير أن تجد لها الكثير من الأجوبة. تساءلت إن لم تكن مضت أبعد ممّا ينبغي، حين أخبرت مايلز عن تلك الرسالة الحمقاء التي كتبتها وهي ثملة، بدافع النقمة، والتي تبدو لها الآن أقلّ ذكاء ممّا تهيّأ لها...

ألقت نظرة أمامها ولمحت روبي. غالبا ما يتسلّل الأولاد من الفجوة بين الشجيرات ليلعبوا في الحقل في نهاية الأسبوع. ابنتاها أيضًا قامتا بذلك حين كانتا أصغر سنًا.

تسلّقت البوّابة وتوجّهت إلى ساحة البلدة، مبتعدةً عن النهر. كانت مشمئزّة من نفسها، وهذا الإحساس لم يفارقها مهما حاولت التخلّص منه.)

عاد روبي عبر الفجوة بين الشجيرات ومشى مسافة قصيرة في أعقاب السيّدة، لكنّها كانت تحثّ الخطى وسرعان ما غابت عن أنظاره. كان نصف اللفافة المتبقّي من أقراص الشوكولاتة يذوب في يده. لم يشأ رمي سكاكره، لكنّ العطش اشتدّ عليه. ربّما انتهت كريستال؟ استدار وعاد في الاتّجاه المعاكس.

حين لاحت له المجموعة الأولى من الشجيرات، لاحظ أنّها لم تكن تهتزّ، فظنّ أنّ بوسعه الاقتراب الآن.

«كريستال»، ندَه.

لم يكن هناك أحد بين الشجيرات. كريستال ذهبت.

بدأ روبي ينوح ويصرخ مناديًا كريستال. عاد وتسلّق الضفّة، قلّب النظر كالمجنون يمينًا ويسارًا على طول الطريق، لكنّه لم يجد أثرًا لها.

«كريستال!» صرخ.

رمقته امرأة شعرها فضيّ قصير بنظرة متجهّمة، وهي تعبر مسرعة على الرصيف المقابل.

تركت شيرلي ليكسي في الإبريق النحاسيّ، حيث بدا أنّ الفتاة تستمتع بوقتها. كانت تهمّ بقطع الساحة حين لمحت سامانثا. كانت كنّتها آخر من تودّ لقاءه في الوقت الحاضر، فاستدارت ومضت في الاتّجاه المعاكس.

لاحقها أنين الفتى وزعيقه من خلفها، فيما واصلت طريقها مسرعة. كانت يد شيرلي تطبق بشدّة على حقنة إيبي- بن في جيبها. لن تسمح بأن تكون محطّ السخرية والبذاءة. أرادت أن تكون نقيّة وأن تحظى بالتعاطف والشفقة، مثل ماري فيربراذر. كان غضبها شرسًا، خطيرًا، إلى حدّ لم يكن بوسعها أن تفكّر بشكل سويّ. كلّ ما كانت تريده هو أن تتصرّف، أن تعاقب، أن تنهي المسألة.

قبيل الوصول إلى الجسر الحجريّ القديم، رأت شيرلي مجموعة من الشجيرات تهتزّ إلى يسارها. ألقت نظرة إلى الأسفل، واشمأزّت لرؤية منظر مقزّز قذر جعلها تمضي في طريقها على وجه السرعة.

13

كانت سوكفيندر هائمة في باغفورد منذ وقت أطول من سامانثا. خرجت من منزل «أولد فايكريج» بعدما قالت لها والدتها إنّ عليها الذهاب إلى العمل، وهي تتسكّع منذ ذلك الحين في شوارع البلدة، مستكشفة مناطق عازلة خفية لا تفضي إلى شارع تشيرتش روو، أو شارع هوب والساحة.

كان لديها في جيبها حوالى خمسين جنيهًا هي أجرها من المقهى والحفلة، والشفرة. أرادت أن تأخذ دفتر التوفير الخاصّ بها من خزانة الملفّات الصغيرة في مكتب والدها، لكنّ فيكرام كان خلف مكتبه. انتظرت بعض الوقت عند الموقف لتستقلّ حافلة إلى يارفيل، لكنّها لمحت شيرلي وليكسي موليسون قادمتين صوبها، فهربت قبل أن ترَياها.

خيانة غايا لها كانت قاسية ومفاجئة. كيف إنّها أغوت فاتس وول... سوف يتخلّى حتمًا عن كريستال، الآن وقد حصل على غايا. أيّ شاب سيتخلّى عن أي فتاة أيًّا كانت من أجل غايا، هي على يقين بذلك. لكن لم يكن بوسعها أن تذهب إلى العمل، وتستمع إلى حليفتها الوحيدة تشرح لها أن فاتس فتى طيّب في الواقع، فعلًا. لم تكن تقوى على ذلك.

ارتجّ هاتفها الجوّال. وجدت رسالتين نصيّتَين سابقتين من غايا.

كم كنتُ ثملة الليلة الماضية؟

هل ستذهبين إلى العمل؟

لا شيء عن فاتس وول. لا شيء عن تقبيل جلّاد سوكفيندر. الرسالة الجديدة كانت تقول: هل أنتِ بخير؟

أعادت سوكفيندر الهاتف الجوّال إلى جيبها. بوسعها السير في اتّجاه يارفيل والصعود في حافلة عند مشارف المدينة، حيث لن يراها أحد. عائلتها لن تفتقدها قبل الساعة الخامسة والنصف، الساعة التي يفترض أن تعود فيها من المقهى.

تشكّلت في رأسها خطّة يائسة، وهي تمشي متعبة في الحرّ. لو كان بوسعها العثور على مكان تمكث فيه بأقلّ من خمسين جنيهًا... كلّ ما تريده هو أن تبقى وحيدة، وتتفرّغ لما تفعله بشفرتها عادةً.

كانت تسير على الطريق المحاذي للنهر، ومياه أور تهدر وتجري قربها. إن عبرت الجسر، سوف تسلك دربًا خلفية تلتفّ حتّى بداية الطريق الجانبي.\

«روبي! روبي! أين أنت؟»

كانت هذه كريستال ويدون، تركض هلعة ذهابًا وإيّابًا على طول ضفّة النهر. كان فاتس واقفًا، يد تمسك سيجارة والأخرى في جيبه، يراقب كريستال تهرع صعودًا ونزولًا.

ذعرت سوكفيندر وانعطفت فورًا إلى اليمين سالكة الجسر، قبل أن يراها أيّ منهما. كانت أصداء نداءات كريستال تتردّد إليها، تغطّي على صخب المياه المندفعة في الأسفل.

لمحت سوكفيندر من أعلى الجسر شيئًا في النهر.

من غير أن تفكّر، وضعت يديها على الحافّة الحجريّة الدافئة في أشعّة الشمس، تسلّقتها وهي تصرخ «إنّه في النهر، كريس!»، ورمت بنفسها في المياه. سحبها التيّار إلى القعر حيث شقّ ساقها حطام شاشة كمبيوتر مرميّة.

14

فتحت شيرلي باب غرفة النوم، فلم تجد سوى سريرين فارغين. لا يمكنها إحقاق الحقّ ما لم يكن هاورد نائمًا. عليها أن تنصحه بالعودة إلى الفراش.

لكنّها لم تسمع أي صوت قادم سواء من المطبخ أو من الحمّام. خافت شيرلي أن تكون تأخّرت بسلوكها طريق النهر للعودة إلى المنزل، فخرج في غيابها. لا بدّ أنّه ارتدى ملابسه وانطلق إلى العمل. ربّما يكون في الوقت الحاضر مع مورين، في القاعة الخلفيّة للمحلّ، يتناقشان في أمرها، يخطّطان ربّما ليطلّقها هاورد ويتزوّج مورين، الآن وقد كُشِف أمرهما وسقطت الأقنعة.

هرعت إلى غرفة الجلوس للاتّصال بمقهى الإبريق النحاسيّ. كان هاورد ممدّدًا أرضًا على السجّادة في ملابس النوم. وجهه بنفسجيّ وعيناه جاحظتان. من بين شفتيه يخرج هسيس واهن، ويمسك صدره عاجزًا بإحدى يديه. قميص النوم مشمّرة على صدره، تكشف لشيرلي عن ذلك الحزام من الجلد الملتهب المتقشّر حيث كانت تعتزم غرز الإبرة.

التقت أنظارهما، عينا هاورد تستنجدان بصمت.

حدّقت إليه شيرلي للحظة مذعورة، ثمّ خرجت كالسهم من الصالون. أخفت في بادئ الأمر حقنة الإيبي-بن في جرّة البسكويت، ثمّ عادت وانتشلتها منها، ودسّتها خلف كتب الطهو.

ثمّ عادت مسرعة إلى غرفة الجلوس، رفعت سمّاعة الهاتف وطلبت رقم الإسعاف.

«باغفورد؟ إلى منزل أوربانك، أليس كذلك؟ هناك سيّارة إسعاف في طريقها إلى هناك.»

«آه شكرًا، الحمد لله»، قالت شيرلي. كانت على وشك إغلاق الخطّ حين تنبّهت لما قالت، فعادت وصرخت «لا، لا، ليس إلى منزل أوربانك...»

لكنّ عاملة الهاتف كانت أغلقت الخطّ، فطلبت الرقم مجدّدًا. انزلقت السمّاعة من يدها من شدّة هلعها وارتباكها، ووقعت أرضًا، بينما أخذ الأزيز الصادر عن هاورد على السجّادة بجانبها يضعف شيئًا فشيئًا.

«ليس منزل أوربانك»، صرخت. «رقم 36، مجمّع إيفرتري كريسنت، باغفورد... زوجي مصاب بنوبة قلبيّة...»

15

اندفع مايلز موليسون خارجًا من منزله في شارع تشيرتش روو، وهو لا يزال ينتعل خفّيه، وهرع بأسرع ما أمكنه منحدرًا على الرصيف نحو منزل «أولد فايكريج» عند الزاوية. أخذ يطرق بيده اليسرى على الباب السميك المصنوع من خشب السنديان، وهو يحاول بيده الأخرى الاتّصال برقم زوجته.

«نعم؟» سألت بارميندر حين فتحت الباب.

«والدي»، قال مايلز فاقدًا أنفاسه، «... نوبة قلبيّة أخرى... أمّي طلبت سيّارة إسعاف... هل تأتين معي؟ أرجوك أن تأتي.»

استدارت بارميندر بسرعة في حركة تلقائيّة للعودة إلى الداخل وانتشال حقيبتها الطبيّة، لكنّها عادت وتداركت.

«لا يمكنني ذلك. إنّني ممنوعة من ممارسة مهامّي، مايلز. لا يمكنني.»

«إنّك تمزحين، أليس كذلك؟... أرجوك... سيّارة الإسعاف لن تصل قبل...»

«لا يمكنني مايلز»، ردّدت.

استدار وولّى راكضًا، عابرًا البوّابة المفتوحة. رأى سامانثا تعبر الممرّ وسط حديقتهم. ناداها بصوت محطّم، فالتفتت متفاجئة. ظنّت للوهلة الأولى أنها هي التي سبّبت له الهلع.

«أبي... انهار... سيّارة الإسعاف قادمة... بارميندر جاواندا السافلة لا تريد أن تأتي...»

«يا إلهي»، قالت سامانثا، «يا إلهي.»

صعدا في السيّارة على وجه السرعة وانطلقا، مايلز منتعلًا خفّيه، وسامانثا في القبقابين اللذين تسبّبا لها بتشقّقات في رجليها.

«مايلز، اسمع، أتسمع صفّارة سيّارة الإسعاف؟... لقد وصلت...»

لكن حين انعطفا نحو إيفرتري كريسنت، لم يجدا سيّارة الإسعاف. ابتعدت الصفّارة وتوارت في البعيد.

على مسافة أقلّ من كيلومترين من هناك، كانت سوكفيندر جاواندا تتقيأ مياه النهر على العشب، منحنية تحت شجرة صفصاف، فيما سيّدة مسنّة تلفّها بأغطية باتت مبلّلة مثل ثيابها. الرجل الذي عثر على سوكفيندر في النهر وهو ينزّه كلبه، فشدّها من شعرها وقميصها وأخرجها من المياه، كان على مقربة، منحنيًا فوق جسد صغير هامد.

تهيّأ لسوكفيندر أنّ روبي كان يتخبّط بين ذراعيها، أم كان ذلك التيّار العنيف يحاول انتزاعه منها بلا رحمة؟ كانت سبّاحة بارعة، لكنّ نهر أور كان يشدّها إلى القعر، يقذفها إلى حيث يحلو له، وهي مثل دمية لا حول لها ولا قوّة. جرفتها المياه وانعطفت بها ثمّ دفعتها نحو الأرض. نجحت في إطلاق صرخة، ثمّ رأت الرجل مع كلبه يركض صوبها على طول الضفّة...

«هذا غير مجدٍ»، قال الرجل بعدما حاول على مدى عشرين دقيقة إنعاش جسد روبي الصغير. «لقد مات.»

أطلقت سوكفيندر عويلًا وانهارت على الأرض المبلّلة الباردة، تهزّها ارتعاشات عنيفة، فيما سُمِعت صفّارة سيّارة إسعاف. فات الأوان.

في مجمّع أيفرتري كريسنت، كان المسعفون يجدون صعوبة هائلة في تمديد هاورد على المحمل، فاضطرّ مايلز وسامانثا إلى مساعدتهم.

«سوف نتبعكم في السيّارة. اذهبي أنت مع أبي»، صرخ مايلز لشيرلي التي وقفت مسمّرة في ذهول، بدون أن تبدي نيّة في الصعود في سيّارة الإسعاف.

كانت مورين ودّعت آخر زبائنها، فوقفت عند باب «الإبريق النحاسيّ»، منصتة.

«صفّارات الإنذار كثيرة اليوم»، قالت لآندرو الذي كان يمسح الطاولات، منهكًا. «حدث شيء ما، بالتأكيد.»

أخذت نفسًا عميقا، على أمل أن تستنشق بعضًا من رائحة الكارثة المنتشرة في هواء ما بعد الظهيرة الدافئ.

الجزء السادس

نقاط ضعف الهيئات التطوّعيّة

22.23 ... نقطتا الضعف الكبريان في مثل هذه الهيئات هما أنّ إطلاقها صعب وأنّها قابلة للتفكّك...

تشارلز آرنولد-بيكر
إدارة المجالس المحليّة
الطبعة السابعة

1

كثيرًا ما تخيّل كولين وول الشرطة تدقّ على بابه... إلى أن تحقّقت مخاوفه في نهاية الأمر. حضر شرطيّ وشرطيّة مساء يوم الأحد عند المغيب، ليس لاعتقال كولين، بل بحثًا عن ابنه.

حادث فظيع كان «ستوارت، أليس هذا اسمه؟» شاهدًا عليه. «هل هو في المنزل؟»

«لا»، أجابت تيسا. «يا إلهي... روبي ويدون... لكنّه يقيم في الحقول... ماذا كان يفعل هناك؟»

شرحت الشرطيّة برفق ما حصل على حدّ اعتقادهما. «صرف الشابان انتباههما عنه»، هكذا عرضت المسالة.

تهيّأ لتيسا أنّها ستغيب عن الوعي.

«ألا تعلمان مكان وجود ستو؟» سأل الشرطيّ.

«لا»، ردّ كولين الذي بدا شاحبًا، وعيناه محاطتان بدائرتين داكنتين. «أين كان حين شوهد للمرّة الأخيرة؟»

«يبدو أنّه، ما أن وصل زميلنا إلى المكان، حتى هرب ستوارت.»

«يا إلهي!» ردّدت تيسا.

«إنّه لا يردّ»، قال كولين بهدوء، بعدما حاول الاتّصال بفاتس على هاتفه الجوّال. «علينا أن نذهب ونبحث عنه.»

قضى كولين حياته بكاملها يتدرّب تحسّبًا لمثل هذه الكارثة. والآن كان جاهزًا لها. انتشل معطفه.

«سوف أحاول الاتّصال بآرف»، قالت تيسا التي هرعت إلى الهاتف.

لم يكن خبر الفاجعة وصل بعد إلى هيلتوب هاوس المعزول عند أعلى تلّته المطلّة على البلدة الصغيرة. رنّ هاتف آندرو في المطبخ.

«آلو» قال، وفمه مليء بلقمة شطيرة.

«آندي، معك تيسا وول. هل إنّ ستو معك؟»

«لا»، أجاب، «آسف.»

لكن الواقع أنّه لم يكن آسفًا على الإطلاق لعدم وجود فاتس معه.

«وقع حادث، آندي. كان ستو قرب النهر مع كريستال ويدون، ومعهما شقيقها الصغير، وغرق الصبيّ. ستو هرب... هرب إلى مكان ما. هل لديك أيّ فكرة عن مكان وجوده؟»

«لا»، أجاب آندرو تلقائيًا، لأنّ هذا ما تعاهد عليه مع فاتس. ألّا يكشفا أسرارهما لأهلهما تحت أيّ ظرفٍ كان.

لكنّ فظاعة ما أخبرته إيّاه تصاعد من الهاتف وغلّفه، منتشرًا حوله مثل ضباب بارد دبق. بدا له كلّ شيء فجأة أقلّ وضوحًا، أقلّ جلاء. كانت على وشك أن تقفل الخطّ.

«انتظري، سيّدة وول»، قال. «ربّما أعرف... هناك مكان على ضفّة النهر، إلى الأسفل...»

«لا أعتقد في الوضع الراهن أنّه بقي قرب النهر»، قالت تيسا.

مرّت بضع ثوانٍ ازدادت خلالها ثقة آندرو بأنّ فاتس مختبئ في جحرهما الصخريّ.

«إنّه المكان الوحيد الذي يتبادر إلى ذهني»، قال.

«اشرح لي أين...»

«لا بدّ أن أرافقكِ لأريكِ الطريق.»

«سأكون عندكَ بعد عشر دقائق»، صاحت.

كان كولين خرج يجوب شوارع باغفورد مشيًا. قادت تيسا سيّارتها النيسان متسلّقة سفح التلّة، ووجدت آندرو في انتظارها عند الزاوية، حيث يستقلّ عادة الحافلة. قادها عبر البلدة. بدت أضواء مصابيح الشوارع شاحبة في نور الغسق الخافت.

أوقفت تيسا السيّارة في الموقع الذي يترك فيه آندرو عادة درّاجة سايمون. خرجت من السيّارة وتبعت آندرو إلى حافّة المياه، مستغربة وخائفة.

«ليس هنا»، قالت.

«المكان أبعد، من هنا»، قال آندرو، مشيرًا إلى الجرف الصخريّ الداكن الذي ينحدر وعرًا من أعلى تلّة بارغيتر نحو النهر، مفسحًا بالكاد لشريط ضيّق من الأرض بجانب السيل المتدافع في الأسفل.

«ماذا تعني؟» سألت تيسا فزعة.

كان آندرو يعلم منذ البداية أنّه لن يكون بمقدورها أن ترافقه بقامتها القصيرة السمينة.

«سوف أذهب وأتفقّده بنفسي»، أجاب، «انتظري هنا.»

«لكنّ هذا المكان خطير جدًّا!» صرخت، محاولة أن يطغى صوتها فوق هدير النهر.

تجاهل كلامها واندفع باحثًا عن النتوءات والتجويفات الأليفة في الصخور ليتمسّك بها بيديه ورجليه. وفيما كان يبتعد ببطء في الممرّ الضيّق، خطرت لهما الفكرة ذاتها. قد يكون فاتس سقط أو قفز في المياه المتدفّقة بضراوة، على مسافة خطوة صغيرة من آندرو.

بقيت تيسا واقفة عند حافّة النهر إلى أن غاب أندرو عن أنظارها، فاستدارت، جاهدة لحبس دموعها. إن كان فاتس فعلًا هناك، فهي بحاجة إلى التكلّم معه بهدوء. خطرت لها كريستال لأوّل مرّة. تساءلت أين يمكن أن تكون. لم تقل الشرطة لهما أيّ شيء عنها، وخوفها على فاتس طغى على أيّ شيء آخر...

يا إلهي، أتوسّل إليك، دعني أجد ستوارت، صلّت. دعني أجده، أتوسّل إليك يا إلهي.

ثمّ أخرجت هاتفها الجوّال من جيب معطفها واتّصلت بكاي بودين.

«لا أدري إن كنت على علم»، صرخت فوق خرير المياه. وأخبرت كاي بما جرى.

«لكنّني لم أعد مسؤولة عنها»، أجابت كاي.

على مسافة ستّة أمتار بالكاد، وصل آندرو إلى الجحر الصخريّ. كانت الظلمة حالكة. لم يسبق أن قصد الكهف في مثل هذه الساعة. انسلّ من الفجوة ودخل.

«فاتس؟»

سمع حركة في قعر الكهف.

«فاتس؟ هذا أنت؟»

«معك ولّاعة، آرف؟» أجاب صوت غريب تمامًا عن صوت صديقه. «سقطت منّي علبة الثقاب اللعينة.»

خطر لآندرو أن ينادي تيسا ليطمئنها، لكنّها في مطلق الأحوال لا تدري كم من الوقت يستغرق العبور إلى الكهف، وبامكانها الانتظار بضع لحظات بعد.

مدّ ولّاعته لفاتس. أضاءت الشعلة المرتجفة وجه صديقه. بدا له مختلفًا تمامًا، مثل صوته. كانت عينا فاتس منتفختين، ووجهه بكامله متورّم.

انطفأت الشعلة الصغيرة وظهر طرف سيجارة فاتس مشتعلًا في العتمة.

«هل مات؟ شقيقها؟»

لم يكن يعرف. لم يدرك آندرو هذا.

«أجل»، أجاب. وبعد برهة أضاف «أعتقد ذلك. هذا ما... هذا ما سمعته.»

خيّم صمت، ثم تصاعد أنين حادّ مخنوق في الظلمة، مثل قباع خنزير صغير.

«سيّدة وول!» صاح آندرو، مادًّا رأسه قدر الإمكان من الفجوة، حتّى يطغى هدير النهر على شهقات فاتس فلا يعود يسمعها. «سيّدة وول! وجدته!»

2

عاملتها الشرطيّة برفق ومراعاة، في البيت الصغير المكتظّ بالأثاث والتحف قرب النهر، حيث كانت الأغطية تعصر بمياه باردة قذرة بلّلت أيضًا الأرائك المكسوّة بقماش قطنيّ والبسط الرثّة. أحضرت لها السيّدة المسنّة غلّاية لتدفئ رجليها وأعدّت لها كوبًا من الشاي الساخن لم يكن بوسع سوكفيندر رفعه إلى شفتيها من شدّة ما كانت ترتجف. تمكّنت من إعطائهم معلومات متفرّقة، على دفعات: اسمها واسم كريستال، اسم الصبيّ الصغير الميت الذي كانوا يحملونه إلى سيّارة إسعاف. الرجل الذي سحبها من النهر كان يعاني مشكلة في السمع. كان يدلي بإفادته للشرطة في الغرفة المجاورة، ووجدت سوكفيندر صراخه مزعجًا وهو يسرد زاعقًا روايته لما جرى. كان ربط كلبه إلى شجرة خارج النافذة، والكلب ينبح بدون توقّف.

ثمّ اتّصل الشرطيّون بوالديها اللذين حضرا. اصطدمت بارميندر بطاولة، فحطمت إحدى تحف السيّدة المسنّة وهي تعبر الغرفة مسرعة، حاملة ملابس نظيفة لابنتها. في الحمّام الصغير، ظهر الجرح العميق في ساق سوكفيندر، وتساقطت منه كتل صغيرة داكنة تبعثرت على الحصيرة. حين رأت بارميندر الجرح، صرخت بأعلى صوتها لفيكرام الذي كان يشكر الجميع بكثير من التأثّر في الردهة، أنّه يجدر نقل سوكفيندر إلى المستشفى.

تقيّأت مرّة جديدة في السيارة، وقامت والدتها الجالسة بجانبها على المقعد الخلفيّ بمسح وجهها. لم يتوقّف والداها عن الكلام طوال الطريق بصوت عالٍ، وكان فيكرام يردّد الأشياء ذاتها، فيقول باستمرار «سوف تحتاج إلى مسكّن»، و«هذا الجرح يتطلّب عدّة غرزات بالتأكيد»، فيما بارميندر إلى جانب ابنتها التي كانت ترتعش وتشعر بالغثيان، تكرّر «كدت تموتين. كدت تموتين.»

شعرت سوكفيندر وكأنّها لا تزال في قعر النهر. في مكان حيث لا يمكنها أن تتنفّس. حاولت أن تطفو إلى السطح، أن تقاطعهما وتُسمِع صوتها.

«هل تعرف كريستال أنّه مات؟» قالت بصعوبة وأسنانها تصطكّ، فاضطرّت إلى تكرار سؤالها عدّة مرّات.

«لست أدري»، أجابت بارميندر أخيرًا. «كدت تموتين، سنونو».

طلبوا منها في المستشفى أن تخلع ثيابها من جديد، لكن هذه المرّة كانت والدتها معها في الحجرة الصغيرة خلف الستائر. أدركت سوكفيندر بعد فوات الأوان الخطأ الذي ارتكبته، حين رأت الهول على وجه بارميندر.

«يا إلهي!» هتفت، ممسكة بذراع سوكفيندر. «يا إلهي! ماذا فعلت بنفسك؟»

لم تجد سوكفيندر ما تقوله، فانهارت وراحت تبكي وترتعد بشكل خارج تمامًا عن السيطرة. صاح فيكرام بالجميع، بمن فيهم بارميندر، أن يدَعوها وشأنها، وأن يسرعوا في إغاثتها بحقّ الجحيم! وأنّه ينبغي تطهير الجرح وأنّها بحاجة إلى غرزات ومهدّئات وصور بالأشعّة السينيّة...

مدّدوها لاحقًا في سرير وأحاط بها والداها من الجانبين، كلّ منهما ممسكًا بإحدى يديها يداعبها ويربّتها. كانت دافئة وخدرة، ولم تعد تشعر بالألم في ساقها. خلف النافذة، كانت السماء قاتمة.

«أصيب هاورد موليسون بنوبة قلبية جديدة» سمعت والدتها تقول لوالدها. «طلب منّي مايلز أن أذهب لإسعافه.»

«رجل وقح حقًا»، ردّ فيكرام.

فوجئت سوكفيندر في ضباب خدرها بعدم استرسالهما في الحديث عن هاورد موليسون. اكتفيا بهذا الحدّ، وواصلا مداعبة يديها، إلى أن غرقت بعد لحظات في سبات عميق.

عند الطرف الآخر من المبنى، في قاعةٍ جدرانها مكسوة بطلاء أزرق متشقّق، فيها صفّ من الكراسي البلاستيكيّة وحوض سمك في إحدى الزوايا، وقف مايلز وسامانثا من جانبين شيرلي، ينتظرون أنباء من غرفة العمليّات. كان مايلز لا يزال ينتعل خفّيه.

«لا يسعني أن أصدّق كيف رفضت بارميندر جاواندا القدوم»، قال مايلز للمرّة المئة بصوت محطّم. نهضت سامانثا، عبرت أمام شيرلي، لفّت ذراعيها حول مايلز وراحت تقبّله على شعره الكثّ حيث تظهر خيوط الشيب، متنشّقة رائحته الأليفة.

قالت شيرلي بصوت حادّ مخنوق: «لست متفاجئة بموقفها. أمر مثير للاشمئزاز.»

كلّ ما تبقّى لها من حياتها السابقة وثوابتها القديمة، كان توجيه سهامها إلى الأهداف ذاتها. الصدمة سلبتها كلّ شيء ولم تترك لها سوى القليل القليل. لم تعد تدري ما تؤمن به، أو حتّى ما تأمله. الرجل الممدّد في غرفة العمليّات ليس الرجل الذي ظنّت أنّها تزوّجته. لو كان بوسعها فقط العودة إلى تلك المساحة الهانئة من اليقين والثقة، مساحة ما قبل قراءتها لتلك الرسالة الرهيبة...

ربّما يجدر بها إغلاق الموقع من أساسه. محو لوح الرسائل برمّته. تخشى أن يعود الشبح، أن يردّد الفظاعات ذاتها مرّة جديدة...

أرادت العودة إلى المنزل على الفور وتعطيل الموقع. وفي طريقها، إتلاف حقنة الإيبي- بن بشكل نهائيّ...

رآها... هي واثقة بأنّه رأى الحقنة...

لكنّني لما كنت أقدمت على فعلتي، حقّا. لما كنت مضيت حتّى النهاية. كنت مستاءة. لما كنت أقدمت على فعلتي إطلاقًا...

ماذا لو نجا هاورد، وكانت كلماته الأولى: «هرعَت خارج الغرفة حين رأتني. لم تطلب سيّارة إسعاف على الفور. كانت تحمل حقنة ضخمة...

عندها سوف أقول إنّ النوبة أثّرت في دماغه، فكّرت شيرلي بتحدّ.

وماذا لو توفّي...

إلى جانبها، كانت سامانثا تعانق مايلز. هذا لم يعجب شيرلي. هي التي ينبغي أن تكون محطّ الاهتمام. الرجل الممدّد في الأعلى، يقاوم ويصارع الموت، هو زوجها هي. كانت تريد أن تكون مثل ماري فيربراذر، بطلة تراجيديّة. أن تحظى مثلها بالإعجاب والعطف. لم تتصوّر أن تكون الأمور على هذا النحو إطلاقًا...

«شيرلي؟»

كانت روث برايس هرعت إلى القاعة في بدلة الممرّضات، وجهها الرقيق مفعم بالتعاطف.

«وردني الخبر للتوّ... كان لا بدّ لي أن أراك... يا للهول، شيرلي، إنّني آسفة حقًا.»

«عزيزتي روث»، قالت شيرلي وهي تنهض، مستسلمة لعناق صديقتها. «هذا في غاية اللطف. في غاية اللطف.»

سرّت شيرلي بتقديم صديقتها العاملة في الطاقم الطبّي لمايلز وسامانثا، وبحصد شفقتها وعطفها أمامهما. أحسّت بطعم ما ستكون عليه حياتها كأرمل، على الأقلّ كما تتصوّرها...

غير أنّ روث اضطرّت للعودة إلى العمل، وعادت شيرلي إلى كرسيّها البلاستيكيّ وأفكارها المكدّرة.

«سيكون بخير»، تمتمت سامانثا لمايلز الذي أسند رأسه إلى كتفها. «إنّني واثقة بأنّه سينجو. هذا ما فعله في المرّة الماضية.»

تأمّلت شيرلي الأسماك الصغيرة الفوسفوريّة تتدافع مثل أسهم متوهّجة في كلّ الاتّجاهات في حوضها. الماضي هو ما كانت تتمنّى تبديله. أمّا المستقبل، ففراغ وخواء.

«هل اتّصل أحد لإخبار مو؟» سأل مايلز بعد برهة، وهو يمسح عينيه بظهر يده، فيما الأخرى متمسّكة بساق سامانثا. «أمّي، هل تريدينني أن...؟»

«لا» قالت شيرلي بنبرة جافّة. «سوف ننتظر... إلى أن نعلم شيئا.»

في غرفة الجراحة في الأعلى، كان جسد هاورد موليسون يطفح من طاولة العمليّات. صدره مشرّع، كاشفًا عن أطلال ما أنجزه فيكرام جاواندا في الماضي. حوله تسعة عشر شخصًا يعملون بكدّ لإصلاح الأضرار، فيما الآلات التي كان هاورد موصولًا بها تصدر أصواتًا خافتة هادئة مثل أحكام مبرمة، تؤكّد أنّه لا يزال على قيد الحياة.

بعيدًا في الأسفل، في أعماق المستشفى، كانت جثّة روبي ويدون ترقد، باردة وشاحبة في المشرحة. لم يرافقه أحد إلى المستشفى، ولم يزره أحد في درجه المعدنيّ.

3

رفض آنـدرو عرض تيسا بإعادته إلى هيلتوب هاوس في سيّارتها، فعادت وحدها مع فاتس. «لا أريد الذهاب إلى المنزل»، قال فاتس.

«حسنًا»، أجابت تيسا. واصلت طريقها وهي تكلّم كولين على الهاتف.

«إنّه معي... آندي عثر عليه. سوف نعود بعد قليل... أجل... أجل، سوف أفعل...»

كانت الدموع تنهمر على وجه فاتس. جسده يفضحه، كما في صغره تمامًا، حين تبوّل على نفسه من شدّة فزعه من سايمون برايس، فانساب خيط من البول على طول ساقه حتّى جوربه. سالت القطرات الحارّة المالحة على ذقنه وسقطت على صدره مثل قطرات مطر.

كان يتصوّر المأتم في ذهنه، مثل شريط يعاوده باستمرار، بلا كلل. يرى النعش الصغير.

لم يكن يريد أن يفعلها والصبيّ على مقربة منهما.

هل سيأتي يوم يزول فيه عبء الطفل الميت عن ضميره؟

«إذًا قررْتَ الهروب»، قالت تيسا ببرودة، متجاهلة دموعه.

صلّت من أجل أن تجده على قيد الحياة، لكن ما تشعر به الآن هو الاشمئزاز، اشمئزاز يطغى على أيّ شيء آخر. دموعه لم تلطّف مشاعرها حياله. فهي اعتادت، في حياتها، رؤية رجال يبكون. حتّى إنّها، في مكان ما، شعرت بالخزي لأنّه لم يقرّر رمي نفسه في النهر بعد كلّ ما حصل.

«قالت كريستال للشرطة أنّك كنت معها بين الشجيرات. تركتما الصبيّ يتدبّر أمره، هكذا بكلّ بساطة، أليس هذا ما حصل؟»

لم يستطع فاتس التفوّه بكلمة. قسوتها لا تصدّق. ألم تكن تدرك كل الأسف والهول اللذين يلتهمانه؟ تلك الفاجعة طالته هو أيضًا.

«حسنًا، آمل أن تكون جعلتها فعلًا تحمل»، قالت تيسا. «هذا سيعطيها ما تحيا لأجله.»

كلّما كانا يسلكان منعطفًا، كان يظنّ أنّها ستعيده إلى المنزل. كان يخشى في بادئ الأمر مواجهة أبو خزانة، لكنّه لم يعد يرى الآن أيّ فرق بين والديه. ودّ لو يخرج من السيّارة، لكنّها أقفلت جميع الأبواب عليهما.

انحرفت عن الطريق فجأة، بدون سابق إنذار، وفرملت بشكل حادّ موقفةً السيّارة. متشبّثًا بجانبي مقعده، لاحظ فاتس أنّهما توقّفا على مسلك بجانب الطريق الدائريّ السريع. التفت إليها بوجهه المنتفخ من شدّة البكاء، مذعورًا لاحتمال أن تطرده من السيّارة.

«أمّك البيولوجيّة» قالت وهي تحدّق إليه بنظرة لم يرَها من قبل، خالية من أيّ شفقة أو رأفة، «كانت في الرابعة عشرة من عمرها. كان لدينا انطباع ممّا قيل لنا، أنّها من الطبقة الوسطى، فتاة ذكيّة لامعة. رفضت رفضًا باتًّا أن تكشف عن هويّة والدك. لم يدرِ أحد إن كانت تحاول حماية صديق تحت السنّ، أو شيء أسوأ من ذلك. قيل لنا كلّ هذا، في حال تبيّن أنّك تعاني صعوبات عقليّة أو جسديّة. في حال..» تابعت وهي تعتمّد النطق بوضوح، مثل أستاذ يشدّد على نقطة من المؤكّد أنّها ستطرح في الامتحان، «في حال كنت ثمرة علاقة محرّمة.»

أعرض عنها، جفلًا. لكان فضّل أن ترديه برصاصة.

«كنت يائسة لتبنّيك. يائسة. لكنّ والدك كان مريضًا للغاية. قال لي: لا يمكنني القيام بذلك. أخشى أن أؤذي الطفل. لا بدّ لي أن أتحسّن قبل أن نقدم على مثل هذه الخطوة، ولا يمكنني أن أتعالج وأنا مضطر إلى الاهتمام بطفل في الوقت نفسه.»

«لكنّني كنت مصمّمة على تبنّيك، إلى حدّ أنّني ضغطت عليه حتّى يكذب ويقول للعاملات الاجتماعيّات أنّه بخير، ويدّعي بأنّه سعيد وطبيعيّ. جلبناك إلى البيت، كنت طفلًا صغيرًا مولودًا قبل أوانه. وفي الليلة الخامسة، انسلّ والدك من السرير وذهب إلى المرأب، غرز خرطومًا في عادم السيّارة وحاول أن يقتل نفسه، لأنّه كان مقتنعًا بأنّه خنقك. كاد يموت.»

«يمكنك، إذًا، أن تلومني على الانطلاقة السيّئة بينك وبين والدك»، تابعت تيسا، «وربّما يمكنك أن تلومني على كلّ ما جرى منذ ذلك الحين. لكن

دعني أقول لك شيئًا ستوارت. قضى والدك حياته بأكملها يتعامل مع أفعال لم يرتكبها يومًا. لا أتوقّع منك أن تفهم هذا النوع من الشجاعة، لكن» وغصّت أخيرًا وتحطّم صوتها لتعود الأمّ الذي عهدها، «إنّه يحبّك، ستوارت.»

أضافت تلك الكذبة لأنّها لم تقوَ على مقاومتها. الليلة، للمرّة الأولى، كانت تيسا مقتنعة بأنّها حقًّا كذبة، وبأنّ كلّ ما فعلته طوال حياتها، حين كانت تطَمْئن نفسها بأنّ ما تقوم به إنّما هو للأفضل، لم يكن سوى وجه من الأنانية العمياء، ولّد البلبلة وأشاع الفساد حولها. لكن مَن كان ليحتمل أن يعرف أيّ نجوم كانت مطفأة وميتة، فكّرت تيسا، محدّقةً إلى السماء الليليّة بعينين ترمشان، هل كان أحدٌ ليحتمل أن يعرف بيقين بأنّها كانت كلّها ميتة؟

أدارت المحرّك من جديد، أحكمت المبدّل بخشونة على السرعة الأولى، وانطلقا مجدّدا على الطريق الدائريّ.

«لا أريد الذهاب إلى الحقول»، قال فاتس مذعورًا.

«لسنا ذاهبين إلى الحقول»، أجابت. «سوف أعيدك إلى المنزل.»

4

عثرت الشرطة أخيرًا على كريستال ويدون. وجدتها تعدو يائسة بمحاذاة النهر عند مشارف باغفورد، وهي لا تزال تنادي شقيقها بصوت مبحوح. اقتربت منها الشرطيّة ونادتها باسمها، محاولة نقل الخبر إليها برفق، لكنّ الفتاة انقضّت عليها وحاولت ضربها لإبعادها عن طريقها، وفي نهاية الأمر، اضطرّت الشرطيّة إلى التعارك معها تقريبًا لإدخالها في السيّارة. كريستال لم تلحظ فاتس يتوارى بين الأشجار ويختفي. لم يعد موجودًا حتّى بالنسبة إليها.

نقل الشرطيّون كريستال إلى منزلها، لكن حين دقّوا على الباب، رفضت تيري أن تفتح لهم. لمحتهم قادمين من نافذة في الطبقة العليا، وظنّت أنّ كريستال قامت بما لا يُعقل ولا يغتفر، وأخبرت هؤلاء الخنازير بكيسَي أوبو المليئين بالحشيشة. جرّت الكيسين الثقيلين على الأدراج فيما الشرطة تدقّ

على الباب بدون توقّف، ولم تفتح إلّا عندما تهيّأ لها أنّه لم يعد أمامها من خيار آخر.

«ماذا تريدون؟» صاحت من خلال الباب المشقوق بالكاد.

طلبت الشرطيّة منها ثلاث مرّات أن تسمح لهم بالدخول، وثلاث مرّات رفضت تيري، مصرّة على معرفة ما يريدونه. بدأ الجيران يطلّون ويتلصّصون من خلال نوافذهم. وحتّى عندما قالت لها الشرطيّة إنّ «المسألة تتعلّق بابنك، روبي»، لم تدرك تيري خطورة الوضع.

«إنّه بخير، ليس هناك من مشاكل على الإطلاق، هو مع كريستال.»

لكن ما أن قالت ذلك، حتّى رأت كريستال التي لم تشأ البقاء في السيّارة، فتقدّمت في الممرّ عبر الحديقة. انخفضت عينا تيري إلى المكان الذي يفترض أن يكون فيه روبي، ممسكًا بيد شقيقته، وذعرت لوجود هؤلاء الرجال الغرباء.

اندفعت تيري خارج منزلها كالمجنونة، يداها ممدودتان أمامها مثل مخالب. قبضت عليها الشرطيّة من خصرها واستدارت بها لإبعادها عن كريستال قبل أن تنقضّ عليها وتمزّق وجهها.

«أيّتها العاهرة الحقيرة! أيّتها العاهرة الحقيرة! ماذا فعلتِ بروبي؟»

التفّت كريستال حول المرأتين المتعاركتين، دخلت المنزل كالبرق وأغلقت الباب خلفها.

«بحقّ الجحيم!» تمتم الشرطيّ لنفسه.

على مسافة كيلومترات في شارع هوب، كانت كاي وغايا بودين تتواجهان في الممشى المعتم. لم يكن بإمكان أيّ منهما الوصول إلى المصباح الذي انطفأ قبل أيام لتبديله، ولم يكن لديهما سلّم. قضتا النهار بكامله تتشاجران، ثمّ تتصالحان، فتتشاجران مجدّدًا. وفي نهاية المطاف، حين بدتا على وشك التصالح، بعدما أقرّت كاي بأنّها هي أيضا تكره باغفورد، وبأنّ المسألة برمّتها كانت خطأ ارتكبته، وبأنّها سوف تحاول العودة بهما إلى لندن، رنّ هاتفها الجوّال.

«شقيق كريستال ويدون غرق»، همست بعدما أغلقت الخطّ مع تيسا.

«لا!» قالت غايا. كانت على يقين بأنّ عليها إبداء تعاطف، غير أنّها كانت تخشى طيّ حديثهما بشأن لندن قبل أن تحصل على وعد قاطع من والدتها، فأضافت بصوت واهن «هذا حزين.»

«وقع الحادث هنا، في باغفورد»، قالت كاي، «على حافّة الطريق. كانت كريستال مع ابن تيسا وول.»

اشتدّ على غايا الإحساس بالخزي لسماحها لفاتس وول بتقبيلها. كان طعم قبلته كريهًا، طعم بيرة وسجائر، كما أنّه حاول ملامستها. كانت تستحقّ أفضل من فاتس وول، هي على يقين بهذا. لو كان ذلك آندي برايس الذي قبّلها، لما كانت ندمت على الأمر إلى هذا الحدّ. سوكفيندر لم تجب على أيّ من اتّصالاتها، طوال النهار.

«لا بدّ أنّها مدمَّرة تمامًا»، قالت كاي، شاردةً.

«لكن ليس هناك ما يمكنك أنت القيام به، صحّ؟» قالت غايا.

«حسنًا...»، بادرت كاي.

«لا! لن تفعلي بي ذلك مرّة جديدة!» صاحت غايا. «دائمًا الأمر نفسه! دائمًا! لم تعودي مسؤولة عنها! ماذا عنّي أنا؟» صرخت وهي تضرب الأرض برجليها، مثلما كانت تفعل وهي طفلة. «ماذا عنّي؟»

اتّصل ضابط الشرطة في شارع فولي بأحد المساعِدين الاجتماعيّين الذي كان في الخدمة. كانت تيري تصارع وتتلوّى في كلّ الاتّجاهات، مطلقة زعيقًا وهي تحاول الطرق على الباب، فيما تتصاعد من داخل المنزل أصوات قطع أثاث تُجَرّ وتُكدَّس مثل حاجز منيع. خرج الجيران الواحد تلو الآخر من منازلهم، ووقفوا بذهول يراقبون بفضول مشهد تيري تنهار تمامًا. شقّ خبر الفاجعة طريقه إلى جموع المتفرّجين الذين تناقلوه، مستنتجين ما حصل من صيحات تيري غير المفهومة وسلوك الشرطة الذي ينذر بالشؤم.

«الصبيّ الصغير مات»، تهامسوا. لم يقترب أحد لمواساة تيري ويدون أو التخفيف عنها. لم يكن لديها أصدقاء.

«تعالي معي»، توسّلت كاي ابنتها المتمرّدة. «سأذهب إلى منزلهم وأرى إن كان بوسعي القيام بأيّ شيء. كنت أتّفق مع كريستال. ليس لديها أحد.»

«أراهن على أنّها كانت تضاجع فاتس وول حين وقع الحادث!» صاحت غايا. لكنّ ذلك كان آخر احتجاج تطلقه. بعد دقائق قليلة، كانت تربط حزام الأمان في سيّارة كاي القديمة الفوكسهول، مسرورة رغم كلّ شيء لأنّ كاي طلبت منها أن ترافقها.

في الوقت الذي وصلتا إلى الطريق الدائريّ، كانت كريستال عثرت على ما كانت تبحث عنه: حزمة من الهيرويين مخبّأة في خزانة مروحة التهوئة. الثانية من الحزمتين اللتين أعطاهما أوبو لتيري لقاء ساعة تيسا وول، حملتها مع عدّة تيري إلى الحمّام، الغرفة الوحيدة في المنزل التي يمكن إغلاق بابها بالمفتاح.

لا بدّ أن خالتها شيريل سمعت بما حصل، لأنّ كريستال سمعتها تصيح بذلك الصوت الخشن الخاصّ بها. كان زعيق المرأتين لا يزال يتسرّب إليها من خلال البابين.

«أيّتها العاهرة الحقيرة، افتحي الباب! دعي والدتك تدخل وتراك!»

الشرطيّون أيضًا أخذوا يزعقون، محاولين إسكاتهما.

لم تحقن كريستال نفسها من قبل، لكنّها رأت آخرين يفعلون أمامها. كانت تعرف عن «القارب» وتعرف كيف تصنع «بركانًا». تعرف كيف تسخّن الملعقة، وكيف تستخدم كرة القطن الصغيرة لامتصاص المسحوق المسيّل، ثمّ لترشيح السائل عند ملء الحقنة. تعرف أنّ ثنية الذراع هي المكان الأمثل للعثور على عرق، وأنّه يجب أن تكون الإبرة مسطّحة قدر الإمكان على الجلد عند غرزها. تعلم ممّا قيل أمامها أنّ الذين يتعاطون حديثًا عليهم أن يحترسوا لأنّهم لا يحتملون الجرعات التي يتعاطاها المدمنون، وهذا ما يناسبها تمامًا، لأنّها لم تكن تريد أن تحتمل.

روبي مات، وهي المسؤولة. كانت تحاول إنقاذه، فقتلته. فيما أصابعها منشغلة في إتمام ما عليها القيام به، طفت إلى ذهنها مشاهد مرتجفة واهية، مثل ومضات من حياتها. السيّد فيبراذر يركض على طول ضفّة القناة في سرواله الرياضيّ فيما الفريق يندفع مجذّفًا فوق المياه. وجه نانا كاث

يفيض ألمًا وعطفًا. روبي ينتظرها خلف نافذة عائلة الاستقبال، نظيف بشكل استثنائيّ، يقفز من شدّة الإثارة والترقّب وهي تقترب من الباب...

بوسعها سماع الشرطيّ يناديها من خلال فتحة البريد في الباب، يقول لها ألّا ترتكب حماقة، والشرطيّة تحاول إسكات تيري وشيريل.

انزلقت الإبرة بدون أيّ مقاومة في عرق كريستال. ضغطت على المكبس بقوّة، حتّى آخر نقطة، ورأسها مليء بأمل خالٍ من أيّ ندم.

حين وصلت كاي وغايا، وقرّرت الشرطة أخيرًا خلع الباب، كانت كريستال ويدون حقّقت مبتغاها الوحيد. باتت إلى جانب شقيقها، حيث لا يمكن لأحد أن يفرّق بينهما.

الجزء السابع

إغاثة الفقراء

13.5 الهبات المقدّمة إلى الفقراء... تعتبر خيريّة، وتظلّ الهبة الممنوحة لفقراء خيريّة حتّى لو صادف أن استفاد منها الأغنياء عرضًا...

تشارلز آرنولد-بيكر
إدارة المجالس المحليّة
الطبعة السابعة

بعد حوالى ثلاثة أسابيع على الليلة التي دوّت فيها صفّارات سيّارات الإسعاف في شوارع باغفورد النائمة، وقفت شيرلي موليسون وحيدة في غرفة نومها في صبيحة مشمسة من شهر أبريل، تنظر بعينين نصف مغمضتين إلى صورتها في مرآة الخزانة. كانت تضع اللمسات الأخيرة على هندامها قبل أن تغادر في زيارتها اليومية إلى مستشفى ساوث وست العامّ. باتت الآن تربط حزامها أضيق بزردة منه قبل أسبوعين. شعرها الفضيّ بحاجة إلى قصّ أطرافه، وتكشيرتها في نور الشمس الباهر المتدفّق إلى الغرفة يمكن أن تبدو مجرّد تعبير عن مزاجها الاعتياديّ في هذه الأيّام.

جابت شيرلي على مدى سنة أروقة المستشفى، دافعة أمامها عربة المكتبة، حاملة ملفّات وأزهارًا، بدون أن يخطر لها، ولو مرّة، أنّها قد تصبح ذات يوم أشبه بتلك النساء اللواتي يجلسن حانيات رؤوسهنّ إلى جانب الأسرّة، حياتهنّ محطّمة، أزواجهنّ مهزومون واهنون. لم يتعافَ هاورد بالسرعة التي تعافى بها قبل سبع سنوات. لا يزال موصولًا بآلات تصدر صفيرًا وطنينًا، خائرًا ومنغلقًا على نفسه، شاحبًا إلى حدّ مخيف وعاجزًا تمامًا عن القيام بمطلق شيء بنفسه، ما يجعله مثل عالة مزعجة. أحيانًا تدّعي أنّها ذاهبة إلى الحمّام حتّى تفلت لبعض الوقت من نظرته النكدة المتوعّدة.

حين يرافقها مايلز إلى المستشفى، تغتنم الفرصة لتعهد إليه بمهمّة محادثة هاورد، وهو ما كان يفعله، ساردًا له أخبار باغفورد في سيل متواصل لا ينضب. تشعر بنفسها أفضل حالًا بكثير، تشعر بأنّ لها حضورًا أكبر وسندًا أقوى في آن، حين يسير مايلز بقامته الطويلة إلى جانبها عبر الأروقة الباردة. يحادث الممرّضات بودّ وحفاوة، ويمسك بذراعها لمساعدتها على الصعود في السيّارة والخروج منها، فيعيد إليها الإحساس بأنّها شخص نادر ثمين، جدير بالاهتمام والرعاية. لكنّ مايلز لا يمكنه مرافقتها كلّ يوم، فغالبًا ما ينتدب سامانثا لترافقها عوضًا عنه، ما يثير استياء شيرلي إلى أقصى حدّ. الأمر يختلف تمامًا مع سامانثا، ولو أنّها من القلائل القادرين على انتزاع ابتسامة من هاورد، ترتسم على وجهه المحتقن الفارغ.

لم يكن أحد يدرك، على ما يبدو، فظاعة الصمت المخيّم في المنزل أيضًا. حين أعلن الأطبّاء للعائلة أنّ هاورد لن يتعافى قبل أشهر، أملت شيرلي أن يعرض عليها مايلز أن تنتقل للعيش معهم في غرفة الضيوف في منزلهم الفسيح في تشيرتش روو، أو على الأقلّ أن يبيت عندها بين الحين والآخر في البيت الصغير. لكن عوضًا عن ذلك، تُركت وحدها، وحدها تمامًا، باستثناء تلك الأيّام الثلاثة الأليمة التي استضافت فيها بات وميلي.

لما كنت أقدمت على فعلتي إطلاقًا. هكذا كانت تطمئن نفسها تلقائيًا في صمت الليل، حين لا تجد النوم. لم أكن أنوي ذلك حقًا. كنت مستاءة، هذا كلّ ما في الأمر. لما كنت أقدمت إطلاقًا على مثل هذا الأمر.

طمرت حقنة الإيبي- بين في تربة حديقتها، تحت مجثم الطيور، مثل جثّة صغيرة. لم تكن مرتاحة لوجودها هناك، ماثلة في ذهنها أبدًا. سوف تنبشها في إحدى الليالي الليلاء، عشيّة مرور عمّال البلديّة، وسوف تدسّها في برميل نفايات أحد الجيران.

لم يأتِ هاورد على ذكر الحقنة أمامها أو أمام أيّ كان. لم يسألها لماذا هرعت خارج الصالون حين رأته.

كانت شيرلي تروّح عن نفسها بالاسترسال في هجاء مطوّل وعنيف، توجّهه ضدّ كل من تسبّب، برأيها، بالفاجعة التي حلّت على عائلتها. بارميندر

جاواندا كانت بالطبع في طليعة المتسبّبين بمأساتها، برفضها إسعاف هاورد. ثمّ هناك الفتيان اللذان ارغما سيّارة الإسعاف على التحوّل عن طريقها بسبب حماقتهما وقلّة أخلاقهما، وإلّا لكانت وصلت ربّما إلى هاورد بسرعة أكبر.

الحجّة الأخيرة ربّما تكون ضعيفة بعض الشيء، لكنّ الطعن في ستوارت وول وكريستال ويدون بات تقليدًا رائجًا في هذه الأيّام في باغفورد، ولم تكن شيرلي تجد صعوبة في العثور على آذان صاغية في محيطها المباشر. فضلًا عن أنّ الخبر انتشر في البلدة بأنّ الفتى وول كان هو نفسه شبح باري فيربراذر منذ البداية. هذا ما اعترف به لوالديه، اللذين حرصا على الاتّصال شخصيًّا بضحايا ابنهما للاعتذار. وسرعان ما ذاعت هويّة الشبح وتعمّمت على مجموع سكّان البلدة، فأصبح التنديد بستوارت واجبًا ومتعة في آن، لا سيّما وأنّ الجميع على علم بأنّه يتحملّ جزئيًّا مسؤوليّة غرق طفل في الثالثة من العمر.

كانت شيرلي الأكثر شراسةً في انتقاداتها بين جميع أهالي البلدة. كان هناك درجة من الوحشيّة في شجبها له، وكأنّها في كلّ تهمة توجّهها إليه، إنما تزيل عن ضميرها بعضًا من التضامن والإعجاب اللذين شعرت بهما حيال الشبح، وتنكر ذلك التعليق الأخير المروّع الذي لم يعترف أحد سواها حتّى الآن بأنّه قرأه. لم يتّصل آل وول بشيرلي للاعتذار، لكنّها كانت تبقى متأهّبة على الدوام، في حال قرّر الفتى إخبار والديه بالأمر، أو في حال تطرّق أيّ كان إلى الموضوع، لتسدّد الضربة القاضية لسمعة ستوارت.

«آه أجل، إنّنا على علم بالمسألة، أنا وهاورد»، سوف تقول بوقار قارس، «وأعتقد شخصيًّا أنّ الصدمة هي التي تسبّبت له بالنوبة القلبيّة.»

الواقع أنّها أعدّت هذا الردّ وتدرّبت على قوله بصوت عالٍ في المطبخ.

أمّا مسألة ما إذا كان ستوارت وول على علم فعلًا بشيء ما عن زوجها ومورين، فلم تعد مطروحة بإلحاح الآن، لأنّ هاورد لم يعد قادرًا في الحالة التي هو فيها على إذلالها كما فعل، وقد لا يعود ذلك بوسعه أبدًا بعد الآن، وفي مطلق الأحوال، لم تكن أيّة شائعات تسري بهذا الصدد. وإن كان الصمت الذي تقابل به هاورد حين تضطرّ إلى البقاء وحيدة معه، مثقلًا بالملامة والمظالم

من الجانبين، إلّا أنّه بات بوسعها مواجهة احتمال إصابته بعجز دائم كما ومواجهة غيابه عن المنزل بمزيد من الهدوء والصفاء ممّا لكانت ظنّت نفسها قادرة عليه قبل ثلاثة أسابيع فقط.

رنّ جرس الباب، فهرعت شيرلي. كانت مورين واقفة أمام المنزل، محزّمة في فستان فيروزيّ زاهٍ رخيص، وتنتعل حذاء بكعب عالٍ تكاد تتعثّر به.

«مرحبًا عزيزتي، تفضّلي» قالت شيرلي. «سوف أحضر حقيبتي.»

من الأفضل لها أن تصطحب أحدًا إلى المستشفى، حتّى لو كان ذلك الأحد هو مورين، من أن تذهب وحيدة. لم يكن صمت هاورد يربك مورين، التي واصلت ثرثرتها ونقيقها بدون توقّف، فيما شيرلي تجلس بسلام في كرسيّها وتستريح، وعلى وجهها ابتسامة القطط هذه. وعلى كلّ حال، الآن وقد تولّت شيرلي موقّتًا إدارة حصّة هاورد في المحلّ، لم تعد تفتقر إلى فرص للانتقام للشكوك التي لا تزال تساورها، عبر تسديد صفعات حادّة لمورين، ومخالفتها الرأي في أيّ قرار بشكل منهجيّ.

«أتعرفين ما الذي يجري عند آخر الطريق؟» سألت مورين، «في كنيسة سانت مايكل؟ جنازة الشقيقين ويدون.»

«هنا؟» سألت شيرلي مرتاعة.

«يقال إنّ الناس ساهموا وجمعوا مبلغًا من المال» روَت مورين، مفرغة جعبتها المليئة بأخبار فاتت شيرلي المنشغلة برحلاتها المتواصلة بين المنزل والمستشفى. «لا تسأليني مَن، لا أدري. مهما يكن، لما كان خطر لي أن تقيم العائلة الجنازة بجوار النهر مباشرة، ألا توافقينني الرأي؟»

(الصبيّ القذر والبذيء اللسان الذي قلّما تنبّه أحد حتّى لوجوده وهو على قيد الحياة، والذي لم يكن أحد يعطف عليه سوى والدته وشقيقته، تحوّل بشكل جذريّ في لاوعي باغفورد الجماعيّ بفعل غرقه، إذ بات الجميع يشير إليه بطفل النهر، والولد الرقيق، والملاك النقيّ الطاهر الذي لكانوا جميعهم أغدقوا عليه بالحبّ والحنان، لو تمكّنوا فقط من إنقاذه.

أمّا كريستال، فلم يكن للحقنة والشعلة أيّ تأثير إيجابيّ على صورتها وسمعتها. بل على العكس، خلّدها موتها في ذهن حرس باغفورد القديم على

أنّها مخلوق خالٍ من الروح، تسبَّب سعيه خلف «الملذّات» كما يدعوها القدامى، بموت طفل بريء.)

كانت شيرلي ترتدي معطفها.

«تصوّري أنّني رأيتهم في ذلك النهار، أتصدّقين؟» قالت، ووجهها متورّد. « الفتى يزعق وينتحب عند دغل من الشجيرات، وكريستال ويدون وستوارت وول في جانب آخر. خطوتان كانتا تفصلانه عن المياه.»

رأت تعبيرًا على وجه مورين أثار استياءها.

«كنت مسرعة»، شرحت شيرلي بنبرة جافّة، «لأنّ هاورد قال إنّه يشعر بوعكة، وكنت قلقة للغاية عليه. لم أكن أرغب في الخروج إطلاقًا، لكنّ مايلز وسامانثا أرسلا لي ليكسي... أعتقد أنّهما كانا يتشاجران، برأيي... ثمّ أرادت ليكسي أن تزور المقهى... كنت شاردة في أفكاري، أردّد لنفسي باستمرار عليّ أن أعود إلى هاورد... لم أتنبّه فعلًا وأدرك ما رأيت إلّا بعد فترة من الوقت... الأمر الفظيع فعلًا»، تابعت شيرلي ووجهها ممتقع، مسترجعة لازمتها المفضّلة، «أنّه لو لم تدع كريستال ويدون هذا الطفل يتسكّع فيما هي تستمع بين الشجيرات، لكانت سيّارة الإسعاف وصلت إلى هاورد بسرعة أكبر بكثير. لأنّه كما تعلمين، مع وجود اثنين... تختلط الأمور وتصبح...»

«صحيح»، قاطعتها مورين وهما متوجّهتان إلى السيّارة، لأنّها كثيرا ما سمعتها تردّد الحديث ذاته. «تعلمين، لا يمكنني أن أفهم إطلاقًا ما الذي دفعهم لإقامة الجنازة هنا، في باغفورد...»

كم كانت تودّ أن تقترح على شيرلي أن تعبرا أمام الكنيسة في طريقهما إلى المستشفى. كانت تتوق إلى رؤية ما يمكن أن تكون عليه عائلة ويدون مجتمعة، وربّما مشاهدة الوالدة المدمنة الفاسقة إذا ما حالفها الحظّ. لكنّها لم تجد وسيلة لتهيئة الأجواء تمهيدًا لطرح طلبها.

«أتعلمين شيرلي، هناك عزاء وحيد في هذا الوضع برمّته»، قالت لها وهما تنطلقان في اتّجاه الطريق الدائري. «يمكننا القول إنّنا تخلّصنا من الحقول، مسألتها باتت بحكم المنتهية. لا شكّ في أنّ هاورد يجد في ذلك عزاء. قد لا يكون بوسعه أن يترأس المجلس لفترة من الوقت، لكنّ هذا إنجازه.»

انحدر آندرو برايس مسرعًا من منزل هيلتوب هاوس في أعلى التلّة. كانت الشمس تسكب نورها الحارّ على ظهره، وشعره يتطاير في الريح. الكدمة على عينه أصبحت بعد أسبوع صفراء وخضراء وباتت أسوأ ممّا كانت عليه من قبل، إن كان ذلك ممكنًا، عندما حضر إلى المدرسة بعين شبه مغلقة. حين سأله الأساتذة، قال لهم آندرو إنّه سقط عن درّاجته.

كانوا الآن في عطلة عيد الفصح، وتلقّى آندرو رسالة نصيّة من غايا في الليلة السابقة، تسأله إن كان ينوي الذهاب إلى دفن كريستال في اليوم التالي. ردّ عليها على الفور «نعم»، وها هو الآن ارتدى بعد طول بحث وتأمّل أرتب جينز لديه مع قميص لونه رماديّ داكن، لأنّه لم يكن لديه بدلة رسميّة.

لم يكن يفهم بوضوح ما الذي يجعل غايا تودّ حضور الدفن، إلّا إن كانت ترغب في مرافقة سوكفيندر جاواندا. فهي، في الآونة الأخيرة، تلازمها وتبدي لها مودّة أكبر منها في أيّ وقت مضى، الآن وقد تثبّتت من أنّها ستعود إلى لندن مع والدتها.

«تقول أمّي إنه ما كان يجدر بنا أساسًا الانتقال إلى باغفورد»، قالت غايا فرِحة لآندرو وسوكفيندر، فيما كان الثلاثة جالسين على الحافة قرب محلّ الصحف خلال استراحة الغداء. «أدركَت أخيرًا أنّ غافي نذل سافل.»

أعطت آندرو رقم هاتفها الجوّال وقالت له إنّه بوسعهما الخروج معًا حين تأتي إلى ريدينغ لزيارة والدها. حتّى إنّها ألمحت بشكل عابر إلى اصطحابه في جولة على مواقعها المفضّلة في لندن، في حال زار هو المدينة. كانت توزّع المحبّة والالتفاتات من حولها بسخاء، مثل جنديّ جذل لتسريحه من المهمّة، وهذه الوعود التي تقطعها بخفّة كانت تجعل آندرو يتطلّع بمزيد من اللهفة لانتقاله إلى ريدينغ، رغم أنّه، حين أخبره والداه بأنّهما تلقّيا عرضًا على منزل هيلتوب هاوس، لم يكن إحساسه بالإثارة يقلّ عن ألمه.

المنعطف الحادّ لولوج تشيرتش روو الذي كان يعطيه عادة شعورًا بالنشوة، بعث فيه الآن الإحباط. بوسعه رؤية جمع من الناس في المقبرة. تساءل كيف سيكون هذا الدفن، ولأوّل مرّة في ذلك الصباح، فكّر في كريستال ويدون، ولكن ليس وكأنّها فكرة مجرّدة لا تمتّ إلى الواقع بصلة.

عاودته ذكرى قديمة، مطمورة منذ عهد بعيد في أعماق ذهنه. تذكّر ذلك النهار في ملعب مدرسة سانت توماس، حين أطعمه فاتس حبّة فستق خبّأها داخل خطميّة، مدفوعًا بروح استكشاف متهوّرة... ما زالت الذكرى حيّة في داخله وكأنّه يعيشها الآن. يذكر حنجرته الملتهبة تتورّم وتطبق بشكل محتوم. يذكر أنّه حاول أن يصرخ، شعر بركبتيه تنهاران ولا تعودان تحملان وزنه، وجميع الأطفال يتحلّقون من حوله، يراقبونه باهتمام غريب، خاليًا من أيّ مشاعر. ثمّ أطلقت كريستال ويدون صرخة حادّة.

«آندي برايس... أزمة... ساسيّة!»

هرعت عابرة الرواق على ساقيها الصغيرتين المكتنزتين، حتّى قاعة الأساتذة، فحضر المدير، حمل آندرو على وجه السرعة وركض به إلى العيادة القريبة، حيث عالجه الدكتور كروفورد بحقنة أدرينالين. كانت الوحيدة من بين جميع التلامذة التي تذكّرت ما شرحه لهم الأستاذ في الصفّ عن حالة آندرو والخطر الذي تشكّله حساسيّته على حياته، الوحيدة التي تعرّفت إلى الأعراض.

كان يجدر منح كريستال وسام استحقاق ذهبيًا، لكنّها في اليوم التالي (يذكر آندرو ذلك الحادث بوضوح لا يقلّ عن نوبة حساسيّته)، لكمت ليكسي موليسون على فمها بقوّة، مقتلعة لها سنّين. دفع درّاجة سايمون باحتراز داخل مرأب منزل عائلة وول، ثمّ دقّ الجرس مرغمًا. كانت هذه أوّل مرّة يشعر بمثل هذا الإكراه لملاقاة صديقه. فتحت له تيسا وول، مرتدية أفضل معطف رماديّ لديها. كان آندرو ناقمًا عليها. فهي السبب خلف الكدمة على عينه.

«ادخل آندي»، قالت تيسا التي بدت له متوتّرة. «دقيقة ونكون جاهزين.»

انتظر في الردهة، حيث الزجاج المعشّق فوق الباب يلقي بقعًا متوهّجة من الألوان على الأرض. ذهبت تيسا إلى المطبخ بخطى حازمة، فلمح آندرو فاتس ببدلته السوداء، متقوقعًا على أحد كراسي المطبخ مثل عنكبوت مسحوق، وقد لفّ إحدى ذراعيه فوق رأسه، كأنّما ليحمي نفسه من ضربات تنهمر عليه.

أدار آندرو ظهره. لم يجرِ أيّ اتّصال بين الفتيين منذ أن قاد آندرو تيسا إلى الجحر الصخريّ. لم يحضر فاتس إلى المدرسة منذ أسبوعين. أرسل له آندرو رسالتين نصيّتَين، لكنّ فاتس لم يردّ على أيّ منهما.

منذ أسبوع، اتّصلت تيسا بدون سابق إنذار بمنزلهم، وقالت لوالديه إنّ فاتس اعترف بأنّه هو من كتب الرسائل باسم شبح_باري_فيبراذر، وقدمت لهما اعتذاراتها، مبدية أسفها العميق لكلّ ما لحق بهما من تبعات.

«قل لي، كيف عرف أنّني اقتنيت ذلك الكمبيوتر؟» زعق سايمون وهو ينقضّ على آندرو. «كيف عرف فاتس وول بتلك الأعمال اللعينة التي أقوم بها في المطبعة بعد عملي؟»

يبقى عزاء آندرو الوحيد أنّه لو عرف والده الحقيقة، لكان تجاهل اعتراضات روث وواصل لكمه إلى أن يغيب عن الوعي.

لماذا قرّر فاتس الادّعاء بأنّه هو مَن كتب التعليقات جميعها على الموقع الإلكتروني؟ لا يعلم آندرو. ربّما فعل ذلك بدافع الاعتداد، تصميمًا منه على أن يكون العقل المدبّر، الأكثر أذيّة وشرًّا بينهم جميعًا. أو ربّما خطر له أنّ ما يفعله عمل نبيل، أن يأخذ المسؤوليّة بكاملها على عاتقه. وفي كلتا الحالتين، لم يكن فاتس يعي مدى المتاعب التي أثارها. واقفًا في الردهة، فكّر آندرو أنّ فاتس لم يدرك يومًا معنى العيش مع والد مثل سايمون برايس. فهو بأمان في عليّته، مع والدين منطقيّين، متحضّرين.

بوسع آندرو أن يسمع والدا فاتس يتناقشان بصوت منخفض، من خلال باب المطبخ المشقوق.

«علينا أن ننطلق حالًا» قالت تيسا. «عليه واجب أخلاقيّ، وسوف يذهب معي.»

«كفاه عقابًا» سمع أبو خزانة يقول.

«لست أطلب منه الذهاب بصفته...»

«ألستِ حقًا؟» أجاب أبو خزانة بحدّة. «بحق الله، تيسا، هل تعتقدين أنّهم يرغبون في وجوده هناك معهم؟ اذهبي أنت. بوسع ستو أن يبقى هنا معي.»

بعد دقيقة، خرجت تيسا من المطبخ وأغلقت الباب بقوة خلفها.

«لن يأتي ستو، آندي»، قالت. بوسعه أن يرى أنّها غاضبة. «آسفة على ذلك.»

«لا بأس»، تمتم. الواقع أنّه كان مسرورًا. لا يرى ما يمكنهما أن يقولا أحدهما للآخر. هكذا سيكون بوسعه الجلوس مع غايا.

في شارع تشيرتش روو، كانت سامانثا موليسون واقفة عند نافذة صالونها، تحمل بيدها فنجان قهوة، وتراقب المعزّين وهم يعبرون أمام منزلها في طريقهم إلى كنيسة سانت مايكل وجميع القدّيسين. حين رأت تيسا وول مع فتى ظنّت أنّه فاتس، شهقت متفاجئة.

«يا إلهي! إنّه ذاهب!» قالت وحدها بصوت عالٍ.

ثمّ عرفت آندرو، فاحمرّ وجهها وتراجعت بسرعة، مبتعدة عن النافذة.

من المفترض بسامانثا أن تعمل من منزلها. كان حاسوبها المحمول مفتوحًا خلفها على الأريكة. لكنّها، في ذلك الصباح، ارتدت فستانًا أسود قديمًا، وجلست تتساءل ما إذا كانت ستحضر دفن كريستال وروبي ويدون. لم يعد أمامها سوى بضع لحظات لتحسم أمرها.

هي لم تتفوّه يومًا بكلمة واحدة لطيفة عن كريستال ويدون، وسيكون من الخبث أن تذهب إلى دفنها لمجرّد أنّها بكت حين قرأت التقرير عن وفاتها في جريدة يارفيل والجوار، ولأنّ وجه كريستال الممتلئ يبتسم في كلّ من صور الصفّ التي جلبتها ليكسي من مدرسة سانت توماس.

وضعت سامانثا قهوتها، اندفعت إلى الهاتف واتّصلت بمايلز في العمل.

«مرحبًا حبيبتي»، قال.

(عانقته وهو يبكي ارتياحًا، بجانب سرير المستشفى حيث كان هاورد ممدّدًا، موصولًا بأجهزة، ولكن على قيد الحياة.)

«مرحبًا»، قالت. «كيف حالك؟»

«لا بأس. مشغول كثيرًا هذا الصباح. إنّني مسرور لسماع صوتك. هل أنت على ما يرام؟»

(تضاجعا في الليلة السابقة، ولم تغمض عينيها وتتخيّل نفسها مع أيّ رجل آخر.)

«الدفن على وشك أن يبدأ»، قالت سامانثا، «أراهم يعبرون أمام المنزل...»

هي تكتم ما تودّ الاعتراف به منذ حوالى ثلاثة أسابيع، بسبب هاورد، والمستشفى، ولأنّها لا تريد أن تذكّر مايلز بشجارهما المروّع. لكنّه لم يعد بوسعها تمالك نفسها.

«... مايلز، رأيت ذلك الصبيّ. روبي ويدون. رأيته، مايلز.» كانت تتوسّله، مذعورة. «كان في ملعب سانت توماس حين عبرت في ذلك الصباح.»

«في الملعب؟»

«لا بدّ أنّه كان يهيم، فيما كانا... كان وحيدًا»، قالت وهي تتذكّر مشهده، قذرًا وثيابه رثّة. كانت تتساءل منذ ذلك الحين إن كانت اكترثت له أكثر لو كان مظهره أكثر ترتيبًا. هل أنّها أخطأت في تقييم العلامات الواضحة لحالة الإهمال التي كان فيها، فظنّتها في لاوعيها دليلًا على قدرته على تدبّر أمره في الحياة، على خشونته وصموده؟ «فكّرت أنّه ذهب إلى هناك ليلعب، لكن لم يكن هناك أحد معه. كان عمره ثلاث سنوات ونصف سنة فقط، مايلز. لماذا لم أسأله من يرافقه؟»

«إهدأي، إهدأي»، قال مايلز بذلك الصوت المليء بالوهرة الهادئة، باعثًا فيها على الفور الطمأنينة. كان يتولّى زمام الأمور، يسيطر على الوضع، وامتلأت عيناها بالدموع. «لا تلومي نفسك. كيف كان لك أن تعلمي؟ لا بدّ أنّك أنّك ظننت أنّ والدته في مكان ما، لا ترينها.»

(هو لا يكرهها إذا، لا يسيء الظنّ فيها. باتت سامانثا في الآونة الأخيرة تشعر بالامتنان لزوجها، لقدرته على الصفح.)

«لست واثقة بأنّ ذلك ما ظننته»، أجابت بوهن. «مايلز، لو أنّني تكلّمت إليه فقط...»

«لم يكن على مقربة من النهر حين رأيته.»

لكنّه كان بالقرب من الطريق، فكّرت سامانثا.

تشعر سامانثا منذ ثلاثة أسابيع بتوق متزايد إلى أن تذوب في شيء أعظم منها. توقّعت يومًا بعد يوم أن تتبدّد هذه الحاجة الغريبة التي لم تشعر بها من قبل (هكذا يصبح الناس نسّاكًا، فكّرت، محاولة أن تضحك على الموضوع)، لكن عوضًا عن ذلك، ازدادت بشكل متواصل.

«مايلز»، قالت، «أتعلم، المجلس... مع وضع والدك... وبارميندر جاواندا التي استقالت أيضا... سوف تضطرّون إلى التوافق على شخصين، أليس كذلك؟» كانت على علم بمعجم مفردات المجلس، فهي تسمعه منذ سنوات. «أعني، لا ترغبون في إجراء انتخابات من جديد، بعد كلّ ما حصل، أليس كذلك؟»

«طبعًا لا! تبًا!»

«إذًا، بوسع كولين وول أن يشغل مقعدًا»، تابعت مسرعة، «وخطر لي، بما أنّ لديّ متّسعًا من الوقت، الآن وأنا أنجز أعمالي على الإنترنت، بوسعي التكفّل بالمقعد الآخر.»

«أنت؟» سأل مايلز مذهولًا.

«أودّ الالتزام.»

كريستال ويدون، قضت في السادسة عشرة من العمر، وهي توصد أبواب المنزل الصغير البائس في شارع فولي على نفسها... لم تتناول سامانثا كأسًا واحدة من النبيذ منذ أسبوعين. فكّرت أنّها ربّما تودّ الاستماع إلى الحجج المؤيّدة للإبقاء على عيادة بيلتشابيل.

رنّ الهاتف في الرقم عشرة من شارع هوب. كانت كاي وغايا متأخّرتين على دفن كريستال. حين سألت غايا مَن يتكلّم، تصلّبت ملامحها الجميلة الرقيقة. بدت أكبر سنًّا بسنوات.

«هذا غافين»، قالت لوالدتها.

«لم أتّصل به!» همست كاي، مثل تلميذة فتيّة متشنّجة وهي تتناول الهاتف من ابنتها.

«مرحبًا»، قال غافين. «كيف حالك؟»

«إنّني على وشك الخروج لحضور دفن»، أجابت كاي وهي تحدّق بابنتها. «الطفلان ويدون. يمكنك أن تحزر أنّني لست بحالة ممتازة.»

«آه»، قال غافين. «يا إلهي، أجل. عذرًا، لم أتنبّه للأمر.»

لمح الاسم الأليف في عنوان عريض على الصفحة الأولى من جريدة يارفيل والجوار، فاشترى نسخة، مدفوعًا باهتمام مبهم، ولو متأخّرًا. خطر له أنّه ربّما عبر على مقربة من المكان الذي كان فيه الفتيان والصبيّ، لكنّه لم يتذكّر أنّه رأى روبي ويدون.

قضى غافين أسبوعين غريبين. كان يشعر بشوق كبير إلى باري. لم يعد يفهم مشاعره. كان يجدر به أن يكون بائسًا تعسًا بعدما صدّته ماري، وبدلًا من ذلك، كلّ ما كان يشعر به هو ذلك التوق إلى تناول كوب من البيرة مع الرجل الذي سعى للفوز بقلب زوجته واتّخاذها زوجة له...

(خرج من منزلها وهو يتمتم لنفسه بصوت عالٍ: «هذا ما تحصل عليه حين تحاول أن تسلب حياة أعزّ صديق لك»، من دون أن يتنبّه لزلّة لسانه.)

«اسمعي»، قال، «كنت أتساءل إن كنت ترغبين في تناول كأس معي لاحقًا؟»

كادت كاي تضحك.

«رفضَتْك، أليس كذلك؟»

ناولت غايا الهاتف لتغلق الخطّ، وسارعتا إلى الخروج من المنزل. مشيتا حتّى آخر الطريق بخطًى حثيثة، ثمّ عدوًا إلى الساحة. أمسكت غايا بيد والدتها لتعبرا الأمتار القليلة أمام الراهب الأسود.

وصلتا فيما ظهرت سيّارتا الموتى عند طرف الطريق، ودخلتا المقبرة بينما كان حاملو النعش يجرجرون أقدامهم للتجمّع على الرصيف.

(«ابتعد عن النافذة» أمر كولين وول ابنه.

لكنّ فاتس تقدّم نحو النافذة. سيترتّب عليه لما تبقّى من حياته التعايش مع إحساسه بجبنه وتخاذله، وهو يحاول أن يثبت أنّ بوسعه على الاقلّ احتمال هذا المشهد...

عبر النعشان في السيّارتين الصخمتين ذوَتا الزجاج الداكن. النعش الأول بلون زهريّ زاهٍ خطف أنفاسه، والثاني صغير ناصع البياض...

سارع كولين ووقف أمام فاتس ليحجب عنه المشهد بعدما فات الأوان، لكنّه رغم ذلك أغلق الستائر. في ذلك الصالون الأليف المعتم، حيث اعترف فاتس لوالديه بأنّه فضح مرض أبيه للعالم، حيث اعترف بكلّ ما أمكنه أن يخرج به، على أمل أن يعتبروه مجنونًا ومريضًا، حيث حاول أن يأخذ على عاتقه الملامة على أفعالٍ لا تعدّ ولا تحصى، إلى أن ينهالوا عليه بالضرب، أو الطعن، أو أيّ من تلك المعاملة التي هو واثق من أنّه يستحقّها... في ذلك الصالون الأليف المعتم، وضع كولين يده على ظهر ابنه، ودفعه برفق لإخراجه نحو المطبخ الذي يتدفّق إليه نور الشمس.)

أمام كنيسة سانت مايكل وجميع القدّيسين، كان حاملو النعش يتهيّأون لرفع النعشين والسير بهما في الممرّ المؤدّي إلى مدخل الكنيسة. وكان داين تالي بينهم، بالقرط في أذنه ووشم شباك العنكبوت الذي غرزه بنفسه على عنقه، مرتديًا معطفًا أسود غليظًا.

وقفت عائلة جاواندا مع كاي وغايا بودين تحت شجرة السدر الوارفة. راح آندرو برايس يحوم في جوارهم، فيما بقيت تيسا وول على مسافة، وجهها شاحب وملامحها مشدودة لا تعكس أيّ انفعال. تجمّع الآخرون مثل كتيبة حول أبواب الكنيسة. بعضهم مشدود الوجه في ازدراء وتحدّ، والبعض الآخر بدا مهزومًا مستسلمًا، ظهر البعض بملابس سوداء رخيصة، لكنّ الجينز والسراويل الرياضيّة كانت طاغية. إحدى الفتيات كانت ترتدي قميصًا تي شيرت مقصوصة قصيرًا عند البطن، تكشف عن حلقة تتدلّى من سرّتها فتتلألأ في أشعّة الشمس كلّما تحرّكت. تقدّم النعشان في الممرّ، متوهّجين في نور النهار الباهر.

سوكفيندر جاواندا هي التي اختارت النعش الورديّ الزاهي. كانت واثقة بأنّ كريستال لكانت أرادته على هذا الشكل. سوكفيندر هي التي رتّبت كلّ شيء تقريبًا: التنظيم، الاختيار، إقناع الجميع. كانت بارميندر تواصل النظر إلى ابنتها بطرف عينها، تبحث باستمرار عن حجّة لملامستها، فترفع خصلة شعر عن عينيها، أو تقوّم ياقتها.

مثلما خرج روبي من مياه النهر طاهرًا نقيًا لتتحسّر باغفورد برمّتها عليه، خرجت سوكفيندر جاواندا من هذه الفاجعة بطلة، بعدما جازفت بحياتها محاولةً إنقاذ الصبي. بين المقالة التي خصّصتها لها جريدة يارفيل والجوار، إلى إعلان مورين لوي عاليًا وباعتزاز أنّها توصي بمنح الفتاة وسام الشرطة الخاصّ، مرورًا بالخطاب الذي ألقته مديرة المدرسة عنها من على منبر التجمّع العامّ، عرفت سوكفيندر لأوّل مرّة في حياتها ذلك الإحساس بالتفوّق على شقيقها وشقيقتها.

وقد كرهت كلّ لحظة من تلك التجربة. لا تزال تشعر في الليل بثقل الصبيّ الميت بين ذراعيها، يشدّها إلى الأسفل، نحو أعماق النهر. تذكر أنّها قاومت تلك الرغبة وهي تتساءل كم من الوقت ستتمكن من الصمود. الجرح العميق في ساقها يحكّها ويؤلمها، سواء كانت تتحرّك أو بدون حراك. نبأ موت كريستال ويدون كان له وقعٌ مروّع عليها، إلى حدّ دفع والديها إلى ترتيب موعد لها مع مستشار نفسيّ. غير أنّها لم تشقّ نفسها مرّة بالشفرة منذ أن تمّ أخراجها من النهر. يبدو أنّ خطر الغرق الذي نجت منه خلّصها من تلك الحاجة.

ثمّ في اليوم الأوّل الذي عادت فيه إلى المدرسة، وفيما كان فاتس وول لا يزال غائبًا، والجميع يتابعها بنظرات الإعجاب وهي تعبر في الأروقة، وردها كلام بأنّ تيري ويدون لا تملك المال لإقامة جنازة لولديها، وأنّهما سيدفنان في أبخس نعشين، وبدون شاهدين حتّى على قبريهما.

«هذا حزين للغاية، سنونو»، قالت والدتها في تلك الليلة، فيما كانوا جالسين جميعًا معًا حول طاولة العشاء، تحت الجدار المكسوّ بصور العائلة. هي تكلّمها الآن برفق، مثلما كلّمتها الشرطيّة في ذلك النهار. زالت نبرة الحدّة من صوت بارميندر حين تتوجّه إلى ابنتها الصغرى.

«سوف أحاول أن أطلب من الجميع أن يساهموا في النفقات» قالت سوكفيندر.

تبادلت بارميندر وفيكرام نظرات عبر طاولة المطبخ. كلاهما يشعر بشكل عفويّ أنّ الطلب إلى سكّان باغفورد أن يقدّموا هبات لمثل هذه القضيّة لن يكون

فكرة سديدة، لكنّهما لم يتفوّها بكلمة. كانا يخشيان قليلًا أن يعارضا سوكفيندر، بعدما شاهدا الندبات على ذراعيها. لم يذهبوا بعد لمقابلة المستشار النفسيّ، لكنّه كان يتهيّأ لهما أنّ ظلّه يحوم فوق كلّ أحاديثهم ومبادلاتهم.

«وأعتقد أيضًا»، تابعت سوكفيندر باندفاع محموم يشبه الطاقة التي تبديها بارميندر نفسها، «أنّ الجنازة يجب أن تجري هنا، في كنيسة سانت مايكل، تمامًا مثل جنازة السيّد فيربراذر. كانت كريس تحضر جميع القداديس هنا حين كنّا في مدرسة سانت توماس. أراهن على أنّها لم تدخل أيّ كنيسة أخرى في حياتها.»

نور الله يشعّ من كلّ روح، فكّرت بارميندر. قالت بشكل حازم فاجأ فيكرام: «أجل، أنت على حقّ. سوف نرى ما يمكننا القيام به.»

تكفّلت عائلتا جاواندا ووول بالقسم الأكبر من النفقات، لكنّ كاي بودين وسامانثا موليسون واثنتين من أمّهات الفتيات في فريق التجذيف ساهمتا أيضًا. وبعد ذلك، أصرّت سوكفيندر على الذهاب إلى حيّ الحقول بنفسها، لتشرح لتيري ما قاموا به، ودوافعهم. لتخبرها عن فريق التجذيف، وتوضح لها لماذا ينبغي أن تجري جنازة كريستال وروبي في سانت مايكل.

كان صدر بارميندر ينقبض من شدّة القلق لفكرة أن تذهب سوكفيندر إلى الحقول، بل أسوأ من ذلك، أن تدخل ذلك المنزل المقزّز وحيدة. لكنّ الفتاة كانت واثقة بأنّها ستكون على ما يرام. فعائلتا ويدون وتالي تعلمان أنّها حاولت إنقاذ حياة روبي. توقّف داين تالي عن النخير كلّما تكلّمت في صفّ الأدب الإنكليزي، كما منع رفاقه في الصفّ من القيام بذلك أيضًا.

وافقت تيري على كلّ ما عرضته سوكفيندر. كانت هزيلة مثل هيكل عظميّ، قذرة المظهر، لا تصدر أيّ ردّ فعل، وإذا ما تكلّمت، تفوّهت بكلمة واحدة أو مجرّد صوت. فزعت سوكفيندر عند رؤيتها، بالندبات وآثار الحروق على ذراعيها وأسنانها الناقصة. تهيّأ لها أنّها تكلّم جثّة.

انقسم الجمع داخل الكنيسة إلى مجموعتين متمايزتين تمامًا، فجلس أهالي الحقول على المقاعد الخشبيّة إلى اليسار، وأهالي باغفورد إلى اليمين. أحاط شاين وشيريل تالي بتيري من الجانبين لمواكبتها في الممرّ وسط

الصفّين، إلى المقعد الأماميّ. بدت تيري في معطفها الفضفاض عليها، وكأنّها بالكاد تدرك أين هي.

سجّي النعشان جنبًا إلى جنب، على محملين أمام المذبح. على نعش كريستال وضع مجذاف من زهور الأقحوان البرونزيّة، وعلى نعش روبي دبدوب صغير من زهور الأقحوان البيضاء.

تذكّرت كاي بودين غرفة روبي، والألعاب البلاستيكيّة القليلة الرثّة المنثورة فيها، فأخذت يداها ترتجفان وهما تمسكان كرّاس الصلاة. بالطبع، سوف يفتحون تحقيقًا في المكتب، لا سيّما وأنّ الصحيفة المحليّة تطالب به، وقد نشرت مقالة على صفحتها الأولى، توحي بأنّ الصبيّ كان متروكًا في عهدة مدمنتين، وأنّه كان من الممكن تفادي وفاته لو قامت العاملات الاجتماعيّات المهمِلات بفصله عن عائلته ووضعه في مكان آمن. غادرت ماتي من جديد في إجازة مرضيّة، وبوشر تقييم لطريقة تعامل كاي مع مراجعة ملفّ الصبيّ. كانت كاي تتساءل ما سيكون انعكاس التحقيق على فرصها في الحصول على وظيفة أخرى في لندن، في وقت تعمد جميع السلطات المحليّة إلى تسريح أعداد من العمّال الاجتماعيين، وما سيكون ردّ فعل غايا إذا ما اضطرّتا إلى البقاء في باغفورد... لم تجرؤ بعد على مفاتحة ابنتها بالموضوع.

رمق آندرو غايا بطرف عينه، وتبادلا ابتسامة صغيرة. في هيلتوب هاوس، بدأت روث بفرز الأغراض وتوضيبها للانتقال. بوسع آندرو أن يحزر أنّ والدته تأمل، هي المتفائلة أبدًا، أن تكون التضحية بمنزلهم وبجمال مشهد التلال المحيطة، ستكافأ بولادة جديدة. متمسّكة إلى الأبد بصورة عن سايمون لا تخدشها وحشيّته ولا نصبه واحتياله، كانت تأمل أن يُطرح كلّ ذلك خلفهم، مثل حزم تنساها عند الانتقال... لكنّ آندرو فكّر أنّه على الأقلّ سيكون حيث هم ذاهبون أقرب إلى لندن بخطوة. ولديه تأكيد من غايا بأنّها كانت ثملة تمامًا ولا تدري ما تفعله مع فاتس. ربّما تدعوهما، هو وسوكفيندر، إلى منزلها لتناول القهوة بعد انتهاء الدفن...

لم يسبق لغايا أن دخلت كنيسة سانت مايكل من قبل. كانت تستمع بأذن تائهة إلى الكاهن يلقي عظته مرنّمًا، وعيناها تائهتان في قبّة السقف

العالية المرصّعة بالنجوم، والنوافذ المتوهّجة ألوانًا مثل أحجار كريمة. فكّرت، الآن وهي واثقة بأنّها راحلة، أنّ ثمّة حلاوة في هذه البلدة قد تفتقدها كثيرًا...

اختارت تيسا وول أن تبقى خلف الجميع، وحدها. جلست مباشرة تحت القديس ميخائيل. كان كأنّما ينظر إليها بعينيه الهادئتين، وقدمه تدوس للأبد ذلك الشيطان ذا القرنين والذيل، الذي يتلوّى ويشوّر. كانت دموع تيسا تنهمر منذ أن وقعت عيناها على النعشين اللمّاعين، ومهما حاولت كبتها، كان الجالسون على مقربة منها يسمعون شهقاتها وغرغراتها الخافتة. توقّعت قبل أن تحضر أن يتعرّف إليها أحدٌ من عائلة ويدون على أنّها والدة فاتس وينقضّ عليها، أو ما يشبه ذلك. لكن لم يحصل شيء.

(انقلبت حياتها العائليّة رأسًا على عقب. كولين كان ناقمًا عليها.

«ما الذي قلتِه له؟»

«أراد أن يذوق طعم الحياة الحقيقيّة»، قالت وهي تبكي، «أراد أن يرى المقلب الآخر القذر للواقع... ألا تفهم السبب خلف كلّ هذه القسوة؟»

«وارتأيتِ إذا أن تقولي له إنّه قد يكون وليد علاقة محرّمة، وإنّني حاولت أن أنتحر لأنّه دخل إلى العائلة؟»

قضت سنوات تحاول أن تصلح الأمور بينهما، وتطلّبت المصالحة بينهما في نهاية الأمر موت طفل وإدراك كولين العميق للإحساس بالذنب. سمعتهما يتكلّمان الليلة السابقة في عليّة فاتس، فتوقّفت تسترق السمع عند أسفل الأدراج.

«...يمكنك أن تُخرِج ذلك... ذلك الأمر الذي أوحت لك أمّك به، من رأسك تمامًا» قال كولين بخشونة. «لا تعاني أيّ خلل نفسيّ أو جسديّ على حدّ علمي، أليس كذلك؟ إذًا... لا تفكّر في المسألة بعد اليوم. لكنّ مستشارك النفسيّ يمكنه مساعدتك على التعامل مع هذا الوضع برمّته...»)

راحت تيسا تشهق وتبكي، مخبّئة وجهها بالمحرمة المبلّلة، وهي تفكّر بكريستال، ميتة على بلاط الحمّام، وكيف أنّها لم تقم بالكثير من أجلها... ودّت لو يهبط القدّيس ميخائيل من أعلى نافذته الباهرة ليُنزل حكمه كحدّ السيف عليهم جميعًا، فيحدّد لها بالضبط ذنوبها، مدى مسؤوليّتها عن الميتين، عن

الحيوات المحطّمة، عن كلّ هذه الفوضى... لكانت شعرت ببعض العزاء... قفز فتى صغير من أبناء عائلة تالي متململًا، ونهض عن مقعده، فمدّت امرأة موشومة ذراعًا قويّة، أمسكت به وأعادته إلى المقعد. أطلقت تيسا شهقة تعجّب خافتة بين عبراتها. كانت واثقة بأنّها لمحت ساعتها الضائعة حول معصم المرأة الثخين.

كانت سوكفيندر تسمع تيسا تبكي. شعرت بالأسف من أجلها، لكنّها لم تجرؤ على الالتفات إليها. بارميندر كانت غاضبة على تيسا. لم يكن بوسع سوكفيندر أن تشرح سبب الجروح على ذراعيها من دون أن تذكر فاتس وول. توسّلت إلى والدتها حتّى لا تتّصل بتيسا وكولين وول، لكنّ تيسا اتّصلت في ما بعد ببارميندر لتعلن لها أنّ فاتس يتحمّل المسؤوليّة كاملة عن رِسائل شبح - باري- فيربراذر على موقع المجلس، فكانت بارميندر لاذعة معها ولم تتكلّما منذ ذلك الحين.

كان ذلك سلوكًا غريبًا فعلًا من جانب فاتس، أن يتحمّل اللوم عن الرسالة التي كتبتها هي أيضًا. كادت سوكفيندر ترى في الامر اعتذارًا. لطالما بدا لها وكأنّه يقرأ أفكارها، فهل كان يعلم أنّها هي مَن يقف خلف الهجوم على والدتها؟ تساءلت سوكفيندر إن كانت ستستطيع أن تقرّ بالحقيقة لذلك المستشار النفسيّ الجديد الذي يضع فيه والداها الكثير من الثقة، وإن كانت ستستطيع ذات يوم أن تخبر بارميندر، بارميندر بوجهها الجديد الحنون النادم...

كانت تسعى جاهدة لمتابعة مراسم الصلاة، لكنّ هذه الأخيرة لم تكن تساعدها بالقدر الذي كانت تأمله. كانت مسرورة بإكليلَي الأقحوان على شكل مجذاف ودبدوب اللذين صنعتهما والدة لورين. مسرورة بحضور غايا وآندي، وفتيات فريق التجذيف، لكنّها تمنّت لو لم ترفض التوأمين فيربراذر الحضور.

(«سوف تغضب أمّي»، قالت سيوبان لسوكفيندر. «تعلمين، إنّها تعتبر أنّ والدي خصّص الكثير من الوقت لكريستال، أكثر ممّا ينبغي.»

«آه!» أجابت سوكفيندر بذهول.

«وأمّي لا تعجبها فكرة أنّها ستضطرّ إلى رؤية قبر كريستال كلّما زارت قبر والدي»، قالت نيام. «الأرجح أنّهما سيكونان متقاربين.»

وجدت سوكفيندر هذه الحجج وضيعة وخبيثة، لكنّ إلحاق مثل هذه الصفات بالسيّدة فيربراذر بدا لها أشبه بالمساس بالمقدّسات. ابتعدت التوأمان، ملتصقتين الواحدة بالأخرى مثلما هما باستمرار في الآونة الأخيرة. كانتا تعاملان سوكفيندر بفتور، باعتبارها خانتهما وتقرّبت من غايا بودين، الدخيلة عليهنّ.)

كانت سوكفيندر تنتظر أن ينهض أحد ويلقي كلمة يقول فيها مَن كانت كريستال في الحقيقة، وما قامت به في حياتها، مثلما فعل عمّ نيام وسيوبان من أجل السيّد فيربراذر. ظلّت تنتظر، لكن القسّ، باستثناء تلميحه بشكل عابر إلى «الحيوات التي تنتهي بشكل مأسويّ قبل أوانها»، و«عائلة محليّة تمدّ جذورها عميقًا في باغفورد»، بدا مصمّمًا على التغاضي عن وقائع ما حصل.

شردت سوكفيندر وعادت بأفكارها إلى اليوم الذي لعب فيه فريقهنّ في نهائيّ البطولة المحليّة. في ذلك النهار، أقلّهنّ السيّد فيربراذر في الحافلة الصغيرة لخوض المباراة ضدّ فتيات مدرسة سانت آن. كانت القناة تجري في داخل أملاك المدرسة الخاصّة، وتقرّر أن يبدّلن ملابسهنّ في القاعة الرياضيّة في مدرسة سانت آن، على أن تنطلق المسابقة من هناك.

«هذا لا ينمّ عن روح رياضيّة، بالتأكيد»، قال لهنّ السيّد فيربراذر في طريقهم إلى هناك. «هذا يعطيهم تفوّقًا على أرضهم. حاولتُ تغيير موقع المباراة، لكنّهم لم يقبلوا. كلّ ما أقوله لكنّ، لا تدعن ذلك يرهبكنّ، مفهوم؟»

«اللعنة لن...»

«كريس...»

«لنست خائفة.»

لكن عند وصولهنّ إلى المدرسة، سيطر الفزع على سوكفيندر. مساحات شاسعة من العشب الأخضر النضر، ومبانٍ ضخمة متناسقة من الحجارة الذهبيّة فيها مئة نافذة ونافذة، مزيّنة بالأسهم. لم يسبق لها أن رأت شيئا مماثلًا، إلّا في البطاقات البريديّة.

«هذا قصر باكنغهام أم ماذا؟» صاحت لورين من مؤخّر الفان. أمّا كريستال، فبقيت فاغرة الفم مشدوهة. كانت تبدي أحيانًا عفويّة وشفّافية أقرب إلى الأطفال.

كان جميع أهالي الفتيات، بمن فيهم جدّة والدة كريستال، ينتظرون عند خطّ الوصول، أينما كان ذلك الخطّ. كانت سوكفيندر واثقة بأنّها لم تكن وحدها تشعر بنفسها صغيرة، خائفة وأدنى مستوى من الآخرين، وهم يقتربون من مدخل المبنى الرائع.

خرجت سيّدة في رداء أكاديميّ مسرعة للترحيب بالسيّد فيربراذر في ملابسه الرياضيّة.

«لا بدّ أنّك وينترداون!»

«بالطبع ليس وينترداون! اللعنة! هل يبدو لك أشبه بمبنى منحوس؟» قالت كريستال بصوت عالٍ.

كانت الفتيات على ثقة بأنّ المعلمّة من مدرسة سانت آن سمعت. التفت السيّد فيربراذر، محاولًا أن ينهر كريستال بنظره، لكنّه بدا واضحًا أنّه وجد تلك الملاحظة طريفة للغاية. بدأت الفتيات يقرقرن بالضحك، وكنّ لا يزلن يقهقهن حين رافقهنّ السيّد فيربراذر إلى مدخل حجرة تبديل الملابس.

«تمدُّد وتحمية!» صاح بهنّ.

كان فريق سانت آن داخل المبنى مع مدرّبته. تبادلت مجموعتا الفتيات نظرات ازدراء عبر المقاعد. ذهلت سوكفيندر بشعر فتيات الفريق الآخر. جميعهنّ كان شعرهنّ طويلًا، طبيعيًّا ومشعًّا، يليق بإعلان شامبو. أمّا في فريقهنّ، فسيوبان ونيام تعتمران قلنسوة، لورين شعرها قصير، كريستال تشدّ شعرها دائمًا وتربطه عاليًا، وسوكفيندر شعرها كثّ، خشن ومشعث مثل عرف فرس.

تهيّأ لها أنّها رأت فتاتين من فريق سانت آن تتهامسان وتتبادلان ابتسامة مبطّنة، وتثبّتت من أنّ انطباعها هذا صحيح حين انتصبت كريستال فجأة، محدّقة إليهما بنظرة حادّة متّقدة، وقالت: «أراهن على أنّ برازكنّ أيضًا برائحة الورد، أليس كذلك؟»

«عذرًا؟» قالت مدرّبتهنّ.

«لمجرّد السؤال»، أجابت كريستال بصوت عذب، وهي تدير لهنّ ظهرها لتخلع سروالها الرياضيّ.

لم تتمالك فتيات وينترداون أنفسهنّ عن الضحك، فبدّلن ملابسهنّ وهنّ يقهقهن ويتلوّين. كريستال كانت تقوم ببهلوانيّاتها الاعتياديّة، وفيما كان فريق سانت آن يخرج من القاعة، كشفت لهنّ عن مؤخّرتها.

«رائع»، قالت آخر فتاة خرجت.

«شكرًا جزيلًا»، صاحت بها كريستال. «سوف اسمح لكنّ بمشاهدة هذا المنظر مرّة أخرى لاحقًا إن أردتنّ. قوم من السحاقيّات»، صرخت، «سجينات هنا بعضكنّ مع بعض بدون رؤية فتيان!»

انفجرت هولي، ومن شدّة ما ضحكت، انحنت إلى الأمام وصدمت رأسها بباب الخزانة.

«احترسي هول، اللعنة!» قالت كريستال، مسرورة بتأثيرها فيالفريق. «ستحتاجين إلى رأسك.»

حين وصلت الفتيات عند القناة، أدركت سوكفيندر السبب الذي جعل السيّد فيربراذر يطالب بتغيير موقع المباراة. لم يكن هناك سواه هو لتشجيعهنّ عند خطّ الانطلاق، فيما فريق سانت آن لديه حشد من الصديقات يزعقن ويصفّقن ويقفزن، جميعهنّ ذات الشعر نفسه الطويل الأملس.

«انظرن!» زعقت كريستال، مشيرة إلى المجموعة وهنّ يعبرن. «إنّها ليكسي موليسون! تذكرين ليكس حين لكمْتُك واقتلعت لك سنّين؟»

كانت خاصرتا سوكفيندر تؤلمانها من شدّة الضحك. كانت مسرورة وفخورة بالسير خلف كريستال، وبوسعها أن ترى أنّ الأخريات أيضًا لديهنّ الإحساس ذاته. كان في الطريقة التي تواجه كريستال بها العالم ما يحميهنّ من تأثير العيون المحدّقة إليهنّ، والأعلام التي تخفق في الريح، والمبنى الفخم الشبيه بقصر خلفهنّ.

لكنّها لمست، حتّى لدى كريستال، التوتّر ذاته، فيما جلسن في قاربهنّ. التفتت كريستال إلى سوكفيندر التي كانت تجلس دائمًا خلفها. كانت تمسك شيئًا بيدها.

«جالب حظّ»، قالت وهي تريها إيّاه.

كان قلبًا بلاستيكيًا أحمر معلّقًا بحمّالة مفاتيح، وفي داخله صورة شقيقها الصغير.

«وعدته بأنّني سأجلب معي ميداليّة»، قالت كريستال.

«أجل»، أجابت سوكفيندر، وقد تملّكها مزيج من الأمل والتخوّف. «هذا ما سنفعله.»

«أجل»، أكّدت كريستال وهي تستدير إلى الأمام من جديد، وتخبئ حمّالة المفاتيح مجدّدًا في صدّارتها. «لن يقفن بوجهنا، قوم من الفاشلات» قالت بصوت عالٍ ليسمعها الفريق بكامله. «مجرّد مجموعة من العاهرات. سوف نهزمهنّ شرّ هزيمة.»

تذكر سوكفيندر الطلقة معلنة بدء المسابقة، والهتافات المتصاعدة من الحشد، وعضلاتها تشدّ وتصرخ. تذكر النشوة التي تملّكتها وهنّ يجذّفن في انسجام كليّ، ومتعة التركيز بجديّة كاملة بعد طول ضحك. كريستال قدّمت لهنّ الفوز. كريستال قضت على امتياز الفريق المنافس على أرضه. تمنّت سوكفيندر لو كانت تشبه كريستال، طريفة وقاسية، لا شيء يرهبها، دائمًا على استعداد للقتال.

طلبت من تيري ويدون أمرين، ووافقت عليهما تيري، لأنّها توافق على كلّ ما يطلبه منها الجميع، دائمًا. أوّلهما أن تُدفن كريستال والميداليّة التي فازت بها حول عنقها. أما الطلب الثاني، فكان في ختام الجنازة، وهذه المرّة بدا الكاهن مذعنًا عند إعلانه.

Good girl gone bad –

Take three –

Action.

No clouds in my storms . . .

Let it rain, I hydroplane into fame

Comin' down with the Dow Jones . . .

عبرت تيري ويدون منهارة الممرّ المكسوّ ببساط أزرق ملكيّ للخروج من الكنيسة، وعائلتها تساندها من الجانبين، فيما أشاح الحاضرون بوجوههم حتّى لا ينظروا في عينيها.



تتلقّى بلدة باغفورد نبأ وفاة الأربعينيّ باري فيربراذر بصدمة. صحيح أنّ باغفورد تبدو بلدة إنكليزيّة مثاليّة، بساحة سوقها المرصوفة بالحصى وديرها العتيق، إلّا أنّ خلف تلك الواجهة الجميلة، ثمّة بلدة تنهشها الحروب. حرب بين الأغنياء والفقراء. حرب بين المراهقين وذويهم. حرب بين الزوجات وأزواجهنّ. حرب بين الأساتذة وتلاميذهم... في الواقع، ليست باغفورد كما تبدو للوهلة الأولى.

هكذا، يصبح المنصب الشاغر، الذي خلّفه موت باري في المجلس البلديّ، العامل المحفّز لأكبر حرب ستشهدها البلدة.

من يفوز إذًا في انتخابات تُخاض بشغف ونفاق، في جوّ من الفضائح غير المتوقّعة؟

«رواية كبيرة عن بلدة صغيرة، لروائيّةٍ لا مثيل لها.»



ج. ك. رولينغ هي مؤلّفة سلسلة هاري بوتر الشهيرة، التي قُرئت وتُرجمت في العالم بأسره. «منصبٌ شاغر» هي عملها الأوّل للبالغين.

الغلاف: Mario J. Pulice
رسم الغلاف: Joel Holland
تصميم الخطّ العربي واقتباس الغلاف: P. Zoghbi
صورة المؤلّفة: © Wall to Wall Media Ltd
المصوّر: Andrew Montgomery

نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان
ISBN 978-9953-26-792-0
9 789953 267920